الإنجيليون المشيخيون
www.epc-egypt.org
موقع يهتم بنشر الدراسات التي تُعبر عن الفكر الإنجيلي المشيخي

إيماني

أو

قضايا المسيحية الكبرى

بقلم

القس إلياس مقار

دار الثقافة المسيحية

ص. ب ١٣٠٤ القاهرة

اسم الناشر: دار الثقافة المسيحية

ص. ب ١٣٠٤

اسم المطبعة: دار العالم العربي

٢٣ ش الظاهر ت٩٠٦٧٠٦

رقم الإيداع: ٢٧٢٣/ ٧٣

طبعة ثانية: ٢/ ٢٠٠٠/٣/٧

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

فهرست الكتاب

الإهداء

تقديم الطبعة الثانية

تقديم الكتاب للدكتور القس لبيب مشرقي

الفصل الأول – مقدمة إيماني

ضرورة إيماني

حقيقة إيماني

نوع إيماني

أثر إيماني

الفصل الثاني – إيماني بوجود الله

جواب الملحدين

جواب اللا أدريين

جواب المؤمنين

الإيمان بوجود الله وشهادة الطبيعة

الإيمان بوجود الله وشهادة التاريخ

الإيمان بوجود الله وشهادة العلم

الإيمان بوجود الله وشهادة الوجدان

الإيمان بوجود الله وشهادة الظهور المباشر

الإيمان بوجود الله وشهادة التجسد

الإيمان بوجود الله وشهادة الكتاب المقدس

الإيمان بوجود الله وشهادة الاختبار الشخصي

الفصل الثالث – إيماني بطبيعة الله

تعدد الآلهة

اعتقاد وجود الهين متضادين

إلوهية الكون

قوة مجهولة

الإيمان المسيحي بالله

الإيمان بوحدانية الله

الإيمان بشخصية الله

الإيمان بروحانية الله

الإيمان بالثالوث في الإله الواحد

عقيدة الوحدانية والثالوث في التاريخ المسيحي

عقيدة الوحدانية والثالوث في الكتاب المقدس

عقيدة الوحدانية والثالوث أمام المنطق والعقل

عقيدة الوحدانية والثالوث وحكمة التأمل

الفصل الرابع- إيماني بصفات الله

الله السرمدي الأبدي

الله غير المحدود

الله القوي والقادر على كل شيء

الله العالم والعارف بكل شيء

الله القدوس البار

الله الحق والعادل

الله الجميل الصالح الجواد

الله المحب الرحيم

الفصل الخامس -إيماني بلاهوت المسيح

الآراء المختلفة حول شخص المسيح

اللاهوت الكامل

الإله من دون الله

الناسون الكامل

اتحاد اللاهوت والناسوت في شخص المسيح

ما هي الأدلة القاطعة على لاهوت المسيح

الدليل المستمد من النبوات في العهد القديم

الدليل المستمد من أقوال المسيح ذاته

الدليل المستمد من شهادة التلاميذ

الدليل المستمد من صوت التاريخ

كيف يفسر اتحاد اللاهوت بالناسوت

هل يستساغ ويقبل عقلا اتحاد الناسون باللاهوت

الفصل السادس – إيماني بناسوت المسيح

المسيح الإنسان والتاريخ

المسيح والعصر الذي ولد فيه وعاش

كيف عاش المسيح على الأرض كانسة

المسيح الإنسان وكمال أخلاقه كانس

كمال المحبة والقداسة

كمال اللطف والصرامة

كمال الفرح والحزن

كمال الغيرة والصبر

المسيح الإنسان ورسالته

الفصل السابع – إيماني بالروح القدس

الروح القدس وشخصيته

الروح القدس وألقابه

الروح القدس وإعماله

الروح القدس وحلوله

سكنى الروح

ختم الروح

مسحة الروح

الملء من الروح

معمودية الروح

الفصل الثامن – إيماني بخليقة الله

الخليقة والتاريخ

الخليقة والكتاب

الخليقة والعلم

الخليقة والمعنى

الفصل التاسع – إيماني بكتاب الله

الكتاب المقدس والحاجة إليه

الكتاب المقدس وهدفه

الكتاب المقدس وقانونيته

الكتاب المقدس ووحيه

الكتاب المقدس وسلطانه

الكتاب المقدس وتأثيره

الكتاب المقدس والانتفاع به

الفصل العاشر – إيماني بقضاء الله

القضاء المحتوم

القضاء الجهلي

قضاء العلم السابق

القضاء الحكيم

الفصل الحادي عشر – إيماني بعناية الله

العناية ومدلولها

العناية وعظمتها

العناية وبرهانها

العناية والتفسير الخاطئ لبعض مظاهرها

العناية وصعوبة تصور بعض الناس لها

العناية والتمتع بها

الفصل الثاني عشر – إيماني بمعجزات الله

المعجزات ومعناها

المعجزات والاعتراض عليها

المعجزات وهل ما تزال باقية إلى ألان

الفص الثالث عشر – إيماني بملائكة الله

الملائكة ووجودهم

الملائكة وافتراقهم

الملائكة الإبرار

الملائكة الأشرار

الفصل الرابع عشر – إيماني بأصل الإنسان

الإنسان ووجوده

الإنسان وخلقه

الإنسان ورسالته

الفصل الخامس عشر – إيماني بسقوط الإنسان

الإنسان وامتحانه

الإنسان ومعركته

الإنسان وسقوطه

الإنسان وعقابه

الفصل السادس عشر – إيماني بخلاص الإنسان

الخلاص وحاجة الإنسان إليه

الخلاص ومعناه٤

الخلاص وضرورته في نظر الله

الخلاص وطريقه

الخلاص وقبوله

الخلاص ونتائجه

الفصل السابع عشر – إيماني بحياة المؤمن

المؤمن والحياة الجديدة

المؤمن والمركز الممتاز

المؤمن ووسائط النعمة

المؤمن والعالم

المؤمن وواجباته

الفصل الثامن عشر – إيماني بالكنيسة

الكنيسة وواصفاها الخاطئة

الكنيسة وحقيقتها

الكنيسة ونظامها

الكنيسة ورسالتها

الكنيسة وسلطانها

الكنيسة ووسائلها

الكنيسة وأمراضها

الكنيسة ومجدها

الفصل التاسع عشر – إيماني بالفرائض المقدسة

فريضة المعمودية

المعمودية ومفهومها التاريخي

المعمودية ومعناها المسيحي

المعمودية وكيفية ممارستها

المعمودية وأهمية ممارستها

فريضة العشاء الرباني

العشاء الرباني ومعناه المسيحي

العشاء الرباني ومعنى تناوله

العشاء الرباني وكيفية تناوله

الفصل العشرون – إيماني بيوم الرب

يوم الرب وأساسه التاريخي

يوم الرب وكيف قدسه المسيح

يوم الرب وكيف حل الأحد فيه محل السبت

يوم الرب وامثل الطرق لتقديسه

الفصل العشرون – إيماني بمجيء المسيح الثاني

مجيء المسيح الثاني وحقيقته

المجيء الثاني وخطأ تحديد وقته

المجيء الثاني والعلامات السابقة عليه

المجيء الثاني ونظرياته

المجيء الثاني والاستعداد له

الفصل الثاني والعشرون – إيماني بالأبدية

ماذا يحدث للإنسان اثر الوفاة

القيامة العامة وكيف تكون

الحساب والدينونة الأخيران

أبدية السماء والجحيم

الإهداء

إلى الشباب الحائر، في العقيدة والدين، والى النفوس المعذبة التي تجتاحها تيارات فكرية معارضة، والى الأذهان الضائعة التي تظن إن الدين يتعارض مع الحقائق العليا في الحياة، والى القلوب الظامئة إلى علاقة أعظم وأكمل مع الله، والى المشاعر التواقة إلى ما هو أسمى وأعلى وأنبل... في الوطن الكبير، الشرق العربي.. اهدي للجميع "إيماني "....

تقديم الطبعة الثانية

نفدت الطبعة الأولى من هذا الكتاب بأسرع مما كان يتوقع الناشرون والمؤلف، ولقي الكتاب ترحابا في الشرق العربي على نحو واسع كبير، وقد انتفع المؤلف بشتى الملاحظات التي جاءته وهو ولا شك دقة وأصالة الكثير منها، كما انه وضع نصب عينيه، وهو يزيد وينقح في الطبعة الحالية إن تأتي على صورة أفضل وأكمل، وقد قاده، ولا شك، في السنوات اللاحقة للطبعة الأولى، تدريسه مادة "علم اللاهوت" في كلية اللاهوت الإنجيلية بالقاهرة، ومحاولته متابعة أحدث الدراسات الدينية والعلمية في هذا المجال، والناشرون المؤلف إذ يشكرون الله على ما لكيته الطبعة الأولى، يأملون إن تأتي هذه الطبعة الثانية، من كل وجه، على نحو ابعث على الرضا، وأعمق في التأثير واقرب إلى الكمال!!.

تقديم الكتاب: بقلم الدكتور القس لبيب مشرقي

١- الكاتب

لا اذكر متى عرفت كاتب كتاب "إيماني ". يخيل أني قد عرفته منذ فجر التاريخ. متى ابتدأ يكون لقلمه اثر؟ أظن انه ولد والقلم في يده. فاني لا اذكر إني عرفته إلا كاتبا..قرأت له كتابا مترجما موضوعه "الطفل وديانته" وبعد ذلك قرأت له "على جبل الشركة" ثم قرأت له" نساء الكتاب المقدس" وكان إعجابي بالكتاب عظيم جدا لدرجة أني قلت في تقديمي له، انه لن يتمكن من إخراج كتاب أفضل.فقد بلغ الذروة. وقد قلت أيضا إن شبابه كفيل بالقوة التي تدفعه للأمام. والتمست من السنودس إن يضمه إلى أسرة الهدى.. وكتب في الهدى، وكان لكتابه طابع مخصوص. وفي "نحو الحق" تبصر جواهر ثمينة غنية بالمعاني. وفي نفس الوقت كان يكتب في المرشد المدرسي آيات من الأدب الديني لا تزال إلى الآن فخر القارئين.

واهتم في الآونة الأخيرة بإخراج كتاب "إيماني ". كان قد سبق ونشر في "الهدى " شيئا عن العقيدة تحت عنوان "إيماني". وقد طلبت منه أن يكمل هذا البحث الكبير. وظل يبحث وينقب ويكتب حتى اخرج هذا الكتاب!

٢- الكتاب

وكتاب "إيماني"" من أفضل ما كتب في هذا الباب في كل العالم. ولعل كتابا نظيره في اللغة العربية لم يظهر. انه كتاب فريد. قد تميز بكل مميز الكتاب الثمين. فهو كتاب بحوث عميقة جدا. غاص الكاتب في بحار "اللاهوتيات" قرأ كتابة جميع اللاهوتيين الذين كتبوا في الإيمان المسيحي.اللاهوتيين الحداثى والقدامى، الذين ينتسبون إلى الكنائس القديمة والكنائس المصلحة. وكان أمينا في نقل خلاصة البحوث. كانت بحوثه عميقة قوية أمية متسعة. بدا معنا من فجر المسيحية بل من قبل المسيحية إلى اليوم. لم يغفل القديم، لكنه سار بنا إلى أخر ما ظهر من الحديث. بدا باللاهوت الذي ظهر في القرن الأول وانطل قفر كب البحوث إلى إن وصل إلى كارل بارت وما بعد كارل بارت. نقل لنا أراء المتحفظين بل أراء من دعوا "بالرجعيين" وناقش أراء "العصريين" وفند أراء الناقدين المكذبين. سلط نور الكتاب المقدس ونور المنطق على كل ما قيل.

على إن كتابا يهتم بالبحث العلمي والدراسة اللاهوتية يتعرض في غالبية الأحيان إلى جمود الأسلوب، فلا يرغب القارئ العادي إن يقترب منه بل إن مادته كفيلة بان تصد الأديب عن قراءته، ذلك انم الأسلوب الجميل يهتم على الأغلب بأخف جزء من الحقائق حتى يتمكن من إرسال نور الخيال عليها وصياغتها بما يجعل لها بريقا أخاذا، وانك

لتلاحظ ذلك في الفرق بين كتب الأدب وكتب العلم، وبين كتاب القصة وكتاب البحث. أما كاتبنا فقد استطاع إن يسخر قلمه لخدمة بحثه فجاء بحثه قطعة فنية رائعة من الأدب الرفيع. ولعل سبب ذلك انه ضم إلى دراساته اللاهوتية دراسته للقانون في كلية الحقوق فشبع حياته بالمنطق، وضم إلى هذين قلمه الذي تدرب على الكتابة سنين طوالا، حتى ليخيل لك إن قلمه يسير وحده يكتب الروائع دون إن يدري صاحبه. عم فان كاتب "إيماني" ليس شخصا واحدا بل ثلاثة أشخاص "اللاهوتي والقانوني والأديب" وإذ تحاول إن تنسب الفضل في

الكتاب لأي من الثلاثة تعز عن ذلك فقد اندمج الثلاثة معا. وإذ ذاك تقرا بحثا لاهوتيا وفي نفس الوقت تقرا بحثا لاهوتيا وفي نفس الوقت تقرا بحثا منطقيا.. وهو على ذلك قطعة من الفن الرفيع. كان من اللازم إن يكتب هذا الكتاب " بهؤلاء الكتّاب الثلاثة" فان قضاياه لاهوتية وهي في نفس الوقت "قضايا" تحتاج إلى القانوني" وينبغي إن يبسطها قلم الكاتب الأديب.

٣- حاجة الكنيسة

وهذا الكتاب يسد حاجة بلغ الصراخ لأجلها إلى عنان الجو. عندما قامت المسيحية كتب رجالها يبسطون قواعدها وأسسها وبقيت كتاباتهم تراثا للأجيال. ثم هبطت حماسة الكتّاب إلى إن جاءت القرون الوسطى حين هب رجال الإصلاح وكتبوا للشعب الذي جهل كل شيء عن الكتاب وعن العقيدة.

وفي بلادنا وفي الشرق العربي.. لست اذكر بدءا قيام الكنيسة الإنجيلية. ولكن القي نظرة الآن على الشعب المسيحي وعلى الشعب الإنجيلي على وجه الخصوص.. أنهم لا يعرفون شيئا عن أسس إيمانهم. لقد أهملت الكنيسة واجبها نحو الشعب، بل إن الوعاظ اكتفوا بإلقاء المحاضرات الأدبية على المنابر يوم الأحد. غالبية الشعب لا يعرفون شيئا عن الثالوث أو لاهوت المسيح أو الكفارة أو الروح القدس.وهم لا يعرفون شيئا عن الفرائض المقدسة. هذا في نفس الوقت الذي يقوم العالم فيه بغمر "السوق" بكتابات الكفر والإلحاد بحجة نشر الثقافة الجامعية. وقد هوجمت الكنيسة الإنجيلية من أبنائها ومن غير أبنائها، والكنيسة تخشى إن تجيب لأنها تظن إن التعليم العقائدي يدخل في باب الجدل الممقوت، ويضطر إلى مهاجمة عقائد الآخرين، وهم في ذلك مخطئون. إن التعاليم العقائدية لا يجوز إن تدخل في الجدل الممقوت وبالتالي يتحتم إلا إن تهاجم عقائد الآخرين. ولكنها

إذ تسير في طريقها الايجابي الكتاب ويمكن حق التعاليم الصحيحة الكتابية وهذا ما فعله الكاتب في هذا الكتاب. يمكن لكل مسيحي إن يقرا هذا الكتاب ويمكن لغير المسيحي إن يقراه. انه يقدم الحقائق المدعومة بالوثائق في روح رياضية راضية. انه لا يتهرب من تقديم الحقائق، وإنما يقدمها بكل لياقة بدون كبرياء وبدون تحد. وإنه يقدمها ويتمسك بها!

إن هذا الكتاب يجيب على غالبية الأسئلة التي يسألها الشيخ الكبير وللشاب الجامعي ويجيبها باللغة التي يفهمها الأول ويسر بها الثاني وقد وقف الكاتب بين الاثنين، فانه وقد بلغ الحافة الثانية للشباب يمد يده الواحدة للشيوخ ويمد يده الثانية إلى الشباب ويتحدث إلى الاثنين حيث يفهمه الاثنان.

وبعد

فاني، لن أقول كما اعتدنا إن نقول، لن أقول أهنئ الكاتب بكتابه أو أهنئ الشعب المسيحي بهذا الكتاب. ولكني أقول إني أرجو إن يملا هذا الكتاب شيئا من الفراغ في البنيان المسيحي. وان يكون لبنة في جدار الحق. وانتظر إلا يقف الكاتب عند "الإيمان" بل يسير قدما نحو "الأعمال " وأنا أصلي إن الله يحفظه مجتهدا مثابرا تقيا.متواضعا.ا..

صديقك القديم

القس لبيب مشرقي

الفصل الأول: مقدمة إيماني

في صورة فوتوغرافية أخذت من الجو لمدينة اوك ردج، التي شادتها أمريكا خصيصا لصنع القنبلة الذرية، تظهر بوضوح في ظاهرة المدينة، وفي المقدمة منها كنيسة جميلة رائعة المنظر شاهقة البنيان، وإذ أبصر احدهم هذه الصورة، علق عليها في احد الصحف الأمريكية الواسعة الانتشار بالقول: "ينبغي أن نضع الكنيسة في المقدمة من صورة العالم، إذ رمنا إلا تدمرنا جميعا القنبلة الذرية!!" وغير خاف أن الرجل لم يقصد بالكنيسة مجرد مبانيها العظيمة ذات الأبهة الواسعة والقباب العالية، والأبراج المرتفعة، المزدانة بصلبانها، المتألقة الشامخة في الجو، بل قصد بها كونها مركز "العقيدة المسيحية" و "ميدانها" العقيدة المتغلغلة في أحشاء التاريخ، والمنتقلة مع مركب العصور، والمتهادية مع كر الأجيال، والتي صاغت وما زالت تصوغ أعظم الإبطال، وامثل الشخصيات، وأنبل المبادئ، وأجمل السير، حتى يصح أن نقول في معنى اشمل وأدق مما قال الرجل: "ينبغي أن نضع الإيمان المسيحي في المقدمة من حياة العالم، إذ رمنا، لا أن ننجو من القنبلة الذرية فحسب، بل أن نحيا أعظم وأجمل حياة على الأرض!!".

١- ضرورة إيماني

اجل فالإيمان المسيحي ضرورة رائعة حاسمة لمن يطلبون الحياة في أروع وأمل وأبهج ما يمكن أن تكون عليه الحياة... ولو أتيح للإنسان أن يدرك الحياة من جوانبها جميعا، لأدرك أن هذا الإيمان هو أول وأضخم ضرورة له على الأرض، ولسهل عليه أن يتخلى عن أمس الضروريات، قبل أن يتخلى عنه، إذ هو الضرورة الأولى قبل ضرورة الشمس والنور والهواء والماء، وكل مقومات الحياة جميعا!!؟ لم يصح روبرت ج. انجرسول الملحد الكبير وهو يبكي أخاه، عندما مات بالقول: "أن حياتنا تجتاز واديا مظلما مخيفا باردا بين أبديتين رهيبتين، وعندما نرفع أصواتنا في اتجاه السماء، لا نجد إلا صدى هذه الأصوات يرتد ألينا".. وهل تخل احد عن هذا الإيمان وعبث به، إلا وكان كانجرسول وأفينا.من غير المؤمنين، أشبه بالدواب المتعب في صحراء الحياة، أو الملاح التائه في محيطها الواسع!!

أن الإيمان المسيحي ضرورة تتطلبها مقومات الطبيعة البشرية فينا.. فالعقل يطلبه والمشاعر تبحث عنه، والإرادة لا تفتأ تجد أثره!!

فالعقل الذي يفرق بيننا وبين الحيوانات الأخرى، العقل الذي تشهى منذ فر الإنسانية، ثمره "شجرة معرفة الخير والشر". والذي ما يزال طوال أجيال التاريخ في صراع دائم مستمر مع المجهول. هذا العقل لا يمكن أن يسكت أو يهدا في عالم امتلأ حوله بالإسرار والعوائص، ومن ثم فهو دائم البحث والتساؤل يصرخ ذات الصخرة التي جاءت على لسان ميتا في قصة:

"الإخوة كورمازوف" لديستوفسكي والتي تقول: "لست في حاجة إلى الملايين، ولنني في حاجة إلى من يجيبني على أسئلتي!!". وليس العقل وده في الإنسان هو الذي يتطلع إلى التوغل وراء إسرار المجهول بل" المشاعر" أيضا، ولا نقصد بالمشاعر، تلك الغرائز الدنيا التي يشترك فيها الإنسان والحيوان، كالجوع والألم والخوف والحنين واللذة وما أشبه من انفعالات، بل تلك المشاعر التي ينفرد بها الإنسان، والتي تسعى به دائما إلى الارتقاء والاستعلاء عن حام الدنيا وغرورها وأباطيلها، والتي هي قبس من نور الله ونسمة القدير فيه، اللانهائية التي لم يستطع أن يغطيها ويدنها تحت نهايته، ولو أن وزراء المال في العالم الحديث تكاتفوا مع تجار الأثاث والرياش والأطايب، لما أمكنهم أن يحققوا السعادة لإنسان واحد من ماسحي الأحذية".. هذه المشاعر جائعة وظمأى على الدوام، إلى ما هو أكثر من طعام الأرض وشرابها المادي، إذ هي جائعة إلى الطعام والشراب الروحي!!..

والى جانب العقل والمشاعر يجد الإنسان بإرادته في البحث عن حكمة وجوده على الأرض، ورسالته فيها، فهو كائن حي حر مسئول، تتشعب إمامه الطرق، وتتنازعه الأهواء، وقد يشترك في صراع عنيف مع الطبيعة أو الآخرين أو نفسه نومن ثم فهو دائب السؤال: من هو!!؟ ولماذا جاء إلى الأرض!!؟ وكيف جاء!!؟ وكيف يمكنه أن يحيا أكمل حياة وأمثلها!؟ ما إلى ذلك من أسئلة ترهقه، وتلح عليه، وتضغط على قواه جميعا، حتى يجد لها جوابا في الإيمان المسيحي!!..

٢- حقيقة إيماني

إما أدركنا ضرورة هذا الإيمان، فلا محيص عن التوقف قليلا لنسال: ما هو هذا الإيمان؟ وما معناه.. اهو مجرد مجموعة من الأفكار والتعاليم والمبادئ، احتواها كتاب الله، وتداولنها العصور والأجيال، كما تتداول غيرها من العلوم والفلسفات؟... أم هو شعور وجداني يهف على الروح البشرية، ويطرق أوصال القلب فيها، فيكون أشبه بالحب والحنان والرقة والجود، وما إلى ذلك من عواطف تتملكنا وتهز كياننا دون أن نملك لها وصفا و تحليلا؟... أم هو قوة حية فعالة تطبع إعمال الناس، وتوجهها حيثما شأت وأنى تريد؟ اغلب الظن أنها الثلاثة معا!! أو كما وصفه احدهم بالقول: "انه اقتناع وإحساسا وولاء".. فهو أول كل شيء اقتناع امتلأ به الفكر الحي المستنير، الفكر الذي لا يتبع خرافات مصنعة، بل هو مستعد لمجاوبة من يسأله عن سبب الرجاء الذي فيه، ومن ثم عاش الإيمان المسيحي على طوال الأجيال دون أن يرهب أو يفزع أو يرتاع من أن يطرح على بساط البحث أو النقد أو الجدل، بل ما من إنسان ناقشه في صدق وهدوء وإخلاص وعمق وأناة دون أن يخضع له أو يستجيب لندائه. خير مثال على ذلك جنرال "ليو ولاس" فبدا يقرا الكتاب المقدس سنين وشهورا، وتطورت الفكرة عنده من إعجاب بالمسيح المثالي إلى ولاء وتعبد، وهكذا كتب كتابه العظيم،الذي نعرفه جميعا إلا وهو كتاب "ابن حور" بعد أن اجتذبه الفكر المخلص والرأي السديد والحجة الصادقة إلى الإيمان المسيحي!!..

على أن الاقتناع وحده لا يجدي أو ينفع إذا اقتصر على الفكر أو العقل. إذ هو أشبه بإيمان "هتي سوريل" الذي تصفه الكاتبة جورج اليوت بالقول: "أن هتي على غرار الكثيرين من الناس، الذين لهم أجداد وجدات طيبون، والذين حفظوا أصول الإيمان، وعمدوا وألفوا الذهاب إلى الكنيسة كل يوم احد، ومع ذلك فمن الوجهة العملية ليس للفكر أو الشعور المسيحي أية قوة في حياتهم أو ادني يقين عند موتهم... ومن ثم كان لابد أن يصحب الفكر فيه الشعور الغمر والإحساس العميق وكان لابد أن يتمشى فيه العقل مع وجيب القلب وإحساس الفؤاد.. وليس أدل على ذلك من الدين المسيحي دين فكر وترنم، أو دين عقل وقلب له منطق الاثنين معا، وألبس للقلب في بعض المواطن منطق قد لا يعرفه المنطق ذاته كما يقول بسكال الفيلسوف؟!..

مع أن الإيمان المسيحي مع ذلك أكثر من مجرد اقتناع وإحساس، إذ هو ولاء تعبد لشخص المسيح، أو كما لاحظ احد الربيين اليهود، إذ قال: "أن الفرق بين اليهودية والمسيحية إن الأولى دين فكر بينما الثانية دين شخص".. وقال السيد في معنى اصح وأعمق: "ليس كل من يقول لي يارب يارب يدخل ملكوت السموات، بل الذي يفعل إرادة أبي الذي في السموات. كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم يارب يارب أليس باسمك تنبأنا وباسمك أخرجنا شياطين وباسمك صنعنا قوات كثيرة. فحينئذ اصرخ لهم: إني لم أعرفكم قط اذهبوا عني يا فاعلي الإثم " (مت ٧: ١٢- ٢٢)...

٣- نوع إيماني

فإذا انتهينا من هذا كله، علينا أن نسال ما هو نوع الإيمان، الذي يتعين على الإنسان أن يمسك به كما يمسك بالحياة نفسها، انه أولا وقبل كل شيء ليس مجرد "الإيمان النقلي" الذي ينقله الإنسان عن آباءه وأجداده، كأن يعد أكثر من عشرات الإباء والأجداد الذين عاشوا وماتوا مسيحيين، وكان بينهم كثيرون من إبطال المسيحية ذاتها، أن العلاقة بين الإنسان وربه، ليس مجرد علاقة وراثية تاريخية، وان كان التاريخ يلعب دورا من أهم أدواره أو أمجاده، وكاتب الرسالة إلى العبرانيين، يبين دور التاريخ في ذلك، إذ انك عندما تقرا الإصحاح الحادي عشر من الرسالة،الذي فرده الكاتب لإبطال الإيمان، الذين كتبوا أجمل قصة يمكن أن يكتبها إنسان في موكب الحياة والتاريخ... في مدينة جنيف يوجد جدار مشهور يعتبر من معالم المدينة، ويمر به كثيرون من السائحين والزائرين لها، والجدار مرسوم عليه أعظم رجال الإصلاح البيورتاني، من رجال الدين، أو السياسة الذين اخضعوا نفوسهم لسلطان الإيمان وتأثيره، والمار بهذا المكان عندما يقف في لحظة صمت أو سكون، تصغر ضوضاء الدنيا لديه، ويدرك قيمة الحياة في دخول الإنسان إلى العالم وخروجه منه، وان ما ألف الناس أن يجروا وراءه أو يسعوا في سبيله من مادة أو شهوة وقتية عابرة، مهما كانت قوة إغرائها أو لمعانها، ليست إلا زبدا أو باطلا أو قبض ريح، في الوقت الذي تضحي فيه كل دقيقة من أعمارنا تدفعنا إلى علام الأبد من غير عودة أثمن من ذهب الدنيا بأكملها.. أن الوقت في الدنيا و اغلي ما في الوجود، واغلي ما في هذا الوقت الإيمان الذي يقدم الخدمة لله والإنسان في الأرض!!..

على أن الإيمان إذا كان نقليا أو مجرد انتساب إلى الإبطال المسيحيين دون أن تجدد سيرتهم وحياتهم، فهو في نظر الله والحقيقة، حجة على الإنسان، لا حجة له، وهو شهادة عليه، لا شهادة معه،.. والمسيحية الحقة لا تعرف مجرد الإيمان النقلي.. كما أن المسيحية أيضا لا تعرف مجرد "الإيمان النظري" أو العقلي.. فالمسيحية ليست عقيدة نظرية يكفي أن يعرفها أو يتمثلها الإنسان لتكون كما له أمام الله الناس، لقد سخر مارك توين في إحدى قصصه من رجل لأهم له كل اليوم إلا أن يجثوا ويصلي، دون أن يفعل شيء أخر على الإطلاق، وكان يصلي في العادة على مقربة من ساقية، واقترح الكاتب أن يربط الرجل إلى الساقية بحبل، حتى إذا قام أو ركع في الصلاة، يدير الساقية لتخرج ماء، والسخرية كما نرى لاذعة، إذ أن الدين النظري أو الكلامي أو العقلي ليس له ادني قيمة أمام الله إذ تجرد من الأثر أو الخدمة العملية!!.. ومثل هذا الكلام يمكن أن يقال للذين يحفظون قانون الإيمان غيبا أو أدعيات أو صلوات أو ترانيم أو ما أشبه.. ".. كما أن "الإيمان الوجداني" أو العاطفي، لا ينفع الإنسان شيئا، كمن يتأثر من رسالة الحق وينفعل معها بعض الوقت، فهو كما شبه السيد المسيح بالمزروع على الأماكن المجرة الذي يسمع الكلمة وحالا يقبلها بفرح ولكن ليس له أصل في ذاته بل هو إلى حين... مثل هذا الإيمان لا يلبث أن يتعثر، عندما تنتهي النشوة. وتسكن العاطفة، ويواجه المرء الحياة بما تحفل من تعب وألم وجهد وضيق!!

فالإيمان المسيحي يرفض مجرد هذه الأنواع الثلاثة،من صنوف وإشكال الإيمان "الإيمان النقلي" أو "الإيمان العقلي" أو "الإيمان الوجداني" ليؤمن بما هو أكثر "الإيمان الخلاصي" الذي يخلص الإنسان ويستولي على الحياة تاريخا وعقلا وحسا وإرادة وكيانا"..

٤- اثر إيماني

هذا هو الإيمان العظيم، ذو الفعل الحي والأثر الثوري في حياة الإفراد والشعوب والأجيال قاطبة، بل هذا هو الإيمان الذي كتب صفحات التاريخ واستحق بذلك شهادة الخصوم والأصدقاء والأعداء والمريدين على حد سواء!!.. الم تجزع ورج اليوت في أخريات حياتها، عندما تحدث إليها "ف. ب. ه. مايرز" في أمسية من أمسيات مايو في إحدى حدائق كامبردج، عن الله والخلود والواجب، كالقوى الناهضة بالقلب البشري!!. إذ عادت بذكراها إلى إيمانها المحطم المفقود على ركام الحياة!!. وألم تقل مدام اكرمان إحدى أميرات الفكر الغربي: "أن الإنسان بغير إنجيل بطل رواية محزنة يمثلها في كون مظلم، خاضعا لقوانين عمياء، أمام طبيعة مهملة، وفي النهاية يبلغ البلى والعفاء".. تنظيم الحياة الإنسانية. من وجهتي الفكر والعمل،فإنما ينصب هذا الأمل على الديانة وحدها!!".وألم يكتب تورجنيف الروائي الروسي المشهور إلى الكونتيسة لامبرت عندما فجعت في ولدها قائلا: "أن من له إيمان له كل شيء، ولا يمكن أن يفقد شيء، ومن لا إيمان له لا شيء له على الإطلاق.. وأحس هذا في عنف وشدة إذ إني على وجه الخصوص وللأسف ممن لا إيمان لهم! ".. اجل فمن غاسلة الثياب التي أبصرها وير الشاعر الغربي والذي تمنى أن تتبادل وإياه ثروته وعلمه وفنه وبإيمانها الوديع الساذج، إلى بسكال الفيلسوف الذي صاح: "الست استحي أن اعترف بالمسيح سيدي، ولن أتراجع عن الإيمان به تحت ضغط القوى الدافعة التي تدفعني إلى ذلك".. ومن أسقف الإسكندرية الذي وصف ما فعله المسيح به والمسيحيين الأوائل إذ قال: "حوّل غروب شمسنا إلى شروق".

وإذا كان العصر الحاضر قد اتسم بسمة العصر الصناعي من الوجهة المادية، كما انه العصر الذي تتصارع فيه قوى الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية والديمقراطية من الوجهة السياسية، والعصر الذي ينضح بالشهوة والمجون والمتاع اللذة من الوجهة الاجتماعية، فهو عصر الحيرة والقلق والتساؤل والشك من الوجهة الدينية!!

وإذا كانت المكتبة الغربية قد أخرجت ما لا يحصى أو يعد من الكتب المتصلة بالعقيدة أو الإيمان المسيحي، فان المكتبة الشرقية أو بالأحرى العربية فقيرة فقرا ملحوظا في هذا الشأن الطير، إذ ليس فيها من المراجع أو المؤلفات المؤسسة على نهج علمي منظم ما يغني أو يشفي غليلا. وإذا استثنينا نظام التعليم في علم اللاهوت، الذي كتب في أواخر القرن الماضي، وبعض الكتب القليلة الأخرى، التي كتبت مؤخرا، فإننا لا نكاد نعرف إلى اليوم على وجه الإطلاق كتابا واحدا حديثا جامعا من هذا النوع!!.

ومع أن كتاب "إيماني" اصغر جدا من يكون مرجعا نهائيا كاملا في هذا الموضوع، إذ ليس هذا فوق مقدور كاتبه إلى ابعد حد فحسب، بل لعله أيضا فوق مجهود المكتبة العربية في استعدادها الراهن.. غير أن الكتاب مع ذلك في عرف صاحبه ليس إلا محاولة جدية مخلصة منظمة صادقة في هذا السبيل، حرص الكاتب فيها أن يرسم خطوط فيها خطوط العقائد المسيحية وجه عام، والعقائد التي تتصل بمشاكل العصر بوجه خاص. كما حرص أن يدون فيها ليس فقط دراساته المتعددة الشاقة المضنية من هذا القبيل، بل مشاعره مخبرته وإيمانه أيضا... ومن ثم أطلق عليه "إيماني" على وجه التخصيص والتحديد، وغاية ما يرجوه أن يجد فيه القارئ من النفع والفائدة واللذة والمتاع ما يجعله يأخذ موضوع صاحبه، فيدعو الكتاب لنفسه

أيضا "إيماني" عن صدق وحق ويقين وشعور.. ورئيس الإيمان ومكمله يسوع يسدد ما يمكن أن يكون قد شابه من قصور أو اعتراه من ضعف أو نقص، انه السميع المجيب.أمين...

الفصل الثاني : إيماني بوجود الله

هل الله موجود؟ هذا هو السؤال الذي لم يعرف التاريخ سؤال أهم منه وأعظم وابعد أثرا وخطرا.. أليس هو سؤال العصور كلها، منذ فجر الإنسانية حتى اليوم والى أخر الدهور!؟.. أليس هو السؤال الملح الضاغط، الذي يضغط على الذهن البشري ويلح عليه إلحاحا قويا عميقا غلابا لا سبيل إلى تجنبه أو تجاهله أو التهرب منه!؟. بل أليس هو السؤال العبقري الذي قرر وحده، ومازال يقرر على مر الأجيال، مصير البشر جميعا على اختلاف أجناسهم وشعوبهم ومشاربهم ومدى ما بلغوه أو وصلوا إليه من علم ورقي وتقدم وحضارة وثقافة واجتماع!؟ بل أليس هو السؤال المبهج والمربح الذي يهفو إليه النفس وتحن المشاعر ويجد القلب فيه أمل النور والإشراق والبهجة والسعادة والشبع والروي في عالم الأحزان والمآسي والآلام والمتاعب!؟. بل أليس إلى جانب هذه كلها هو السؤال الجوهري الهام الذي ينبغي الإجابة عليه قبل مناقشة أي نوع من درجات الإيمان، إذ إن الإيمان بالله هو أساس كل إيمان وحجة كل إيمان!؟.

ومن البديهي إن أجوبة الناس على هذا السؤال مهما اختلفت وتباينت لا يمكن أن تخرج عن جواب من ثلاثة. واغلب الظن أن هذه الأجوبة ستظل على الدوام ظاهرة الأجيال والعصور كلها، إذ إن الإيمان ليس للجميع!. فهنا جواب الملحدين أو جواب الذين لا يؤمنون بوجود الله، وقد تختلف درجات الإلحاد وتتنوع فيما بين ملحد معاند مباه بالحادة مثل "شلي" الذي كتب مقال اسمه ذات مرة في فنادق منتفارت: "ديمقراطي، محب للإنسانية، ملحدا!" وكأن ما كتب سجل فخر أو مجد أو شرف.إلى ملحد ساخر هازل حائر كعمر الخيام الذي لم يرى في السماء فوقه سوى صحن مقلوب لا يستطيع أن يرفع إليها يدا أو يلتمس عونا. إلى ملحد حزين باك كماثيو ارنولد الذي اغرق إشعاره بالدموع حزنا على إيمانه الضائع وعقيدته المفقودة. هؤلاء وأمثالهم من القدماء والمحدثين ينعتهم كتاب الله بنعت واحد على اختلاف حظوظهم من العلم والمعرفة أو الجاه أو النفوذ أو السلطان إذ يقول: "قال الجاهل في قلبه ليس اله" (مز ١٤: ١). وذلك لأنهم يستندون في إلحادهم إلى سند سلبي محض، قوامه الإنكار على طول الخط دون مبرر معقول أو حجة واضحة. ولا نعرف أن احد منهم حاول أن يبرر عدم إيمانه تبريرا ايجابيا سليما، كأن يذكر الأدلة المادية أو العلمية أو الوجدانية القاطعة التي ثبتت لديه، التي تؤكد له عدم وجود الله وتدحض أقوال المؤمنين بهذا الصدد، وتعفيه هو من هذا الإيمان، أو تسيغ له رفضه أو إهماله أو التنكر له!..

ثانيا – جواب اللا إداريين

إما الجواب الثاني فهو جواب اللا أدارين، أو الذين وقفوا في الوسط بين الإلحاد والإيمان، فلم يقطعوا بهذا أو ذاك، أو خرجوا عن لا ونعم بلا ادري، أو اجبوا على السؤال بالامتناع عن الجواب فكانت مأساتهم إن ازدحمت رؤوسهم بالشك وعواطف القلق، وإرادتهم بالفوضى، ومبادئهم بالاضطراب، وإذ فقدوا في حياتهم دوافع الإيمان وتأثيره كانوا اقرب إلى الإلحاد منهم إلى الإيمان، واتسمت أعمالهم بالانحدار والتقهقر والفشل، وانحط فيهم كل إحساس ديني أو وازع أدبي ويكفي أن

نشير هنا إلى قول ديفيد هيوم: "أن الديانة في كل أبوابها لغز وسر لا يحل، وجل ما نحصل عليه من البحث في هذا الموضوع هو الشك وعدم التأكد والتوقف عن الحكم". وألم تحول اللاإرادية أو الشك هيوم نفسه لا إلى نبذ الديانة بل إلى نبذ كل حقيقة مادية أو غير مادية على الأرض، إذ اعتقد أن الكون بجملته ما هو إلا صورة خيالية وهمية!.

الحقيقة إن اللاإرادية تسف وتنزل بالإنسان إلى مرتبة الحيوان، وتقتل فيه كل شعور أو إحساس بالامتياز والكرامة والمسئولية، إذ تصنع له من الجهل فضيلة، ومن القصور معرفة، ومن الامتناع عن مواجهة غير المنظور أو المدرك إعفاء من التبعية أو المسئولية. وذلك غاية ما يصل إليه الإنسان من انحدار وتدهور وسقوط!.

ثانيا جواب المؤمنين

إما الجواب الثالث فهو جواب المؤمنين، أو جواب الذين يقفون ويعلنون إيمانهم بوجود الله، بكل ثقة ويقين ووضوح وثبات، ومع أنهم لا يستطيعوا أن يخضعوا هذا الإيمان للتحليل المادي أو العقلي أو الحسي المجرد، إذ فضلا عن إن الله روح وبالتالي لا يمكن أن يدرك إدراكا ماديا محسوسا عقليا دون أن يناقض هذا طبيعة الله، كما يناقض في الوقت ذاته طبيعة المادة أو الحس أو العقل التي ينبغي أن تكون اكبر من ذات الله حتى تستطيع أن تدركه إدراكا كافيا كاملا نهائيا!. الم يقل الرسول بولس : "لأننا بالإيمان نسلك لا بالعيان" (٢كو٥: ٧). وألم يصف كاتبا الرسالة إلى العبرانيين الإيمان بالقول: "هو الثقة بما يرجى والإيقان بأمور لا ترى" (عب١١: ١). ومع هذا كله إن جواب المؤمنين إذ يتسلح بالإيمان إلى جاني ما يستخلصه من قرائن مادية أو حسية أو عقلية تدعم هذا الإيمان، إنما يتسلح بما هو اقوي وابعد أثرا من المادة أو الحس أو العقل المجرد. إذ تسلخ كالحقيقة العظمى التي ينبغي أن تتمشى جنبا إلى جنب مع هذه كلها عند استكشاف إسرار الوجود والكون والحياة البشرية!. وإلا فهل أمكن للإنسان إن حقائق ما وراء الطبيعة والجاذبية والمغناطيسية والحياة وما أشبه دون أن يسلم بان هناك مناطق مجهولة فيها لا سبيل إلى ارتيادها. أو التوغل فيها من غير الإيمان!؟ عندما سئل برتراند راسل الفيلسوف الانجليزي :"هل يفهم تماما النظرية النسبية لاينشتين؟ وهل يسير مع صاحبها الطريق كله؟". أجاب: "إما عن الشطر الأول من السؤال فلا، وأما عن الشطر الثاني فنعم!! " ويقصد بذلك انه وان كان عاجزا عن إدراك هذه النظرية العظيمة المعقدة إدراكا كاملا. فان ذلك لا يمنعه من متابعة صاحبها والثقة به في منهج تفكيره، ولعل هذا ابرع وأدق لفظ للإيمان المسيحي، الذي وان كنا لا نستطيع سبر أغواره وأعماقه، فان هذا لا يمنع من متابعته والتمشي في أثره.

وإذا كان من المحال على الإنسان أن يصل إلى أخر شوط في طريق الإيمان بوجود الله، فلا اقل من أن يسير في هذه الطريق بعض الأشواط وسيكشف في سيره إن أجلا أم عاجلا ما قيل قديما: "إن الفكر عن الله كالشمس في كبد السماء لا يقدر احد أن يحدق فيها بعنه، وان كان من اليسير أن يرى في ضوءها كل شيء!!". وها نحن سنقف من بعض القرائن والبراهين، التي ألقت وما تزال تلقي على مر الأجيال أضواء قوية باهرة على هذا الإيمان.

١- الإيمان بوجود الله وشهادة الطبيعة

والطبيعة أول وأقدم شاهد على وجود الله ويكفي أن ترفع نظرك إلى فوق. أو تسرح طرفك في الفضاء الواسع لتهتف مع داود: "السموات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه" (مز ١٩: ١) وتصيح مع بولس : "لان أموره غير المنظورة ترى منذ خلق العالم مدركة بالمصنوعات قدرته السرمدية ولاهوته" (رو ١ :٢٠) وتغني مع ملتون : "بناء هذا الكون بناؤك، وهو

عجيب الجمال، فكم أنت في ذاتك عجيب". وتقول مع جوته: "إن الطبيعة هي النسيج العظيم الذي حاكه الله في منسج الزمن". وتترنم مع يوناثان ادوارس الذي يعدونه من أعظم العقول التي ظهرت في التاريخ الحديث، إذ رأى الله والمسيح خلف المخلوقات جميعا فانشد قائلا: "لقد بدأ جلال الله البارع لي في كل شيء، في الشمس وفي القمر والنجوم والطبيعة كلها.. لقد خلق ابن الله الخليقة كلها لهذا الغرض العظيم، أن يظهر بكيفية ما بواسطتها بعض أمجاده وعظمته، فحين نبتهج بالروض أو النسيم، نرى إحسانه الحلو وجوده الرقيق. وحين نرى الزهرة الفيحاء أو الزنبقة المكتسية بالثلوج نرى محبته وطهارته ونقاوته، وما الأشجار الخضراء والطيور الشادية إلا انبثاق فرحه العميق ورقته النهائية!.. وما الأنهار البلورية المتدفقة إلا وقع أقدام عطفه ونعمته وجماله! وهل الشمس اللامعة! والشفق الذهبي وقوس قزح الجميل المتألق في السماء إلا بعض الظلال الآتية من مجده وصلاحه؟.. ولأجل هذا دعي المسيح شمس البر وكوكب الصبح، والظبي، وغفر الأيائل".

اجل إن الطبيعة كلها تتحول إلى هيكل عظيم لمن يحسنون التأمل، وكلنا يصبح وردثورث الذي ألف أن يتمشى في سفوح الجبال كمن يتمشى مع الله في معبد!.. وإلا فهل يمكن للإنسان أن يتأمل فيها دون أن يرى من ورائها الله الخالق المبدع العظيم، الذي هو أصل كل شيء وعلى كل شيء؟ وهل يمكن له أن يرى ما انطوت عليه من بدائع وروائع وسعة ودقة وجمال وعظمة وسؤدد ومجد إلا أن يرى من ورائها مجد الله وحكمته وجماله وقدرته التي تجل عن الوصف ويقصر دونها الإدراك والفهم!؟. عندما سئل الفلكي لابلاس لماذا لم يذكر الله في أبحاثه العظيمة في علم الفلك، أجاب انه ليس في حاجة إلى هذا الفرض.. أن الله خلف كل بحث تناوله أو أتاه... ولعلنا نستطيع أن نقول في معنى أوفى وأدق، مما قاله الرجل: إن الله خلف كل ظاهرة في الكون والطبيعة والحياة...

٢- الإيمان بوجود الله وشهادة التاريخ

والشاهد الثاني على وجود الله هو التاريخ، وإذا كان التاريخ في عرف الكثيرين ما هو إلا قصص الحياة البشرية بما تحفل من إحداث وحوادث على مر ومر العصور، فانه في عرف الواقع والحقيقة ليس إلا يد الله الظاهرة والبارزة في الكون وبين الناس، ولعل قول كروميل الذي وصف به التاريخ وهو أبدع وأجمل وصف على وجه الإطلاق، إذ قال :"ليس التاريخ إلا ظهور الله في إسقاط الممالك وإقامتها". وقد لا يرى الكثيرون هذا الظهور إذ تعميهم الحوادث الوقتية التي تمر بالناس، وتدهمهم بالفواجع والإحزان والماسي والشرور، ولكنهم لو أحسنوا التبصر والتأمل لأدركوا إن الله هناك. وان الشر قد يكسب معاركه الأولى ولكنه يخسر الحرب في النهاية.. قف قليلا على روابي الزمن وتطلع إلى المدنيات والحضارات والأمم والممالك. وهي ترتفع وتعلو، ثم لا تلبس أن تسقط وتغيب، وأنت تهتف مع دانيال: "ليكن اسم الله مباركا من الأزل إلى الأبد، لان له الحكمة والجبروت وهو يغير الأوقات والأزمنة، ويعزل ملوكا وينصب ملوكا" (دا٢: ٢٠ و ٢١) : اجل، فما وحدة التاريخ، واتجاهه الأدبي، وكونه يعيد نفسه على توالي الأزمنة والحقب. ليس إلا دليلا على وجود الله.. يضاف إلى ذلك انه لم يهمل – إي التاريخ – في يوم من الأيام، في تدوين الحركات الدينية والإيمان القوي بوجود الله الذي صاحب الشعوب والجماعات جيلا اثر جيل!!. وإذا كان هـ. جـ. ويلز، قد إصر في كتابه "مجمل التاريخ" على أن يبدأ كتّاب التاريخ كتاباتهم، لا بما ألفوا أن يبدؤوا به، بل إلى ما قبل ذلك بكثير.. إي بالرجوع إلى عصر ما قبل التاريخ والعصور الجيولوجية القديمة. فإننا نصر على ما هو أعمق وابعد من هذا. إذ نطلب أن يرجع هؤلاء الكتّاب إلى ما قبل هذه العصور أيضا. أو في لغة أخرى، أن يرجعوا إلى رب التاريخ وأساسه ومؤسسه..

٣- الإيمان بوجود الله وشهادة العلم

وقد جاء حين على الناس قد ظن فيه البعض أن ازدياد العلم سيهز الإيمان بوجود الله هزا، وان ازدهار المعارف سيضعف من تأثير الدين والروحيات حتما. وما دروا أن هذا الذي يزعمون انه العلم، انه في واقع الحال، إلا ما دعاه الرسول : "مخالفات العلم الكاذب الإثم "(١تي٦: ٢٠) وان العلم الصحيح لن يتعارض والإيمان في شيء، بل أكثر من ذلك سيمده كل يوم بتأيدات وشهادات جديدة. وليس أدل على ذلك من أقوال العلماء والفلاسفة وجبابرة الفكر في العصور الوسطى.

أقوال عمانوئيل كانت

ألم يقل عمانوئيل كانت : "من المحال علينا أن نتأمل في صنع هذا العالم دون أن نرى يد الله الظاهرة البارزة في كماله واتساقه. وان العقل إذ يفكر ويؤخذ بما فيه من جمال وكمال لا يملك إلا أن يشعر بالسخط العادل على الجهالة الجريئة التي جسرت على أن ترد كل ما فيه من محض الصدفة أو الحظ الحسن. كيف لا وهو لابد أن يكون وليد حكمة عالية عجيبة صاغت فكرته، وقوة لانهائية حولت هذه الفكرة وأخرجتها إلى عالم الحقيقة والواقع؟ وكل الأشياء التي توضح هذا الانسجام المتبادل في الطبيعة لابد أن ترجع أخر الأمر إلى وجود واحد منفرد يضمها معه، وهكذا يوجد كائن كل الكائنات والفهم اللانهائي والحكمة الذاتية، الذي أخذت منه الطبيعة كل اتساقها واستمدت وجودها، وليس سمة ما يدعو إلى الظن أن نشاط الطبيعة لا يتفق مع وجود الكائن الأعلى، إذ أن كمال تطورها ونظام واتساق نواميسها يبرهنان برهانا حاسما أكيد على الجوهر الإلهي الذي استمدت منه كيانها ونظامها..!!

أقوال لورد كلفن

الم يقل لورد كلفن الذي يعد من ابرع العلماء المحدثين في محاضرة ألقاها في عام ١٩٠٣ م: " أن العلم يؤكد على يقين وجود القوة الخالقة، فنحن لا نحيا ونتحرك ونوجد بالمادة الميتة بل بالقوة الخالقة والموجهة التي يلزمنا العلم على قبولها كموضوع للإيمان، ولا مفر من قبول هذه النتيجة، ونحن ندرس طبيعة ومحركات المادة الحية والميتة المحيطة بنا.. إننا نعرف الله عن طريق إعماله فقط، والعلم يلزمنا أن نؤمن بيقين ثابت بقوة موجهة وبتأثير أكثر من مجرد القوى الطبيعية أو المحركة أو الكهربية، وليس هناك من اتفاق بين الإيمان العلمي المطلق بقوة خارقة ونظرية تجمع الذرات تجمعا عرضيا!. النظرية التي يجمع العلماء المحدثون على بطلانها فيما يتعلق بالانبثاق والنمو واستمرار الارتباط الذري في الأجسام الحية، إذ يلزمنا الرأي العلمي هنا على قبول فكرة القوة الخالقة. لقد سألت في إحدى المرات "ليبج " من سنوات عدة عندما كنا نسير في الخلاء عما إذا كان يعتقد أن العشب الذي نراه والزهور التي حولنا نمت بمجرد بتفاعل القوى الكيماوية، فأجاب: "كلا!! كما إني لا اقدر أن أؤمن أن كتابا في علم النبات يصف هذا العشب وهذه الزهور يمكن أن يكون فقط وجد من مجرد قوى كيماوية "..

أقوال الفريد رسل ولاس

وإذا تركنا هذين العالمين إلى عالم يعد من أعظم علماء الدنيا في علم الإحياء ونعني به "الفريد رسل ولاس" نجده يذكر في أبحاثه المعروفة "بالانتخاب الطبيعي" ما يلي: "أن القوة نتاج عقل ومن المحتمل أن كل قوة ما هي إلا قوة إرادية، وإذا كانت الإرادة شيئا، فهي التي تسيطر على سائر القوة المختزنة في الجسد، وليس من المستساغ أو المعقول أن يبدو اثر هذه السيطرة ما لم تكن هناك قوة ما في جزء من أجزاء الجسم العضوي وتباعا لذلك فنحن إذا رددنا إي قوة،مهما تكن دقيقة، إلى أصلها

في إرادتنا دون أن تكون لنا إي معرفة بسبب أخر رئيسي لهذه القوة، التزامنا أن نصل إلى هذه النتيجة. أن كل قوة ما هي إلا قوة إرادية وان الكون بجملته ليس مجرد تابع فقط، بل هو الله.واقع إرادة عقل اعلي، أو بالأحرى إرادة واحد هو العقل الاسمي "... وهذه وغيرها من أقوال العلماء والمفكرين تشهد بما لا يدع مجال للشك في جود الله...

الأسباب السبعة العلمية لإيمان كرسي موريسون

وقد أجمل أ. كرسي موريسون العالم المعاصر والذي كان رئيسا لأعظم أكاديمية في العالم، أكاديمية العلوم بنيورك، الأسباب العلمية السبعة التي تدعو إلى الإيمان بالله، فقال ما ملخصه: "إننا نواجه اليوم فجر عصر علمي وكل ازدياد في النور يلقي أضواء أبهى وأروع على عمل الخالق العلي الحكيم. ومن تسعين عاما أو بالأحرى من أيام داروين إلى ألان –عندما كتب هذا العالم العظيم كتابه – ما تزال الاكتشافات العلمية تتوالى، ونستطيع أن نقول بروح علمية متواضعة إيمان مؤسس على المعرفة إننا نقترب أكثر كثيرا إلى الإحساس بوجود الله، وعن نفسي وجدت سبعة أسباب للإيمان به تعالى:

أولا : إننا نستطيع أن نبرهن بطريقة رياضية ثابتة أن كوننا هذا قد أبدعه وأوجده فكر اسمي عظيم، إذ وضعت في جيبك عشرة قطع فضية بعد أن رقمتها من واد إلى عشرة، وهززتها، وأخرجتها واحدة فواحدة،فانك من الوجهة الرياضية الخالصة أمام احتمال واحد من عشرة للحصول على العملة رقم واحد أول مرة، وأمام واحد من مئة للحصول على رقمي واحد واثنين بالتتابع، وهكذا حتى تبلغ أخر الأمر رقما لا يصدق، إذ تكون أمام واحد من عشرة ألاف مليون، للحصول على الأرقام جميعا بالتتابع، وعلى هذا الأساس يمكن قياس الحياة على الأرض،إذ إنها لا تستطيع الوجود والبقاء إلا في جو نظام دقيق، فالأرض تدور حول محورها بسرعة ألف ميل في الساعة،ولو أنها دارت بسرعة مائة ميل في الساعة لأضحى الليل والنهار عشرة إضعاف ما هما عليه ألان!! ولأحرقت الحرارة النباتات في النهار تباعا لطوال اليوم، ولقتل الجليد الكائنات الحية في الليل الطويل!!..

يضاف إلى ذلك أن الشمس التي نحيا بحرارتها تبلغ درجة الحرارة على سحها اثنا عشر ألف درجة بقياس فهرنهيت، وان الأرض قائمة في الوضع المناسب المضبوط بالنسبة لهذه الحرارة ودون زيادة أو نقص، فلو فرضنا أن حرارة الشمس قد هبطت إلى النصف لجمدنا، أو تضاعفت لاحترقنا تبعا لذلك، كما أن انحراف كروية الأرض بمقدار ٢٣ درجة اوجد لنا الفصول،ولو أنها لم تكن منحرفة كذلك لتحركت أبخرة المحيطات شمالا وجنوبا وقذفنا بقارات من الجليد.

ولو أن القمر على بعد خمسين ألف من الأميال بدلا من بعده الحالي مثلا لتعرضنا مرتين للغرق كل يوم، ولتفتت الجبال، ولو أن قشرة الأرض كانت أكثر من قشرتها الحالية بعشرة أقدام لانعدم الأكسجين،وانعدمت تبعا لذلك الحياة الحيوانية.ولو أن المحيطات كانت أعمق من عمقها الحالي بأقدام قليلة لامتص ثاني أكسيد الكربون والأكسجين وماتت الحياة النباتية. ولو أن الجو المحيط بالأرض كان اقل سمكا لتعرضت الأرض للحرائق في كل مكان بسبب النيازك المتعددة الكثيرة التي تشتعل يوميا في الفضاء!!..

ثانيا: أن وسائل الحياة في بلوغ أغراضها مظهر واضح لمّاح لحكمة كلية شاملة!!.. ومع أن الحياة في حد ذاتها لا يستطيع احد أن يسبر غرا إذ ليس لها وزن أو قياس، ولكنها مع ذلك تمتلك القوة التي تقدر على تحطيم الصخر، وتقهر الماء والأرض والهواء، وتسود على العناصر وتحلها وتركبها كما تشاء.. أن الحياة هي المثال الذي يصوغ الكائنات الحية والفنان الذي

يرسم كل ورقة في كل شجرة، ويلون كل زهرة، والموسيقي الذي يعلم كل طائر أن يشدو شدوة الحبيب!! كما ويعلم الحشرات أن تنادي بعضها البعض بالإيقاع البديع المفهوم فيما بينها، والكيماوي العظيم الذي يعطي الإثمار والتوابل مذاقها ويعطر الورد، ويحول الماء وحامض الكربون إلى السكر والخشب، وهو في هذه كلها يوجد الأكسجين اللازم لحياة الحيوان... هل رأيت نقطة البروتوبلازم، المادة الحية التي تكون جميع الكائنات الحية الشفافة المتخثرة التي لا تكاد ترى بالعين المجردة والتي تستطيع الحركة وتأخذ نشاطها من الشمس،هذه الخلية الصغيرة الدقيقة الشفافة تحمل في اطوائها جرثومة الحياة، ولها القدرة على توزيع الحياة على الكائنات الحية صغيرها وكبيرها، وهي بقوتها هذه أعظم من النباتات والحيوانات والبشر لان كل الحياة تنبثق منها،والطبيعة لم تخلق الحياة، والصخور البركانية والمياه العذبة!! فمن جاء بها؟ هذا هو السؤال...

ثالثا: أن حكمة الحيوان تتحدث بكيفية لا تجادل عن الخالق الصالح الذي زود هذه المخلوقات الضعيفة بالغرائز اللازمة لحياتها، فهذا السلمون الصغير الذي يقضي سنوات متعددة في البحار،ثم يرجع أخر الأمر سابحا، وآخذا طريقه إلى ذات المكان الذي ولد فيه عند روافد النهر،ما الذي أرجعه هكذا إلى مهده الأول؟ بل ما الذي يجعله يشعر عندما تنقله إلى مكان أخر بالتغيير الذي طرأ عليه في الحال، ويجاهد بكل ما يملك من قوة للرجوع إلى مكانه الأول؟ ودق من ذلك وأصعب لغزا الانكليس (ثعبان الماء).. هذه المخلوقات العجيبة التي تخرج عند اكتمال نموها ونضوجها من كل البرك والأنهار والبحار في الدنيا لتتجمع عند قطة معينة من الغمر العميق القريب من برمودا، حيث تلد هناك وتموت، ومن العجيب أن أولادها التي ولدت هناك،مع أنها لا تعرف شيئا سوى أنها في تيه البحار الرهيب، إلا أن كل مجموعة منها، عندما ترحل تأخذ طريها إلى المكان الذي جاء منه إباؤها!! ولذا فالانكليس الأمريكي لا يمكن أن تراه في أوربا، والعكس صحيح.. هذه وأمثالها من حيوانات تسير وراء غرائزها العجيبة الغريبة.. إلا توجّه أفكارنا إلى الله العظيم الذي يقودها جميع؟..

رابعا: على الإنسان ما هو أكثر من الغريزة الحيوانية، إذ له العقل الذي ينفرد به عن سائر الحيوانات، والثابت انه لم يوجد بعد حيوان واحد قد ترك أثرا يدل على انه له القدرة أن يعد من واحد إلى عشرة.. وإذا كانت الغريزة في الحيوان تباعا لذلك أشبه بالنوتة المنفردة التي تعزف بالة مبسطة كالناي، فان العقل يماثل النوتة الشاملة التي تغنيها مجموعة من الآلات في جوقة موسيقية ولا حاجة لإطالة الحديث في هذا الموضوع.. يكفي أن نشكر على منحة العقل الذي جعلنا أن ندرك إننا نحن على ما نحن عليه لسنا إلا قبسا من نور الحكمة والعقل العام الأعلى!!..

خامسا: الإمدادات المزودة بها كل الإحياء واضحة ألان في الظاهرة العجيبة التي معروفة للجميع في وقتنا الحاضر، والتي لم يكن يعرفها دارون نفسه، نعني بها عجائب "الموروثات" (الجينات)،والموروثات كما هو معروف. متناهية الصغر والدقة إلى درجة انك لو جمعت الموجود منها في أجساد الناس الإحياء على ظهر البسيطة، وحصرتها في حيز واحد، لما ملأت بها سم الخياط، ومع ذلك، فإنها تقطن وزميلاتها "الكروموزومات" في خلية واحدة، وتعتبر بمثابة المفاتيح الكلية لحياة الإنسان والحيوان والنبات معا..!! أن سم الخياط شيء دقيق وصغير لتجمع فيه حياة ألفي مليون، هم جميع الساكنين على الأرض، ومع ذلك فإنها الحقيقة التي لا تنازع أو تجادل!! ثم كيف يمكن أن تحفظ الموروثات في ذاتها خصائص الوراثة المنحدرة من ملايين السالفين، وكيف تصون في أحشائها وطواياها نفسية كل واحد منهم، في مثل هذا الحيز الدقيق الصغير العجيب!!.. اجل فمن هنا تبدى ظاهرة التطور حقا، إذ تبدى في الخلية أو في الكيان الذي يمسك بالموروثات ويحملها جميعا.. وهنا تسال

كيف يمكن أن تتجمع ملايين الذرات في كرة دقيقة صغيرة كهذه بالعين المجردة، وتحكم في الوقت ذاته كل حياة على الأرض حكما حاسما نهائيا. كيف يحدث هذا دون أن يكون خلفه عقل جبار خالق!!؟ وهل يمكن تصور احتمال أخر غير هذا!!؟

سادسا: اقتصاديات الطبيعة تلزمنا أن ندرك إن حكمة لا نهائية سبقت فرات واعدت كل شيء في الطبيعة بتدبير بارع. وتحضرنا هنا قصة "التين الشوكي" التي زرعت من سنوات في استراليا، بدافع الرغبة والتحصين الوقائي من الأعاصير وما أشبه، ولما لم تكن الحشرات المعادية لهذا النوع من الأشجار معروفة في هذه البلاد، فقد اخذ الشجر ينمو ويتكاثر من تلقاء ذاته بكيفية مذهلة عجيبة، حتى انه غطى مساحة من الأرض تقرب من مساحة انجلترا طولا وعرضا وافسد بذلك مساحات شاسعة من الحقول والمزارع، وإذ فشلت كل مقاومة في الحد من نموه وتكاثره، لم يجد العلماء بدا من البحث عن هذه الحشرات التي تعيش فقط على هذه الأشجار، وأطلقوها عليه، وعندئذ توقفت الأشجار عن الانتشار والغزو، وبلك أمكن القضاء على الخطر الداهم الناجم عنها، وهذا التوازن والتعادل بين القوة والمقاومة ظاهرة واضحة بينة في الطبيعة ولا يمكن أن يضعها سوى عقل عظيم مدبر!!..

سابعا: إن حقيقة قدرة الإنسان على تصور فكرة الله، هي ذاتها برهان عظيم فريد على وجوده تعالى، إذ أن تصور الله ينبعث في الإنسان عن طريق ملكة إلهية كامنة فيه، لا يشاطره فيها أي مخلوق على الأرض، وهذه الملكة هي ما اصطلح على تسميتها بملكة الخيال، وبها يستطيع الإنسان والإنسان وحده، تصور ما هو غير منظور، والأفاق المتفتحة أمام هذه الملكة لا نهائية مطلقة الحدود، وبما إن الخيال الإنساني يصبح في سموه واكتماله الحقيقة الروحية في البشر، لذا سهل على المرء أن يرى في دلائل الكون وأغراضه.إن السماء موجودة وقائمة في مكان ما أو بحالة ما، وان الله مالئ لكل زمان ومكان وانه اقرب الكل إلى قلوبنا، وهذا ما يدعونا إلى أن نقول من الوجهة العلمية والتصورية ما قاله المرنم قديما: "السموات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه "..

٤ - الإيمان بوجود الله وشهادة الوجدان

الوجدان هو الشعور الباطن القوي الكامن في أعماق النفس البشرية، والذي ينفرد به الإنسان عن سائر المخلوقات والكائنات التي تعيش على ظهر الأرض، وقد تحدث هذا الشعور وما زال يتحدث في كل جيل و كل عصر بلغة لا تغالب أو تناقض عن وجود الله ومهما تختلف ظروف الناس وتتبدل أوضاعهم وأحوالهم وطرق معيشتهم، ومهما يكن حظهم من الجهل أو العلم أو السذاجة أو الإدراك أو الفقر أو الغنى أو الضعة أو الجاه أو ما إلى ذلك مما يفرق بين إنسان وإنسان، فمما لاشك فيه أن وجدانهم الديني ملازم لهم، ولا يمكن أن يمحى أو يتلاشى ومن الحق أن الوجدان قد يتأثر في بعض المواطن والظروف فيضعف أو ينام أو يخبو نوره إلى حين ولكن لا يلبث أن ينهض و يستيقظ ويقوم فيتحول سكونه إلى حركة وهمسة إلى دوي وهجسة إلى صوت راغب.. والعصور كلها تشهد على انه لم يمت في فرد أو جماعة أو جيل أو يتلاشى تلاشيا كليا، ولعل بعضنا يذكر ول بلوتارك قديما: "تجول في العالم كله فقد تجد مدنا دون عملات أو مدارس أو مسارح، لكن احد لم يرى إلى الآن مدينة دون هيكل للعبادة والصلاة".ويقصد بذلك أن الإحساس الديني في البشر اقوي وافعل وأكثر تمكنا من سائر أوضاعهم الاقتصادية أو العلمية أو الاجتماعية. إلا يذكر هذا بقول الجامعة الحكيم : "قد رأيت الشغل الذي أعطاه الله لبني البشر ليشتغلوا به صنع الكل حسنا في وقته وأيضا جعل الأبدية في قلبهم التي بلاها لا يدرك الإنسان العمل الذي يعمله الله من البداية إلى النهاية " (جا٣: ١٠ و١١)

٥- الإيمان بوجود الله وشهادة الظهور المباشر

ونعني بالظهور المباشر ذلك الظهور الإلهي المتكرر الذي حدث في العهد القديم لأفراد متعددين ولشعب الله، وقد صاحب هذا الظهور من الأوضاع والملابسات والقرائن مما جعله فوق متناول أي منازعة أو نقاش أو شك أو جدل، إذ حدّث أول كل شيء مختلفي الطباع والميول والنزعات والأخلاق، فمن اخنوخ وإبراهيم وأيوب واسحق ويعقوب وموسى ويشوع وجدعون ومنوح وداود وسليمان وارميا واشعياء، ومن على غرارهم من الأنبياء والقديسين ورجال الله، إلى فرعون وابيمالك وبلعام ونبوخذ نصر وبيلشاصر ومن على شاكلتهم من الأشرار والعتاة والجبابرة، كما حدث في فترات متباعدة من التاريخ تجاوزت العشرات والمئات إلى الألوف من السني، وأكثر من هذا فقد حدث بكيفيات متعددة وصور مختلفة فمن همس ورؤية في الليل وصفهما اليفاز التيماني احد أصحاب أيوب بالقول: "ثم إِلَيَّ تَسَلَّلَتْ كَلِمَةٌ فَقَبِلَتْ أُذُنِي مِنْهَا هَمْساً. فِي الْهَوَاجِسِ مِنْ رُؤَى اللَّيْلِ عِنْدَ وُقُوعِ سُبَاتٍ عَلَى النَّاسِ ١٤ أَصَابَنِي رُعْبٌ وَرَعْدَةٌ فَرَجَفَتْ كُلُّ عِظَامِي. فَمَرَّتْ رُوحٌ عَلَى وَجْهِي. اقْشَعَرَّ شَعْرُ جَسَدِي. وَلَكِنِّي لَمْ أَعْرِفْ مَنْظَرَهَا. شِبْهٌ قُدَّامَ عَيْنَيَّ. سَمِعْتُ صَوْتاً مُنْخَفِضاً (أي ٤: ١٢ -١٦). إلى صوت ومنظر واضحين في النهار أو قال بلعام بن بعور "وحي الرجل المفتوح العينين وحي الذي يسمع أقوال اله ويعرف معرفة القدير، الذي رأى رؤيا القدير ساقطا وهو مكشوف العينين " (عدد ٢٤: ١٥ و١٦). إلى شركة وحديث مباشر مع إبراهيم وموسى ويشوع ومنوح وجدعون. إلى نار وزلازل وعواصف كما حدث مع شعب الله. إلى نبوات مرعبة وكتابة فوق كلس الحائط كما حدث مع آخاب ونبوخذ نصّر وسنحاريب وبيلشاصر وغيرهم.. هذا الظهور المتكرر الذي حدث لأشخاص كثيرين وفي أوقات مختلفة وبصور متعددة دليل قاطع اسم يضاف إلى غيره من الأدلة على وجود الله!.

٦- الإيمان بوجود الله وشهادة التجسد

وإذا كان الظهور المباشر في العهد القديم قد حدث لأشخاص متعددين وفي فترات متقطعة فان التجسد هو دليل الأدلة وسيد البراهين إذ ظهر به الله في المسيح ظهورا واضحا بشريا ملموسا ولم يكن المسيح دعيا إذا نسب لنفسه ا لله من جوهر وسجايا وأعماله إذ شهدت حياته ومعجزاته وأقواله على صحة ما نسب، والإفصاح والمجاهرة به أمام جميع الناس.ويكفي أن نلمّح هنا إلى بعض أقواله وأقوال تلاميذه بهذا الصدد. الم يقل هو : "قبل أن يكون إبراهيم إنا كائن" (يو ٨: ٥٨)."إنا والأب واحد" (يو١٠: ٣٠)."الذي رآني فقد رأى الآب" (يو١٤: ٩). وما أوضح من آيات أفصح بها بوضوح عن شخصيته ولاهوته!. الم يقل توما له بعد القيامة : "ربي والهي" (يو٢٠: ٢٨).الم يقل الرسول بولس"الذي إذ كان في صورة الله اخلي نفسه آخذا صورة عبد صائرا في شبه الناس" (في٢ :٦)."وبالإجماع عظيم هو سر التقوى الله ظهر في الجسد" (اتي ٢ :١٦).وألم يقل يوحنا " في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله" (يو١ :١). "الذي كان من البدء الذي سمعناه، الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة فان الحياة أظهرت وقد رأينا ونشهد ونخبكم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأظهرت لنا " (١يو ١: ١و٢). ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية " (١يو٥: ٢٠).هذه وأمثالها من كثير ما لا يتحدث عن لاهوت المسيح فحسب، بل عن وجود الله الذي اظهر هذا التجسد بأفصح وأجمل أسلوب!.

٧- الإيمان بوجود الله وشهادة الكتاب المقدس

والكتاب المقدس شاهد أخر على وجود الله، فهو أولا وأخيرا وقبل كل شيء وبعد كل شيء الكتاب الذي يستمد وجوده من هذا الإله وينتسب إليه ويتحدث عنه بكل إفصاح وإصرار وقوة.وإذا كان "هنري فان ديك" وصفه ذات مرة بالقول: "ليس في العالم كله كتاب أخر كالكتاب المقدس يحفظ لذاته هذه الحيوية الغريبة والأثر المتزايد والإيحاء القوي، فانه لم يعط الممال فقط مثلا جديدا للمدينة ومبادئ جديدة للأخلاق، وأفكار جديدة عن الفضائل وآمال للسعادة ولكنه أعطى أيضا دوافع وصورا للخيال الإنساني، وأبدع الجمال في الآداب، وسائر الفنون الأخرى ولنفرض إننا أخرجنا من العالم أعمال الفن التي تدين بوجودها لله.. كل التماثيل "كداود" لدانتلو و "موسى" لميشيل أنجلو.. والصور "كالسيدة العذراء" لرفائيل " والعائلة المقدسة" لموريلا... والموسيقى "كالآلام" لباخ "والمسيا" لهاندل... والشعر "كالكوميديا الإلهية" لدانتي "والفردوس المفقود " لجون ملتون.. ماذا يبقى للعالم وأي فقر يناله؟.. إذا كان هذا هو الوصف الصحيح للكتاب المقدس، فمن يكون إذا واضعه ومؤلفه، أو من ألهم كتّابه هذه المبادئ والمثل التي ما تزال الإنسانية تركض وراءها آلاف السنين، والتي يغترف الكتّاب الذين كتبوها بان قسمهم أنها ليست من بنات أفكارهم أو من وحي خيالهم!! بل من قوة أعظم من كل يقظة دبت في عقولهم ومشاعرهم!!.. إذ هي قوة الله التي أملت عليهم ما كتبوا أو كما يقول الرسول بولس: "كل الكتاب هو موحى به من الله ونافع للتعليم والتوبيخ للتقويم والتأديب الذي في البر لكي يكون إنسان الله كاملا متأهبا لكل عمل صالح " (٢تي٣ :١٦). أو كما يقول الرسول بطرس: "وعندنا الكلمة النبوية وهي اثبت، التي تفعلون حسنا أن انتبهتم إليها كما إلى سراج منير في موضع مظلم إلى أن ينفجر النهار ويطلع كوكب الصبح في قلوبكم عالمين هذا أولا أن كل نبوة الكتاب ليست من تفسير خاص، لأنه لم تأت نبوة قط بمشيئة إنسان بل تكلم أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس (٢بط ١٩ :٢١) يضاف إلى هذا، أن هذا الكتاب هو الكتاب الوحيد في الأرض الذي احتاج إلى نيف وألف وخمسمائة عام حتى كتب! ما اترك في كتابته عدد كبير من الشخصيات ذي الميول والنزعات المنوعة، إذ كان بينهم الشاعر والمؤرخ والفيلسوف والكاهن والنبي والرسول والوالي والملك، ومع اختلاف شخصياتهم وتنوع ميولهم وتباعد الأزمنة التي عاشوا فيها فإنهم قد اتفقوا جميعا على الإيمان بالخوارق والمعجزات التي دونت في هذا الكتاب!!.. ومن لمسلم به أن المعجزات تعتبر من الأدلة القوية على وود الله وسيطرة العوالم غير المنظورة على هذا العالم المنظور، وقد قال اسبينوزا الفيلسوف اليهودي الألماني ذات مرة انه لو أتيح له أن يؤمن بمعجزة إقامة العازر من بين الأموات لم نظرياته جميعا، وآمن بالمسيح والمسيحية!!.. ونحسب هنا مبدئيا مع الذين دونوا هذه المعجزات المتعددة الكثيرة، إنها لو دلت على شيء فإنها تدل على وجود الله!! كما أن هؤلاء الكتّاب كانوا يؤمن فيه:ود الله إيمانا بديهيا أساسيا استقر خلف كل كلمة بل كل حرف كنبوة،ويكفي أن موسى افتتح الكتاب بالقول: "في البدء خلق الله السموات والأرض" (تك١ : ١) كما تغنى في مزموره التسعين بالقول: "يارب ملجأ كنت لنا دور فدور من قبل أن تولد الجبال أو أبدعت الأرض والمسكونة منذ الأزل إلى الأبد أنت الله (ز ٩٠ :١و٢) ". ودون يوحنا قبل أن يتم أخر صفحة فيه : " لأَنِّي أَشْهَدُ لِكُلِّ مَنْ يَسْمَعُ أَقْوَالَ نُبُوَّةِ هذَا الْكِتَابِ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَزِيدُ عَلَى هذَا يَزِيدُ اللهُ عَلَيْهِ الضَّرَبَاتِ الْمَكْتُوبَةَ فِي هذَا الْكِتَابِ. وَإِنْ كَانَ أَحَدٌ يَحْذِفُ مِنْ أَقْوَالِ كِتَابِ هذِهِ النُّبُوَّةِ يَحْذِفُ اللهُ نَصِيبَهُ مِنْ سِفْرِ الْحَيَاةِ، وَمِنَ الْمَدِينَةِ الْمُقَدَّسَةِ، وَمِنَ الْمَكْتُوبِ فِي هذَا الْكِتَابِ. (رؤ٢٢: ١٨ و١٩)".. اجل فالكتاب من الألف إلى الياء يشهد على توالي العصور والأجيال على وجود الله...

٨- الإيمان بوجود الله وشهادة الاختبار الشخصي

وآخر ما نختتم به الأدلة والشهادات على وجود الله شهادة الاختبار الشخصي أو شهادة الكثيرين في كل جيل وعصر ممن عاشوا مع الله، واختبروا اختبارات حية ملموسة قوية لا يمكن أن توصف بمجرد التخيلات أو التصورات أو الأوهام.. وإذا كان من الحماقة أن نهمل اختبارات المختبرين في فروع الحياة وميادينها المنوعة لمجرد أن هذه الاختبارات لم تحدث معنا بنصها وفصها، فكم تكون حماقتنا اقسي واشر إذ نهمل اختبارات الألوف والملايين الذين سبقونا أو يعاصروننا، والذين شهدوا إنهم اختبروا الله اختبارات متنوعة لا يرقى إليها شك أو نزاع، وعلى الأخص إذا كان هؤلاء يجزمون على الدوام بأنهم لم يصلوا إلى هذه الاختبارات لتميزهم أو تفردهم في شيء عن الآخرين، بل لأنهم امنوا بالله ووثقوا به أكثر من غيرهم، وصاروا في طريق إرادته بكل خضوع وتسليم وصبر.. عندما سئل فارادي العالم العظيم الذي تعود إلا يؤمن بشيء قبل درسه وفحصه، عندما سئل وهو في ضجعة الموت عما إذا كان يؤمن حقا بالله والأبدية والخلود، أجاب وقد تألق وجهه بنور وياء: "لست نائما على وسادة تخمينات ".. وهل فراداي إلا واحد من أعلام الفكر وجبابرة العقول الذين كان لهم الله أكثر من مجرد فكر خيالي أو تصور عقلي!! إذ كان هو الحقيقة الكبرى التي امنوا بها واختبروها وسكنوا إليها وعاشوا معها، وناموا أخر الأمر في أحضانها!! إذ كانت لهم أكثر من وسادة تخمينات!! ترى هل أنت ممن تضمهم القافلة العظيمة المباركة التي تتمشى في ركب العصور والأجيال!!؟

الفصل الثالث: إيماني بطبيعة الله

لا يكاد الإنسان يؤمن بوجود الله حتى يتعرض لسؤال أخر جوهري هام وهو: ما طبيعة هذا الإله وجوهره وشخصه؟ إذ لا يجدي المرء أن يعرف انه موجود دون أن يتقدم خطوة أخرى للتأمل في شخصية هذا الموجود وذاته.. وإذا كانوا الناس قد اختلفوا في القديم حول وجود الله إلى ثلاث طوائف، ما بين مؤمن وملحد ولا إداري، فقد اختلفوا أكثر حول طبيعته وشخصه، إذ كثرت وتعددت فرقهم وشيعهم ونظرياتهم، ويكفي أن نعلم إن اختلاف الأديان، يرجع في كثير من الأحوال إلى اختلاف الفكر حول الفكر حول شخص الله وطبيعته وذاته.. وإذا كان من العسير علينا أن نلم بجميع المذاهب والنظريات التي طافت بالذهن البشري حول شخص الله منذ فجر التاريخ إلى اليوم، فلا اقل إلى أن نشير إلى بعضها. وكيف وجدت وعاشت؟ وكيف انقرض اغلبها أو كاد؟ إذ لم يستطيع مسايرة الفكر البشري الراقي أو الشعور الإنساني المهذب.. وسنجد أخر الأمر ونحن نقارنها ببعضها البعض، إن الإيمان المسيحي بطبيعة الله يعد أصحها، وأسلمها وأصدقها على وجه الإطلاق.. وهي كما يلي:

أولا: تعدد الآلهة

وهي النظرية القديمة التي أملاها الخيال الوثني، عندما كان اغلب الناس في العصور المختلفة من التاريخ يؤمنون بآلهة لا عدد لها ولا حصر، بل يكادون يرون في كل شيء في الطبيعة ألها ينحنون أمامه ويسجدون لديه!!.. فالشمس والقمر والنجوم والرياح والزوابع والجبال والصخور والبحار والأنهار والأشجار والواحات والبرق والرعد والوحش والزحافات والدواب والملوك والكهنة والأنبياء والإبطال وما أشبه كانوا عند هؤلاء الوثنيين الآلهة بذاتها، أو المظهر أو الرمز التي تظهر فيه هذه الإلهة!! وغير خاف إن البشر اتخذوا من هذه الأشياء والإحياء ما جعلوه موضوع تأليههم وعبادتهم تباعا لحاجياتهم وأمانيهم وأشواقهم ومخاوفهم وأحلامهم، أو في لغة أخرى لم تكن هذه الإلهة سوى الصور النفسية المرسومة في أعماق مشاعرهم ووجدانهم، والتي عبّروا عنها، يدرون أو لا يدرون، بمختلف المظاهر التي تعبدوا لها، وسجدوا عند موطئ أقدامها أو أقدام التماثيل أو الرسوم أو الأصنام التي ترمز وتشير إليها.. وليس أدل على ذلك من أن المصريين واليونانيين والرومان التصقوا أكثر بالآلهة التي كانوا يرون فيها أصداء حياتهم ومشاعرهم، فاتخذ المصريون من الإلهة ما كان يتصل بطبيعة الأرض وخصوبتها، واتخذ اليونانيون ما كان يشير إلى الجمال والحب والمتعة وما أشبه واتخذ الرومان ما كان يتحدث عن القوة و العنف والبطش، إذ كانت هذه كلها وما يماثلها اقرب إلى عواطفهم وأكثر وأدق تصويرا لما يشعرون به أو يحتاجون إليه..

على إن هذا التعدد في الآلهة تطور مع الزمن وتبدل، فلم يعد كل منها قائما بذاته مستقلا عن الأخر لا تربطه به ادني رابطة أو صلة، بل انضم اغلبها في مجموعات متعددة، تربط كل مجموعة منها رابطة القربى أو النسب، ويرأسها اله اكبر هو أبوها وسيدها جميعا، كما كان زيوس أبا الآلهة عند اليونانيين وبراهما عند الهند!!

على إن فكرة تعدد الآلهة سواء في أصلها أو تطورها، ذبلت عند الكثيرين من فلاسفة الفكر الوثني القديم أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو الذين راودهم الشك فيها والظن مرات ومرات، ويكفي أن نعلم إن أفلاطون قال في معرض الحديث عن الله،بل الألوهية هي الواحد، مما يشعرنا ببعض اتجاهه الواهن الغامض الضعيف نحو التوحيد الذي نعرفه ونؤمن بـه... اجل وهل يمكن للإنسان إن يؤمن بآلهة كثيرة تتصارع وتتحاسد وتتنابذ وتتقاتل دون إن يكون عقله مظلما ومشعره سقيمة؟.. وهل هناك وصف ابرع أو أدق من وصف الرسول للمؤمنين بهذا التعدد من القول: "وبينما هم يزعمون أنهم حكماء صاروا جهلاء وأبدلوا مجد الله الذي لا يفنى بشبه صورة الإنسان الَّذِي يَفْنَى وَالطُّيُور وَالدَّوَابِّ وَالزَّحَّافَاتِ. ٢٤لِذلِكَ أَسْلَمَهُمُ اللهُ أَيْضاً فِي شَهَوَاتِ قُلُوبِهِمْ إِلَى النَّجَاسَةِ لإِهَانَةِ أَجْسَادِهِمْ بَيْنَ ذَوَاتِهِم. ٢٥الَّذِينَ اسْتَبْدَلُوا حَقَّ اللهِ بِالْكَذِبِ وَاتَّقَوْا وَعَبَدُوا الْمَخْلُوقَ دُونَ الْخَالِقِ الَّذِي هُوَ مُبَارَكٌ إِلَى الأَبَدِ. آمِينَ. (رو ١: ٢٢ -٢٥) "..

ثانيا: اعتقاد وجود الهين متضادين

وهي فكرة وجدت عند البعض قديما ممن عجزوا عن تفسير ظاهر الخير والشر في الأرض، ولعل الفرس أول من امن بها، إذ قيل أنهم في القديم امنوا بوجود الهين عظيمين، اسم الأول "اورمازد" اله الخير واسم الثاني "أهرمان" اله الشر، والأصل في الفكرة إن الناس لم يجدوا سبيلا إلى نسبة الشر إلى الله نسبوه إلى مصدر أخر مستقل عنه مضاد له في المادة، وقالوا إن كل ما هو خير وروحي يرجع دائما إلى اله الخير وكل ما هو شرير ومادي يرجع دائما إلى اله الشر.. وإذ رأوا إن الصراع بين الخير والشر والروح والمادة صراع دائم مستمر قائم، التزموا إن يقولوا إن هذين الإلهين أزليان متساويان، وإلا أمكن لأحدهما إن يتغلب وينتصر أخر الأمر علىا الأخر، ولعله نقط الضعف في هذا الأمر أمران أولهما: الاعتقاد بأزلية المادة،الأمر الذي يتناقض ويتضاد مع ما نلاحظه من ظاهرة التطور في الكون.. وثانيهما الزعم إن المادة أساس الشر واصله ومركزه، وهو زعم باطل غير صحيح، إذ إن الشر في حد ذاته ما هو إلا المادة المضادة الروحية والأدبية لله والخير، وهو أمر لا يشترط استقراره في المادة أو انبعاثه عنها، كما تقضي بذلك بديهيات متعددة لا تحتاج إلى تدليل أو تفسير...

ثانيا : ألوهية الكون

وهو الرأي الذي يزعم إن الكون هو الله، والله هو الكون، وقد انتشر أول الأمر بين الهنود والمصريين واليونانيين قديما، ثم لم يلبث إن ذاع في الإسكندرية بين الغنوسيين وأصحاب الفلاسفة الأفلاطونية الجديدة، وانتهى به المطاف أخر الأمر في ألمانيا إذ اعتنقه اسبينوزا الفيلسوف اليهودي الألماني في القرن السابع عشر، وجاراه في ذلك فختة وشلنج وهيجلمن فلاسفة الألمان!! والآخذون بهذا الرأي يقولون إن الكون هو الجوهر الأحد الأزلي الغير محدود، وهو الله ذاته، ولا شيء غير الله.. وكل ما يحدث فيه من إحداث وحوادث ما هو إلا مظهر من مظاهر التقلب والتغير والتعرية التي تحدث في الطبيعة والكائنات.. وعلى هذا الأساس فليس هناك من فلاق أو تمييز بين العقل والمادة والجسد إذ أنها جميعا – وغيرها مما لا نعرف – كما يقول اسبينوزا، بعض صفات هذا الإله – الذي هو الكون - ولطالما شبهوه ومثلوه بشجرة الحياة الوارفة الباسقة، التي تختلف فيها إشكال الأغصان والإزهار والبراعم والأثمان، ولكنها من أصل واحد وفي أصل واحد الذي هو الشجرة – هكذا الكون في نظرهم يشتمل على النبات والحيوان والنبات والإنسان، ولا فرق بين الجميع إلا كالفرق بين الإشكال المختلفة في الشجرة الواحدة، ويقولون أيضا إن الفرق بين الإنسان الخيّر والإنسان والشرير هو الفرق بين الثمرة الناضجة والأخرى غير الناضجة في الشجرة، إذ لا تمييز عندهم بين الخير والشر، سوى إن الشر خير ناقص مبتور لم يكمل

أو ينضج بعد!!..وقد جاء في أوصافهم أيضا إن الكون شبيه بمحيط الحياة الواسع العميق اللجى، الذي تنطلق منه حياة الناس كما تنطلق منه حياة الناس كما تنطلق السحب والغيوم وتتحول إلى مطر ثم لا تلبث إن ترجع إليه أخر الأمر، لتثوى بين جنباته، وتغيب بين أحضانه.. ومن ثم فحياة كل إنسان على الأرض لا تزيد عن كونها قطرة من قطرات هذا المحيط ارتفعت عنه قليلا ثم عادت لتفنى وتتلاشى فيه...

وظاهر من الأمر كله إن الآخذين بفكرة إلوهية الكون لا عنه. على الإطلاق بوجود شيء اسمه "الشخصية" سواء كانت هذه الشخصية شخصية الله الحية العاقلة الحكيمة المفكرة الحرة الاختيار، أو شخصية الإنسان التي تنفرد عن غيرها من المخلوقات الأرضية بالعقل والفكر والإرادة، وبالتالي لا يؤمنون بوجود الله أو الإنسان بالمعنى المعروف عندنا، إذ إن الإنسان عندهم هو جزء من الله إذ هو جزء من الكون!! وان الله مجرد من الذاتية التي تميزه عن الكون وتفصله عنه.. ولا تحسب إن هناك غباوة وحماقة وامتهانا للفكر والشعور والمسئولية أكثر من هذه.. ولعل ما كتبه دكتور بوردن براون بهذا الصدد هو خير ما يمكن إن يكتب أو يذكر على وجه الإطلاق، إذ قال: "إن فكرة إلوهية الكون يواجهها من الصعوبات ما لا يمكن تخطيه أو التغلب عليه، فمسالة المعرفة لا يمكن إن تحل إلا إذا اعتنقنا الفكر، إن هناك حرية أمام الروح المحدود أو الروح غير المحدود على حد سواء.. كما إن الإيمان بان كل الأشياء تعتمد على الله يبدوا امرأ محتوما لا مفر للفكر من الأخذ به. إما القول بان كل الأشياء والأفكار وضروب النشاط هي ذات الله فهو أولا أمر غير مفهوم كما انه ثانيا وبيل وهدام، إذ من المعقول تماما إن يقال إن الله يعرف أفكارنا ومشاعرنا، ويقدر هذه الأفكار والمشاعر أكل تقدير. إما إن يقال إن أفكارنا ومشاعرنا هي ذاتها أفكاره ومشاعره ففيه مناقضة سيكولوجية من إي جانب جئناها. ولا سبيل إلا إلى انتحار المنطق والفكر قبل الإصرار على ذلك. فاجل فإذا كان الله هو الذي يفكر ويشعر في أفكارنا وشعورنا،وتبعا لذلك إذا كان الله هو الذي يخطئ في أخطاؤنا ويرتكب الحماقة في حماقتنا، وإذا كان هو الذي يناقض نفسه فيما لا يحصى أو يعد من متناقضات أفكارنا. فكل خطأ وجهالة وخطية تضحى شيئا إلهيا، كما ويتلاشى ويتبدد سلطان العقل والضمير تماما".

وفي الواقع لا يمكن التسليم بإلوهية الكون دون إن نهدر اسمي الأفكار والمعاني والمعتقدات التي اخذ بها البشر منذ فجر الخليقة حتى اليوم، إذ إن الله الذي تخيله أصحاب هذه النظرية ومريدوها هو كل شيء إلا الله ذاته، كما قال احد إعلام المفكرين!!.. والإنسان في عرفهم ما هو إلا مسخ مادي مشوه تجرد من كل الخصائص والمزايا التي ينفرد بها الكون كانسان، والحياة بجملتها هيهات إن تكون في ظن معتقدات سقيم كهذا، أكثر من مجوعة تعسة مضللة من الأوهام والأباطيل والترهات!!.. ولا نحسب احد يحترم الفكر الإنساني والأوضاع الروحية والأدبية التي اصطلح عليها الناس ويتمسكون بها يمكن إن يرحب به أو يقبله على الإطلاق!!

رابعا: قوة مجهولة

وأصحاب هذا الرأي يعتقدون إن الكون حدث مخلوق وبالتالي يرفضون الإيمان بإلوهيته، وان كانوا في الوقت ذاته يؤمنون بوجود قوة هائلة عارمة خلفه هي التي أوجدته وأبدعته بقوانين ونظم ميكانيكية غير معروفة، ويقولون إن هذه القوة ليست شخصا، بل هي قوة مجردة من الغرض والهدف والخطة المرسومة، وتسير كيفما اتفق سيرها، دون إن يكون لها عقل وروح.

وحس ومعنويات روحية أو أدبية تحدد إعمالها واتجاهاتها. وعلى هذا الأساس يبطل عندهم الدين جملا وتفصيلا، إذ كيف يمكن إن تنشا الصلة بين الإنسان وبين هذه القوة المجهولة العمياء التي لا تعقل أو تحس أو تريد!!؟ وكيف يمكن للبشر إن يودعوا عندهم آمالهم وانتظار ومخاوفهم وصلواتهم وما أشبه، إذ هي لا تسمع أو تجيب!!؟

هذا مجمل ما يعتقد به الآخذون بهذا الرأي، ومن الواضح إن خطاه وفساده وعيوبه وتناقضه اظهر من إن تحتاج إلى الإفاضة في الشرح أو التدليل، إذ كيف يمكن إن تدعى هذه القوة أو يصفونها بالقول أنها عمياء ومجهولة، الله!!؟ والله في العرف العام اسمي واعلي من أن يوصف بأنه قوة مجهولة عمياء. ثم كيف يمكن إن تكون هذه القوة عمياء مجردة من الهدف والغرض والخطة المرسومة وكل ما في الكون يتحدث العكس!!؟ إذ يتحدث عن قوة خالقة منظمة دقيقة لابد أنها صدرت عن عقل جبار حكيم مدبر!!؟ بل كيف يمكن لهذه القوة المجردة من الشخصية وغير العاقلة إن تصنع فيما يصنع هذا العقل الإنساني المفكر العظيم؟ إن الأخذ بهذا الرأي والتمشي وراء أصحابه اقل ما فيه انه عبث وسخرية قاسية بهذا العقل الإنساني ذاته!!.

خامسا: الإيمان المسيحي بالله

وهذا يأتي بنا إلى أخر الأمر إلى العقيدة المسيحية العامة عن شخص الله وطبيعته وقد آثرنا إن ندرسها أخر الكل حتى يتاح لنا إن نرى ما بينها وبين سائر المعتقدات والنظريات الأخرى من فروق واختلاف، وحتى يمكن إن نزنها بميزان دقيق صادق من غير مغالاة أو تحيز؟ والواضح أنها تختلف عن غيرها من المعتقدات على الأقل مما يلي:

١- الإيمان بوحدانية الله

والإيمان بوحدانية الله أساس العقيدة المسيحية وقاعدتها، وقد جاء هذا الإيمان إلى المسيحية كما هو معلوم من الديانة اليهودية التي اعتنقته وتمسكت به وتمسكت به في عالم امتلأ وقتئذ بما لا يعد أو يحصى من الإلهة المختلفة!! واحسب إن لا حاجة لنا إلا التوسع في التدليل أو الاستشهاد، إذ إن صفحات الكتاب المقدس والتاريخ اليهودي والمسيحي تشهد كلها على ذلك بما لا يدع مجالا للبحث أو النقاش، ويكفي إن نلمّح أو نشير إلى بعضها على سبيل القياس لا الحصر. فقد جاء في الكتاب المقدس في مواضع مختلفة: "اسمع يا إسرائيل. الرب إلهنا رب واحد "(تث٦ :٤) " وصلى حزقيا أمام الرب أيها الرب اله إسرائيل الجالس فوق الكاروبيم أنت هو الإله وحدك لكل ممالك الأرض "(٢مل١٩ :١٩) "الباسط السموات وحده " (اي٩ :٨) "إليك وحدك اخط " (وز ٥١ :٤) "مبارك الرب اله إسرائيل الصانع العجائب وحده "(مز ٧٢ :١٨) ليس احد صالحا إلا واحد وهو الله "(مت ١٩ : ٢٧) "أنت الإله الحقيقي وحدك" (يو١٧ :٣) "أنت تؤمن إن الله واحد حسنا تفعل "(يع٢ :١٩).

كما إن جميع قوانين الإيمان المسيحي صدرت بعبارات تصرح أو تشير إلى هذه الحقيقة. فالقانون النيقوي الصادر في ٣٢٥ م يبدأ بالفصول :"نؤمن باله واحد..." والقانون النيقوي القسطنطيني الصادر عام ٣٨١م يقول كذلك: "نؤمن باله واحد..." والقانون الذي تقلبه ألان جميع الكنائس الإنجيلية والتقليدية يقول أيضا: "أؤمن باله واحد.." وكذلك أيضا سائر القوانين والتعاليم الأخرى، والقانون الاثناسي والخلكيدوني والترنتي والاوكسبرجي والوستمنستري وغيرها من شتى القوانين القديمة والحديثة، كل هذه القوانين تؤكد وتفصح إن الإيمان بالوحدانية لم يكن العقيدة المسيحية العامة التي يلتف حولها المسيحيون جميعا،بل العقيدة الأساسية التي تشاد عليها وتبنى سائر معتقداتهم الأخرى!!

وظاهر على الدوام إن كل ما في الكون أو الطبيعة يؤكد ويؤكد هذا الإيمان، فالإله الذالي غير المحدود لابد إن يكون واحد، إذ لا يتسع الكون لسواه، ولا ينبغي إن يكون هناك غيره.كما انم كل القرائن والدلائل المستخلصة من اتجاهات الحياة والنواميس الطبيعية تشير إلى هذه الحقيقة أيضا إذ من غير المعقول إن يصدر هذا الكون الواحد المنظم الدقيق عن أكثر من عقل واحد وقصد واحد!!

٢- الإيمان بشخصية الله

على إن المسيحية لا تؤمن بوحدانية الله فحسب، بل تؤمن بشخصيته أيضا أو في لغة أخرى أنها لا تؤمن إن هذا الإله الواحد مجرد قوة أو شيء، بل تؤمن انه شخص حي عاقل واجب الوجود، له كل مقومات الشخصية في أكمل ما يمكن إن تشمل عليه هذه المقومات من معان. وإذا كان من المسلم به إن الشخصية تقوم على الدوام على ثلاثة أركان – لا أكثر ولا اقل- هي الفكر والشعور والإرادة، وان الله هو الشخصية الوحيدة الكاملة إذا قورن بغيره من شخصيات خلائقه،كان لابد إن نعرف شخصية الله، بأنها الشخصية الكاملة الفكر والشعور والإرادة.. إذ هو أول كل شيء الإله المدرك لذاته، والمدرك لكل صنعه، وما إدراكنا نحن، مهما امتد أو اتسع كومضة ضعيفة باهتة إزاء نور معرفته الكامل وإدراكه النهائي.. بل إن المسافة الكاملة بين إدراك الإنسان نفسه وإدراك إي إنسان أو ملاك وإدراك الله أكثر بما لا يقاس بين إدراك الإنسان نفسه وإدراك الملاك.. أو المسافة القائمة بين إدراك الطفل وإدراك الرجل المحنك أو الفيلسوف!!.. الم يقل الكتاب انه ينسب إلى ملائكته حماقة؟ ووصف لآساف نفسه في ضوئه بالقول: "وانأ بليد لا اعرف صرت كبهيم عندك "(مز٧٣ :٢٢) وقال مرنم إسرائيل الحلو :"الظلمة أيضا لا تظلم لديك والليل مثل النهار يضيء. كالظلمة هكذا النور" (مز١٢٩:١٢) فإذا كانت الحقائق تبدو أمامنا كالأشباح، وإذا كان ما نعرف اقل كثيرا وأضأل بالقياس إلى ما يغيب عن إبصارنا وإدراكنا، فمرد ذلك يرجع إلى التفاوت غير المحدود واللانهائي القائم بين شخصيتنا المفكرة وشخصيته هو. وإذا كان الذهن البشري مع هذا كله قد تفتق عما نعرف من هذه الروائع العظيمة التي سجلها التاريخ في كل ميدان من ميادين العلم والمعرفة والفن والاكتشاف والاختراع، فكم يكون إذا ذهن الله وفكره العجيب؟ إلا يصح إن نهتف مع الرسول بعد ذلك القول: "يا لعمق غنى الله وحكمته وعلمه. ما ابعد إحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء، لان من عرف فكر الرب ومن صار له مشيرا "(رو١١:٣٣، ٣٤). ومثل إن يقال عن شخصية الله المفكرة يمكن إن يقال عن شخصيته الشاعرة أيضا، والشعور هو ذلك الإحساس العام الذي ينهض في أعماق الشخصية، ويعبر عما بها من عواطف وانفعالات، وهو بهذا المعنى أساس كل ما نعرف أو نختبر من لذة أو شوق أو حنين أو حب أو كراهية أو نفور أو ما إلى ذلك من أحاسيس والذي من دونه يفقد الفكر حوافزه والإرادة دوافعها ومحركها، وإذا جاز للشعور البشري إن يتبلد أو ينقص أو يخمد أو يبيد، فان مشاعر الله هي النار الآكلة والوائد الأبدية. وإذا كان سمة تراجع أو تقلب في عواطف الناس، الأمر الذي ينزه عنه الله إطلاقا، فان هذا يرجع إلى مشاعرهم البدائية الساذجة الواهنة الضعيفة إذا قورنت بشعوره تعالى الكامل الغير محدود. وما يصح في القول عن شخصية الله المفكرة الشاعرة، يصح أيضا في القول عن شخصيته المريدة، وفي الواقع إن الإرادة – كما وصفها احدهم – ما هي إلا النفس في العمل أو النفس حين تضبط نفسها. ولا يمكن للأفكار أو المشاعر إن تنساب إلى الواقع العملي، ما لم تكن هناك إرادة تحولها إلى ذلك. ونقص الشخصية البشرية يرجع إلى عدم التوازن بين القوى الثلاث في النفس، فقد يفكر الإنسان ما شاء له إن يفكر، وقد يبني في خياله قصورا، وعوالم لانهاية لها، وقد تتمشى عواطفه قليلا أو كثيرا مع كل هذه الأفكار والخيالات، ولكن هذه كلها لا يمكن إن تتبلور إلى حقائق، ما

لم تكن هناك إرادة قوية تتكافأ مع هذه جميعا، الأمر الذي لا يمكن إن نجده سوى في شخصية الله الكاملة فكرا وشعورا وإرادة، ومن ثم يحق له إن يقال عنه وحده "القادر على كل شيء الذي به كل شيء مما كان".

وغاية ما نصل إليه من الإيمان بشخصية الله، إن إلهنا شخص حي عاقل ممتلئ العواطف والمشاعر قادر على كل شيء ولا يعسر عليه أمر، وانه تباعا لذلك، المشوق إلى خلائقه والذي يسعى إلى الاتصال بهم. والتجاوب معهم في شتى الظروف والأحوال والذي يحق له الإجلال والإكرام والتعبد والسجود.

٣- الإيمان بروحانية الله

والمسيحية تؤمن بروحانية الله، أو في لغة أخرى تؤمن إن الله الشخص الحي الواحد ليس جسما ماديا يمكن إن يرى ويلمس أو يدرك بالحواس البشرية، وهو بهذا الأساس منزه عما تخضع له سائر المواد من تحول وتغير وتجزئة وتحدد وثقل وما أشبه. إن الله روح كما يقول السيد المسيح،وهو أيضا أبو الأرواح، إذ أبدع هذه على صورته وشبه، وان اقتصرت الصورة والشبه في واقع الحال على النوع دون الكل،كما تتماثل الشعاعة الواحدة الضئيلة، والحزمة الهائلة من النور أو تتفق الذرة التي لا ترى مع العنصر الكامل الذي تنتسب إليه.

٤- الإيمان بالثالوث في الإله الواحد

وهذا يأتي بنا أخر الأمر إلى العقيدة الأساسية الرئيسية في الإيمان المسيحي بإلهه، ونعني بها إن الله الواحد، الشخص، الروح، ذو الثلاثة أقانيم. وواضح إن هذه العقيدة مما تنفرد به المسيحية عن غيرها من الديانات والفلسفات القديمة والحديثة، إذ لا مراء إن صفحات التاريخ لم تسجل على وجه الإطلاق عقيدة اعتنقها دين أو فكر كهذه التي يؤمن بها المسيحيون. ويكفي ما نشير إلى ما جاء في بعض الديانات والفلسفات من عقائد أو أفكار لنرى البون الشاسع بينها وبين عقيدة المسيحية، فالمصريون القدماء كانوا يؤمنون بثالوث مقدس، ممثل في اوزريس وايزيس وهوريس، ولكن هؤلاء لم يكونوا ألها واحدا، بل كانوا ثلاثة إلهة تمثل العائلة البشرية، إذ كان اوزريس الآب وايزيس إلام وهوريس الابن. كما إن الهنود –وهم كما نعرف أكثر الناس قبولا لعقائد التطور والتناسخ – قد أمنوا بالإلهة "براهما "و " شيفوا" و "شيوا"، وهذه لم تكن عندهم سوى التطورات المتلاحقة في الكون من ناحية "وجوده" و "بقائه "و "فنائه "وكان كل واحد من هذه الإلهة يمثل منظرا منفردا من هذه المظاهر. وقد ابتدع بعض الفلاسفة من القدماء والمحدثين صورا غامضة خيالية فيها هذا المظهر أو ذاك من التثليث، كما ذكر أفلاطون في طيماوس، أو كما جاء في بعض كتابات فيلو وكومت وهيجل وغيرهم.ولكن أين هذه جميعا من الفكر الواضح الحاسم الذي تؤمن به المسيحية عن الله الواحد الجوهر الأحد ذي الثلاثة اقانيم من غير انقسام أو مزج أو انفصال؟!

على إننا ونحن نتأمل هذه العقيدة بشيء من التفصيل والتوضيح لا مندوحة لنا من الاعتراف إننا إزاء سر من أعمق إسرار الوجود والحياة، وإذا كان اغسطينوس وكلفن قد اعترفا إن اللغة اللاتينية على ما فيها من غنى وجمال عاجزة كل العجز عن التعبير عن كنهها وعمقها، فإننا نقول ما هو أكثر من ذلك إذ نقول إن بيان البشر أو الملائكة اعجز من إن يسبر غورها، إلا إذا أمكنه إن يبلغ المستحيل، ونعني به تفصيل الأعماق في طبيعة الله ذاتها. إن المسيحيين لم يؤمنوا بعقيدة الوحدانية والثالوث لأنها من رأي بشر أو إنتاج فكر، بل لأنها الحقيقة التي أعلنها الله، والتي تتمشى في رحاب الكتاب المقدس من مطلعه إلى

نهايته ومع إن الكتاب لم يضع لها الصورة اللاهوتية محددة التي انتهت إليها الأجيال.إلا انه رسم الخطوط الواضحة الصريحة الأكيدة التي تكونت منها هذه الصورة.

عقيدة الوحدانية والثالوث في التاريخ الطبيعي

ولعله من الأفضل حقا قبل إن ندرس هذه العقيدة أو نبحثها البحث الكتابي المجرد إن تلم في شيء من الإفصاح بتاريخها في الكنيسة المسيحية والأطوار والملاحم الفكرية التي اجتازتها، حتى انتهت إلى وضعها النهائي الدائم غير المتغير، بل قد يكون من الصعب علينا إن ندرك ما استعمل من ألفاظ دقيقة حاسمة في صياغة أسلوبها، ما لم نلم بالأفكار المتعارضة التي ظهرت حينذاك في القرون الأولى في التاريخ المسيحي!!

كان المسيحيون أيام الرسل وحتى أوائل القرن الثاني الميلادي لا يفكرون في قليل أو كثير في وضع صيغة معينة محددة للعقائد المسيحية، إذ كانوا يتعلقون بموضوع هذه العقائد ويمارسون "مبادئها "كما جاءت في الكتاب المقدس دون إن يشغلوا بوضع "شكل" معين موحد لها، وكان مرجعهم في إي صعوبة أو مشكلة أو خلاف إلى الرسل أنفسهم أو إلى خلفائهم من بعدهم.. ولكن ما إن انتشرت الكنيسة المسيحية شرقا وغربا، وما إن تعددت أفكار ومذاهب كثيرين من المسيحيين، وما إن بدر الخلاف والنزاع بين هؤلاء حول نقاط متعددة أهمها "مركز المسيح أو الروح القدس" من اللاهوت، حتى باتت الحاجة ماسة إلى إن تقول الكنيسة كلمتها الفاصلة في هذا النزاع الخطير....

ومن العجيب إن مصر القدح المعلى فيه،إذ كان ثلاثة ممن عاشوا فيها وأقلتهم أرضها من أقطابه ونعني به "سباليوس" و "اريوس" و "اثناسيوس ". وقد قامت نظرية "سباليوس" على الوحدة المجردة من الثالوث، ومع انه كان يؤمن بالمساواة المطلقة بين الأب والابن والروح القدس، ومع انه كان يقول أنهم واحد، وما الكلمة "الأب" أو "الابن " أو "الروح القدس" إلا ثلاثة تجليات أو مظاهر لهذا الإله الواحد، وان الله دعي بهذه الأسماء أو الألقاب بالنسبة للعمل الذي قام به، ومن ثم قسم سباليوس عصور التاريخ إلى ثلاثة عصور، عصر الأب أو عصر ما قبل التجسد، وعصر الابن أو عصر المسيح على الأرض، وعصر الروح القدس أو العصر الذي بدا من يوم الخمسين... وقد رفضت الكنيسة هذا الرأي لوضوح مناقضته للكتاب المقدس، الذي يعلم على الدوام انه لم يكن هناك وقت لم يكن فيه كل واحد من الثالوث المقدس قائما بذاته، إذ كان الابن قائما مع الأب منذ الأزل كما جاء في القول: "قال الرب لربي اجلس عن يميني حتى أضع أعدائك موضع قدميك" (مز ١١٠: ١). أو" في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله" (يو١ : ١) أو "قال لهم يسوع الحق أقول لكم قبل إن يكون إبراهيم إنا كائن" (يو٨: ٥٨) وما أشبه من شواهد وإشارات كثيرة تؤكد وجود الابن كابن قبل التجسد. وما يقال عن الابن يقال أيضا عن الروح القدس، إذ يقول الكتاب من بدء الخليقة: "وروح الرب يرف على وجه المياه " (تك١ :٢) كما يقول السيد المسيح: "وانأ اطلب من الأب فيعطيكم معزيا أخر ليمكث معكم إلى الأبد روح الحق الذي لا يستطيع العالم إن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه "(يو١٤: ١٦ و١٧). ويقول "ومتى جاء المعزي الذي أرسله إنا إليكم من الأب روح الحق الذي من عند الأب ينبثق فهو يشهد لي" (يو١٥ :٢٦). هذه وغيرها من شواهد تقطع بوجود الاقانيم الثلاثة معا من الأزل إلى الأبد دون إن تكون مجرد مظاهر أو صور متعاقبة لشخص الله الواحد... ولو أنها كانت تجليات لإعلان صفات الله أو إعماله لما اقتصر الأمر على كونها ثلاثة، بل لتعددت وتنوعت تباعا لإعمال الله وصفاته الكثيرة...

إما اريوس فقد نادى بعدم مساواة الابن أو الروح القدس للآب، إذ إن كليهما في نظره مخلوق من الآب، وعلى هذا الأساس يكونان اقل منه، وان كان الأب قد جعلهما معا مشابهين لطبيعته الإلهية، كما أعطاهما المقام الأول بين الخليقة، إذ خلقهما أولا وفوض إليهما خلق بقية الخليقة والعالم وفداء البشرية بعد سقوطها، ومن ثم خلق العالم وافتداه بواسطة الابن، وهذا بدوره استخدم الروح القدس في الإعمال الذي قام بها إتماما لمقاصد الله الأزلية.. وقد تفرع عن مذهب اريوس مذهب مماثل يدعونه المذهب الشبيه بالاريوسي، ويختلف عن المذهب الاريوسي على الأغلب في أمرين، إذ يعتقد الآخذون به إن الابن والروح القدس لا يشبهان الأب في طبيعته بل ينزلان إلى مستوى اقل، متوسط بين طبيعة الأب وبقية الخلائق... كما يعتقدون إن الروح القدس لم يخلق مباشرة من الأب بل خلق عن طريق الابن!!..

إما اثناسيوس والذي يطلق عليه بطل الإيمان، فقد دخل المعركة مع اريوس حول كلمة واحدة، وان شئنا الدقة حول حرف واحد في اللغة اليونانية، ويطلق عليه لفظ "يوتا "في كلمة "Homoousios" "جوهر" فبينما كان اثناسيوس يريدها هكذا عن الابن ذات جوهر الآب،إذ اريوس يريدها "Homoiousios" مضافا إليه الحرف " i" "يوتا" وتعني من جوهر يماثل ذاك الذي لله، والمسيح بهذا المعنى مخلوق وادني من الآب في الجوهر، وهذا ما رفضتها لكنيسة وقضت عليه وعدته هرطقة كاملة، وطاردت مبتدعيها، واعتبرتهم مضلين وخارجين عليها، وعلى الحق نفسه، ومع إننا لا نستطيع إن نجزم من الوجهة التاريخية الخالصة عما إذا كان القانون الاثناسي المعروف باسمه يرجع إليه أم لا، إلا انه على إي حال يعتبر اقرب القوانين إلى رأيه وعقيدته إن لم يكن هو صاحبه ومنشئه إما صورة هذا القانون فهي كما يلي :

١- إن كل من ابتغى الخلاص وجب عليه قبل كل شيء إن يتمسك بالإيمان الكاثوليكي – إي الإيمان الجامع العام للكنيسة المسيحية.

٢- وهذا الإيمان كل منن لا يحفظه دون إفساد، يهلك بدون شك هلاكا أبديا.

٣- والإيمان الكاثوليكي هو أن نعبد ألها واحدا في تثليث، وثالوثا في توحيد.

٤- لا نمزج الاقانيم ولا نفصل الجوهر

٥- إن للآب اقنوما على حدة، وللابن اقنوما على حدة، وللروح القدس اقنوما أخر.

٦- ولكن الآب والابن والروح القدس لاهوت واحد ومجد متساو وجلال ابدي معا.

٧- كما هو الأب كذلك الابن وكذلك الروح القدس

٨- الأب غير مخلوق والابن غير مخلوق والروح القدس غير مخلوق

٩- الأب غير محدود والابن غير محدود والروح القدس غير محدود

١٠- الأب سرمدي والابن سرمدي والروح القدس سرمدي

١١- ولكن ليسوا ثلاثة سرمديين بل سرمد واحد

١٢- وكذلك ليسوا ثلاثة غير مخلوقين أو ثلاثة غير محدودين، بل واحد غير مخلوق وغير محدود

١٣- وكذلك الأب ضابط الكل والابن ضابط الكل والروح القدس ضابط الكل

١٤- ولكن ليسوا ثلاثة ضابطي الكل بل واحد ضابط الكل

١٥- وهكذا الأب اله والابن اله والروح القدس اله

١٦- ولكن ليسوا ثلاثة إلهة بل اله واحد

١٧- وهكذا الأب رب والابن رب والروح القدس رب

١٨- ولكن ليسوا ثلاثة أرباب بل رب واحد

١٩- وكما إن الحق المسيحي يكلفنا إن نعترف بان كل من هذه الاقانيم بذاته اله ورب

٢٠- كذلك الدين الكاثوليكي ينهانا عن إن نقول بوجود ثلاثة إلهة وثلاثة أرباب

٢١- فالأب غير مصنوع من احد ولا مخلوق ولا مولود

٢٢- والابن من الأب وحده غير مصنوع ولا مخلوق بل مولود.

٢٣- والروح القدس من الآب والابن ليس بمصنوع ولا مخلوق ولا مولود بل منبثق

٢٤- فإذا آب واحد ولا ثلاثة إباء، وابن واحد ولا ثلاثة أبناء، وروح قدس واحد ولا ثلاثة أرواح قدس.

٢٥- وليس في هذا الثالوث من هو قبل غيره أو بعده، ولا من هو اكبر منه أو اصغر منه.

٢٦- ولكن جميع الاقانيم سرمديون معا ومتساوون.

٢٧- ولذلك في جميع ما ذكر يجب إن نعبد الوحدانية في ثالوث والثالوث في وحدانية.

٢٨- إذا من شاء إن يخلص فعليه إن يتأكد هكذا في الثالوث.

٢٩- وأيضا يلزم له الخلاص إن يؤمن كذلك بأمانه بتجسد ربنا يسوع المسيح.

٣٠- لان الإيمان المستقيم هو إن نؤمن ونقر بان ربنا يسوع المسيح هو ابن الله هو اله وإنسان.

٣١- هو اله من جوهر الأب، مولود قبل الدهور، وإنسان من جوهر أمه مولود في هذا الدهر.

٣٢- اله تاما وإنسان تام كائن بنفس ناطق وجسد بشري.

٣٣- مساو للأب بحسب لاهوته ودون الأب بحسب ناسوته

٣٤- وهو وان يكن ألها وإنسانا إنما هو مسيح واحد لا اثنان.

٣٥- ولكن واحد ليس باستحالة لاهوته إلى جسد،بل باتخاذ الناسون إلى اللاهوت

٣٦- واحد في الجملة لا باختلاط الجوهر بل بوحدانية الاقنوم.

٣٧- لأنه كما إن النفس الناطقة والجسد إنسان واحد، كذلك الإله والإنسان مسيح واحد.

٣٨- هو الذي تألم لأجل خلاصنا ونزل إلى الجحيم [١] وقام أيضا في اليوم الثالث من بين الأموات

٣٩- وصعد إلى السماء وهو جالس عن يمين الأب الضابط الكل.

٤٠- ومن هناك يأتي ليدين الإحياء والأموات.

٤١- الذي عند مجيئه يقوم أيضا جميع البشر بأجسادهم.

٤٢- ويؤدون حسابا عن إعمالهم الخاصة.

٤٣- فالذين فعلوا الصالحات يدخلون الحياة الأبدية والذين فعلوا السيئات يدخلون إلى النار الأبدية

٤٤- هذا هو الإيمان الكاثوليكي الذي لا يقدر الإنسان إن يخلص من دون إن يؤمن به بأمانة ويقين...

هذا موجز لا نزاع لا خطير، الذي دب في الكنيسة واشتد خلال القرن الثالث.ومع أن الرأي الاثناسي كان الأرجح والأقرب إلى رأي المسيحيين جميعا، إلا أن أفكار سباليوس وأريوس ومن دار في فلكهما، بلبلت إلى حد غير قليل أفكار السذج والبسطاء وحديثي الإيمان، ومن ثم كان لازما على الكنيسة أن تصل إلى قرار واضح وصريح موحد، وهذا ما حدا بالإمبراطور قسطنطين إلى أن يدعو إلى عقد المجمع المسكوني الأول العام في نيقية عام ٣٢٥م، وقد أيد هذا الرأي الاثناسي، ورفض ما دونه من أراء، واصدر القانون المعروف بقانون الإيمان النيقوي ونصه ما يلي:

"نؤمن باله واحد، آب ضابط الكل، خالق كل الأشياء، ما يرى وما لا يرى، وبرب واحد يسوع المسيح، ابن الله، المولود من الآب، المولود الوحيد، إي من جوهر الأب، اله من اله، نور من نور، اله حق من اله حق، مولود وغير مخلوق ومساو للآب في الجوهر [٢] الذي به كان كل شيء في السماء وعلى الأرض، الذي من اجلنا نحن البشر، ومن اجل خلاصنا، نزل وتجسد وتأنس وتألم ومات، وقام أيضا في اليوم الثالث، وصعد إلى السماء، وسيأتي من هناك ليدين الإحياء والأموات. وبالروح القدس، وأما الذين يقولون انه كان زمان لم يوجد فيه، وانه لم يكن له وجود قبل أن يولد، وانه خلق من العدم، أو انه مادة أو جوهر آخر، أو انه ابن الله مخلوق، أو انه قابل للتغيير، أو متغير، فهم ملعونون من الكنيسة الجامعة الرسولية"..

وقد أوضح المجمع المسكوني الثاني المنعقد في القسطنطينية عام ٣٨١م بأمر الإمبراطور ثيودسيوس ما أجمله المجمع النيقوي الأول بخصوص الروح القدس، فقال في قانونه المعروف بقانون الإيمان القسطنطيني ما نصه:

"... وبالروح القدس الرب المحيي، المنبثق من الأب، الذي هو مع الأب والابن مسجود له وممجد، الناطق بالأنبياء...".

وقد أقرت جميع المجامع اللاحقة في مختلف العصور على وجه قاطع ما ثبت في مجمعي نيقية والقسطنطينية كمجمع ترنت واوجسبرج ووستمنستر وادنبرة وبرنستن، كما أن جيوش المفكرين والمستشهدين قد أخذت بها إلى جانب الأنبياء والرسل، كاكليمندس وايرانيوس، وترتليانوس وديونسيوس واثناسيوس واغسطينوس وانسلموس وكلفن وويسلي بكستر وبسكال وبتلر... حين سئل بيونيوس من محاكميه: "إي اله تعبد؟ " أجاب: "اعبد ذاك الذي خلق السموات وجملها بالنجوم، واغني

[١] إي عالم الأرواح أو الهاوية أو بقاء المسيح تحت سلطان الموت إلى اليوم الثالث.
[٢] المعنى في الأصل ذو جوهر واحد مع الأب.

الأرض بالإزهار والشجر ".وعندما قيل له:"أتعني ذاك الذي صلب؟"بالتأكيد ذاك الذي أرسله الأب لخلاص العالم".أنا امجد الثالوث الأقدس الذي ليس بجانبه اله... ولتهلك الإلهة التي لم تصنع السموات والأرض وكل ما فيها... أنا مسيحي.

وفي ظلال الاكربول كانت الأغنية القديمة في مستهل المسيحية والتي نقلها بازل في القرن الثالث، تمجد الأب والابن والروح القدس. وفي منتصف القرن الثاني كتب بوليكاربوس في رسالته المعروفة : "ربنا يسوع المسيح الذي يخضع له كل شيء في السموات وعلى الأرض، والذي تخدمه كل نفس".وفي القرن الخامس قال يوحنا الدمشقي :"الاقانيم متحدون دون اختلاط أو امتزاج، ومتميزون دون افتراق أو انقسام، إنهم الله الواحد".. وفي القرن الثالث عشر قال توما الاكويني : "الثلاثة اقانيم هم الله الواحد، ولا ينفصل احدهم عن الأخر، لان جوهرهم الواحد هو اللاهوت غير قابل للانقسام ".. كما إن ليبنتز الفيلسوف قال :"إن الذين ينكرون لاهوت المسيح ومع ذلك يصلون له ربما يكونون طيبين ولكنهم مع ذلك ليسوا أساتذة في المنطق".. ولا يمكن أن ننسى ما قاله تشارلز كنجسلي حين صاح : "إن قلبي في حاجة إلى الثالوث كما يحتاج إليه فكري. فاني أريد أن اشعر أن الله يعتني بي وانه أبونا، وانه تدخل وتنازل وقدم نفسه.. إني أريد أن اشعر أن الله يعتني بي وانه أبونا، وانه تدخل وتنازل وقدم نفسه.. إني لا أريد أن أحب مسيحا هو خليقته وصنعة يديه.. مسيحا في إرادته وطبيعته هو اقل من الله!!.. إني أريد أحب وامجد اله الطاهر بنفسه.. وليس هناك ما يمكن أن ينتزع الراحة من نفسي حول يقيني في أن المسيح هو بهاء ذاك الذي به نحيا ونتحرك ونوجد.. واني أقول بقوة وشجاعة، انه إن لم يكن هناك الثالوث في الكتاب، فانه يلزم أن يكون، فكل ما في طبيعة الإنسان الروحية يصرخ في طلبه ".. وفي عام ١٨٦٥ كتب كنجسلي إلى موريس أستاذ الفلسفة الأدبية بجامعة كامبردج يقول :"لقد علمتني يقينا إن عقيدة الثالوث حقيقة حية وليست مجرد وضع سفسطائي يهذر به اللسان، فأنت تعني إن الأب آب حقا، وكذلك الابن والروح القدس.. ولقد شققت السبيل من ذلك، وما زال اشق إلى كل دروسي العملية، بل سأجعل هذه الحقيقة منار خطواتي في الحياة"..

عقيدة الوحدانية والثالوث في الكتاب المقدس

والسؤال الجوهري الحاسم بعد هذا كله هو :ما هو عماد هذه العقيدة وأساسها؟وما برهان صحتها وثباتها؟ ولم بلغت هذا الحد من القوة والرسوخ والاستقرار في التاريخ المسيحي؟ وكيف علت كل منازعة ونقاش وجدل؟ وكيف أمكن أن تتغلغل بهذا الجلال والعظمة والقوة، حتى يهب للدفاع عنها جيوش المفكرين والشهداء على كر الأجيال ومختلف العصور؟..

أن العماد الأول، بل الأوحد، كما أسلفنا القول في الكتاب المقدس.. إذ لا يمكن للإنسان مهما بلغ من قوة الفكر، وعظمة التأمل أن يدرك شيئا في طبيعة الله دون كشف أو إعلان من الله ذاته... وما جاء خارج الكتاب عن التثليث من أفكار فلسفية أو محاجات منطقية ن لم يكن إلا بسطا وعرضا لما في الكتاب، وعن الطريق القياس والماجة والمنطق... وهل يمكن أن يكون الأمر غير ذلك،ما دمنا بصدد سر من أعوص الإسرار التي تواجه الإنسان في كل تاريخه الطويل على هذه الأرض!!؟

والمعنيون بدراسة هذه العقيدة في الكتاب آمنوا بها واستقروا عليها ورسموا صورتها في قوانين الإيمان الكنسية، بعد ما اتضحت لهم عدة من لحقائق الأساسية الجوهرية الدامغة، وإذا لم يكن من السهل الإلمام بهذه الحقائق جميعا، وفي عجالة ولمحة سريعة، فلا اقل من أن نشير إلى أهمها على سبيل المثال:

١- أن أول اسم لله تعالى ورد في العهد القديم هو لفظ "الوهيم ".. ومن العجب أن يجيء هذا الاسم في الأصل العبراني بصيغة الجمع، لا المفرد... وقد حاولوا بعض المفسرين اليهود وغير اليهود أن يردوا صيغة الجمع هذه إلى التعظيم اللائق بشخص الله كما يفعل الملوك عادة عدما يتحدثون عن أنفسهم، ولكت هذا الرأي مردود لأكثر من سبب،إذ أن علماء اللغات يقطعون بان هذه العادة لم تكن معروفة في العهد القديم ن والكتاب نفسه يشهد بان فرعون عندما تحدث إلى يوسف تحدث بلغة المتكلم المفرد إذ قال: "قد جعلتك على كل ارض مصر" (تك٤١: ٤١)، كما أن نبوخذ نصّر قال: "قد صدر أمر مني بإحضار جميع حكماء بابل قدامي " (دا٤: ٦).. وداريوس المادي قال :"أنا داريوس قد أمرت فليفعل عاجلا" (عز٦ :١٢).ولو أن هذه العادة كانت موجودة حقا، واستعملت في اللفظ "الوهيم" للتعبير عن الإجلال لله والتعظيم له، لما قصر الأمر على هذا اللفظ وحده دون بقية أسماء الله الأخرى، ولزم أن ترد هذه أيضا بصيغة الجمع وللزم أن تأتي جميع النعوت أو الأفعال أو الضمائر المرتبطة باللفظ "الوهيم" بصيغة الجمع!! ولكن من العجيب أنها جاءت مرات كثيرة بصيغة المفرد.أن اللفظ "الوهيم "الذي ورد في العهد القديم ألفي مرة يشير بجلاء إلى التثليث في شخص واحد، حتى أشرق نوره تماما في العهد الجديد!!..

٢- ومما لا شبهة فيه أن الوحدانية في طبيعة الله التي ينادي بها الكتاب المقدس،والتي تعزو على كل منازعة وجدل، ليست وحدانية مجردة أو بسيطة كما يشهد بذلك العهدان القديم والجديد على حد سواء،بل هي وحدانية شاملة تكشف عن طبيعة الثالوث التي يؤمن بها المسيحيون.. وإلا فكيف يمكن أن نفسر هذه الوحدانية المسلم بها، والتي اشرنا إليها فيما ذكرنا آنفا من آيات مع التعدد الواضح في كثير من آيات أخرى غيرها!!؟. أو كيف يمكن في لغة أخرى أن نجمع بين الأقوال: "الرب إلهنا رب واحد "

"أنت هو الإله وحدك ". "أنت الإله الحقيقي وحدك".. والأخرى القائلة : "قال الرب لربي اجلس عن يميني حتى أضع أعدائك موضع لقدميك (مز ١١٠: ١) " من صعد إلى السموات ونزل من جمع الريح في حفنتيه؟ من صر المياه في ثوب من ثبت جميع إطراف الأرض ما اسمه وما اسم ابنه أن عرفت " (ام٣٠ :٤) " لأنه يولد لنا ولد وتعطى ابنا وتكون الرياسة على كتفيه ويدعى اسمه مشيرا عجيبا إلها قديرا أبا أبديا رئيس السلام" (اش٩: ٦). "أنا والأب واحد" (يو ١٠: ٢٠). "الذي رآني فقد رأى الأب" (يو١٤ :٩). "صدقوني إني في الأب والأب في" (يو١٤ :١١). "اخلي نفسه آخذا صورة عبد" (في٢: ٦و٧). كيف يمكن أن نربط بين هذه وتلك دون الإيمان بالوحدانية الجامعة غير المجردة البسيطة؟!.

٣- وهذه الوحدانية الجامعة هي المعروفة في الكتاب المقدس :"الأب والابن والروح القدس" وقد التزم بها كل المسيحيون كإعلان عن الله الواحد ذي الثلاثة اقانيم، وليست كتجليات أو مظاهر في ذات الإله الواحد، مما نفيناه ونحن ندحض بدعة سباليوس، أو كالوحدانية البسيطة التي ذهب إليها اريوس، وهو ينكر مساواة الأب والابن والروح القدس بالأب، والتي سيتاح لها مناقشتها ورفضها أيضا عند دراسة لاهوت المسيح والروح القدس..

ولعله من اللازم أن نشير إلى أن المسيحية التزمت بصيغة الوحدانية في شعار المعمودية، الذي هو رمز الدخول في الإيمان المسيحي، إذ أمر المسيح أن تكون "باسم" وليس بأسماء "الأب والابن والروح القدس" (مت٢٨ :١٩) كما

أن البركة الرسولية تضم ثلاثة اقانيم على صعيد واحد في بركة واحدة : "ونعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله الأب وشركة الروح القدس مع جميعكم أمين "(٢كو ١٣ :١٤).

٤- وكالنتيجة المنطقية الطبيعية لما يكشف عنه الكتاب، من انه لا يوجد إلا اله واحد أزلي ابدي سرمدي، وان لا اله سواه وان هذا الإله دعي مرات بالأب، ومرات بالابن، ومرات بالروح القدس، وان هذا لم تكن مجرد كتابات أو نسب أو صفات الله، بل هي ذات الله وجوهر الواحد، وان كلا من الأب والابن والروح القدس يستحق العبادة والإكرام والإجلال والتعظيم، وان كل من الثلاث اقانيم أزلي ابدي واجب الوجود وغير قابل للانقسام والتجزئة والانفصال عن الأخر، وفي الوقت عينه دون مزج أو تركيب أو تجريد، وكلا منهما يقول عن ذاته :أنا، وعن الاقنوم الأخر :أنت، كما أن بين الثالوث الأقدس تميزا في الوظائف والعمل، لان الكتاب يعلّم أن الأب يرسل الابن، وان الأب والابن يرسلان الروح القدس، ولم يذكر أن الابن يرسل الأب، ولا أن الروح القدس يرسل الأب أو الابن، مع أن الأب والابن والروح القدس واحد في الجوهر،ومتساوون في القوة والمجد. كما أن بعض أعمال اللاهوت تنسب في الكتاب إلى الأب والابن والروح القدس معا، نظير خلق العالم وحفظه، وبعضها تنسب على الخصوص إلى الأب وغيرها إلى الابن وأخرى إلى الروح القدس. مثال ذلك ما قيل من أن الأب يختار ويدعو، وان الابن يفدي والروح القدس يجدد. كما أن بعضا من الخواص ينسب إلى إقنوم من الثالوث دون الأخر مثل الأبوة للآب،والبنوة للابن، والانبثاق للروح القدس..

كالنتيجة الطبيعية لكل هذه الحقائق الكتابية خرج المسيحيون إلى العالم بعقيدتهم المسيحية الكبرى، عقيدة الإيمان بالإله الواحد والثالوث الأقدس :الأب والابن والروح القدس اله واحدّ!!.

عقيدة الوحدانية والثالوث أمام المنطق والعقل

أما وقد الممنا بهذه العقيدة من الوجهة التاريخية والكتابة، فقد آن لنا أن نقف منها من الوجهة العقلية المنطقية،وكيف أمكن للفكر المسيحي أن يتقبلها ويسلم بها، مع ما هو مشهود عن هذا الفكر، مع انه أوسع الأفكار وأعمقها وأصدقها وجرأها بحثا عن الحقيقة، وانه لا يتقبل على الإطلاق ما يجافي البديهة والمنطق والعقل!! وذات الملاحم الفكرية – التي اشرنا إليها أنفا- تشهد على ذلك، بل تشهد على أن المسيحية لا تفزع أو ترهب من أن تضع قضاياها جميعا على بساط البحث، بل بالعكس ترحب وتسر بكل ما يغذي ويروي العقل الظمآن إلى معرفة الحق، إذ نؤمن أن الله لم يخلق هذا العقل، ثم يعطي ويصادر في الوقت ذاته ذاتيته وكيانه واجتهاده!!.

وقد واجه العقل المسيحي هذه العقيدة أول ما واجه على اعتبار أنها "سر" من أعمق وأعوص إسرار الوجود.. وكيف لا وهي تتناول طبيعة الله وشخصه!!؟. وقد تقبلها هذا العقل كما يتقبل إي سر أخر من إسرار الحياة والكون بمزاج من التأمل والتسليم دون محاولة رفضها أو الانتقاص منها قبل سبر الأغوار البعيدة والعميقة فيها!!. ومن منا يرفض في الطبيعة سر الجاذبية والكهرباء والذرة، لمجرد انه لا يفهمها ولا يستطيع أن يدرك ما فيها من إبعاد وأعماق!!؟. ومن منا يأبى أن يصدق حركات أو الفكر انه لمجرد انه لا يستطيع أن يستوعب أن كتلة من الشحم أو الأعصاب هي المخ تفعل كل هذا!!؟ ومن منا يأبى أن يقبل عجائب المكتشفات والمخترعات كالراديو التليفزيون والتليفون وما أشبه لأنه لا يستطيع أن يفهم كيف ينتقل الصوت أو الضوء أو الكهرباء في الأثير والهواء!!؟ فإذا كان من المهانة للعقل والسخرية به، أن نرفض هذه جميعا، وهي بعض إسرار

الطبيعة الطافية على وجهها، -لمجرد إننا – لا نعلم إلا بعض ظواهرها، فكم تكون مهانة وأية مهانة وسخرية وأي سخرية أن نرفض أمر يتعلق بطبيعة الله لمجرد إننا لا نستطيع أن نستوعبه وندركه تماما!!؟ ومن العجيب بعد هذا كله أن نرى الناس على استعداد أن تتقبل إسرار الطبيعة بخضوع ورضا ولو من غير فهم وعلم، ونرفض الإيمان بتاتا بأعمق سر في شخص اله وطبيعته!!..

ولا يغرب على البال أن العقل المسيحي واحة هذه العقيدة بأعمال القياس والمنطق.. وقد إلف المسيحيون في العصور الوسطى أن يقولوا أن عقيدة الوحدة والثالوث هي " المدرسة العليا للمنطق والكلام". ومن اللازم أن نقول أيضا هنا أن اللغة البشرية لا يمكن أن تعي المدلولات الكاملة لشخص الله، وذلك لمحدودية اللغة، ومحدودية البشر معا، وهل يمكن أن يعي المحدود غير المحدود؟ ومن ثم فاللغة في حقيقتها إزاء الكمالات واللانهائيان ليست إلا التعبير عما يستطيع البشر فهمه وإدراكه، وإلا فما معنى كلمات "عرش الله"و "يد الله" و "عين الله "؟ وهل لله من يد وعرش وعين، أن لم تكن هذه كلها تدل على سلطان الله وقدرته ومعرفته الكاملة!!؟ وبهذا المعنى اقترب الذهن المسيحي من عقيدة الوحدانية والثالوث، فهو أن عجز وعجزت معه لغة البشر عن سبر غورها وعمقها، إلا انه فهمها وامن بها، ووضع الكثير من حججها عن طريق المقابلة والقياس والمنطق لما يراه من حوله من حقائق متعددة... مع الفارق ولا شك بين العلة والمعلول والمطلق والنسبي والكمال والمحدود..

القياس المستمد من الكون

وهذا الكون كما نعلم واحد، ولكن من المسلم به انه يحمل في جوهره الواحد الحقائق الثلاثة المعروفة Law, manifestation and Force "الناموس"، "الظاهرة"، "القوة" وان هذه الثلاثة قائمة ومتميزة في الجوهر الواحد دون اختلاط أو انقسام.. فإذا صح أن يقال عن هذا الكون من غير ما اضطراب أو تضاد، أليس من الصحيح أن يجد فيه الكثيرون من رجال الفكر مثالا وقياسا يدنى إلى الذهن ما تنادي به المسيحية من الوحدانية والثالوث في الإله الواحد؟

القياس المستمد من الطبيعة

وهناك قياس أخر يؤخذ من طبيعة الإنسان نفسه، وهذه الطبيعة تمثل ظاهرة الواحد في الثلاثة، والثلاثة في الواحد!!. وسواء اعتبرنا هذه الطبيعة كما اعتبرها اغسطينوس في ثلاثية "الذاكرة والفهم والإدراك" أو ثلاثية "العقل والإدراك والمحبة" أو كما ينظر إليها غيره من زاوية "العقل والشعور والإرادة"أو كما يميل بعض اللاهوتيين إلى تصور أن الإنسان مكون من ثلاثية "النفس والروح والجسد" ممن يحاولون التفرقة بين النفس والروح.. لكنها على إي حال ترينا التعدد في الوحدة في ذات الإنسان الواحد!!. ويفضل كثيرون هذا القياس إذ هو في عرفهم القياس العملي اللصيق لذات الإنسان، ولعله القياس المغري والحاجز معا للفكر الإنساني، وهو بصدد التأمل في هذه العقيدة الكبرى.. أما انه يغري الإنسان على التسليم بما في طبيعة الله من وحدانية وثالوث فظاهر من انه إذا كان كل إنسان يحمل في ذاته الوحدة والتعدد من غير غرابة أو تناقض، فلم لا يمكن التسليم بوجود الأمرين في شخصية الكائن الأعلى السرمدي الكامل؟. أما مثل اللغز مع نفسه، فكيف له أن يتصدى لفهم أو حل السر الإلهي العظيم؟.

القياس المستمد من طبيعة الله

وهناك القياس المستمد من طبيعة الله ذاتها، وهو القياس الذي أخذه اغسطينوس من طبيعة "الله محبة" إذ تكون المحبة عاطلة وغير ذات موضوع ما لم يكن هناك محب ومحبوب وذاتية المحبة.. وهذا لم يجد لها اوغسطينوس حلا إلا في الثالوث القائم في ذات الإله الواحد!! ولعله استعان على ذلك بقول المسيح لأبيه في الصلاة الشفاعية : "لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم" (يو١٧ :٢٤).. بل لا مفر من الإيمان بهذه العقيدة، ونحن نتأمل الكثير من الصفات الذاتية في شخص الله، فمثلا إذا كانت كافة الأديان تسلم بان من صفات الله النطق، إذ هو الله الناطق المتكلم، تعين أن نسال:

ومع من كان يتكلم الله أو ينطق، قبل أن تكون هناك خليقة من ملائكة أو ناس!!؟

هذه وغيرها من الحقائق تساعد على اليقين بان الطبيعة الإلهية لا يمكن أن تكون في وحدانيتها مجردة أو بسيطة. ومن ثم أعانت الفكر المسيحي على قبول الثالوث في الوحدانية..

أما تلك الاقيسة الأخرى المستمدة من الطبيعة كالقياس المأخوذ من الشمس،إذ أنها وهي ذات جوهر واحد، إلا أن فيها الجرم والشعاع والحرارة، وهذه الثلاثة لا تنفصم أو تنقسم فذ الذات الواحدة.. وهذه وغيرها من أقيسة في الطبيعة وما شاكل، وان كانت لا تبلغ في دقتها ومدلولها الاقيسة الأولى المشار إليها أنفا. إلا أنها قد تكون أدنى إلى فهم العامة، واقرب إلى تصورات أولئك الذين لم يؤتهم الله حظا كبيرا من الثروة الفكرية أو العمق الذهني..

عقيدة الوحدانية والثالوث وحكمة التأمل فيها

وإذا انتهينا من بحث هذه العقيدة والإلمام بها من جوانبها ثلاث التاريخيات والكتابية والمنطقية.. بقي ثمة سؤال أخير لابد من عرضه والإجابة عليه والسؤال هو: هل من ضرورة وفائدة من التأمل في هذا الموضوع كله؟ وما حكمة الله وغايته أن يفهم الناس أن الواحد الأوحد ذو ثلاثة اقانيم؟ وهل يزيدهم هذا ويدفعهم نحو حياة اعلي واسمي واقرب إلى الله واتقى؟. أن الله إذ يكشف عن سر ويزيح النقاب عنه لابد أن يهدف إلى غاية عظمى، وقصدا ساميا!! فما هو هذا القصد وهذه الغاية من هذا الإعلان المركّز في قلب الديانة المسيحية؟.. من المسلم به أن هذا الإعلان لم يصدر عن الله – خل جلاله- عبثا، بل كان حتما ولازما مع تزايد الإعلان الإلهي وتدرجه.. وكان لابد أن يتوج به الوحي الإلهي كالإعلان الأعلى والاسمي عن طبيعة الله التي ظلت مستغلقة دهورا طويلة على الجنس البشري.ولم يكن من السهل على البشر تبين هذه الطبيعة وهم في طفولة الحياة ومهد الأيام.. كيف لا والقول بغير ذلك معناه انسكاب النور في الظهيرة قبل مجيء الفجر أو الضحى؟ أو تعلم الطفل أخر المعلومات والفلسفات قبل إن يحبو أو يتلقن الحروف والمبادئ الهجائية!! إن تدرج الوحي وبلوغه السمو والكمال في العهد الجديد، كان لابد أن يصاحب بهذا الإعلان حتى يقترب الإنسان شيئا فشيئا من عظمة طبيعة الله المذهلة للعقول.. على إن الأمر أكثر من ذلك بكثير، إذ ليس المقصود من الإعلان عن الوحدانية والثالوث مجرد إمتاع الذهن أو إرواء العاطفة والمشاعر بالجلال اللانهائي في شخص الله، بل الإعلان الكامل عن عملية الفداء العجيبة، وكيف استقرت في قصد الآب الأزلي،، وتمت بفداء "الابن" وعمل وتقديس "الروح القدس".. وكان من المتعذر بل من المستحيل، فهم هذه العلية وإدراك حكمتها ومعناها وغايتها ووسائلها، دون إدراك كيف أحب الله – الآب- العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به – بعمل الروح القدس- بل تكون له الحياة الأبدية!!.

بل أن هذا لإيمان يشجع ويدفع الإنسان إلى شركة أعمق وأجرا واقوي وأدق مع الإله الواحد والثالوث الأقدس العظيم.. إذ يدنيه من الآب السماوي بنعمة شفاعة الابن المبارك، وقوة وفاعلي الروح القدس. وفي الحقيقة إن هناك علاقة وثقى بين مجد الله في هذا الإعلان، وفائدة البشر ونموهم وتقدمهم، صوب المعرفة والنور والحق والجمال والكمال. وإذا كانت العقيدة الاثناسية قد عرفوها قديما : بأنها اللحن الرائع في الإيمان المسيحي الذي رفع أذهان وقلوب الكثيرين، فمن الحق إن نقول إن الموسيقى الصادحة المنبثقة من عقيدة الوحدانية والثالوث، كانت وما تزال أعذب أنشودة وارق نغم، وتردد في جنبات الكنيسة طوال عصور وأجيال التاريخ المتعاقبة وستبقى هكذا حتى ننتهي جميعا، ونعبر في الموكب الأبدي إلى حضرة الله، ونراه في معرفة كاملة لم تتحقق لنا في تاريخنا الطويل على هذه الأرض!!.

الفصل الرابع: إيماني بصفات الله

إن السؤال الثالث المثير الذي لابد من الإجابة عليه بعد إن عرضنا لأهم سؤالين طرحا على الذهن البشري عن وجود الله وطبيعته وهو: ما صفات هذا الإله وما الإله وسجاياه؟ ولعل هذا السؤال لا يقل عن السؤالين الآخرين أهمية وأثرا، بل لعله لا يقل عنهما في إيضاح وإبراز الفروق والخلافات بين كافة الأديان المعتقدات والمذاهب التي عرفها الإنسان طوال عصور التاريخ، والتأثير في حياة الناس ورسم مبادئهم وطبع مناهج الفكر والأخلاق والسلوك عندهم، ومقارنة الأديان، وتطور القيم الخلقية في كل جيل وعصر، يفصحان عن ذلك تمام الإفصاح فحيث امن الناس في الشرق القديم بان الإلهة مرهبة باطشة مفزعة، وإنها ترحب بالقرابين والذبائح البشرية، اندفعوا في الخوف منها والزلفى لها بتقديم أولاهم وفلذات أكبادهم على مذبحها الرهيب!! وانعكس هذا على حياتهم فأضحوا يدرون أو لا يدرون مولعين بسفك الدم والانتقام والقسوة والحرب، وحيث اعتقد الناس في الغرب إن الإلهة تحب وتغار وتتزاوج وتنسل حتى انفعوا في اللهو والعبث والمجون والفجور والشهوات بل امتلأت حياتهم بما وصفه الرسول في ختام الإصحاح الأول من رسالة رومية، وهو ينظر إلى مباذلتهم وفساد شرورهم وأوحالهم وآثامهم، ممل قيل انه وقع تحت عينيه في مدينة كورنثوس وهو يكتب رسالته العظيمة هناك.. فإذا تركنا الفكر الوثني عن الله، ودلفنا صوب اليهودية والمسيحية رأينا كم يصنع الفكر عن الله عند المسيحي كاب محب متدان مشفق رفيق ما لا يصنعه في حياة اليهودي، مما لا يرى الله أو يتعلم عنه إلا في مرآة الناموس والوصايا والأوامر والنواهي والطقوس!!..

هذا التصور في صفات الله لم يغب عن إظهار الكثيرين من رجال الإصلاح والتهذيب وعلم النفس والاجتماع، فراحوا ينبهون إلى وجوب تنشئة وتربية الصغار والإحداث على الفهم الصحيح والإدراك العظيم لهذه الصفات، ونحن نلقنهم التعاليم الدينية السامية عن الله، وفي ذلك يقول جورج هربرت رتس في كتاب : تعليم الدين اليوم" ما ملخصه: "إن الفكر عن الله ومعرفته مما نلقنه للطفل عامل قوي وفعال في تطوره ونموه، فاله "محبة" و "رحمة" في ذهن الصغير سيطبع ولا شك هذه الصفات في أعماق نفسه، ويعكسها على حياته وتصرفاته جميعا، واله يهتم بخير الإنسان ويعمل معه على تحسين العالم ينشئ في ذهن الصغير عزما ورغبة في العمل مع هذا الإله المحسن لتصحيح الأخطاء وتحسين الأوضاع اللازمة والضرورية للمعيشة الحسنة والخير العام!!.. فإذا اظهر الله أمام الصبي بوضوح كاله قانون ونظام وليس اله غموض وإبهام فان هذا ولا شك سيدفعه ويوعز إليه بإمكان الاعتماد على الله في كل ما هو حسن وحق وجميل وعادل، كما سيدفعه إلى التمسك بهذه الصفات والخلال في إعماله وسلوكه.. ولذلك فان الفكر عن الله يعد من أهم وأعظم ما ينبغي إن نقدمه للشباب خلال التعليم الديني".

لقد ذكر بيبي لوتي انه كان يدخل وهو صغير إلى الحوش الخلفي لمنزله ليقذف ويرمي الحجارة على الله في الجو، بسبب المطر الذي افسد يومه في النزهة والفسحة، إذ تعلم إن كل ما يطلبه في الصلاة مؤمنا يجده وبناله، وقد صلى هو بحرارة عبثا من اجل يوم صاف جميل.. إن الطفل الذي يلقن إن الله حي بعين لا تغفل أو تنام لتكشف أخطاءه وانه يسجل هذه الأخطاء ضده في كتاب، قد يستولي عليه من الإحساس ما يحجب شعور الإجلال عنده تجاه الله.. وليس حسنا إن نحث الشباب على محبة الله كواجب، فالمحبة لا يمكن إن تأتي كالإحساس بالواجب أو الإلزام إذ تنبع تلقائيا من القلب وهي تستجيب في ذلك للصفات المؤثرة والجاذبة في ذلك المحبوب!!.. والطريقة الوحيدة ليحب الشباب الله أن نقدمه لعقولهم و قلوبهم الإله المحبوب.. ومن ثم فأول سبيل يحتاج إليه الطفل إن يتصور الله كالأب المحب الذي ينشد من أولاده الثقة والولاء والطاعة.. الإله المؤثر والجاذب كصديق ومعين.. الإله القريب المتداني وليس الإله البعيد في طبقات الجو العليا.. الإله الذي يتفهم أولاده ويعطف عليهم ويشترك وإياهم في مسرات الحياة ومآسيها وإحزانها.. الإله الخالق مانح نور الشمس والإزهار، وفوق الكل الإله الذي يملأ القلب بالمحبة والفرح والسعادة. إن ديانة الطفل كديانتنا ينبغي إن يكون الله مركزها، إذا رمنا السيطرة الكاملة على حياته بأكملها.. فإذا عرفنا كل هذه الحقائق واستوعبها عقولنا وقلوبنا وضمائرنا جميعا، كان السؤال إذا عن صفات الله من أهم وأعمق الأسئلة التي لابد من الاستماع اله، والتأمل فيه، والإجابة عليه!!..

ولا احسب انه من اللازم أن نشغل أنفسنا كثيرا ونحن بهذا الصدد في تعريف: ما معنى صفات الله؟ وما الفرق بين "طبيعة الله "و "صفاته ". أو كيف يقسم رجال اللاهوت هذه الصفات إلى مختلف التقسيمات التي درجوا عليها، كتقسيمات إلى "صفات ايجابية وأخرى سلبية" فالايجابية ما ينسب إليه تعالى من الفضائل والكمال، والسلبية هي ما تنفي عنه ما لا يليق بشأنه تعالى، كنفي انه مركب أو حادث أو متحيز أو محدود أو ما أشبه من السلبيات والنقائص!!.. أو تقسيمها إلى "صفات ذاتية وأدبية" فالذاتية كالأزلية والعلم والمشيئة والقوة وغير المحدودية، والأدبية كالعدل والقداسة والحق والرحمة!!.. أو تقسيمها إلى "مشتركة وغير مشتركة" فالمشتركة هي ما توجد في الله والبشر في حدودهم الخاصة، كالقوة والمعرفة والمشيئة والحق والجودة، وغير المشتركة ما ينفرد به تعالى، كالأزلية وعدم المحدودية وعدم التغيير!!.. أو تقسيمها إلى "حقيقية ونسبية"فالحقيقة هي ما يختص به الجوهر الإلهي بلا تعلق بما هو خارج عنه كالوحدانية والذاتية وعدم التغير والكمال المطلق، والنسبية هي ما تختص به ذاته الإلهية السامية متعلقة، كالسرمدية بالنسبة للزمن، وعدم التحيز بالنسبة للمكان، والقدرة بالنسبة للخلق، والجود والعدل والقداسة والكمال وما اسبه بالنسبة للأدبيات.. فهذه التقسيمات وغيرها على ما فيها من أهمية وأصالة وقوة رأي إلا أنها لا يمكن إن تكون جامعة مانعة.. وإلا فما الفرق بين الصفات الذاتية والأدبية عند من قسموها كذلك، وألبست ذات الصفات الأزلية أدبية والعكس صحيح!!؟ وما الفرق بين الحقيقية والنسبية؟ وألم تكن النسبية حقيقية قائمة في ذات الله قبل إن يوجد ما يقال انه خارج عنه متعلق به، كالزمن والمكان والخلق والأدبيات وما اشبع!!..

الحق انه من الأفضل والأصح إن نعدل من هذه التقسيمات جميعا، لنأخذ من صفات الله ما نستطيع الإلمام به في يسر وعجالة وغير مشقة، مستهدين في ذلك بكتاب الله وأصول الإيمان، وما يحرص إليه عدد غير قليل من أئمة الفكر ورجال الدين في العصور الحديثة ممن يضعون هذه الصفات تحت مجموعة محددة متقاربة متناسقة، وهاكم فيما اعتقد اظهر وأوفى هذه المجموعات:

الله السرمدي الأزلي الأبدي

والسرمدي لغة يعني الدائم. والله السرمدي هو الله الأزلي الأبدي غير المتغير، المنزه والمستقل عن الزمن والذي لا بداءة أيام له ولا نهاية، الإله الذي تعبد له إبراهيم في بئر سبع باسم الرب الإله السرمدي (تك٢١: ٣٣) وغنى له موسى في مزموره العظيم: "من قبل إن تولد الجبال، أو آبدات الأرض والمسكونة، منذ الأول إلى الأبد أنت الله.. لان ألف سنة في عينيك مثل يوم أمس بعدما عبر وكهزيع من الليل " (مز٩٠: ٢و٤). وهتف له المرنم : "من قدم أسست الأرض والسموات هي عمل يديك هي تبيد وأنت تبقى وكلها كثوب تبلى كرداء تغيرهن فتتغير وأنت هو وسنوك لن تنتهي" (مز١٠٢: ٢٥-٢٧). ولئن كان من الصعب على الناس قديما إن يفهموا معنى الزمن، إذ أخر ما وصلوا إليه انه: "امتداد موهوم غير مستقر الذات، متصل الأجزاء" أو "أمر اعتبار نسبي فيه ماض وحاضر ومستقبل بالنسبة لتوالي الحوادث وتسلسلها". وإلا إننا بفضل تفكير اينشتين ونظريته قد أمكن إن نحدد معناه تحديدا عمليا دقيقا ميسور الفهم سهل الإقناع، ونظرية هذا العالم الكبير تقوم على ربط الزمن بالحركة!! فما الزمن عنده إلا مجموعة من الحركات وجد بوجودها، وارتبط بقيانها، إذ إننا نقيس "اليوم" على الأرض بأربع وعشرين ساعة لتمام دورة واحدة حول نفسها تجاه الشمس، غير إن هذا اليوم يبلغ اثنين وستين ساعة على كوكب سيار أخر،إذ يدور حول نفسه أمام الشمس بسرعة تختلف عن سرعة دوران الأرض!! وما يقال عن اليوم يمكن إن يقال أيضا عن "العام". والخلاصة عند اينشتين إن الزمن ما هو إلا مجموعة من الحركات اصطلح الناس على قياسها بهذه الآلة التي تدعى "ساعة" فإذا وقف الحركة أو انعدمت بطل هذا الذي ندعوه في عالمنا باصطلاح "الزمن " وانعدم بالتالي ما يمكن إن يقال عنه انه :"ماض وحاضر ومستقبل". فإذا كان الزمن هو الحركة وإذا كانت الحركة لا يمكن للحركة إن تفسر إلا ""بالحث" و"التطور" فان الله المزه عن "الحث" و "التطور" وعلة كل "حركة" و"أساسها" لابد إن يكون سابقا للزمن ولاحقا عليه!!.. وهنا يلتقي أخر ما وصل إليه العلم بالحق الصريح القديم في كتاب الله. وما فكر اينشتين هذا أعظم عباقرة الدنيا في القرن العشرين، إلا تفسيرا علميا صحيحا لقول الرسول يعقوب عن الله في الوحي الأمين:" الذي ليس عنده تغييرا ولا ظل دوران" (يع١: ١٧)! وهل فره هذا إلا التفكير العلمي الدقيق الرائع لقول الملاك ليوحنا في سفر الرؤيا عن نهاية الزمن والتاريخ :"ولا يكون زمان بعد" (رؤ١١: ٧). فإذا كان الوحي والعلم بعد يكشفان عن استقرار الله ودوامه قبل وبعد الزمن، بل يكشفان أن الزمن ما هو إلا يد الله في دفع التاريخ كان لنا إن نستخلص هنا المزيد من الحقائق والكثير من التعليم!! فنعلم أول كل شيء معنى اسم الله "أهيه الذي أهيه" الذي ذكره تعالى لعبده موسى عندما أعلن له ذاته في جبل حوريب أو الـ "الكائن الذي كائن" أو الغير متغير في طبيعته إذ هو الماضي كما هو الحاضر أيضا والمستقبل لا يناله ضعف أو نقص أو تحول أو قصور أو عجز في لغة أخرى نعلم إن الزمن الذي يحمل للبشر –كما قال احدهم – التغير والفساد الذي يدهم قوتهم بالعجز والوهن الضعف إن آجلا أو عاجلا، ويسخر من حكمتهم إذ يمحو من الماضي عبرة الذكرى، كما يحجب عن المستقبل جلال الرؤية.. هذا الزمن ليس له من قوة البتة على الله الأزلي، إذ هو أمسا واليوم والى الأبد.. كما نعلم أيضا معنى القول: "له وحده عدم الموت" (١تي٦: ١٦) إذ ينتفي عنه جلاله الظاهر "التطور" في الموت ومن ثم فهو الحي الدائم الذي لا فرق له بين ما يدعى الماضي والحاضر والمستقبل، إذ الجميع لديه سواء، يراها في أسرع من ومضة كما ترى العين قافلة من النمل تسعى سائرة متدافعة من أولها إلى أخرها في وقت واحد، مع إن النملة الواحدة منها لا تكاد تعرف إلا أنها مندفعة في خط طويل لا يمكن إن ترى له أول ولا أخر!!.. أو كما ترى ملايين من الجراثيم تحت المجهر في لحظة، مع إن الجرثومة الواحدة بالنسبة لباقي الجراثيم كأنما هي في عالم غير منته وبلا عدد أو حصر أو حدود.. ونعلم أخر الأمر إن رجاء المؤمن لا يمكن إن يعيش

ويزدهر ويحيا إلا في الإيمان بالإله الأزلي السرمدي الدائم، إذ إن أجمل صفحات التاريخ لم يكتبها من الرجال والنساء إلا من آمن بالانعتاق من المحدود وتخطى الزمن والانطلاق العارم وراء ذلك الذي أبطل الموت وأنار الحياة الخلود بواسطة الإنجيل!!. وكيف لا وقد كان العاصم لهؤلاء من اليأس والقنوط والفشل هو اليقين بأنهم يحبون ويعيشون على هذه الأرض، في انتظار ما هو دائم وباق وابدي وخالد عند الله.. الحق والخير والجمال والمحبة!!. لقد نظروا إلى ما فوق وإذ فعلوا هكذا وجدوا القوة التي حررتهم ورفعتهم ومكنتهم من غلبة العالم، الانتصار على ما هو فيه من زهو أو غرور أو رعب أو فزع أو حماقة أو أباطيل.. إن من يتجاوزون الزمن ليولوا ظهورهم ما يمكن إن يفله من الخوف أو القلق أو الشك أو التغير أو الزهو أو الاعتداد أو ما أشبه مما يفجع الناس أو يقرضهم أو يقوض احلي واعز أمانيهم.. إن من يفعلون هذا أولئك الذين يدعون مع أبي المؤمنين إبراهيم كما دعي عند الاثلة القديمة في كنعان باسم الرب الإله السرمدي الدائم.. ويهتفون مع الصبي الباريسي الصغير الأصم، الذي ارتفع فوق علته وأجاب عندما سألوه عن الله الأزلي الأبدي: "انه الدوام بلا بداءة ونهاية، والوجود بدون حدود أو إبعاد، والحاضر بدون ماضي أو مستقبل، كما إن أزليته شباب بدون طفولة أو شيخوخة، وحياة بدون موت أو ميلاد، وبوم بدون أمس ولا غد"..

الله الغير المحدود

والله الغير محدود هو الله الحاضر الدائم وفي كل مكان والمنزه والمستقل عن التحيز والتركيب والتجزئة والاختلاط والاندماج مع غيره من المخلوقات أو المصنوعات. المالئ السموات والأرض والمتداني، الإله الذي هتف إمامه المرنم القديم : "أين اذهب من روحك ومن وجهك أين اهرب. إن صعدت إلى السموات فأنت هناك. وان فرشت الهاوية فها أنت. إن أخذت جناحي الصبح وسكنت في أقاصي البحر فهناك أيضا تهديني يدك وتمسكني يمينك" (مز ١٣٩: ٧-١).

فإذا صح أن يقال. ولكن هذا فوق مقدور العقل أو ألفه البشري، إذ كيف يمكن إن يملا الله كل مكان من غير اختلاط أو اندماج مع غيره من سائر المخلوقات أو المصنوعات!! اجبنا :بأنه إذا كان هذا حقا فوق مقدور العقل فليس سمة من الضرورة إن يكون منافيا له أو مضاد لأعماله واجتهاده ومنطقه، وها العلم الحديث يضع بين يدي الإيمان حجة لم تكن معروفة من قبل عن المادة والمكان إذ يقول: "إن أي منظر تراه في قطعة أثاث في بيتك هي في حقيقتها عبارة عن مجموعة من الذرات. وكل ذرة هي عبارة عن شحنة من الكهرباء الموجبة والسالبة.. والكهرباء هو مجرد حركة وارتجاج وتذبذب في الأثير.. كل الفرق بين منظر وأخر هو اختلاف في عدد الذبذبات واختلاف في طول الموجات. وفي علاقة الموجات بينها وبين بعض.. فالموجات من طول معين تؤدي إلى الإحساس باللون الأحمر في العين وبنغمة غليظة في الإذن، وبلمس خشن عند الملمس وبكثافة معينة وكتلة معينة، فإذا تغيرت في الطول والذبذبة فان مدلولها الحسي سيتغير تماما ويعطي شيئا أخر بالنسبة للعين والإذن واللمس. والفرق بين أجسام الجماد والنبات والحيوان والإنسان، هو إن الذرات مركبة في كل منها بطريقة مختلفة عن الأخرى والذبذبات والموجات مختلفة في أطوالها وعلاقتها بين نوع وأخرى، ومن ثم فهي تتجمع تارة على هيئة جماد وتارة على هيئة نبات وثالثة على هيئة حيوان ورابعة في تكوين إنسان!!. والتليفزيون استطاع إن يكشف عن هذه الحقيقة ويحل شفرة الصور فيلتقط أمواجها الأصلية، وينقلها عبر الفضاء يعكسها على الشاشة فنرى ونسمع من هم على إبعاد كثيرة في الأرض من دون حاجز أو عائق!! فإذا أضيف إلى ذلك بان العلم قد وضع مؤخرا بين يدي البشر حقيقة أصول الأشياء عندما أمكنه تقسيم الذرة وتفتيتها فلم تعد كما وصفها دالتون في نظريته المعروفة عام ١٨٧٠م من أنها اصغر من جزئ دقيق غير

منظور لا يقبل التجزئة، بل أمكن تفتيتها وتحويلها إلى طاقة اخرج منها في ذرة اليورانيوم ذلك الإعصار الهائل المعروف بالقنبلة الذرية.. وهل هذه الطاقة في الاصطلاح العلمي إلا قول الله "كن فيكون". وهنا يلتقي أخر مطاف العلم بالصفحة الأولى في سفر التكوين، بل أن نفهم إن العالمين أتقنت بكلمة الله حتى لم يتكون ما يرى ما هو ظاهر!!..

وإذ يكشف العلم عن كل هذا مصداقا وتأييدا لوحي الله لم يعد من الصعب بعد ذلك إن نؤمن بالله الروح غير المحدود المالئ لكل مكان وزمان من غير ما ربط أو خلط أو مزج بغيره من سائر المصنوعات والموجودات والمخلوقات!!..

فإذا قيل أين هو الله!!؟ اجبنا أجبنا دين هودج عندما قال في كتاب "تعليم الأطفال الدين" : "إن الله في العالم كما إن النفس في الجسد، ونفسنا تسكن في كل جزء من أجزاء الجسد وحياتنا هي التي تجعل أجسادنا حية، وأي الم في إي جزء من أجزاء الجسد يؤلمنا، ونفسنا في كل جزء من أجزاء الجسد في الوقت ذاته، وروحنا غير منظورة وغير ملموسة ونحن لا نقدر إن نرى أنفسنا كما لا نقدر إن نرى الله، وبهذا المعنى يمكن إن يكون الله غير المنظور موجودا في الكون، وهو هناك عند أضخم كوكب وهو هنا عند اصغر طفل، كما إن نفسنا في الوقت ذاته في الدماغ وفي اصغر أصبع، وهو موجود قائم في كل حياة، كما إن النفس في الجسد ومع ذلك ليست في الجسد.. هل اله هنا؟ هل الله في النار؟ هل الله في الشجرة؟ نعم إن الله في النار وفي الشجرة مثل الشمس، وهو فيك وفي صديقك عبر البحار كما إن النفس توجد في إبهام اليد!!؟ الله في السموات كما إن الشمس في الجو أو النفس في الجسد إذ هو يوجد ويملأ جميع العالمين.." أو اجبنا إجابة تلك الصغير الذي وعده احدهم إن يعطيه تفاحة إذا استطاع إن يقول:" أين يوجد الله؟". فأجاب الصبي على الفور: "وأنا مستعد إن أعطي تفاحتين لمن يقول لي أين لا يوجد الله". على انه لا مندوحة في الإشارة ههنا إلى هذا الوجود والحضور الدائم لله في كل مكان هو ما يطلق عليه رجال اللاهوت "الحضور العام" تمييزا وتخصيصا له عن "الحضور الخاص" والذي يقصد به إعلان الله ذاته لخلائقه العاقلة. فالحضور العام هو حضور الله الأزلي الأبدي السرمدي غير المحدود الذي لم يره احد قط، ولا يقدر احد إن يراه.. أما الحضور الخاص هو إظهار الله ذاته في أماكن مختلفة وأزمنة متباينة لغايات حكيمة ومسيئات سرمدية. فالله يظهر ذاته لملائكته التي ترى وجهه في السماء كل يوم، والله يعلن ذاته في الأبدية لخدامه وعبيده " وهم ينظرون وجهه واسمه عل جباهه" (رؤ٢٢: ٤). كما انه سيظهر ذاته في الدينونة للأشرار ممن يصيحون للجبال إن تسقط عليهم وتغطيهم من وجه الجالس على العرش، ومن غضب الحمل. وقد أعلن ذاته في أجيال متعاقبة للكثيرين من الأنبياء والرسل وكتبة الوحي، وما يزال إلى اليوم يعلن عن ذاته ويكشف عن حضوره في التاريخ والكنيسة والحوادث واختبارات القديسين.. قد حق لأحد المؤمنين إن يقول: "الله أمامي فهو مرشدي، واله خلفي فلا ضرر يمكن إن يلحق بي، والله إلى جواري لتقويتي وتعزيتي، والله حولي فلن افزع فلن افزع أو أخاف؟". وحق الأخر وهو في ضجعة الموت إن يغني أغنية اوغسطينوس توبليدي والتي مطلعها: "أيها المفادي الغفور.. ملجأي صخر الدهور". وكان عاملا في منجم، وقد انهار المنجم فوقه وفوق عدد كبير من رفقاءه العمال وظلت فرق الإنقاذ تعمل ليلا نهارا، حتى أنقذت منهم من أنقذت ودفن هو في حفرة وده وإذ سمع صوته من بعيدا أتيا ضعيفا واهنا خافتا صاح واحد من فلاق الإنقاذ : "هل هناك احد؟" فجاء الصوت: "اجل ولكن قدمي سحقت تحت الصخرة ".. فعاد السائل يقول: "وهل أنت وحيد؟" أجاب: "بالتأكيد لا، إني مع يسوع كما علمتني أمي في الأغنية الحبية، واخذ يغني وهو يجود بأنفاسه الأخيرة:

ومتى حل الأجل وانتهى كل العمر

فأناني في حماك منزلا قرب سناك

أيها المفادي الغفور ملجأي صخر الدهور

وصمت الصوت ولم يسمع بعد!! وعندما عثروا على الجثمان، رأو وجها رائعا نديا، لم يستطيع الموت بكل قوته وقسوته أن يمحوا ما ارتسم عليه من هدوء وجلال ويقين وسلام... وجه إنسان نام هناك في الأعماق في حضن الله!!..

الله القوي والقادر على كل شيء والسيد

والكلمة "الله" و "إيل" و "ألوهيم" من أصل سامي يعني القوة!! ويبدو إن صفة القوة كانت من اسبق الصفات التي أدركها الإنسان في الله، إذ يقول لموسى: "وأنا ظهرت لإبراهيم واسحق ويعقوب باني "إيل شداي" الإله القادر على كل شيء.وأما باسمي يهوة فلم اعرف عندهم (خر٦: ٣).. وقد عرف الإنسان هذه القوة من وجهات ونواحي مختلفة، إذ أن اللفظ " ألوهيم " يشير على وجه اخص إلى الله في قوته الخالقة، والضابطة للكون والوجود.. كما إن اللفظ "عليون" يتحدث عن قوته في انفرادها وتساميها وعدم وجود نظير لها، إذ هو "الرب الإله العلي مالك السموات والأرض (تك١٤: ٢٢).. أما اللفظ "ادوناي" فيشير إلى الله في قوته وحقه في السيطرة والسيادة على سائر البشر والمخلوقات جميعا.. فإذا أضفنا إلى ذلك أن هناك صفات ونعوتا بلا حصر جاءت في الكتاب المقدس تتحدث عن قوة الله المطلقة والخارقة، رأينا إن هذه الصفة إي صفة القوة المطلقة- كانت من ابرز الصفات التي عرفت عنه، جل جلاله، منذ القدم. على أن الإطلاق في هذه القوة لابد أن ينسجم ويتناسق مع سائر الكمالات الإلهية!!.. وهذا يرد على زعم الزاعمين بان قوة الله المطلقة تستطيع، ومن حقها أن تفعل المستحيل، حتى ولو كان هذا المستحيل شرا، أو فيه القضاء على الحياة ذاتها عند الله، إذ كيف يعقل إن إطلاقا في الله بعدم إطلاقا أخر!!؟ أو كيف يعتل في لغة أخرى إن قوة الله المطلقة تعدم أو تقضي على قداسته الكاملة أو سرمديته اللانهائية!!؟ إن قوة الله –على العكس من ذلك- هي قوته في الإعلان والإفصاح عن سائر كمالاته صفاته غير المحدودة.. أي فص صنع كل ما هو عدل وحق وخير وجود وصلاح جمال وما أشبه..

ولعل أول ما تشير إليه قوة الله في ذهن الإنسان العظمة والجلال وكيف لا يبهر الإنسان بهذه القوة وهو يرى مظاهرها الرائعة في الخليقة. وكيف لا يصيح وهو يرى سناها بالقول: "أيها الرب سيدنا ما امجد اسمك في كل الأرض حيث جلالك فوق السموات.. إذ أرى سمواتك عمل أصابعك والقمر والنجوم التي كونتها، فمن هو الإنسان حتى تذكره وابن ادم حتى تفتقده"(مز٨: ١و٣) " السموات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه " (مز١٩: ١). "١ بَارِكِي يَا نَفْسِي الرَّبَّ. يَا رَبُّ إِلَهِي قَدْ عَظُمْتَ جِدّاً. مَجْداً وَجَلاَلاً لَبِسْتَ. ٢اللاَّبِسُ النُّورَ كَثَوْبٍ الْبَاسِطُ السَّمَاوَاتِ كَشُقَّةٍ. ٣الْمُسَقِّفُ عَلاَلِيَهُ بِالْمِيَاهِ. الْجَاعِلُ السَّحَابَ مَرْكَبَتَهُ. الْمَاشِي عَلَى أَجْنِحَةِ الرِّيحِ. ٤الصَّانِعُ مَلاَئِكَتَهُ رِيَاحاً وَخُدَّامَهُ نَاراً مُلْتَهِبَةً. ٥الْمُؤَسِّسُ الأَرْضَ عَلَى قَوَاعِدِهَا فَلاَ تَتَزَعْزَعُ إِلَى الدَّهْرِ وَالأَبَدِ. (مز١٠٤: ١-٥).

وإذا كان فيلو اليهودي السكندري عندما ذهب إلى روما ليشكو إلى الإمبراطور ما لحق ببني جنسه في مصر، ورأى المدينة العظيمة روما، وجحافل الرومان، وحدائق موسينس، حيث ذهب ليشرح شكواه للإمبراطور، وإذا كانت هذه المناظر قد أذهلته عن نفسه، حتى كاد أن ينسى لماذا جاء هو إلى روما.. فماذا يمكن أن نقول عن عظمة الله في الكون كله؟ العظمة التي لم تكن

روما فتنتها ومجدها وقوتها سوى نقطة من بحر، أو شعاع من نور شمس! أن هذه العظمة تجل في الواقع عن الوصف، وتجعلنا نهتف على الدوام : "أيها الآب سيدنا ما امجد اسمك في كل الأرض".

كما أن هذه القوة توحي إلى البشر على الدوام بالخضوع والاستسلام، إذ ماذا يفعل الإنسان العاجز الواهن الضعيف، مهما يتوهم انه قوي إزاء قوة الله وقدرته السرمدية!!؟ انه لا شيء أو لقل من لا شيء، إزاء قدرة القادر على كل شيء. ومن ثم فان التاريخ لم يعرف طاغية واحد ظن انه اله، أو في مرتبة اله، إلا وسمع الصوت المخيف الذي سمعه سنحاريب قديما: "من عيرت وجدفت، وعلى من عليت صوتا، وقد رفعت إلى العلاء عينيك على قدوس إسرائيل عن يد عبيدك. عيرت السيد وقلت بكثرة مركباتي قد صعدت إلى على الجبال عقاب لبنان، فاقطع أرزه الطويل وأفضل سروه وادخل أقصى علوه وعر كرمله، إنا قد حفرت وشربت مياها وأنشف ببطن قدمي جميع خلجان مصر... ولكنني عالم بجلوسك وخروجك ودخولك وهيجانك علي، لان هيجانك علي قد وعجرفتك قد صعدتا إلى أذني أضع خزامتي في انفك وشكيمتي في شفتيك وأردك في الطريق الذي جئت فيه "(اش ٢٧: ٣٢ -٢٥، ٢٨، ٢٩) وضرب الله من جيش في تلك الليلة مائة وخمسة وثمانين إلفا بضربة واحدة مروعة، كما لقي هو مصرعه البشع على يد ولديه، وهو جاث وساجد في بيت نسروخ إلهه!.. أو رأى المذلة القاسية التي أبصرها نبوخذ نصر عندما تعالى وقال : "أليست هذه بابل العظيمة التي بنيتها لبيت الملك بقوة اقتداري ولجلال ملكي، فطرد من بين الناس واكل العشب كالثيران وابتل جسمه بندى السماء حتى طال شعره مثل النسور وأظافره مثل الطيور" (دا٤: ٣٠ -٣١).وفي قصة رمزية قديمة إن احد الملوك ذهب مرة إلى احد الكنائس وسمع الواعظ يقول: " إن الله يعز ويذل ويرفع الملك ويعزلهم" فصاح: "ما هذا إلا هراء وخداع. فن يستطيع أن يعزلني أنا"؟ وتقول القصة إن الله انزل ملاكا من السماء وجعله على العرش. بعد إن أعطاه صورة الملك وشبهه تماما، وعندما ذهب الملك إلى بيته ورأى أخر مثاله قال: "من أنت وما الذي جاء بك إلى هنا، وأنا صاحب العرش والملك"؟ فأجابه: "كلا لن تكون الملك، بل ستكون مضحك الملك". والبسوه ثيابا بالية قديمة، وكل من يراه كان يضحك منه، وكان الملاك يمر به ليقول له :"من أنت"؟ فيجيب مختنق مغتاظ:"أنا الملك وأنت المخادع".فيتركه. وأخيرا ضاقت نفسه، فمر به الملاك ذات يوم وسأله: ""من أنت"؟ فأجاب:"أنا لا اعرف". ثم ركع على قدميه ليقول لله: "أنا عبد ضعيف إزاءك يا مولاي". فقال له الله من السماء: "الآن تصلح لرياسة شعبه".

ومن اللازم إن نعرف إن قوة الله على الدوام لا يمكن إلا إن تكون مقترنة بالحكمة والمهابة!! وعندما أعلن الله هذه القوة الحكيمة لأيوب وهو في محنته القاسية بالقول:"من هذا الذي يظلم القضاة بلا معرفة، اشدد ألان حقويك كرجل، فاني أسالك فتعلمني ٤أَيْنَ كُنْتَ حِينَ أَسَّسْتُ الأَرْضَ؟ أَخْبِرْ أن كَانَ عِنْدَكَ فَهْمٌ. ٥مَنْ وَضَعَ قِيَاسَهَا؟ لأَنَّكَ تَعْلَمُ! أَوْ مَنْ مَدَّ عَلَيْهَا مِطْمَاراً؟ ٦عَلَى أَيِّ شَيْءٍ قَرَّتْ قَوَاعِدُهَا أَوْ مَنْ وَضَعَ حَجَرَ زَاوِيَتِهَا ٧عِنْدَمَا تَرَنَّمَتْ كَوَاكِبُ الصُّبْحِ مَعاً وَهَتَفَ جَمِيعُ بَنِي اللهِ؟(اي٣٨: ٢-٧). لم يملك الرجل القديم إلا أن يصمت خاضعا وهو يقول: "ها أنا حقير فماذا أجاوبك. وضعت يدي على فمي. مرة تكلمت فلا أجيب ومرتين فلا أزيد " (اي٤٠: ٤).

وأخر الكل فان هذه القوة، إذا كانت مرهبة للطغاة وقاسية على الفجار والمتكبرين على الدوام، فإنها في الوقت نفسه ملاذ البؤساء والضعفاء والمحتاجين والمنكوبين ومن لا سند لهم في الأرض، من يمكنهم أن يصيحوا مع موسى : "أرنم للرب فانه قد تعظم. الفرس وراكبه طرحهما في البحر. الرب قوتي ونشيدي وقد صار خلاصي" (خر١٥: ١و٢) اجل فما أكثر الضعفاء والقلائل والعزل منكل سلاح الذين استطاعوا بهذه القوة الإلهية العظيمة الانتصار على أضخم المشكلات واقسي العتاة.

وارهب الأعداء، أو كما قال احدهم : "لا بالقدرة ولا بالقوة استطاع وليم بوث أن يقابل الفقر والسخرية والهزء وينشئ جيش الخلاص العظيم!! ولا بالقدرة ولا بالقوة استطاع وليم لويد جارسون أن يهاجم وهو اعزل نظام الرق ويطلق من عقالها القوة التي حررت أخر الأمر أربعة ملايين من العبيد!! وكم من سجل طويل لأعظم إبطال العالم، ممن يمكن أن يستعرضهم الذهن، وممن لم يستندوا في شيء على قوة بشرية، بل استندوا على قوة روح الله رب الجنود، فصنعوا الخوارق والمعجزات!!.. لقد أدهشت جماعة وليم اورج في تسليح الفلاحين في هولندا والفلاندز للثورة ضد طغيان الملك فيليب وألفا الدموية.. لقد أدهشت هذه الشجاعة الملك الاسباني حتى انه تساءل عمن يمكن وراء هذه الحركة من حلفاء أو ملوك فكان له جواب وليم الشجاع : "انك تسألني عما إذا كنت دخلت في حلف رسمي مع قوة أجنبية،إلا فاعلم باني قبل إن احمل على عاتقي قضية هذه الولايات المنكوبة قد دخلت في الحلف والعهد مع ملك الملوك ورب الأرباب". حقا إن أعظم قوة في هذا الوجود واعجنها على استعداد دائم، بل وتسر إن تلبي نداء اضعف واصغر وأتعس مخلوق على هذه الأرض!!..

الله العالم والعارف بكل شيء

وما من شك من صفات الله وسجاياه العلم الكامل والحكمة اللانهائية، وهذا العلم إذ هو كامل شامل عام غير محدود، لا يقبل الزيادة أو النقص أو التطور، وهو بهذا المعنى عجيب دقيق رهيب من أي ركن أو جانب جئناه!!.. فهو بالنسبة لله، جل جلاله علم ذاتي مستقل مطلق غير مكتسب يعلم به الله من هو، وما ذاته وصفاته على وجه الكمال والإطلاق. وهو بالنسبة للزمن والتاريخ على علم دائم حاضر لا ماض فيه أو مستقبل :" مخبر منذ البدء بالأخير ومنذ القدم بما لم يفعل قائلا رأيي يقوم وافعل كل مسرتي" (اش٤٦ :١٠*."معلومة عند الرب منذ الأزل جميع أعماله" (أع ١٥ :١٨) هذا هو متفق ومنسجم مع ما اشرنا إليه من سرمدية الله وعلاقتها بالزمن وهو بالنسبة للمكان علم كاشف نافذ متصل بكل ركن أو جزء من أجزاء الكون والوجود :"وليست خليقة غير ظاهرة قدامه بل كل شيء عريان ومكشوف لعيني ذاك الذي معه أمرنا" (عب٤ :١٣) كيف لا وقد أدركنا معنى المكان وعلاقته بالله غير المحدود؟ وهو بالنسبة للجزئيات والكليات علم واضح غير مبهم : "الظلمة أيضا والليل مثل النهار يضيء كالظلمة هكذا النُّورُ. ١٥لَمْ تَخْتَفِ عَنْكَ عِظَامِي حِينَمَا صُنِعْتُ فِي الْخَفَاءِ وَرُقِمْتُ فِي أَعْمَاقِ الأَرْضِ١٦رَأَتْ عَيْنَاكَ أَعْضَائِي وَفِي سِفْرِكَ كُلُّهَا كُتِبَتْ يَوْمَ تَصَوَّرَتْ إِذْ لَمْ يَكُنْ وَاحِدٌ مِنْهَا. (مز١٣٩: ١٢، ١٥، ١٦).. وهو بالنسبة للمعنويات علم دقيق عجيب، إذ هو العلم بالأفكار والنوايا والسرائر:" فَهِمْتَ فِكْرِي مِنْ بَعِيدٍ ٢٣اخْتَبِرْنِي يَا اَللهُ وَاعْرِفْ قَلْبِي. امْتَحِنِّي وَاعْرِفْ أَفْكَارِي (مز١٣٩: ٢، ٣٢). "هو يكشف الأعماق والسرائر يعلم ما هو في الظلمة وعنده يسكن النور.. لكن يوجد اله في السماء كاشف الإسرار " (دا٢: ٢٢، ٢٨). وه و في هذه كلها الإله الحكيم له المجد والعظمة والقدرة والسلطان، الإله الذي هتف له المرنم قديما بالقول: "ما أعظم أعمالك يارب، كلها بحكمة صنعت، ملآنة الأرض بغناك" (مز١٠٤: ٢٤) وغنى له الرسول :"يا لعمق غنى الله وحكمته وعلمه. ما ابعد إحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء" (رو١٢: ٢٣). وهل نحن في حاجة إلى الشواهد والأدلة على هذه الحكمة الإلهية العجيبة!!؟ إلا يكفي أن ترفع النظر إلى فوق وتسرح الطرف مع أجور بن متقية مسا لتهتف مذهولا: "إني أبلد من كل إنسان وليس لي فهم إنسان ولم أتعلم الحكمة ولم اعرف معرفة القدوس، من صعد إلى السموات ونزل. من جمع الريح في حفنتيه، من صر المياه في ثوب، من ثبت جميع أطراف الأرض،ما اسمه وما اسم ابنه لن عرفت" (ام٣٠: ٢-٤). بل إلا يكفي أن ترى في العقل البشري نفسه برهانا على العقل الاسمي والأعظم؟ فإذا كانوا قد قالوا عن العقل الالكتروني يشهد ويفصح عن عقل الإنسان، فكم يكون هذا الأخير مفصحا ومحدثا عن عقل الله؟ بل ما لنا وللطبيعة والعقل، وهناك ما هو اسمي واجل ونعني به "الفداء" مما قيل فيه

بالمقابلة مع العقل البشري :" ٢١لأَنَّهُ إِذْ كَانَ الْعَالَمُ فِي حِكْمَةِ اللهِ لَمْ يَعْرِفِ اللهَ بِالْحِكْمَةِ اسْتَحْسَنَ اللهُ أَنْ يُخَلِّصَ الْمُؤْمِنِينَ بِجَهَالَةِ الْكِرَازَةِ ٢٢لأَنَّ الْيَهُودَ يَسْأَلُونَ آيَةً وَالْيُونَانِيِّينَ يَطْلُبُونَ حِكْمَةً ٢٣وَلَكِنَّنَا نَحْنُ نَكْرِزُ بِالْمَسِيحِ مَصْلُوباً: لِلْيَهُودِ عَثْرَةً وَلِلْيُونَانِيِّينَ جَهَالَةً! ٢٤وَأَمَّا لِلْمَدْعُوِّينَ: يَهُوداً وَيُونَانِيِّينَ فَبِالْمَسِيحِ قُوَّةِ اللهِ وَحِكْمَةِ اللهِ. ٢٥لأَنَّ جَهَالَةَ اللهِ أَحْكَمُ مِنَ النَّاسِ! وَضَعْفَ اللهِ أَقْوَى مِنَ النَّاسِ (١كو ٢١: ٢٥) وأي حكمة اعلي واجل منان يكون الصليب شعار الضعف أية القوة، ورمز الموت ومفتاح الحياة؟..

والى جانب هذا كله كانت هناك وما تزال حكمة الله المنتصرة والتي تصنع على الدوام من الشر خيرا ومن البؤس والتعاسة والدموع والألم والإحزان أروع ما عرف الإنسان من مجد وجلال وعظمة ونور وسؤدد، حتى أصبح إن نقول مع يوسف في قوله المأثور : "انتم قصدتم بي شرا إما الله فقصد بي خيرا لكي يفعل كما اليوم ليحي شعبا كثيرا "(تك٥٠: ٢٠).لم يعرف الولد الصغير وقد انحنى عليه الزن من كل جانب لماذا احتضنه الله بهذه الإحزان والآلام!!؟ وإذ اشتكى منها وتوجع قال له أستاذه : "يؤسفني يا بني إن تحمل النير وأنت صغير وتمتلئ بالحزن في السن المبكرة، ولكن صوتك الذهبي كان في حاجة إلى لمسة من الحزن ليضحى لحنا سماويا رائعا فريدا ". وما أكثر ما تسمح حكمة الله إن ينبعث النغم الرائع عن القيثارة الباكية!!؟

الله القدوس البار

والكلمة"قدوس" من أصل لغوي يعني على الأقل أمرين.. أولهما: "الانفراد" والله القدوس بهذا المعنى و الله المنفرد المتعالي غير المدرك والذي يجل عن الوصف والفهم والتحليل والتصور.. أو في لغة أخرى إن الكلمة تشير إلى معاني العظمة والعلو والجلال والسمو والمجد والتفرد عند الله... ولعل هذا و المعنى المستفاد من القول: "فأتعظم وأتقدس واعرف في عيون أمم كثيرون فيعلمون إني أنا الرب "(خر٣٨: ٢٣) كما إن الكلمة تشير ثانية إلى: "الحصانة" و (العزلة" أي إن الله لا يمكن إن يخطئ إذ هو بطبيعته كاره للخطية منفصل عنها مضاد لها!!.. فإذا ضممنا المعنيين ظهر لنا أول كل شيء إن قداسة الله ن نوع منفرد رهيب مجيد عظيم لا يمكن للمخلوق إن يقترب منها أو يدنو إليها.. ومن ثم جاء القول:"الإنسان ابر من الله أم الرجل اطهر من خالقه؟ هوذا عبيده لا يأتمنهم والى ملائكته ينسب حماقة " (أي ٤ :١٧، ١٨) وقيل: "هوذا قديسوه لا يأتمنهم والسموات غير طاهرة بعينيه (اي١٥ :١٥) "جلاله غطى السموات والأرض امتلأت من تسبيحه، وكان لمعان كالنور له من يده شعاع "(حب٣ :٣، ٤) فإذا كرنا إن الملائكة لا تجرؤ إن تحدق فيه، بل إن السرافيم وهم واقفون في خدمته في هيكل الله كما رآهم اشعياء: "٢السَّرَافِيمُ وَاقِفُونَ فَوْقَهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ سِتَّةُ أَجْنِحَةٍ. بِاثْنَيْنِ يُغَطِّي وَجْهَهُ وَبِاثْنَيْنِ يُغَطِّي رِجْلَيْهِ وَبَاثْنَيْنِ يَطِيرُ. ٣وَهَذَا نَادَى ذَاكَ: «قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْجُنُودِ. مَجْدُهُ مِلْءُ كُلِّ الأَرْضِ». (اش٦: ٢و ٣). وإذا علمنا إن موسى وهو يقترب من العليقة سمع الصوت : "لا تقترب إلى ههنا،اخلع حذائك من رجليك لان الموضع الذي أنت واقف عليه ارض مقدسة" (خر٣ :٥). وإذا عرفنا إن إيليا لف وجهه بردائه (١مل١٩: ١٣) عندما استمع إلى الصوت المنخفض الخفيف فوق جبل الله حوريب.. وإذ تبينا إن اشعياء صرخ عندما رأى مجده : "ويل لي لأني هلكت لأني إنسان نجس الشفتين وساكن بين شعب نجس الشفتين، لان عينيي قد رأتا الملك رب الجنود "(اش٦: ٥) إذا ذكرنا هذه كلها إلا نهتف بإجلال وتعظيم : "عَادِلَةٌ وَحَقٌّ هِيَ طُرُقُكَ يَا مَلِكَ الْقِدِّيسِينَ. ٤مَنْ لاَ يَخَافُكَ يَا رَبُّ وَيُمَجِّدُ اسْمَكَ، لأَنَّكَ وَحْدَكَ قُدُّوسٌ، لأَنَّ جَمِيعَ الأُمَمِ سَيَأْتُونَ وَيَسْجُدُونَ أَمَامَكَ، لأَنَّ أَحْكَامَكَ قَدْ أُظْهِرَتْ (رؤ١٥: ٣-٤). بل إلا نحتاج إلى ذات الجمرة التي مست شفتي اشعياء عندما قال:

"٦فطَارَ إِلَيَّ وَاحِدٌ مِنَ السَّرَافِيمِ وَبِيَدِهِ جَمْرَةٌ قَدْ أَخَذَهَا بِمِلْقَطٍ مِنْ عَلَى الْمَذْبَحِ ٧وَمَسَّ بِهَا فَمِي وَقَالَ: «إِنَّ هَذِهِ قَدْ مَسَّتْ شَفَتَيْكَ فَانْتُزِعَ إِثْمُكَ وَكُفِّرَ عَنْ خَطِيَّتِكَ». " (اش٦ :٦-٧)

ما إن قداسة الله تشير إلى كراهيته الدائمة المطلقة للخطية، الكراهية التي لا تهدا أو تسكن أو تقل أو تضعف على طوال الأيام!! ولعل صفحات الكتاب المقدس والتاريخ خير شاهد على ذلك، فالملائكة الذين تركوا رياستهم حفظهم في قيود أبدية تحت الظلام. وعندما تلوثت الأرض بالخطية غسلها بالطوفان!!.. وعندما تمكن الشر والإثم من سدوم وعمورة ومدن الدائرة قلبها واحرقها بالنار. وعندما انغمست المدنيات القديمة في بابل ونينوى وأثينا وروما ومصر في الأحوال والدنايا هوى بها وبمجدها إلى الحضيض والرماد وهو ما يزال في كل جيل وعصر الإله القدوس الذي يكره الخطية ويعاقب الشر!!.

أما "البر" منسوبا إلى الله فيعني معنيين احدهما قضائي، والأخر أدبي. أما القضائي فيعني البراءة وعدم الأمانة!!. إذ حاشا أن يدان في عمل أو تصرف كما قال لأيوب:"أسال فتعلمني لعلك تناقض حكمي. ستذنبني لكي تتبرر أنت "(اي٧،٤٠و٨)، أو كما قال الرسول : "٣فَمَاذَا إِنْ كَانَ قَوْمٌ لَمْ يَكُونُوا أُمَنَاءَ؟ أَفَلَعَلَّ عَدَمَ أَمَانَتِهِمْ يُبْطِلُ أَمَانَةَ اللهِ؟ ٤حَاشَا! بَلْ لِيَكُنِ اللهُ صَادِقاً وَكُلُّ إِنْسَانٍ كَاذِباً. كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: «لِكَيْ تَتَبَرَّرَ فِي كَلاَمِكَ وَتَغْلِبَ مَتَى حُوكِمْتَ».(رو٣: ٣-٤)!!.

ما أكثر ما يتصور الناس عندما تدهمهم الفواجع وتطوف بهم الماسي والإحزان إن الله قد غرمهم بما لا يستحقون ولسان حالهم ما قاله أيوب : "[قَدْ كَرِهَتْ نَفْسِي حَيَاتِي. أُسَيِّبُ شَكْوَايَ. أَتَكَلَّمُ فِي مَرَارَةِ نَفْسِي ٢قَائِلاً لِلَّهِ: لاَ تَسْتَذْنِبْنِي. فَهِّمْنِي لِمَاذَا تُخَاصِمُنِي! ٣أَحَسَنٌ عند اعرفها.تَظْلِمَ أَنْ تَرْذُلَ عَمَلَ يَدَيْكَ (اي١٠ :١-٣) ولكن ما أسرع ما تبينون حماقتهم فيما ينسبون إلى الله فيعودون مع الرجل نفسه للقول: "ولكني قد نطقت بما لم افهم. بعجائب فوقي لم اعرفها.لذلك ارفض واندم في التراب والرماد "(اي٤٠ :٣و٦).

أما المعنى الأدبي فهو الكمال والنقاوة والطهارة إذ ليس كامل ونقي وطاهر مثل الله. والبر بهذا المعنى هو القياس والنموذج والمثال لكل بر في السماء وعلى الأرض، وليس من حق البشر أن يبتدعوا ويصوغوا قواعد أو مثالا للمبادئ والأخلاق، إذ بر الله هو قاعدتهم ومثالهم معا، ومن واجبهم لم يتبعوه أو يسيروا وراءه، كما قال السيد المسيح: "فكونوا انتم كاملين كما إن أباكم الذي في السموات هو كامل" (مت٥ :٤٨).

الله الحق العادل

والحق في لغة الكتاب عندما ينسب إلى الله يعني من المعاني أربعة على الأقل "الوجود" و "التمام" و "الصحة" و"الأمانة". ولعل كل واحد منهم يقود إلى الأخر ويتفاعل معه ويقود به.فالحقيقة الأولى عن الله انه واجب الوجود دائم، تمييزا له عن الآلهة الكاذبة الموهومة التي ابتدعها خيال الإنسان توالي الحقب والعصور:" لان فرائض الأمم باطلة.لأنها شجرة يقطعونها من الوعر صنعة يدي نجار بالقدوم. بالفضة والذهب يزينوها وبالمسامير وبالمطارق يشددونها فلا تتحرك. ٥هِيَ كَاللَّعِينِ فِي مَقْثَأَةٍ فَلاَ تَتَكَلَّمُ! تُحْمَلُ حَمْلاً لأَنَّهَا لاَ تَمْشِي! لاَ تَخَافُوهَا لأَنَّهَا لاَ تَضُرُّ وَلاَ فِيهَا أَنْ تَصْنَعَ خَيْراً]. ٦ لاَ مِثْلَ لَكَ يَا رَبُّ! عَظِيمٌ أَنْتَ وَعَظِيمٌ اسْمُكَ فِي الْجَبَرُوتِ. ٧مَنْ لاَ يَخَافُكَ يَا مَلِكَ الشُّعُوبِ؟ لأَنَّهُ بِكَ يَلِيقُ. لأَنَّهُ فِي جَمِيعِ حُكَمَاءِ الشُّعُوبِ وَفِي كُلِّ مَمَالِكِهِمْ لَيْسَ مِثْلَكَ. ٨بَلِدُوا وَحَمِقُوا مَعاً. أَدَبُ أَبَاطِيلَ هِيَ الْخَشَبُ. ٩فِضَّةٌ مُطَرَّقَةٌ تُجْلَبُ مِنْ تَرْشِيشَ وَذَهَبٌ مِنْ أُوفَازَ صَنْعَةَ

صَانِعٍ وَيَدَيْ صَائِغٍ. أَسْمَانْجُونِيٌّ وَأُرْجُوَانٌ لِبَاسُهَا. كُلُّهَا صَنْعَةُ حكيمة. ١٠أَمَّا الرَّبُّ الإِلهُ فَحَقٌّ. هُوَ إِلهٌ حَيٌّ وَمَلِكٌ أَبَدِيٌّ. (اي١٠ :٣-١٠)

والحقيقة الثانية عن الله هو أن هذا الإله الموجود هو الإله الكامل في كل شيء، في ذاته وفي صفاته، إذ هو "الصخر الكامل صنيعه "(تث٣٢: ٤) وليس مثل الله في هذا الكمال إذ إن الناس تنمو قواها وملكاتها بعضها على حساب بعض، فقد يكون الإنسان عادلا على حساب الرحمة، أو رحيما على حساب العدل وقد يكون صارما على حساب اللطف، أو لطيفا على حساب الصرامة. ولكن الله على العكس من هذا كله، إذ هو الإله الحق الكامل في العدل والرحمة واللطف والصرامة وسائر صفاته معا، فلا تقوم الواحدة منها على حساب الأخرى أو تعطلها أو تضعف مظاهرها في شيء على الإطلاق،ومن ثم حق للمرنم أن يقول :"الرحمة والحق التقيا. البر والسلام تلاءما "(مز٨٥ :١٠)

والحقيقة الثالثة عن الله هو إن هذا الإله الكامل هو الإله الصادق المنزه عن الكذب، والذي لا غش فيه أو خداع أو رياء أو مداهنة أو بطل، لا يغاير فيه الظاهر الباطن أو الخفي المنظور، وتتم فيه الأقوال عن الإعمال، والإعمال عن الذات والصفات، بلا ازدواج أو حيرة أو تردد أو ارتباك.

والحقيقة الرابعة عن الله أن هذا الإله الصادق هو الإله الأمين الثابت في وعوده وإحكامه. ومن الحق إن نطالبه بما طالبه به يعقوب قديما عندما صاح: "صغير أنا عن جميع ألطافك وجميع الأمانة التي صنعت إلى عبدك. وأنت قد قلت إني أحسن إليك (تك٣٢: ١٠ و١٢). كما من الحق أن نؤمن انه أمين في تحذيراته وتعهداته : "٢فَأَجَابَنِي الرَّبُّ: «اكْتُبِ الرُّؤْيَا وَانْقُشْهَا عَلَى الأَلْوَاحِ لِيَرْكُضَ قَارِئُهَا ٣لأَنَّ الرُّؤْيَا بَعْدُ إِلَى الْمِيعَادِ وَفِي النِّهَايَةِ تَتَكَلَّمُ وَلاَ تَكْذِبُ. إِنْ تَوَانَتْ فَانْتَظِرْهَا لأَنَّهَا سَتَأْتِي إِتْيَاناً وَلاَ تَتَأَخَّرُ. (حب٢:٢و٣). أما العدل إذ ينسب إلى الله فيعني على الأقل أمرين هما:الاستقامة والمساواة " وفي اللغة يقال: العدل ضد الجور، وعدله تعديلا فاعتدل، إي قومه فاستقام. كما يقال: عادلت بين الشيئين أو عدلت فلانا بفلان إذ سويت بينهما. والمعنى الأول يفيد إن الله لا يمكنان يكون متحيزا أو جائزا أو منحرفا أو مغرضا أو مشوشا أو ما إلى ذلك مما يتعارض مع معنى الاستقامة ودقتها وعظمتها وجلالها. كيف لا وذات الكلمة "خطية "تعني فيما تعنيه معنى الانحراف، وحاشا لله أن يخطئ إذ هو المعصوم من كل خطية. بل أن نواميس الله ذاتها في الطبيعة والإنسان والتاريخ ليست إلا نتاجا وأعمالا لهذه الاستقامة الدقيقة العظيمة الرهيبة الكاملة. ويكفي أن ندرك كيف يسير الكون بهذه النواميس المتعددة البالغة الدقة كنواميس الجاذبية والمغناطيسية والكهرباء، وكيف تسحق وتبطش كل ما يقف في طريقها أو يعترض سبيلها أو يتعارض مع سيرها واتجاهها الدقيق المعين لها من عند الله. كما إن ناموس الله المودع في أعماق النفس البشرية – إي ناموس الضمير- يشهد ويفصح عن هذه الحقيقة عينها. إذ ليس أدق منه إذا همس، وارهب منه واقطع إذا احتج أو اشتكى أو اعترض أو دان. فإذا أضيف إلى هذا كله رهبة الناموس الموسوي وسطوته وقسوته أدركنا ما في دالة الله من جلال ودقة واستقامة وصرامة.

كما أن العدل يعني أيضا المساواة، والمساواة لها أكثر من جانب، إذ ي أولا وقبل كل شيء المساواة أمام الطاقة!! أو بلغة أخرى المساواة أمام توازن الفرص وتكافئها، إذ في مثل الوزنان المعروف :"فأعطى واحدا خمسة وزانات وأخر ورنتين وأخر وزنة. ل واحد عل قدر طاقته "(مت ٢٥: ١٥) والله لا يمكن أن يطلب من إنسان أكثر ما أعطاه من فرص أو إمكانيات أو وزنات، إذ هو اعدل وأكرم من أن يطلب من الأخرس لغة الكلام، من الطفل معرفة الرجال، ومن المعدم وفرة المال، أو

كما قال السيد "فكل من أعطي له كثيرا يطلب منه كثير ومن يدعونه كثير يطالبونه بأكثر " (لو١٢: ٤٨) أصاب الفرص المتساوية فهم طالبون ومسئولون أمام الله على حد ساء، من غير ما تمييز أو تفريق أو تحذير أو تفصيل.

المساواة أيضا تعني المساواة أمام المكافأة، إذ أن الله يعطي أكاليله وعطاياه، ليس عل ساس معيار لشري من هذه المعايير التي قد يتصور أصحابها انه تفضل أو تميزهم عن الآخرين، ما تصورت أم ابني زبدي هي تتقدم بولديها إلى المسيح وتطلب أن يجلس حد منهم عل اليمين والأخر على اليسار ليس له أن يعطيه إلا لمن اعد لهم من قبل الأب السماوي. وإذ ذكر إن هذا الأعداد وان علا في سره عن ذهن البشر وفهمهم إلا انه يكن ن يقال من الوجه الأخر:" ١٠لأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ حَتَّى يَنْسَى عَمَلَكُمْ وَتَعَبَ الْمَحَبَّةِ الَّتِي أَظْهَرْتُمُوهَا نَحْوَ اسْمِهِ، إِذْ قَدْ خَدَمْتُمُ الْقِدِّيسِينَ وَتَخْدِمُونَهُمْ. ١١وَلكِنَّنَا نَشْتَهِي أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ يُظْهِرُ هذَا الاجْتِهَادَ عَيْنَهُ لِيَقِينِ الرَّجَاءِ إِلَى النِّهَايَةِ، ١٢لِكَيْ لاَ تَكُونُوا مُتَبَاطِئِينَ بَلْ مُتَمَثِّلِينَ بِالَّذِينَ بِالإِيمَانِ وَالأَنَاةِ يَرِثُونَ الْمَوَاعِيدَ. (عب٦: ١٠ -١٢). أو في لغة أخرى إن الله العادل وهو يوزع ويمنح نصبة القديسين والمؤمنين لا يمكن إلا أن يدخل في الاعتبار مقدار ما بذلوه من الجهد أو المشقة أو الكفاح أو الدموع أو التعب أو الشدة على هذه الأرض. وهل هذه كلها إلا إعلام وإفصاح عن خلو مكافأة الله عن أدى تحيز أو تمييز أو محاباة أو استثناء؟.

والمساواة أخيرا هي مساواة أمام الديان، هذا و المستفاد بمفهوم المخالفة – كما يقول رجال القانون – إذ ما دام الله هو العادل، عندما يجزل ويعطي هو لابد كذلك عندما يحكم ويدين. كيف لا والكتاب صريح من الله لا يمكن أن يحاكم انسانا إلا على مقدار ما اخذ من معرفة ونور؟ الم يقل السيد لليهود: "لو كنتم عميانا لما كانت لكم خطية،وإلا تقولون إننا نبصر فخطيتكم باقية " (يو٩ :٤١) كما قال :" ٢٢لَوْ لَمْ أَكُنْ قَدْ جِئْتُ وَكَلَّمْتُهُمْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ خَطِيَّةٌ وَأَمَّا الآنَ فَلَيْسَ لَهُمْ عُذْرٌ فِي خطي.... ٢٤لَوْ لَمْ أَكُنْ قَدْ عَمِلْتُ بَيْنَهُمْ أَعْمَالاً لَمْ يَعْمَلْهَا أَحَدٌ غَيْرِي لَمْ تَكُنْ لَهُمْ خَطِيَّةٌ وَأَمَّا الآنَ فَقَدْ رَأَوْا وَأَبْغَضُونِي أَنَا وَأَبِي. ٢٥لكِنْ لِكَيْ تَتِمَّ الْكَلِمَةُ الْمَكْتُوبَةُ فِي نَامُوسِهِمْ: أنهم أَبْغَضُونِي بِلاَ سَبَبٍ. (يو١٥: ٢ و٢٤ و٢٥). وقد أكد الرسول بولس أن عدالة الله تأبى أن تحاكم بقانون لاحق، فالذين عاشوا قبل مجيء الناموس الموسوي، لا يكن أن يحاكمهم الله بهذا الناموس بل بناموس أخر، هو ناموس الضمير الموجود فيم، والمصاحب لهم :" ١٢لأَنَّ كُلَّ مَنْ أَخْطَأَ بِدُونِ النَّامُوسِ فَبِدُونِ النَّامُوسِ يَهْلِكُ وَكُلُّ مَنْ أَخْطَأَ فِي النَّامُوسِ فَبِالنَّامُوسِ يُدَانُ. ١٣لأَنْ لَيْسَ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ النَّامُوسَ هُمْ أَبْرَارٌ عِنْدَ اللهِ بَلِ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ بِالنَّامُوسِ هُمْ يُبَرَّرُونَ. ١٤لأَنَّهُ الأُمَمُ الَّذِينَ لَيْسَ عِنْدَهُمُ النَّامُوسُ مَتَى فَعَلُوا بِالطَّبِيعَةِ مَا هُوَ فِي النَّامُوسِ فَهؤُلاَءِ إِذْ لَيْسَ لَهُمُ النَّامُوسُ هُمْ نَامُوسٌ لأَنْفُسِهِمِ ١٥الَّذِينَ يُظْهِرُونَ عَمَلَ النَّامُوسِ مَكْتُوباً فِي قُلُوبِهِمْ شَاهِداً أَيْضاً ضَمِيرُهُمْ وَأَفْكَارُهُمْ فِيمَا بَيْنَهَا مُشْتَكِيَةً أَوْ مُحْتَجَّةً ١٦فِي الْيَوْمِ الَّذِي فِيهِ يَدِينُ اللهُ سَرَائِرَ النَّاسِ حَسَبَ إِنْجِيلِي بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ.(رو٢ :١٢-١٦).كما إن هذه المساواة تفي الضرورة،التفرقة بين الأشرار والإبرار، إذ إن أقسى ما يسمعه الله ويوجه إليه ما قاله اليهود أيام ملاخي :" أَقْوَالُكُمُ اشْتَدَّتْ عَلَيَّ قَالَ الرَّبُّ. وَقُلْتُمْ: مَاذَا قُلْنَا عَلَيْكَ؟ ١٤قُلْتُمْ: عِبَادَةُ اللَّهِ بَاطِلَةٌ وَمَا الْمَنْفَعَةُ مِنْ أَنَّنَا حَفِظْنَا شَعَائِرَهُ وَأَنَّنَا سَلَكْنَا بِالْحُزْنِ قُدَّامَ رَبِّ الْجُنُودِ؟ ١٥وَالآنَ نَحْنُ مُطَوِّبُونَ الْمُسْتَكْبِرِينَ وَأَيْضاً فَاعِلُو الشَّرِّ يُبْنَوْنَ. بَلْ جَرَّبُوا اللَّهَ وَنَجُوا». ١٦حِينَئِذٍ كَلَّمَ مُتَّقُو الرَّبِّ كُلُّ وَاحِدٍ قَرِيبَهُ وَالرَّبُّ أَصْغَى وَسَمِعَ وَكُتِبَ أَمَامَهُ سِفْرُ تَذْكِرَةٍ لِلَّذِينَ اتَّقُوا الرَّبَّ وَلِلْمُفَكِّرِينَ فِي اسْمِهِ. ١٧وَيَكُونُونَ لِي قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ فِي الْيَوْمِ الَّذِي أَنَا صَانِعٌ خَاصَّةً وَأُشْفِقُ عَلَيْهِمْ كَمَا يُشْفِقُ الإِنْسَانُ عَلَى ابْنِهِ الَّذِي يَخْدِمُهُ. ١٨فَتَعُودُونَ وَتُمَيِّزُونَ بَيْنَ الصِّدِّيقِ وَالشِّرِّيرِ بَيْنَ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَمَنْ لاَ يَعْبُدُهُ.(ملا٣: ١٣-١٨).

اجل فان العدالة في الأرض قد تبدو إلى د بعيد مضطربة ومقلوبة. ومع ذلك فلنذكر ما قاله احدهم: "قد ينجو الناس من العقاب البشري كثيرا، فالعدالة البشرية – إذ هي بشرية – بعيدة عن الكمال،غير إن من لا ينجون من العقاب أكثر كثيرا ممن ينجون. وقد يتأخر العقاب ولكنه يأتي في صورة ما، بهذه الكيفية أو تلك. ولنفرض إن الناس نجو من العقاب البشري، فل يمكن أن ينجو من مواجهة الضمير؟ إذ أمكنهم إسكات الضمير فهل يمكنه أن يخلصوا أولادهم من نتائج ما ارتكبوا من خطايا وشرور.كلا فليس هناك نجاة. إذا افترض المستحيل وأمكن أن يفلت البعض من هذه كلا، فمن يستطيع الإفلات ما لابد أن يكون: "١٠قُولُوا بَيْنَ الأُمَمِ: [الرَّبُّ قَدْ مَلَكَ. أَيْضاً تَثَبَّتَتِ الْمَسْكُونَةُ فَلاَ تَتَزَعْزَعُ. يَدِينُ الشُّعُوبَ بِالاِسْتِقَامَةِ]. ١١لِتَفْرَحِ السَّمَاوَاتُ وَلْتَبْتَهِجِ الأَرْضُ لِيَعِجَّ الْبَحْرُ وَمِلْؤُهُ. ١٢لِيَجْذَلِ الْحَقْلُ وَكُلُّ مَا فِيهِ. لِتَتَرَنَّمْ حِينَئِذٍ كُلُّ أَشْجَارِ الْوَعْرِ ١٣أَمَامَ الرَّبِّ لأَنَّهُ ١٣)اَءَ. جَاءَ لِيَدِينَ الأَرْضَ. يَدِينُ الْمَسْكُونَةَ بِالْعَدْلِ وَالشُّعُوبَ بِأَمَانَتِهِ (مز ٩٦: ١٠ -١٣).

الله الجميل الصالح الجواد

ولكن ما معنى جمال الله!!؟ وكيف يكن أن تتحسس أو تتلمس هذا الجمال لهتف مع المرنم:" ٤وَاحِدَةً سَأَلْتُ مِنَ الرَّبِّ وَإِيَّاهَا أَلْتَمِسُ: أَنْ أَسْكُنَ فِي بَيْتِ الرَّبِّ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِي لِكَيْ أَنْظُرَ إِلَى جَمَالِ الرَّبِّ وَأَتَفَرَّسَ فِي هَيْكَلِهِ.(مز٢٧ :٤) أو مع اشعياء: "الملك ببهائه تنظر عيناك" (اش٣٣ :١٧) أو مع زكريا في القول" ما أجوده وما أجمله " (زك٩ :١٧) إننا قعا لا يمكن أن نتصور هذا الجمال كما تصوره اليونانيون الأقدمون، ممن أضفوا على إلهتهم جمالا ماديا محسوس ذ صورا افروديت في جمال أنوثتها،وابولوا في قوته وعظته ورجولته، وزيوس كبير الإلهة في مجده المرتفع وق جبل الأوليمب، إذ أن الله ليس منزها عن الجمال المادي فحسب، بل هو كاره ومضاد لهذا التصور المادي المحسوس، ومن ثم جاءت وصيته القائلة"٤لاَ تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالاً مَنْحُوتاً وَلاَ صُورَةً مَا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ. ٥لاَ تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلاَ تَعْبُدْهُنَّ لأَنِّي أَنَا الرَّبَّ إِلَهَكَ إِلَهٌ غَيُورٌ أَفْتَقِدُ ذُنُوبَ الآبَاءِ فِي الأَبْنَاءِ فِي الْجِيلِ الثَّالِثِ وَالرَّابِعِ مِنْ مُبْغِضِيَّ" (خر٢٠: ٤و٥). كيف لا وهذا التصور يبلغ العظمة الجلال والفتنة والروعة، ليس إلا مسا قبيحا مشوها مضطرب لجمال الله البارع المذهل للعقول، والذي يحق معه الوصف الإلهي القائل " وأبدلوا مجد الله الذي لا يفنى بشبه صورة الإنسان الذي يفنى والطيور والدواب والزحافات "(رو١ :٢٣) والذين راو الله،حس جماله وتفوا لهذا الجمال وشادوا به، لم يروه بالعين المادية، بل ببصيرة النفس والروح!! الم يشد اغسطينوس بالقول له بعد التجديد : "أيها الجمال القديم وما تزال جديدا، يؤلمني إنني تأخرت كثيرا عن حبك"!!. وألم يقول ملتون وهو يتغنى بهذا الجمال أروع شره في الفردوس المفقود والمردود وهو كفيف!! بل الم يصيح شارلس كيجلي ي مرض الأخير هو ينادي نفسه بالقول :"كم هو ميل الرب، كم و ميل!" أن الله روح، والروح الذي يتميز به لابد أن يكون جميلا روحيا أدبيا أخاذا يملك القلب ويخلب الألباب وأولئك الذين راو واخذوا ب، رأوه ولا شك من أكثر من زاوية وجانب.

وإذا كان من المتعذر رؤية هذه الزوايا جميعا، فلا اقل من أن لمح إلى بعضها على سبيل المثال. فناك مثلا المفتنون والمأخذون بمال الله البادئ والظاهر من عماله. وإذا كان لأحدهم قد قرأ لجون رسكن بعض كتبه فصاح:"يا لهذا الرجل من عقل جميل!!" فماذا يكن أن يقال عن جال عقل الله فيما أبدع أو سطر على صفحات الطبيعة والكون وهناك ا المتأملون والمفكرون في جمال نقاوة اله وطهارته الكلية،وإذا كانوا قد قالوا أن أروع ما في سويسرا جبالها الشاهقة الشم المرتفعة المكللة بالثلوج، وانك لو فرضوا أخذت جبالها لما بقيت لها بعد ذلك من جمال أو فتنة فبهذا المعنى بل وأكثر جدا، يمكن أن

نقول إننا نجرد ذات الله من كل شيء إذا أغفلنا ولم نذكر جمال نقاوته الفائقة وطهارته الكلية!! وهناك أخر الأمر الهاتفون والمنشدون بمال النعمة الإلهية من يقولون أن طهارة الله ونقاوته الكلي ترهبنا وتفرزنا كخطاة آثمة وأشرار، ولكن جمال نعمته وحده هو الذي يجذبنا ويأسرنا ويملك علينا كل شيء. هذه وغيرها من صور ومظاهر في جمال الله عندما نراها في ذاك الذي هو بهاء مجد الله ورسم جوهره، لا نملك إلا أن نصيح مع النبي القديم : "أنت ابرع جمالا من بني البشر انسكبت النعمة على شفتيك "_مز٤٥: ٤) ونقول مع الأخر في شدو العروس الطروب الغريد :"ها أنت جميل يا حبيبي وحلو "(نش١ :١٦).

أما كلمة " صلاح"أو "صالح "فلا يجوز في المعنى الدقيق أن يوصف احد سوى الله وحده. الم يقل السيد المسيح للشاب الغني :"ليس احد صالحا إلا واحد وهو الله " (مر١٠ :١٨) ولعل هذا ما حدا بأحدهم إلى القول: "أن الله وحده هو الصالح، وهذا التعبير - إي الصالح – لا ينبغي أن يؤخذ في معناه الدقيق الخاص سوى الله، انه لا يوجد صلاح خارج أو مستقل عن الله، بل أن الله ذاته لا يعتبر الصلاح حقيقة خارجية موضوعية بعيدة عنه، وليس هناك من معيار للصلاح إلا أن يعرف الناس مشيئة الله، فحيث توجد هذه المشيئة يوجد هناك الصلاح!!. وما إعلان الله في التاريخ والحوادث إلا الإعلان والكشف الدائم والثابت عن هذا الصلاح. إذ ليس صلاح لا يعلنه الله!!. أليس ما أنجزه لشعبه قديما كالخروج ودخول ارض الموعد هو الصلاح بعينه؟ بل أليس إعطاء الناموس نفسه، في معنى أدق واعلي، إعلانا عن وجود الله وصلاحه: "إذا الناموس مقدس والوصية مقدسة وعادلة وصالحة "(رو٧: ١٢)!!؟ بل الم تكن عهود الله المتوالية والمتكررة كالقول :"واقطع لهم عهدا أبديا إني لا ارجع عنهم لأحسن إليهم واجعل مخافتي في قلوبهم فلا يحيدون عني (ار٣٢: ٤٠) وقوله :" ٧مَا أَجْمَلَ عَلَى الْجِبَالِ قَدَمَيِ الْمُبَشِّرِ الْمُخْبِرِ بِالسَّلاَمِ الْمُبَشِّرِ بِالْخَيْرِ الْمُخْبِرِ بِالْخَلاَصِ الْقَائِلِ لِصِهْيَوْنَ: «قَدْ مَلَكَ إِلهُكِ!» ١٠قَدْ شَمَّرَ الرَّبُّ عَنْ ذِرَاعِ قُدْسِهِ أَمَامَ عُيُونِ كُلِّ الأُمَمِ فَتَرَى كُلُّ أَطْرَافِ الأَرْضِ خَلاَصَ إِلهِنَا. (اش٥٢: ٧و١٠). لم تكن هذه العهود إلا النبوة والإعلان عن الخلاص الأتي العتيد الذي هو أعظم برهان وأكمله عن صلاح الله؟وإذ ننتهي إلى هذه كله لابد أن نصل إلى النتيجة الوحيدة الأكيدة :أن ما يعمله الله معنا، ويشاؤه لحياتنا لابد أن هو الصالح واللازم لهذه الحياة على الأرض، الصالح الذي لا نملك إلا أن نهتف معه بالقول :"ونحن نعلم أن كل الأشياء تعمل معا للخير للذين يحبون الله الذين هم مدعوون حسب قصده" (رو٨ :٢٨)!!

أما الجود لغة الكرم، فإذا قيل "جاد" المرء جودا إي "تكرم "و"جاد" بالمال إي بذله، و "جاد" بنفسه سمح بها عند الموت، وجادت السماء جودا إي "أمطرت". ومن هذا الكلام نعلم معنى الجود منسوبا إلى الله هو الإله الجواد الذي يعطي "في المعنى العام "جميع الناس : " فانه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين،ويمطر على الإبرار والظالمين "(مت٧: ٤٥) "إذ هو يعطي الجميع حياة ونفسا وكل شيء "(اع١٧ :٢٥) "الذي يعطي بسخاء ولا يعير" (يع١: ٧) بل يعطي أكثر من ذلك اضعف وأدق المخلوقات إذ :"من يهيئ للغراب صيده إذ تنعب فراخه إلى الله وتتردد لعدم القوت" (اي٣٨: ٤١). "انظروا إلى طيور السماء إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن وأبوكم السماوي يقوتها "(مت٦ :٢٦). وهو في هذه كلها لا يمكن إلا أن يعطي ويجود، كما أن الشمس لا يمكن إلا أن تشرق،وكما أن المطر لا يمكن إلا أن ينهمر، وكما أن الينبوع لا يمكن إلا أن يتدفق ويندفع، بل إذا فرض المستحيل، وجاز أن تمتنع الشمس عن نورها، وجاز للينبوع أو الوابل أن يكفا عن البذل والعطاء، فان جود الله مع ذلك هيهات أن ينقطع أو يمتنع أو يقل أو يضعف أو يتعثر. إذ أن هذا الجود لا يرجع في شيء ما طبيعة الخلائق التي تأخذ، بل إلى كل شيء في طبيعة الله الذي يجود ويعطي ويبذل. كما ينبغي أن نذكر أيضا أن هذا

الجود لا يقتصر على شيء دون شيء، أو على ميدان دون ميدان، إذ هو شامل دائم عام، يعطي الجميع الأشياء ويتبع كافة الميادين على هذه الأرض. الم يرى المسيح في ذات نور الشمس وغيث الوابل والمطر،منح الله وعطاياه، إذ قال "شمسه" و "يمطر"! اجل فكل ما فينا ومعنا ولنا يجب أن يرجع إلى سبب واحد لا غير، إلا وهو جود الله وكرمه وإحسانه وعطاياه.هذا هو الجود في "المعنى العام" أما الجود في "المعنى الخاص" فهو ذلك الجود الرحب الدقيق الخاص بالمؤمنين أبناء الله، جود "الخلاص" و" النعمة" و"الرعاية" و "الإحسان" و "الهداية". الم يقل الكتاب متحدثا عن هذا الجود: "واصنع إحسانا إلى ألوف من محبي وحافظي وصاياي "(خر ٢٠: ٦) "لأنه من يمسكم يمس حدقة عينيه" (زك٢: ٨).

وفي العام ١٩٤٤ قبض النازي على أسقف هانوفر، وسجنه في الطابق الأعلى من مبنى البوليس في برلين، وعندما كانت برلين تتعرض للغارات الجوية العنيفة التي قام بها الحلفاء ضد ألمانيا كل الحراس يتركون هذا الرجل القديس في زنزانته في اعلي المبنى ويغلقون عليه ثم يهربون إلى المخابئ، ولكنه ألف عند هذه الغارات أن يفتح نافذة الزنزانة ويتطلع في اشد الحالات وأقساها إلى السماء. ومع أن برلين تحولت إلى أنقاض وأكوام من الخراب والرماد، إلا انه نجا ورأى جود الله في المحنة القاسية!! إلا يمكن بعد ذلك أن نهتف قائلين :"ما أجوده، وما أجمله،الحنطة تنمي الفتيان والمسطار العذارى "(زك٩ :١٧)

الله المحب الرحيم

ولعل خير ما نختم به الحديث عن صفات الله، الحديث عن محبته ورحمته. وليس من شك أن عبارة "الله محبة " هي أجمل ما سمعته الآذان البشرية خلال العصور والأجيال.وقد كان في اللغة اليونانية عن مطلع المسيحية، ثلاث كلمات تفيد معنى المحبة الأولى:"AGAPE" وهي المحبة القوية الواعية الداخلية.الثانية وهي "EROS" وهي المحبة الراغبة المشتهية، والتي تنشد على الدوام الاقتناء والملك، وهي الباعث الرئيسي والدافع لكل ما نرغب اقتناءه في الحياة، إذ هي الدافع لحب الفضيلة في الحياة الأبدية، وحب الجمال في الحياة الفنية، وحب الخلود في الحياة الروحية وما أشبه. والثالثة"PHILEO" وهي المحبة العاطفية المؤثرة،والتي تهتم وتعني بالآخرين مجردة من الذات والأنانية. ومن الطريف أن نذكر أن المسيح استعمل اللفظ الأول وهو يقول لبطرس " يا سمعان بن يونا أتحبني" AGAPAN" أكثر من هؤلاء" (يو ٢١: ١٥) فرد بطرس مستعملا اللفظ الثالث إذ قال: "نعم يارب أنت تعلم إني احبك" PHILEN" وإذ كرر المسيح القول جاء في المرة الثالثة مستعملا ذات اللفظ الذي استعمله بطرس "PHILEN " وقد ذكرنا هذا حتى يسهل بعد ذلك فهم مدلولات المحبة عندما تنسب إلى الله إذ هي"

أولا: وقبل كل شيء المحبة الأزلية السرمدية العميقة القائمة في الثالوث الأقدس وهي بهذا المعنى صفة ذاتية قائمة في شخص الله.وإلا فماذا كان يحب الله قبل الخليقة!؟الم يقل المسيح: "لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم" (يو١٧ :٢٤)؟.

وثانيا:هي المحبة الخالقة المبدعة، وهل الخليقة كلها إلا نتاج المحبة وعملها!؟ وكيف لا، وبناء البيت أو تكوين الأسرة أو إبداع هذا أو ذاك من الأعمال والفنون ليس إلا وليد المحبة التي ترغب في الاقتناء والملك. ولقد صنع الله الإنسان لان لذاته مع بني ادم.

وثالثا :يتفرع عن هذا ويفيض المحبة المعتنية الساهرة الراعية الحافظة.ومن لا يعتني أو يرعى أو يسهر أو يسوس أو يهتم بما تعبت فيه يداه؟ في الواقع أن رعاية الله وحمايته وحفظه وعنايته ترجع جميعا إلى محبة الله العاملة لخليقته التي صنعها.

ورابعا: هل المحبة الغافرة النادية؟" لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له حياة الأبدية" (يثو٣ : ١٦) لكن الله بين محبته لنا لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا " (رو٥: ٢٨).

وأخيرا :فهذه المحبة جعلتنا أولاد لله وورثة مع المسيح، يمكن أن نهتف في قلب الزمن والأبدية :"انظروا أية محبة إعطانا الأب حتى ندعى أولاد الله "(١يو٣: ١).

وكل هذه المحبة تساعدنا أخر الأمر على فهم معنى الرحمة ومدلولها، وما الرحمة لغويا إلا الرقة واللطف والشفقة والعطف والإحسان والترفق. وترجع هذه الرحمة أولا وقبل كل شيء إلى طبيعة الله نفسه، إذ هو رحيم ورءوف طويل الروح وكثير الرحمة لا يحاكم إلى الأبد ولا يحقد إلى الدهر.ومع أن برنارد شو أخطا في كتاب " الزنجية تبحث عن الله "إذ لم يستطع أن يرى الله الرحيم في العهد القديم، إذ تصور الإله القاسي المنتقم، إلا أن الحقيقة الثابتة أن الرحمة اللانهائية تكمن في أعماق جوهر اله- أليس هذا ما أعلنه لموسى عندما أخطا الشعب "الرب اله رحيم ورءوف. بطء الغضب وكثير الإحسان والوفاء "(خر٣٤: ٦)؟ بل أليس هذا ما تبينه يعقوب الشريد الهاجع في ظلمة الليل، تلفه خطاياه وآثامه غير انه أبصر الله يطل عليه بالحنان والجود والرحمة، ويضمه كما يضم الأب طفله الخائف المرتاع بين ذراعيه؟اجل.. الم يظهر الله ليعقوب بعد أن خدع أخاه وهرب في صورة الإله المنتقم المخيف،بل في صورة الأب الداني العطوف. وداود نفسه قد اختبر رحمة الله العظمى،عندما لاذ بها واعتصم في سقطته الكبرى وخطيئته الشنعاء الم يقل :" ارحمني يا الله حسب رحمتك حسب كثرة رأفتك امح معاصي: (مز٥١: ١). والعشار الآثم تعلق بها في صرخته عندما صاح: "اللهم ارحمني إنا الخاطئ "(لو١٨: ١٣). وهل نريد أن نتبين هذه الرحمة في ابرع صورها واجل مجدها، إلا فلنذكر ذلك اللص التائب علق على الصليب إلى جوار المسيح وبدا مع الأخر يعيرانه. ولكنه ما أسرع ما تنبه إلى خطيته،فطلب العفو والغفران ومع أن حياته بجملتها كانت مجموعة من الشر والإثم إلا أن رحمة الله تجزل لنا، لان الله يعلم ضعف طبيعتنا وقصورها وتصدعها ونقصها أو كما يقول المرنم :"لأنه يعرف جبلتنا يذكر إننا تراب نحن" (مز١٠٣ :١٤).اجل فنحن جميعا ضعفاء، وقد حف بنا الضعف من كل ركن وجانب، وليس فينا من يستطيع النهوض مستقلا أو بعيدا عن الله، ولهذا :"لم يصنع معنا حسب خطايانا ولم يجازنا حسب آثامنا لأنه مثل ارتفاع السماوات فوق الأرض قويت رحمته على خائفيه، كبعد المشرق عن المغرب ابعد عنا معاصينا "(مز١٠٣: ١٠-١٢).

في التاريخ العربي القديم أن رجلا اسمه تميم ابن جميل، ثار ذات يوم على المعتصم، ولكن ثورته فشلت، فجيء به مقبوضا عليه مكبلا بالأغلال حتى وقف بين يدي المعتصم. وإذ تأمله المعتصم رق لحاله وأخذته الشفقة عليه، فإذن له بالكلام فانشد يقول:

أرى الموت بين السيف والنطع كامنا يلاحظني من حيث ما أتلفت

واكبر ظني انه اليوم قاتلي وأي امرئ مما قضى الله يفلت

ومن ذا الذي يأتي بعذر وحجة وسيف المنايا بين عينيه مسلّط

وما جزعي من أن أموت وأنني   لا علم أن الموت شيء موقن
ولكن خلفي صبية قد تركتهم   وأكبادهم من حسرة تتفتت
فان عشت عاشوا سالمين بغبطة   أزود الردى عنهم وان مت ماتوا
كأني أراهم حين انعي إليهم   وقد لطموا تلك الخدود وصوتوا

وقد قيل أن المعتصم ما سمع هذه الأبيات حتى أجهش بالبكاء وعفا عن المذنب والأسير. فإذا صح أن يقال هذا عن إنسان، أفليس بالحري أولى واصح أن يقال عن الله الذي وسعت رحمته كل شيء وهو أعظم وارحم الراحمين!.

الفصل الخامس: إيماني بلاهوت المسيح

"من يقول الناس إني أنا"؟

هذا هو السؤال الذي طرحه المسيح على تلاميذه عند قرى قيصرية فيلبس منذ ما يقرب من ألفي عام. وما يزال هذا السؤال حتى اليوم من أهم وأعظم الأسئلة التي طرحت على بساط التاريخ، والتي تركت وما تزال تترك أدق واخطر الآثار في المجموع البشر بكله!

وغير خاف أن المسيح عندما القي هذا السؤال، لم يلقيه في هيكل أورشليم أو في كفر ناحوم أو الناصرة أو إحدى مدن أو قرى الأرض المقدسة، بل ألقاه في أقصى الشمال عند الخط الفاصل بين اليهودية والوثنية عند قرى قيصرية فيلبس وقد كانت هذه البقعة التي وصل إليها المسيح من أجمل بقاع الدنيا، وأكثرها إثارة وإغراء،حتى أن البعض يقارن بمناظر تيفولي الايطالية الساحرة.غير أن المسيح لم بهذا المنظر الساحر، بقدر ما أثير بمنظرين أو ثلاثة هناك. فقد كان هناك معبد يوناني أقامه اليونانيون الأقدمون ممن جاءوا إلى الأرض المقدسة حول مغارة قائمة عند أقدام جبل حرمون، وقد ظل المعبد بأغصان الشجر،وكرست العبادة فيه للإله"بان "اله الرعاة عند الإغريق. وإلى جوار هذا المعبد بنى هيرودس الكبير معبدا رومانيا أخر من الرخام الأبيض باسم مولاه وحاميها أغسطس قيصر وجاء ابنه فيلبس ووسع المدينة الصغيرة المشادة هناك وجملها وأطلق عليها قيصرية فيلبس تيمنا باسم الإمبراطور طباريوس قيصر. وجاء المسيح إلى المكان ليقف على الخط الفاصل بين الوثنية – ممثلة في وجهيها التقليديين التاريخيين الكبيرين القديمين، الوجه اليوناني والوجه الروماني – وبين اليهودية وهنا ألقى سؤاله العظيم الخالد.

وما يزال هذا لسؤال العشرين قرنا من الزمان، وسيظل إلى الأبد، الفيصل الحاسم بين مختلف الديانات والعقليات والمدنيات والحضارات وعلى الإجابة عليه يتحدد موقف كل إنسان تحديدا قاطعا أبديا.

الآراء المختلفة حول شخص المسيح

ومن السمات المسيحية الواضحة واعتدادها بعظمتها ويقينها وثباتها إنها لا تفزع ولا تضطرب يوما ما، مما يمكننا يقال عن المسيح سيدها. كيف لا والمسيح نفسه قد شجع الحرية والفكرية على الدوام في أقصى مداها، ولم يعرف عنه يوما ما انه أرغم أنسانا على الإيمان به، أو أمر أنسانا أن يعتنق أو يفعل شيئا لم يرده هذا الإنسان أو يرغب فيه، وذات سؤاله لتلاميذه يفيد هذا المعنى بكل جلاء ووضوح. كما أن المسيحية لا تقبل أن يكون إيمان الناس بشخص المسيح مبنيا كما يقول كرينجي سمسون على أسنة الرماح بل منتزعا من اليقين الكامل المسيطر على الفكر والقلب معا. وكم ثم فليس ارغب إلينا أو أحب منان نتبع هنا أسلوب ديكارت الذي إذ أراد الوصول ذات يوم إلى الإيمان بوجود الله حتى طرح سلفا كل فكر ورأي، وشك في

كل شيء، إذ بدا في الشك بوجود الله وشك في الكون بأسره وشك في حواسه وقدرته على التمييز، وظل متدرجا في الشك حتى بلغ النقطة الأولى، انه لا يشك انه يوجد إنسان يشك!! ومن سلم الشك عاد إلى الإيمان بالله!! وبذات المعنى نريد أن نقول إننا لا نرغب أن يؤمن الناس بلاهوت المسيح قسرا وعنفا، وان يعتنقوا سلفا، رأيا يصرون عليه ويتعصبون له، ويبغضون أن يسمعوا إي رأي أخر سواه، بل سنضع بين أيديهم شتى الآراء والأفكار التي قيلت عن المسيح، وسنناقشها جميعا غثها وسمينها، بكل هدوء وأناة وروية وصبر حتى نصل أخر الأمر إلى الرؤى الصحيح والفكر السديد..

اللاهوت الكامل

ولعل من أقدم الآراء ذلك الرأي الذي نادي به الغنوسيين ممن أنكروا فكرة التجسد بالمعنى الشائع الموجود عند جمهور المسيحيين، واقروا لاهوت المسيح دون ناسوته ومهم "الدوستيون" والكلمة من الأصل اليوناني يترائي أو يظهر. وقد قالوا أن المسيح ظهر فقط في هيئة إنسان دون أن تكون له حقيقة جسد الإنسان، وهو لم يولد بالحقيقة أو تألم أو مات، إذ كان جسده طيفا أو خيالا منظورا. وقد اعتنق هذا المذهب في القرن الخامس احد أساقفة الإسكندرية المدعو كيرل، ممن قال في معرض أحاديثه ذات مرة :"من اجل فائدة سامعيه تظاهر المسيح انه لا يعرف "... ومن الغنوسيين من قال أن المسيح كان ذا جسد ولكنه لم يكن جسدا ماديا، كباقي أجساد الناس ولكنه من جوهر خاص سماوي. ولعل الذي شجع مثل هذه الآراء عند هؤلاء وأولئك هذه الظهورات المتكررة في العهد القديم والأتي كان يظهر فيها الله على شبه صورة إنسان،واعتقادهم إلى جانب ذلك أن الجسد شر في أصله مناف لجلاله وعظمته ومجده. ولكن الكنيسة من فجر تاريخها قاومت الغنوسيين وأفكارهم واعتبرتهم رسل زور وبهتان،وفي ذلك يقول الرسول يوحنا: " ١أَيُّهَا الأَحِبَّاءُ، لاَ تُصَدِّقُوا كُلَّ رُوحٍ، بَلِ امْتَحِنُوا الأَرْوَاحَ: هَلْ هِيَ مِنَ اللهِ؟ لأَنَّ أَنْبِيَاءَ كَذَبَةً كَثِيرِينَ قَدْ خَرَجُوا إِلَى الْعَالَمِ. ٢بِهذَا تَعْرِفُونَ رُوحَ اللهِ: كُلُّ رُوحٍ يَعْتَرِفُ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي الْجَسَدِ فَهُوَ مِنَ اللهِ، ٣وَكُلُّ رُوحٍ لاَ يَعْتَرِفُ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي الْجَسَدِ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ. وَهَذَا هُوَ رُوحُ ضِدِّ الْمَسِيحِ الَّذِي سَمِعْتُمْ أَنَّهُ يَأْتِي، وَالآنَ هُوَ فِي الْعَالَمِ. ٤أَنْتُمْ مِنَ اللهِ أَيُّهَا الأَوْلاَدُ، وَقَدْ غَلَبْتُمُوهُمْ لأَنَّ الَّذِي فِيكُمْ أَعْظَمُ مِنَ الَّذِي فِي الْعَالَمِ. (١يو ٤ :١-٤) وضعف هذه الآراء إنها أراء عاطفية تفتقر إلى الدليل،والمنادون بها على الأغلب ظنوا أنهم يمجدون المسيح، بنفي خضوعهما يخضع له سائر الناس جميعا، مع أن لغة الكتاب ضدها على خط مستقيم، كما أن الذين راو المسيح وعاشوا معه، وعاصروه ولمسوا حياته كانسان ينفونها نفيا قاطعا جازما باتا أكيدا.

وقريب من هذه الآراء مذهب الابوليناريين، ممن ابتدعوا فكرا عن المسيح من غير سند، متأثرين بآراء أفلاطون في الإنسان وقوله انه مكون من الجسد والنفس والروح الناطقة، وأن المسيح يختلف عن البشر إذ حل فيه اللاهوت محل الروح البشرية الناطقة، ومرجع الضعف في هذا الرأي انه امن بالرأي الأفلاطوني كحجة من غير جدال وفي الوقت عينه قبله جزئيا مبتورا ناقصا، إذ رفض وجود الروح الناطقة في المسيح كانسان، ولم يبين كيف يتفق هذا مع قول المسيح على الصليب : "يا أبتاه في يدك استودع روحي" (لو٢٣: ٤٦). ومناجل هذا رفضت الكنيسة جميع هذه الآراء وعدتها ضلالات في مجمعي القسطنطينية عام ٣٨١م وخلقدونية ٤٥١م واعتبرت مبدعيها هراطقة لا يمكن أن يعبروا عن الوحي والعقيدة المسيحية.

الإله من دون الله

وهذا يعود بنا إلى ما سبقت الإشارة إليه ونحن في صدد الحديث عن الوحدانية والثالوث إلى بدعة اريوس القائلة أن المسيح القائلة أن المسيح اله،ولكنه من دون الله، إذ هو والروح القدس مخلوقان في البدء قبل إي خليقة أخرى وطبيعتهما تشبهان

طبيعة الله، وان المسح بهذا المعنى ليس إلها بذاته، ولكنه صار بمنزلة إلها نظرا إلى ارتقاء طبيعته. وان الله أوكل إليه خلق العالم وهو كخالق وملك يستحق العبادة اللاهية. أما المذهب الشبيه بالاريوسي، فهو وان كان يرد المسيح والروح القدس إلى بدء اسبق مما يعتقد اريوس، إلا إنهما لا يشبهان الله بل جوهرهما اقل من جوهر الله وطبيعتهما ادني من طبيعته.

وكلا الرأيين في الواقع ظاهر البطلان من غير ما حاجة إلى الدخول في الجدل،حول بعض الآيات التي التبس أمرها على اريوس وإتباعه. بل كلا من الرأيين نوع من الوثنية أشبه بوثنية اليونانيين التي كانت تؤمن بتعدد الإلهة وتجعل من زيوس أباها وكبيرها، وبقية الآلهة أبناءه وإتباعه!!. والضعف القاتل للرأيين إنهما –في لغة رجال القانون- مشبوبان بالقصور والتناقض بهدم أولهما فيه أخره وتقضى النتيجة فيهما على القاعدة والأساس،لان فضلا عن وحدانية الله عند المسيحيين القاعدة التي لا تحتمل ادني شك، أو مجادلة، فان اتجاه الرأيين يقود إلى نوع من التعدد المناقض للوحدانية، كما أن الاستطراد في المنطق يوقع الرأيين في حرج لا يمكن التخلص منه :"للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد "(مت٤ : ١٠).

٣- الناسوت الكامل

وقد وجدت هذه الآراء جميعا عند البعض الرأي المضاد، وهو الإيمان بناسوت المسيح دون لاهوته، إذ قالوا أن المسيح هو"الإنسان الكامل" الإنسان الذي في عرف البض :"قد يكرم كأعظم قائد وأروع بطل وامجد شهيد ولكنهم لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يربطوا أنفسهم به أو يتأصلوا فيه أو يخضعوا حياتهم له بدون قيد أو شرط.وبالتالي لا يمكن أن يجعلوه مركز عقيدتهم وأساسها "... ولكن لمثل هؤلاء جميعا لا نجد جوابا أفضل من جواب دكتور أ... كونراد عندما قال :"أنهم مخطئون تماما فيما انتهوا إليه من قرار،إذ لا يمكن أن نجعل المسيح حتى قائدا أو بطلا بعد أن رفضوا واحتقروا ما اقره لنفسه، إذ لا يعدو المسيح في هذه الحال إلا أن يكون واحدا من اثنين، أما المخادع الأكبر أو المخدوع الذي يحتاج إلى الرثاء. ومن السخف أن نعطيه بعد ذلك ادني مركز من الكرامة أو الامتياز، إذ هو أكثر من مجرد إنسان بشري. فإذ لم يكن المسيح مستحقا للعبادة، فهو لا يستحق ادني حظ من الاحترام. كيف وقد طلب لنفسه العبادة والإجلال، وهو ما لا يمكن أن يبرره ما لم يكن هو ذات الله؟".

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى الرأي النسطوري، الذي حاول به نسطور وإتباعه التوفيق بين هذه الآراء المتعارضة وانتهى به التفكير إلى أن المسيح بين، فلا هو بالإنسان الكامل ولا بالإله الكامل، إذ فصل نسطور بين الإنسان في المسيح وبين اللاهوت، إذ لكل منهما شخصية مستقلة متميزة عن الأخرى، والمسيح هو ذلك الإنسان الذي يختلف عن جميع البشر، الذي حل فيه لاهوت الله حلولا كاملا، فبينما يحل الله في غيره من البشر حلولا جزئيا حل فيه وحده حلولا كاملا. ولعل الذي دفع نسطور إلى ذلك، أو في تعبير أدق ورطه،هو انه لم يكن يبحث أصلا في العلاقة بين الناسون واللاهوت، بل جاء بحثه وليد النزاع الذي شب بينه وبين غيره حول "مركز العذراء من المسيح " وهل يجوز تسميتها والدة الإله أم لا، وكان راية أن المسيح بالمعنى المشار إليه شخصيتين متميزتين كل منهما تستقل عن الأخرى، وانه إذا صح أن ندعو العذراء أما للمسيح كانسان، فليس من الحق أن ندعوها أم لله، إذ أن الله منزه عن أن يولد أو يموت وأوغل نسطور في هذا الأمر فخرج من الدفاع الأساسي كله، وتورط في معتقده عن المسيح، فخرج رأيا مسخا مشوها قبيحا، لفظته الكنيسة مع غيره من الضلالات!. وعيب عليه ما اغفل من أزلية المسيح السابقة على التجسد. كما نظريته في الحلول الذي حل به الله في المسيح جاءت شواء دميمة متسمة بالكثير من الغموض والإبهام والقصور والتناقض.

٤-اتحاد اللاهوت والناسوت في شخص المسيح

أما الرأي الذي عاش في الكنيسة وكتب له الغلبة والانتصار والسيادة والعمومية، ونادت وما تزال تنادي به القوانين الكنسية جمعاء في الشرق والغرب معا، في كل الأجيال والعصور فهو ما سبقت الإشارة إليه أنفا في القانون الاثناسي والقاضي بالاتحاد الكامل بين اللاهوت الكامل والناسوت الكامل في شخص المسيح.وهو أن المسيح ذو طبيعتي تامتين كاملتين، إذ هو اله تام وإنسان تام اتحد في شخصه الواحد بالتجسد وإذ ترجئ الكلام عن ناسوت المسيح ومدلوله ومعناه إلى الفصل التالي يبقى أن نسال ههنا : ما هي الدوافع والأسباب التي حدت بالناس والمجامع الكنسية إلى الإيمان بلاهوت المسيح؟ وكيف أتيح لهذه الدوافع أن ترقى وتتأصل في الذهن حتى تبلغ مبلغ العقيدة التي يحيا الناس من اجلها ويعيشون بل ويكافحون ويستشهدون من غير تردد أو إحجام. أو في لغة أخرى يعود السؤال السالف ذكره أو المطروح على الأجيال:من هو المسيح؟يعود لينهض مرة أخرى في تحديد خاص: لماذا يؤمن الناس بلاهوته، وما هي الأدلة الدامغة القاطعة التي عليها يستندون، وفيهم من أعظم جبابرة الفكر البشري بل وخلاصة عباقرة الناس في كل جيل ودهر وعصر!!؟ بل ويمتد الأمر إلى أكثر من ذلك أو بالأحرى يشتق من السؤال سؤال أخر، إلا وهو : كيف يمكن أن نفسر هذا الاتحاد بين الله والإنسان في ذات شخص واحدا!؟ ثم يبقى بعد ذلك ثمة سؤال أخير : هل يقبل عقلا أن يتخذ الله جسدا بشريا دون يبدو في هذا مجافاة للمنطق، أو لجلال الله وعظمته ومجده!؟

هذه هي الأسئلة التي لابد من الإجابة عليها قبل أن نؤمن أو نقنع الناس بالإيمان بلاهوت المسيح وتجسده.

ما هي الأدلة القاطعة على لاهوت المسيح؟

ولعله من اللازم والحيوي قبل أن نسال: ما هي هذه الأدلة القاطعة على لاهوت المسيح، أن نحدد تحديدا دقيقا كاملا مدلول ومعنى الدليل القاطع!!.. الدليل القاطع في لغة القانون هو الدليل الذي لا يقبل العكس. فما هي سمات أدلة لاهوت المسيح ولم لا تقبل العكس؟

أن سماتها ترجع إلى النص والعرف والقرينة مجتمعة معا، فالنصوص المتوافرة فيها تغني عل الاجتهاد، كما أن العرف - وهو العادة التي تجري في حياة الناس، وتتأصل فيهم وتجتاز امتحان الزمن – يساند النص لإلفي عام في الإيمان بلاهوت المسيح،كما أن القرائن الثابتة الأكيدة ي هذا الصدد أوفى من أن تعد وتحصى : فما هي الأدلة القاطعة إذا، بعد أن فهمنا مدلول القطيعة ومعناها!؟

أولا – الدليل المستمد ن لنبوات في العهد القديم

وهل من ريب أو شك في هذه الدليل والنصوص المتواترة فيه بلا عد أو حصر، وقد امتدت من أول التاريخ البشري حتى أخر سفر في العهد القديم أو قرابة أربعة آلاف عام.هذه النصوص لا يمكن أن يتهم المسيحيون باصطناعها أو تأويلها، ما دامت هي أيضا في يد اليهود إلى اليوم، وقد تب أخرها قبل مجيء المسيح إلى الأرض بأربعمائة عام على الأقل!. ممل ما تذكر أو تصح أن خصا إلهيا سيأتي من السماء، لابسا الطبيعة البشرية ليكون مخلص الناس والعالم، وان ذلك الشخص يكون من نسل امرأة، ويجيء من نسل إبراهيم، وعلى وجه التحديد من سبط يودا وبيت داود، مولودا من عذراء بلا عيب أو دنس، وهو في الوقت ذاته الإله القدير السرمدي الأبدي. وكيف يكن أن يتم هذا دون التجسد واتحاد الناسون باللاهوت!؟. وإذا كان من

المتعذر جمع كافة النصوص في هذا المجال، فلا اقل من الإشارة التي أظهرها وأوضحها، على سبيل المثال لا الحصر!. وأية عبارة أوضح أو أصرح من قول اشعياء النبي :" ٦لأَنَّهُ يُولَدُ لَنَا وَلَدٌ وَنُعْطَى ابْناً، وَتَكُونُ الرِّيَاسَةُ عَلَى كَتِفِهِ، وَيُدْعَى اسْمُهُ عَجِيباً، مُشِيراً، إِلهاً قَدِيراً، أَباً أَبَدِيّاً، رَئِيسَ السَّلاَمِ. (اش٩ :٦) ودعي ذات الشخص في موضع أخر من سفر اشعياء، عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا إذ قيل: " ها العذراء تحبل وتلد ابنا ويدعو اسمه عمانوئيل"(اش٧: ١٤). وما قول اليهود فيما ورد في سفر المزامير – وهم أول دعاة التوحيد وحماة التاريخ: "قال الرب لربي اجلس عن يميني حتى أضع أعدائك موضع قدميك" (مز ١١٠: ١) وكيف يمكن أن نجد لهذا التعبير حلا، من غير الإيمان بالمخاطبة الأزلية بين الأب والابن. واليقين بان الله الناطق هو ما تسلما به كافة الأديان – كان يكلم ذاته الإلهية!؟ بل ما قول فيما جاء في سفر الأمثال من كلام اور بن متقية مسا: "٢إِنِّي أَبْلَدُ مِن كُلِّ إِنْسَانٍ وَلَيْسَ لِي فَهْمُ إِنْسَانٍ ٣وَلَمْ أَتَعَلَّمِ الْحِكْمَةَ وَلَمْ أَعْرِفْ مَعْرِفَةَ الْقُدُّوسِ. ٤مَن صَعِدَ إِلَى السَّمَاوَاتِ وَنَزَلَ؟ مَن جَمَعَ الرِّيحَ فِي حُفْنَتَيْهِ؟ مَن صَرَّ الْمِيَاهَ فِي ثَوْبٍ؟ مَن ثَبَّتَ جَمِيعَ أَطْرَافِ الأَرْضِ؟ مَا اسْمُهُ وَمَا اسْمُ ابْنِهِ إِنْ عَرَفْتَ؟ (أم ٣٠: ٢-٤) أو ما جاء على لسان النبي ميخا : "٢«أَمَّا أَنْتِ يَا بَيْتَ لَحْمَ أَفْرَاتَةَ وَأَنْتِ صَغِيرَةٌ أَنْ تَكُونِي بَيْنَ أُلُوفِ يَهُوذَا فَمِنْكِ يَخْرُجُ لِي الَّذِي يَكُونُ مُتَسَلِّطاً عَلَى إِسْرَائِيلَ وَمَخَارِجُهُ مُنْذُ الْقَدِيمِ مُنْذُ أَيَّامِ الأَزَلِ». (مي٥: ٢).وهذه غيرها من النبوات المتعددة لم تتحدث فحسب عن مجئ المسيح الموعود به للعالم، بل قطعت في الحديث بتجسده ولاهوته أيضا.

ثانيا –الدليل المستمد من أقوال المسيح ذاته

فإذا ما تركنا العهد القديم، واتيا إلى إقرارات المسيح وأقواله ذاتها لانتهينا إلى واحد من أمرين لا ثالث لهما على الإطلاق، أما أن يكون المسيح اكبر مدع ومضلل ومخادع على هذه الأرض، أو هو الحق الكاملة الذي لا شائبة فيه أو مراء!. فإذا كان من المتفق عليه حتى عند أولئك الذين لم يتعبدوا له أو يقبلوه، أن حياته لم يمكن أن تداني أو تباري وانه: "لم يتكلم قط إنسان كذا مثل هذا الإنسان" (يو٧: ٤٦). وانه المقياس الذهبي للأخلاق في كل جيل وعصر، وانه بدون جدال أو شك كما قال سرجون : "الحقيقة المركزية العظمى في تاريخ العالم، إذ يبدو وإزاء كل شيء إلى الأمام أو الخلف. وكل خطوط التاريخ تلاقى عنده وكل مواكب العناية تسير وفق إرادته، وكل أغراض الله العظيمة تتم في شخص بل ا حقيقة ميلاده أعظم واخطر حقيقة عرفها التاريخ كله" فإذا أضيف إلى هذا كله عظمة معجزاته وروعة إعماله الشاهدة على صدق كل حرف أو كلمة فاه بها أو نطق،تعين التسليم بالدليل القطعي والحجة الثابتة المستمدة من أقواله. قد نسب المسيح إلى نفسه عشرين حقيقة على الأقل، لا يكن أن تنسب سوى لله ذاته وهاكم هي على التوالي واحدة فواحدة.

١ـ الأزلية

ولعل هذا هو ما أخر ما صرح به المسيح وفاه إذ قال لليهود : "قبل إن يكون إبراهيم إنا كائن" (يو٨: ٥٨) ولا يغرب عن البال إن التعبير "إنا كائن" هو ذات التعبير الذي أطلقه الله على ذاته، عندما سأله موسى قائلا: "ها إنا أتي إلى بني إسرائيل وأقول لهم : "اله إباءكم أرسلني إليكم فإذا قالوا لي ما اسمه فماذا أقول لهم؟ " فقال الله لموسى : "اهيه الذي اهيه " (خر٣: ١٢و ١٤). أو كائن الذي كائن" مما يفيد إن المسيح يرى في شخصه ذات الإله القديم، الذي ظهر لموسى في العليقة في جبل حوريب. كما إن المسيح قال في مناسبة أخرى: وهو يخاطب الأب السماوي:"والان مجدني أيها الأب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم. لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم" (يو١٧: ٥و٢٤).. مما يقطع انه كان يتحدث عن ذاته الأزلية القائمة في شخص الله قبل كون العالم، أو إنشائه.

٢ـ المجيء من السماء

وقد تحدث المسيح بهذا عندما قارن بين نفسه واليهود في القول: "انتم من أسفل، أما إنا فمن فوق. انتم من هذا العالم، أما إنا فلست من هذا العالم" (يو٨: ٢٣) وقد أوضح هذا مرة أخرى في قوله لنيقوديموس: "وليس احد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء" (يو٣ :١٢). وهو هنا لا يتحدث عن مجيئه من السماء فحسب، بل عن وجوده في السماء وهو على الأرض. ومن يجرؤ إن يقول هذا القول إلا الله وحده المالئ السموات والأرض .

٣ـ العصمة

والعصمة لله وحده كما يقولون ولكن المسيح نسب لنفسه هذه العصمة في القول: "من منكم يبكتني على خطية" (يو٨: ٤٦). وهل نطق نبي أو رسول أو قديس بمثل هذا القول أو شيء قريب منه؟. كلا وألف كلا، بل جميعا يصرخون مع أيوب في حضرة الله :"اخطأ ماذا افعل لك يا رقيب الناس. ولماذا لا تغفر ذنبي ولا تزيل إثمي؟ لأني الآن اضطجع في التراب تطلبني فلا أكون" (٢٠:٧ و٢١). ويفزعون مع داود :" ٤إِلَيْكَ وَحْدَكَ أَخْطَأْتُ وَالشَّرَّ قُدَّامَ عَيْنَيْكَ صَنَعْتُ لِكَيْ تَتَبَرَّرَ فِي أَقْوَالِكَ وَتَزْكُوَ فِي قَضَائِكَ. ٥هَئَنَذَا بِالإِثْمِ صُوِّرْتُ وَبِالْخَطِيَّةِ حَبِلَتْ بِي أُمِّي. (مز٥١: ٤و ٥). ويهتفون مع اشعياء : "٥فَقُلْتُ: «وَيْلٌ لِي! إِنِّي هَلَكْتُ لأَنِّي إِنْسَانٌ نَجِسُ الشَّفَتَيْنِ وَأَنَا سَاكِنٌ بَيْنَ شَعْبٍ نَجِسِ الشَّفَتَيْنِ لأَنَّ عَيْنَيَّ قَدْ رَأَتَا الْمَلِكَ رَبَّ الْجُنُودِ».(اش٥: ٥). ويقولون مع بولس: "٢٠فَإِنْ كُنْتُ مَا لَسْتُ أُرِيدُهُ إِيَّاهُ أَفْعَلُ فَلَسْتُ بَعْدُ أَفْعَلُهُ أَنَا بَلِ الْخَطِيَّةُ السَّاكِنَةُ فِيَّ. ٢٤وَيْحِي أَنَا الإِنْسَانُ الشَّقِيُّ! مَنْ يُنْقِذُنِي مِنْ جَسَدِ هَذَا الْمَوْتِ؟ (رو٧: ٢٠و ٢٤). ويرددون مع يوحنا في لغة البشر أجمعين :"أن قلنا إننا بلا خطية نضل أنفسنا وليس الحق فينا" (١يو٨:١). فمن يكون المسيح إذا، فقد انفرد عن جميع البشر بعصمته وخلوه ن الخطية؟

٤ـ العمل المستحيل على غيره من الناس

والعمل الذي أنجزه المسيح على الأرض، فريد في ذاته ومتعذر على النبي والرسول، إذ ليس في قدرة مخلوق إن يحمل خطية العالم وآثام الورى، وقد صرح هو ذلك في قوله الشهير : "١٦لأَنَّهُ هَكَذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ. ١٧لأَنَّهُ لَمْ يُرْسِلِ اللَّهُ ابْنَهُ إِلَى الْعَالَمِ لِيَدِينَ الْعَالَمَ بَلْ لِيَخْلُصَ بِهِ الْعَالَمُ. ١٨اَلَّذِي يُؤْمِنُ بِهِ لاَ يُدَانُ وَالَّذِي لاَ يُؤْمِنُ قَدْ دِينَ لأَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ بِاسْمِ ابْنِ اللَّهِ الْوَحِيدِ. ١٩وَهَذِهِ هِيَ الدَّيْنُونَةُ: إِنَّ النُّورَ قَدْ جَاءَ إِلَى الْعَالَمِ وَأَحَبَّ النَّاسُ الظُّلْمَةَ أَكْثَرَ مِنَ النُّورِ لأَنَّ أَعْمَالَهُمْ كَانَتْ شِرِّيرَةً.(يو٣: ١٦-١٩).وواضح إن الفرق بين هذا العمل وعمل أي نبي أو رسول هو إن الخلاص متحقق في ذات عمل المسيح كابن الله الوحيد المتجسد، بينما مهمة أي نبي أو رسول هو توصيل رسالة الله أو إعلانها للبشر، وشتان بين "محقق" الرسالة و "المخبر" بها. وفي الواقع أن هذا الفاصل الحسم بين المسيح وأي نبي أو رسول.

٥ـ الألقاب الإلهية

لقد لقب المسيح نفسه بالكثير من الألقاب التي لا يمكن إن تعطى سوى لله ذاته، وإلا فمن من الأنبياء والرسول أطلق على نفسه ما أطلق هو على ذاته عندما قال: "إنا هو الخبز الحياة إنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء " (يو٦: ٤٨، ٥١) "إنا هو نور العالم. من يتبعني لا يمشي في الظلمة، بل يكون له الحياة الأبدية (يو٨: ١٢) "إنا هو القيامة والحياة. من آمن بي ولو مات فسيحيا" (يو١١: ٢٥) "إنا هو الطريق والحق والحياة " (يو١٤: ٦) "إنا هو الإلف والياء البداية والنهاية يقول الرب

الكائن والذي كان والذي يأتي القادر على كل شيء. إنا هو الأول والأخر والحي، وكنت ميتا وها إنا حي إلى ابد الآبدين، لي مفاتيح الهاوية والموت" (رؤ ١ :١٧و ١٨). ومن ذا الذي يجرؤ أن يعطي لنفسه معاني، ومدلولات السرمدية والنور والحق والحياة والقدرة والقيامة والمجد والسيادة وما أشبه، سوى الله ذاته جل جلاله وعظمت قدرته.

٦- العلم بالخفيات السرائر

وقد نسب المسيح إلى نفسه العلم بالخفيات والسرائر! إلي هو القائل لنثنائيل :"هوذا إسرائيلي حقا لا غش فيه" (يو ١ :٤٧) وإذ يسأله الرجل من أين تعرفني؟ يأتي جواب المسيح على الفور" قد إن دعاك فيلبس وأنت تحت التينة رايتك" (يو ١: ٤٨) ومن ذا الذي يعرف السرائر فيحكم بالقول: "لا غش فيه" ويرى الغيب إذ يقول: "وأنت تحت التينة رايتك". إلا ذات الله الذي يخترق عينيه أستار الظلام؟. بل من ذا الذي يطوي علمه الحاضر والمستقبل معا، فيقول بطرس قبل سقوطه: "حيث اذهب لا تقدر ألان أن تتبعني، ولكنك ستتبعني أخيرا". وقال له بطرس يا سيد لماذا لا اقدر إن اتبعك ألان إني أضع نفسي عنك ". أجابه يسوع "أتضع نفسك عني؟ الحق الحق أقول لك لا يصيح الديك حتى تنكرني ثلاث مرات ".بل من ذا الذي يمتد علمه إلى جميع المعنويات الغائرة في قلب الإنسان كما جاء في الأقوال المدونة في سفر الرؤيا لملائكة الكنائس السبع ومنها: " ٢أَنَا عَارِفٌ أَعْمَالَكَ وَتَعَبَكَ وَصَبْرَكَ، وَأَنَّكَ لاَ تَقْدِرُ أَنْ تَحْتَمِلَ الأَشْرَارَ، وَقَدْ جَرَّبْتَ الْقَائِلِينَ إِنَّهُمْ رُسُلٌ وَلَيْسُوا رُسُلاً، فَوَجَدْتَهُمْ كاذبين. ٣وَقَدِ احْتَمَلْتَ وَلَكَ صَبْرٌ، وَتَعِبْتَ مِنْ أَجْلِ اسْمِي وَلَمْ تَكِلَّ. ٩أَنَا أَعْرِفُ أَعْمَالَكَ وَضِيْقَتَكَ، وَفَقْرَكَ (مَعَ أَنَّكَ غَنِيٌّ) وَتَجْدِيفَ الْقَائِلِينَ إِنَّهُمْ يَهُودٌ وَلَيْسُوا يَهُوداً، بَلْ هُمْ مَجْمَعُ الشَّيْطَانِ. ١٣أَنَا عَارِفٌ أَعْمَالَكَ، وَأَيْنَ تَسْكُنُ حَيْثُ كُرْسِيُّ الشَّيْطَانِ، وَأَنْتَ مُتَمَسِّكٌ بِاسْمِي وَلَمْ تُنْكِرْ إِيمَانِي حَتَّى فِي الأَيَّامِ الَّتِي فِيهَا كَانَ أَنْتِيبَاسُ شَهِيدِي الأَمِينُ الَّذِي قُتِلَ عِنْدَكُمْ حَيْثُ الشَّيْطَانُ يَسْكُنُ. ١٨وَاكْتُبْ إِلَى مَلاَكِ الْكَنِيسَةِ الَّتِي فِي ثِيَاتِيرَا: «هَذَا يَقُولُهُ ابْنُ اللهِ، الَّذِي لَهُ عَيْنَانِ كَلَهِيبِ نَارٍ، وَرِجْلاَهُ مِثْلُ النُّحَاسِ النَّقِيِّ. ١٩أَنَا عَارِفٌ أَعْمَالَكَ وَمَحَبَّتَكَ وَخِدْمَتَكَ وَإِيمَانَكَ وَصَبْرَكَ، وَأَنَّ أَعْمَالَكَ الأَخِيرَةَ أَكْثَرُ مِنَ الأُولَى. (رؤ٢: ٢و٣و٩و١٣و١٨و١٩).ومن يكون هذا إلا ذاك الذي وصفه موسى بالقول :"السرائر للرب إلهنا والمعلنات لنا لبنينا إلى الأبد" (تث٢٩: ٢٩). والذي صلى له دانيال بالقول:" ٢٠فَقَالَ دَانِيآلُ: [لِيَكُنِ اسْمُ اللَّهِ مُبَارَكاً مِنَ الأَزَلِ وَإِلَى الأَبَدِ. هو يكشف العمائق والإسرار، يعلم ما هو في الظلمة وعنده يسكن النور" (دا٢: ٢٠و ٢٢).والذي اعترف به نبوخذ نصر بالقول أمام دانيال : "حقا أن إلهكم اله الإله ورب الأرباب وكاشف الإسرار" (دا٢: ٤٧).

٧- القوة والقدرة على كل شيء

وواضح إن المسيح نسب إلى نفسه القوة والقدرة على طل شيء وإلا لما أمكنه إن يقول لتلاميذه : "لأنكم بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئا "(يو ١٥ :٥). وقد تكشفت هذه القوة والقدرة للتلاميذ في كل شيء. ففي الطبيعة قال للبحر الهائج والريح المزبدة :" ٣٩فَقَامَ وَانْتَهَرَ الرِّيحَ وَقَالَ لِلْبَحْرِ: «اسْكُتْ. أبكم». فَسَكَنَتِ الرِّيحُ وَصَارَ هُدُوءٌ عَظِيمٌ. ٤٠وَقَالَ لَهُمْ: «مَا بَالُكُمْ خائفون هَكَذَا؟ كَيْفَ لاَ إِيمَانَ لَكُمْ؟» ٤١فَخَافُوا خَوْفاً عَظِيماً وَقَالُوا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «مَنْ هُوَ هَذَا؟ فَإِنَّ الرِّيحَ أيضا وَالْبَحْرَ يُطِيعَانِهِ!».(مر٣٩:٤-٤١). وفي مواجهة التعاسات والآلام والإمراض سأقول لبرتليماوس الأعمى: " ماذا تُرِيدُ أَنْ أَفْعَلَ بِكَ؟» فَقَالَ لَهُ الأَعْمَى: «يَا سَيِّدِي أَنْ أُبْصِرَ». ٥٢فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «اذهب. إِيمَانُكَ قَدْ شَفَاكَ». فَلِلْوَقْتِ أَبْصَرَ وَتَبِعَ يَسُوعَ فِي الطَّرِيقِ. (مر ١٠: ٤٩-٥٢). وللمفلوج المطروح في فراشه منذ ثمانية وثلاثين عاما "قم احمل سريرك وامش فحالا برئ ومشى" (يو٥: ٨و٩). وفي مواجهة الاحتياجات المادية يسال تلاميذه أن يطعموا الجماهير الجائعة، وإذ فيلبس يقول: " لا

يكفيهم خبز بمائتي دينار حتى يأخذ كل واد منهم شيئا يسيرا " وإذا بالمسيح يطعمهم جميعا، وكان عدد أكثر من خمسة ألاف رجل فيما عدا النساء والأطفال، بخمسة الأرغفة شعير وسمكتين. وفي مواجهة الموت يقول لابنة يايرس: "طليثا قومي الذي تفسيره يا صبية أقول لكي قومي. وللوقت قامت الصبية ومشيت لأنها كانت ابنة اثنتي عشرة سنة، فبهتوا بهتانا عظيما" (مر٥: ٤١و٤٢).وعندما يمس نعش ابن أرملة نايين يقول للميت: "أيها الشاب لك أقول قم، فجلس الميت وابتدأ يتكلم فدفعه إلى أمه" (لو٧: ١٤و ١٥). وأمام قبر العاز يهتف :" ٤٣وَلَمَّا قَالَ هَذَا صَرَخَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ: «لِعَازَرُ هَلُمَّ خَارِجاً» ٤٤فَخَرَجَ الْمَيْتُ وَيَدَاهُ وَرِجْلاَهُ مَرْبُوطَاتٌ بِأَقْمِطَةٍ وَوَجْهُهُ مَلْفُوفٌ بِمِنْدِيلٍ. فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «حُلُّوهُ وَدَعُوهُ يَذْهَبْ». (يو١١ :٤٣و٤٤). هذه بعض مظاهر القوة والقدرة البادية في أقوال المسيح وأعماله!. فمن يون إذا هذا الشخص العجيب.

٨- غفران الخطايا

وقد نسب المسيح إلى نفسه شيئا ليس في نطاق الإنسان أو من حقه وقدرته القيام به، ونعني به غفران الخطايا والآثام. وقد كان اليهود يوقنون على الدوام إن لا احد يملك غفران الخطايا إلا الله وحده، ومع ذلك فقد وقفوا أمم عجيبة من عجائب المسيح منذهلين عندما قال للمفلوج: "٥فلَمَّا رَأَى يَسُوعُ إِيمَانَهُمْ قَالَ لِلْمَفْلُوجِ: «يَا بُنَيَّ مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ». ٦وَكَانَ قَوْمٌ مِنَ الْكَتَبَةِ هُنَاكَ جَالِسِينَ يُفَكِّرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ: ٧«لماذا يَتَكَلَّمُ هَذَا هَكَذَا بِتَجَادِيفَ؟ مَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَغْفِرَ خَطَايَا إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ؟» ٨فَلِلْوَقْتِ شَعَرَ يَسُوعُ بِرُوحِهِ أَنَّهُمْ يُفَكِّرُونَ هَكَذَا فِي أَنْفُسِهِمْ فَقَالَ لَهُمْ: «لماذا تُفَكِّرُونَ بِهَذَا فِي قُلُوبِكُمْ؟ ٩أَيُّمَا أَيْسَرُ: أَنْ يُقَالَ لِلْمَفْلُوجِ مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ أَمْ أَنْ يُقَالَ: قُمْ وَاحْمِلْ سَرِيرَكَ وَامْشِ؟ ١٠وَلَكِنْ لِكَيْ تَعْلَمُوا أَنَّ لاِبْنِ الإِنْسَانِ سُلْطَاناً عَلَى الأَرْضِ أَنْ يَغْفِرَ الْخَطَايَا» - قَالَ لِلْمَفْلُوجِ: ١١«لَكَ أَقُولُ قُمْ وَاحْمِلْ سَرِيرَكَ واذهب إِلَى بَيْتِكَ». ١٢فَقَامَ لِلْوَقْتِ وَحَمَلَ السَّرِيرَ وَخَرَجَ قُدَّامَ الْكُلِّ حَتَّى بُهِتَ الْجَمِيعُ وَمَجَّدُوا اللَّهَ قَائِلِينَ: «مَا رَأَيْنَا مِثْلَ هَذَا قَطُّ!».(مر٢: ٥-١٢).

وفي بيت سمعان الفريسي قال للمرأة الخاطئة :" مَغْفُورَةٌ لَكِ خَطَايَاكِ». ٤٩فَابْتَدَأَ الْمُتَّكِئُونَ مَعَهُ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ: «مَنْ هَذَا الَّذِي يَغْفِرُ خَطَايَا أيضا؟». ٥٠فَقَالَ لِلْمَرْأَةِ: «إِيمَانُكِ قَدْ خَلَّصَكِ! اذهبي بِسَلاَمٍ». (لو٧: ٤٨-٥٠).

٩- إعطاء الحياة الأبدية

والمسيح لا يمنح غفران عن الخطايا فحسب، بل وأكثر من ذلك ينسب إلى نفسه إعطاء الحياة الأبدية السرمدية الدائمة المحررة من كل إثم وفساد وخطية ومن ثم جاء قوله: "٢٧خِرَافِي تَسْمَعُ صَوْتِي وَأَنَا أَعْرِفُهَا فَتَتْبَعُنِي. ٢٨وَأَنَا أُعْطِيهَا حَيَاةً أَبَدِيَّةً وَلَنْ تَهْلِكَ إِلَى الأَبَدِ وَلاَ يَخْطَفُهَا أَحَدٌ مِنْ يَدِي.(يو١٠: ٢٧-٢٨). وإذا كانت هذه الحياة هي حلم البشرية الأعظم، وقد تطلع إليه أفلاطون في "جمهوريته " الخيالية، وحن إليها توماس مور في "اليوتيبا" أو عالم الكمال. وغرد لها فرانسيس بيكون فيما اسماه "المدينة الفاضلة". فمن يكون إذا هذا القادر الذي في قدرته أن يعطي لأتباعه وأشياعه هذه الحياة الأبدية فيسكنهم في جنة الخالدين!؟. ومن هذا إلا ذاك الذي غنى له دانتي في الكوميديا الإلهية، وترنم أمامه ملتون في الفردوس المفقود والمردود، شخص المسيح الإله العجيب!؟.

١٠- المساواة بالآب

وفي ذلك يقول المسيح: "أنا والآب واحد" (يو١٠ :٣٠) وليس هناك تعبير اقطع أو احسم من هذا التعبير عن لاهوت المسيح. بل لعله التعبير الذي يطوي أو يغني عن أي تعبير أخر. بل و التعبير الذي في ضوئه يتيس تفسير سائر العبارات أو الأفكار

أو التعاليم الأخرى المختصة بشان المسيح وطبيعته ولاهوته!. ومع ذلك فقد فسره المسيح بما لا يدع مجالا للشك من أمرين على حد سواء، وهما: " الوحدانية" و "المساواة القائمة الأزلية بين الآب والابن في الإله الواحد" إذ قال في مناسبة أخرى عندما سال فيلبس : "أرنا الآب وكفانا، قال له يسوع أنا معكم زمانا هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبس؟ الذي راني فقد رأى الآب، فكيف تقول أنت أرنا الآب؟ الست تؤمن إني أنا في الآب والآب فيّ. صدقوني إني في الآب والآب فيّ، وإلا فصدقوني لسبب الإعمال نفسها(يو٤ : ٨-١١).

١١- الحضور الدائم في كل زمان

وهذا واضح بكل بجلاء في قول المسيح قبل صعوده إلى السماء لتلاميذه: "١٩فَاذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الآبِ وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ. ٢٠وَعَلِّمُوهُمْ أَنْ يَحْفَظُوا جَمِيعَ مَا أَوْصَيْتُكُمْ بِهِ. وَهَا أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الأَيَّامِ إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ». (مت٢٨: ١٩و٢٠).أو في لغة أخرى إن المسيح الذي كان مع تلاميذه في القرن الأول هو أمسا واليوم وإلى الأبد، والذي يتمشى في موكب العصور، والذي صاح له جورج ماثيسون بالقول: "يا ابن الإنسان عندما اشك في الحياة دعني أفكر فيك إذ لا يمكن أن تضحى قديما بالنسبة لي. إن القرن الماضي قد أضحى قديما، والعام الفائت أصبح منتهيا، إما أنت فلا يمكنان تنتهي، بل تتمشى على الدوام في موكب العصور ولم آت إليك إلا لأجدك جديدا كما أنا".

١٢- الحضور الأكيد في كل مكان

وإلى جانب الحضور في كل زمان يؤكد المسيح حضوره في كل مكان حيثما دعي، أو طلب من احد تلاميذه أو إتباعه في القول: لأنه حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فهناك أكون في وسطهم" (مت١٨ :٢٠). ومن ذا الذي يجرؤ على هذا القول غير ذات الله جل وعلا!؟.

١٣- الحضور في كل قلب

وابلغ من هذا الحضور داخل القلب والنفس البشرية، حيث يبقى ويستقر هناك في المؤمن وقد جاء هذا في قوله : "إن أحبني احد يحفظ كلامي ويحبه أبي واليه نأتي وعنده نصنع منزلا "(يو١٤: ٢٣). "هاأنذا واقف على الباب واقرع إن سمع احد صوتي وفتح الباب ادخل إليه وأتعشى معه وهو معي" (رؤ٣: ٢٠).

١٤- الحامي والحارس للمؤمنين

وقد أضفى المسيح على نفسه مركز الحامي والحارس لجميع المؤمنين على اختلاف العصور والأجيال، إذ هو راعي الخراف الذي تنطلق في أثره وتتبعه :"ولن تهلك إلى الأبد ولا يخطفها احد من يدي "_يو١٠: ٢٨). ومن ذا الذي يمكن أن يعلق على به هذا الوصف إلا ذاك الذي غنى له داود قديما بالقول: " اذهب مِنْ رُوحِكَ وَمِنْ وَجْهِكَ أَيْنَ أَهْرُبُ؟ ٨إِنْ صَعِدْتُ إِلَى السَّمَاوَاتِ فَأَنْتَ هُنَاكَ وَإِنْ فَرَشْتُ فِي الْهَاوِيَةِ فَهَا أَنْتَ. ٩إِنْ أَخَذْتُ جَنَاحَيِ الصُّبْحِ وَسَكَنْتُ فِي أَقَاصِي الْبَحْرِ ١٠فَهُنَاكَ أيضا تَهْدِينِي يَدُكَ وَتُمْسِكُنِي يَمِينُكَ. (مز١٣٩: ٧-١٠).

١٥- سد جميع الإعواز والاحتياجات

ومن أعجب ما صرح به المسيح قدرته الكاملة على سد جميع الإعواز والاحتياجات من غير تحديد أو شرط إذ قال: "تعالوا اليّ يا جميع المتعبين وثقيلي الأحمال وانا أريحكم " (مت١١: ٢٨) وقال :" ١٣أجَابَ يَسُوعُ: «كُلُّ مَنْ يَشْرَبُ مِنْ هَذَا الْمَاءِ يَعْطَشُ أيضا. ١٤ولَكِنْ مَنْ يَشْرَبُ مِنَ الْمَاءِ الَّذِي أُعْطِيهِ أَنَا فَلَنْ يَعْطَشَ إلى الأَبَدِ بَلِ الْمَاءُ الَّذِي أُعْطِيهِ يَصِيرُ فِيهِ يَنْبُوعَ مَاءٍ يَنْبَعُ إلى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ».(يو٤ :١٣-١٤).كما قال أيضا: "«سلاَماً أتْرُكُ لكُمْ. سلاَمِي أُعْطِيكُمْ. لَيْسَ كَمَا يُعْطِي الْعَالَمُ أُعْطِيكُمْ أَنَا. لاَ تَضْطَرِبْ قُلُوبُكُمْ وَلاَ تَرْهَبْ.(يو١٤: ٢٧). ومن ذا الذي له القدرة على سد جميع إعواز الناس واحتياجاتهم كيفما تكن هذه الإعواز والاحتياجات إلا القادر على كل شيء!؟.

١٦- جمع جميع المؤمنين في شخصه

والمسيح يعلن بوضوح لا ريب فيه أو شبهة،انه يجمع في شخصه جميع المؤمنين ليربطهم معا بكيفية موحدة سرية، شبهها هو بارتباط الأغصان بالكرمة في القول: "أنا الكرمة وانتم الأغصان، الذي يثبت فيّ وانأ فيه هذا يأتي بثمر كثير" (يو١٥ : ٥) كما ذكرها في الصلاة الشفاعية أمام الآب السماوي بالقول: " ٢١لِيَكُونَ الْجَمِيعُ وَاحِداً كَمَا أَنَّكَ أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ فِيَّ وَأَنَا فِيكَ لِيَكُونُوا هُمْ أيضا وَاحِداً فِينَا لِيُؤْمِنَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي. ٢٢وَأَنَا قَدْ أَعْطَيْتُهُمُ الْمَجْدَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي لِيَكُونُوا وَاحِداً كَمَا أَنَّنَا نَحْنُ وَاحِدٌ. (يو١٧ :٢١-٢٢).

١٧- السلطان الآمر على جميع المؤمنين

وفي هذا يختلف المسيح تماما عن كل نبي أو رسول، إذ إن الأنبياء أو الرسل كانوا لا يملكون على الإطلاق إلا أن يطلبوا من الناس الامتثال لأوامر الله وإطاعة وصاياه أو نواهيه.

أما المسيح فقد كان يطلب من الناس مباشرة إتباعه بدون تردد أو إحجام، وفي ذلك يقول: "هلم ورائي فأجعلكما صيادي الناس "(مت٤ :١٩). "ومن أحب أبا أو أما أكثر مني فلا يستحقني" (مت١٠: ٣٧) "أن أراد احد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني "(مت١٦ :٢٤). "أن أرادت أن تكون كاملا فاذهب وبع أمولك وأعط الفقراء فيون لك كنز في السماء وتعال واتبعني "(مت١٩ :٢١). "٥٩وَقَالَ»ر(لو٩:اتْبَعْنِي». فَقَالَ: «يَا سَيِّدُ ائْذَنْ لِي أَنْ أَمْضِيَ أَوَّلاً وَأَدْفِنَ أَبِي». ٦٠فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «دَعِ الْمَوْتَى يَدْفِنُونَ مَوْتَاهُمْ وَأَمَّا أَنْتَ فاذهب وَنَادِ بِمَلَكُوتِ اللهِ»ر(لو٩:٥٩-٦٠).مثل هذه الأوامر الحاسمة، كان من المستحيل على المسيح أن يتلفظ بها لو انه يرى في نفسه مجرد نبي أو رسول!.

١٨- قبول السجود والتعبد

وليس من شبهة أو شك في أن المسيح قبل السجود والتعبد، مما لا يجوز لمخلوق على الإطلاق أن يقبلها أو يرضى بهما. هذا واضح من قصة ذلك الرجل المولود من بطن أمه اعمي،وشفاه المسيح، إذ شهد له أمام مجمع اليهود فحكم عليه بالطرد، وإذ سمع يسوع أنهم طردوه وجده يسوع وقال له :" ٣٥فَسَمِعَ يَسُوعُ أَنَّهُمْ أَخْرَجُوهُ خَارِجاً فَوَجَدَهُ وَقَالَ لَهُ: «أَتُؤْمِنُ بِابْنِ اللَّهِ؟» ٣٦أجَابَ: «مَنْ هُوَ يَا سَيِّدُ لِأُومِنَ بِهِ؟» ٣٧فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «قَدْ رَأَيْتَهُ وَالَّذِي يَتَكَلَّمُ مَعَكَ هُوَ هُوَ». ٣٨فَقَالَ: «أُومِنُ يَا سَيِّدُ». وَسَجَدَ لَهُ. (يو٩ :٣٥-٣٨). وعندما طلب منه اليهود أن يزجر تلاميذه والجموع الهاتفة له عند دخول أورشليم في الموكب الانتصاري رفض وقال: "أقول لكم أن سكت هؤلاء فالحجارة تصرخ" (لو١٩: ٤٠).كما لم يزجر توما عندما قال له بعد

القيامة "ربي والهي "(يو ٢٠: ٨). بل على العكس قال له :"لأنك رأيتني يا توما أمنت، طوبى للذين امنوا ولم يروا "(يو ٢٠: ٢٩).

١٩ـ الديان العادل

وقد اخذ المسيح لنفسه الديان العادل. كيف لا وهو الذي يصرخ بان القيامة ستتم بأمره عند مجيء الساعة المعينة لذلك إذ يقول "لا تتعجبوا من هذا فانه تاتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة الذين فعلوا السيئات إلى قيامة الدينونة "(يو٥: ٢٩) كما إن محاكمة جميع البشر تتم أمامه يوم الدين إذ يقول: "١«وَمَتَى جَاءَ ابْنُ الإِنْسَانِ فِي مَجْدِهِ وَجَمِيعُ الْمَلاَئِكَةِ الْقِدِّيسِينَ مَعَهُ فَحِينَئِذٍ يَجْلِسُ عَلَى كُرْسِيِّ مَجْدِهِ. ٣٢وَيَجْتَمِعُ أمامه جَمِيعُ الشُّعُوبِ فَيُمَيِّزُ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ كَمَا يُمَيِّزُ الرَّاعِي الْخِرَافَ مِنَ الْجِدَاءِ ٣٣فَيُقِيمُ الْخِرَافَ عَنْ يَمِينِهِ وَالْجِدَاءَ عَنِ الْيَسَارِ. (مت٢٥: ٣١- ٣٣). وهل في مقدرو مخلوق أن ينهض بكلمة واحدة جميع الموتى، في لحظة وطرفة عين، ليدعوهم إلى الحساب الأبدي والدينونة الأخيرة.ومن ذا الذي يملك هذا الأمر إلا الله الديان العادل والحاكم الأبدي!؟

٢٠ – الملك الأبدي

ولم يتردد المسيح قط في أن ينسب لنفسه مركز الملك الأبدي وحتى في أقسى اللحظات وظلال الصليب تترامى عليه قال لتلاميذه: "إني لا اشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم حين اشربه جديدا في ملكوت أبي "(مت٢٦: ٢٩) وفي المحاكمة أمام بيلاطس يسأله ذاك: أفانت إذا ملك؟ وعندئذ يجيبه المسيح بالقول :"أنت تقول لهذا قد ولدت أنا ولهذا قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق كل من هو من الحق يسمع صوتي" (يو١٨: ٣٧). عندما كتب ابسن روايته العظيمة "الإمبراطور والجليلي" تخيل فيها الإمبراطور جوليان ينظر من كوكب أخر إلى الجليلي ويقول "ولكن بدا أمامي في الأرض موكب حيث كنت أقف هناك. كان في مقدمته جنود وقضاة وجلادون. وكان في الخلف نساء باكيات يتبعن، وفي وسط الموكب المتحرك ببطء كان هناك الجليلي حيا،يحمل فوق كتفه الصليب، فناديته: إلى أين أيها الجليلي، فالتفت اليّ مبتسما وقال: إلى مكان يدعى الجل جثة" ومن عجيب أن يظفر المسيح بملكه الأبدي من هناك!.

ومن الواضح إن بعد كل هذا إن لا مفر من الإيمان بلاهوت المسيح مادام يتبين من ذات أقواله انه الأزلي، الأتي من السماء، المعصوم من الخطية، صاحب الألقاب الإلهية، القادر على كل شيء، غافر الخطايا والآثام، مانح الحياة الأبدية، المساوي للآب السماوي، الحاضر في كل زمان، الموجود في كل مكان، المستقر في كل قلب، حارس المؤمنين وحاميهم، المتكفل بسد الاحتياجات والإعواز، الجامع الشامل للمؤمنين، صاحب السلطان الآمر، الذي يليق له السجود والتعبد، الديان العادل، والملك القوي.

ثالثا: الدليل المستمد من شهادة التلاميذ

وغير خاف إن هذه الشهادة كانت من اقوي وأروع الأدلة على لاهوت المسيح، وحجيتها لا يمكن أن تجادل أو تنازع إذ هي:

أولا: وقبل كل شيء حجية الشهادة المعاصرة، الشهادة التي جاءت من أناس عاشوا مع المسيح وتتلمذوا على يديه. ومن الثابت إنهم كانوا يدركون إلى ابعد حد معنى شهادتهم وقوتها وخطورتها على الكيان البشري كله، ومن ثم نجدهم يسجلون هذه الشهادة بكل ما هو معروف من صدق وتدقيق وتمحيص وتعمق.وهذا لوقا يطالعنا في استهلال إنجيله بالقول "١إذ كَانَ

كثِيرُونَ قَدْ أَخَذُوا بِتَأْلِيفِ قِصَّةٍ فِي الأُمُورِ الْمُتَيَقَّنَةِ عِنْدَنَا ٢كَمَا سَلَّمَهَا إِلَيْنَا الَّذِينَ كَانُوا مُنْذُ الْبَدْءِ مُعَايِنِينَ وَخُدَّاماً لِلْكَلِمَةِ ٣رَأَيْتُ أَنَا أيضا إِذْ قَدْ تَتَبَّعْتُ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الأَوَّلِ بِتَدْقِيقٍ أَنْ أَكْتُبَ عَلَى التَّوَالِي إِلَيْكَ أَيُّهَا الْعَزِيزُ ثَاوُفِيلُسُ ٤لِتَعْرِفَ صِحَّةَ الْكَلاَمِ الَّذِي عُلِّمْتَ بِهِ "(لو ١ :١-٤). وهذا بطرس الرسول يقول في أوائل رسالته الثانية "١٦لأَنَّنَا لَمْ نَتْبَعْ خُرَافَاتٍ مُصَنَّعَةً إِذْ عَرَّفْنَاكُمْ بِقُوَّةِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ وَمَجِيئِهِ، بَلْ قَدْ كُنَّا مُعَايِنِينَ عَظَمَتَهُ." (١بط١١: ١٦). هذا يوحنا يقول في مطلع رسالته الأولى "اَلَّذِي كَانَ مِنَ الْبَدْءِ، الَّذِي سَمِعْنَاهُ، الَّذِي رَأَيْنَاهُ بِعُيُونِنَا، الَّذِي شَاهَدْنَاهُ، وَلَمَسَتْهُ أَيْدِينَا، مِنْ جِهَةِ كَلِمَةِ الْحَيَاةِ. (١يو١: ١)

وثانيا: كانت حجيتها حجية الشهادة اليقينية، إذ أن التلاميذ أنفسهم كانوا أول المؤمنين بلاهوت المسيح. وقد سجلوا تباعا لذلك جميع أقوال المسيح وأعماله مما تفصح عن لاهوته العظيم، ونحن لم نعرف هذه الأقوال أو الأعمال، بل كان من المتعذر أن تصل ألينا، لولا إنهم دونوها وسجلوها بالهام الروح القدس في الوحي العظيم.

ومن اللازم أن نبين في الوقت نفسه إن هؤلاء التلاميذ لم يؤمنوا فجأة أو دفعة واحدة بلاهوت المسيح. فهما كيهود كانت فكرة التجسد من ابعد الأمور تماما عن أذهانهم وخيالاتهم. إذ ليس في العالم كله كما يقول هنري فان ديك، كاليهودي، مما يعتقد إن الله اله سام متعال مرتفع، لا يجوز أن يدنو منه الإنسان، كما إن الإيمان بلاهوت المسيح لو أدركوه من أول الأمر لكانوا كمن يفتحون عيونهم على قرص الشمس ونورها الوهاج، بدون سابق تمهيد أو تجهيز أو أعداد. اجل لقد انسكب هذا الإيمان في قلوبهم بعد التأمل النفاذ والرؤية الكاملة والفهم العميق والاختبار الشامل. فإذا أضيف إلى هذا كله فان هؤلاء التلاميذ كانوا من الكثرة ومن اختلاف الطباع والأفكار والأمزجة مما يستحيل اتفاقهم على وهم، أو تواطؤهم على ضلال. وان بولس وهو واحد من أهم وابرز شهودهم، لم يأت إلى المسيحية الأبعد إن اضطهدها وقاومها فترة غير قصيرة من الزمان. وإنهم جميعا شردوا من اجل هذه الشهادة واستشهدوا في سبيلها، تبين. –بعد هذا كله – إن لا مناص من التسليم بقوتها وعمقها وأصالتها وثباتها ومجدها.

وثالثا: كانت حجيتها حجية الشهادة الموحي بها إذ أوضح لتلاميذه بكل جلاء ونقاء إنهم في جميع أقوالهم وكتاباتهم لم ينطقوا بالهوى أو يصدروا عن الخيال أو التصور، بل كانوا مسوقين بالروح القدس، ومدفوعين بالوحي الإلهي وعقيدتهم الراسخة إن الإيمان بلاهوت من حديث طبيعة مصدره أو قوة تأثيره لا يمكن أن يتم بدون عمل الله وفاعلية الروح القدس، وفي ذلك يقول الرسول بولس :"وليس احد يقدر إن يقول يسوع رب إلا بالروح القدس " (١كو١٢: ٤).

أما وقد تبينا قوة هذه الشهادة وحجيتها، تعيين علينا الإلمام بطبيعتها ومضمونها ويمكن متابعتها فيما يلي:

١ـ الشهادة الباتة الناجزة:

وشهادة التلاميذ عن لاهوت المسيح شهادة باتة واضحة صريحة ناجزة، لا شبهة فيها أو غموض أو إبهام أو قلق , ويكفي الإلمام و الإشارة إلى بعضها على سبيل المثال لا الحصر. الم يقل توما للمسيح في الأسبوع التالي للقيامة: "ربي والهي" (يو٢١ :٢٩). وألم يهتف يوحنا في رسالته الأولى : "ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية" (١يو: ٢٠:٤). الم يكرز بولس في أكثر من موضع و مكان : "المسيح حسب الجسد الكائن على الكل إلها مباركا إلى الأبد "(رو٩: ٥). " وَبِالإِجْمَاعِ عَظِيمٌ هُوَ سِرُّ التَّقْوَى: اللهُ ظَهَرَ فِي الْجَسَدِ، تَبَرَّرَ فِي الرُّوحِ، تَرَاءَى لِمَلاَئِكَةٍ، كُرِزَ بِهِ بَيْنَ الأُمَمِ، أُومِنَ بِهِ فِي الْعَالَمِ، رُفِعَ فِي الْمَجْدِ.(اتي١٦:٣) "٥فَلْيَكُنْ فِيكُمْ هَذَا الْفِكْرُ الَّذِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ أيضا: ٦الَّذِي إِذْ كَانَ

فِي صُورَةِ اللهِ، لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلاً لِلَّهِ. ٧لَكِنَّهُ أَخْلَى نَفْسَهُ، آخِذاً صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِراً فِي شِبْهِ النَّاسِ. (في٢: ٥-٧). وأية نصوص أوضح أو أصرح أو اقطع من هذه النصوص الدالة على لاهوت المسيح؟.

٢ـ الشهادة المأخوذة من ألقاب المسيح الإلهية

ولعله من اللازم أن نقف من بعض هذه الألقاب لنرى معناها ومدلولها، وكيف اخذ منه التلاميذ حجتهم القوية في إثبات لاهوت المسيح ولعل من اظهر هذه الألقاب

(أ) المسيح كلمة الله:

وقد استهل يوحنا إنجيله بهذه الحقيقة إذ قال: "في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله" (يو ١ :١).ولفظ الكلمة كان تعبيرا شائعا أيام يوحنا، فقد استعمله أفلاطون بمعنى "عقل الله" واستعمله فيلو السكندري بمعنى "حكمة الله". ولعل فيلو في ذلك الوقت كان موزع الرأي بين ثقافته اليونانية الناهجة نهج أفلاطون، وبين إيمانه العبري الآخذ فكرة "الحكمة" من سفر الأمثال، فلا يكاد يبين تماما معنى "الحكمة" عنده، أهي "صفة مجردة "، في الله كما يرجح أفلاطون، أم هي "طبيعة الله وذاته" الظاهر في سفر الأمثال والتي هي منذ الأزل" (ام٨: ٣٣). وبها خلق الله العالم وابدأ المسكونة. وأوضح إن الرسول يوحنا امسك باللفظ، وحدد معناه ومدلوله وعقيدته فيه من أول سطر في إنجيله. وعقيدة يوحنا في "الكلمة" انه أولا وقبل كل شيء "شخص" وليس "شيئا" أو مجرد "فكرة" أو "صفة" عند الله. وهذا الشخص له ذاتيته السرمدية القائمة في الله، إذ هو الاقنوم الثاني في اللاهوت. و "الكلمة عند الله"..

وقطعا لكل لبس يمكن أن ينشا في الذهن حول كون "الكلمة" شخصا وليس شيئا، وحول كونه "ذات الله " وليس أخر قال يوحنا: "وكان الكلمة الله". ولعله أوضح بعد هذا إن هذه الآية من أدق وأعمق الآيات الكاشفة عن فكرة "الاقنومية" في ذات الإله الواحد.

ولا يرب عن البال أيضا إن "الكلمة"، هذا عند يوحتا ليس إلا المسيح يسوع بعينه، لهذا نجده يردف بالقول: "والكلمة صار جسدا وحل بيننا ورأينا مجده مجدا كما لوحيد من الأب مملوء نعمة وحقا" (يو١: ١٤). وهي كلمات رائعة ممتلئة فياضة بالقوة والغنى والجلال، إذ إن اللفظ "صار " يفيد إن المسيح لم "يظهر" فقط في صورة إنسان بشري دون أن يأخذ حقيقة الجسد وطبيعته بل"صار جسدا" أي اخذ "الجسد" البشري بكل ما فيه من معنى، كما إن الكلمة "حل" مشتقة من الأصل اللغوي من كلمة "خيمة" وفي هذا إشارة لا تخفى عن البال، إذ كما كان الله يأتي قديما إلى شعبه ويحل في خيمة الاجتماع، رمز لحضوره الإلهي، هكذا اتخذ المسيح جسدا سويا ليحل به بين الناس.

وفي قصة لأحد الروائيين الانجليز إن ولدا صغيرا ماتت أمه أثناء ولادته، وكان أبوه يعمل في بلاد أجنبية بعيدة، ومن ثم ادخل الولد إلى مدرسة داخلية، ولم يرى الابن أباه منذ صغره. ومع إن صورة أبيه كانت معلقة في غرفته، وخطاباته تملا أدراج مكتبه، إلا إن الولد كان يحن إلى أكثر من ذلك.. يحن إلى رؤية أبيه بالذات. وإذ خطر ذات يوم إن أبيه آت سارع إلى الميناء ينتظر الباخرة التي تقله، وما إن رست إلى البر وظهر الأب حتى اندفع الولد وارتمى إلى حضن أبيه هاتفا بكلمة واحدة "أبي!!" ولقد أصاب احدهم إذ علق على هذه القصة بالقول "إن البشرية كانت تعرف الله قبل مجيء المسيح

عن طريق الأنبياء والكتب المقدسة، كما كان هذا الولد يعرف أباه عن طريق الصور والخطابات لكنها في المسيح رأته في الكلمة عندما صار جسدا".

(ب) المسيح ابن الله:

واللقب الثاني للمسيح هو "الابن" ومرادفاته "الابن الوحيد" "ابن الله الحي" "ابني الحبيب" والفحص الدقيق لهذه الكلمات في كتاب الله يكشف عن عدة خواص أساسية في المسيح لعل أهمها: الانفراد والأزلية والمساواة والمجد.

(١) الانفراد:

وفي هذا ينفرد المسيح عن غيره من الناس قاطبة، إذ إن كلمة "ابن" أطلقت في القديم على الأمة كمجموع القول: "انتم أولاد للرب إلهكم" (تث١٤: ١). "لو قلت احدث هكذا لغدرت بجيل بنيك" (مز٧٣: ١٥) كما نطلق على "أبناء الله" كمؤمنين، لكن المسيح وحده هو "الابن الوحيد" ولعل هذا شبيه بكلمة "رب" عندما تضاف إلى غيرها، فتنصرف في الذهن إلى ما يربطها بالمضاف إليه كالقول: رب البيت وما أشبه، وعندما ترد مستقلة مضافة إلى التعريف فتشير إلى "الرب" ذاته وبهذا المعنى يكون المسيح هو "الابن الوحيد " الذي قيل عنه: "الله لم يره احد قط، الابن الوحيد الذي في حضت الأب هو خبر" (يو١: ١٨).

(٢) الأزلية:

هذا ثابت في قول المسيح وفهم اليهود معا عندما قال: " أَبِي يَعْمَلُ حَتَّى الآنَ وَأَنَا أَعْمَلُ». ١٨فَمِنْ أَجْلِ هذَا كَانَ الْيَهُودُ يَطْلُبُونَ أَكْثَرَ أَنْ يَقْتُلُوهُ لأَنَّهُ لَمْ يَنْقُضِ السَّبْتَ فَقَطْ بَلْ قَالَ أيضا إِنَّ اللهَ أَبُوهُ مُعَادِلاً نَفْسَهُ بِاللهِ.(يو٥: ١٧ و١٨). كما انه واضح من اعتراف بطرس الشهير "أنت هو المسيح ابن الله الحي" ومن اعتراف بطرس وشهادة المسيح يتبين إن هذا القول لم يكن يقصد به إن المسيح هو مجرد المسيا، وإلا لما زاد عن قول نثنائيل "أنت ابن الله أنت ملك إسرائيل" (يو١: ٤٩). إذ يبدو واضحا أن الله أعلن للرسول عن طبيعة المسيح وجوهره الأزلي.

(٣) المساواة:

على إن كلمة "ابن" قد تشير اضطرابا ذهنيا عند كثيرين، إذ يتصور على الفور بمقارنتها بكلمة"أب" إن الأب اسبق زمنا من الابن، وان هناك فارقا "زمنيا ومركزيا" بينهما. ولكننا نحب إن نؤكد ههنا إن كلمة "ابن" لا يمكن إن تشير في قليل أبالدليل المقابل"عدم المساواة" أو "التلاحق الزمني". وذلك لان كلمة "الأب" نفسها عندما تطلق على الله لا يمكن إن تقوم بالدليل المقابل إلا إذا وجد "الابن". فأما انه كان هناك وقت لم يكن فيه الله "أبا" وبالتالي لا يكون هناك "ابن" أو انه منذ الأزل هو "الأب".

وضرورة اللفظ تقتضي وجود "الابن" من الأزل أيضا. ولعل منشأ الخلط والتخبط الذي يقع فيه الناس هو اعتيادهم فهم أسبقية الإباء على الأبناء، على أساس إن الإباء هم السبب في مجيء الأبناء، وعلى أساس الفارق

الزمني بين الاثنين، ولكن التعبير الأدق والأصح هو إن الرجل لا يصبح أبا إلا من اللحظة التي يوجد فيها الابن، فالفارق الزمني هو في الواقع فارق خيالي موهوم، فإذا أضيف إلى هذا إن الله لا يلد ولا يولد كما يفهم الناس معنى الولادة في الأرض، كان علينا إن نعرض؟، بل إن ندفع عن الله جل جلاله هذا المعنى لنتصور معاني أخرى ادني إلى الفهم واقرب إلى التصوالنور.ن مثلا نقول: هذا ابن الحق، أو هذا ابن النور، إشارة إلى التماثل التام بينه وبين الحق ألنور... وبهذا المعنى دعي المسيح "ابن الله" للتماثل الأزلي القائم التام بين "الأب" و"الابن" في ذات الله الواحد. ودعي كذلك لأنه هو الإعلان الوحيد الكامل الأزلي عن ذات الله للناس، أو كما قيل: "الله بعدما كلم الإباء بالأنبياء بأنواع وطرق كثيرة كلمنا في الأيام الاخيره في ابنه" وقيل: "هو صورة الله غير المنظورة" (كو١: ٥) و" بهاء مجد الله ورسم جوهر" (عب١: ٣).

(٤) المجد :

والأمر الأخير الخاص بهذا اللفظ هو المجد، إذ انه أعلن عن مجد الله في محبته للعالم والخلاص الذي أعده للبشر والمجد العتيد إن يصير لهم ولهذا قيل: "ورأينا مجده مجدا كما لوحيد من الأب" (يو١: ١٤). ومن الملاحظ إن الأب كان يعلن عن هذا المجد مقترنا باسم الابن في شتى المناسبات الخاصة المقترنة به، فعند المعمودية حيث دخل المسيح إلى خدمته الجهارية المجيدة جاء: "صوت من السماء قائلا هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت: (مت٣: ١٧). وفوق جبل التجلي حيث تغيرت هيئته أمام التلاميذ وصارت ثيابه بيضاء كالنور، وظهر موسى وايليا يتكلمان معه، جاء الصوت أيضا: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت له اسمعوا" (مت١٧: ٥). وعند القيامة وإزاءها قيل أيضا: " تعين ابن الله بقوة من جهة روح القداسة بالقيامة من الأموات" (رو١: ٤). أي انه ظهر أمام العالمين كابن الله، إذ صدق الله بالقيامة على رسالته أمام الناس، كما كشف بهذه القيامة أيضا عن قوته السرمدية المنتصرة على الموت، والهازمة الشر والصانعة لذلك المجد العتيد السرمدي الأبدي. وقد كان هذا عين ما تحدث به بولس في أنطاكيا بيسيدية عندما عرض للمزمور الثاني وشرحه وهو يتحدث إلى اليهود عن قيامة المسيح المنتصرة من بين الأموات (اع١٣: ٣٣).

(ج) المسيح رب الكل:

وهناك أيضا الكثير من الألقاب الأخرى التي أطلقت على المسيح مثل "رب الكل" (اع١٠: ٣٦) "ربنا يسوع المسيح" (١كو٢: ٨) وغيرها من الألقاب التي تشير بجلاء إلى إن التلاميذ لم يترددوا قط في إعطاء المسيح ذات ألقاب الله ومما يفيد يقينهم الكامل في انه هو ذات الإله الأزلي الأبدي السرمدي القديم.

٣- الشهادة المأخوذة من صفات المسيح وكمالاته الإلهية

وإلى جانب هذا كله نسب التلاميذ إلى المسيح جميع الكمالات والصفات الإلهية، ومنها انه الأزلي الأبدي السرمدي: "الألف والياء الأول والأخر" (رؤ١ :١١). وغير المتغير: "يسوع المسيح هو هو أمس واليوم وإلى الأبد" (عب١٣: ٨). "والعارف بكل شيء" (عب٢١: ١٧) "الفاحص القلوب والكلى" (رؤ٢: ٢٣).والملك الأبدي.

٤ـ الشهادة المأخوذة من نسبة أعمال الله إلى المسيح

فإذا ما أضيف إلى ما سبق نسبة جميع أعمال الله إلى المسيح إذ هو "الخالق" الذي وصفه يوحنا بالقول: "كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان" (يو ١: ٣) وقيل أيضا: "١٦فَإِنَّهُ فِيهِ خُلِقَ الْكُلُّ: مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا عَلَى الأَرْضِ، مَا يُرَى وَمَا لاَ يُرَى، سَوَاءٌ كَانَ عُرُوشاً أَمْ سِيَادَاتٍ أَمْ رِيَاسَاتٍ أَمْ سَلاَطِينَ. الْكُلُّ بِهِ وَلَهُ قَدْ خُلِقَ.(كو ١: ١٦). وهو الحافظ والمعتني بكل شيء: "وحامل كل الاشياء بكلمة قدرته" (عب ١ :٣).وهو الديان العادل : " أَنَّهُ لاَ بُدَّ أَنَّنَا جَمِيعاً نُظْهَرُ أَمَامَ كُرْسِيِّ الْمَسِيحِ، لِيَنَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مَا كَانَ بِالْجَسَدِ بِحَسَبِ مَا صَنَعَ، خَيْراً كَانَ أَمْ شَرّاً. (٢كو ٥ :١٠). هذه وغيرها من الصفات التي نسبها التلاميذ إلى المسيح وهي لا تعطى على الإطلاق إلا لله وحده، ولا يمكن نسبتها إلى شخص المسيح دون الإيمان الثابت بلاهوته.

٥ـ الشهادة المأخوذة من عبادة المسيح والسجود له

وأخيرا وليس أخرا، لا شبهة في إن التلاميذ درجوا على الصلاة للمسيح وعبادته والسجود له مع علمهم بان العبادة والسجود لا يجوزان سوى لله وحده. فاستفانوس الشهيد صلى له وهو يجود بأنفاسه الأخيرة: "أيها الرب يسوع اقبل روحي" (اع٧: ٥٦). وبولس صرخ له عند أبواب دمشق بالقول "يارب ماذا تريد إن افعل" (اع٩: ٦). ويوحنا وهو عالم انه سامع الصلاة سجل وعده لتلاميذه باستجابة صلواتهم بالقول :"إن سألتم شيئا باسمي فاني افعله" (يو١٤: ١٤).

والخلاصة من كل ما ذكر إن شهادة التلاميذ عن لاهوت المسيح شهادة قاطعة تعلو على كل إبهام أو جدل أو منازعة.

رابعا: الدليل المستمد من صوت التاريخ

وأخر ما نشير إليه من الأدلة على لاهوت المسيح شهادة التاريخ ولعله من المناسب تأمل هذه الشهادة فيما يلي:

١ـ نشأة المسيحية وانتشارها

ونشأة المسيحية وانتشارها خير شاهد على شخص المسيح وقوته ولاهوته. ويكفي أن نشير هنا إلى أن المسيح وهو يرد على اعتراف بطرس العظيم بالقول: "أنت بطرس وعلى هذه الصخرة ابني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها" (مت١٦:١٦) لم يكن يقصد على الإطلاق إن يقول إن بطرس هو الصخرة، وإلا لما استعمل المسيح تعبيرين مختلفين أولهما "بطرس" وباليونانية "Petros" ويعني حجر أو قطعة من الصخر كما استعملها هوميروس في الإلياذة عندما رمى اجاكسي حجرا على هكتور : "إلياذة ٩" ص٢٧٠"،والثاني "صخرة" Petra وقد جاءت في "الأوديسة ٩ص ٢٤٣" حيث قيل إن بوليفيموس جعلها على باب مغارته، وكانت من الضخامة في الحجم بحيث إن اثنين وعشرين عربة – كما كانت تقول الأساطير – لا تستطيع تحريكها. ولعله من الواضح إن المسيح وهو يرد على بطرس كان يقصد إن إيمان بطرس بلاهوت المسيح هو الصخرة الصلبة القوية التي تبنى عليها الكنيسة وتثبت وتدوم. إذ لو كان المسيح مجرد إنسان لما أمكنه إن يبنيها أو يحرسها من قوات الجحيم التي تحف بها وتحاول القضاء عليها. ولعل خير ما يقال ههنا ما جاء في الفصل الثالث من كتاب الإنجيل في عصر الشك لهنري فان دايك عن لاهوت المسيح إذ قال ما ملخصه: "يعلل المؤرخ الكبير ادورد جيبون في الفصل الخامس عشر من كتابه الكبير "انحلال الدولة الرومانية وسقوطها" سبب انتصار المسيحية وقوتها واكتساحها للوثنية بخمسة أسباب هي: ١ – غيرة المسيحيين المحررة من الروح اليهودية التي كانت تجنح إلى التزمت والعزلة. ٢ – عقيدة الحياة بعد الموت والمجملة بالظروف التي أحاطت بالمسيحيين مما اظهر جمال هذه العقيدة وفاعليتها؟. ٣- القوة المعجزية التي صاحبت

الكنيسة الأولى ٤- المبادئ الرائعة والأخلاق المجيدة التي كانوا عليها المسيحيون. ٥- الاتحاد الرائع والنظام المثالي للجمهورية المسيحية والتي جمعت المسيحيين على التدريج تحت راية متضامنة في قلب الإمبراطورية الرومانية. هذه هي المظاهر اللامعة المجيدة التي اعتقد جيبون أنها الأسباب الأصيلة التي ناشات المسيحية ولكننا لو تحرينا الدقة لرأينا شخص المسيح ولاهوته يقف خلف هذه المظاهر جميعا. فما غيرة المسيحيين الرائعة إلا صورة من صور الإيمان بشخص المسيح. ما تحررهم من التعصب والتزمت إلا دليلا على عمل المسيح بقوته العجيبة فيهم، كما إن الإيمان بحياة آتية لم يبع من نشوة خيال محموم أو فلسفة سقيمة، بل يرجع أولا وأخيرا إلى ذاك الذي أبطل الموت وأنار الحياة والخلود بواسطة الإنجيل.إما القوة المعجزية فلم تكن مبنية على خداع أو أوهام وإلا لما ثبتت وانتصر أثرها الرائع في حياة الكثيرين،بل كانت قوة حية تنبع من مصدرها الأصيل. كما إن حياة المسيحيين وأخلاقهم كانت في حد ذاتها إعجازا في عصر نضح بالشر وامتلأ بالفساد، ولابد إن تكون راجعة إلى قوة اعلي من قوة الإنسان نفسه. كما إن هذه الوحدة الاجتماعية العظيمة التي كونت جمهورية في قلب الإمبراطورية القديمة، ليست إلا برهانا على قوة المبادئ التي أوجدها المسيح، المبادئ التي تعمل على توحيد النفوس البشرية وتضع للعالم نظاما يتغلب على كل عامل الانحلال. وفي الواقع انه يستحيل علينا إن ندرك نشأة المسيحية وانتشارها عل مثل هذه الأسس دون إن نرى خلفها شخص المسيح ولاهوته!

وفي الحقيقة انه لا مناص من التسليم بان المسيحية التي لم تعتمد في نشأتها أو انتشارها على أية قوى من القوى البشرية التي تسيطر على عقول الناس أو حياتهم كقوة المال أو السيف أو السلطان أو العلم أو ما أشبه، إذ تأسست على يد جماعة من الصيادين الفقراء المغمورين الذين لا حظ لهم من مال أو جاه أو علم أو قوة، والذين حاولوا منهم إن يرفع سيفه دفاعا عن سيده فجاءه الصوت الآمر : "رد سيفك إلى مكانه لان الذين يأخذون بالسيف بالسيف يهلكون (مت٢٦ :٥٢). هذه المسيحية لا يمكن إلا إن تكون مستندة على قوة خارقة جبارة. ولعل شهادة نابليون وهو من أعظم قواد التاريخ وعباقرة الحروب. هي خير ما يقال على الإطلاق في هذا الصدد، فعندما نفي نابليون إلى جزيرة سانت هيلانة وكان معه الجنرال برتران أول هذا الجنرال ذات يوم إن يرفع من قدر سيده مشبها إياه بالقواد الأقدمين وصناع الأديان والمسيح! وعندما استمع نابليون إلى اسم المسيح لم يطق صبرا وصاح على الفور قائلا: "إنني اعرف الناس، واستطيع إن أقول لك إن المسيح يسوع لم يكن مجرد إنسان، والعقول السطحية وحدها هي التي تحاول إن تجعل شبها بين المسيح والهة الأديان الأخرى! وهذا الشبه منتف وغير موجود على الإطلاق. إذ كل ما في المسيح يسحرني، ولا يمكن إن يقارن به احد في العالم كله إذ هو كائن بذاته، فميلاده وتاريخ حياته وسحر وروعة تعاليمه، التعليم التي تجابه أضخم المشكلات بأروع الحلول وإنجيله وإمبراطوريته وتمشيه في موكب العصور، كل هذه تستولي علي بسحر أخاذ لا استطيع تجنبه. وهنا لا أرى شيئا بشريا! ولثلاثة قرون من الزمان نشب صراع رهيب بين الروح والعواطف الوحشية، بين الضمير والطغيان، وبين النفس والجسد، وبين الفضيلة والرزيلة، وسالت دماء المسيحي، انهارا ولكنهم كانوا يموتون وهو يقبلون اليد التي تذبحهم. وفي كل مكان سقط المسيحيون، وفي كل مكان انتصروا أيضا! انك تتحدث عن قيصر والإسكندر، وعما لهما من غزوات وفتوحات، وعما كانا يسيران في قلوب جنودهما من الحمية والحماس، لقد شهد قيصر والإسكندر وشارلمان وأنا إمبراطوريات عظيمة. ولكن علاما كانت عبقرياتنا جميعا تعتمد؟. على القوة. أما يسوع فقد شاد إمبراطوريته العظيمة على المحبة، وإلى هذا اليوم يموت الملايين من اجله. وأية هوة واسعة بين بؤسي العميق وحكمه الخالد.الكم الذي ينادي به ويحب ويمجد وينتشر في الأرض كلها" ولعله من تحصيل الحاصل بعد هذه

الشهادة إن نقول إن سجل الكنيسة المسيحية حافل بما لا يحصى أو يعد من أعظم من عرفتهم الأرض من الملوك والعلماء والفلاسفة والزعماء والقادة والإبطال ممن توجوا المسيح على حياتهم ربا والها وفاديا.

٢- ترانيم التعبد للمسيح

وثمة دليل تاريخي أخر ظاهر في الترانيم والإلحان الكنسية التي حملتها الأجيال ألينا عبر العصور القديمة، والتي غنت أعذب الإلحان للاهوت المسيح. فهناك الكنيسة اليونانية القديمة في أغانيها: "تقديم الشكر وقت إشعال المصباح" و "راعي الشباب الغض" و "لحن للمسيح بعد الصمت" وما أشبه من أغاني كرست للرب يسوع للمسيح. وهناك الكنيسة السريانية حيث غنى شاعرها العظيم ومرنمها الخالد افرام السرياني بألحانه الرائعة التي لا يمكن إن تموت. ثم الكنيسة اللاتينية حيث غنى امبروز وغريغوري العظيم وبرنارد كليرفوا وبرنارد كلاتي وغيرهم، أناشيد التعبد والهتاف للسيد المسيح. هذه وغيرها من أناشيد وترانيم تقطع بما درجت عليه الكنيسة في الشرق والغرب من التعبد والسجود للرب يسوع المسيح.

٣- شهادة الوثنيين القدماء

والثابت من شهادة الوثنيين القدماء ممن عاصروا المسيحية في مطلع تاريخها إن إيمان المسيحيين كان شائعا ومعروفا للجميع وغير خفي على احد، فالحاكم "بليني" الصغير كتب إلى الإمبراطور تراجان يصف المسيحيين الذين يجتمعون فجر كل يوم ليغنوا ألحانهم وأناشيدهم للمسيح معتبرينه إلههم. كما إن الإمبراطور هادريان كتب إلى سرفيان يقول: "إن سكان الإسكندرية يعبد بعضهم سيرابيس وآخرون المسيح". ولسيان الشاعر الوثني القديم سجل قوله: "إن المسيحيين يعبدون ذلك الرجل العظيم الذي صلب في ارض فلسطين ". هذه الشهادات وغيرها تبين مما ليدع مجالا للشك تأصل عبادة المسيحيين لسيدهم في مطلع التاريخ المسيحي

٣- شهادة الشهداء

ولعل هذه الشهادة هي اقوي أصوات التاريخ جميعا، وهل في ذلك من شك. وقد كتب هؤلاء الشهداء شهادة الولاء والتعبد للسيد المسيح بمداد من دم؟ وفي الواقع إن انهار الدماء التي سالت من المسيحيين صيغت شهادتهم عن لاهوت المسيح بصيغة هيهات إن ينال منها أو يعلى عليها.

كيف يفسر اتحاد اللاهوت بالناسوت؟

وإذا انتهينا من الآلة القاطعة الناجزة على لاهوت المسيح يبقى أمامنا هذا السؤال الجوهري وهو: كيف يمكن تفسير اتحاد اللاهوت بالناسوت؟وهلا يتنافى هذا مع عظمة الله ومجده وجلاله؟ وفي الواقع إن السؤال حيوي وضروري، لا لان الإجابة عليه تحل صعوبة من أضخم الصعوبات التي تواجه الذهن البشري، ولان هذه الإجابة تعيين في الوقت نفسه على فهم بعض الآيات الكتابية عسرة الفهم والبادية كما لو أنها متباينة. وهي في الحقيقة شديدة التناسق والتكامل والترابط! إن مرجع الصعوبة أمام الفكر هو هل يمكن إن يكون هناك اتحاد بين للاهوت والناسوت المحدود في شخص واحد؟

وقبل التعرض للإجابة على السؤال من الواجب إن نذكر إننا أمام سر من أعظم الإسرار الإلهية، السر الذي صاح إزاءه الرسول بولس بالقول: "وبالإجماع عظيم هو سر التقوى، الله ظهر في الجسد" (اتي٣: ١٦) وليس في قدرة احد على الإطلاق

إن يجرد هذا السر، عن كونه سرا إلهيا عظيما. وان الفكر إذ يتقبل هذا السر، إنما يتقبله كما يليق بأي سر الهي، بكل هيبة وخشوع وإجلال ووقار، موقنين بان اتحاد الناسون باللاهوت ليس من ابتداع الفكر المسيحي أو من مبتكراته، بل هو من ذات إعلان الله وترتيبه.

على انه إذ لم يكن في مقدورنا إن نجرد هذا السر من كونه سرا، إلا انه من الممكن الاقتراب إليه وتناوله كما يقترب من أي سر أخر عن طريق المقابلة والقياس والمثال.

١- القياس المستمد من اتحاد الجسد بالروح

ولعل أول واقرب مثال على اتحاد الناسوت واللاهوت في شخص المسيح الواحد هو اتحاد الجسد والروح في شخص الإنسان الواحد، وكما إن الجسد يتميز عن الروح في ذات الإنسان الواحد، ولكل منهما خواصه الذاتية المستقلة تماما عن الأخر، ومع ذلك،فما متحدان في شخص واحد، ولا يمكن أن يقال عن هذا الشخص انه اثنان، كما انه يمكن إن يوصف بالصفات الخاصة بكل منهما دون إن يظهر ثمة تناقض أو اضطراب، فهو قصير في الجسد مثلا وعملاق في الروح، عادي في المظهر ورائع في النفس، ضعيف في البنية قوي في الأخلاق. فإذا قيل بعد ذلك انه قصير وعملاق. وعاديا ورائع وضعيف وقوي، لم يكن هناك ثمة قلب للحقائق أو الأوضاع. فإذا أضيف إلى ذلك أن الجسد اقل واضعف وأضأل وخادم للروح دائما. تعين إن نفهم إن الروح في ذات الإنسان اعلي من الجسد واقوي وأكمل وان الجسد إذ يخدم الروح ويحيا بها وينشط ويعيش ويتحرك، لم يكن ثمة مبرر إن نقول إن عدم المساواة بينهما تمنع اتحادهما في شخص واحد.

فإذا صح إن يقال هذا كله عن الإنسان،فانه ادنى إلى إن يصف طبيعة اتحاد الناسوت واللاهوت في شخص المسيح، إذ يمكنك إن تصفه بجميع صفات الناسوت أو اللاهوت دون إن يبدو في هذا سمة تناقض أو غرابة. ومن ثم لا عجب إن يصفه غريغوري ناستيزن بالقول: "لقد اشتد جوعه ولكنه اطعم الجماهير في البرية، وكان هو الخبز الحي النازل من السماء.. حقا قال:أنا عطشان، ولكنه صرخ بصوت عظيم، إن عطش احد فليقبل لي ويشرب، لقد تعب ولأنه نادى المتعبين والثقيلي الأحمال، لقد نام ولكنه قام ليسكت الموج ووبخ الرياح ويدع بطرس يمشي على الماء. لئن شهدت تلك عن كمال إنسانيته، فان هذه تشهد عن كمال لاهوته".

وبهذا المعنى جاء القانون الاثناسي ليقول: "انه مساو للأب بحسب لاهوته ودون الأب بحسب ناسوته وهو وان لم يكن إلها وإنسانا، إنما هو مسيح واحد لا اثنان".

٢- القياس المستمد من الكلمة

وهناك أيضا القياس المأخوذ من الكلمة "كمعنى" ومن الكلمة "كلفظ". وما من شك إن الكلمة كلفظ دون الكلمة كمعنى وان يكن كلاهما تعبيرا واحدا. فالحروف التي تكون كلمة الله ادني ولا شك من المعنى الذي تعنيه هذه الكلمة، إذ إن الحروف المحدودة والتي قد تتسع لها مساحة لا تزيد عن السنتيمتر الواحد، اقل بما لا يقاس من المعنى اللانهائي للفكرة التي تنهضها وتثيرها هذه الحروف، مع العلم بان الفكرة كلها تتجسم في هذه الحروف المحدودة. "وبهذا المعنى يكن القول إن "الكلمة" "تجسد" أو في ذات التعبير الكتابي. "والكلمة صار جسدا" (يو ١: ١٤).

٢ـ القياس المستمد من الكتاب

ومثل هذا الرأي يمكنان يقال أيضا بصدد "المساواة" و"المعنى" في أي كتاب. فمادة الكتاب المكونة من الغلاف والورق والحروف المطبوعة هي "الجسم " "بالنسبة لمعنى" الكتاب، والفكرة المجسمة فيه. ومن الغريب إن المعنى يمكن إن يحتوي داخل المادة رغم انه أعظم واجل، بل إن هذه المادة تغطي قوة "الفكرة" وعظمتها، عندما يطوى الغلاف عليها. فإذا صح أن يقال هذا عن الكتاب كمادة وكمعنى، فانه يدينا من كلمة الله المتجسد، ومنه نفهم لماذا يقول بالناسوت : "لان أبي أعظم مني" (يو ١٤: ١٨). ومما يصوره الرسول بولس بفكرة التنازل والإخلاء في القول: "الذي إذ كان في صورة الله. اخلي نفسه آخذا صورة عبد " (في٢: ٦ و ٧).

هل يستساغ ويقبل عقلا اتحاد اللاهوت بالناسوت؟

والسؤال الأخير الذي لابد من التعرض له والذي قد يعن ذهان كثيرة هو: هل يستساغ ويقبل عقلا هذا الذي نقوله عن الله؟ وهل لا ينافي جلاله ومجده وعظمته؟ وهو سؤال يرد في الواقع على نفسه، إذ من ذا الذي يستطيع الحكم على ما يوائم العظمة الإلهية أو يتنافى معا؟ هل للإنسان من المميزات والاستعداد والقدرة والفهم حتى يحدد معاني الجلال أو العظمة أو الحكمة عند الله!؟ وإذ صح أن له هذا كلها وان في إمكانه أن يحكم على ما يستساغ مما ينسب إلى الله، فأيهما ادني إلى الاستساغة أن يظهر الله في "شيء " أم في " شخص" فإذا كان من المسلم به عند الغير المسيحيين أن الله رضي بان يظهر في "عليقة " لموسى، ولم يقل احد أن هذا قلل مما له من مجد أو إجلال أو هيبة أو عظمة، فكيف يمكن أن يقال : حاشا لله أن يظهر في "الجسد ". وألبس من الغريب كما قال احدهم أن يجمع الناس على حقيقة أن الإنسان عاجز عن إدراك شخصية الله وإغراضه، وفي الوقت نفسه يمكن أن يقال عن التجسد يتنافى مع عظمة الله وقدرته، فإذا كنا لا نقدر أن تعرف الله، فكيف نعرف انه لا يمكن أن يعلن عن نفسه بالصورة التي يشاء؟ لقد أعلن الله ذاته في الطبيعة وفي الضمير وفي الكتاب، ثم أعلن نفسه أخر الأمر في التجسد الذي هو مجد الإعلانات الإلهية.

فإذا قيل بعد هذا كله ما غاية الله وحكمته في الموضوع كله؟ اجبنا أن غاية الله، وان كانت أعمق جدا وابعد من أن يفحصها الإنسان، إلا أن التجسد يرينا الله في المسيح في اعلي وأكمل صورة يمكن أن يصل إليها الإنسان. كما أن الكتاب المقدس يؤكد بأنه الطريق الوحيد في تدبير الخلاص الإلهي للإنسان. وعندما سئل دانيال وبستر ذات مرة، وكان يتحدث مع جماعة من المسيحيين وتطرق الحديث إلى لاهوت المسيح وسأله احدهم : " ولكن يا مستر وبستر أتستطيع أن تدرك كيف يكون المسيح ألها وتنسانا في وقت واحد؟ " فأجاب وبستر: "إنني لا استطيع أن أدرك كنه سيدي، ولو أمكنني ذلك لما كان هو أعظم مني، غير إنني اشعر على الدوام بحاجتي إلى مخلص أغلى من إن يكون مجرد إنسان ". اجل من لا يهتف بعد هذا كله مع القانون النيقوي القديم: "أؤمن باله واحد آب ضابط الكل خالق السماء والأرض وكل ما يرى وما لا يرى، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد، المولود من الأب قبل كل الدهور، نور من نور،اله حق من اله حق، مولود غير مخلوق، مساو للآب في الجوهر، الذي به كل شيء كان، الذي من اجلنا نحن البشر ومن اجل خلاصنا زل من السماء وتجسد بالروح القدس من مريم العذراء وتأنس، وأيضا صلب عنا على عهد بلاطس البنطي، وتألم وقبر وقام أيضا في اليوم الثالث على ما في الكتب، وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الآب وسيأتي أيضا بمجد ليدين الإحياء والأموات، الذي ليس لملكه انقضاء".

الفصل السادس: إيماني بناسوت المسيح

لعل المرء لا يجد كلمات أروع أو اجل من كلمات دكتور جيمس فرانسيس عدما تحدث عن مجيء المسيح إلى الأرض وأثره فيها بالقول :"هنا شخص ولد في قرية حقيرة ومن أم قروية وعاش في قرية حقيرة، واشتغل في دكان نجار إلى أن بلغ الثلاثين من عمره، ثم قضى بعد ذلك ثلاثة أعوام كمبشر متجول، لم يكتب في حياته كتابا واحدا، ولم يتقلد منصبا، ولم يملك بيتا، ولم تكن له عائلة، ولم يذهب إلى كلية، ولم يضع قدمه في مدينة كبيرة، ولم يسافر أكثر من مائتي ميل من المكان الذي ولد فيه، ولم يصنع شيئا من الأمور التي تحف بها العظمة. لم يكن له من مؤهلاته سوى شخصه إذ لم يكن له ما يقدم للعالم إلا طبيعته الإلهية. وفي شبابه انقلب عليه الرأي العام،وهرب أصدقاءه، وفيهم من أنكره ومن أسلمه لأعدائه واحتمل السخرية في محاكمته وقضي عليه بالصلب بين لصين، واقترع جلادوه على الشيء الوحيد الذي كان يملكه في العال.. قميصه، وعندما مات انزل ووضع في قبر أعاره إياه صديق محسن شفوق.. وقد مر عليه تسعة عشر قرنا من الزمان، وهو اليوم مركز وقلب الجنس البشري وقائد حركاته التقدمية.. ولن أجانب الصواب إذ قلت إن كل الجيوش التي تحركت وكل الأساطيل التي بنيت وكل البرلمانات التي اجتمعت وكل الملوك الذين حكموا، لم يصنعوا للحياة البشرية ولم يؤثروا فيها كما صنع ناثر هذا الفرد الوحيد".

فإذا كنا في الفصل السابق قد أتيح لنا أن نقف قليلا من جلا للاهوته، فلعله من المثير والهام أن نراه أيضا ألان في ناسوته، وسيبين لنا إننا لسنا اقل حاجة لمعرفة المسيح الإنسان من المسيح الإله. بل إن صورته كاله لا يمكن أن تظهر في مجدها وجلالها وعظمتها ما لم نعرفه في حقيقته كانسان صار معنا في الموكب التعس على الأرض، يشاطرنا ألامها هيهات أن يصل إليها بشري ليكون زعيم البؤساء في الأرض وصديق المشردين، بل ليعود بهؤلاء جميعا إلى المجد الضائع والفردوس المفقود.

وإذا كانت سير العظماء تثير في العادة في جميع الناس نشوة ومتعة وحلاوة لا تنتهي، فكم تثير فينا قصة المسيح، وهو الشخصية التي وصفها احدهم بالقول: "إن ما يكتب عنه كل عام أكثر من جميع أفلاطون وأرسطو ولاسكندر الأكبر ويوليوس قيصر وشيشرون وفرجيل ونيرون وقسطنطين وكالفن ومارتن لوثر ووليم شكسبير ويوحنا ملتون وجورج واشنطون ونابليون بونابرت وتوماس اديسون والبرت اينشتين مجتمعين معا".

وإذا كان من المستحيل دراسة حياة المسيح كانسان في صفحات قليلة كهذه، فلا اقل من أن ندرس هذه الحياة من ثلاثة جوانب أساسية.

أولا: المسيح الإنسان والتاريخ

ولا مناص ونحن ندرس حياة المسيح من الوجهة التاريخية أن نتعرض على الأقل لأمرين أساسيين:

المسيح والعصر الذي ولد فيه وعاش وغير خاف إن الدراسة العلمية الدقيقة لأي إنسان تقتضي دراسة نوع الحياة والظروف التي ولد وعاش فيها حتى يسهل بعد ذلك أن نفهم كيف تأثر بالعصر الذي عاش فيه أو اثر فيه. ولم يشذ البشيرين عن هذه القاعدة وهو يحملون إلى الأجيال قصة أعظم إنسان ظهر على هذه الأرض،وان كان كل واحد منهم قد نحا النحو الذي كان يرجوه من وراء تدوين هذه القصة، فمتى الذي كان يعني بالحديث عنه كملك لليهود تحدث عنه كابن لإبراهيم "ابن داود". ومرقس الذي كتب عنه للرومان بدا كتابته من الخدمة الجهارية دون العودة إلى سلسلة الأنساب المتعددة، وكأنما يعني بتقديمه للرومان، وكان لابد أن يدون اسمه تحت اسم يوسف أبيه بالتبني، أو في لغة أخرى قديمة "كابن يوسف". أما لوقا وقد أراد أن يقدمه للأمم والإنسانية، فعاد بنسبه إلى ادم داعيا إياه "ابن ادم" أو في لغة أخرى "ابن الإنسان" وأخر الكل قدمه يوحنا في صورته الأزلية فتحدث عن لاهوته في "الكلمة" الذي كان عند الله وكان هو الله أو في معنى أخر قدمه "كابن لله".

وعلى إي حال فان الإنجيل وهو يتحدث عن هذه القصة الكريمة ربط المسيح الإنسان بالتاريخ أو في تعبير أدق ربط التاريخ به، إذ ذكر انه ولد في أيام اوغسطوس قيصر أول إمبراطور الدولة الرومانية القديمة، وقد ولد اوغسطوس عام ٤٤ق. م.وأصبح إمبراطورا عام ١٧ق. م. وكان ابن أخت يوليوس قيصر، وقد أحبه هذا كثيرا وتبناه. وقد تميز اوغسطوس قيصر بالقوة والشجاعة، وبلغ السيادة المطلقة بعد انتصاره على مارك انطون وكليوباترا. وقد اتسعت رقعة الإمبراطورية في عصره، فشملت الأراضي الواقعة بين بريطانيا واسيا الصغرى، وقد بنى الطرق التي اشتهرت بها روما، وما تزال آثار بعضها باقية إلى ألان، وبنى القلاع لحماية الإمبراطورية وكون جيشا من أعظم واقوي الجيوش في التاريخ.

وفي الواقع إن دراستنا لهذه الإمبراطورية تكشف عن ترتيب العناية في التمهيد لمجيء المسيح، إذ كانت روما رمز القوة والسيطرة، وكانت هذه القوة لازمة لجميع العالم القديم المعروف تحت سلطة واحدة، وتحطيم الحواجز المتعددة الكثيرة التي قامت فيه. يضاف إلى ذلك إن الطرق التي بناها الرومان ربطت إرجاء الإمبراطورية ربطا شاملا، فكان التنقل بينها سهلا ميسورا، ولا ننسى إن القانون الروماني كان قد بلغ اوجد قوته ومجده، القانون الذي ما زال أبا لجميع القوانين في العالم المتمدين الراقي، ولا ننسى أن نذكر الثقافة اليونانية التي كانت قد بلغت ذروة عظمتها، الثقافة التي ما زال العالم إلى اليوم ينهل من علمها ومنطقها وفلسفتها. ومن المناسب أن نشير في هذا الصدد إن الكثيرين من العلماء والمؤرخين وقادة الفكر كانوا من المعاصرين للميلاد، أمثال ديودريوس سيكالبيوس المؤرخ اليوناني، واسترابوا عالم الجغرافيا اليوناني٥٤ق. م إلى ٢٤م. واوفيد ٥٧ق. م إلى ١٨م. وليفي ٥٩ق.م إلى ١٧م. وسينكا الذي عاش إلى سنة ٥٦م.، وفيرجيل الذي مات قبل الميلاد بأربعة عشر عاما وهوارس الذي مات قبل الميلاد بثلاث أعوام.

فإذا ما ذكرنا كل هذا عرفنا كيف مهد التاريخ لمجيء المسيحي ابرع تمهيد، وكيف استعد العالم لمجيئه إذ انتشر اليهود في الشرق والغرب يحملون معهم أملهم الذي لا يموت، أمل مجيء المسيا. ولم يكن اليهود وحدهم يرقبون هذا الأمل بل العالم كله يترقب هذا الميلاد ويتحدث عنه فقد ذكر فرجيل إن الناس يتوقعون مجيء ابن من لسماء ليحقق العصر الذهبي ويمحو الخطية من الأرض، وقال ناسيتوس وسوتانيوس ويوسينوس إن ا لشعور العام في الشرق كان شديد الإيمان بظهور ملك في يهوذا كما تذكر النبوات، يسيطر لا على اليهود فقط بل على العالم اجمع، وكان كونفوشيوس الصيني يتحدث على الدوام إلى

أتباعه عن ظهور هذا المخلص، وواجبهم في البحث عنه والتعلق به، وقيل أن زرواستر "زرادشت" الفارسي الذي يعتقد النسطوريون انه كان تلميذا لارميا النبي، كان يعلم الفرس عن المسيح الذي سيأتي في يهوذا من عذراء، وكان يقول لأتباعه أنهم أول من سيعرف بمجيئه من الأمم، وان من واجبهم أن يذهبوا إليه حال ظهوره.هذه وغيرها من الأقوال تحدثنا عن الشعور العام الذي سرى في العالم قبل مجيء المسيح، الشعور الذي يعزوه رجال التاريخ إلى انتشار اليهود في الشرق والغرب حينذاك، وبذر عقائدهم وانتظار تهم حيثما حلو. على إن التاريخ الذي جاء المسيح فيه كان لابد أن يتغير ويتجه وجهة جديدة، بل كان لابد أن يقلب رأسا على عقب، فلا يدون فيه تاريخ المسيح بالنسبة لتاريخ اوغسطس، بل يدون فيه تاريخ اوغسطس بالنسبة لتاريخ المسيح. كما إن روما التي كانت مدينة الجمال والعظمة والقوة كان لابد أن يتحول تاريخها بأكمله، لأنها كانت روما الطاغية التي أذلت الأعناق، وكان لابد أن تشاد القوة على فلسفة أخرى غير فلسفة الطغيان والجبروت. ولقد شيدت بمجيء المسيح على السلام والمحبة والتضحية، ومن ثم لم يعد التاريخ منسوبا إلى روما كما كان قبل المسيح بل أصبح من قبل ومن بعد يدور حول التاريخ الميلادي. ثم أين اوغسطس قيصر، بل جميع أباطرة الرومان من يسوع المسيح. أليسوا جميعهم إلا أصداء خافتة ضعيفة من أصداء التاريخ، بينما المسيح هو قلب التاريخ وأساسه ومقومه!.

٢ – كيف عاش المسيح على الأرض كإنسان؟

والأمر الأخر الذي يتحتم مناقشته بالنسبة للمسيح والتاريخ، فهو، كيف ظهر المسيخ على الأرض وعاش كانسان!؟ أو في لغة أخرى ماذا يمكن أن تعني هذه الكلمة "ناسوت المسيح" أو "المسيح الإنسان"؟ ولعل الأهمية البالغة لهذا السؤال مردها أن التاريخ الكنسي – وعلى الأخص في العصور الوسطى- وهو في الموازنة بين لاهوت المسيح وناسوته لم يعطينا الصورة الواضحة المجلوة من "الناسوت" كما إعطانا عن "اللاهوت" أو في لغة أخرى أن الفكر عن لاهوت المسيح كثيرا ما أوقف تأمل الدارسين والشراح وهم بصدد بعض مظاهر الناسوت وملامحه!

(أ) صور المسيح خلال العصور:

وليس أدل على ذلك من العصور التي رسمها الفن لشخص المسيح في مختلف العصور، فبينما تبدو الصور القديمة الآتية ألينا من القرنين الثالث والرابع – إذ لا نكاد نعثر على أي صورة باقية من صور القرن الأول والثاني – بينما تبدو هذه الصورة كاشفة عن المسيح في وجهه الطبيعي البسيط الأخاذ الإنساني، كالممتلئ بالحيوية والنعمة والشباب، والراعي الصالح الذي يحمل الحمل على كتفيه، واورافيش الحقيقي الذي يجذب إليه جميع الخلائق بسح موسيقاه.والصورة الآتية من القرن الخامس والتي ترسم المسيح في صورة الإنسان المهيب الطالعة، ذو السعر الأسود الطويل المفروق من الوسط والمنساب على الكتفين، والجبهة اللامعة النقية، والوجه المنبسط الأخاذ، والفم الدقيق، والأنف المستقيم بلا عيب، واللحية القصيرة المفروقة من الوسط، والعينين اللامعتين المنيرتين، بينما تبدو هذه الصورة هكذا، إذ بالصور الآتية من العصر البيزنطي، تختلف كثيرا عن ذلك، إذ تصور المسيح في صورة ادني إلى الإرهاب والترويع والتهديد والإفزاع، مما يختلف كثيرا عن الصور الأولى.. أو في واقع الأمر مما يباعد بيننا وبين حقيقته وشخصيته كالإنسان التاريخي المعروفة قصته والتي دونها العهد الجديد بكل جمال ودقة ورقة!

(ب) الآراء اللاهوتية عن المسيح:

والأمر بعينه إذ نتحول من صور الفن إلى التراث الفكري فيما خلفت الكنيسة من آراء وعقائد وتفاسير وشروح حول المسيح كانسان. كل الآباء في الكنيسة اليونانية القديمة يصورنه في الصور الطبيعية البسيطة الإنسانية، إذ يقول ايرانيوس مثلا في وصف ناسوته: "وإذ كان في الثلاثين من عمره جاء ليعتمد، وحين بلغ السن الكاملة ليكون سيدا جاء إلى أورشليم ليعترف به الكل كسيد، لأنه لم يرغبان يكون ظاهرا على شيء، بينما هو في الحقيقة على شيء أخر!. كما يزعم أولئك الذين يصفونه كانسان، ولكن في الظاهر فقط، لقد كان في الظاهر والباطن على حد سواء!. ومن ثم جاء كسيد في السن والقامة الكاملة الناضجة للسيد، إذ لم يحتقر أو يتجنب أي شرط من شروط الإنسانية أو يطرح عنه القانون الذي وضعه هو بشخصه للجنالبشري".. أو كما وصفه اوغسطينوس بالقول: "امنع أذنيك عن الاستماع لكل من يحاول أن يعطيك صورة مغايرة عن المسيح الذي جاء من نسل داود من مريم العذراء أيضا – الذي ولد حقا واكل وشرب واضطهد على يد بيلاطس البنطي، وصلب حقا ومات حقا أمام أعين كل خليقة في السموات وعلى الأرض وما تحت الأرض".بينما كان هذا هو السائد في عصور الكنيسة الأولى، إذ بالصور الأخرى اللاحقة التابعة تحاول أن تعطيه مظهرا مماثلا لما أعطاه إياه الفن البيزنطي القديم!. ولعل ظاهرتين واضحتين تحسن الإشارة إليهما تكشفان إلى حد بعيد عن الفرق الكبير بين أراء العصور الوسطى وسائر الآراء الأخرى وهما ظاهرتا النمو والخضوع عند المسيح!.

(١) المسيح وظاهرة النمو

ولم يكن هناك شبهة في التسليم بظاهرة النمو عند المسيح في عصور الكنيسة الأولى والعصور الحديثة، غير إن العصور الوسطى خرجت برأي أخر اختلف عنفا أو اعتدالا حول معنى النمو عند المسيح كانسان، وحول تفسير القول الكريم في القول الكريم في الوحي: "وأما يسوع فكان ينمو في القامة والنعمة عند الله والناس" (لو٢: ٥٢). وكان السؤال هل يجوز أن يسري على المسيح ما يسري على جميعا من التقدم الجسدي والذهني والروحي. ومع التسليم بظاهرة النمو الجسدي، إلا إن الخلاف حدث عند التساؤل عن النمو الذهني والروحي فوجدت قلة من المفسرين أنكرته بتاتا وعلى رأسهم اللاهوتي الجزويتي دي لوجو. أما الغالبية منهم فقدت عمدت إلى التوفيق بين ظاهرة النص وما يعتقدون، إذ قال يوحنا الدمشقي: "إن المسيح إذ قيل لأنه تقدم في الحكمة والقامة والنعمة، فذلك لأنه كان يتقدم في القامة فعلا، وبهذا التقدم في القامة كان يكشف في الوقت نفسه عما هو كائن به من حكمة ونعمة!. أما أولئك الذين كانوا يقولون انه ينمو في الحكمة والنعمة، بمعنى القابلية في التزايد فيها، فينكرون ان الجسد قد اتحد بالكلمة منذ اللحظة الأولى لوجوده"! وشبيه بهذا ما ذكره ذهبي الفم في تفسير قول المسيح الوارد في إنجيل متى : "وإما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بها احد، ولا ملائكة السموات، إلا أبي وحده" (مت٢٤: ٣٦). إذ قال : "إذ كنت تبحث عن اليوم والساعة فانك لن تسمع مني شيئا. يقول هو – أي السيد المسيح أما إذا كنت تريد ان تسمع مني الأزمنة والأوقات فاني استطيع ان أخبرك بهما تماما لأني بالتأكيد لا اجهلها إذ إنني أرى بطرق كثيرة واستطيع ان أقودك إلى الدهليز، لكنني إذ لا افتح الباب أمامك هذا افعله لخيرك".

على ان الفكر اللاهوتي الحديث يتجه ولا شك نحو أراء الكنيسة الأولى التي تؤكد ناسوت المسيح الكامل، وفي الوقت عينه قد استفاد من الآراء المعتدلة للمفكرين في العصور الوسطى، وأمكنه التوفيق بين الأمرين عن طريق فكرة الإخلاء التي تحدث بها الوحي عن المسيح : "الذي إذ كان في صورة الله. اخلي نفسه آخذا صورة عبد " (في٢: ٥-٧). أو ما يسمى في عرف

اللاهوتيين : "الحج الاختياري" وتقوم هذه الفكرة على العقيدة ان الحجب الاختياري شيء جوهري وأساسي داخل وداخل في نطاق القدرة الإلهية، فان معرفة الله الكاملة لا تعني انه عاجز عن ان يحجب عن عينيه ما لا يريد ان يبصره أو يراه، إذ ان الله لا يمكن ان يكون قد أعطى الإنسان ما لا يملكه هو. فإذا كان الله فد زود الإنسان بالرؤية بعينيه والتصور بفكره، وفي الوقت نفسه قد أعطاه الأجفان التي يمكن ان يسلبها على عينيه فيمنعهما من رؤية ما هو أمامه، أو يسكن فكره فيمتنع عليه التفكير في الموضوع الذي يشغله!. إذ كان الله قد أعطى للإنسان ان يرى أو لا يرى كما يشاء وان يفكر أو لا يفكر كما يريد، فهل يمتنع عن الله ذاته ان يحجب عن عينيه ما يرغب إلا يراه أو يتأمله. حاشا وكلا! وإلا فما نعنى ان الله يحجب وجهه عن خطايا التائبين عندما يتوبون بالقول :"استر وجهك عن خطاياي"؟ أو لفظ الأشرار و طرحهم عند الرفض والترك كالقول: "لا تطرحني من قدام وجهك"؟.أو التخلي الأبدي عن المطروحين في الظلمة الخارجية!؟هل هذه مجرد أمور رمزية لإغفاء الله وحجب بصره أم حقيقة تتحدث عن القدرة الإلهية التي تطوي الخطية وتحجب عن النظر الإلهي عذابات الخطاة المروعة في جهنم!؟ فإذا كانت المعرفة الإلهية المطلقة تملك هذا الحجب الواقعي الحقيقي. فليس من الممتنع ان يكون المسيح قد حجب عن نفسه مختارا بالناسوت ما يريد ان يحجب من معرفة، إذ انه كما يذكر كائن ليدون :"ليس الناسوت في شخصه كائنا قائما بذاته منفردا، كما انه ليس هو قاعدة شخصيته أو مركزها، إذ لا يتصور وجوده بعيدا عن العمل الذي صار به الكلمة جسدا، فجاء به بذلك الوجود – إي الجسد – ليكون له بمثابة الرداء لذاته والوسيلة التي بها اوجد نفسه في العلاقة مع الناس والتي بها يعمل من اجل الإنسانية " فإذا قيل : "بان المسيح وهو ينقل من الطفولة إلى الصبوة فالشباب كان يتقدم وينمو في الحكمة والنعمة فإنما كان ينمو كما ينمو البدر بعد ان يكون هلالا، أو كما ينمو النهار بعد ان يكون فجرا. والأمر يجع في الحالتين إلى المقابلة بين شعاع الشمس واستدارة القمر لمواجهة النور!".

(٢) المسيح وظاهرة الخضوع:

والظاهرة الأخرى التي يشار إليها هي ظاهرة الخضوع، وقد تردد بعض اللاهوتيين في التسليم بخضوع المسيح الكامل لمقتضيات طبيعته كانسان، بزعم ان هذا يقلل من مركزه وجلاله الإلهي، ولكن هذا الرأي أضحى مهجورا تماما لان الخضوع المسيح وتنازله الاختياري من المجد السماوي لا يقلل بتاتا من مركزه، بل بالحري يمجده ويرفعه أمام خلائقه على صورة كان من المتعذر إدراكها من إي وجه أخر. ولعل المثل الذي نسوقه يساعد على فهم هذه الحقيقة : فقد ذكر ان احدهم قد زار خلال الحرب العالمية الثانية احد المصانع الانجليزية، فرأى ان هناك عاملا من العمال شديد الشبه بملك الانجليز، ولشدة تعجبه أدرك بعد السؤال ان هذا العامل ليس إلا الملك بذاته، يأتي بعد انجاز أعماله الرسمية ليشترك مع الشعب في الأعمال العادية؟. وهنا يصح ان تثار عدة أسئلة!. الم يجتمع الملك والعامل في شخص واحد!؟ ومع ذلك فهذا العامل الذي ارتدى ثياب العمل هل هو ملك في المصنع أم عامل!؟. وإذا كان عاملا في ثوب العمال، فهل يجوز، وقد رضي بهذا الوضع، ان يستثني نفسه من الخضوع لأي نظام أو قانون عمالي، يكون هو قد سبق فصدق عليه بصفته الملكية!؟. وماذا يحدث لو ان رئيسا في العمل أمره بأمر ما فخضع!؟.أيكون هذا الخضوع في نظر الناس مدعاة لهوانه أو مجده!؟ وهب لسبب ما ان غرامة وقعت على هذا المصنع بأمر الحكومة وتصديق الملك. وان هذه الغرامة اتفق ان يدفعها العمال جميعا؟! فهل ينفذ هذا "العامل" أمر "الملك" أم لا!؟. وإذا كان العمال يتناولون الطعام والشراب، وامتنع عليهم ذلك لعذر قاهر، فهل يصح لهذا "العامل" بينهم ان يأتي بالطعام أو الشراب من القصر الملكي!؟. وإذ لم يفعل وجاء وعطش وتألم مشاركة بذلك أخوته في كل شيء، فهل يقلل هذا من مركزه في نظر نفسه أو العمال أم يزداد ويسمو ويسود!؟. هذه الأسئلة وغيرها تساعد في معنى اعلي وأكمل وأبهج

وامجد واجل على فهم معنى تنازل المسيح وإخلائه ذاته، وتساعد على فهم معنى قوله الناسوت "لان أبي أعظم مني" (يو ١٤: ٢٨). كما ان الملك أعظم من العامل، بل تساعد على معنى إدراك القول " من ثم كان ينبغي ان يشبه أخوته في كل شيء كي يكون رحيما ورئيس كهنة أمينا فيما لله حتى يكفر خطايا الشعب. لأنه فيما قد تألم مجربا يقدر ان يعين المجربين" (عب٢: ١٧و١٨).

وقصارى القول ان المسيح الإنسان جاء إلى الأرض وعاش فيها وسار في بيدائها واختبر من اختبارات الحياة ما يمكن ما يمكن ان يختبره جميع الناس من ضيق وتعب وشدة وفقر وألم وحزن وما أشبه من التعاسات العذابات التي يعانيها البشر في كل جيل وعصر، بل انه وصل في الواقع إلى أعماق فيها هيهات ان يصل إليها مخلوق بشري، وذلك لأنه هو الوحيد بين الناس الذي لم يعرف خطية، كان لابد ان يكون محررا من البلادة التي تنشئها الخطية في حياة الناس. وكان بالتالي يحمل من الحساسية والشعور ما لا يمكن ان يدانى أو يبارى!. كما ان صراعه كان ولا شك الصراع الأكبر والأقسى،إذ ان صراعنا في الأغلب صراع إجباري مفروض، أما هو فقد كان دائما صاحب الصراع الاختياري الدائم. وهل هناك ما هو اقسي منان يحتمل القوي هوان الضعفاء وهو القادر على كل شيء!؟ ان يجوع صاحب الكلمة التي يمكن ان تصنع من الحجارة خبزا، ومع ذلك يرفض ويمنع!؟. وان يعطش ذلك الذي في قدرته ان يصنع الوابل والمطر، بل هو الينبوع المروي لكل ظمآن. اجل هذا هو المسيح الإنسان بكل ما في كلمة إنسان من معنى ومدلول..

ثانيا: المسيح الإنسان وكمال أخلاقه وصفاته

الأمر الثاني الذي لابد من تتبعه ونحن نتحدث عن المسيح الإنسان هو أخلاقه وصفاته كانسان، والجدال في ان المسيح هو "الإنسان الكامل" بل النموذج الوحيد للأخلاق السامية الكاملة في كل العصور والأجيال. ومن القديم والبشرية تبحث لاهثة عن هذا "الإنسان" وتخرج مع ديوجين الذي حمل مصباحه في وضح النهار ليفتش في أثينا عن "الرجل" دون ان يعثر عليه. وبعد البحث الشاق والركض الطويل وجدته وعثرت عليه، وفيه, على النموذج الأبدي الكامل للإنسان في شتى العصور ومختلف الأجيال. ومما لا ريب فيه ان المسيح حدد في شخصه " معنى" هذا الكمال بكيفية ترتفع على كل لبس وإبهام.

وقد حدده أولا وقبل كل سيء بالعلو الشاهق، وليس هذا بشهادة أتباعه ومريده فحسب، بل شهادة أدق النقاد وأكثرهم تعنتا فكيف مثلا يصفه بالقول انه: "أعجوبة خارقة للطبيعة" وعمانوئيل كان يراه :"المثل الأعلى للكمال الأدبي" ويعقوبي يقول عنه: "انه المثل الأعلى في الدين" وفختة يشهد باستحواذه على :"اعلي معرفة يمكن ان يصل إليها الإنسان". وشلنج يؤكد انه: "لم يظهر له ضريب في إعلان ما هو ابدي للناس".

وثانيا: ان المسيح وحده هو الذي جمع في ذاته مختلف الصفات بالتوازن الكامل والتنسيق العجيب، إذ ليس في البشر من استطاع، ان يحفظ توازن الكمال سواء أو كما يقول بوشنل :" ان الناس وهو بصدد الاتجاه نخو الروحانية يتعرضون للتزمت، وفي سبيل أخذهم بنظرة متحررة لمباهج الحياة ومسراتها سريعا ما يندفعون في العالم، إذ يصبحون عبيد لشهوات الحياة وأزيائها. وكما وإنهم وهم يدققون في تعقب خطية معينة يتعرضون للحرفية القاتلة التي تبعدهم عن الحرية أو يؤخذون بجمال الحرية وعظمتها فيجنحون إلى الإهمال وعدم الشعور بالمسئولية.. وهكذا يصبح التحمس قاسيا، والغيور متعصبا منتقدا، واللطيف مائعا، والحازم فظا، يتدرج المتسع نحو التهاون، والمحسن نحو التفاخر، والطبيعة البشرية الناقصة لا تترك شيئا

مستقرا، وحيث تكسر قائمة البر فان كفتي الميزان تحتاجان إلى التعادل". أما المسيح فكما سيبين وشيكا فقد وازن بين جميع الكمالات والمبادئ والمثل إلى حد الإعجاز والإعجاب!.

وثالثا: ان المسيح وحده هو الذي فسر جميع الكمالات في أعماله وحياته وتصرفه، إذ لم يفصل بين التعاليم التي نادى بها والحياة التي عاشها بين الناس،أو بين المبادئ أو المثل من ناحية، والواقع والتصرفات من الناحية أخرى، فهو لم يعرف على الإطلاق مثلا صرخة كونفوشيوس عندما صاح: "رجال الحكمة والفضيلة"!. كيف أجرؤ على ان احسب نفسي واحد منهم. يمكن ان يقال عني إني أجاهد لكي أصير أحسن، ويمكن ان يقال إني لا اتعب من تعليم الآخرين! ربما أعادل أحسنهم في معرفة الآداب! ولكني اقر إني فشلت في الوحكيما".لق الإنسان السامي، الإنسان الذي يرى في تصرفه الأمور التي يعلّم بها، وهذا ما يرعبني، إني لا أصل إلى مستوى الفضيلة الذي أرغبه، واني لا أعيش تماما حسبما علّمت، ولست قادر على السير في حياة البر وعمله، في الوقت الذي اعرف فيه ان هذا هو البر، آه إني لا استطيع عمل الخير، ولست قادرا على تغيير الشر في نفسي! أنا لست الإنسانين الذي ولد حكيما".وأكثر من ذلك فان المسيح هو الوحيد الذي قال: "من منكم يبكتني على خطية؟" (يو٨: ٤٦). وإذا لم يكن الميسور تتبع هذا الكمال من شتي نواحيه فلا اقل من ان نشير إلى بعض روائعه.

١ـ كمال المحبة والقداسة:

وازن المسيح يسوع بين المحبة والقداسة، في أروع وارهب وأكمل واجل ما يمكن ان تكون عليه الصفتان، فهو المحب الذي لم تعرف له البشرية نظيرا في المحبة، بل هو في واقع الأمر المحبة المتجسدة بين الناس، أليس هو القائل: "سمعتم انه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك، وإما أنا فأقول لكم أحبوا أعدائكم باركوا لاعنيكم وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم " (مت٥: ٤٣و ٤٤). فإذا كان كورش الصغير كما يصوره زينفون يقول: "انه ليس احد يقدر ان يصنع خيرا لأصدقائه وشر لأعدائه كما يصنع هو، وإذا كان شيشرون وقد قتل عدوه كلوديوس في معركة بوفيلي، لا يخجل من ان يدون خطاباته بعد عامين من المعركة، من ذات التاريخ الذي قتل فيه خصمه العتيد. فان روح المسيح روح المحبة هو الذي علم الناس بعد ذلك، ان يقولوا ما قاله الملك آرثر في قصيدة تنيسون المشهورة – لزوجته الثانية وهي راكعة تحمل الأسى عند أبواب الذي هرعت إليه:

لا تظنني إنني قد أتيت من اجل جرائمك

لم آت لألعنك يا جونيفر

أنا الذي اهتز الموت بالشفقة العارمة

إذ أرى راسك الذهبي يميل

تحت أقدامي تسقط كبرياء صيفي اللامعة.

والغضب العارم الذي حركه ذلك القانون الرهيب.

ليحكم على الخيانة بالموت المروع.!

قد انفثا وانتهى لحظة معرفتي بمخبئك هنا!.

* * *

والكل قد مضى والخطية قد تمت... وأنا أنا!.

اغفر لك.. نعم اغفر.. كما غفر لنا.. الله السرمدي.

وهل هو غريب ان يعلم المسيح تابعيه ان يالصليب.ائهم ولاعنيهم والذين أساءوا إليهم هذا الحب العجيب، وقد كان هو بذاته في كل حركاته ونسماته المحبة العجيبة الفياضة العارمة؟. بل أليس هو الذي صاح من اجل قاتليه على الصليب. "يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون"!؟. وإذا صح ان يقال هذا عن الأعداء والمبغضين فكم هو اصح بالنسبة للأحباء والتابعين الذين أحبهم إلى المنتهى.اجل فان هناك مسافة أبدية بين محبة المسيح وأجمل محبة وأجمل محبة تذوقتاها على الأرض! فإذا أمكن ان نهتف للمحبة التي قامت بين الأخوة كمحبة فيلكس مندسون وأخته فاني، أو تشارلز لام وأخته ماري، أو وليم وردثورث وأخته دورثي أو بين الأزواج كمحبة تشارلس كنجسلي وفاني جرنفيل، وربرت براوتنج واليصابات باري، ووليم جلادستون وكاترين جان. أو بين السادة والإتباع، كعلاقة المودة بين الملكة فيكتوريا والشاعر تينيسون الذي كتب لها قائلا: "لن أقول إني مطيع أو انك كريمة، فهذا الألفاظ قد تستعمل أو تهجر بين أعضاء البلاط الملكي. ولني استطيع القول انه خلال ما تم بيننا من أحاديث شعرت أعمق الشعور بلمسة تلك الصداقة القوية التي تربط بين قلوب الناس، سواء كانوا ملوكا أو اسكافيين ".فإذا أمكن ان نهتف لهذه الصورة وأمثالها من المحبة، فان موسيقى المحبة الكاملة تبقى وقفا على شخص المسيح.

على ان هذه المحبة على ما فيها من عظمة ومجد ورغادة، هي أولا وقبل كل شيء المحبة المقدسة، بل المحبة الكاملة في الطهارة والنقاوة والقداسة والبر، إذ لا ينكر احد على الإطلاق سمو المسيح الكامل وطهارته الكاملة! ومن ثم كان لابد ان يكون المسيح الواحد هو النور المتوهج، والنار الآكلة أو الشمس التي أضاءت الطريق أمام الملايين من الناس، وفي الوقت عينه كانت النار التي لا تذم الرزيلة فحسب بل تحرقها حرقا. وهل الصليب في حد ذاته إلا اللقاء المحتوم بين المحبة السرمدية الكاملة التي لا تنتهي، والقداسة الكلية التي لا تخبوا نارها أو تضعف في المسيح الطاهر القدوس!؟.

٢ـ كمال اللطف والصرامة:

وكما وازن المسيح في حياته بين المحبة والقداسة فقد وازن بين اللطف والصرامة أيضا!. وفي الحق أن الأرض لم تعرف لطفا كهذا الذي عرفته إلا في شخص المسيح يسوع!. فإذا كان اللطف هو الحنان والجودة والرقة والابتسامة والمعونة في لحظات الضعف والشدة والضيق والخطأ والانهزام، فمن ذا الذي يباري المسيح في لطفه، أو يدنو أو يقترب منه في جوده وحنانه!؟. الم يقل ربان عنه: "إن حنان قلبه قد تحول إلى حلاوة لا نهائية، وإلى شعر سحري وإلى جمال أخاذ". كيف لا وقد كان هذا اللطف هو السمة الواضحة في الكثير مما أنجز أو فعل!؟ إذ كان:

أولا: اللطف المشجع، والذي صنع الأبطال من المغمورين والصيادين، إذ أيقظ فيهم ما هجع من وزنات أو ملكات بالدفع والتقوية والتشجيع، كأن يقول للواحد منهم : "أنت بطرس وعلى هذه الصخرة ابني كنيستي. وأبواب الجحيم لن تقوى عليه". فيصنع منه الإنسان الخالد والبطل العظيم!.

ثانيا: اللطف المسند، والذي يمسك باليد في اللحظة الحرجة، والموقف الدقيق، فيحول مجرى الحياة وينقلها من اليأس إلى الأمل، ومن الفشل إلى النجاح، ومن البؤس إلى التغريد، ومن الضعف إلى المجد والسؤود العظيم، فإذ صح إن احد أتباعه كان أستاذا جامعيا، دعا ذات يوم شابا حييا خجولا المعيا من الشباب الجامعي الذي أوشك أن يفصل منها لعدم سداده ما تطلب منه من مصروفات. وكان الشاب بطبعه عزيز النفس خجولا يريد الرفض، لولا اللهجة القوية الآمرة من أستاذه، واللطف الرائع البادي في نبرات صوته فقبل، وعرف الناس فيما بعد في ذلك الشاب أسقف كنتربري العظيم. إذ صح أن يفعل أستاذ جامعي مثل هذا الأمر مأخوذ بروح المسيح ولطفه فكم هو اصح بالنسبة للمسيح نفسه الذي مد يده لمساندة المنكوب والتعس والمتألم والحزين والشريد!؟

ثالثا: اللطف الحامل، والذي لم يساند الآم الناس ومتاعبهم فحسب بل حملها عنهم، إذ كان هو الصديق الذي يرفع عن كاهلنا الآلام ليحملها هو في حياته وعلى قلبه. وقد علم أتباعه أن يحمل فيهم القوي متاعب الضعيف والمجدود آلام التعس، والسعيد مآسي المحزون. وكان وليم الصامت واحد مثلا من هؤلاء الأتباع. وقد استلهم روح المسيح وحمل آلام شعبه وكتب عنه في كتاب الجمهورية الهولندية :"لقد سار في الحياة يحمل آلام شعبه على كتفيه بوجه مبتسم، كان اسمهم أخر ما تردد على شفتيه، وقد اسلم نفسه في ضجعة الموت في يقين الجندي الذي عاش من اجل البر طوال حياته بين يديه قائده الأعظم المسيح، ولقد كان الشعب متحمسا له وفيا به إذ وثق به ودعاه: "الأب وليم!. ولم تستطيع كل غيوم الدسائس التي تجمعت أن تطفئ من عيونهم بريق الثقة بذهنه المرتفع، إذ كانوا يتطلعون إليه في أحلك المآسي والليالي، وقد كان طوال حياته النجم الهادي لأمة شجاعة، وعندما مات كان الأطفال يصرخون في الشوارع".

هذه هي بعض صور اللطف عند المسيح، ولكن هذا اللطف لا ينبغي أن ينسينا الجانب الأخر من الصورة ونعني به الصرامة والقسوة والإرهاب والترويع، ومن الخطأ الفاحش أن نتصور إن المسيح اللطيف لم يكن قاسيا أو رهيبا أو مروعا عندما كانت الأمور تحتاج إلى القوة والإرهاب والانتهار والإفزاع. اجل ولقد صدق الشاعر العربي القائل في وصفه:

يا قويا لم يهن يوما عليه الضعفاء وضعيفا واسمه يصرع منه الأقوياء

كيف لا وقد تحول الحمل الوديع إلى الأسد الثائر، فعف عن الكلام وعزف عندما لم يجد فائدة في الكلام، وصنع من الحبال صوتا وطرد الجميع من هيكل الله، الناس والغنم والبقر، عندما تحول الهيكل إلى سوق، وكب دراهم الصيارفة وقلب موائدهم! ومن العجيب انه لم يسكن أو يهدا سوى أمام مخلوق وديع ضعيف صغير،أبى أن يصنع معه كما صنعه مع الكل إلا وهو الحمام إذ قيل:" ١٤وَوَجَدَ فِي الْهَيْكَلِ الَّذِينَ كَانُوا يَبِيعُونَ بَقَراً وَغَنَماً وَحَمَاماً والصيارفة جُلُوساً. ١٥فَصَنَعَ سَوْطاً مِنْ حِبَالٍ وَطَرَدَ الْجَمِيعَ مِنَ الْهَيْكَلِ اَلْغَنَمَ وَالْبَقَرَ وَكَبَّ دَرَاهِمَ الصيارفة وَقَلَّبَ مَوَائِدَهُمْ. ١٦وَقَالَ لِبَاعَةِ الْحَمَامِ: «ارْفَعُوا هَذِهِ مِنْ هَهُنَا. لاَ تَجْعَلُوا بيتا أبيا بَيْتَ تِجَارَةٍ».(يو ٢: ١٤-١٦). وهل يمكن إن ننسى كلماته الرهيبة القاسية للكتبة والفريسيين عندما قال: "لَكِنْ وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ الْمُرَاؤُونَ لأَنَّكُمْ تُغْلِقُونَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ قُدَّامَ النَّاسِ فَلاَ تَدْخُلُونَ أَنْتُمْ وَلاَ تَدَعُونَ الدَّاخِلِينَ يَدْخُلُونَ! ١٤وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ الْمُرَاؤُونَ لأَنَّكُمْ تَأْكُلُونَ بُيُوتَ الأَرَامِلِ ولِعِلَّةٍ تُطِيلُونَ صَلَوَاتِكُمْ. لِذَلِكَ تَأْخُذُونَ دَيْنُونَةً أَعْظَمَ. ١٥وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ الْمُرَاؤُونَ لأَنَّكُمْ تَطُوفُونَ الْبَحْرَ وَالْبَرَّ لِتَكْسَبُوا دَخِيلاً وَاحِداً وَمَتَى حَصَلَ تَصْنَعُونَهُ ابْناً لِجَهَنَّمَ أَكْثَرَ مِنْكُمْ مُضَاعَفاً! ١٦وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْقَادَةُ الْعُمْيَانُ الْقَائِلُونَ: ١٧أَيُّهَا الْجُهَّالُ وَالْعُمْيَانُ ٣٣أَيُّهَا الْحَيَّاتُ

أَوْلاَدَ الأَفَاعِي كَيْفَ تَهْرُبُونَ مِنْ دَيْنُونَةِ جَهَنَّمَ؟ (مت٢٣: ١٣-٣٣). هذه وغيرها من الكلمات والأقوال التي أثارت ثائرتهم، وأثارت معهم ثائرة القادة الآخرين حتى تأمروا جميعا على القضاء عليه وقتله، تشهد بما لا يدع مجالا للشك بالموازنة العجيبة بين لطف المسيح الكامل وصرامته القاسية، وان كلا الصفتين كانت تعمل حيث يوجد مجالها من غير تهاون أو قصور أو تراجع أو تخاذل!.

٣- كمال الفرح والحزن:

وقد وازن المسيح بين الفرح والحزن في حياته أعجب موازنة وأدقها، ومن اللازم أن نقول بادئ ذي بدء، أن إنسانا لم يتمتع على الأرض بالفرح كما كان يتمتع المسيح يسوع، كيف لا وقد كان له فرح الضمير المحرر من كل خطية ونقص وإثم وفساد، إذ هو لم يعرف وخزة واحدة من وخزات الألم أو الندم، بل هو الذي أطاع أباه السماوي في كل ثانية من ثواني الحياة، إذ كان الشعار الكامل الدائم :"أن افعل مشيئتك يا إلهي سررت وشريعتك في وسط أحشائي" (مز٤٠: ٨) وما أكثر ما ارتفع قلبه بنغمات الفرح والمسرة والبهجة وهو يواجه الحياة في الكثير من الأوضاع والشعارات والمناسبات! الم يصنع معجزته الأولى في عرس؟! بل الم يتكئ مع الخطاة والعشارين في الموائد والحفلات حتى صاح الكتبة والفريسيون المتزمتون لتلاميذه قائلين:" ١١فَلَمَّا نَظَرَ الْفَرِّيسِيُّونَ قَالُوا لِتَلاَمِيذِهِ: «لِمَاذَا يَأْكُلُ مُعَلِّمُكُمْ مَعَ الْعَشَّارِينَ وَالْخُطَاةِ؟» ١٢فَلَمَّا سَمِعَ يَسُوعُ قَالَ لَهُمْ: «لاَ يَحْتَاجُ الأَصِحَّاءُ إِلَى طَبِيبٍ بَلِ الْمَرْضَى. ١٣فَاذْهَبُوا وَتَعَلَّمُوا مَا هُوَ: إِنِّي أُرِيدُ رَحْمَةً لاَ ذَبِيحَةً لأَنِّي لَمْ آتِ لأَدْعُوَ أَبْرَاراً بَلْ خُطَاةً إِلَى التَّوْبَةِ»(مت١١:٩-١٣). بل أليس هو القائل لتلاميذه أن يسود الفرح حياتهم حتى في المحنة القاسية والألم الشديد، عندما يعيرون أو يطردون أو يفترى الناس عليهم من اجل اسمه كاذبين:" ١١طُوبَى لَكُمْ إِذَا عَيَّرُوكُمْ وَطَرَدُوكُمْ وَقَالُوا عَلَيْكُمْ كُلَّ كَلِمَةٍ شِرِّيرَةٍ مِنْ أَجْلِي كَاذِبِينَ. ١٢اِفْرَحُوا وَتَهَلَّلُوا لأَنَّ أَجْرَكُمْ عَظِيمٌ فِي السَّمَاوَاتِ فَإِنَّهُمْ هَكَذَا طَرَدُوا الأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ. (مت١١:٥-١٢).بل أن نظرته الكاملة للحياة على الأرض لم تكن إلا نظرة إنسان مبتهج عرسه، وقد ساله ذات مرة تلاميذ يوحنا قائلين :"لماذا نصوم نحن والفريسسن كثيرا وإما تلاميذك فلا يصومون؟" (مت٩ :١٤) فجاء الجواب :"هل يستطيع بنو العرس أن ينوحوا مادام العريس معهم؟" (مت٩:١٥) كما أن نظرته إلى الصليب لم تقلل أو تضعف هذا الفرح، إذا كان ينظر بعده إلى السرور الموضوع أمامه، بل من العجيب أن يهتف قبيل إلقاء القبض عليه: "٢٠اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ سَتَبْكُونَ وَتَنُوحُونَ وَالْعَالَمُ يَفْرَحُ. أَنْتُمْ سَتَحْزَنُونَ وَلَكِنَّ حُزْنَكُمْ يَتَحَوَّلُ إِلَى فَرَحٍ. ٢١اَلْمَرْأَةُ وَهِيَ تَلِدُ تَحْزَنُ لأَنَّ سَاعَتَهَا قَدْ جَاءَتْ وَلَكِنْ مَتَى وَلَدَتِ الطِّفْلَ لاَ تَعُودُ تَذْكُرُ الشِّدَّةَ لِسَبَبِ الْفَرَحِ لأَنَّهُ قَدْ وُلِدَ إِنْسَانٌ فِي الْعَالَمِ. ٢٢فَأَنْتُمْ كَذَلِكَ عِنْدَكُمُ الآنَ حُزْنٌ. وَلَكِنِّي سَأَرَاكُمْ أيضا فَتَفْرَحُ قُلُوبُكُمْ وَلاَ يَنْزِعُ أَحَدٌ فَرَحَكُمْ مِنْكُمْ. (يو١٦: ٢٠-٢٢). حقا كان فرح المسيح أعظم وأعجب وأعمق فرح عرفه إنسان هذا الأرض!.

على أن هذا الفرح في حد ذاته لا يمكن لا يمكن أن ينسينا الجانب الأخر من القصة ونعني به قصة آلام المسيح وأحزانه، كرجل أوجاع ومختبر الحزن،بل كالإنسان الذي لا يمكن أن يداني أو يبارى أو يقترب منه فيما اختبر من ضيقات أو أحزان :" أما إليكم يا جميع عابري الطريق تطلعوا وانظروا أن كان حزن مثل حزني" (مر١١: ١٢) ومما لا ريب فيه أن الموكب البشري لم يعرف في كل تاريخه الطويل حزنا على الأرض كهذا الذي عرفه يسوع المسيح!؟ وقد يسال السائل، ولكن كيف يمكن أن يجتمع الحزن والفرح في شخص واحد بهذا المعنى!؟. وفي الواقع أن الأمر ليس بالغريب أو المحير، فان الفرح والحزن مرجعهما في الأساس إلى عمق حساسية الإنسان وقوة استجابته لما يمكن أن ينشا حوله من أسباب وظروف، وليس

مثل المسيح في مشاعره، وفي استجابته وتفاعله مع الظروف والإحداث.وقد حفلت حياة المسيح بالأسباب التي تدعو إلى الأفراح والإحزان معا، فإذا كنا قد اشرنا في أول الأمر إلى الجانب المبتهج السعيد في هذه الحياة، فمن العدالة والحق أن نشير إلى الجانب القاسي والمؤلم فيها. بل لعل الكثيرين من شديدو الرغبة والتشوق إلى معرفة هذا الجانب الأخير أيضا، ومما يؤثر عن توماس كارليل انه كتب ذات يوم إلى المصور المشهور هولمان هانت يقول بهذا الصدد :"إنني رجل فقير، ولكني أقول بكل يقين وإخلاص إني على استعداد أن أعطي ثلث ما املك من اجل صورة واضحة المعالم للمسيح يسوع، ولو أن المثالين استطاعوا أن يبدعوا تمثالا واحد حقيقيا لابن الإنسان، كما ألف أن يدعو نفسه، تمثالا واحدا يظهر هيئته على حقيقتها طوله وملامحه وبنيانه ومعالم الحزن المرتسم على وجهه ولباسه، لو أنهم فعلوا ذلك فاني على استعداد أن اشكر من أعماق قلبي مثل هذا المثال لأجل آيته هذه من الفن التي تعد من أعظم ثروات العصور كلها". ولكن أين هو هذا الفنان مبدع هذه الصورة أو التمثال!؟ ومن ذا الذي يعطينا مثل هذه الصورة الدقيقة عن أحزان المسيح، وقد درجت الكنيسة اليونانية القديمة على القول: "حقا يارب أن آلامك لا توصف!".

وإذا كان من الملاحظ أن شخصين قد يواجهان ألما واحدا، ولكن واحدا منهما لا يهتز أو يضطرب من الألم مهما يكن فيه من شدة أو رهبة، على العكس من الأخر الذي يتحول إلى كتلة من الألم أو الحزن. وان اثنين قد يمران من طريق واحد، فلا يرى احدهما التعاسة أو البؤس على جانبي الطريق بينما يرى الأخر على النقيض من ذلك، كل تعاسات وألام وشقاء وإحزان الطريق فينز قلبه من الجرح والأوجاع!. وإذا كانت هذه بعض ظواهر الحياة وملموساتها فمن يباري المسيح في آلامه وأحزانه، وقد خمل في شخصه أعمق طبيعة حساسة بين الناس!؟. رأى المسيح الجموع في عصره. لكنه لم يراها كما رآها غيره من الناس من قبل أو من بعد، إذ لم يراها كما رآها الشاعر اللاتيني هوارس، الذي قال عندما أبصر العامة في روما إنني ابغض الشعب السافل،أو كما رآها سينكا عندما امتلأ بعاطفة الاحتقار، وهو يرى صراع الناس وتقاتله في أيامه. لقد رأى المسيح الجموع أمامه منزعجة ومنطرحة كغنم لا راعي لها، فعصر قلبه الألم ونز عرقه ممزوجا بالدم في جثسيماني، ودفع اكبر ثمن لتعاستهم على الأرض في الصليب ليكون زعيم البؤساء، وصديق المشردين، وسيد المتألمين والمنكوبين والحزانى، في كل جيل وعصر. وهكذا تناوب الحزن والفرح في حياة المسيح.

٤- كمال الغيرة والصبر:

ولعل أخر ما نشير إليه على سبيل القياس لا الحصر التوازن الخلقي العجيب بين "الغيرة" و "الصبر" عند المسيح. ومن مثل المسيح في غيرته الآكلة النارية؟!. الغيرة التي أبصرها جون سيلي فقال : "انه يستطيع –أي السيد المسيح – أن يتحمل جميع الأخطاء والعيوب، ولكنه هيهات أن يرتضي أو يشارك أناس يخلون من عاطفة الحماس والغيرة!. لقد كان يعتقد انه أمر رديء وعلامة مفشلة أن يعزم المرء أن يكون تلميذا له، وفي الوقت عينه يطلب أن إلى بيته ليودع من له من أهله وعشيرته " (لو٩: ٦٢ -٦٢). وسأله أخر أن يمضي ويدفن أباه فكان جوابه دع الموتى – أي أولئك الذين لم تنشط حياتهم بالعاطفة العارمة والرغبة القوية - يدفنون موتاهم " (لو٩:٥٩و ٦٠).وذات مرة عندما بدا سحر وجوده وكلامه سيحول عدد كبيرا من الجموع له تلاميذ، وارتاب لئلا يوجد فيهم من هو خائر العزم أو سطحي أو مجرد تابع منفعل، تحول إليهم وفاجئهم بتصريح من أعجب واغرب التصريحات، التصريح الذي قل أن نجد مثيله، ولكنه كأي قائد أو زعيم كان لابد من إعلانه وتأكيده ألا وهو :" «إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَيَّ وَلاَ يُبْغِضُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَامْرَأَتَهُ وَأَوْلاَدَهُ وَإِخْوَتَهُ وَأَخَوَاتِهِ حَتَّى نَفْسَهُ أيضا فَلاَ يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ لِي تِلْمِيذاً.

(لو١٤: ٢٦)!. على أن المسيح وهو غيور بهذا المعنى، هو ذاته الصبور الوئيد الذي لا يتعجل أمر قبل أوانه. وليس أدل على ذلك من أمثاله المتعددة عن الملكوت. إذ أن هذا الملكوت سينمو :" ٢٦وَقَالَ: «هَكَذَا مَلَكُوتُ اللَّهِ: كَأَنَّ إِنْسَاناً يُلْقِي الْبِذَارَ عَلَى الأَرْضِ ٢٧وَيَنَامُ وَيَقُومُ لَيْلاً وَنَهَاراً وَالْبِذَارُ يَطْلُعُ وَيَنْمُو وَهُوَ لاَ يَعْلَمُ كَيْفَ ٢٨لأَنَّ الأَرْضَ مِنْ ذَاتِهَا تَأْتِي بِثَمَرٍ. أَوَّلاً نَبَاتاً ثُمَّ سُنْبُلاً ثُمَّ قَمْحاً مَلآنَ فِي السُّنْبُلِ. ٢٩وَأَمَّا مَتَى أَدْرَكَ الثَّمَرُ فَلِلْوَقْتِ يُرْسِلُ الْمِنْجَلَ لأَنَّ الْحَصَادَ قَدْ حَضَرَ». (مر٤: ٢٦- ٢٨).أو حبة الخردل التي: "٣١قَالَ لَهُمْ مَثَلاً آخَرَ: «يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ حَبَّةَ خَرْدَلٍ أَخَذَهَا إِنْسَانٌ وَزَرَعَهَا فِي حَقْلِهِ ٣٢وَهِيَ أَصْغَرُ جَمِيعِ الْبُزُورِ. وَلَكِنْ مَتَى نَمَتْ فَهِيَ أَكْبَرُ الْبُقُولِ وَتَصِيرُ شَجَرَةً حَتَّى إِنَّ طُيُورَ السَّمَاءِ تَأْتِي وَتَتَآوَى فِي أَغْصَانِهَا».

(مت: ١٣: ٣١و٣٢). أو " خميرة أخذتها امرأة وخبئها في ثلاثة أكيال دقيق حتى اختمر الجميع "(مت١٣: ٣٣). كما لا ننسى أن المسيح هو الراغب كل الرغبة في مجيء هذا الملكوت سلك في الوصول إليه طريق الصليب الطويل القاسي، دون أن يختزل من هذا الطريق شوطا أو حتى بضع خطوات!. حقا كان المسيح فريدا في غيرته وصبره معا، مما يحسن معه القول :"فتذكر تلاميذه انه مكتوب غيرة بيتك أكلتني" (يو٢: ١٧). "الرب يهدي قلوبكم إلى محبة الله وإلى صبر المسيح" (٢تس٣: ٥).

ثالثا :المسيح الإنسان ورسالته

كانت حياة المسيح الإنسان على الأرض، كما هو معلوم نيفا وثلاثة وثلاثين عاما، ولم يبدأ خدمته الجهارية إلا في الثلاثين ن عمره، ومن الطريف أن بيلاطس وهو يحاكم سيدنا ساله سؤالا صغيرا، كما يسال أي منهم: "ماذا فعلت؟". ولم يجب المسيح. ولكن التاريخ والأجيال والمدينة والحضارة والإنسانية أجابت جميعا على هذا السؤال. وها نحن سنلتقط ذات السؤال من بيلاطس لنوجهه إلى المسيح،لعلنا نقف لحظات على بعض ما صنع أو فعل في حياة الناس على هذه الأرض. وقد يكون من المناسب أن نربط بين السؤال وبعض الألقاب المعروفة من السيد، لتأتي صياغته في المعنى الدقيق المحدد فنقول:

١- ماذا فعلت أيها المعلم العظيم؟

وقد دعى المسيح "المعلم"، والمعلم الصالح"، ولا شبهة في أنه دمغ الأجيال بأعمق وأعظم التعاليم. ولقد اتسمت تعاليمه على الأقل بهذه السمات الواضحة:

أولا: إنها التعاليم الرائعة الساحرة والتي شهد لها الأعداء والأصدقاء على حد سواء، كيف لا وقد أرسل رؤساء الكهنة والكتبة ذات مرة جماعة من الخدم والأتباع للقبض على يسوع، فذهبوا ثم عادوا دون أن يقبضوا عليه وعندما سألوا :"لماذا لم تأتوا به أجاب الخدم لم يتكلم قط إنسان هكذا مثل هذا الإنسان "(يو٧: ٤٥و ٤٦). وأي "إنسان "من ملايين الكتاب والعلماء والفلاسفة والخطباء والشعراء والأدباء يمكن أن يداني المسيح بل يرتقي إلى موطئ قدميه في سحر وروعة تعاليمه؟ من ذا الذي يترد في القول مع تشارلس لام عندما صاح :"لو دخل شكسبير إلى هذه الغرفة لانحنيت أمامه، ولو جاء المسيح لركعت عند قدميه".أو من ذا الذي لا يهتف مع بطرس عندما قال للسيد: "إلى من نذهب وكلام الحياة الأبدية عندك" (يو٦: ٦٨)؟

ثانيا: هي التعاليم الواضحة الثابتة. إذ غير المسيح عندما يسال يجيب بالقول: أظن أو أتصور أو أرجح أو افتكر أو ما أشبه من ألفاظ أو مترادفات، لكن المسيح وحده هو الذي يقول:"الحق الحق أقول لكم" "سمعتم انه قيل..أما أنا فأقول ".اجل وهو الوحيد الذي يصح فيه قول السامرية :"أنا اعلم أن مسيا الذي يقال له المسيح يأتي، فمتى جاء ذلك يخبرنا بكل شيء" (يو٤:

٢٥)، في ضجعة الموت صاح جوتة شاعر الألمان :"افتحوا النوافذ، أريد نورا! نورا أكثر".. ولعل هذه صيحة جميع العلماء والمفكرين في كل جيل وعصر. أما المسيح فهو وحده "نور العالم " وهو "الطريق والحق والحياة ".. عندما سار السائح في الطريق وأحاطت به الظلمة من كل جانب سال الدليل المرافق له:أين الطريق؟ وأجابه الدليل مترفق :لا تخف سر ورائي فقط، وإذ أراد أن يطمئنه أكثر قال له :أنا هو الطريق. وقل المسيح كانت البشرية أشبه بهذا السائح تتحسس طريقها في الظلام، ولم يستطيع مخلوق على الإطلاق أن يبين لها معالم الطريق أو يكشف لها الغاز الحية. الم يقل صولون الحكيم :"أن قصد الآلهة مكتوم عن البشر". وألم يصح سقراط "أن كل معرفة صحيحة عن الآلهة لا يمكن معرفتها بدون الآلهة ذاتها". وألم يصرخ شيشرون "أن كل الاشياء محاطة بظلمة دامسة، ولا تقدر قوة عقلية أن تكتشفها"! وسار الحال على هذا المنوال حتى جاء المسيح وأنار الحياة والخلود بواسطة الإنجيل.. وأخيرا هي التعاليم الشاملة الكاملة، إذ علم المسيح الإنسان ما لم يعلم، واوجد له علاجا لكافة ماسيه ومشاكله!. ومد يده فامسك بالطفولة وأقامها في الوسط، ورفد مركز المرأة وجعلها على قدم المساواة مع الرجل، وأقام دعائم المجتمع على المحبة والحرية والمساواة والآخاء! وكل المبادئ التي خرجت على تعاليمه أو تخرج لا مصير لها إلا السقوط والانهيار. حاول ميكافيلي أن يبني العالم على أساس من النفاق والغش والكذب والفساد والظلم والاستبداد فلم تصح هذه جميعا وسقطت الميكافيلية ونمها إلى الأبد! وجاء كارل ماركس مبتدعا تعاليمه ونظرياته الشيوعية بزعم إراحة العالم وإسعاد الطبقة الكادحة فيه، ولكن العالم يواجه اليوم اقسي ماسيه وآلامه من الشيوعية نفسها!. ولا سبيل على الإطلاق لراحة البشرية ورفاهيتهم وسعادتهم وأمنهم وتقدمهم إلا في إنجيل المسيح وتعاليمه المثلى، وأحكامه ومبادئه العظيمة.

٢- ماذا فعلت أيها الأخ الحبيب؟

ولم يكن المسيح المعلم العظيم فحسب، بل هو الأخ المحب الودود الكريم المشفق!. وقد قيل عنه: "فلهذا السبب لا يستحي أن يدعوهم إخوة، قائلا اخبر باسمك إخوتي" (عب٢: ١١و ١٢). وقال هو عن نفسه: "بما إنكم فعلتموه بهؤلاء الصاغر فبي قد فعلتم" (مت٢٥: ٤٠).فإذا أضيف إلى هذا انه دعي "ابن الإنسان" وان هذا اللقب ورد أكثر من ثمانين مرة في العهد الجديد وقد جاء على الدوام على لسان السيد إلا في مرتين، إذ هو اللفظ الوديع المحبب إلى قلبه ونفسه. ومن الدراسة المتأبية يتضح أن اللقب يشير على الأقل إلى أمرين، فكلمة "ابن" تعني التنازل والإخلاء والخضوع والتواضع، أي أن المسيح اخلي نفسه ليكون "ابن الإنسان" وفي خدمة "الإنسان" وطاعته والخضوع لمقتضيات طبيعته، فهو ابن الإنسان أي ليس عضوا غريبا عنه، وفي عروقه يجري دم الإنسان وقد ارتبط المسيح بهذا التجسد، فكل ما يصل إلى المسيح تصل إليه الإنسانية أيضا. أو في لغة أخرى انه ممثل الإنسانية وفيه تتركز أشواقها وأمانيها وآلامها وانتصاراتها، بل تنتهي عند المحلية والجنسية والثقافية والوطن والدم، إذ هو النموذج الذي تمسى نظم الحضارة والعصور لا شيء أمامه. والمعنى الأخر لذات اللقب "الملك". فكابن الإنسان هو أيضا الملك، إذ يرتبط اللفظ بملكوت المسيح وسلطانه، والتاريخ اليهودي يعرف ذلك ويؤكده استنادا إلى نبوه دانيال: "١٣[كُنْتُ أَرَى فِي رُؤَى اللَّيْلِ وَإِذَا مَعَ سُحُبِ السَّمَاءِ مِثْلُ ابْنِ إِنْسَانٍ أَتَى وَجَاءَ إِلَى الْقَدِيمِ الأَيَّامِ فَقَرَّبُوهُ قُدَّامَهُ. ١٤فَأُعْطِيَ سُلْطَاناً وَمَجْداً وَمَلَكُوتاً لِتَتَعَبَّدَ لَهُ كُلُّ الشُّعُوبِ وَالأُمَمِ وَالأَلْسِنَةِ. سُلْطَانُهُ سُلْطَانٌ أَبَدِيٌّ مَا لَنْ يَزُولَ وَمَلَكُوتُهُ مَا لاَ يَنْقَرِضُ. (دا٧: ١٣و ١٤). وخلاصة القول أن ابن الإنسان تفيد إخوة المسيح للناس في بؤسهم ومجدهم!. ولعل هذا يتضح من مجمل رسالته التي تحدث بها في مطلع خدمته الجهارية إلى أهل الناصرة في القول: "١٨«رُوحُ الرَّبِّ عَلَيَّ لأَنَّهُ مَسَحَنِي لأُبَشِّرَ الْمَسَاكِينَ أَرْسَلَنِي لأَشْفِيَ الْمُنْكَسِرِي الْقُلُوبِ لأُنَادِيَ لِلْمَأْسُورِينَ بِالإِطْلاَقِ وَلِلْعُمْيِ بِالْبَصَرِ وَأُرْسِلَ الْمُنْسَحِقِينَ فِي الْحُرِّيَّةِ

(لو٤: ١٨). ومن الرسالة يتبين على الأقل أولا: أن المسيح هو الأخ الأكبر للفقراء والمساكين "الأبشر المساكين". وهل كان المسيح بعيدا في يوم ما عن هؤلاء الفقراء والمساكين!؟الم يأتي هو إلى أرضنا وقد حف به الفقر من كل جانب، وحق لكامبل مورجان أن يقول في حياته انقسمت على الأرض إلى ثلاثة فصول، الفصل الأول :"لم يكن لهما موضع في المنزل" (لو٢: ٧) والفصل الثاني: "للثعالب اوجرة، ولطيور السماء أوكار، أما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه" (مت٨ :٢٠). والفصل الثالث "فاخذ يوسف الجسد ولفه بكتان نقي ووضعه في قبر جديد" (مت٢٧: ٥٩ و ٦٠). فإذا كانت هي حياة المسيح من المهد إلى اللحد، فلا عجب أن يندمج في الفقراء ويندمجوا فيه، فيعتبر اضطهادهم اضطهاده، والإحسان إليهم إحسان إليه. ولا عجب أن يصوره وينر بانير الشاعر الغربي في احد قصائده، وقد وقف بين مجموع كادح من الفقراء، ممن عذبهم وأذلهم احد الأغنياء في ضيعة من احد ضيعاته الواسعة وقد بدا في الصورة مكللا بإكليل الشوك، وكان الغني في ذلك الوقت في ضجعة الموت، وهاله أن يسمع صوت المسيح منبعثا فيهم، وعنهم قائلا: "ها أنت ذاهب فلماذا فعلت بنا هكذا!؟" وعندئذ يصرخ الغني صرخة اليأس والقنوط وهو يقول: "أيها السيد المسيح. لقد ظننتك وحيدا ولم اعلم انك تمر بي فيهم". لا عجب أن يقول أيضا احد التقاليد القديمة أن مرثا إذ سمعت أن المسيح آت إلي بيتها، أخذت تعد لضيافته وكانت مرتبكة ومنهمكة جدا، وإذ بطارق يطرق الباب فذهبت لترى متسولا يكاد يموت جوعا فتضايقت وقالت له: "اذهب فانا مشغولة ألان في استقبال المسيح"! وأغلقت الباب في وجهه وعادت إلى عملها. ولم تلبث بعد قليل إن سمعت قرعات أخرى على الباب فذهبت لترى صبيا صغيرا مريضا متألما ينظر إحسانا فقالت له: "اذهب أيها الصبي وتعالى مرة أخرى".وهمت أن تغلق الباب في ضيق كما فعلت المرة الأولى، ولكن شيئا ما جعلها تنظر مرة أخرى إلى وجه الصبي، وإذ هي ترى لفرط دهشتها ملامح وجه المسيح مطبوعة على وجهه! وإذ صح إن هذه قصة موضوعة فلا شك إنها تعبر عن قول المسيح الدائم: "بما إنكم فعلتم بأحد هؤلاء الاصاغر فبي قد فعلتم".

وثانيا: المسيح الأخ الأكبر للمحزونين والبؤساء:"اشفي منكسري القلوب". وأيا كان سبب هذا الانكسار فلا يمكن أن يمر المسيح بالمتألمين دون أن يشاركهم ألامهم وتعاستهم، ودون أن يقف في الطريق بينهم وبين هذه الآلام والتعاسات، فيشفي المريض ويعزي المحزون، ويشجع التائب، وينهض البائس، ويقيم الميت، ويمسح الدموع، أو بالجملة دون أن يقضي على منابع الآلام والإحزان ومصادرها أينما وجدت أو كانت عند الناس.

وثالثا: المسيح هو الأخ الأكبر للمأسورين والمذلين: "للمأسورين بالإطلاق" وهل من شك في أن المسيح هو المحطم للأغلال والقيود على مختلف إشكالها وأنواعها!؟ إذ فيه "ليس يهودي ولا يوناني ليس عبد ولا حر، ليس ذكر ولا أنثى، لأنكم جميعا واحد في المسيح" (غلا٣: ٢٨).كما انه هو المحطم للشر والخطية والإثم والفساد، وإلا فمن استطاع غيره أن يحول من الفاسق قديسا، ومن العشار باذلا، ومن الغضوب حليما، ومن الشر الذاتي جوادا كريما!

وأخيرا المسيح الأخ الأكبر للعميان والجهلة: "وللعمي بالبصر" وإذا كان المسيح قد وهب البصر للكثيرين فانه ما يزال في كل جيل وعصر يهب البصيرة لإعداد لا تحصى أو تنتهي من الناس. فهذا الأخ العظيم هو الذي يكشف عن عيوننا ولنعرف من نحن!؟ ولماذا نعيش!؟ وما رسالتنا على الأرض؟ وما مصيرنا أو حياتنا الأبدية؟

٣- ماذا فعلت أيها المخلص الوحيد؟

والمسيح أكثر من معلم وأخ، هو مخلص وحيد كريم، هذا لقبه الأشهر، بل رسالته التي جاء من اجلها إلى الأرض!. وان كانت الأرض قد عرفت الكثيرين من المعلمين أو الأخوة على مختلف العصور والأجيال، فإنها لا تعرف سوى مخلص واحد بذل نفسه فدية من اجل الجميع، وفي اليوم الأول من مجيئه إلى الأرض هتف الملاك للرعاة: "ولد لكم اليوم في مدينة داود مخلص هو المسيح الرب "(لو٢ :١١). وفي مطلع خدمته الجهارية قال المعمدان: "هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم" (يو٢: ٢٩). وعندما التقى مع نيقوديموس صرح بأعظم تصريح سمعته الأذن البشرية: "لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية" (يو٣: ١٦)، ولا شبهة في إن الغرض الأساسي من رسالة المسيح، كما يقول بسكال الفيلسوف هو إثبات هذين الشيئين: فساد الطبيعة البشرية، وفداء يسوع المسيح!. إذ ترجى الحديث عن المسيح كمخلص إلى موضع أخر من هذا الكتاب يكفي أن نشير هنا إلى انه : "ليس بأحد غيره الخلاص، لان ليس اسم أخر تحت السماء قد أعطي بين الناس به ينبغي أن نخلص "(اع٤: ١٢)، "صادقة هي الكلمة ومستحقة كل قبول إن المسيح يسوع جاء إلى العالم ليخلص الخطاة الذين أولهم أنا" (١تي١: ١٥).

٤ـ ماذا فعلت أيها الملك الظافر؟

وإلى جانب هذا كله فان المسيح هو الملك الظافر، إذ لا يمكن أن نفهم أو نحد رسالته على الأرض ما لم نفهم مركزه الملكي بكل وضوح. إذ لا معنى لمركزه كمعلم وأخ ومخلص ما لم تكن هذه كلها لتعد لمركزه "كملك". ومن ثم كان التلازم المذكور والمشار إليه آنفا، بين لقب الإنسان ومركز "المسيح كملك". ومن الواضح إن المسيح لم يتخل بتاتا عن تأكيده هذه الحقيقة في كل مراحل خدمته الجهارية؟الم يقبل صيحة نثنائيل في أول هذه الخدمة وهو يقول: "أنت ملك إسرائيل" (يو١: ٤٩)؟ بل الم يناد هو في كل خدمته بالقول :"قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وامنوا بالإنجيل" (مر١: ١٥). وعندما قال له بيلاطس في المحاكمة :"أفانت إذا ملك؟" أحاب : "أنت تقول إني ملك، لهذا قد ولدت أنا،ولهذا قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق" (يو١٨: ٣٧). وأكثر من هذا رأى في الصليب عرشا ومجدا عندما قال: "وأنا إن ارتفعت عن الأرض اجذب الـيّ الجميع" (يو١٢ :٣٢).

وفي رواية حديثة جميلة عن محاكمة المسيح، وفي احد فصولها الأخيرة تظهر زوجة بيلاطس واقفة في دار الولاية بعد إن انفضت الجماهير، وترك بيلاطس المكان ولم يبق غيرها وقد أخذت تحدق في الفضاء البعيد، حيث يلوح لها في غبشة الظلام منظر ثلاثة صلبان على هضبة الجلجثة خارج المدينة، وعلى الصليب الأوسط المسيح، بينما هي غارقة في تأملها الحزين جاء لونجيفيوس احد الجنود الذين اشتركوا في صلبه: "الم يمت بعد؟" فأجابها: "كلا يا سيدتي انه لم يمت بعد" قالت: "لقد انقضى وقت/ ولابد انه مات". فأجابها: "كلا انه لم يمت، وقد انطلق حقه في العالم ولا يستطيع يهوديا أو روماني أن يوقفه على الإطلاق". اجل وهذا حق!. الم يقل جوليان الإمبراطور وهو يرى انتشار مجده ونفوذه في الأرض: "لقد غلبت أيها الجليلي".

وألان وقد انتهينا من دراسة الجوانب الثلاثة في حياة المسيح الإنسان، لم يبقى إلا أن نقول كلمة، ونوجه سؤلا. أما الكلمة فهي كلمة ثيودور ادمز عندما وصف المسيح بالقول :"انه جاء إلى اليوم كروح حي، مثلما جاء كشخصية تاريخية من ألف وتسعمائة عام،وإعطاني هذا اليقين، إني إذ قبلته كمخلص ومرشد فانه سيخلصني من أخطائي وخطاياي، ويساعدني لاحيا كما يريدني الله أن أحيا، وهو يعطيني مثلا اعلي في الحياة، ويساعدني على محاولة الوصول إلى هذا المثل، وهو يؤكد لي

الغفران عندما اسقط، ويساعدني لأحاول مرة أخرى أن افعل أحسن، وتعاليمه تعطيني الإرشاد والحق والمثل العليا في عالم الخوف والشك وفي وسط مقاييس وطرق الحياة المتغيرة، وهو الحقيقة الروحية الماثلة في حياتي اليومية. ومن ثم فهناك روح وغرض في هذه الحياة كان من العسير أن يوجد بدونه. وهو يساعدني في اختياراتي، لا اعرف الفرق بين الصواب والخطأ، ولاختار أفضل ما تقدمه الحياة، ويعطيني الشجاعة والأمل في ساعة الحياة المجربة وفي مواجهة مشاكل عصري، كما يعطيني فرح دعوة الآخرين له، ولسعادة الحياة المسيحية!. انه يدعوني لأعمل معه في ملكوته، ولا يجعلني أستريح لأي شيء حولي في الحياة مما لا يتفق مع مبادئه وروحه، وهو يقودني إلى شركة مع الآخرين تتخطى حواجز الجنس والعقيدة أو الزمان والمكان، ويعطيني في كنيسته مكانا للعبادة والتدريب والخدمة والشركة. ومع كل قصوري يؤكد لي انه يمكن أن أكون نافعا لخدمته، وخدمة الرسل التي دعا أتباعه ليقوموا بها في العالم، وهو يساعدني يوما ما لاحيا في المحبة والثقة والسلام الداخلي، وهو يؤكد لي حياة أبدية خلف القبر ويدعوني لأعيش الأبدية من ألان!".

أما السؤال فقد ذكره أخر. عندما تسال عمن يكون المسيح بالنسبة لك فقال: " لقد رآه الجند الذين صلبوه مجرما فعاملوه بقسوة، ورأته النساء اللواتي سرن ورائه يبكين عليه محسنا فحزن عليه، وراءه اللص الشرير مذنبا فجدف عليه، ورآه أخر ملكا فانحنى له، وراءه قائد المائة ذا طبيعة إلهية فاقتنع به، فماذا ترى أنت بعد ذلك فيه!".

الفصل السابع: إيماني بالروح القدس

لا أعلم إن هناك صيحة ينبغي أن تدوي وترتفع في هذا الجيل والعصر، أكثر من صيحة الإيمان بالروح القدس.. بل لا اعلم أن هناك صيحة ينبغي أن تردد في جنبات الكنيسة والحياة المسيحية، بل ما يمكن أن تكون عليه الصيحة من قوة وعمق ورنين وجلال، كمثل هذه الصيحة الشادية التي يندر أن تسمع الأذن البشرية ما وأحلى منها وأجمل وارق. كيف لا، وكل ما قي المجموع البشري يصرخ ويحتاج إلى الروح القدس أكثر من حاجته إلى الشمس أو النور أو الهواء أو الماء أو ما أشبه من أمس الضرورات على هذه الأرض!! فالإنسان كفرد لا يمكنه أن يخطو إلى الله ويتعرف عليه ويتصل به ويبثه أشواقه وأحلامه وأمانيه، من غير الولادة من الروح القدس في تحريك حياته ومشاعره وأفكاره وعواطفه وميوله واتجاهاته، أو ما يمكن أن يحدده ويميزه كفرد وكانسان.. كما إن الحركات الدينية لم تحدث في كل التاريخ إلا من أناس امتلئوا من روح الله وأطاعوا رسالته، فصنع منهم أعظم من عرفت الأجيال والعصور من القادة والزعماء والأبطال والمصلحي.. فهنري ورد بيتشر لم يتغير تاريخه بأكمله ويصبح من المع الوعاظ والمع الكارزين، إلا بعد أن درس عمل الروح القدس في سفر الأعمال، وسار على هذا النهج خير مسير، كما إن مودي كان يصر على الدوام على أن يتبع في الخدمة ذات الأسلوب نفسه الذي كان يسير عليه التلاميذ والرسل بعد امتلائهم بالروح القدس يوم الخمسين!! والواعظ الأشهر المعاصر بللي جراهام الذي يعدونه من أعظم وعاظ التاريخ الحديث. يؤكد انه لم يكسب الألوف من الناس والجماهير الذي جاء بها إلى المسيح، إلا بالعمل العجيب لروح الله، استجابة لصلاته وصلاة المئات من مساعديه ومعاونيه، في أعظم حملة تبشيرية للمسيح في القرن العشرين!!..

وليس هناك من شبهة أو شك في إن العالم يحتاج إلى روح الله بذات الصورة التي وصفها جون تيموثي ستون عندما قال: "لقد أبصر أمامي دينامو كلي القدرة، لا يستطيع الإنسان مهما أمعن في الخيال تصور مدى قوته وقدرته، لقد رايته على يميني يمتد إلى مساحات شاسعة لانهاية لها، ورأيت في يساري في الوقت ذاته عشرات الألوف من مدن وقرى بل بني البشر في العالم.. وهذا العالم الواسع يحتاج إلى القوة المحركة واستخدام الطاقة والنور والدفء والحرارة لإدارة المصانع والدكاكين والمخازن والمنازل والمباني الواسعة والغرف الصغيرة والمدارس الكبيرة والمنازل المتضعة وجميع أنواع واحتياجات الناس في كافة المجتمعات والأعمال ووسائل النقل والأمور البينية الفردية. وهذا الدينامو العجيب يمكنه أن يخدم ويلبي جميع الطلبات المتعددة لكافة الاحتياجات، وضروب النشاط المختلفة لهذا الحشد المسكوني الواسع، ويحرك ويدير جميع العجلات.. ومن هذه المؤسسات القائمة على يساري يخرج سلك لابد من توصيله للدينامو ذي القوة الإلهية الهائلة، وليس من سبيل إلى ذلك إلا بتدخل الإنسان نفسه.. والمسيح يسوع ابن الله قد جعل من الممكن الانتفاع بهذه القوة اللانهائية للدينامو وضبطها والربط بينها وبين الحاجة البشرية في شخصه، إذ قدم لنا روحه فأمكن أن تصبح القوة الإلهية في متناول البشر "حسب القوة التي تعمل فينا ".. فإذا أتيح لنا أدراك هذا كله، كان لابد لنا من دراسة الروح القدس على الأقل من الجوانب الأربعة التالية:

الروح القدس وشخصيته

والروح القدس هو ذات الله وشخصه، والتاريخ الكنسي يؤكد إن اعتقاد الكنيسة في لاهوت الروح لم يتزعزع قط على الإطلاق، وان كانت قد وجدت تلك الفئة الضئيلة التي زعمت مع اريوس انه دون الله، أو ماكيدونيوس سنة ٣٦١م والقائل بان قوة الله وليس شخص الله ذاته.. أو تلك التي لم تنكر لاهوته. وان كانت قد أنكرت اقنوميته في ذات الله، كسباليوس واشياعه واذنابه من الموحدين ممن ينكرون فكرة وعقيدة الثالوث عند المسيحيين!! ولكن الرأي الثابت والدائم في الكنيسة المسيحية على مختلف العصور، هو إن الروح القدس هو ذات الله، وهو الاقنوم الثالث في شخص اللاهوت العظيم!!..

ولعل مرجع الصعوبة في فهم الروح كشخص وكاقنوم قائم في ذات التعبير أو اللفظ "الروح" إذ ليس من السهل على المرء أن يتصور شخص هذا "الروح " كما يتصور شخص الأب وشخص الابن..

فالإنسان يمكنه مثلا أن يتبع بالخيال أو الفكر شخص الله الأب الصانع أو الخالق العظيم أو المعتني أو الحارس أو الضامن أو الضابط الكون، كما يمكنه أن يتبع شخص المسيح ابن الله الحي، والمتنازل والأتي إلى أرضنا والسائر معنا، والمتمشي في رحاب الحياة وضيقتها من اجلنا، والصديق الذي ولد وعاش ومات وقام من اجلنا ومن اجل حياتنا وخلاصنا. أما الروح فلعل من الصعب تصوره بذات السهولة واليسر، سواء في شخصه أو في أعماله، ومن ثم جنح الخيال القاصر الأحمق لهذه القلة المتباعدة المتناثرة في التاريخ إلى تصور انه اله من دون الله، أو قوة من قوى الله، أو صفة قائمة في شخص الله، أو ما أشبه، مما لا يمكن أن يصمد أو يتبين عند اقل درس كتاب أو تأمل فكري أو محاجة منطقية..

وواضح أن الروح، ذات الله، ومن مختلف الأسماء التي أطلقت عليه، ونطق في العادة على شخص الله كالقول "الروح" أو "الروح القدس" أو "روح المسيح" أو "روح الله" أو "روح الرب" أو ما أشبه من ألفاظ أو أسماء اختص بها ذات الله وشخصه في العهدين القديم والجديد.

وقد نسب إلى الروح ما قد ينسب إلى ذات الله، كالقول انه المتكلم أو الناطق: "حسنا كلم الروح القدس أباءنا اشعياء النبي" (أع ٢٨: ٢٥). أو الساكن والمستقر في المؤمن "أما تعلمون إنكم هيكل الله وروح الله يسكن فيكم" (١كو ٣: ١٦)، أو المجرب من الأشرار والخطاة "لماذا ملا الشيطان قلبك لتكذب على الروح القدس" (أع ٥: ٣)، كما وصفه بذات الصفات الإلهية القاصرة على شخص الله، كالأزلية في القول: "فكم بالحري دم المسيح الذي بروح أزلي قدم نفسه لله" (عب ٩: ١٤)، والعلم بالسرائر والخفيات إذ قيل: "فأعلنه لنا الله بروحه،لان الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله" (١كو ٢: ١٠)، والقدرة على كل شئ: "لا بالقدرة ولا بالقوة بل بروحي قال رب الجنود" (زك ٤: ٦)، كما نسب إليه ذات الأعمال التي لا يمكن أن يعملها سوى الله وحده، إذ قيل عنه كالخالق:" مَا أَعْظَمَ أَعْمَالَكَ يَا رَبُّ! كُلَّهَا بِحِكْمَةٍ صَنَعْتَ. مَلآنَةٌ الأَرْضُ مِنْ غِنَاكَ. ٢٥هذَا الْبَحْرُ الْكَبِيرُ الْوَاسِعُ الأَطْرَافِ. هُنَاكَ دَبَّابَاتٌ بِلاَ عَدَدٍ. صِغَارُ حَيَوَانٍ مَعَ كِبَارٍ.. ٣٠تُرْسِلُ رُوحَكَ فَتُخْلَقُ. وَتُجَدِّدُ وَجْهَ الأَرْضِ" (مز ١٠٤: ٢٤- ٣٠)، "روح الرب صنعني ونسمة القدير أحيتني" (اي٣٣ :٤).. وكالملهم الموحي : "حل عليّ روح الرب وقال لي قل : "هكذا قال الرب" (حز١١ :٥). باحثين إي وقت أو ما الوقت الذي كان يدل عليه روح المسيح" (١بط ١: ١١) " لأنه لم تأت نبوة قط بمشيئة إنسان، بل تكلم أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس (٢بط ٢: ٢١) وكالقادر على الإقامة من الأموات: "١١وَإِنْ كَانَ رُوحُ الَّذِي أَقَامَ يَسُوعَ مِنَ الأَمْوَاتِ سَاكِنًا فِيكُمْ فَالَّذِي أَقَامَ الْمَسِيحَ مِنَ الأَمْوَاتِ سَيُحْيِي أَجْسَادَكُمُ الْمَائِتَةَ أيضا بِرُوحِهِ السَّاكِنِ فِيكُمْ." (رو٨ :١١).. وكما انه كان يعطي من الكرامة والمجد ما هو جدير بشخص الله كالآب

والابن سواء بسواء. إذ قيل :"فكم عقابا اشر تظنون انه يحسب مستحقا من داس ابن الله، وحسب دم العهد الذي قدس به دنسا، وازدرى بروح النعمة (عب ١٠: ٢٩).

اما اقنومية الروح فليست اقل ظهورا ووضوحا، إذ وردت في الصيغة الخاصة بالمعمودية والقائلة :"فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس "(مت٢٨ :١٩)، وصيغة البركة الرسولية :"نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله الأب وشركة الروح القدس مع جميعكم. أمين "(٢كو١٣: ١٤)، كما وردت أيضا في قول المسيح عن المعزي الآخر :"وأنا اطلب من الأب فيعطيكم معزيا أخر ليمكث معكم إلى الأبد" (يو١٤: ١٦).وفي الحديث الخاص عن التجديف على الروح القدس فلن يغفر للناس. ٣١لِذلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: كُلُّ خَطِيَّةٍ وَتَجْدِيفٍ يُغْفَرُ لِلنَّاسِ وَأَمَّا التَّجْدِيفُ عَلَى الرُّوحِ فَلَنْ يُغْفَرَ لِلنَّاسِ. ٣٢وَمَنْ قَالَ كَلِمَةً عَلَى ابْنِ الإِنْسَانِ يُغْفَرُ لَهُ وَأَمَّا مَنْ قَالَ عَلَى الرُّوحِ الْقُدُسِ فَلَنْ يُغْفَرَ لَهُ لاَ فِي هَذَا الْعَالَمِ وَلاَ فِي الآتِي. (مت١٢: ٣١و ٣٢).

وقصارى القول إن الروح القدس هو الله الأزلي الأبدي الدائم،وليس مجرد صفة أو قوة أو عمل أو تأثير الهي، بل هو الروح الذي يتلاقى مع أرواحنا، والشخص الذي يتعامل مع أشخاصنا، والسيد الذي يستحق كل الإجلال والسجود والتعبد والإكرام، شانه شان الأب أو الابن في الثالوث الأقدس العظيم، ومن ثم جاءت كل القوانين الكنسية لتقول: " وامن بالروح القدس". كما جاء في القانون الرسولي "نؤمن... وبالروح القدس"كما ذكر القانون النيقوي: "ونؤمن... بالروح القدس الرب المحيي".كما قال القانون النيتري القسطنيطيني :"أؤمن بالروح القدس الرب والمحيي " كما نص عليه القانون اللاتيني، وما تلاحق بعد ذلك من قوانين الشرق والغرب في التاريخ القديم أو الحديث على حد سواء.

١ـ الروح القدس وألقابه

ولعل من الشائق والرائع بعد إن أبصرنا هذا الروح في شخصيته وذاته، أن نتأمله في ألقابه وصفاته، وإذ كان من العسير علينا أن نلم بهذه الألقاب أو الصفات جميعا، فلا اقل من أن نذكر أظهرها وأشهرها على سبيل القياس أو المثال. وسنجد أخر الأمر إننا نعرفه معرفة أعمق وامجد واجل وأروع من خلال تعرفنا على هذه الصفات والألقاب العظيمة الرائعة!!.

الروح القدس وهل يمكن أن نبدى هذه الصفات دون أن نذكر اللقب الأشهر أو اللقب العام الذي يطوي ويضم جميع الألقاب؟! ونعني به "الروح القدس" أو "الروح القدوس" أو "قداسة " منسوبة إلى الروح ليس مجرد التسامي والتعالي والانعزال والتفرد والكمال الإلهي المطلق فحسب، بل المقصود منها أيضا إلى جانب ذلك علاقة الروح القدس بالناس والتاريخ البشري، إذ أن هذا الروح القدس الطاهر لا يمكن أن يقر الخطية أو يهادن الشر أو يسكت عن الإثم أو يحتمل المجون أو العربدة أو الفساد أو الإباحة أو ما أشبه مما ينضح أو يضج به التاريخ البشري ليس أدل على ذلك من إننا نراه من مطلع هذا التاريخ ينازع أو يدين في الإنسان كما جاء في سفر التكوين: " فقال الرب لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد" (تك٦: ٣).أو في لغة أخرى أن هذا الروح لا يمكن أن يهدا أو يستريح ما لم يثر في النفس البشرية كل نوازع القلق والاضطراب والضيق والفزع والحزن والألم والندم على الخطية والإثم والفجور والمعصية، وفي الوقت عينه يعمل على الترحيب والسعي إلى كل ما هو طاهر ومقدس وعادل ونبيل وكريم وعظيم!!.. ولا يمكن أن نغفل من ذلك انه هو المصفي والمطهر والمقدس والمكمل لجميع أبناء الله القديسين والمؤمنين في مختلف العصور والأجيال.

٢- الروح المعزي

وقد جاء هذا في قول المسيح :"وأما المعزي الروح القدس الذي يرسله الأب باسمي "(يو١٤ :٢٦) وقد وردت هذه الكلمة "المعزي "وفي اليونانية "بركليتس" Paraklettos خمس مرات في العهد الجديد،أربعة منها في إنجيل يوحنا (يو١٤: ١٦، ٢٦، ١٥:٢٦، ١٦: ٧) والخامسة في رسالة يوحنا الأولى (١يو٢ :١) والمترجمة "شفيع" والمعنى الحرفي الدقيق للكلمة :المحامي أو المدافع أو الذي يقف إلى جوارك للمحاجة والإقناع والدفاع، ولعل هذا هو العزاء الأكبر للنفس البشرية، إذ ستجد نفسك في مختلف الظروف وشتى الأحوال مسنودا ومعانا من هذا الروح، وكيف لا وقد شهد المسيح نفسه بان التلاميذ المضطهدين المأسورين والواقفين في قفص الاتهام لا يمكن أن يتركوا منه –إي من الروح –حتى ولو تركهم ونبذهم جميع الناس من الأهل والأصدقاء والمحبين والإخوة والأقرباء والعشيرة: "١٧وَلَكِنِ احْذَرُوا مِنَ النَّاسِ لأَنَّهُمْ سَيُسْلِمُونَكُمْ إِلَى مَجَالِسَ وَفِي مَجَامِعِهِمْ يَجْلِدُونَكُمْ. ١٨وَتُسَاقُونَ أمام وُلاَةٍ وَمُلُوكٍ مِنْ أَجْلِي شَهَادَةً لَهُمْ وَلِلأُمَمِ. ١٩فَمَتَى أَسْلَمُوكُمْ فَلاَ تَهْتَمُّوا كَيْفَ أَوْ بِمَا تَتَكَلَّمُونَ لأَنَّكُمْ تُعْطَوْنَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ مَا تَتَكَلَّمُونَ بِهِ ٢٠لأَنْ لَسْتُمْ أَنْتُمُ الْمُتَكَلِّمِينَ بَلْ رُوحُ أَبِيكُمُ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِيكُمْ. (مت١٠: ١٧ -٢٠). كما انه سيعين ويساعد الملايين من أبناء الله في مختلف الضيقات والآلام والإحزان والأوجاع بالتقوية والتشجيع والتذكير والإنهاض، وهو يستخدم في ذلك ما لا يعد أو يحصى من الوسائل والسبل سواء عن طريق الناس أو الحوادث أو الضمير أو الكتاب أو ما أشبه، وإذ كان هنري ورد بيتشر قد رأى وسيلة واحدة من وسائل هذا الروح في المزمور الثالث والعشرين، لذا أطلق عليه بلبل المزامير، عندما قال :"انه هدا إحزانا كثيرة أكثر من كل ما صنعته فلسفة هذا العالم، وأعاد إلى السجن أفكارا رديئة وشكوكا سوداء وأحزانا مسرفة أكثر من الرمال التي على الشاطئ، لقد عزى ذلك المجموع النبيل من الفقراء، وأعطى الشجاعة لجيش الفاشلين، أرسل بلسانا وسكينة إلى قلوب المرضى واسري السجون والأرامل في حزنهم القاسي، والأيتام في عزلتهم الشديدة، كما الجنود المحتضرين ماتوا بسكون وهم يستمعون إلى هذا المزمور، والمستشفيات العابسة قد أضيئت. لقد زار السجين وكسر سلاسله، وكان له كملاك بطرس وهو يقوده من ردائه ويغني له ويعود به إلى بيته انه يجعل المسيحي الأسير المحتضر حرا أكثر من سيده، ويعزي أولئك الذين تركهم الموت ليحزنوا على الأحباء، لا لأنهم ذهبوا ورحلوا، بل لأنهم هم أنفسهم لا يستطيعون الذهاب مثلهم في ذلك الوقت، ولم ينته عمل المزمور بعد، بل سيغني لأولادي وأولادهم كل الأجيال.. ولن يضم جناحيه حتى يصبح السائح الأخير أمنا، عندما ينتهي الزمان، عندئذ يطير راجعا إلى أحضان السماء،وتختلط موسيقاه بالحان وأنغام الفرح السماوي الأبدي" إذ كان هذا البلبل واحد فقط من بلابل روح الله، فما أعظم ما يصنع هذا الروح من موسيقى التعزية الخالدة في كل الأجيال... وهل يمكن أخر الأمر أن ننسى أن التعزية الكاملة تأتي من أن الروح هو المدافع والمحامي العظيم عن الإنجيل وحقائقه وبركاته وأثاره. كيف لا : "وليس احد يقدر أن يقول يسوع رب إلا بالروح القدس "(١كو١٢ :٣).. كما أن الروح هو المحامي العظيم عن الصليب الذي كشفه للبشر وأناره للأجيال القادمة واقنع به جمهور المخلصين في كل زمان ومكان، وغير هذا وذاك مما لا يتسع المجال لذكره أو عرضه، مما يكشف عن وضع الروح كالمحامي والمدافع والشفيع والوسيط والمعزي العظيم في الأرض.

٣- روح الحق

وقد وصف المسيح الروح المعزي بأنه روح الحق إذ قال: "١٦وَأَنَا أَطْلُبُ مِنَ الآبِ فَيُعْطِيكُمْ مُعَزِّياً آخَرَ لِيَمْكُثَ مَعَكُمْ إِلَى الأَبَدِ ١٧رُوحُ الْحَقِّ الَّذِي لاَ يَسْتَطِيعُ الْعَالَمُ أَنْ يَقْبَلَهُ لأَنَّهُ لاَ يَرَاهُ وَلاَ يَعْرِفُهُ وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَعْرِفُونَهُ لأَنَّهُ مَاكِثٌ مَعَكُمْ وَيَكُونُ فِيكُمْ. (يو١٤

:١٦و ١٧). والروح القدس هو روح الحق في أكثر من معنى، إذ هو جوهر الحق وأساسه، وهو المقنع والمسبع بـه،فليس حق بعيدا عن الله، ولذا دعي المسيح "الحق " وكل من يبحث عن الحق بعيدا عن الله إنما يبحث في الواقع عن روح الضلال والكذب.. وكل الفلسفات أو النظم أو الأفكار السياسية أو الاجتماعية أو المذهبية أو ما أشبه مما يبعد عن الله وسياسته ومجده لا يمكن أن يكون على حق، لان روح الله هو "روح الحق" بكل ما في كلمة الحق من معنى ومدلول!!..

على أن الروح لا يكتفي بالإعلان أو الكشف عن الحق، بل يعمل أكثر من ذلك على الإقناع بـه وقبولـه. إذ كل واحد منا أشبه بهرقل القديم الجالس على قارعة الطريق- في الأساطير اليونانية- تمر به الفتاتان الجميلتان وتقول الأولى: "إلا فاسمعني أيها الرجل العظيم واقبل مني المشورة فتسعد ولا تعرف في حياتك طعم المشقة والإجهاد والتعب والألم والضيق والماسي والدموع بل على النقيض، ستجرع أشهى الكؤوس وتتناول ما لذ وما طاب من الطعام المهنئ المرئ وتنام على الفراش الوثير من الدمقس والحرير..

وتستمتع إلى أروع وأبهج ما يمكن أن تسمعه الأذن البشرية من موسيقى وأنغام " وإذ لم يصدقها هرقل وسألها من أنت، أجابت : "أنا السعادة وان كان المبغضون يطلقون علي الاسم الأخر :"الرزيلة".. وعندئذ تقدمت الأخرى وقالت: "ليس من السهل أن أعدك بما وعدتك الأولى، فانا اعلم أن الطريق البشري متعب منكوب مؤلم، وليس من الحق أن أقول لك أن لا الم لك فيه، إنما أعدك أنا أسندك مؤازرة إياك في الطريق لتعيش نبيلا عظيما شجاعا خيرا مقداما، تصادمك الصعاب فتقهرها، وتتألب عليك الخطوب فتنتصر عليها، ولا يمكن أن نفعل هذا من غير الرضي الإلهي الذي يحوزه كل من امسك بي".وعندئذ سألها هرقل: "ومن تكونين إذا؟":

أجابت: "أنا الفضيلة".. وسار هرقل في الطريق مع الفضيلة ليكون البطل الذي تتحدث عنه الأساطير القديمة!!.. وما قصة هرقل في الواقع إلى قصة الصراع الدائم بين الحق والباطل، والنور والظلمة، في النفس البشرية، ولا يمكن للإنسان أن يفضل الحق ويتبع النور، إلا إذا عمل فيه روح الله، روح الحق، بالإقناع والفاعلية والتأثير!!.. على أن الروح القدس يفعل أكثر من ذلك أيضا، إذ لا يكفي بالإقناع لقبول الحق والتمشي في أثره، بل بالإشباع والبهجة بهذا الحق العظيم. عندما غزا هتلر باريس صاح : لقد غزوتك أيتها المدينة الجميلة بالقوة وسأغزوك بالمحبة أيضا ". ولكنه لم يكن يستطيع السيطرة عليها، سواء بهذا أو بتلك!. أما الروح فانه يأتي إلى النفس البشرية ليسيطر ويسود بالإشباع بمعنى الحق الذي هو يسوع المسيح، عندئذ لا يمكن إلا أن نهتف:"أحب الحق وكل الحق ولا شيء غير الحق".

٤ـ الروح المبكت:

والروح القدس هو الروح المبكت، أو كما قال سيدنا وهو يتحدث عنه: "٨وَمَتَى جَاءَ ذَاكَ يُبَكِّتُ الْعَالَمَ عَلَى خَطِيَّةٍ وَعَلَى بِرٍّ وَعَلَى دَيْنُونَةٍ. ٩أَمَّا عَلَى خَطِيَّةٍ فَلأَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ بِي. ١٠وَأَمَّا عَلَى بِرٍّ فَلأَنِّي ذَاهِبٌ إِلَى أَبِي وَلاَ تَرَوْنَنِي أيضا. ١١وَأَمَّا عَلَى دَيْنُونَةٍ فَلأَنَّ رَئِيسَ هَذَا الْعَالَمِ قَدْ دِينَ." (يو١٦: ٨-١١) أو في لغة أخرى أن هذا الروح هو المسيطر على الضمير البشري، والمحرك له والمشتكي والمحتج بواسطته على كل ما يمكن أن ينشا من الضعف أو الخلل أو القصور في العلاقة بين الله والإنسان.. ومن ثم فهو يبكت على الخطية، إذ يقنع العالم انه خاطئ، وأكثر من ذلك يوبخه على الخطية حتى يحزن عليها ويتركها، ومن الملاحظ أن العالم لا يستطيع أن يدرك بعيدا عن روح الله شر الخطية وخبثها وسمها وعموميتها، كما لا يستطيع أن يدرك في المعنى الخاص أن خطية الخطايا هي عدم الإيمان بالمسيح ورفضه!!..

والروح لا يبكت على الخطية فحسب بل يبكت أيضا على البر! إذ لا يكتفي بان يظهر للإنسان خطيته، بل يكشف خلوه من كل بر، وحاجته إلى بر المسيح الكامل والسيد في ذلك يقول: "وإما على بر فلأني ذاهب إلى أبي ولا ترونني أيضا "، وفي هذا نكشف بر المسيح الغائب بالجسد، ومن الخطأ أن يظن البعض أن المسيح لو كان على الأرض لأحبه الناس أكثر ومجدوه تمجيدا أعظم و أكمل من العلاقة التأملية الروحية، إذ أن اوغسطينوس لم يعرف محبته لصديقه العزيز وحبيبه الأثير إلا بعد أن مات هذا الصديق والحبيب، والإسرائيليون لم يمدوا موسى أو يدركوا شخصيته العظيمة الخالدة إلا بعد أن قضي بقبلة من الله، كما ألف أن التقليد اليهودي يقول!!. وهكذا نحن ندرك بر المسيح بتأملنا فيه واتصال أرواحنا بروحه، أكثر من الذين عاشروه ولازموه بالجسد!!.

وأكثر من هذا وذاك فان الروح يبكت على دينونة: "وإما على دينونة فلان رئيس هذا العالم قد دين، أي أن المسيح قد كشف الشيطان ودانه وهدم سلطانه وقوته، والروح القدس يبكتنا على الخوف منه، أي من الشيطان، والفزع من شره وأحابيله وقسوته وبطشه وأعماله، حتى لا تشل قوانا أو تجفل في الصراع معه، وحتى نعلم أن الذي معنا على الدوام اقوي من الذي علينا، وان المعركة في النهاية لابد أن تتوج لمجد الفادي والسيد والمخلص العظيم!!..

٥- روح المشورة:

وألوح بذلك هو الشريك لنا في كل الإحداث والحوادث في الحياة، وسعيد من يستمع إلى مشورته الحكيمة العظيمة الواعية، ليس في اكبر الأمور وابسطها فحسب، بل في أدقها وأصغرها أيضا. وقد وصف المسيح الممتلئ بالروح في النبوة بالقول: "ويحل عليه روح الحكمة والفهم روح المشورة والقوة روح المعرفة ومخافة الرب" (اف١: ١٧) وقد ارشد الروح الكنيسة الأولى في جميع الخطوات التي سارت فيها، ففي أنطاكيا :" ٢وَبَيْنَمَا هُمْ يَخْدِمُونَ الرَّبَّ وَيَصُومُونَ قَالَ الرُّوحُ الْقُدُسُ: «أَفْرِزُوا لِي بَرْنَابَا وَشَاوُلَ لِلْعَمَلِ الَّذِي دَعَوْتُهُمَا إِلَيْهِ». (اع١٣: ٢). وقد تم بهذا الإرشاد الإلهي أعظم خطوة دافعة للكنيسة المسيحية في العصر الأول بل في جميع العصور المسيحية التالية في التاريخ المسيحي، إذ دعي بولس للعمل العظيم الخالد الذي قام به في خدمة كنيسة الرب يسوع المسيح على هذه الأرض!!. كما أن هذا الإرشاد كان له أعمق الآثار وأبعدها في تاريخ المسيحية والحضارة في أوربا،إذ منع الروح بولس من الانطلاق تجاه أسيا الصغرى ليأخذ طريقه إلى أوربا، بعد أن ظهر له في الليل في تلك الرؤيا الخالدة ذلك الرجل المكدوني القائل :"اعبر ألينا وأعنا " وعبر بولس إلى مقدونية ليضع قدم الفادي في الأرض الأوربية العظيمة، وليسجل أعظم سجل عرفه التاريخ للمدينة والحضارة بهذه الخطوة العظيمة المجيدة الرائعة.. حقا أن الروح يرشد ويقود كالأب الحكيم الناصح أبناءه المحبين الطائعين.

٦- روح الشفاعة:

إذ ورد عنه في زكريا: "وأفيض على بيت داود وعلى سكان أورشليم روح النعمة والتضرعات (زك١٢ :١٠) وجاء في رومية: " وَكَذلِكَ الرُّوحُ أيضا يُعِينُ ضَعَفَاتِنَا لأَنَّنَا لَسْنَا نَعْلَمُ مَا نُصَلِّي لأَجْلِهِ كَمَا يَنْبَغِي. وَلكِنَّ الرُّوحَ نَفْسَهُ يَشْفَعُ فِينَا بِأَنَّاتٍ لاَ يُنْطَقُ بِهَا. (رو٨ :٢٦). ومن هنا نعلم أن الروح القدس هو الذي يصلي فينا ويتضرع ويتشوق ويئن ويشفع، وهذه حقائق رائعة مثيرة، يكاد الكثيرون من المؤمنين لا يعلمون أو يدرون عنها شيئا لقصورهم عن الصفات والألقاب الواسعة العظيمة عن هذا الروح.. أن روح الله يعلم ضعف الإنسان تماما في الصلاة، إذ أن هذا الإنسان لا يمكن أن يصبر على الصلاة دون كلل أو ملل أو إعياء، كما لا يمكنه أن يصلي على الدوام دمن تحرر من الزلل والضعف والنقص والخطأ والتراجع، ولو

تركه الله لذاته لتخبط دون توفيق أو نجاح أو ارتقاء أو تقدم، وهنا يتدخل روح الله إذ يعين ضعف لأننا لسنا نعلم ما نصلي لأجله كما ينبغي وهنا يجتهد الروح في إصلاح أحوالنا وسبيلنا، فيثير فينا بالأنات الصامتة التي لا ينطق بها الشعور بالقلق والندم والألم والغيرة والتأثر والحزن، كما يوحي ألينا في أعماق السيرة بما ينبغي إن نكون عليه أو نرجوه أو نطلبه، وهكذا يوجهنا على الدوام تجاه الكمال و الله، وما أكثر ما يشفع فينا الروح ونحن لا ندري!!..

٧- روح الإلهام:

وإذا كان هذا الروح هو روح الوحي والإعلان للأنبياء والرسل وكتبة الوحي: "٢١لأَنَّهُ لَمْ تَأْتِ نُبُوَّةٌ قَطُّ بِمَشِيئَةِ إِنْسَانٍ، بَلْ تَكَلَّمَ أُنَاسُ اللَّهِ الْقِدِّيسُونَ مَسُوقِينَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ. (٢بط١ :٢١). "١٦كُلُّ الْكِتَابِ هُوَ مُوحىً بِهِ مِنَ اللهِ، وَنَافِعٌ لِلتَّعْلِيمِ وَالتَّوْبِيخِ، لِلتَّقْوِيمِ وَالتَّأْدِيبِ الَّذِي فِي الْبِرِّ، ١٧لِكَيْ يَكُونَ إِنْسَانُ اللهِ كَامِلاً، مُتَأَهِّباً لِكُلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ. (٢تي٣ :١٦). فانه روح الإلهام والإبداع للفنان العظيم والكاتب المبدع.. عندما سئل الموسيقار هايدن عن سر ما في موسيقاه من روعة وترانيمه من سحر وعذوبة أجاب :اذكر الله فقط، الهي وسيدي وملكي العطوف، فيرقص اللحن أمامي قبل أن توقعه أناملي أو تعزفه موسيقاي".

في متحف وندرسور هناك صورة رائعة جميلة لداود ومعه بعض المرنمين، وقد امسك الجميع بالقيثارات ووضعوا أيديهم عليها، ولكن الإلحان استعصت عليهم فجلسوا ينتظرون الإلهام الأتي من السماء، وعندما جاءوا غنوا ألحانهم الخالدة الرائعة التي اجتازت الزمن، وعبرت القرون، ورنت أصداؤها الحلوة في قلب التاريخ والأجيال. وهل استطاع الفنان القديم بصلئيل أن يبدع ما أبدع من فن ورسم واختراع وجمال من غير هذا الروح؟ " اُنْظُرْ! قَدْ دَعَوْتُ بَصَلْئِيلَ بْنَ أُورِي بْنَ حُورَ مِنْ سِبْطِ يَهُوذَا بِاسْمِهِ ٣وَمَلأْتُهُ مِنْ رُوحِ اللهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْفَهْمِ وَالْمَعْرِفَةِ وَكُلِّ صَنْعَةٍ ٤لاخْتِرَاعِ مُخْتَرَعَاتٍ لِيَعْمَلَ فِي الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالنُّحَاسِ ٥وَنَقْشِ حِجَارَةٍ لِلتَّرْصِيعِ وَنِجَارَةِ الْخَشَبِ. لِيَعْمَلَ فِي كُلِّ صَنْعَةٍ.(خر ٣١: ٢-٥).

٨- روح القوة:

والروح القدس هو روح القوة أيضا إذ قيل: " ورجع يسوع بقوة الروح إلى الجليل" (لو١٤:٤). "١٣وَلْيَمْلأْكُمْ إِلَهُ الرَّجَاءِ كُلَّ سُرُورٍ وَسَلاَمٍ فِي الإِيمَانِ لِتَزْدَادُوا فِي الرَّجَاءِ بِقُوَّةِ الرُّوحِ الْقُدُسِ.(رو١٥ :١٣). "١٦لِكَيْ يُعْطِيَكُمْ بِحَسَبِ غِنَى مَجْدِهِ أَنْ تَتَأَيَّدُوا بِالْقُوَّةِ بِرُوحِهِ فِي الإِنْسَانِ الْبَاطِنِ، (اف٣: ١٦). والروح القدس هو روح القوة بكل ما تشتمل عليه هذه الكلمة من معنى، إذ هو روح القوة في الخلق وفي الطبيعة وفي الجسد وفي النفس وفي الروح وفي كل المظاهر والصور التي يمكن أن تكون عليها هذه القوة.. ففي القوة المادية هي الروح الخالق الذي رف على وجه المياه، وخلق السموات والأرض، وهو الروح الذي استولى على شمشون فصنع منه القوة المعجزية التي تتحدث عنها جميع الأجيال.. وفي القوة العقلية هو روح الحكمة والذكاء الذي إذ سيطر على سليمان، أعطاه القلب الحكيم المميز"حتى انه لم يكن مثلك قبلك ولا يقوم بعدك نظير" (امل٣: ١٢).. وفي القوة الأدبية والروحية هو الذي صنع امثل الناس وأعظم الأبطال، إذ كان لهم روح الشجاعة والبسالة والجمال والنبل والحق والعظمة والشمم والعلو والكرم والغيرة والحماس والمحبة والوداعة وما أشبه من اعلي المثل الأخلاقية وأروعها.. أو هو في لغة أخرى روح الحياة في اعلي واسمي ما يمكن أن يكون عليه هذه الحياة بين الناس، كيف لا وهو وحده الذي يرفع هذه الحياة ويعتقها من مهدة الخطية والإسفاف والانحدار إلى اعلي القمم التي يمكن أن يصل إليها القديسون والأبطال!!.. الم يقل الرسول: "٢لأَنَّ نَامُوسَ رُوحِ الْحَيَاةِ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ قَدْ أَعْتَقَنِي مِنْ نَامُوسِ الْخَطِيَّةِ وَالْمَوْتِ" (رو٨: ٢)؟ اجل فما وصل إليه إبراهيم واسحق ويعقوب ويوسف وموسى ويشوع وصموئيل وداود والأنبياء وبولس وبطرس وسائر

التلاميذ وغيرهم من القادة والزعماء والمصلحين الذين صنعوا أعظم الآثار في التاريخ البشري، كان من المحال أن يصلوا إليه أو يبلغوه دون هذا الروح العظيم المقوى، الذي صنعهم وجعلهم على مثل ما كانوا عليه من روعة وجلال وعظمة وسمو وجمال وخلود وسؤود ومجد!.

هذه هي بعض الألقاب والصفات لروح الله ذكرناها على سبيل القياس لا الحصر، ولعلنا ندركها وندرك نظائرها وغيرها من الألقاب والصفات في المعنى الأعمق والأجل، إذا ما تابعنا الدراسة عن الروح من الجانبين الآخرين الباقيين.

الروح القدس وأعماله

وأعمال الروح القدس متعددة ومختلفة، وبعضها متصل بالماضي، والبعض الأخر متصل في الحاضر، وبعضها لابد من حدوثه في المستقبل أيضا، ولعلنا نستطيع متابعة هذه الأعمال التي نهجنا نهج من قسموها إلى ثلاثة أقسام: الأعمال المنظورة.الأعمال الخفية.الأعمال التي لابد من حدوثها في المستقبل.

أعمال الروح المنظورة

١- الخلق:

والروح القدس هو الله الخالق، ولعل من المناسب أن نذكر بهذا الصدد اشتراك الاقانيم الثلاثة في الخلق. فالأب هو الآمر، والابن هو المبدع، والروح القدس هو الصانع والمنفذ، فإذا قيل :"في البدء خلق الله السموات والأرض" (تك١: ١). تبين عمل الروح على الوجه الأخص في القول: "٢وَكَانَتِ الأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً وَعَلَى وَجْهِ الْغَمْرِ ظُلْمَةٌ وَرُوحُ اللهِ يَرِفُّ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ." (تك١ :٢). إذ إن الروح احدث إذ "رف" هذه الحركة والذبذبة التي هي أساس المادة ونواة الحياة!!.. ومن ثم قيل أيضا: "بنفخته السموات مسفرة ويداه أبدأتا الحية الهاربة" (اي٢٦ :١٣). كما قيل: "٢٥هَذَا الْبَحْرُ الْكَبِيرُ الْوَاسِعُ الأَطْرَافِ. هُنَاكَ دَبَّابَاتٌ بِلاَ عَدَدٍ. صِغَارُ حَيَوَانٍ مَعَ كِبَارٍ. ٢٩تَحْجُبُ وَجْهَكَ فَتَرْتَاعُ. تَنْزِعُ أَرْوَاحَهَا فَتَمُوتُ وَإِلَى تُرَابِهَا تَعُودُ. ٣٠تُرْسِلُ رُوحَكَ فَتُخْلَقُ. وَتُجَدِّدُ وَجْهَ الأَرْضِ.(مز١٠٤: ٢٥، ٢٩، ٣٠).

٢- التحرير:

وليس ثمة شك في إن الروح هو أساس كل حركة تحريرية عظمى ضد الظلم والطغيان والفساد والشر، في المجتمع البشري، في جميع الأجيال والحقب والعصور التي مرت بالإنسان على هذه الأرض، وما عصر القضاء إلا الشاهد الأول العظيم على هذه الحقبة التاريخية الكبرى، وهل كان من الممكن أن تحدث حركات التحرير العظمى في ذلك العصر من غير روح الله، الم يكن الشعب أية في الذل والإسفاف والانحطاط والتعاسة والهزيمة والخنوع، وكان القواد أنفسهم ابعد ما يكونون عن القيام بأي حركة من حركات الخلاص والتحرير، فجدعون مثلا قبل حلول الروح القدس عليه كان أشبه بالبطل المقهور اليائس الذي إذ يعوه ملاك الرب جبار البأس، لا يكاد يصدق أذنيه ونفسه، إذ كيف يتفق هذا الجبروت على ما هو عليه من الخوف والفزع، لقد قتل المديانيون أخوته في "تابور" (قض٨: ١٨). ولم يستطيع نجدتهم أو إنقاذهم، كما انه هو لا يكاد يجد طعامه وطعام أولاده إذ نهب المديانيون كل شيء، وهو إذ يخشى الحركة والنور يخبط الحنطة في الظلام، في المعصرة ليهربها من الغزاة. ولكن دعون هذا بعد حلول الروح عليه، هو القائد المظفر والبطل العظيم، الذي يقود المعركة العظمى بثلاثمائة من الجنود العزل من كل سلاح. وما قيل عن جدعون يمكن أن يقال أيضا عن أي قاض من القضاء الآخرين أمثال عثنيل وشمجر

ودبورة وباراق ويفتاح وشمشون وغيرهم من سائر القضاة الأبطال المعروفين والمذكورين في كتاب الله!. وإذا تركنا هذا العصر إلى عصر أخر هو عصر الملكية في يهوذا وإسرائيل، رأينا كيف قاد روح الله شاول الملك وسيطر عليه فحوله إلى الرجل الأخر الذي يمكن أن ينهض بشعبه ضد الاستبداد والظلم والطغيان!. الم يقل صموئيل له: "بعد ذلك تأتي إلى جبعة الله حيث أنصاب الفلسطينيين وَيَكُونُ عِنْدَ مَجِيئِكَ إِلَى هُنَاكَ إِلَى الْمَدِينَةِ أَنَّكَ تُصَادِفُ زُمْرَةً مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَازِلِينَ مِنَ الْمُرْتَفَعَةِ وَأَمَامَهُمْ رَبَابٌ وَدُفٌّ وَنَايٌ وَعُودٌ وَهُمْ يَتَنَبَّأُونَ. ٦فَيَحِلُّ عَلَيْكَ رُوحُ الرَّبِّ فَتَتَنَبَّأُ مَعَهُمْ وَتَتَحَوَّلُ إِلَى رَجُلٍ آخَرَ. (١صم١٠ :٥و ٦). وإذ أبصر ذات يوم محنة يابيش جلعاد المبكية القاسية لم يطق صبرا: " فحل روح الله على شاول عندما سمع هذا الكلام وحمى غضبه" وحرر المدينة المحاصرة من طغيان الظالمين المستبدين!. وبعد مئات من السنين وفي عصور مغايرة أخرى نجد النبي ميخا يقع تحت سلطان وتأثير هذا الروح فيندد بالظلم ويصرخ ضد الطغيان فيقول: "٨لَكِنَّنِي أَنَا مَلآنٌ قُوَّةَ رُوحِ الرَّبِّ وَحَقّاً وَبَأْساً لِأُخَبِّرَ يَعْقُوبَ بِذَنْبِهِ وَإِسْرَائِيلَ بِخَطِيَّتِهِ. ٩اِسْمَعُوا هَذَا يَا رُؤَسَاءَ بَيْتِ يَعْقُوبَ وَقُضَاةَ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ يَكْرَهُونَ الْحَقَّ وَيُعَوِّجُونَ كُلَّ مُسْتَقِيمٍ. ١٠الَّذِينَ يَبْنُونَ صِهْيَوْنَ بِالدِّمَاءِ وَأُورُشَلِيمَ بِالظُّلْمِ. ١١رُؤَسَاؤُهَا يَقْضُونَ بِالرَّشْوَةِ وَكَهَنَتُهَا يُعَلِّمُونَ بِالأُجْرَةِ وَأَنْبِيَاؤُهَا يَعْرِفُونَ بِالْفِضَّةِ وَهُمْ يَتَوَكَّلُونَ عَلَى الرَّبِّ قَائِلِينَ: «أَلَيْسَ الرَّبُّ فِي وَسَطِنَا؟ لاَ يَأْتِي عَلَيْنَا شَرٌّ!» ١٢لِذَلِكَ بِسَبَبِكُمْ تُفْلَحُ صِهْيَوْنُ كَحَقْلٍ وَتَصِيرُ أُورُشَلِيمُ خِرَباً وَجَبَلُ الْبَيْتِ شَوَامِخَ وَعْرٍ. (مي٣: ٨-١٢).وفي كل عصور التاريخ لا يمكن أن تحدث حركات التحرير العظمى في أي جانب من جوانب المجتمع ما لم يكن الروح القدس هو القائد الأعلى لهذه الحركات. وفي أوائل القرن الماضي هاجم خادم من خدام الله واسمه دكتور أكرز تجارة العبيد، وكانت هذه التجارة في ذلك الحين يبيحها القانون، ولا يرى فيها اغلب الناس ضررا أو شرا، على إن دكتور أكرز وأمثاله من المسيحيين روا فيها وصمة عار في جبين المسيحية والإنسانية معا، وانه بجدر بهم أن يعبئوا كل جهودهم للقضاء عليها والتخلص منها، وتحرير العبيد المضطهدين البائسين من يد العبودية الشنيعة القاسية المروعة، وفي يوم من أيام الآحاد وعظ الدكتور أكرز عن الرق فندد به وأعلن بأنه لابد أن يسقط ويقضى عليه قريبا، وكان هناك شاب في الاجتماع ينصت بكل جوارحه إلى كلمات الواعظ إذ مست العظة شغاف قلبه وأعماق مشاعره، فما أن خرج من الاجتماع حتى قال لصديق له: "لقد خيل إلي كأنني انتقل مع الزمن وأسير مع الأيام فأبصر هذه الرؤية المجيدة الحية التي حدثنا عنها الراعي، وخيل لي إنني بكيفية ما لا أدريها سيكون لي نصيبي في إبرازها وتحقيقها، كان هذا الشاب هو الرجل العظيم الذي عرفناه فيما بعد بالرئيس: "أبراهام لنكولن" محرر العبيد بأمريكا!. أن أكرز ولنكولن وأشباههما لا يمكن أن ينبعث فيه هذا الإحساس وهذه الرؤى من غير روح الله، الم يقل الكتاب : "١٧يَقُولُ اللهُ: وَيَكُونُ فِي الأَيَّامِ الأَخِيرَةِ أَنِّي أَسْكُبُ مِنْ رُوحِي عَلَى كُلِّ بَشَرٍ فَيَتَنَبَّأُ بَنُوكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَيَرَى شَبَابُكُمْ رُؤًى وَيَحْلُمُ شُيُوخُكُمْ أَحْلاَماً.(اع٢ :١٧). وما يصح قوله عن الرق يمكن أن يقال عن غيره من الشرور والمفاسد والعيوب التي تمس المجتمع البشري، وعن الأبطال من الرجال والنساء الذين جندهم الروح وسيطر عليهم لمكافحتها، والقضاء عليها وتحرير الناس من وطأتها وشدتها!!.

٣- قيادة الكنيسة:

والروح القدس هو القائد الأعلى لكنيسة الرب يسوع على هذه الأرض، فهو الذي يعين ويفرز لها القادة الأرضيين، ويعين لهم مكان العمل ونوعه ومجاله وزمنه وأسلوبه، ولا يترك شيئا مهما صغر أو كبر، دون إعداد وترتيب وتنسيق وتنظيم!. فالروح هو الذي افرز برنابا وشاول للعمل العظيم والخدمة الواسعة التي قاما بها: "٢وَبَيْنَمَا هُمْ يَخْدِمُونَ الرَّبَّ وَيَصُومُونَ قَالَ

الرُّوحُ الْقُدُسُ: «أَفْرِزُوا لِي بَرْنَابَا وَشَاوُلَ لِلْعَمَلِ الَّذِي دَعَوْتُهُمَا إِلَيْهِ». ٣فَصَامُوا حِينَئِذٍ وَصَلُّوا وَوَضَعُوا عَلَيْهِمَا الأَيَادِيَ ثُمَّ أَطْلَقُوهُمَا. (اع١٣: ٢و ٣) ومن الملاحظ إن الروح لم ينهج منهج البشر أو يسلك سبيلهم أو نظامهم أو منطقهم، وهو بصدد هذا التعيين الذي وصفه بازل ماثيوس بالقول: "من الوجهة التاريخية تعد هذه اللحظة بدء العمل الحقيقي للإرساليات الأجنبية، ومسيحيتنا نحن ترجع إلى تلك الطاعة السماوية التي دفعت بهؤلاء الرجال إلى السفينة الصغيرة، إذ اخذوا معهم شجرة المسيحية الناشئة ونقلوها من مشتل اليهودية إلى ارض الإنسانية في كل العالم. وقد يبدو هذا العمل من أول وهلة عملا صغيرا جدا، ولكنه في الواقع هو العمل الحاسم الذي غير تاريخ الأرض في الأجيال المتعاقبة". ومع ذلك فعندما اختار روح الله من الخمسة قواد الذين كانوا في كنيسة أنطاكيا لم يختر أظهرهم من الوجهة الاجتماعية، إذ لم يختر منااين الذي من الطبقة الارستقراطية، إذ تربى مع هيرودس رئيس الربع،ومع إن شاول جاء في ترتيب الأسماء المدونة في الكتاب الخامس والأخير، إلا إن الروح اختار هذا الأخير حتى على برنابا نفسه، ويصل إلى المرتبة الأولى في الخدمة العظيمة الناجحة. ومع إن مدينة أنطاكيا تعد في ذلك الوقت نيفا وخمسمائة ألف نسمة وكانت من أجمل مدن العالم القديم، ولم يكن يتفوق عليها في الجمال والعظمة سوى روما والإسكندرية، وكان الشارع الرئيسي فيها يمتد إلى خمسة أميال، ويزدان على جانبيه بالبواكي والأعمدة الرخامية، وقد تغنى بها الشعراء كمدينة الأشجار والزهور والنافورات، والمدينة التي شيد خارجها تمثال رائع لابولو وكانوا يدعونها روما الشرق، إذ كانت مثل عاصمة الرومان في الجمال والشر،حتى أنهم كانوا يقولون إن الاورنتس السوري يصب في التيبر، وقد كان من الممكن إزاء كل هذه الاعتبارات كلها إلا تفرط كنيسة أنطاكيا في أفضل رجلين عندها، إذا ما أعلمت إن الحكمة البشرية، وتبقي برنابا وشاول للخدمة المحلية، ولكن روح الله قاد الأمور بكيفية أخرى إذ أرسل أفضل الخدام للعمل المرسلي العظيم في قارتي أسيا وأوربا.. وأكثر من هذا فان قيادة الروح القدس ترافق الرسول والخادم وتوجه أينما ذهب وتوجه، وعندما أمر فيلبس أن يذهب إلى البرية ليقابل وزير كنداكة: "فقال الروح لفيلبس تقدم ورافق هذه المركبة "(اع٨: ٢٩) وبعد أن أتم رسالته: "خطف الروح فيلبس فلم يبصره الخصي أيضا " (اع٨: ٢٩). وألم يفكر بولس وسيلا في رحلتهما التبشيرية بعد إن أخذا معهما تيموثاوس وتوغلا في أسيا الصغرى: "٦وَبَعْدَ مَا اجْتَازُوا فِي فِرِيجِيَّةَ وَكُورَةِ غَلاَطِيَّةَ مَنَعَهُمُ الرُّوحُ الْقُدُسُ أَنْ يَتَكَلَّمُوا بِالْكَلِمَةِ فِي أَسِيَّا. ٧فَلَمَّا أَتَوْا إِلَى مِيسِيَّا حَاوَلُوا أَنْ يَذْهَبُوا إِلَى بِثِينِيَّةَ فَلَمْ يَدَعْهُمُ الرُّوحُ. ٨فَمَرُّوا عَلَى مِيسِيَّا وَانْحَدَرُوا إِلَى تَرُوَاسَ. ٩وَظَهَرَتْ لِبُولُسَ رُؤْيَا فِي اللَّيْلِ: رَجُلٌ مَكِدُونِيٌّ قَائِمٌ يَطْلُبُ إِلَيْهِ وَيَقُولُ: «اعْبُرْ إِلَى مَكِدُونِيَّةَ وَأَعِنَّا!». ١٠فَلَمَّا رَأَى الرُّؤْيَا لِلْوَقْتِ طَلَبْنَا أَنْ نَخْرُجَ إِلَى مَكِدُونِيَّةَ مُتَحَقِّقِينَ أَنَّ الرَّبَّ قَدْ دَعَانَا لِنُبَشِّرَهُمْ. (اع١٦: ٦-١٠).

ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن الروح يسيطر سيطرة كاملة على الخدمة أثناء الخدمة كما قيل عن بولس في كورنثوس: "٥وَلَمَّا انْحَدَرَ سِيلاَ وَتِيمُوثَاوُسُ مِنْ مَكِدُونِيَّةَ كَانَ بُولُسُ مُنْحَصِراً بِالرُّوحِ وَهُوَ يَشْهَدُ لِلْيَهُودِ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ.(اع١٨: ٥). وفي لغة أخرى أن روح الله استولى عليها استيلاء كليا، فانحصر تحت تأثيره وسلطانه بكيفية لم يعد يملك بعدها من أمره شيئا، إذ هو خاضع تماما للروح في فكره وشعوره وإرادته وكل مقوماته لجسدية والعقلية و الأدبية والروحية على حد سواء. عندما سال صموئيل ماي صديقه وليم لويد جرسون: لماذا يبدوا على الدوام ملتهبا، ولماذا لا يحتفظ بهدوئه فلا يكون في كل وقت نارا؟ أجاب الرجل العظيم: "أيها الأخ ماي، ينبغي أن يكون كلي نار فان حولي جبالا من الثلج ينبغي أن تذوب وتتلاشى!". وهل يستطيع قائد أو مصلح أو زعيم أو خادم ديني أن يكون كذلك ما لم يعمد بالروح القدس والنار!؟.

وقيادة الروح تظهر من جانب أخر في الكنيسة في مواجهة الصعاب وحل المشكلات التي يمكن أن تعترض سبيلها أو تقف في طريق سلامها ونموها وتقدمها، وخير شاهد على ذلك ما حدث في مطلع التاريخ الكنسي عندما اجتمع أول مجمع مسيحي في التاريخ في مدينة أورشليم، إذ كانت المسيحية قد بلغت في ذلك الوقت مفترق طريقين خطيرين، وكان عليها أن تختار احدهما، وفي هذا الاختيار سيتقرر مصيرها النهائي وشكلها الدائم، أتكون جزءا من اليهودية وفرعا منها تحتفظ بشكلها وطقوسها وعادتها وفرائضها، أم تصبح دينا حرا واسعا سمحا للإنسانية جمعاء!؟. وهل من الواجب على المقبل عليها من الأمم أن يتهود أولا فيختتن ويحفظ الناموس الطقسي الموسوي، أم يدخل في الإيمان دون مراعاة لهذه الطقوس والفرائض والعادات، وإذا اختلف في الأمر حدث أول مجمع في التاريخ المسيحي، وهنا يتعلق – كما قال احدهم- مصير المسيحية في ميزان ولكن شكرا لله، فان الروح القدس كان يقود الاجتماع، وإزاء هذه القيادة وبسببها أمكن أن يصلوا إلى القرار الصحيح السليم الذي أطلق عليه البعض "ماجناكارتا" أو دستور الحرية المسيحية: "٢٨لأَنَّهُ قَدْ رَأَى الرُّوحُ الْقُدُسُ وَنَحْنُ أَنْ لاَ نَضَعَ عَلَيْكُمْ ثِقْلاً أَكْثَرَ غَيْرَ هَذِهِ الأَشْيَاءِ الْوَاجِبَةِ: ٢٩أَنْ تَمْتَنِعُوا عَمَّا ذُبِحَ لِلأَصْنَامِ وَعَنِ الدَّمِ وَالْمَخْنُوقِ وَالزِّنَا، الَّتِي إِنْ حَفِظْتُمْ أَنْفُسَكُمْ مِنْهَا فَنِعِمَّا تَفْعَلُونَ. كُونُوا مُعَافَيْنَ». (اع ١٥:٢٨و٢٩).وهكذا نرى قيادة الروح القدس للكنيسة في كل جانب.

٤- الولادة الجديدة

كان ولد صغير يقرا الإصحاح الثالث من إنجيل يوحنا الذي يتحدث عن الولادة الجديدة، وإذا ساله احدهم: "ولكن ما هي الولادة الجديدة يا ولدي؟" أجاب مشيرا إلى قلبه :"مهنئه تغيير عظيم هنا"!.

اجل فهذا هو المعنى الدقيق للولادة، إذ إنها تغيير الحياة وتحولها من الفساد والشر إلى الله. وقد قيل انه في صيف عام ١٩٥١م عين مستر والتر أندرسون مديرا لأحد السجون في نورث كارولينا الأمريكية، وإذ كان أندرسون يعتقد إن السجن ليس عقابا للمجرم بل هو بالأحرى وسيلة لعلاجه، شجع على قيام خدمات دينية منظمة للمسجونين. وقد قام بهذه الخدمات عدد من العلمانيين أو المؤمنين، وقد أتت هذه الخدمات بثمار عجيبة إذ إن سبعين سجينا من ست وثمانيين من المحكوم عليهم بمدد طويلة أصبحوا مسيحيين، ويسعى هؤلاء المجددون بالإتيان بالست عشر الآخرين للمسيح، وقد كتب احدهم إلى أمه يقول: "لم يعد السجن سجنا بعد، إني احبك وأحب كل واحد في العالم، لقد كنت قبلا اكره كل واحد في العالم، لقد كنت قبلا اكره كل إنسان، أما ألان فاني لن افعل خطا، وتستطيعي أن تفخري بي لأني سأعيش حياتي للمسيح"

فكيف أمكن أن يتحول هؤلاء من الإجرام إلى القداسة، ومن الأوحال إلى القداسة، ومن الظلمات إلى النور، ومن سلطان الشيطان إلى سلطان الله!.

ليس قطعا بمجرد الإرشاد والوعظ الذي تحدث به العلمانيون الوعاظ إليهم!. فالولادة الجيدة لا يمكن أن تأتي بالإقناع البشري أو الفصاحة أو البلاغة التي يمكن أن يكون عليها الإنسان، إذ أن الفصاحة والبلاغة قد يكون لها القدرة على أن تبكي وتضحك وتحسن وتهدئ، ولكنها لا يمكن أن تجدد وتغير، إذ إنها قد تجذب الأذن لكنها لا تمتلك القلب، إنها قد تخضع المشاعر لكنها لا تغير الحياة. إن القلب سمكة قد أتعبت صياد إنجيل، ومن القديم قالوا إن رجلا واحدا يستطيع أن يقود حصانا إلى الماء، ولكن مائة رجلا لا يستطيعوا أن يجعلوا الحصان يشرب.. هكذا الولادة الجديدة، لا يمكن أن تتم بمجرد إقناع الناس، بل بتأثير وفاعلية وقوة وسلطان الله على النفس البشرية ومن ثم قال المسيح: "لا تتعجب إني قلت لك ينبغي أن تولدوا من فوق" (يو٣: ٧)؟ الحق الحق أقول لك إن كان احد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله" (يو٣: ٥). "الريح تهب حيث

تشاء وتسمع صوتها ولكنك لا تعلم من أين تأتي ولا أين تذهب هكذا كل من ولد من الروح" (يو٣: ٨). فإذا كان السيد قد ذكر هذا لنيقوديموس في ليلة من ليالي الربيع، وربما هبت في ذلك الوقت الريح الهادئة الوادعة على وادي قدرون، وداعبت في طريقها أوراق التين الخضراء، وهفت على أوراق الزيتون، ولمست أنوار المشاعل، من الشرق البعيد تجري حتى أقصى الغرب وراء التلال والجبال، فمن المتصور أن يرى المسيح في كل هذه صورة لما يفعله روح الله في كل مكان على هذه الأرض، إذ يهب على البشرية كلها ليخلق من الموت حياة، ومن الجمود شعورا، ومن النوم يقظة وتنبها، ونحن لا نعرف كيف يتم هذا أو يكون، ولكننا يمكن أن نلحظه وندرك أثره في ذلك التحول العجيب والتغيير المذهل الذي يطرأ على الإنسان وينقله من النقيض إلى النقيض ليصبح ابنا لله وعضوا في الكنيسة، وجسد الرب يسوع، بفضل الروح واختبار الميلاد الثاني العجيب!!..

٥- توزيع المواهب

والروح يوزع - إلى جانب عملية التجديد لكل عضو في الكنيسة – المواهب الروحية المختلفة المتعددة على الأعضاء جميعا، إذ لا يصح أن يكون هناك عضو واحد من غير موهبة أو عطية أو خدمة أو عمل على الإطلاق. كما إن الروح لا يعترف بأولئك الذين يضمون إلى الكنيسة من غير تجديد أو غير خدمة أو إنتاج أو مجهود. إذ هم أشبه بذلك الشاب الذي جاء إلى راعي احد الكنائس الأسقفية في مدينة نيويورك وطلب الانضمام إلى الكنيسة، وعندئذ سأله الراعي: "ولكن في أي قسم أو عمل تريد أن تشتغل وتخدم "؟ فأجاب الشاب :"إني لا أريد أنا عمل في شيء،ولكني أرجو فقط الانضمام إلى الكنيسة "فقال الراعي: "عندنا الأعضاء لابد أن يعملوا،هناك مدارس احد، وهناك الفردي، وهناك زيارة المرضى والمحتاجين، ففي أي من هذه تريد أن تبذل مجهودك وعملك؟". فأجاب الشاب متململا:"أنا لا ارغب في الانضمام إلى واحد من هذه الأقسام!" فقال له الراعي :"يأبني اخشي أن تكون قد أخطأت في المجيء إلى الكنيسة، ولعلك تقصد الكنيسة التي في أخر الشارع!.. وهي الكنيسة المضافة إلى المقابر، والتي تقام فيها في العادة صلاة الجنائز عند دفن الموتى.. أما كنيسة الإحياء فلابد أن يشتغل ويعمل فيها كل عضو على وجه التحديد والتخصيص".

ومن ثم فان الروح القدس لا يمكن أن يترك عضوا واحد دون عطية أو موهبة : "وَلَكِنَّ هَذِهِ كُلَّهَا يَعْمَلُهَا الرُّوحُ الْوَاحِدُ بِعَيْنِهِ قَاسِماً لِكُلِّ وَاحِدٍ بِمُفْرَدِهِ كَمَا يَشَاءُ. (١كو١٢ :١١). ومن الملاحظ أن الكلمة "كما يشاء "تفيد الحرية والحكمة عند الروح في التوزيع، إذ انه لا يوزع كيفما اتفق أو من غير نظام أو ترتيب، بل على العكس ينظم ويرتب ويوزع المواهب حسب الحاجة، ووفقا للحكمة العليا، والغرض الإلهي العظيم. ومن توزيع الروح نلاحظ انه قد يعطي البعض المواهب والوزنات العقلية. "٨فَإِنَّهُ لِوَاحِدٍ يُعْطَى بِالرُّوحِ كَلاَمُ حِكْمَةٍ. وَلِآخَرَ كَلاَمُ عِلْمٍ بِحَسَبِ الرُّوحِ الْوَاحِدِ." (١كو١٢ :٨).. كما قد يعطي البعض الأخر المواهب المتصلة بالإدارة:" ٩وَلِآخَرَ إِيمَانٌ بِالرُّوحِ الْوَاحِدِ. وَلِآخَرَ مَوَاهِبُ شِفَاءٍ بِالرُّوحِ الْوَاحِدِ. ١٠وَلِآخَرَ عَمَلُ قُوَّاتٍ (١كو١٢ :٩و١٠). وقد يعطي لغيرهم المواهب المتصلة والمرتبطة بالشعور والعاطفة:" وَلِآخَرَ نُبُوَّةٌ وَلِآخَرَ تَمْيِيزُ الأَرْوَاحِ وَلِآخَرَ أَنْوَاعُ أَلْسِنَةٍ وَلِآخَرَ تَرْجَمَةُ أَلْسِنَةٍ.(١كو١٢ :١٠) والكنيسة تحتاج ولا شك إلى هذه المواهب جميعا، على وجه التناسق والتكامل، فلا يقال عنها ما قيل عن احد المسيحيين أن له قلبا من ذهب وعقلا من ريش، أي انه ذهبي القلب صغير العقل، إذ إنها في حاجة إلى العقل والقلب معا، بل والإرادة أيضا.

كان الإصلاح في حاجة إلى عقل ارزامس، وقلب ملانكتون، وإرادة لوثر. وعندما وزع الروح عطاياه على اخوين.أعطى يوحنا ويسلي بلاغة الوعظ وسحر المتكلم، وأعطى تشارلز رنين الموسيقى وعظمة الترنم. والكنيسة في حاجة إلى الأخوين معا، بل في حاجة إلى العقول الجبارة التي يمكن أن تخرج روائع الفكر، وتنسق المبادئ، وتدافع عن الحق القويم، وفي حاجة إلى القلوب الذهبية التي عمرت بالحق اليقين واتسعت للحق، وأكثر من هذا وذاك هي في حاجة إلى الإرادة الصلبة التي لا تهدأ أو تسكن حتى تحول كل شيء لمجد الله وخير الجميع!. هذا هو المعنى المستفاد من القول :" ٦وَأَنْوَاعُ أَعْمَالٍ مَوْجُودَةٌ وَلَكِنَّ اللهَ وَاحِدٌ الَّذِي يَعْمَلُ الْكُلَّ فِي الْكُلِّ. ٧وَلَكِنَّهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ يُعْطَى إظهارا الرُّوحِ لِلْمَنْفَعَةِ. (١كو١٢: ٦ و ٧).

٦- الإثمار:

ثمة أمر يفعله الروح القدس في حياة الأعضاء في الكنيسة، إلا وهو الإثمار:" ٢٢وَأَمَّا ثَمَرُ الرُّوحِ فَهُوَ: مَحَبَّةٌ فَرَحٌ سَلاَمٌ، طُولُ أَنَاةٍ لُطْفٌ صَلاَحٌ، إِيمَانٌ ٢٣وَدَاعَةٌ تَعَفُّفٌ." (غلا٥: ٢٢ و٢٣). والفرق البين بين المواهب والثمر هو أن المواهب توزع على الأعضاء فيأخذ منها الفرد الواحد البعض دون الكل، على قدر ما تتسع له قابليته، وما يستطيع أن يقوم به من عمل أو مجهود أو خدمة أو إنتاج أو ما أشبه ذلك في الكنيسة.وأما الثمر فعلى العكس من ذلك، إذ هو في المعنى المنشود والدقيق من الكل وفي الكل على حد سواء، وواضح أن الرسول لم يقل أثمار الروح القدس،كأنما هي أثمار متفرقة يأخذ المرء بعضها دون البعض الأخر، إذ أن للروح ثمر واحد لا غير، وان تعددت وتنوعت مظاهره، ول مؤمن حقيقي لابد أن توجد فيه هذه لابد أن توجد فيه هذه المظاهر والصفات وان برز بعضها عن البعض الأخر في ذات الشخص الواحد، وقد قسم بعضهم هذه الصفات التسع في المؤمن إلى ثلاثة أقسام فالثلاثة الأولي تتصل بالله،والثانية بالآخرين، والثالثة بالنفس.. فعلاقتنا بالله علاقة المحبة والفرح والسلام، فالمحبة هي الربط القوي الذي ربطنا بالله به، ويشع عنها حياة الفرح والسلام، فرح التحرر من الخطية وسلام الضمير الذي يفوق كل عقل.. أما علاقتنا بالآخرين فتبدو في طول الأناة واللطف والصلاح وهي عواطف تتناول الجانبين السلبي والايجابي من الحياة، أما الجانب السلبي فيبدو طول الأناة واضحا للآخرين، أما اللطف فهو المعبر الذي ننتقل به من الجانب السلبي إلى الجانب الايجابي، أو هو مزاج من الأناة والصلاح معا، أما الصلاح فهو المعاملة الايجابية الصالحة مع الآخرين، أما علاقتنا بأنفسنا فتبدو في الإيمان والوداعة والتعفف، ولا يقصد بالإيمان هنا على الأغلب الإيمان ألخلاصي، بل لعل المقصود منوه طريق السير ونهج السلوك في الحياة بأكملها، الطريق الروحي غير المادي الذي يتشدد فيه المرء كأنه يرى من لا يرى وأما لوداعة فأمرها معروف، إذ هي السير المتحرر من الزهو والتعظم والخيلاء والكبرياء، أما التعفف فهو الحياة المرتفعة عن الأوحال والإسفاف والدنايا. وهذه كلها لا يمكن أن تتم من غير عمل الروح القدس وإثماره في حياة كل مؤمن وعضو حقيقي في جسد المسيح وكنيسته المجيدة المباركة المقدسة المفدية على هذه الأرض.

٧- القوة الدائمة في الكنيسة:

قال احدهم أن شيئا ما حدث في القرن الأول قلب وجه التاريخ، شيئا ما جاء بعد صليب المسيح غير دائرة الكون. ولكننا نحن نقول أن هذا الشيء لم يكن قوة من قوى الأرض، فالناس ألفوا أن يتم التغيير متى وجد المال أو العلم أو السيف أو ما أشبه من قوى العالم، ولكن كلها لم تكن العناصر التي غيرت الحياة البشرية وافتتحت صفحة جديدة في تاريخ الإنسان. أن القوة التي ظهرت في القرن الأول لم تكن قوة "شيء" بل قوة "شخص" حل في قلوب مستعدة، وحرسها وحكمها وأعانها وقواها ودفعها فصنعت العجائب، وفتنت المسكونة. وهذا الشخص هو الاقنوم الثالث روح الله الذي انشكب بغزارة في يوم الخمسين. ولعل

دراسة هذه القوة تكشف عن أعظم مصدر واغني ينبوع أعطي للكنيسة من وقت صعود المسيح حتى المجيء الثاني المبارك العتيد. ويمكن دراستها على الأقل من النواحي التالية.

(أ) الحاجة إلى هذه القوة

وهل من شك في هذه الحاجة، وقد وضع التلاميذ على عاتق تلاميذه أضخم مهمة يمكن أن توضع على عاتق الناس في الأرض :" ٨لَكِنَّكُمْ سَتَنَالُونَ قُوَّةً مَتَى حَلَّ الرُّوحُ الْقُدُسُ عَلَيْكُمْ وَتَكُونُونَ لِي شُهُوداً فِي أُورُشَلِيمَ وَفِي كُلِّ الْيَهُودِيَّةِ وَالسَّامِرَةِ وَإِلَى أَقْصَى الأَرْضِ». (اع١: ٨) كيف لا وهي الرسالة النبيلة. ربما لو كنا مع المسيح في ذلك الوقت لاعترضنا محتجين بالقول: كيف تطلب منا أيها السيد أن نذهب إلى أورشليم، وأورشليم هي المدينة ألاثمة التي صلبتك؟!. كيف تطلبا أن نسعى إلى اليهودية، واليهودية كانت على الدوام تهملك؟ وكيف نطلب منا أن نأخذ السبيل إلى السامرة وهي التي رفضتك وأبت أن تقبلك؟. وكيف تطلب منا أن نذهب إلى الأمم وما هم في واقع الحال إلا مجموعة قذرة حقيرة من الخنازير؟. لا!. لن نذهب لهؤلاء جميعا، إذ لا يستحقون أن ننادي برسالة الإنجيل ومجد المصلوب، ولكن المسيح إذ يعد تلاميذه بالروح إنما يعدهم بالقوة النبيلة الغافرة التي ترفعهم إلى فوق الحقد والنقص والضعف والشر والإساءات البشرية.

فيبدءون رسالتهم بالمدينة ألاثمة التي ارتكبت أعظم جريمة سجلها التاريخ، إذ صلبت سيدهم، ويتحولون منها إلى اليهودية والسامرة والى أقصى الأرض، ليقوموا بخدمتهم العظيمة السامية الممتلئة بالمحبة التي لا تموت وبالعطف الذي لا ينتهي. كما أن رسالتهم ليست الرسالة النبيلة فحسب السامية فحسب، بل الرهيبة أيضا، إذ أن كلمة شهودا يمكن أن تترجم حسب الأصل "شهداء" فالشهادة والاستشهاد في معنى واحد. وهؤلاء التلاميذ لن يشهدوا للسيد بالأقوال والأفعال فحسب، بل قد يستشهدون إذ يسفك دنهم أيضا. ومن يستطيع أن يقوم بهذا كله، ما لم تكن له قوة اعلي من مجرد قوة الإنسان وشجاعته وجسارته. إذ إنها الرسالة التي تندرج من أورشليم، أي إرسالية البيت. إلى اليهودية والسامرة، أي إرسالية الوطن. إلى أقصى الأرض، أي الإرساليات الأجنبية البعيدة.

إنما في الواقع تنادي كل ما في الإنسان من قوة وحكمة وشجاعة وطاقة وبعد نظر ونظام. إذ تبدأ بالبيت الأهل والعشيرة، ثم تندرج إلى الجار والصديق والمواطن، وتأخذ أخر الأمر سبيلها إلى الغريب والبعيد والقاصي والمجهول، في أي بقعة من بقاع الأرض، وبين أي جنس من أجناس الناس ومن ثم كانت حاجة التلاميذ ولا شك إلى القوة الإلهية العلوية حاجة صارخة قاسية ملحة رهيبة!.

(ب) الحصول على هذه القوة:

والأمر الثاني الذي لابد من التأمل فيه: كيف حصلوا على هذه القوة؟. وكيف يمكن في المعنى العام أن تأتي إلى الكنيسة والنفس البشرية؟. في الواقع أن هذه القوة لا يمكن أن تأتي إلا إذا توافرت في المستقبل لها أو المنتظر الملء بها بعض الشروط أو الأوضاع، إذ لا بد أول الأمر أن يكون مستعدا لمجيئها منتظرا إياها، ومع أن مجيء الروح حدث يوم الخمسين بغتة، ولكن التلاميذ كانوا يتوقعون مجيئه منتظرين، وهذا هو التجاوب الدائم بين عمل الله واستعداد الإنسان، وهل نادى الله موسى من العليقة إلا بعد أن رآه يميل ليرى منظرها العظيم!؟.

وقد كان استعداد التلاميذ لمجيء الروح بالارتفاع إلى العلية، ولم تكن العلية بالنسبة لهم مجرد ارتفاع جسدي مادي، بل كانت أكثر منذ لك صعودا علويا نفسيا وروحيا، إذ كانت نفوسهم في العلية مرتفعة متعالية سامية بعيدة عن العالم المنخفض الذاتي، تسعى إلى الصعود والارتفاع والسمو والانطلاق والارتقاء في الشركة المقدسة العليا مع الله. لقد طرحوا عن حياتهم كل الضعف والاثة والمشاجرة والحقد والانقسام والتنابذ، فكان الجميع كما يقول الكتاب "بنفس واحدة " كما إنهم كانوا من المتعذر عليهم أن يصلوا إلى هذه القوة من غير الإيمان، إذ لم يكونوا يعلمون على الإطلاق متى أو كيف تأتي، ولكنهم كانوا يؤمنون إنها آتية من دون ريب أو شك إذ وعدهم السيد بذلك، وهم ينظرون في مدينة أورشليم وفي العلية تحقيقا لهذا الوعد الأمين الجليل المبارك. والى جانب هذا كله كان لابد من للحصول على هذه القوة من الصلاة ومن عجب أن وعد المسيح لهم لم يصيرهم كسالى سلبيين أو متهاونين في الطلب والإلحاح والصلاة!. لقد علموا أن الصلاة هي الجانب البشري المؤكد لحلول الروح القدوس وهطول البركات السماوية. كيف لا وقد سمعوا من سيدهم من قبل : "١١فَمَنْ مِنْكُمْ وَهُوَ أَبٌ يَسْأَلُهُ ابْنُهُ خُبْزاً أَفَيُعْطِيهِ حَجَراً؟ أو سَمَكَةً أَفَيُعْطِيهِ حَيَّةً بَدَلَ السَّمَكَةِ؟ ١٢أَوْ إذا سَأَلَهُ بَيْضَةً أَفَيُعْطِيهِ عَقْرَباً؟ (لو ١١ :١١- ١٢).

(جـ) مظاهر هذه القوة:

وقد ظهر هذا الروح في يوم الخمسين في ثلاثة مظاهر تحمل معنى عميقا جليلا، مباركا، إذ ظهر أول الأمر في مظهر الريح :" ٢وَصَارَ بَغْتَةً مِنَ السَّمَاءِ صَوْتٌ كَمَا مِنْ هُبُوبِ رِيحٍ عَاصِفَةٍ وَمَلأَ كُلَّ الْبَيْتِ حَيْثُ كَانُوا جَالِسِينَ (اع٢:٢):ونحب أن نذكر انه لم تكن هناك ريح بل "صوت كما من هبوب ريح عاصفة". والعلامة قائمة بين الروح والرياح في أكثر من معنى ومظهر، إذ هو مثلها يأتي من السماء من الأعالي، ويتمشى في كل منطقة ومكان من إرجاء العالم والمعمورة، ويتحدث عند الهدوء بالرقة، وعند القوة بالاكتساح والقدرة والنصر. والمظهر الثاني للروح النار، والنار كما نعلم ترسل النور الذي يكشف أستار الظلام، وفي حضرتها تهرب الأشباح والمخاوف والمعاثر، والنار تبعث أيضا الدفء وتوقد الحركة والانطلاق والنشاط، كما تقتل الميكروبات والجراثيم، وتقضي على الأوبئة والقاذورات والفساد، وهي أخر الأمر تمتحن المعادن وتنقيها من الزغل والخيل والغريب، وهكذا يفعل روح الله على الدوام بقوته المنيرة والمحركة والمطهرة والمنقية لأبناء الله، ليصبح الكل أواني صالحة مستعدة مقدسة مجيدة للخمة العظيمة المباركة. أما المظهر الثالث للروح فهو الألسنة، فاللسان كما نعلم هو أداة التخاطب وإعلان الحقائق الخفية العميقة المكنونة، وقد شاء الله أن يشير إلى عمل روحه بلسان ناري متقد، ليعلن بجلاء رغبته في استخدام الإنسان القوي الغيور الشجاع لإذاعة حقه الواضح الصريح بشجاعة لا تخزي، وبغيره لا تعف أو تموت. هل عرفت إذا من هذه المظاهر الثلاثة كيف جاء روح الله يوم الخمسين بقوة علوية منير محركة مطهرة متكلمة مقنعة ملتهبة متحمسة غيورة

(د) أثار هذه القوة:

وكم لهذه القوة من أثار لا تعد ولا تحصى في حياة المؤمنين والكنيسة، إذ كانت بادئ ذي بدء قوة الشجاعة والبسالة، كيف لا وقد كانت العلية قبل الروح علية مغلقة على التلاميذ المجتمعين بسبب الخوف من اليهود، ولكنها يعد الروح في يوم الخمسين أضحت مركز الانطلاق والقوة والاندفاع. وأين بطرس الهارب الخائف الجبان يوم الصلب من بطرس الجسور والمقدام والمندفع يوم الخمسين، أو كما قال احدهم: " أن بطرس الممتلئ من الروح القدس ليس بطرس واحد بل هو ألف بطرس، انه بطرس المضاف إلى ذاته. أن بطرس بنفسه قصبة تهزها ريح السخرية، ولكن بطرس الممتلئ من الروح القدس رجل حرب

وقائد مقتدر، وجندي لا يسقط إلى الأرض، انه المتسربل بعظمة السماء، والفصيح برعد السماء، واللطيف بمحبة السماء. أن المسيحيين الأوائل لم ينفردوا في طبائعهم بما يخالف طبيعتنا نحن في هذه الأيام، بل إنهم شركاء لنا في الطبيعة والآلام، ولكن تفردهم يرجع إلى درجة امتلائهم بالروح القدس، الروح الذي إذ استولى على الرعديد حوله إلى الجسور الفذ المقدام، وها نحن نرى بطرس قبل الامتلاء بالروح وبعده. أن شجاعة المسيحيين الأوائل لم تكن في الواقع شجاعة أصيلة بقدر ما هي شجاعة مكتسبة ترجع أولا وأخيرا إلى روح الله... كما كانت أيضا قوة الشهادة الأمينة القوية المنتصرة، وإلا فمن علم ذلك الصياد البسيط الساذج بطرس أن يعظ ويشهد بمثل ما وعظ به و شهد أمام الجمهور والسنهدريم. لقد كانت عظته الأولى التي كسبت ثلاثة آلاف من الأنفس في وقت واحد خير مثال ونموذج للعظات القوية العظيمة الرائعة، لقد كان مطلعها دقيقا يستهوي الآذان اليهودية، ويميل بها إلى التسمع والإنصات، انظر إليه وهو يقود المستمعين إلى رؤيا يؤيل عن الروح القدس، ثم يسير بهم بعد ذلك إلى المسيح المصلوب، ولو أن هذا الصلب كان بمشورة الله المحتومة وعلمه السابق. ثم يناشدهم في الختام بالتوبة والرجوع إلى الله.

وأخر الأمر فان هذه القوة كانت قوة إقناع وربح للنفوس الثمينة الآتية إلى الرب يسوع وكنيسته المجيدة، إذ كان الرب يضم كل يوم إلى الكنيسة الذين يخلصون!. هل من سبيل إلى أي نهضة تحدث في التاريخ من غير القوة المؤثرة المقنعة لروح الله!.

كتب ج. هـ. مرجان يصف إحدى النهضات الهائلة التي حدثت في كنيسة من كنائس ويلز فقال: كان راعي هذه الكنيسة واعظا ممتازا موهوبا، وأمير من أمراء المنابر بلا منازع، ولكن سحر عظاته وقوة بلاغتها لم يجيدا في الناس شيئا، فاضطرب وجزع، وضاق به الأمر، غير انه اعد عظة واحة خلصت المئات من الناس، وإذ تاق واحد من زملاءه أن يعرف سر العظة وسأله قائلا: "من أين جئت بهذه العظة الرائعة يا أخي؟".وعندئذ أخذه الراعي إلى غرفة حقيرة، بها نافذة تطل على الجبال، وفرش على أرضها سجادة قديمة بالية!. وأشار إلى جزء من السجادة وقال: "هنا في هذا المكان جئت بعظتي.. لقد ضاق قلبي بالناس وشرورهم وآثامهم وخطاياهم، فانحنيت في هذا المكان قريبا من النافذة وظللت اضرع إلى الله أن يعطيني قوة لم أعهدها أو اعرفها في كل تاريخ حياتي وخدمتي وجهادي، وظللت على هذا الحال طوال الليل دون أن أنال هذه القوة العظيمة الموعودة، حتى أشرق الفجر وانساب نور الشمس أتيا من وراء الجبال وغامرا الطبيعة والكون بالحياة والقوة والجمال، وعندئذ أبصرت نورا ابهر واقوي وأعظم يغمر أعماق نفسي، فسكنت وهدأت ونمت، ثم استيقظت لأعظ العظة التي كانت سببا مباركا في تغيير المئات من الأشرار والآثمة والخطاة والفجار". حقا أن قوة روح الله العجيبة ما تزال في متناول الكنيسة والمؤمنين في كل جيل وعصر!".

أعمال الروح الخفية

وإذا كانت هذه الإعمال التي اشرنا إليها آنفا تظهر بهذه الصورة أو تلك في حياة الناس فإنها تخفي خلفها عمل الروح العجيب الداخلي الخفي في النفس البشرية. ويمكن أن نتابع هذا العمل إذ ذكرنا الخفيات التي يخضعها الروح في حياة الناس... ولعل أولها تأثير الروح في الفكر البشري.

وما أكثر ما يفعل الروح في هذا الميدان بتطهير المنبع الذي تنبع منه هذه الأفكار، ونعني ب القلب البشري: "٢١لأَنَّهُ مِنَ الدَّاخِلِ مِنْ قُلُوبِ النَّاسِ تَخْرُجُ الأَفْكَارُ الشِّرِّيرَةُ: زِنىً فِسْقٌ قَتْلٌ ٢٢سِرْقَةٌ طَمَعٌ خُبْثٌ مَكْرٌ عَهَارَةٌ عَيْنٌ شِرِّيرَةٌ تَجْدِيفٌ كِبْرِيَاءُ جَهْلٌ. ٢٣جَمِيعُ هَذِهِ الشُّرُورِ تَخْرُجُ مِنَ الدَّاخِلِ وَتُنَجِّسُ الإِنْسَانَ».(مر٧: ٢١-٢٣). فإذا كانوا قد زعموا أن هرقل – كما تروي

الأساطير اليونانية القديمة –قد استطاع أن ينظف حظائر البقر التي للملك اوجياس في يوم واحد، الحظائر التي لم تنظف مدة ثلاثين عاما، وذلك بان حول عليها نهري الفيوس وبينيوس، فجرف الماء كل ما فيها من اوخام وتركها نظيفة!!.فان روح الله يفعل كما في عالم الواقع والحقيقة، ما هو أجمل وابرع من كل ما جاءت به هذه الأساطير، إذ ينظف كل يوم قلوبا لا عد لها ولا حصر فيطهرها من الأوحال والمفاسد والأفكار النجسة المتراكمة المتزايدة التي لم تنظف على الإطلاق عشرات السنين مرة واحدة!..

وما يقال عن الفكر يمكن أن يقال عن العواطف والميول والنزعات والمشاعر والشهوات وما أشبه مما تنضح به الحياة البشرية، كلها يطهرها الروح ويبدلها في حياة الإنسان، إذ يصنع فيه كل شيء جديدا.. وأكثر من الأمرين يبدل ويغير إلى الحد العجيب إرادة الإنسان، واتجاه حياته بأكملها، فيفعل في هذه الإرادة ومعها، ما فعله مع ذلك العامل الماهر، الذي قيل انه كان يشتغل في شركة من شركات الصلب، وكان امهر العمال في الشركة، ولكنه للأسف كان عبدا للخمر حتى اضطرت الشركة إلى فصله، وكانت مع ذلك تحتاج إليه بين الحين والأخر، فتعيده إلى العمل، وقد جربت كل الوسائل ليتخلص من نقطة الضعف القاسية المحيطة به دون جدوى!!. والخيرات لجأت إلى إحدى الكنائس المشيخية في أمريكا وهناك سلمه الراعي لاثنين من امهر مساعديه وأكثرهم دراية واختبارا، وظل الاثنان يقودانه بالعمل الفردي إلى معرفة المسيح والإيمان بروح الله، حتى تجدد وتغير وانتصر على العادة الشريرة، وعاد مرة أخرى إلى الشركة، لا ليعمل هذه المرة في الصلب فحسب، بل ليكون هو بنفسه بقوة الروح وبالطاعة للحق قويا كالصلب.. حقا أن روح الله يصنع من اضعف إنسان قوة هائلة وإرادة فولاذية صلبه هيهات أن تلين أو تقهر!!

أعمال الروح في المستقبل

وثمة أمر أخر نختم به الحديث عن أعمال الروح، إلا وهو أعمال الروح في المستقبل، ونقصد بالمستقبل هنا مستقبل المؤمن ومستقبل الكنيسة أيضا..وأما عن المؤمن فان الروح يظل مصاحبا لهمن التجديد حتى النفس الأخير، ولا يمكن أن يهدا أو يسكن حتى يعبر به أمنا من الأرض إلى المجد، أو في لغة أخرى أن الروح القدس لا يمكن أن يمسك بالحاضر في حياة المؤمن، وهو يكافح الخطايا والمتاعب والآلام والتجارب فحسب، ولكنه أكثر من ذلك يضمن له المستقبل والنصرة، حتى ينتهي من رحلته المجهدة القاسية المتعبة على الأرض، ويصل به إلى المجد السماوي العتيد أن يكون: ولعل هذا التاريخ-تاريخ الحاضر والمستقبل عند المؤمن – هو المستفاد من القول: "٩أَمْ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الظَّالِمِينَ لاَ يَرِثُونَ مَلَكُوتَ اللهِ؟ لاَ تَضِلُّوا! لاَ زُنَاةٌ وَلاَ عَبَدَةُ أَوْثَانٍ وَلاَ فَاسِقُونَ وَلاَ مَأْبُونُونَ وَلاَ مُضَاجِعُو ذُكُورٍ ١٠وَلاَ سَارِقُونَ وَلاَ طَمَّاعُونَ وَلاَ سِكِّيرُونَ وَلاَ شَتَّامُونَ وَلاَ خَاطِفُونَ يَرِثُونَ مَلَكُوتَ اللهِ. ١١وَهكَذَا كَانَ أُنَاسٌ مِنْكُمْ. لكِنِ اغْتَسَلْتُمْ بَلْ تَقَدَّسْتُمْ بَلْ تَبَرَّرْتُمْ بِاسْمِ الرَّبِّ يَسُوعَ وَبِرُوحِ إِلهِنَا. (١كو٦: ٩-١١). أي أن الروح يتولانا ونحن نسير في موكب الحياة ليخلصنا من الماضي ألاثم الشرير الممتلئ بالمفاسد والأوحال، ويحفظنا في الحاضر بالغسل، ويضمننا في المستقبل وما يأتي من أيامنا بالتقديس والتبرير!!. وما امجد أن يضمن روح الله، لا كفاحنا الحالي المضني القاسي فحسب، بل مستقبلنا المجهول الخفي المخبأ غير المعروف أيضا.. ومثل هذا الأمر يمكن أن يقال عن الكنيسة كذلك، فان الروح لا يضمن هذه الكنيسة في عصر دون عصر. أو فترة دون فترة، أو تاريخ دون تاريخ، بل سيظل ضامنا لها على الدوام. في كل التاريخ والأجيال، حتى تهتف هتافها الأخير المنتصر، وتبلغ مجدها الأبدي العظيم.

ولعل هذا يبدو في أجمل واجل وضوح متى ذكرنا أن الروح الذي صاحب الكنيسة منذ يوم الخمسين هو بعينه الذي نراه في صحبة هذه الكنيسة، ويوجه معها دعوة الخلاص لكل إنسان، على أخر صفحة من صفحات الكتاب في سفر الرؤيا بالقول: "الروح والعروس يقولان "(رؤ٢٢ :١٧).. وما أجمل أن تذكر الكنيسة أن الروح الذي تمشى معها في أيام الرسل وفي العصور الوسطى وعصر الإصلاح، هو هو بعينه الذي يتمشى معها في هذه الأيام، والذي سيضمن بقاءها وقوتها ومجدها حتى أخر الدهر، ما أكثر ما فعل، وما يفعل، وسيفعل روح الله في حياة المؤمنين كإفراد وجماعات على توالي العصور وامتداد الحقب والقرون والأجيال!!..

الروح القدس وحلوله

والأمر الأخير الذي لابد من دراسته، والتأمل فيه هو كيفية مجيء روح الله إلى الإنسان، والحلول فيه والسكنى والملء والمعمودية وما أشبه من مترادفات وصور جاء ذكرها في الكتاب!! ولعل من اللازم قبل كل شيء أن نبين الفرق بين الحلول في العهد القديم والحلول في العهالجديد.. فعندما قال المسيح لتلاميذه: "٧لكِنِّي أَقُولُ لَكُمُ الْحَقَّ إِنَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ أَنْ أَنْطَلِقَ لأَنَّهُ إِنْ لَمْ أَنْطَلِقْ لاَ يَأْتِيكُمُ الْمُعَزِّي وَلكِنْ إِنْ ذَهَبْتُ أُرْسِلُهُ إِلَيْكُمْ. ٨وَمَتَى جَاءَ ذَاكَ يُبَكِّتُ الْعَالَمَ عَلَى خَطِيَّةٍ وَعَلَى بِرٍّ وَعَلَى دَيْنُونَةٍ." (يو١٦: ٧ و ٨). عندما قال المسيح هذا تساءل الكثيرون: ولكن الم يكن الروح القدس في العالم قبل ذلك!؟. الم يأت إلى إبراهيم في أو الكلدانيين، الم يحل على ملكي صادق ملك ساليم؟. وألم يسكن في أيوب في ارض عوص؟. بل الم يعمل على خلاص المفديين في العهد القديم، فكيف يقول المسيح: "ومتى جاء ذلك"؟...

الحق أن روح الله في العهد القديم كان يحل على البعض حلولا وقتيا ولغاية معينة، ثم يفارقهم بعد انتهاء هذه الغاية، وقد يسقطون في الشر بعد ذلك ويهلكون!. الم يحل الروح على بلعام بن بعور، فبارك الشعب الذي دعي ليلعنه، وتنبأ بنبوة من أعظم وأروع النبوات التي جاءت في العهد القديم عن المسيح عندما صاح: " وَحْيُ بَلْعَامَ بْنِ بَعُورَ. وَحْيُ الرَّجُلِ الْمَفْتُوحِ الْعَيْنَيْنِ. ١٦وَحْيُ الذِي يَسْمَعُ أَقْوَالَ اللهِ وَيَعْرِفُ مَعْرِفَةَ العَلِيِّ. الذِي يَرَى رُؤْيَا القَدِيرِ سَاقِطاً وَهُوَ مَكْشُوفُ العَيْنَيْنِ. ١٧أَرَاهُ وَلكِنْ لَيْسَ الآنَ. أُبْصِرُهُ وَلكِنْ لَيْسَ قَرِيباً. يَبْرُزُ كَوْكَبٌ مِنْ يَعْقُوبَ وَيَقُومُ قَضِيبٌ مِنْ إِسْرَائِيل فَيُحَطِّمُ طَرَفَيْ مُوآبَ وَيُهْلِكُ كُل بَنِي الوَغَى." (عد٢٤: ١٥-١٧).

وألم يحل روح الله على شاول الملك فتنبأ وقاد شعبه في أول الأمر قيادة رائعة، ثم لم يلبث أن فارقه فتخبط في الظلام والضلال والهلاك!؟.

والى جانب هذا الصنف من الناس حل روح الله في غيرهم من المؤمنين "كإفراد أيضا" ليؤدوا رسالة معينة وخدمة خاصة، فكان فيهم النبي والمرنم والكاتب والمصلح والمنقذ وما أشبه، واستقر فيهم الروح حتى النهاية دون أن يبارحهم، ولكنه تعامل معهم على حدة وبكيفية فردية خاصة، وكانت صرخة واحد منهم عندما أخطا خطيته الكبرى وتاب عنها :"لا تطرحني من قدام وجهك وروحك القدوس لا تنزعه مني "(مز ٥١: ١١). وكان الروح إلى جانب هذا كله يحل على كل فرد من المخلصين والمؤمنين في كل جيل وعصر ممن يقبلون دعوة الخلاص إذ لا يمكن أن يأتي احد إلى اله من دون الولادة من الروح القدس :" الحق الحق أقول لك أن كان احد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله" (يو٣ :٥(وكان الآتون إلى الله في العهد القديم من غير شعبه من الأفراد الذين مستهم نعمة الله، إذ تعامل الله معهم فرديا، مثل راحاب الزانية وراعوث الموآبية، واتاي الجتي، واوريا الحثي وغيرهم وغيرهم!!. على أن الله قد انحسر عمل روحه ما خلا ذلك في شعبه المعين المختار، ثم

جاء بعد ذلك العصر المبارك المجيد الذي من يوم الخمسين وقيل فيه :" ١٧يَقُولُ اللهُ: وَيَكُونُ فِي الأَيَّامِ الأَخِيرَةِ أَنِّي أَسْكُبُ مِنْ رُوحِي عَلَى كُلِّ بَشَرٍ فَيَتَنَبَّأُ بَنُوكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَيَرَى شَبَابُكُمْ رُؤىً وَيَحْلُمُ شُيُوخُكُمْ أَحْلاَماً. ١٨وَعَلَى عَبِيدِي أيضا وَإِمَائِي أَسْكُبُ مِنْ رُوحِي فِي تِلْكَ الأَيَّامِ فَيَتَنَبَّأُونَ." (اع٢: ١٧ و ١٨) وفي العصر لا يكون روح الله قاصرا على كل فرد دون فرد، أو جنس دون جنس، أو طبقة دون طبقة!!.. بل سيسكب منه " على كل بشر" ذكرا كان أم أنثى، شابا كان أم شيخا، عبدا كان أم حرا!. إذ هو للجميع دون تحديدا أو تفرقة أو تمييز أو استثناء!!.. ومن هنا كان الفرق بين الحلول في العهد القديم والحلول في العهد الجديد، إذ هو في الأول وقتي وخاص وعلى نطاق محدود، وفي الأخير دائم وعام وشامل ومستمر وفي أوسع المظاهر وأكمل الأوضاع!!.

وقد أطلق على هذا الحلول في العهد الجديد أسماء متعددة وأوصاف كثيرة، بحسب المظاهر أو الأوضاع أو المناسبات أو الغايات التي قصد الروح إن يعلن ذاته فيها أو يتميز بها. وها نحن أولا سنقف ونتعرف عليها، لعلنا ندرك بذلك الفرق بينها بعضها البعض، والمعاني الغنية العميقة الخصبة التي تحتوي عليها!!. ولعل أشهرها وأظهرها ما يلي:

١- سكنى الروح

وقد جاء في الكتاب في أكثر من موضع عن هذه السكنى إذ ذكر السيد المسيح حقيقتها في القول : " ١٦وَأَنَا أَطْلُبُ مِنَ الآبِ فَيُعْطِيكُمْ مُعَزِّياً آخَرَ لِيَمْكُثَ مَعَكُمْ إِلَى الأَبَدِ ١٧رُوحُ الْحَقِّ الَّذِي لاَ يَسْتَطِيعُ الْعَالَمُ أَنْ يَقْبَلَهُ لأَنَّهُ لاَ يَرَاهُ وَلاَ يَعْرِفُهُ وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَعْرِفُونَهُ لأَنَّهُ مَاكِثٌ مَعَكُمْ وَيَكُونُ فِيكُمْ." (يو١٤: ١٦و ١٧).كما ذكرها الرسول عندما قال: "١١وَإِنْ كَانَ رُوحُ الَّذِي أَقَامَ يَسُوعَ مِنَ الأَمْوَاتِ سَاكِناً فِيكُمْ فَالَّذِي أَقَامَ الْمَسِيحَ مِنَ الأَمْوَاتِ سَيُحْيِي أَجْسَادَكُمُ الْمَائِتَةَ أيضا بِرُوحِهِ السَّاكِنِ فِيكُمْ." (رو٨ :١١) "أما تعلمون إنكم هيكل الله وروح الله ساكن فيكم" (١كو٣: ١٦) وقد ألف القديس اغناطيوس إن يدعو نفسه "حامل الروح"!! وألبست هذه هي حقيقة من أعظم واجل واخطر وارهب ما يمكن إن يصل إليه الخيال الإنساني!؟. إن الله لم يعد في السموات فحسب، ويستقر في، ويسكن في جسدي ونفسي وروحي، بكل ما فيه من جلال وعظمة وقوة ومجد! فإذا صح زيارة ملك أو رئيس أو قائد أو زعيم – مجرد الزيارة – لمسكن إنسان ما تكسب هذا الإنسان المجد والفخار والعزة والعظمة التي لا تطاول أو تدانى، بل ليسكن ويستقر هناك!. وفي الوقت عينه كم هو رهيب وخطير ومفزع إن اعلم إن الله القدوس فيّ لا يمكن إن يسير بالفكر الملوث وبالشهوة الشريرة وبالعمل الرد على الإطلاق!!. ومن ثم فان هذه كلها متة حدثت تحزن الروح وتقاوم إرادته وتطفئ رغبته القوية وأشواقه الكاملة في إن يصنع منه الشخص المبارك القوي العظيم الذي يريدني الله إن أكونه في هذه الحياة!. وقد جاءت لذلك تحذيرات الرسول القائلة: "ولا تحزنوا روح الله الذي به ختمتم ليوم الفداء" (اف٤ :٣٠). "لا تطفئوا الروح" (١تس٥: ١٩) لتؤكد واجبنا في الخضوع والامتثال والتحذر والطاعة والمتجاوبة مع هذه السكنى الإلهية المقدسة!!.

٢- ختم الروح

والروح القدس لا يسكن فينا فحسب ولكنه أكثر من ذلك يضع ختمه علينا.. وهذا الختم يشير أول ما يشير إلى الملكية، إذ لم تعد بعد ملكا للعالم أو الشيطان أو الخطية أو النفس. بل أضحينا ملكا لذلك الذي افتدانا بدمه ومات من اجلنا وقام، وإذ امتلكنا ختمنا الروح بهذا الختم، الذي يفيد الملكية التامة الكاملة الشاملة الناجزة، وهذه الملكية ترفع أي يد عن التصرف في حياتنا

وتجعلنا لله جملة وتفصيلا، وأي اعتداء على هذه الملكية اعتداء على الله ذاته وحقه فينا، سواء كان هذا الاعتداء من الخارج عنا أو من أنفسنا!!.

كما إن الختم يفيد القيمة أيضا، إذ لا تساوي أي وثيقة الورقة البيضاء التي كتبت عليها ما لم تختم بأختام المتعاقدين عليها، وقيمتها عند الله كمفديين ومخلصين مستمدة من هذا الختم الإلهي العظيم المبارك!!.

كما إن الختم يفيد الضمان أيضا، وكما كان الضامن قويا ومليئا، كلما كان الختم باعثا على الثقة واليقين والاطمئنان التام الكامل!!. وقد ختمنا الروح إلى يوم الفداء، أو في لغة أخرى ختمنا حتى نهاية رحلتنا على هذه الأرض، وبلوغنا المجد السماوي، عندما يتم خلاصنا من كل إثم وشر وخطية وفساد وتجربة وكفاح ودموع وتعب!!. وما امجد هذا الضمان من حيث موضوعه العظيم وهدفه القوي المبارك.. إذ يصل بنا أخر الأمر إلى ذاك الذي له وحده كل السجود والإجلال والمجد والتعظيم.

٣- مسحة الروح القدس

وثمة أمر آخر من بركات الروح القدس وحلوله في المؤمن ألا وهو مسحة الروح: "وأما أنتم فلكم مسحة من القدوس" (١يو ٢: ٢٠)، وهذه المسحة لازمة وهامة وحيوية في حياة كل مؤمن، كما أنها كانت لازمة للسيد في مطلع خدمته الجهارية: "روح الرب علي لأنه مسحني" (لو ٤: ١٨). والسؤال الجوهري الهام، ما معنى هذه المسحة في المدلول الواسع بالنسبة لكل مؤمن ومسيحي؟.

لقد كان هناك خمسة أنواع وأصناف من الناس في العهد القديم يدهنون بالزيت الطيب ودهن المسحة، ولعل المسيحي في المعنى العام يأخذ امتياز هؤلاء الخمسة مجتمعين معا، بفضل هذه المسحة المباركة التي يأخذها من الروح القدس!!. إذ له الو كل شيء امتياز التحرر والتطهر والشفاء من برص الخطية، وقد كانت شريعة الأبرص المتطهر، إن يمسح بالزيت بعد الحكم بتطهيره أو التكفير عنه بالدم (لا ١٤: ١-٣٢). ومسحة الروح تشهد بطهارتنا وشفائنا من مرض الخطية ولوثتها!!.

وكان الزيت دليل الترحيب والإكرام إذ درجت العادة على دهن الضيف به، وقد قدر المسيح ما فعلته به مريم في هذا الشأن، كما عاب على سمعان الفريسي تقصيره فيه. والمسحة من الروح تتحدث عن مبلغ ترحيب الله بنا وقبوله لنا على مائدته العظيمة الشهية المباركة!!.

وكان الزيت إعلانا عن الرفعة والمقام والسلطان والسيادة، إذ كان يمسح به الملك، وإذ مسحنا الله بالروح إعطانا هذا المركز الجليل فجعلنا ملوكا وكهنة وأصحاب مجد وسعادة وسلطان في الحياة الحاضرة والعتيدة أيضا!!.

وكان الزيت لكاهن تكريما وتخصيصا لخدمته الدينية، والمسحة في حياتنا هي التي تكسبنا هذا الجلال والوقار والنعمة والصفاء والقدسية المتصلة على الدوام بالحياة والتكريس لله.

وكان الزيت أيضا يمسح به النبي المرسل لخدمة الله وإعلان رسالته للناس، ولعل هذا هو المستفاد من ذات التعبير الذي قاله الله لإيليا وهو يطلب منه تنصيب ملكين ونبي: "١٥فقَالَ لَهُ الرَّبُّ: [اذْهَبْ رَاجِعاً فِي طَرِيقِكَ إِلَى بَرِّيَّةِ دِمَشْقَ، وَادْخُلْ وَامْسَحْ حَزَائِيلَ مَلِكاً عَلَى أَرَامَ، ١٦وَامْسَحْ يَاهُوَ بْنَ نِمْشِي مَلِكاً عَلَى إِسْرَائِيلَ، وَامْسَحْ أَلِيشَعَ بْنَ شَافَاطَ مِنْ آبَلَ مَحُولَةَ نَبِيّاً عِوَضاً

عَنْكَ." (١مل١٩: ١٥ و ١٦).والمسحة التي تعطى من روح الله، هو أخر الكل، الأمر والإعلان إن نذهب إلى العالم ونقوم بالخدمة والرسالة التي كلفنا بها من الله!!..ما أكثر منا تثير هذه المسحة في حياتنا من المدلولات والمعاني...

٤- الملء من الروح

ولعل من أهم ما ينبغي التنبيه والتركيز عليه ونحن بصدد الحديث عن الحلول هو الملء من الروح القدس، وثمة أمور أساسية ورئيسية ينبغي الإشارة إليها حتى نفهم معنى هذا الملء ومداه وجلاله وأثره في حياة المؤمنين والكنيسة هي على الأقل:

١- **الملء يختلف عن الولادة**، إذ أن الملء يتكرر، أما الولادة فتحدث مرة واحدة. وقد يولد الإنسان من الروح دون إن يحصل على اختبار الملء إطلاقا، كما قد يولد الإنسان الطبيعي ويعيش لكن ضعيفا هزيلا طوال حياته على الأرض.. وهكذا قد يولد الكثيرون من المسيحيين ويعيشون في الحياة الجديدة، ولكن في السفوح والوديان، دون إن يصعدوا إلى جبال الشركة العليا مع الله، ودون إن يحصلوا على القوة التي تؤهلهم للتغلب على الكثير من الصعاب والمتاعب والمشكلات في الحياة.. على إن الكثيرين أيضا قد يحصلوا على القوة التي تؤهلهم للتغلب على الكثير من الصعاب والمتاعب والمشكلات في الحياة.. على إن الكثيرين قد يحصلون على اختبار الملء بعد فترة تطول أو تقصر من الولادة الروحية. ومن المؤكد إن التلاميذ الذين امتلئوا بالروح يوم الخمسين كانوا وبلا شك قد حصلوا على اختبار الميلاد الثاني قبل ذلك، ولكن الملء جاءهم بعد ذلك في العلية التي كانوا فيها مصلين منتظرين.. على إن هذا لا يمنع أبدا حدوث الولادة والملء عند البعض الأخر من غير هؤلاء وأولئك في وقت واحد، إذ من يستطيع إن يحدد عمل الروح أو يعين أسلوبه وغاياته واتجاهاته؟.

٢- **إن الملء مقترن على الدوام بالقوة**، حتى لتستطيع إن تضع الكلمتين "ملء" و "قوة" كل منهما موضع الأخرى دون إن يغير المعنى في شيء!!.ولعل ميجا النبي قد عبر عن ذلك في العهد القديم عندما قال: " نِي أَنَا مَلآنٌ قُوَّةَ رُوحِ الرَّبِّ وَحَقّاً وَبَأْساً لِأُخَبِّرَ يَعْقُوبَ بِذَنْبِهِ وَإِسْرَائِيلَ بِخَطِيَّتِهِ."(مي٣: ٨).فحيث الحاجة إلى القوة هناك الحاجة الدائمة إلى الملء، وعندما كان على التلاميذ إن ينطلقوا في رحاب الأرض ليفتنوا المسكونة، أو ليقلبوا أوضاعها رأسا على عقب كما يفيد في المعنى الأصلي اللغوي "فتنوا" في القول :"إن هؤلاء الذين فتنوا المسكونة حضروا إلى هنا أيضا" (اع١٧: ٦).كانوا في حاجة صارخة قاسية لهذه القوة التي تحققت لهم بالملء الذي عرفوه واختبروه في يوم الخمسين إذ: "امتلأ الجميع من الروح القدس" (اع٢ :٤) وكان بولس بعد التجديد في ذات الحاجة إلى هذا الملء ليطلق إلى خدمته العظيمة الخالدة، ومن ثم قال له حنانيا :" ١٧فَمَضَى حَنَانِيَّا وَدَخَلَ الْبَيْتَ وَوَضَعَ عَلَيْهِ يَدَيْهِ وَقَالَ: «أَيُّهَا الأَخُ شَاوُلُ قَدْ أَرْسَلَنِي الرَّبُّ يَسُوعُ الَّذِي ظَهَرَ لَكَ فِي الطَّرِيقِ الَّذِي جِئْتَ فِيهِ لِكَيْ تُبْصِرَ وَتَمْتَلِئَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ».(اع٩: ١٧). وعندما كان عليهم أن يشهدوا الشهادة الجريئة أو ينتصروا على الصعاب القائمة، أو يقوموا بعمل عظيم كانوا يحتاجون إلى هذا الملء، كما احتاج إليه بطرس وهو يشهد أمام السنهدريم بعد أن القس عليه القبض مع يوحنا: "٨حِينَئِذٍ امْتَلأَ بُطْرُسُ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ وَقَالَ لَهُمْ: «يَا رُؤَسَاءَ الشَّعْبِ وَشُيُوخَ إِسْرَائِيلَ" (اع٤ :٨). أو كما قيل عن استفانوس وهو يحاكم :" ٥٥وَأَمَّا هُوَ فَشَخَصَ إِلَى السَّمَاءِ وَهُوَ مُمْتَلِئٌ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ

فَرَأَى مَجْدَ اللهِ وَيَسُوعَ قَائِماً عَنْ يَمِينِ اللهِ." (اع٧ :٥٥). أو كما واجه بولس باريشوع الذي كان يقاوم كلمة الله والإيمان: "٩وَأَمَّا شَاوُلُ الَّذِي هُوَ بُولُسُ أيضا فَامْتَلأَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ وَشَخَصَ إِلَيْهِ "(اع١٣: ٩).

٣- **أن الملء تباعا لهذا كل يتكرر،** فالقوة في الإنسان تستنفذ وتستهلك حسبما يواجه من حوادث وظروف ومتاعب ومشقات، كما تستهلك الكهرباء المشحونة المختزنة في البطارية بالاستخدام، أو كما ينفذ الماء المخزون في الجب أو البئر من كثرة الاستعمال. ومن ثم فنحن في حاجة دائمة ماسة إلى تكرار الملء من الروح كما تحتاج البطارية المستخدمة إلى شحنة جديدة من السيال الكهربي أو كما يحتاج البئر الفائض إلى المزيد من الينبوع.

شكا احد الخدام لمستر مودي حياة الفراغ والضعف التي يعانيها في خدمته الدينية، وعندئذ قال له الواعظ العظيم: "هل تستطيع يا صديقي أن تتنفس الزفير دون أن تملا صدرك بالشهيق؟! ". وإذ أجابه الخادم بالسلب، قال له مودي: "كذلك لا تستطيع أن تقوم بأعباء الخدمة وما تتطلبه من كفاح ومشقات وجهاد دون أن تأخذ ملئا من الروح الله من الأعالي".. اجل وفي الواقع أن أي حاجة تواجهنا على الأرض لا يمكن تحديا أو التغلب عليها إلا بالملء من روح الله، بل هذه الحاجة هي الصرخة المستمرة القائلة لنا على الدوام :أن امتلئوا بالروح.

٤- **أن الملء لا يمكن أن يتم من غير تفريغ!!.**إذ من المعرف بالبداهة مثلا أن الوعاء لا يمكن أن يملا بالماء والهواء في وقت واحد!!. وان لابد من طرد احدهما حتى يمكن ملئه بالأخر! وهكذا الملء بالروح لا يمكن الوصول إليه والتمتع باختباره ما لم يفرغ تماما من كل ما لا يتفق ويتواءم من مشيئة إلهنا الصالحة.وقد وصل التلاميذ كما اشرنا سابقا آنفا إلى هذا الاختبار يوم الخمسين، بالانعزال عن العالم والارتفاع الروحي في العلية والخضوع الكامل لله والانتظار اليقيني الممتلئ من الإيمان والصلاة!!. ولي سهناك من سبيل أخر لنوال هذا الاختبار العظيم غير هذا السبيل.

٥- معمودية الروح

وأخر ما نختتم به الحديث عن حلول الروح و المعمودية، إذ جاء هذا في قول المعمدان عن المسيح: "١١أَنَا أُعَمِّدُكُمْ بِمَاءٍ لِلتَّوْبَةِ وَلَكِنِ الَّذِي يَأْتِي بَعْدِي هُوَ أَقْوَى مِنِّي الَّذِي لَسْتُ أَهْلاً أَنْ أَحْمِلَ حِذَاءَهُ. هُوَ سَيُعَمِّدُكُمْ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ وَنَارٍ. " (مت٣ :١١). وقد أثرنا أن نضع الحديث عن المعمودية من الروح في النهاية لاختلاف الآراء والتفاسير والشروح المتعددة حولها.. فمن قائل ا هذه المعمودية هي التي حدثت يوم الخمسين، وعمدت به الكنيسة الأولى الناشئة، وكانت بمثابة الإعلان عن مجيء الروح القدس، وان كل مؤمن ينال الحياة الجديدة،له في هذه الولادة الجديدة شيء واحد، وان أي بركة من بركات الحلول ليس علينا أن نطلبها ننتظرها كأنها أمر خارجي وبعيد عنا، بل علينا أن نقبلها ونأخذها، إذ هي في متناول أيدينا.. ومثل هذا الرأي يبني حجته إلى أن الروح القدس قد جاء إلى العالم حسب وعد المسيح!!. وجاء ليمكث معنا إلى الأبد، وحاجتنا في الواقع إلى "القبول" لا إلى "الطلب" والى "التمتع" لا إلى "الانتظار" والى "الاغتراف" من الينبوع لا إلى "الصراخ" ونحن بجواره في طلب الماء.. ولئن كان هذا الرأي مجيدا ورائعا من ناحية الكشف عن بركة وجود الروح فيا ومعنا واستعداده لمدنا بكل ما نحتاج إلي من بركات، إلا انه ما يزال قاصرا عن التفرقة بين الولادة والمعمودية، كانوا قد نالوا بالتأكيد قبل ذلك اختبار الولادة الجديد المبارك المجيد، فكيف يمكن أن يقال بعد ذلك أن المعمودية والولادة شيء واحد بالضرورة لا غير!!... وهناك الرأي الثاني القائل أن المعمودية والملء، وإنها لذلك تتكرر في حياة ألمؤمنين مرات ومرات، لتعلن عن حضور الروح وقوته وعمله ومجده وانتصاره فيهم، ولكن هذا الرأي يغفل على أن يبين، وهو بصدد المقابلة بين معمودية الماء ومعمودية

الروح، لاذا لا تتكرر الأولى وتتكرر هذه والأخيرة كما يتصورون ويفكرون!؟.. وهناك الرأي الثالث والذي يربط بين المعمودية والتكلم بالالسنة إذ يقول أصحابه أن التكلم بالألسنة هو العلامة الخارجية الظاهرة لمعمودية الروح!. ولعل الدراسة الدقيقة الصائبة لهذا الرأي تقتضيا أن ندرس أولا ظاهرة التكلم بالألسنة وما مدلولها ومعناها، وما غايتها والحكمة منها؟ وهل انتهين بنهاية العصر المسيحي الأول واستقرار الكنيسة المسيحية، أم ما تزال باقية إلى اليوم يؤدي ذات الرسائل والعمل القديم الأول؟.

وفي الواقع أن الدراسة الكتابية الدقيقة لهذه الظاهرة تكشف على الأقل عن هذه الخواص التالية:

١- أن التكلم بالألسنة لم يأتي بحسب طلب الناس أو انتظارهم بل جاء مفاجأة وبغتة، سواء كان هذا في يوم الخمسين حيث: "٢وَصَارَ بَغْتَةً مِنَ السَّمَاءِ صَوْتٌ كَمَا مِنْ هُبُوبِ رِيحٍ عَاصِفَةٍ وَمَلأَ كُلَّ الْبَيْتِ حَيْثُ كَانُوا جَالِسِينَ ٣وَظَهَرَتْ لَهُمْ أَلْسِنَةٌ مُنْقَسِمَةٌ كَأَنَّهَا مِنْ نَارٍ وَاسْتَقَرَّتْ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ. ٤وَامْتَلأَ الْجَمِيعُ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ وَابْتَدَأُوا يَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَةٍ أُخْرَى كَمَا أَعْطَاهُمُ الرُّوحُ أَنْ يَنْطِقُوا. (اع٢: ٢-٤). أو حيث اندهش المؤمنون الذين هم من أهل الختان كل ما جاء مع بطرس إلى بيت كرنيليوس: "٤٥فَانْدَهَشَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ مِنْ أَهْلِ الْخِتَانِ كُلُّ مَنْ جَاءَ مَعَ بُطْرُسَ لأَنَّ مَوْهِبَةَ الرُّوحِ الْقُدُسِ قَدِ انْسَكَبَتْ عَلَى الأُمَمِ أيضا - ٤٦لأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْمَعُونَهُمْ يَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَةٍ وَيُعَظِّمُونَ اللهَ. "(اع١٠: ٤٥ و٤٦). أو حيث رأى بولس هذه الحقيقة أيضا في التلاميذ الذين عمدهم في افسس: "٥فَلَمَّا سَمِعُوا اعْتَمَدُوا بِاسْمِ الرَّبِّ يَسُوعَ. ٦وَلَمَّا وَضَعَ بُولُسُ يَدَيْهِ عَلَيْهِمْ حَلَّ الرُّوحُ الْقُدُسُ عَلَيْهِمْ فَطَفِقُوا يَتَكَلَّمُونَ بِلُغَاتٍ وَيَتَنَبَّأُونَ" (اع١٩: ٥ و ٦).

٢- أن التكلم بالألسنة موهبة ليست للجميع، إذ يقول في هذا الرسول:" ١وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ الْمَوَاهِبِ الرُّوحِيَّةِ أَيُّهَا الإِخْوَةُ فَلَسْتُ أُرِيدُ أَنْ تَجْهَلُوا... ٨فَإِنَّهُ لِوَاحِدٍ يُعْطَى بِالرُّوحِ كَلاَمُ حِكْمَةٍ. وَلآخَرَ كَلاَمُ عِلْمٍ بِحَسَبِ الرُّوحِ الْوَاحِدِ... ١٠وَلآخَرَ عَمَلُ قُوَّاتٍ وَلآخَرَ نُبُوَّةٌ وَلآخَرَ تَمْيِيزُ الأَرْوَاحِ وَلآخَرَ أَنْوَاعُ أَلْسِنَةٍ وَلآخَرَ تَرْجَمَةُ أَلْسِنَةٍ. ١١وَلَكِنَّ هَذِهِ كُلَّهَا يَعْمَلُهَا الرُّوحُ الْوَاحِدُ بِعَيْنِهِ قَاسِماً لِكُلِّ وَاحِدٍ بِمُفْرَدِهِ كَمَا يَشَاءُ...٣٠أَلَعَلَّ لِلْجَمِيعِ مَوَاهِبَ شِفَاءٍ؟ أَلَعَلَّ الْجَمِيعَ يَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَةٍ؟ أَلَعَلَّ الْجَمِيعَ يُتَرْجِمُونَ؟.(١كو: ١٢: ٨ و١٠ و١١ و٣٠).

٣- أن التكلم بالألسنة آية ولكنها ليست للمؤمنين بل لغير المؤمنين إذ يقول الرسول:"إذا الألسنة أيه. لا للمؤمنين. بل لغير المؤمنين " (١كو١٤ :٢٢). وقد ظهر هذا بوضوح في يوم الخمسين إذ كان التكلم بالألسنة برهانا لليهود المستمعين لها، على أن هؤلاء الجليليين المتكلمين بها تسيطر قوة لا يمكن أن تكون قوة بشرية أو انفعال محمود أو هذيان وهمي، بل هي قوة الله ذاته التي لا تجادل ولا تنكر :" ٦فَلَمَّا صَارَ هَذَا الصَّوْتُ اجْتَمَعَ الْجُمْهُورُ وَتَحَيَّرُوا لأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ كَانَ يَسْمَعُهُمْ يَتَكَلَّمُونَ بِلُغَتِهِ. ٧فَبُهِتَ الْجَمِيعُ وَتَعَجَّبُوا قَائِلِينَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «أَتُرَى لَيْسَ جَمِيعُ هَؤُلاَءِ الْمُتَكَلِّمِينَ جَلِيلِيِّينَ؟ ٨فَكَيْفَ نَسْمَعُ نَحْنُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا لُغَتَهُ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا: "(اع٢ :٦-٨). وفي الواقع أن هذا التكلم إنهاء وقضاء على العقوبة التي أوقعها الله على البشرية في بابل، لأنه إذا كان الله قد بلبل السنة الناس هناك، وفرقهم في الأرض، فانه عاد في يوم الخمسين ليجمعهم من السنة متعددة في الوحدة المسيحية الكاملة المجيدة المباركة.

٤- أن التكلم بالألسنة موهبة واحدة من بين المواهب الكثيرة المعطاة للكنيسة فليس فيها ما يرفعها أو يميزها عن سائر المواهب الأخرى، بل العكس قد يكون صحيحا في بعض المواطن والظروف، وليس أدل على ذلك من أن الرسول عندما قارنها بالنبوة اثر هذه الأخيرة عليها بكلمات واضحة صريحة في القول: "١اِتْبَعُوا الْمَحَبَّةَ وَلَكِنْ جِدُّوا لِلْمَوَاهِبِ الرُّوحِيَّةِ وَبِالأَوْلَى أَنْ تَتَنَبَّأُوا. ٢لأَنَّ مَنْ يَتَكَلَّمُ بِلِسَانٍ لاَ يُكَلِّمُ النَّاسَ بَلِ اللهَ لأَنْ لَيْسَ أَحَدٌ يَسْمَعُ. وَلَكِنَّهُ بِالرُّوحِ يَتَكَلَّمُ بِأَسْرَارٍ. ٣وَأَمَّا مَنْ يَتَنَبَّأُ فَيُكَلِّمُ النَّاسَ بِبُنْيَانٍ وَوَعْظٍ وَتَسْلِيَةٍ. ٤مَنْ يَتَكَلَّمُ بِلِسَانٍ يَبْنِي نَفْسَهُ وَأَمَّا مَنْ يَتَنَبَّأُ فَيَبْنِي الْكَنِيسَةَ. ٥إِنِّي أُرِيدُ أَنَّ جَمِيعَكُمْ تَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَةٍ وَلَكِنْ بِالأَوْلَى أَنْ تَتَنَبَّأُوا. لأَنَّ مَنْ يَتَنَبَّأُ أَعْظَمُ مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ بِأَلْسِنَةٍ إِلاَّ إِذَا تَرْجَمَ حَتَّى تَنَالَ الْكَنِيسَةُ بُنْيَاناً... ١٨أَشْكُرُ إِلَهِي أَنِّي أَتَكَلَّمُ بِأَلْسِنَةٍ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِكُمْ. ١٩وَلَكِنْ فِي كَنِيسَةٍ أُرِيدُ أَنْ أَتَكَلَّمَ خَمْسَ كَلِمَاتٍ بِذِهْنِي لِكَيْ أُعَلِّمَ آخَرِينَ أَيْضاً أَكْثَرَ مِنْ عَشْرَةِ آلاَفِ كَلِمَةٍ بِلِسَانٍ." (١كو١٤: ١-٥ و١٨ و١٩).

٥- أن التكلم بالألسنة يأتي عندما يشاء الله، وفي الوقت الذي يريده، ولا يستطيع الإنسان أن يستعجل هذا الكلام أو ينشئه أو يبتدعه، ولكنه يستطيع أن ينظمه في الكنيسة تنظيما دقيقا وفقا للياقة والبنيان، شانه شان النبوة سواء بسواء!. وهذا كله ظاهر واضح بين من قول الرسول: "٢٦فَمَا هُوَ إِذاً أَيُّهَا الإِخْوَةُ؟ مَتَى اجْتَمَعْتُمْ فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ لَهُ مَزْمُورٌ لَهُ تَعْلِيمٌ لَهُ لِسَانٌ لَهُ إِعْلاَنٌ لَهُ تَرْجَمَةٌ: فَلْيَكُنْ كُلُّ شَيْءٍ لِلْبُنْيَانِ. ٢٧إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَتَكَلَّمُ بِلِسَانٍ فَاثْنَيْنِ اثْنَيْنِ أَوْ عَلَى الأَكْثَرِ ثَلاَثَةً وَبِتَرْتِيبٍ وَلْيُتَرْجِمْ وَاحِدٌ. ٢٨وَلَكِنْ إِنْ لَمْ يَكُنْ مُتَرْجِمٌ فَلْيَصْمُتْ فِي الْكَنِيسَةِ وَلْيُكَلِّمْ نَفْسَهُ وَاللهَ... ٣٢وَأَرْوَاحُ الأَنْبِيَاءِ خَاضِعَةٌ لِلأَنْبِيَاءِ." (١كو١٤: ٢٦ -٢٨ و ٣٢).فإذا لم يسر الأمر بهذا النظام والترتيب في الكنيسة، فيخشى أن يكون في الأمر نوع من الزيف أو التقليد أو الخداع أو التضليل البعيد عن روح الله وعمل شركته وقوته في كنيسة المسيح.

٦- أن التكلم بالألسنة موهبة معجزية فيها كل السمات والصفات الخاصة بالمعجزات، فإذا ماتت المعجزة كما اصطلح عليها، هي الحادث المحسوس الخارق لمجرى الطبيعة المعتادة، والمصنوع بقوة الله لإثبات تعليم الهي، أو لإثبات أن الذي صنعه مرسل من الله، ويشترط فيها أن تكون مما يدرك بالحواس، وان تتم بالقوة الإلهية المجردة، وان تكون خارقة لمجرى النواميس الطبيعية، وان تصنع للغايات الدينية كإثبات رسالة صانعها، أو تعليم الهي، أو نحو ذلك.فإذا كانت هذه هي المعجزة، فان التكلم بالألسنة معجزة ولا شك لها كل سمات وصفات المعجزات!!. فإذا ما ثار بعد ذلك السؤال: هل ما تزال موهبة التكلم بالألسنة قائمة مستمرة إلى اليوم في الكنيسة؟ تعين أن نسال هذا السؤال بعينه بالنسبة لكافة المعجزات التي ظهرت في الكنيسة في العصر الرسولي!؟. ومع أن يوحنا فم الذهب يعتقد أن عصر المعجزات المادية بهذا المعنى قد انتهى، إلا انه يمكننا أن نقول في معنى أدق أن التكلم بالألسنة أو المعجزات كانت الغاية الأساسية الظاهرة منها، تثبيت الديانة الناشئة في ذلك الوقت والكشف عن مصدرها الإلهي، وإيضاح مجدها وجلالها وقوتها، وان هذه هي الظروف أو البيئة التي تعمل فيها قوة الله بهذه الخوارق!!. فإذا ما وجدت – بحسب التدبير الإلهي لا البشري- مثل هذه الظروف، فانه في هذه الظروف وحدها يمكن القول بأحداث المعجزات بهذا المعنى، ومنه معجزة التكلم بالألسنة!!. ولعل مناقشة موضوع المعجزات بكيفية أوفى وأعمق ستتاح لنا عندما نفرد لها بابا خاصا لاحقا بمشيئة الله.

وأيا كان الأمر فان المعمودية من الروح لا يمكن أن ترتبط بالتكلم بالألسنة، إذ إن هذه الموهبة – من دون ما حاجة إلى البحث في بقائها أو انقطاعها بانقطاع العصر الرسولي الأول- ليست للجميع، على العكس من المعمودية التي هي من حق كل مسيحي ومؤمن، إذ إن الوعد بها شامل عام للكل من غير تفرقة أو تمييز أو استثناء.

فإذا لم تكن المعمودية على الأصح هي الولادة الجديدة، إذا كان التلاميذ الذين يتعمدوا بالروح القدس ونار في يوم الخمسين، قد سبق ونالوا اختبار الميلاد الثاني المبارك. وإذا لم تكن من الناحية الأخرى هي الملء من الروح، إذا الملء كما تبين لنا يتعدد ويتكرر. وهي كما يفهم من لفظها وبالمقارنة مع المعمودية بالماء لا تتكرر أو تتجدد. وإذا لم تكن في الوقت عينه مرتبطة أو مقترنة بفكرة التكلم بالألسنة كما شاع الأمر عند البعض ممن يؤمنون ببقاء ظاهرة التكلم لليوم. فماذا تكون إذا وما معناها ودلالاتها في حياة المؤمنين ألمسيحيي ممن نالوا اختبارهم المجيد المبارك؟ إن الأمر يتضح لنا جليا فيما نعتقد لو أتيح لنا ألان نمعن النظر في قول المعمدان، ونرى بالفعل كيف تحقق في يوم الخمسين؟ وكيف تحقق أو يمكن أن يتحقق في حياة الكثيرين والكثيرات من أبناء الله في مختلف العصور والأجيال ولعلنا نستطيع ملاحظة ما يأتي:

١- إن المعمودية بالروح القدس ونار هي في الواقع المعمودية في الروح القدس ونار إذ إن الترجمة الحرفية للقول "بالروح القدس" هي "في الروح القدس" كما يذهب الكثيرون من ثقاة المفسرين وعلى رأسهم المفسر المشهور ماير الذي يقول : "إن حرف الجر هنا يمكن أن يفهم على أساس المقابلة بفكرة التغطيس في المعمودية، فهو لا يشير إلى الأداة التي يتم بواسطتها الأمر بل يعني "في" ويشير إلى العنصر الذي يتم فيه التغطيس، أو في لغة أخرى أن الإنسان كما يغطس تماما في ماء المعمودية يفعل معه أيضا كذلك في المعمودية بالروح، إذ يوجد هو بنفسه داخل الروح وفي الروح، أي إن الروح يستولي تماما على الإنسان ويسيطر عليه ويحاصره حصارا لا منفذ منه. فإذا أضيف إلى هذا إن الكلمة "ونار" ترمز وتشير إلى الروح ذاته كان لنا أن نتصور المؤمن محاصرا بروح الله كما تحاصر شعلة النار أنسانا من كل جانب وركن.

٢- إن نار المعمودية هذه تشير على الأقل الحضور الإلهي في المؤمن كما كان تشير نار الشكيمة إلى حضور الله في قدس الأقداس كما إنها ترمز في الوقت عينه إلى التنقية والتطهير وهي تتحدث أخر الأمر عن الإنهاض والآثار والتحريك والتقوية وهذه كلها يفعلها روح الله، ويحققها المؤمن بالمعمودية المقدسة المباركة! إذ يعطيه أن يحس إحساسا قويا حيا بحضور الله، كما يعمل فيه بروح القضاء والإحراق والتطهير والتصفية، ويشعل فيه إلى جانب هذا كله كل حماس ونشاط وغيرة!

٣- هذه المعمودية قد تحققت في صورتها الباهرة في يوم الخمسين، وبالكيفية المجيدة الرائعة التي اشرنا إليها من قبل، كما أنها حدثت في حياة الكثيرين من رجال الله وقديسيه، في عصور التاريخ المختلفة مما كان وادعين هادئين عاديين ساكنين حتى جاءتهم اللحظة الحاسمة العجيبة في تاريخهم، وإذا بهم يلتهبون بنار الروح ويتحولون تماما إلى الصورة الأخرى المختلفة المغايرة التي أذهلت الأجيال قاطبة كما حدث مع وليم كاري وهدسيون تايلور ودوايت مودي وتشارلس فيني وغيرهم وغيرهم، مما قدموا أعظم الخدمات لمجد الله.

من هذا كله نعلم ما هي معمودية المقابلة لكلمة هي الاختبار الحي الناري والملتهب والذي إذ يحدث مرة واحدة في حياة المؤمن، يحوله من الإنسان العادي الفقير في الاختبار إلى البطل مع الله و القائد المنتصر، والرسول الموفق المظفر، في

خدمة يسوع المسيح على هذه الأرض!! أو في لغة أخرى أن المعمودية هي المقابلة لكلمة "التكريس" الشامل التام الكامل في حياة المؤمن! والتكريس، كما نعلم بهذه الصورة وعلى هذا الوضع، هو الذي يفرق بين المؤمن العادي والمولود من روح الله، وبين المؤمن المنتصر والممتلئ من روح الله، أو في تعبير أخر هو الذي يفرق بين الولادة والملء!!. والتكريس لا يمكن أن يتم أو يحدث دون من غير الامتلاء بروح الله، وهكذا المعمودية لا يمكن أن ينالها إلا من امتلأ من هذا الروح! والتكريس كالمعمودية لا يتعدد ولا يتكرر، إذ انه يحدث في اللحظة القوية الحاسمة التي يقطع فيها الإنسان كل صلته بضعفات الماضي وعيوبه ونقائصه وقصوره، ويسلم تسليمه الكامل الشامل التام لله، وعندئذ يستخدمه الله ويصنع به أروع صور الآيات والعجائب!!. ولعل هذا هو الوجه الوحيد الذي يختلف فيه التكريس أو المعمودية عن الملء، إذ الملء يتكرر تباعا للحاجات المتعددة المختلفة التي يواجهها الإنسان كل يوع على الأرض، على العكس من التكريس أو المعمودية الذي إذ وضع الإنسان فيه يده على المحراث فلا يمكن أن يلتفت إلى الوراء!! فإذا ما سئلنا بعد ذلك ما هي المعمودية؟ وما هو التكريس؟ لأجبنا على الفور أن المعمودية بالروح القدس هي العملية التي يكرسنا بها الله لذاته تكريسا كاملا شاملا تاما منجزا، والتي بها يحولنا من الولادة إلى البلوغ، ومن حداثة الإيمان إلى النضوج ومن فقر الحياة إلى الخدمة العظيمة المجيدة المباركة!

واحسب بعد ما عفنا كل هذه الحقائق العظيمة المجيدة عن روح الله أن من واجبنا أن نعيد النظر والتأمل في شركتنا معه، لتطلب العمق بعد أن عرفنا السطحية، ونطلب القوة بعد أن مسنا الهزال، وتأخذ الحياة بعد أن تربص بنا الموت.. إلا ليتنا نصرخ ونقول من الأعماق حقا:"هب علينا يا روح الله فنحيا ولا نموت"..

الفصل الثامن: إيماني بخليقة الله

في القرن الثامن عشر صاح وليم بيلي صيحته الشهيرة قائلا: "لو انك وجدت ساعة وأنت تسير في واحة في قلب الصحراء لعرفت ولا شك أن أنسانا ما هناك هو صاحبها أو صانعها!!.. فإذا رأيت الكون كله يسير في الدقة التي تدانيها أي ساعة على الإطلاق، فصحت على الفور أن لابد أن هناك مبدعه وصاحبه". على أن هناك من أجاب على بيلي بالقول :"لعل الأصح أن الكون أشبه بالساعة الكهربائية لا العادية، إذ لو انك وجدت مثل هذه الساعة في قلب الصحراء، لا يقنت على وجه التأكيد لابد متصلة بإحدى المحطات الكهربائية، وانه لا يوجد هناك من هو صاحبها ومالكها فحسب، بل أكثر من ذلك أن هناك المهندس المشرف على إدارتها وملاحظتها وصيانتها أيضا"!!.. وهكذا الكون لا يمكن أن نتأمله ذو فهم أو عقل إلا ويدرك اليقين باليقين أو صاحبه هو المهندس الأعظم الذي صاغه بمثل هذا الإتقان والإبداع الذي نراه، وفي الوقت عينه يرعاه، ويصونه بحكمته الأبدية وفهمه السرمدي، ولعلنا نستطيع إدراك هذا كله، وإذا تأملنا الخليقة من هذه الجوانب الأربعة التالية:

الخليقة والتاريخ

قبل أن نتعرض للحديث عن قصة الخلق كما جاءت في كتاب الله، لابد أن نقف هنيهة من هذه القصة كواقعة تاريخية تحدث عنها التاريخ، وجاءت في كتابات وأساطير الأمم في الشرق والغرب على حد سواء، بل لابد أن ندرس بعض هذه الأساطير التي تناقلتها الأجيال في الصين وبابل وآشور ومصر واليونان والهند، لنرى الفرق الباهر بين وحي الله وأساطير الأمم، وبين ما دونه موسى في نقاوة وسمو وبساطة وروعة وجمال وجلال، وبين ما دونته تلك في مبالغة وإسفاف وضعف وقصور ونقص واضطراب، فأين ذلك القول الدقيق الصغير الجميل الشامل مثلا :"في البدء خلق الله السموات والأرض " وما تقوله القصة الصينية القديمة المضطربة من أن بوانج كوبكر الوجود أبصر نفسه ذات يوم فوق صخرة والى جانبه العنقاء وتنين ذو وجه إنسان ومخالب الطائر وسلحفاة ضخمة، ومعه أزميل وقدوم امسك بهما، وظل يضرب الصخور التي أمامه ثمانية عشرة ألفا من الأعوام حتى صنع الأرض والشمس والقمر والنجوم والسموات، وكان هو يتزايد كل يوم ستة أقدام، وعندما مات تحول رأسه إلى الجبال، وأنفاسه إلى الريح والغيوم، وأطرافه إلى الزوايا الأربعة، وشرايينه إلى الأنهار، وأعصابه إلى الشعاب الناتئة البارزة في الأرض، وجسده إلى الحقول، ولحيته إلى النجوم، وجلده وشعره إلى الحشائش والأشجار، وأسنانه وعظامه ونخاعه إلى المعادن والصخور والأحجار الكريمة، وعرقه المصبب إلى الإمطار المنهمرة...

أو ما تقوله الأسطورة اليابانية التي تزعم أن الخليقة كلها لم تكن إلا الآلهة المتصارعة المتقاتلة بعضها مع بعض، وان هذا الصراع تمخض عنه أخر الأمر، ما في السموات وما على الأرض من خلائق ونباتات وجماد، وان الإنسان نفسه لم يخلق إلا من دم إحدى الإلهات، ليصبح شيطانا بيد الآلهة وفي خدمتها..

أو ما تنادي به الأساطير اليونانية القائلة أن الخليقة ترجع إلى النار مرة، والى الطين مرات أخرى.. أو ما جاء في كتابات هزويد أو اوفيد أو أفلاطون.. أين هذه جميعا من تلك القصة الأخاذة الواقعة المدونة في كتاب الله، والتي جاءت في اللغة

العبرانية في أربعمائة وسبعة وستين من الكلمات والتي وصفها بروفسور هاربر يقول: "أنها صافية وبسيطة"، والت يقال عنها بروفسور مور، الذي ظل لسنوات طويلة عميد كلية العلوم في جامعة سنسانتي بأمريكا، والمرجع والحجة التي لا تنازع ولا تبارى في أبحاث اسحق نيوتن في العصر الحاضر، قال :"أن البشرية لم تتقدم بعد خطوة واحدة رغم القرون الطويلة وراء الوصف الأخاذ المدون في سفر التكوين هن الخليقة".. اجل وهذا حق، فان هذه القصص جميعا عندما تقف إلى جانب القصة الكتابية، ليست إلا لعب أطفال، كما يقول جيمس سايم –زميل كلية العلوم من جامعة ادنبرة- أو الظلال الباهتة الضعيفة المتنافرة للوصف الكتابي الواضح في سفر التكوين!!

على إننا ونحن نربط هذه القصة بالتاريخ ما يزال هناك السؤال الهام الذي يتردد في أذهان الكثيرين:كم عمر الخليقة؟ والى أي زمن يرجع هذا البدء الذي يشير إليه الكتاب!!. يعتقد الأسقف اشر بحسابه المشهور أن عمر البشرية يرجع إلى ٤٠٠٤ ق. م غير أن الكثيرين من المؤرخين والشراح والمفسرين ودارسي الكتاب يختلفون معا اختلافا بينا كبيرا، وان كان في الوقت عينه قد وجد مؤخرا من وقف بجواره بكل حمية وغيرة وحماس ويقين، ونعني به توبني أعظم مؤرخ في القرن العشرين الذي كتب في مجلة "اتلانتك منثلي" عام ١٩٤٨م مؤكدا أن التاريخ البشري لا يمكن أن يتجاوز هذا الرقم أي ٤٠٠٤ ق.م كثيرا.. ولعل السر في هذا الاختلاف يرجع على الأغلب إلى طريقة المؤرخ أو الشارح الحسابية، كما يرجع في الوقت عينه إلى الاختلاف في معنى الستة أيام المذكورة في سفر التكوين والمعنى المقصود من القول: "وكانت الأرض خربة وخالية" مما سنعرض له عند دراسة الأمر وشيكا من الناحية الكتابية.. وعلى أي حال فمما لا شبهة فيه أن القصة الكتابية ستقف على الدوام على رأس المراجع لكل بحث تاريخي عن عمر الخليقة واصل الإنسان!!.

الخليقة والكتاب

والكتاب يكشف عن عدة حقائق ثابتة وأساسية خاصة بالخلق لعل أهمها:

١- الله مبدع الخليقة ومنشؤها، وقد أتيح لنا في مواطن متعددة مختلفة من هذا الكتاب أن نشير إلى هذه الحقيقة بما لا يدع المجال لمزيد من البحث والاستقراء، ويكفي الرجوع إلى شهادة الطبيعة صفحة (٣٣) والفقرة الأخيرة من شهادة الكتاب المقدس صفحة (٤٧)، في البحث الخاص بوجود الله.. أو الرجوع إلى المعتقدات المختلفة الخاصة بالكون صفحة (٥٦) في البحث الخاص بطبيعة الله.. أو الله والمادة عند الحديث عن صفة لله غي المحدودة صفحة (٨٤و ٨٥) أو "الخلق" الواردة في أعمال الروح القدس صفحة (١٩٣).

٢- زمن الخليقة وقد جاء هذا فيقول : "١فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ. ٢وَكَانَتِ الأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً وَعَلَى وَجْهِ الْغَمْرِ ظُلْمَةٌ وَرُوحُ اللهِ يَرِفُّ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ.(تك١:١ و ٢) وقد اختلف في هذا "البدء " تباعا لأمرين على الأقل:أولهما ترجمة العبارة "وكانت" إذ يجوز عند البعض ترجمتها "وصارت" ومن ثم يكون الآية في نظر هؤلاء : "في البدء خلق اله السموات والأرض وصارت الأرض خربة وخالية " وفي لغة أخرى أن الأرض قائمة موجودة من أزمان متباعدة سحيقة قبل أن تسكنها المخلوقات الحالية أو الإنسان، وإنها كانت في عرفهم مهبط أو مسكن مخلوقات أخرى لعلها الملائكة الذين سقطوا، وإذ طردهم الله و احد رهم من مجدهم الأسنى، أخرب الأرض وأخلاها منهم عندما حفظهم في قيود أبدية تحت الظلام، وقد عزز هذا الرأي أن الكلمة "خربة" وفي الأصل "توهو" والكلمة "خالية" وفي الأصل "فابوهو" قد وردتا في مواضع أخرى بما يفيد على الأقل سبق العمار والملء، إذ جاء

في إشعياء عن ارض أدوم: "٩وَتَتَحَوَّلُ أَنْهَارُهَا زِفْتاً وَتُرَابُهَا كِبْرِيتاً... ١١وَيَرِثُهَا الْقُوقُ وَالْقُنْفُذُ وَالْكَرْكِيُّ وَالْغُرَابُ يَسْكُنَانِ فِيهَا وَيُمَدُّ عَلَيْهَا خَيْطُ الْخَرَابِ وَمِطْمَارُ الْخَلاَءِ. (اش٣٤: ٩و ١١). كما جاء في ارميا أيضا القول: "نظرت إلى الأرض وإذا هي خربة وخالية والى السموات فلا نور لها "(ار٤ :٢٣).وعلى رأس هؤلاء المفسرين يقف المفسر المشهور اللغوي ديلتش، وان كان ديلتش في الوقت عينه، يؤكد أن فترة الخراب والخلاء هذه لا يمكن أن تكون فترة طويلة، استنادا إلى ما ورد في إشعياء :" ١٨لأَنَّهُ هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ: «خَالِقُ السَّمَاوَاتِ هُوَ اللَّهُ. مُصَوِّرُ الأَرْضِ وَصَانِعُهَا. هُوَ قَرَّرَهَا. لَمْ يَخْلُقْهَا بَاطِلاً. لِلسَّكَنِ صَوَّرَهَا. أَنَا الرَّبُّ وَلَيْسَ آخَرُ. (اش٤٥ :١٨). والكلمة "باطلا" هي ذات الكلمة "توهو" أي أن الله لم يقصد أن تبقى الأرض خربة وخالية، إذ للسكن صورها.. غير أن الأكثرية من المفسرين تعارض هذا الرأي تمام المعارضة، حتى لقد وصف تفسير ديلتش بأنه انحراف وسقطة فكرية، لعقل يعد من أعظم وابرع العقول التي فسرت الكتاب حتى اليوم. ويقولون أن الخراب والخلاء المقصود ههنا ليسا إلا حالات عدم العمران والتشويش، الأمرين الذين كانا في الأرض قبل خلق الحياة والمخلوقات فيها..

والأمر الثاني الذي آثار الخلاف الكبير حول زمن الخليقة هو تفسير كلمة "اليوم" وهل ينصرف معناها إلى "العصر" أو المدة المعروفة لنا بأربعة وعشرين ساعة؟!.. وكثيرين من المفسرين الآخذين بالرأي الأول يقولون أن اليوم يحتمل أن يكون العصر، لان الشمس لم تكن قد تكونت حتى اليوم الرابع بعد.. ويستطردون قائلين أن هذا لا يعني المناقضة للكتاب إذ أن كلمة "يوم" تفيد في الإصحاح الأول والثاني من سفر التكوين خمسة معاني مختلفة، إذ هي أولا النور المنبثق في اليوم الأول دون تحديد لمدة معينة (تك١: ٣) ثم هي ثانيا الفصل بين النور والظلمة في وقت غير محدود، إذ لم تكن الشمس قد جاءت بعد (عدد٥) وهي ثالثا لابد أن تكون أربعا وعشرين ساعة في القول "وتكون أوقات وأيام وسنين" إذ المقصود أن الشمس والقمر والنجوم وضعت للتحديد والفصل بين كل يوم وأخر بالأربع والعشرين ساعة المعروفة، كما إنها قد تشير إلى الجزء المنير من النهار (عدد ١٦). وأخر الأمر قد تعني الزمن كله الذي خلقت فيه السموات والأرض كما في القول: "هذه مبادئ السموات والأرض حين خلقت يوم عمل الرب الإله الأرض والسموات "(تك٢ :٤).

على أن مرقس دودز وآخرين لا يكادان يقتنعان بهذا الرأي على الإطلاق، ويتجهون إلى الرأي الأخر المغاير المضاد القائل بان اليوم لابد أن يكون أربعة وعشرين ساعة، إذ أن الله عندما تكلم إلى الإسرائيليين كان يكلمهم ولا شك بما يدركون ويفهمون، وهذا الصباح أو المساء في فهمهم أو فهمنا ليوم واحد إلا هذه الساعات.. والمشايعون لرأي دودز يضيفون إلى ذلك انه ليس ثمة مناقضة بالضرورة بين رأيهم هذا، الرأي العلمي الأشهر المعروف بالرأي السديمي، والقائل أن المواد الأصلية التي تكونت منها العوالم المختلفة، كانت على هيئة غازية ممتدة جدا كالضباب في الجو، ثم أخذت تبرد بالإشعاع، وتتقلص، وتنفصل أجزاؤها البعيدة عن الكتلة الأصلية الواحد بعد الأخر، ثم أن ما ينفصل يستمر في دورانه، ويتحول إلى كرة مستقلة، ولما انفصل عالمنا هذا ابتدأ تكوينه بواسطة التغيرات المادية إلى أن صار يابسة وبحارا، ثم أبدع الله في الحياة الحيوانية والنباتية، وخلق أخر الأمر ادم أبا للبشرية!!

ليس ثمة مناقضة بين الرأيين عندهم، لان الأمر كله يرجع أولا وأخيرا إلى مدى ما تستطيعه قوة الله المبدعة الخالقة!! وهذه القوة تستطيع أن تفعل في لحظة واحدة، ما يتصور الإنسان انه يحتاج إلى ملايين الملايين من السنين حتى يتم ويصنع، كيف لا والإنسان نفسه قد اختبر أن القوة الإلية البدائية أو القوة الميكانيكية أو القوة الكهربائية أو القوة الذرية قد تصنع شيئا أو تفتته، ولكنها تفعل هذا الشيء الواحد في أزمنة مختلفة لا تكاد تتصور أو تصدق!!. فإذا ذكر أيضا أن الله سيقيم البشرية كلها بقوته القادرة في لحظة وصفت بالقول إنها "طرفة عين" أفيكون مستبعدا بعد ذلك؟

تصور أن الله يصنع الخليقة في الستة الأيام على المعنى المعروف والشائع عند الناس لكلمة "اليوم"؟.. في الواقع أن هذا هو الأدنى والأقرب، لا إلى الإيمان الوديع الممسك بكلمة الله فحسب، بل إلى المفاهيم والحقائق التي يتكشف لنا في هذا العصر الذري من حيث علاقة المادة بالحركة (صفحة ٨١) مما لم يكن يفهمه الأولون على الإطلاق قبلنا!!

٣- الترتيب التكاملي في الخليقة: ولعلنا نلاحظ أن الستة الأيام قد قسمها الله إلى قسمين: قسم خاص بالجواهر، وهي الثلاثة أيام الأولى، والقسم الأخر بالمركبات، وهي الثلاثة الأيام التالية، فإذا قارنا اليوم الأول بالرابع، واليوم الثاني بالخامس، واليوم الثالث بالسادس، أمكننا كيف ترتبط المركبات بالجواهر. ففي اليوم الأول خلق الله النور وفي اليوم الرابع حاملات النور، وفي اليوم الثاني الجلد الذي فصل بين مياه ومياه، وفي اليوم الخامس ما يعيش في الجلد والمياه، وفي اليوم الثالث اليابسة، وفي اليوم السادس ما يعيش على اليابسة.. كما انه من اليسير أن نلاحظ أن الله خلق الجماد، ثم خلق النبات بعد ذلك، ثم خلق الحيوانات والطيور بمختلف أنواعها، وأخر الأمر خلق الإنسان!! وهذا متفق تمام الاتفاق مع ما هو معروف ومفهوم وثابت من الخطوط الرئيسية في عالم الجيولوجيا!!

٤- الخلق والعمل في قصة الخليقة!!.. وهناك فرق واضح بين الخلق والعمل في قصة الخليقة، إذ جاءت الكلمة "خلق" أو "برأ" ثلاث مرات في الإصحاح الأول من التكوين، ومع إنها لا تحتم في الأصل اللغوي إيجاد شيء م لا شيء، إلا إنها تفيد المعنى من ههنا إذ اوجد الله المادة (عدد١)، والحياة الحيوانية (عدد٢١)، وحياة الإنسان (عدد٢٧). اوجد هذه كلها من لاشيء.. أما ما جاء عدا ذلك فقد عمله الله، أي عمله وصنعه من مواد قد سبق فخلقها وأوجدها.. ومن هنا ندرك أن قصة الخلق لا تعني في حد ذاتها مناهضة التطور أو التسلسل الطبيعي، إذ قد يصنع الله أشياء من أشياء أخرى سابقة عليها، لكن القصة ترفض التطور أو التسلسل الطبيعي، عندما يتوقف هذا أو ذاك عن فهم العلة الأولى المبدعة والمنشئة لسائر المدلولات الأولى في الطبيعة أو الحياة!!

٥- الاتجاه التصاعدي في الخليقة: وهذا الاتجاه لا يمكن أن يقاس بالحجم أو الضخامة فالأرض قطعا ليست اكب الكواكب أو الأجرام السماوية، ومع ذلك فان الشمس وغيرها من النجوم أو الكواكب تقوم بترتيب الله وحكمته على خدمة هذه الأرض.. كما أن الإنسان في الأرض ذاتها ليس اكبر المخلوقات أو أضخمها ومع ذلك فمما لا شبهة فيه انه هو أعظمها وأفضلها وارفعها واجلها على الإطلاق مما ذكرناه في مطلع هذا الكتاب (صفحة ٢٠ و٢١) ومما سيتاح لنا أن نذكره ونحن نفرد بابا خاصا لأصل الإنسان في موضع آت لاحق في الكتاب أيضا.. وكل ما نبغي الإشارة إليه ألان هو هذا الترابط الحيوي التام في الخليقة، إذ يحتاج بعضها إلى البعض الأخر، ويقوم السابق فيها

على خدمة اللاحق، كما قد ينتفع في الوقت عينه بالرعاية والعناية التي تأتي من هذا الأخير، كمثل ما ينتفع الكثير من الحيوانات والسائمة من رعاية الإنسان، والإشراف عليها وبسط حمايته وحراسته لها..

الخليقة والعلم

والدراسة العلمية الدقيقة للخليقة تكشف على الأقل الحقائق الأساسية التالية:

١- شهادة العلماء الرائعة للقصة الكتابية: ولعل في مقدمة هؤلاء تأتي شهادة الدكتور ارنولد جيوت، والذي ظل أستاذ الجغرافيا الطبيعية والجيولوجيا في جامعة برنستون لمدة ثلاثين عاما، وقد قال في كتابه "الخليقة ونظرية تكوين العالم في الكتاب المقدس في ضوء العلم الحديث" ما يلي:

"تقف القصة الكتابية بما فيها من بساطة ونقاوة ويقين وجمال تاريخي على النقيض تماما من تلك الأساطير والخيالية والرمزية والمعقدة والتي شحنت بها الديانات الوثنية القديمة... وبجمالها الأخاذ وفكرها المنظم والتنسيق الفلسفي الرائع لسائر أجزائها المختلفة، وبالأولى في هذا الحرص الشديد في سرد الحقائق، والذي يترك أوسع المجالات للاكتشافات العلمية المتعددة، تفصح عن الإرشاد العلوي العظيم الذي وجه قلم الكاتب وصانه ليكتب داخل حدود الحق وفي نطاقه".. كما أن الدكتور الفونسوا سميث قال بهذا الصدد أيضا: "ليس هناك إصحاح واحد في كل الكتاب المقدس اثر فيّ يعظمنه الأصيلة كمثل ما يفعل الإصحاح الأول من سفر التكوين!! ففي مزاجه الرائع من الجمال والقوة، وفي الطرقات الخفاقة، وفي الإحساس الجميل بالحق العظم المتضمن فيه، وفي الفخامة الشامخة التلقائية التي لا تتحف إلا لكل فكر عظيم يحسن الإفصاح عنه وتعبيره، سيبقى هذا الإصحاح عندي من غير مثيل أو ريب.. فليس في العهد القديم كله شيء اسمي واعلي من تلك الطريقة التي امسك بها كاتب الإصحاح الأول ن سفر التكوين العناصر الأولية للعالم وأزال عنها ما ترسب عليها من أغشية وطبقات... ويكفي ما تقرا ما فعل الفكر اليوناني والروماني بالأرض والماء والليل والشمس والقمر والنجوم لترى كيف دفنتها تحت رواسب متخلفة من الخيال والتاريخ السخرى، وليس هناك عدد واحد من هذا الإصحاح لم يسجل سموا روحيا يعلو على جميع ما خلفته هذه في كل الأجيال... فإذا كانوا الشعراء في بعض الأحايين قد عزوا في بعض الأحايين ضياع الأساطير القديمة إلى الإعلانات المنبثقة من العلوم، فإننا يمكن أن نقول مع ذلك أن الذي دفع الأساطير إلى العفاء، ليس هو العلم الحديث بل الإصحاح الأول من سفر التكوين!!".. وما نحسب أن الأمر يحتاج بعد ذلك إلى مزيد من شهادات العامة والكتاب ورجال التاريخ لعظمة وجمال القصة الكتابية التي استهل بها موسى الصفحات الأولى لكتاب الله..

٢- عجز العلم عن تقصي الأصول الأولى للحياة والخليقة. الأمر الثاني الذي لابد من الإشارة إليه ونحن بصدد العلم والخليقة، هو هذا العجز الصارخ الذي أفصح به العلماء عن موقفهم، وهم بصدد تتبع أصول الحياة والنشأة الأولى للجواهر التي صنعت منها الخليقة، وفي هذا يقول سير اوليفر لودج في كتابه المشهور "الإنسان والكون" ما نصه: "أن العلم لم يشهد بعد الأصول الأولى التي تفرق بين الحياة والمادة الميتة..فكل حياة حسبما لوحظ وشوهد تنبثق عن حياة سابقة عليها، فإذا ما أعطيت الحياة في خلية واحدة، فان العلم يمكنه أن يتعقب تطورها إلى عشرات الآلاف من الخلايا الحية في النبات والحيوان والإنسان على حد سواء!! ولكن أصل النشاط البروتوبلازمي – الجبلة الأولى للخلية – ما يزال إلى اليوم مستعصيا عليه... وناموس التطور لا يقنع بدراسة التغيير والنمو فحسب بل يحاول أكثر

من ذلك أن يرد التسلسلات إلى ما هو سابق عليها.. انه يقتفي آثار الأصول في كل الأشياء!! ولكن الأصول الأولى ما تزال مبهمة غامضة، ليس من سبيل إلى استقصائها وإدراك كنهها.. ومن واجبنا أن نعترف كرجال العلم أن الأصل الحقيقي لأبسط الأشياء لا سبيل لنا إلى معرفته على الإطلاق، حتى ولو كان هذا الشيء حصاة صغيرة!!". فإذا صح أن يقال أن اوليفر لودج قد نشر كتابه في مطلع القرن العشرين، وان الكثير من الحقائق والمعلومات، قد أمكن الوصول إليها بعد ذلك، فان الأقوال الآتية من عالمين يعدان من أعظم علماء الدنيا المعاصرين قاطبة، تشهد بما لا يدع مجال للشك أن العلم لم يتقدم بوصة واحدة في هذا المضمار، وانه لابد أن يقنع بالافتراض والتسليم دون الجزم والإخبار.. قال الدكتور ل. وود روف أستاذ علم الأحياء في جامعة بيل، والذي لخص في عبارة واحدة موقف العلم الحديث من أصول الأشياء : "أن علماء الأحياء في الوقت الحاضر عاجزون تماما، وربما سيظلون عاجزون على الدوام، عن الحصول على شهادات تجريبية تكفل الجواب على الأسئلة الدقيقة المتعلقة بأصول الحياة قي الأرض ".. ومثل هذا الكلام جاءنا من دكتور جورج سارتون أستاذ تاريخ العلوم في جامعة هارفارد، والذي يعد حجة العالم كله في هذا العلم في الوقت الحاضر، إذ قال: "إن العلم يستطيع أن يشرح كل شيء ما عدا الإسرار الجوهرية في الحياة"..

٣- عودة العلماء إلى اليقين بقوة الله الخالقة.. وبعد هذا الإفلاس العلمي لم يجد العلماء بدا من العودة من الإيمان بقوة الله الخالقة، وقد أتيح لنا فيما سلف أن نشير إلى أقوال: "عمونوائيل كانط، واللورد كالفن، والفريد راسل ولاس، وكورسي موريسون (صفحة ٣٥- ٤٢). ونحن بصدد الحديث عن وجود الله وشهادة العلم يكفي أن نضيف إلى هذه الأحاديث كلمات أخرى لعالم معاصر من أعظم علماء الفلك في العصر الحديث!! قال دكتور سمارت روث أستاذ علم الفلك بجامعة جلاسكو في كتاب أصل الأرض الذي نشره في عام ١٩٥١ م ما يلي: "عندما ندرس هذا الكون ونؤخذ بما فيه من عظمة وجلال ونظام، يخيل إلي إننا منقادون للاعتراف بوجود قوة خارقة وغرض كوني يفوق كل ما يمكن أن تدركه عقولنا المحدودة ". وإذا كان لورد بيكون قد عبر في إحدى رسائله عن هذه الحقيقة بالقول : " إنني أوثر أن أومن بكل الخرافات في الأساطير والتلمود وما أشبه من أن أعتقد بأن هذا النظام الكوني قد جاء مصادفة ودون عقل جبار عظيم!!... علي إننا ونحن نعلم اليوم عن هذا النظام الكوني أكثر كثيراً جداً مما كان معروفاً أيام بيكون، فإنه لا مندوحة عن القول إنه لكثيرين منا، علماء كنا أو غير علماء، ما يزال الإيمان بالله خالق ضرورة حتمية في الوقت الحاضر أو الماضي علي حداً سواء!! وعلي الأقل لي كواحد من رجال الفلك إذ : " السموات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه"!!

الخليقة والمعني

أما وقد إنتهينا من هذا كله، بقي سمة أمر أخير لابد من الإلماح إليه قبل أن ننتهي من الموضوع بجملته وهو المعني في الخليقة!!؟ ومع أننا نعلم إن السؤال أعلي منا وأعظم، وإننا في ذات الموقف الذي وقفه جورج واشنطن كارفر العالم الزنجي الأمريكي المبرز عندنا عندما سأل الله ذات يوم قائلا:" يارب ما هو الكون!!؟ وعندئذ أجابه الله بالقول : "ولكن الكون يا جورج أوسع واكبر من أن تدركه أنت، ولعلك تطالبني قيما بعد بالاهتمام به؟" وإذ أحس العالم المتواضع مركزه من الله

والحقيقة سال إلهه: " يارب ما هو الفول السوداني!!؟ فأجابه الله :" الآن تسأل سؤرا لا يتناسب مع حجمك!! اذهب وسأعينك علي فهمه!".

وقضي جورج المتواضع كل حياته يجري بمعونة الله تجاربه العديدة علي هذا النبات حتى انتهي إلي النتائج المذهلة الرائعة التي خرج بها إلى الناس والعالم!!.. ومع إننا نعلم إن الحياة مفعمة بالإسرار والعجائب إلا إن هذا لا يمنع على الإطلاق لن نقف مع المرنم وهو يصعد البصر وينشد في المزمور: "السموات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه. يوم إلى يوم يذيع كلاما وليل إلى ليل يبدي علما" (مز١٩: ١و ٢) فما هذه الأحاديث والأخبار والإذاعات والحقائق التي لا يمكن إلا أن تعلنها الخليقة وتفصح عنها فيما تفصح وتذيع؟

إنها على الأقل تكشف عن عدة حقائق تتصل بمجد الله وجلاله إذ تكشف عن :

١- قدرة الله المذهلة العجيبة التي أوجدت كل شيء من لا شيء بالأمر اللاهي القائل كن فيكون!! ومهما يكن من انبعاث المادة عن الحركة التي اشرنا إليها سلفا (صفحة ٨٤)، أو إيجاد الحياة من النسمة أو النفخة أو الحركة التي أحثها روح الله عندما رف على وجه المياه!!.. بل إذا صدق ما يقوله رجال الفلك عن الأجرام والكواكب والنجوم من إن أرضنا ليست إلا كوكبا صغيرا يدور حول شمس صغيرة على أطراف مجرة تحوي ١٠٠ ألف مليون نجم، وان هذه المجرة ليست إلا مجرة واحدة من عدد لا يحصى من المجرات المماثلة. وإننا كما يقول هارلو شيبلي أستاذ الفلك بجامعة هارفارد : "نزداد توغلا في الفلك دون أن نجد له نهاية"!!.. إذ قد يصل عدد النجوم كما يعتقد هذا العالم الكبير إلى أكثر من ألف بليون بليون من النجوم!! وان هذه كلها معلقة في الفضاء ومرتبطة بعضها بالبعض دون اصطدام أو تشويش أو فوضى!!. إذا صح كل هذا، كم نكون اذاً إزاء قدرة الله التي تجل و تعلو على كل وصف أو تصوير.. حقا : "إن أموره غير المنظورة ترى منذ خلق العالم مدركه بالمصنوعات قدرته السرمدية ولاهوته" (رو١: ٢٠).

٢- إرادة الله المطلقة الحرة في الخلق، إذ أن الله لا يكشف في الخليقة عن قدرته المذهلة العجيبة فحسب، بل عن إرادته المطلقة الحرة في هذا الخلق، وحريته الكاملة غير المحدودة وفي وضعها وفي الأحجام التي يريد، وبالأسلوب الذي يشاء، وفي الوقت الذي يقصد!! وأمام هذه الحقيقة تتلاشى كافة الحماقات والخرافات المنادية بإلوهية الكون، الأمور الذي دحضناه ونحن نتحدث عن طبيعة الله (صفحة ٣٩و ٤٠) أو بأزلية مواده الأصلية سواء في الصورة التي ابتدعها ديموقراط أو ليوسيوس أو ابيقور، والتي تزعم إن مواد الكون كانت قائمة منذ الأزل على غير هدى و نظام تائهة في الفضاء.. أو في الصورة التي اختلف عنها أفلاطون وأرسطو، إذ زعم الأول إن المادة والله أزليان، وكل منهما واجب الوجود، ومستقل عن الأخر، وان من الله صدرت أرواح الدنيا والبشر، وما بقي من الكون خلقه احد الإلهة الثانويين بينما نادى الثاني بأزلية كل من المادة والله واستقلال الواحد عن الأخر، وان كان الله في الوقت عينه قد اخذ ينظم هذه المادة منذ الأزل... ولعلنا لا نجد شهادة عن هذا التخبط والخلط مثل الشهادة التي جاءت في كتاب أفلاطون للدكتور عبد الرحمن بدوي إذ قال :"في محاورة طيماوس " يذكر لنا أفلاطون كيف انه في البدء جاء الصانع فصنع من المتشابه واللامتشابه للنفس الكلية. ومن النفس الكلية صنع العناصر الأربعة الماء والهواء والنار والتراب، ومن هذه الأخيرة صنع الإنسان وبقية الإحياء والكائنات الموجودة تحت فلك القمر. ويضيف إلى هذا انه

خلق الكواكب عن طريق الشمس الأولى. من اجل أن تكون حاسبة للزمن. كما يعني أيضا في البحث في الزمان باعتبار أن الزمان هو الصورة المتحركة للأبدية الثابتة. وكل هذه التصورات لا تدل على إن التصورات لا تدل على إن أفلاطون قد نظر إلى المسالة نظرة جدية. وإنما هو حديث أراد به إن يبين كيف نشا العالم من اجل إن يقيم على هذا الأساس نظرياته الأخلاقية ونظرياته في الإنسان. لكن يعنينا ونحن نبحث هذه المسالة إن نتحدث عن مسالتين رئيسيتين: هما مسالة خلق المادة ومسالة خلق الزمان. فانا نرى أفلاطون يصور هذه المسالة وكالأن الصانع قد خلق المادة ثم خلق منها من بعد بقية الأشياء.. ولكن هذا تصوير ظاهري فحسب، لأننا نجد أقوال أفلاطون في مواضيع أخرى تتنافى تمام التنافي مع هذا التصوير. ذلك انه يتحدث عن أزلية النفس، ولا يمكن إن يتحدث عن أزلية النفس إذا كانت المادة غير أزلية، لان النفس أيضا جزء من المادة، كما إن النفس لا يمكن إن توجد إلا إذا كانت متصلة بجسم – وحينئذ يمكن إن نقول بان النفس التي يتحدث أفلاطون عن خلودها هي فقط نفس عقلية غير متصلة بشيء من المادة، فلا ينطبق عليها ما ينطبق على هذا. ولكن هذا التوفيق يتعارض مع ما يقوله أفلاطون صراحة من إن النفس توجد دائما في جسم، ولو انه يصور المسالة وكأن النفوس الخالدة كانت موجودة في مكان معين قبل إن تحل في الأبدان (صفحة ١٨٩، ١٩٠ طبعة ثانية عام ١٩٤٤ – مكتبة النهضة المصرية) بل إن نفس الفكرة عن الله عند أفلاطون محاطة بالغموض وفي هذا يول دكتور بدوي في نفس المؤلف : "فإذا انتقلنا من العناية الإلهية وتوكيد أفلاطون إلى ماهية الإلوهية، وجدنا الشكوك تحيط بأكثر الأفكار التي أدلى بها في هذا الباب : فنحن نراه تارة يتحدث عن اله في صيغة المفرد، باعتبار انه الخير والعلم والحكمة، وتارة أخرى نراه يتحدث عن الإلهة بصيغة الجمع. فهل هناك اله فوق الإلهة وهل هذا الإله من جنس الإلهة!!؟ وهل الصانع هو الإله الأعلى!!؟ هذه الأسئلة لا نستطيع إن نجد في محاورات أفلاطون بيانا وافيا عنها. ولكن يلاحظ مع ذلك انه بالنسبة إلى السؤال الخاص بوجود اله فوق الإلهة نجد إن أفلاطون يؤكد وجود هذا الإله. أما عن السؤال الثاني الخاص بطبيعة هذا الإله وهل هو من جنس الإلهة، فان أفلاطون ينكر كل الإنكار إن يكون هذا الإله الأعلى من نوع الإلهة، سواء كانت هذه الإلهة كونية مثل أورانوس اله السماء، أو كانت هذه الإلهة إلهة الاولمب. فان هذا الإله الذي يعلوها من طبيعة مختلفة كل الاختلاف. أما هذه الإلهة الشعبية فهي كواكب أو بعبارة أدق نفوس الكواكب. فان أفلاطون ينسب إلى هذه الكواكب نفوسا. بل ويضيف إلى هذه الكواكب عقولا لكي يتيسر لها إن تدور هذه الدورات الكونية في انسجام مع بقية الكون وفي انسجام مع بعضها البعض. وهذا مذهب مشهور عن أفلاطون. ونعني به قوله: "إن للكواكب نفوسا" (صفحة ١٣٣ و ١٣٤من نفس المؤلف).

ولعلنا لا نعرف تخبطا للذهن البشري على توالى العصور وامتداد الأجيال كهذا التخبط الذي سقط فيه أفلاطون وأشياعه وإضرابه من رجال الحكمة والعلم والفلسفة.. أليس هذا ما يعنيه الرسول في القول : "وبينما يزعمون أنهم حكماء صاروا جهلاء "(رو ١ :٢٢) "١٩لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: «سَأُبِيدُ حِكْمَةَ الْحُكَمَاءِ وَأَرْفُضُ فَهْمَ الْفُهَمَاءِ». ٢٠أَيْنَ الْحَكِيمُ؟ أَيْنَ الْكَاتِبُ؟ أَيْنَ مُبَاحِثُ هَذَا الدَّهْرِ؟ أَلَمْ يُجَهِّلِ اللهُ حِكْمَةَ هَذَا الْعَالَمِ؟ ٢١لأَنَّهُ إِذْ كَانَ الْعَالَمُ فِي حِكْمَةِ اللهِ لَمْ يَعْرِفِ اللهَ بِالْحِكْمَةِ اسْتَحْسَنَ اللهُ أَنْ يُخَلِّصَ الْمُؤْمِنِينَ بِجَهَالَةِ الْكِرَازَةِ" (اكو١: ١٩ -٢١).. ومثل ما يقال عن نظرية إلوهية الكون، أو أزلية المادة، يمكن إن يقال أيضا عن نظرية النشوء والارتقاء القائلة :"إن الكون بكل ما فيه من الأجناس الحية على أنواعها نشا بالتقدم البطء من درجة إلى أخرى في سلم الارتقاء، وان جميع أنواع الحياة النباتية والحيوانية

والعقلية أيضا نشأت عن تغيرات طفيفة كانت تزداد وتتقدم من دور إلى أخر إلى إن بلغت حالتها الحاضرة من الكمال، إي إن كل ما في الكون نشا من الطبيعة نفسها" وقد انقسم الآخذون بهذا المذهب إلى قسمين :قسم ينكر لزوم مداخلة الخالق في إبداع أصول الحياة على الإطلاق. وقسم أخر يتصور انه من اللازم إن يكون الخالق قد خلق جرثومة الحياة الأصلية فقط، ولكنه لا يتدخل بعد ذلك في ارتقاء الأنواع وتقدمها وتطورها.وعلى رأس هذا الفريق يقف دارون بنظريته المشهورة والقائلة: "إن تنوع الأشياء نشا عن الجهاد بينها دفعا لخطر الملاشاة بسبب ازدياد عددها أكثر مما تحتمله وسائط المعيشة فهلك منها الأضعف بسبب مضايقته من قلة المعيشة وبقي الأقوى والأصح. ولما كان من دأب ما بقي التقدم في سلم الحياة والارتقاء للسبب المذكور كان لابد لـه من التقدم البطء من درجة إلى أخرى في سلم الكمال، فنشا عن ذلك أنواع مختلفة لكل منها صفة التقدم إلى حالة أفضل واقوي، إلى إن صارت النباتات والحيوانات على ما نراها من التنوع المختلف في الدور الحاضر، وكذلك البشر، حتى انه لو قال قد أمكنني إن أجد الحلقة المفقودة بين الإنسان والقرد لقلت إن الإنسان أصله قرد". غير انه وجد من أتباع دارون من اعتقد إن هذه النظرية، تصدق على النباتات والبهائم دون الإنسان... وعلى كل حال فقد بينا عف هذه النظرية، عند من ينكر تدخل الخالق إطلاقا بما أوردناه من أدلة عند المناقشة والحديث عن الخليقة والعلم، كما إن التقدم العلمي اثبت وجود حقائق لم يكن دارون يعرفها كعجائب الموروثات "Genes" مثلا كما يقول كرسي موريسون (صفحة ٢٧) كما إن العيب القاتل للنظرية هو إنها بدأت بالأسلوب التجريبي العلمي، وانتهت بالأسلوب التخيلي الافتراضي الذي جعل دارون نفسه لا يقطع بان الإنسان أصله قرد، وجعل تابعه "ولسن" العالم الانجليزي يخرج الإنسان من النظرية عند التطبيق.. بل إن التسليم بهذه النظرية، مع ما فيها من تعقيد وتناولها أزمنة تصل إلى ملايين الملايين من السنين، يحتاج إلى إيمان أعظم جدا من الإيمان الذي يتطلبه الدين.. فإذا أضيف إلى هذا كله انه امتهان كبير وغير متصور إن نقول إن الضمير والحياة الروحية في الإنسان، وتصور وجود الله، صدرت من الحيوان الأبكم وتطورت عنه!!. هذه النظريات المختلفة المشار إليها ليست في واقع الحال إلا الإسفاف الامتهان واللحظة للفكر الإنساني العظيم، بل إن تصورها يعدو في الحقيقة أكثر تعذرا واستحالة من الإيمان بان هذه الخليقة صدرت عن اله حي مريد عاقل، ولعل الأركان إلى واحد منها أو إلى بعضها، كالأركان إلى تلك الصورة التي تخيلها احدهم عندما تصور إن القلم قال ذات مرة: "إني اكتب كتابا" فأجاب الحبر مبتسما: "أنا الذي اكتب الكتاب فأنت لا تستطيع إن تفعل شيئا بدوني" وعندئذ قال الورق :"ولكنكما لا تستطيعان إن تفعلا شيئا من غيري "!! وقال القاموس: "ولكن أنا الذي املك الكلمات التي يدونها لا يمكن عمل كتاب" وخلال هذا الجدل والمناقشة كان المؤلف يبتسم!! ولعل الله يبتسم مرات كثيرة عندما نجادل في أمور خليقته جدلا غبيا سقيما أحمق!!

٣- ولعله من تحصيل الحاصل بعد هذا كله إن نشير إلى حكمة الله وجلاله وعظمته ومجده في صنع الخليقة. وقد أتيح لنا فيما سلف أيضا، اللالماع إليها والإشارة بها عند الكلام عن شهادة الطبيعة عن وجود الله (صفحة ١٩و ٢٠) فاليه نحيل ونرجع.

٤- أما أخر ما ننتهي إليه في هذا الموضوع كله، فهو محبة الله اللانهائية الكاملة الشاملة العجيبة للخليقة كلها، فما صنع الخليقة في الواقع إلا برهانا وإعلانا وكشفا وإظهارا لقوتها وجلالها وسناها ومجدها!! كيف لا والوازع على الدوام للصنع والخلق لا يأتي إلا من العاطفة المشبعة الممتلئة بالمحبة؟! وهل يبني الإنسان بيتا أو ينشئ أسرة أو يبدع رسما

أو يخلف فنا إلا مدفوعا بهذا الوازع العظيم، وازع المحبة؟ فإذا صح إن يقال هذا عن الإنسان، أفليس هو بالنسبة لله وصنع الخليقة أولى وأصح؟ فإذا أضيف إلى هذا كله، هذه العناية والرعاية العجيبة المتولدة عن المحبة والتي تلف وتضم كل مخلوق، وهذا المجد الواسع العريض الأبدي الذي وضعه الله أمام الإنسان.. إلا يحمل بنا إذا إن نصيح مع المرنم : "١ بَارِكِي يَا نَفْسِي الرَّبَّ. يَا رَبُّ إِلهِي قَدْ عَظُمْتَ جِدّاً. مَجْداً وَجَلاَلاً لَبِسْتَ. ٢اللاَّبِسُ النُّورَ كَثَوْبٍ الْبَاسِطُ السَّمَاوَاتِ كَشُقَّةٍ. ٣الْمُسَقِّفُ عَلاَلِيَهُ بِالْمِيَاهِ. الْجَاعِلُ السَّحَابَ مَرْكَبَتَهُ. الْمَاشِي عَلَى أَجْنِحَةِ الرِّيحِ. ٤الصَّانِعُ مَلاَئِكَتَهُ رِيَاحاً وَخُدَّامَهُ نَاراً مُلْتَهِبَةً. ٥الْمُؤَسِّسُ الأَرْضَ عَلَى قَوَاعِدِهَا فَلاَ تَتَزَعْزَعُ إِلَى الدَّهْرِ وَالأَبَدِ.. ٢٤ مَا أَعْظَمَ أَعْمَالَكَ يَا رَبُّ! كُلَّهَا بِحِكْمَةٍ صَنَعْتَ. مَلآنَةٌ الأَرْضُ مِنْ غِنَاكَ.. ٣٥لِتُبَدِ الْخُطَاةُ مِنَ الأَرْضِ وَالأَشْرَارُ لاَ يَكُونُوا بَعْدُ. بَارِكِي يَا نَفْسِي الرَّبَّ. هَلِّلُويَا. (مز ١٠٤: ١-٥ و٤٢، ٢٥).

الفصل التاسع: إيماني بكتاب الله

في ضجعة الموت قال سير والتر سكوت لصهره لوكهارت :"أي ولدي هات لي الكتاب واقرأ!". فأجاب لوكهارت متسائلا: "أي كتاب تريد؟" – إذ كانت مكتبة الأديب الانجليزي زاخرة بآلاف المؤلفات والكتب- وعندئذ جاء الجواب الرصين: "ليس هت يا بني سوى كتاب واحد!! اقرأ لي شيئا من الكتاب المقدس من إنجيل يوحنا".. فما الذي جعل هذا الكاتب الانجليزي العظيم يرى سائر المؤلفات والكتب في كل التاريخ والأجيال، وفي شتى اللغات واللغات والميادين منعدمة ولا شيء إزاء هذا الكتاب المقدس؟

في الواقع إن هذا الكتاب يبدو فريدا لا بالنظر إلى الزمان الذي كتب فيه، إذ كتب في أكثر من إلف وخمسمائة عام، ولا للكتاب المتعددين الذين اشتركوا في كتاباته في هذه الحقبة الطويلة من الزمان.. بل لأنه أولا وأخيرا ليس كتاب إنسان بل كتاب الله، ودور الإنسان فيه، على عظمته وجلاله، ليس هو الدور الرئيسي الهام، بل هو دور الله المهم والموحى والضابط والحائط الموجه. ومن ثم جاءت إسفاره المختلف المتعددة في وحدة متماسكة متناسقة منظمة!!. كما انه الكتاب الذي يعالج اخطر قضية في حياة الإنسان، ونعني به قضية وجوده ورسالته ومصيره.. ومن ثم تعين أن نقف من هذا الكتاب، وقفات متعددة لترى الحاجة إليه، وهدفه، ووحيه، وسلطانه، وتأثيره العجيب، واستعماله الصائب!!. وستكشف بعد هذا كله انه المنجم الفياض بالكنوز التي لا تقدر بثمن!!

الكتاب المقدس والحاجة إليه

ولعل أول سؤال يواجه الذهن البشري هو: هل نحن في حاجة إلى هذا الكتاب؟ وهل هو ضرورة حتمية له؟ وهل يمكن أن نجد عنه عوضا أو بديلا؟ أم ما يزال هو الكتاب الجوهري الهام الذي لا يوجد ما يحل محله أو يأخذ مكانه على الإطلاق؟ في الواقع إن الإجابة على هذا كله تقتضي بادئ ذي بدء، أن نتأمل الأنوار أو المصابيح التي كانوا البشر يستضيئون بها، وهم في سيرهم في مواكبهم على هذه الأرض؟ وهل كانت هذه كافية لهم، أو ما تزال، في إضاءة الطريق المجهول الذين يندفعون فيه، وهم في سبيلهم المجهد المضني الممتلئ بالإخطار والمتاعب والمآسي إلى المصير الأبدي المحتوم.. إن للإنسان كما هو معلوم دينا طبيعيا – إن صح هذا التعبير- يأتيه من ينابيع أربعة أساسية : أولها الطبيعة التي تكشف عن مجد الله وتتحدث بقدرته العظيمة السرمدية، إذ السموات تحدث نمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه، كما تتحدث في الوقت نفسه بصغر الإنسان وتفاهته إزاء مجد الخالق السرمدي!!. كما تفصح عن وجوده وعنايته وحنانه ومحبته- كما اشرنا إلى ذلك سالفا- كما أن الينبوع الثاني هو التاريخ الذي يسجل عظم الحوادث وتسلسلها ومصرع الشر ونهايته، أخر الأمر طال الزمان به أو قصر، مما يقوي الوازع العظيم بفكرة الخالق وارتفاع الحق ومجد الفضيلة في أعماق النفس البشرية!! إما الينبوع الثالث فهو العلم الذي إذ يزداد توغلا في فهم الإسرار المختلفة الممتدة في الكون والوجود إنما يكشف في الوقت نفسه عن عظمة ومجد العلة الأولى لكل شيء!!. وهناك الينبوع الرابع الذي هو الوجدان أو الضمير البشري يتحدث في رجل الأدغال كما يتحدث فيمن

يدعون اعلي الطبقات البشرية، وأكثرها حظا من المدنية والنور والمعرفة والحضارة.. هذه هي الينابيع المروية للدين الطبيعي في حياة البشر. وقد ترتفع بالإنسان مرات كثيرة، وتبلغ مراحل ممتازة وضيئة في الفهم والإدراك والمعرفة والنور. ولكن السؤال الهام هو: هل تكفي أو تغني هذه المعرفة الآتية من الوحي أو الإعلان..لقد وجدت في التاريخ أقوال مأثورة فاه بها أناس لم يصل الكتاب إلى علمهم أو يدر بخلدهم، ومع ذلك فهي مستقاة ولا شك من هذا النور الطبيعي الذي ينير حياة كل إنسان على هذه الأرض.. والتاريخ القديم في الشرق أو الغرب على حد سواء يشهد على ذلك، الم يقل مكسيموس تيريوس الفيلسوف الأفلاطوني : "أن ارتكاب الشر طواعية هو موضوع كراهيتنا!!؟ " كما إن ابيكتيتوس الفيلسوف الرواقي، والذي كان يؤمن إن الإنسان يحمل في نفسه وازعا أكيدا من المسئولية قال: "ومن ذا الذي يأتي إلى العالم ويحمل في نفسه فكرا فطريا عن الخير والشر، والملائم وغير الملائم، والسعادة والشقاء، والصائب وغير الصائب، وما ينبغي أن يعمل وما لا ينبغي أن يعمل؟". وقد صرح أرسطو الفيلسوف اليوناني الأشهر بالقول: "إن الإنسان الطيب والذي يعيش منصاعا لمبادئ الشرف، غنما يطيع في الواقع العقل، أما الرجل الرديء فهو ذالك الذي يتبع شهواته ويروض بالألم كالوحش!!؟ ولخص بلوتارك واجبات الناس تلخيصا دقيقا ملحوظا في القول: " ينبغي أن نعبد الآلهة، ونكرم أبائنا، ونحترم شيوخنا، ونطيع قوانين، ونقدم من هم اعلي منا، ونحب أصدقاءنا". وليس اقل من هذه كلها ما جاء في كتابات الفلاسفة والكتاب الآخرين أمثال سقراط وأفلاطون وستانيوس وسينكا وشيشرون وغيرهم من فلاسفة اليونان أو الرومان الأقدمين.. فإذا اتجهنا صوب الشرق سمعنا كونفوشيوس الصيني يقول: " إن من قلبا بارا، ويتمنى الخير للآخرين كما يتمناه لنفسه، ولا يهمل واجب الناموس الأدبي المطبوع في الناس بواسطة طبيعتهم العقلية، لا يعمل مع الآخرين ما لا يرغب أن يعمله معه".. كما نجد الأمر عينه في الأشتات المتناثرة هنا وهناك، في الديانات المصرية والبابلية والهندوسية والأشورية القديمة..ولكن السؤال مع ذلك يبقى منتصبا وقائما أمام الذهن أو الفكر البشري وهل تغني هذه كلها عن الوحي أو الإعلان الأتي من السماء؟...

من الواضح إن المعرفة الناهضة من هذا الدين الطبيعي مهما سمت وامتدت وعلت، لا يمكن أن تنير الطريق بوضوح وجلاء أمام الإنسان، إذ هي أشبه الأشياء في أبهى لمعانها ووهجها وضوئها المتناثر في الليل، والتي لا يمكن أن تغني عن وضوح النهار ونور الشمس، وفي ذلك يقول دكتور هـ. جراتان جوينيس في كتابه "الخليقة تتركز في المسيح" عن الفلسفة والطبيعة وعلاقتها بالنفس البشرية ما يلي: "الفلسفة.. وماذا تعلم إلا إن الإنسان لا يعلم شيء عن الأمور التي يتعين عليه أن يعرفها حقا؟.. هذا هو اكتشافها الأعظم، إنها تضيء شمعتها الواهنة المستدقة الطرف، وترفعها إلى اعلي لترى.. كونا غارقا في الظلام المدلهم، إنها تقرع بضرباتها المنظمة الرتيبة أعماق الجهل البشري!! وتضعنا بمجهود مضن، ولكن في مستوى اعلي في وسط الأشياء التي نشتغل بها.. وعبثا نسألها عن "ماذا" و "من أين " و "إلى أين" إذ وحيها أصم!! وعندما نتحول في يأسنا القانط من معرفة الحق والعزاء والقداسة والحياة عن طريق الذكاء الإنساني الخائب، إلى مظهر الطبيعة الجليل، ونرفع أيدينا في فضاء الكون الشاسع غير المحصور ونسال، من يعطينا النجاة؟!!؟ نجد الجواب الوحيد إن كان هناك ثمة جواب، في صمت النجوم الأبدي المرتفع فوقنا، وفي سكون القبر الدائم الرابض تحتنا ". على أن الأمر أكثر من ذلك إلى حد بعيد. إذ ليس يكفي أن يعرف المرء الفرق بين الخير والشر، والحق والباطل، والمقبول وغير المقبول، بل يلزم آن يعرف كيف يختار الخير والحق والمقبول، ويرفض ما دونها في كل المجالات والأوقات والأزمنة!! وهنا يعجز الدين الطبيعي في ذروته وقمته عن التحقيق العملي لما ينشده الإنسان في هذا السبيل، انه لا يستطيع أن يصلح في كل محاولاته ومجهوداته الطبيعية الخربة المتصدعة المنهدمة في الإنسان. وقد صدق من قال أن الإصحاحات السبعة الأولى من رسالة رومية تكشف إلى ابعد حد عن

الحقيقة الصادقة للإنسان الطبيعي، وعجزه الكامل الشامل عن تحقيق إي صلاح أو سمو أو كمال، إذ صرخته الدائمة: "١٥لأَنِّي لَسْتُ أَعْرِفُ مَا أَنَا أَفْعَلُهُ إِذْ لَسْتُ أَفْعَلُ مَا أُرِيدُهُ بَلْ مَا أُبْغِضُهُ فَإِيَّاهُ أَفْعَلُ.. ١٨فَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ سَاكِنٌ فِيَّ أَيْ فِي جَسَدِي شَيْءٌ صَالِحٌ. لأَنَّ الإِرَادَةَ حَاضِرَةٌ عِنْدِي وَأَمَّا أَنْ أَفْعَلَ الْحُسْنَى فَلَسْتُ أَجِدُ. ١٩لأَنِّي لَسْتُ أَفْعَلُ الصَّالِحَ الَّذِي أُرِيدُهُ بَلِ الشَّرَّ الَّذِي لَسْتُ أُرِيدُهُ فَإِيَّاهُ أَفْعَلُ. ٢٤وَيْحِي أَنَا الإِنْسَانُ الشَّقِيُّ! مَنْ يُنْقِذُنِي مِنْ جَسَدِ هَذَا الْمَوْتِ؟ (رو٧: ١٥و ١٨و ١٩و ٢٤).. فإذا أضيف إلى هذا كله ذلك اللغز الرهيب المحير الذي يحيط بالحياة البشرية ويحف بها، بل ويثخنها بالجراح المروعة القاسية، ونعني به لغز الألم، وسألنا هل من طبيب أو علاج أو بلسان؟. لوجدنا الجواب المتردي في هاوية الشقاء: أن لا سبيل إلى ذلك في الدين الطبيعي وفي استعداد الإنسان وقوته الشخصية!. وكل فلسفة الرواقيين تجاه الألم: أن احتمل وامتنع عن التذمر!. وفلسفة بوذا أن اصبر فان هذا هو القاسم المشترك الأعظم بين الناس، وفلسفة كونفوشيوس المشاركة في إلام الآخرين بالإحساس والدموع، لعل في ذلك نوعا من المساهمة والتعزية.. إزاء هذا كله كانت الحاجة والضرورة إلى كتاب الله، أمرا لا مناص منه، ولا سبيل إلى الاستغناء عنه، أو التغيير أو التبديل أو التحوير فيه.

الكتاب المقدس وهدفه

أما وقد أدركنا الحاجة إلى هذا الكتاب، تعين علينا أن تتبين في المعنى الأدق، هدفه وغايته والرسالة التي عليه أن يقدمها للجميع الناس، وكل كتاب وتبدو قيمته، كما هو معلوم من الغاية والهدف أو القصد الذي وضعه الكاتب أو المؤلف نصب عينيه، وهو يعده ويخرجه للناس؟ فما هو هدف هذا الكتاب الإلهي العظيم!؟ الذي لا شك فيه، أن الله لم يقصد أن يجعل من هذا الكتاب نوعا من الكتب الأخرى التي تعالج هذا الموضوع أو ذاك من التاريخ أو الجغرافيا أو الطبيعة أو الفلسفة أو الاجتماع أو ما أشبه، وان كانت قد جاءت هذه كلها أو غيرها في ثناياه، إذ لا يمكن أن يكون بهذا المعنى هو الكتاب الوحيد الفريد الموحى به من الله، إذا كانت هذه كلها أو بعضها هي الهدف النهائي أو الغاية الرئيسية من وجوده في هذا التاريخ أو الأجيال.. فإذا قيل بعد هذا لماذا لم يشرح موسى بأكثر إفاضة عن قصة الخلق كما يحدثنا عنها الجيولوجيون!؟ لأجبنا : لان الكتاب لم يكن في يوم من الأيام كتابا في علم الجيولوجيا أو التاريخ الطبيعي، وان كان موسى في الوقت عينه قد كشف عن الخطوط والمبادئ الأساسية في الجيولوجيا، وهو يحدثنا عن الخليقة كما اشرنا إلى ذلك في (صفحة ٢١٨) وإذا قيل بان العلماء الذين يدركون مكانة التاريخ السياسي بين الناس ما يزالون إلى اليوم ينتحبون لضياع أكثر من سبعين بالمائة من مؤلفات ليفي التاريخية، وثمانين في المائة من مؤلفات تاسينوس ويوربيوس، والجزء الأكبر من كتابات سوفوكليس، وإنهم يحيون على الدوام كل مكتشف أو بحث يلقي النور على زوايا ومنعطفات التاريخ المجهولة، فلماذا لا يهتم الكتاب المقدس بعرض التواريخ المتعددة لشعوب العالم لأجبنا لان الكتاب لم ينشا في الأصل ليكون كتاب تاريخ، وان كان هو الكتاب الوحيد الذي كتب في أكثر من إلف وخمسمائة من الأعوام، وجمع تاريخا مركز للبشرية من أدام إلى يوم المسيح.. وإذا كان السؤال لماذا لا تنهض من الكتاب هذه المتعة والرنين السحري الأتي من الشعر والأدب والفن والفلسفة؟. لقلنا لان الكتاب لم يكن هدفه الأول هو التيجان الشعري، أو الرنين الموسيقي أو المتعة الفلسفية، وان وضح كما يقول بروفسوفيلبس : "أن الشعر الوجداني العبراني كان في عصره الذهبي قبل أن يولد هوراس الشاعر اللاتيني بألف عام على الأقل، كما أن دبورة غنت أغنيتها قبل ميلاد سافو بخمسمائة عام أيضا، كما أن أمثال سليمان كانت معروفة قبل لمؤلفات سنيكا بثمانمائة عام تقريبا". أن رسالة الكتاب كانت شيئا اعلي وأعظم من كل هذه الاتجاهات التي عرفها الإنسان وشغف بها في تاريخه الطويل على الأرض. أن هدف الكتاب كان في كلمة واحدة: هو خلاص الإنسان نفسه، وصنع طبيعته المحطمة من جديد.. فإذا وضعنا هذه الحقيقة

نصب أعيننا أمكننا أن نفهمه ونفسره وندرك مكنونات حقائقه ومرمى اتجاهاته، ولعل هذا التعميم يحتاج إلى شيء من التفصيل.

يقول بنيامين كيد الباحث والفيلسوف الاجتماعي العظيم : أن أهم عامل في حياة إي امة على الأرض ليس هو العامل التجاري أو الاجتماعي أو الفكري بل هو العامل الأدبي والروحي فيها، فحاجة الناس الأولى والقصوى قبل المعيشة والتمدين والتعليم هي إصلاح الخلل والعطب في طبيعتهم الروحية، أو في لغة أخرى حاجتهم الأولى والأساسية إلى ما يدعوه كتاب الله "بالخلاص" وليس على الأرض كلها من مرشد ودليل إلى هذا الخلاص إلا الكتاب المقدس. الم يقل الرسول: "١٥وَأَنَّكَ مُنْذُ الطُّفُولِيَّةِ تَعْرِفُ الْكُتُبَ الْمُقَدَّسَةَ، الْقَادِرَةَ أَنْ تُحَكِّمَكَ لِلْخَلاَصِ، بِالإِيمَانِ الَّذِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ. ١٦كُلُّ الْكِتَابِ هُوَ مُوحىً بِهِ مِنَ اللهِ، وَنَافِعٌ لِلتَّعْلِيمِ وَالتَّوْبِيخِ، لِلتَّقْوِيمِ وَالتَّأْدِيبِ الَّذِي فِي الْبِرِّ، ١٧لِكَيْ يَكُونَ إِنْسَانُ اللهِ كَامِلاً، مُتَأَهِّباً لِكُلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ." (٢تي٣: ١٥-١٧). فإذا كان العهد القديم قد تحدث عن الخطية والسقوط والذبائح الدموية، فما هذه كلها إلا تمهيدا ورمزا أو إعلانا لما جاء في العهد الجديد، عن حمل الله الذي يرفع خطية العالم، ومن هنا أدركنا كيف كان المسيح في العهدين هو الإلف والياء، البداية والنهاية، إذ هو في العهد القديم المرموز إليه في الكثير من الصور والفرائض والطقوس وألوان العبادة، وهو في العهد الجديد الحقيقة الكبرى التي أكملت أتمت جميع هذه الرموز على الوجه المطلق الكامل الحاسم النهائي، ومن ثم جاء الإيمان المسيحي مرتبطا ومقترنا بهذه كلها..وحقا قد وصف احدهم هذا الإيمان بالقول: " أن الإيمان المسيحي هو الإيمان بالكتاب المقدس، الأمر الذي يربط جميع الكنائس على وجه الإطلاق في العالم من الكنائس الكاثوليكية إلى "الكويكرز" ومن لوثر إلى الكاردينال نيومان، وفي كل عصور التطورات والتغيرات المختلفة في الكنيسة المسيحية، بقي الكتاب كما هو، المصدر والأساس الذي تستقي منه الكنيسة كل قواعدها للتحديد، وخلال التسعة عشر قرنا التي مرت بالكنيسة جاءت أوقات وأزمان أصيب فيها بإمراض قاتلة حتى أن فولتير تنبأ بالنهاية القريبة لكتاب الله، ولكن المعروف انه من ذات البيت الذي صدرت منه هذه النبرة يوجد في الحاضر جمعية التوراة البريطانية التي توزع ملايين النسخ من الكتاب المقدس في إرجاء العالم كل عام،انه الكتاب الذي جعل من الكنيسة مرات ومرات شابة وصحيحة، وحقا لا يمكن أن يوجد الكتاب المقدس بدون كنيسة، ولكن العكس صحيح أيضا، إذ لا يمكن أن توجد الكنيسة من دون الكتاب المقدس، فالمسيحية من دون الكتاب كان من الممكن أن تكون من زمن بعيد صورة هزيلة شوهاء. وعندما نقول أن الإيمان المسيحي هو الإيمان بيسوع المسيح فإننا نقصد ضمنا انه هو الإيمان بالكتاب المقدس، فحيث لا كتاب مقدس لا مسيح، وحيث لا يوجد كتاب مقدس لا توجد كلمة الله".ولعل هذا ابلغ وأدق تعيين لهدف الكتاب المقدس.

الكتاب المقدس وقانونيته

وكلمة قانون بالنسبة للكتاب المقدس مأخوذة من كلمة يونانية معناها "مسطرة" أو "قصبة" أو "عصا مستقيمة" وقد استعملت في فجر المسيحية، بمعنى قياس الرأي المستقيم وأخذت بمعنى بيان الإسفار التي قبلتها الكنيسة المسيحية واعتبرتها أجزاء الكتاب المقدس".. وقد استلمت الكنيسة المسيحية من اليهود أسفار العهد القديم التي قرر اليهود في مجمع "يمينة" عام ٩٠م قانونيتها. ولابد من الإشارة هنا لماذا رفضت الكنيسة البروتستانتية ما يطق عليه إسفار "الابوكريفا " وأبعدتها عن الدرج في قانون الوحي المقدس، فنقول أن الابوكريفا لم تضف على إطلاقا إلى النص العبراني للكتاب المقدس في العهد القديم، ولكنها أضيفت إلى الترجمة السبعينية اليونانية.. وبعض الإباء الأوائل قد استعملها ككتب أدبية دينية. ولكنها لا يمكن أن تكون كتبا

مقدسة موحى بها من الله، وعندما زار ملتو الساردي عام ١٧٠م ارض فلسطين رجع يقول أن النص العبراني وحده هو الذي يعتبر وحيا مقدسا، وقد رفضت الكنيسة الشرقية بوضوح درج هذه الإسفار في الكتب المقدسة، فاثناسيوس وكيرل الأورشليمي وغريغوري النازينزي وابفانيوس أخرجوها من الإسفار المقدسة، وان كان اثناسيوس قد ذكر انه لا يمانع من استعمالها ككتب دينية تعليمية. بينما رفض كيرل الأورشليمي حتى مجرد استعمالها ككتب خاصة، ولم يمانع الذهبي الفم، وثيودور ويوحنا الدمشقي من أخذها ككتب مفيدة للحياة الدينية، دون أن يكون لها أدنى اثر في العقيدة المسيحية، إذ لا تدرج عندهم في الكتب المقدسة... وفي الكنيسة الغربية ذكر جيروم أن كل ما خرج عن النص العبراني يعتبر من الابوكريفا ولا يجوز اعتباره قانونيا.. وأيا كان الاتجاه الضيق أو الواسع الذي عوملت به الابوكريفا في فجر التاريخ المسيحي، فان النص العبراني للعهد القديم الموجود عند اليهود المسيحيين يقطع بسلامة الكتاب من كل تحريف، لأنه نص واحد بين يدي جماعتين عاشتا على خلاف فكري وعقائدي مدى إلفي عام في التاريخ المسيحي.

فإذا أضيف إلى هذا اكتشاف "مخطوطات وادي قمران " في الشمال الغربي للبحر الميت بفلسطين، الاكتشاف الذي هز العالم كله، وأمدنا بأقدم نسخ عرفت حتى اليوم للعهد القديم وترجع إلى القرن الأول قبل المسيح.. كانت أقدم مخطوطة عبرانية للعهد القديم قبل ذلك ترجع إلى سنة ٩١٦ م، غير أن احد الرعاة العرب دخل عام ١٩٤٧م إلى مغارة وادي قمران، وعثر على مخطوطات قديمة، ما أن عرضت على البحث العلمي، حتى أثارت أبحاث العلماء في المنطقة كلها، ومن العام ١٩٤٧ إلى العام ١٩٥٣م عثر في إحدى عشر مغارة على مكتبة دينية كاملة وعثر على أقدم مخطوطات للعهد القديم ترجع إلى أكثر من إلفي عام، وقوة الشهادة العلمية لهذه المخطوطات اقوي واعلي من كل مناقشة ومجادلة.

وما أن انتهى القرن المسيحي الأول حتى كانت جميع إسفار العهد الجديد، قد أصبحت بين يدي المسيحيين، ولعل الرسول بطرس هو أول من أشار إلى مركز هذه الإسفار وقانونيتها عندما أشار في رسالته الثانية إلى كتابات بولس، وقد ساوى اغناطيوس بين الإنجيل والأنبياء، وفي عام ١١٥م قارن بوليكاربوس بين المزامير ورسالة افسس بكيفية تؤكد انه يعتبر الاثنين في مركز واحد من الوحي المقدس. وقد ذكر اكليمندس السكندري أن الله أعطى شعبه الجديد "العهد الجديد" واقتبس ايرانيوس عن بولس الرسول مائتين وستة اقتباسات كسند كتابي موحى به، واستعمل تعبير العهد الجديد لأسفار الإنجيل، بذات المعنى الذي استعمل فيه لفظ العهد القديم للتوراة اليهودية، ومن الغريب أن أقدم من ذكر أسفار الإنجيل بالصورة التي بين أيدينا كان مارسيون الاسقوبي الذي عاش على البحر الأسود عام ١٤٤م، وكان ماسيون مفتونا بالإنجيل، إلا أن الكنيسة رفضته، لأنه كان يميل إلى الغنوسية، ويحتقر العهد القديم.. ولكن شهادته التاريخية. شهادة إنسان تحول عدوا للمسيحية، والحق ما شهد به الأعداء.. أما اثناسيوس فقد كان أول من وضع التقويم الرسمي لأسفار العهد الجديد من بين آباء الكنيسة الأوائل.

وما دمنا بصدد التاريخ، فمن اللازم أن نشير إلى الكتاب المقدس غير قابل للتحريف بالدليل المادي الملموس، إذ أن هناك أربعمائة مخطوطة قديمة في شتى أنحاء العالم لا يتسع المجال للحديث عنها، وسنكتفي بالإشارة، إلى أشهرها "١" المخطوطة السينائية التي وجدها العالم الألماني تشندروف في دير القديسة كاترين في سيناء وترجع إلى القرن الرابع الميلادي، وتشمل العهدين القديم والجديد معا، وقد أهديت هذه المخطوطة إلى القيصر نيقولا الثاني إمبراطور روسيا الذي أمر بطبعها ونشرها عام ١٨٦٢م ثم بيعت بعد ذلك للمتحف البريطاني حيث توجد فيه حاليا.. "٢" المخطوطة الفاتيكانية وترجع إلى القرن الرابع

الميلادي وهي موجودة ألان في الفاتيكان "٣" المخطوطة السكندرية وقد كتبت في القرن الخامس الميلادي، وقد بقيت في حوزة بطاركة الإسكندرية حتى أهديت عام ١٦٢٨ إلى تشارلس الأول ملك انجلترا "٤" مخطوطة افرام ريسكنس الآتية إلينا من أوائل القرن الخامس والتي استخدمها افرام السرياني في ترجمة الكتاب "٥" مخطوطة بيزا والآتية أيضا من القرن الخامس والتي ورد فيها النص اليوناني على الشمال والنص اللاتيني على اليمين "٦" مخطوطة يوساليوس والتي تحمل طابع القرن السادس، هذه المخطوطات وغيرها من المخطوطات التي جاءت في اللغة اليونانية بعد ذلك، وكلها تشير إلى أصالة وصدق الكتاب المقدس من الوجهة التاريخية.

وقد كان اليهود الذين نسخوا الكتاب المقدس من أدق الناس على ظهر الأرض في الحفاظ على نصه وقد قال يوسيفوس المؤرخ اليهودي : "أن لدينا البرهان على احترامنا لكتبنا المقدسة فمع انه قد مضت أزمنة طويلة إلا أن احدهم لم يجرؤ أن يضيف أو يمحو أو يغير، جزءا من إي كلمة فيها، وإنها غريزة عند كل يهودي من مولده، أن يعتبرها قوانين الله التي يمسك بها، وإذا لزم أن يموت بفرح من اجلها، والزمن يشهد ألان، ومن قبل، على منظر المسجونين الذين تحملوا العذاب والموت من كل نوع، على أن يقولوا كلمة ضد النواميس والوثائق المماثلة "... وكان التلمود يقرر أن كل من ينكر على التوراة مصدرها يعتبر مرتدا لا يمكن أن يرث السماء في الدهر الأتي والحياة الأبدية، كما أن اليهود أكثر من ذلك كانوا يؤمنون بان هناك ثلاثة أشياء لها قدسيتها الخاصة عندهم وهي الهيكل، والسبت، والتوراة.

فإذا انتهينا إلى الفكر المسيحي رأينا أمعن وأدق من اليهود في الإجلال والاحترام لكلمة الله ونصها، وهناك أمثلة غير قليلة في هذا الشأن، فإذا كان جيروم وهو يريد أن يترجم النص العبراني، إلى الترجمة اللاتينية المعروفة بالفولجاتا يعيش في مغارة في بيت لحم لمدة خمسة وثلاثين عاما ما بين ٣٨٦- ٤٢٠ ميلادية ليقوم بهذا العمل العظيم.. وإذا كان بعض النساخ الذين توافروا على نسخ الكتاب المقدس، قيل أن بعضهم قضى عمره بأكمله لإتمام نسخة واحدة حتى تكون على أروع ما تقع عليه العين جمالا وخطا.. فإذا اخذ من مخطوطة غارقة في القدم، وجاء أمام حرف بلت بعض أطرافه، كان عليه أن يرسمه كما هو، وربما يشير في الهامش إلى احتمال حرف أخر، دون أن يحمل نفسه اجتهادا أو تفسيرا خاصا!!

ومن الثابت على إي حال أن المسيحيين الأوائل، في اختلافهم حول تفسير النصوص الكتابية، لم ينازع واحد منهم قط، في أصل النص الكتابي أو صحته أو قانونيته، مما يبين معه أن قانونية الكتاب، ارتفعت فوق كل نقاش أو جدال أو نزاع.. وهذا ما ثبت في مجمع نيقية والمجامع التالية اللاحقة له.

الكتاب المقدس ووحيه

أما وقد تبينا قانونية الكتاب، تعين علينا أن نتحول إلى قضية من أعمق وأخصب القضايا الدينية، ونعني بها "وحي الكتاب المقدس" وما مدلول العبارة "موحى به من الله" والى مدى تسير، والى إي اتجاه تبلغ، ولعلنا نستطيع الوصول إلى هذا كله متى أدركنا الحقائق الثابتة الآتية:

١ـ الفكر اللغوي عن الكتاب

يقول الرسول بولس: "كُلُّ الْكِتَابِ هُوَ مُوحىً بِهِ مِنَ اللهِ، وَنَافِعٌ لِلتَّعْلِيمِ وَالتَّوْبِيخِ، لِلتَّقْوِيمِ وَالتَّأْدِيبِ الَّذِي فِي الْبِرِّ، ١٧لِكَيْ يَكُونَ إِنْسَانُ اللهِ كَامِلاً، مُتَأَهِّباً لِكُلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ. "(٢تي ٣: ١٦و ١٧) ويقول الرسول بطرس : "١٩وَعِنْدَنَا الْكَلِمَةُ النَّبَوِيَّةُ، وَهِيَ

أثبَتُ، الَّتِي تَفْعَلُونَ حَسَناً إن انتَبَهْتُمْ إلَيْهَا كَمَا إلَى سِرَاجٍ مُنِيرٍ فِي مَوْضِعٍ مُظْلِمٍ، إلَى أَنْ يَنْفَجِرَ النَّهَارُ وَيَطْلَعَ كَوْكَبُ الصُّبْحِ فِي قُلُوبِكُمْ، ٢٠ عَالِمِينَ هَذَا أَوَّلاً: أَنَّ كُلَّ نُبُوَّةِ الْكِتَابِ لَيْسَتْ مِنْ تَفْسِيرٍ خَاصٍّ، ٢١ لأَنَّهُ لَمْ تَأْتِ نُبُوَّةٌ قَطُّ بِمَشِيئَةِ إِنْسَانٍ، بَلْ تَكَلَّمَ أُنَاسُ اللَّهِ الْقِدِّيسُونَ مَسُوقِينَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ. (٢بط١: ١٩-٢١) والكلمة "موحى به" في الأصل اليوناني تعني "نسمة أو نفخة أو نفس" وسواء كانت الصفة في الأصل كما يعتقد اللغويان المشهوران ايوالد وكريمر أو كانت ساكنة كما يصر وورفيلد ؛ فان الله نفخ في الإنسان بالكتاب المقدس، أو ساق أناس الله القديسين بروحه الذي سيطر عليهم وحركهم ودفعهم دفعا لكتابة الوحي الإلهي، وهنا يثور السؤال البديهي، وما نصيب الله، ونصيب الإنسان في هذا الكتاب؟!!؟ والى إي مدى عملت نفخة الله أو نسمته في هذا الإنسان عندما أوحي إليه بالكتاب المقدس!!؟

من المهم أن نشير هنا إلى الأصل في هذا الكتاب، هو الله لا الإنسان، ولأجل ذلك دعي كتاب الله، وان الله كان متحركا ونشطا ومسيطرا تمام السيطرة على الكنيسة الموحى إليهم به، وهو يقدم كتابه للإنسان في كل عصور التاريخ المسيحي، ولهذا لا يتعجب ايرانيوس، لما قد يوجد فيه في كثير من الأحايين، ما قد يعلو على الفهم، إذ انه "في كماله روحي". كما أن غريغوري النيسي كان يؤمن أن عقيدة بولس في الكتاب، انه بكامله من عمل الروح القدس، واوريجانوس وغريغوري النازينزي كانا يؤمنان بتدخل روح الله في اصغر الألفاظ الكتابية، إلى درجة أن اوريجانوس كان يصرح بأنه لا يوجد مقطع واحد في الكتاب، لم تكتب دون أن تؤدي الغرض المقصود فيها، وقد سار جيروم في ذات الاتجاه إلى درجة انه قال انه لا توجد عبارة واحدة، أو كلمة أو مقطع من غير معنى، والذهبي الفم امن بأهمية الأرقام والأسماء الواردة في الكتاب إلى درجة انه وعظ مرتين على الأسماء الواردة في رومية الإصحاح السادس عشر يقنع سامعيه بخزائن الحكمة في كل كلمة من كتاب الله.

وغير خاف أن فيلو السكندري كان يعتقد أن روح الله عندما كان يستولي على الأنبياء كان يفقدهم وعيهم إلى درجة لا يعلمون معها ما يتكلمون بل كان الله يتكلم على لسانهم، وقد سار في ذات النهج من الوجهة المسيحية لثيناجوراس المدافع المسيحي، إذ اعتقد بان الأنبياء عند النبوة يصيبهم نوع من النشوة، فيرون أنفسهم يرددون الوحي كما ينفخ الموسيقي في المزمار، على أن الرأي الواضح في الفكر المسيحي، لا يتجه هذا الاتجاه علىالإطلاق إلا في حالة واحدة، وذلك عندما يدخل الأمر في نطاق الإعلان عن أمور مستقبلة مجهولة ليس في قدرة الإنسان أو علمه أو وقته أو زمنه التنبوء بها أو الكشف أو الإعلان عنها، وعندئذ لا مناص في هذه الحالة وفي هذه الحالة وحدها، من أن يكون الوحي إليه أشبه بالآلة التي لا تملك إلا أن تسجل وتلتقط ما يذاع أو يقال لها، ومن هذا القبيل نبوات الأنبياء الذين تنبؤا عن أحداث أو أشخاص، جاءت أو تجيء بعدهم بمئات أو ألاف السنين، أو حتى أولئك الذين نطق الله على لسانهم، بما لم يكونوا يرغبون أو يدرون كبلعام بن بعور أو قيافا أو أشياء عظيمة متصلة بالمسيح!!..

والمسيحية في غير هذه الجزئية المحددة لا ترى كتاب الوحي مجرد آلات صماء ساكنة جامدة تسجل ما يذكره الله، بل هم على العكس أناس مختلف المواهب والملكات والوزنان، وقد دفعهم الله وحركهم وساقهم ونفخ بروحه القدوس فأشعل ما فيهم من مواهب أو وزنات واستغل جميع ما لهم من ملكات أو إمكانيات وقد صور وورفيلد العلاقة الإلهية البشرية في الكتاب بذلك الضوء الذي نفذ خلال زجاج الكاتدرائيات الملون، والذي وان كان في حد ذاته نورا علويا يأتي من الشمس، إلا انه يحمل معه لون الزجاج عندما ينفذ خلال النوافذ إلى داخل الكاتدرائية، على أن الكاتب لم ينس أن يتحفظ في القول لئلا يكون

في لون الزجاج كأنما ينكرون على الله – عند تطبيق الأمر على الوحي الإلهي – قدرته الإلهية على تجهيز وحماية وصيانة هؤلاء الكتاب، ليؤدوا رسالتهم على الوجه الدقيق المصون والمعين والمرتب من قبل الله"..

أن نسمة الله في الوحي ونفخته تعني في الواقع تلك العناية الإلهية الدافعة والحافظة، والعاصمة، والمنقية، والمحددة لما يكتب، بل تعني مرات كثيرة صيانة التذكر، فيذكر الكاتب ما يريده الله أن يكتب، وتعني في الوقت عينه صيانة الترك فيما لا يرغب الله أن يذكر أو يكتب.. كما نعني صيانة التفصيل فيما يريد أن يكتب مفصلا، أو صيانة الإجمال فيما يكتب مجملا دون أن يتعارض مع إي تفصيل علمي أو غير علمي يمكن أن يلحق به مع الأيام"..

وخلاصة الأمر بعد هذا كله، أن الوحي الإلهي ذو عنصرين،عنصر الهي، وعنصر سماوي، فإذا جاز أن نصوره كما صوره الإباء الأولون، كنفخ في مزمار أو إيقاع على وتر معين، فان كل مزمار أو وتر يصدر الإلحان أو الأنغام حسب حجمه وسمكه وصنعه بصورة تختلف عما يصدره مزمار أخر أو وتر أخر.. وإذا رأينا كما إلف التاريخ المسيحي بعد ذلك أن يراه قدرات معينة في الإنسان يسيطر الله عليها، ويعصمها من الزلل والخطأ، فتكتب ما يشاء الله وما يريد، حتى تأتي الحكمة السوية والغاية المنشودة من كتاب الله الموحى به لهداية الإنسان في الأرض!!...

٢ـ الفكر العلمي عن الكتاب

فإذا كان الأمر في المعنى اللغوي الدقيق على ما سلفت الإشارة إليه، فكيف تقبل الناس أو يقبلون هذا الكتاب على مر الأجيال والعصور، وعلى اختلافهم في الأفكار والمشاعر والعقائد!!..

من الواضح بادئ ذي بدء أن المسيح والرسل والتلاميذ قبلوه جميعا بدون تحفظ، ولعل الكنيسة المسيحية في مسارها التقليدي مدى إلفي عام ترى في هذه الحقيقة حجتها الكبرى في قبول الوحي الإلهي دون أدنى تحفظ، فإذا كان المسيح قد استند إلى الكتاب، وكرر قول المكتوب، وأكد انه "إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل" (مت٥ :١٨) مما يبين مدى رأيه وعقيدته في الوحي الإلهي المنسوب إلى هذا الكتاب، وإذا كان الرسول بولس يقول: " كل الكتاب هو موحى به من الله " (٢تي٣ :١٦) والكلمة كل تفيد الكتاب بجملته وتفصيلا في شتي محتوياته ومشتملاته ونواحيه.. وإذا كان الرسول بطرس يقول: "عالمين أولا أن كل نبوءة الكتاب ليست من تفسير خاص لأنه لم تأتي نبوة قط بمشيئة إنسان" (٢بط ١: ١٩-٢٠) مما يفيد يقينه بمصدر كل نبوة إلهية، وإذا كان يوحنا الرسول في ختام سفر الرؤيا يقول : " أَنِّي أَشْهَدُ لِكُلِّ مَنْ يَسْمَعُ أَقْوَالَ نُبُوَّةِ هَذَا الْكِتَابِ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَزِيدُ عَلَى هَذَا يَزِيدُ اللهُ عَلَيْهِ الضَّرَبَاتِ الْمَكْتُوبَةَ فِي هَذَا الْكِتَابِ. ١٩وَإِنْ كَانَ أَحَدٌ يَحْذِفُ مِنْ أَقْوَالِ كِتَابِ هَذِهِ النُّبُوَّةِ يَحْذِفُ اللهُ نَصِيبَهُ مِنْ سِفْرِ الْحَيَاةِ، وَمِنَ الْمَدِينَةِ الْمُقَدَّسَةِ، وَمِنَ الْمَكْتُوبِ فِي هَذَا الْكِتَابِ. "(رؤ٢٢: ١٨ -١٩).. أو في معنى أخر انه يختتم على صحة وصدق العهدين القديم والجديد، فإذا كان السيد والتلاميذ قد قبلوا الكتاب بهذا المعنى، فلا عجب أن تقبله العصور اللاحقة لفظا ومعنى بما اشرنا إليه سابقا في أقوال القديسين القدامى.

ولعله من المثير والعجيب معا أن هذا الكتاب قد زاد تألقا ومجدا، وما يزال إلى اليوم، كما تعرض للبحث والدرس والنقد العلمي، إذ هو كالجوهر الدري النفيس يزداد بالاحتكاك لمعانا ونورا، وانه لا يجوز حمايته من البحث والدرس والنقد العلمي، بوسائل قهرية أو مصطنعة، بدعوى انه كتاب الله، لأنه أما أن يكون هذا الكتاب كتابا لله حقا، لا يخشى النور، أو يجفل من

النهار، أو يفزع من الحجة والمقارعة، أو لا يكون كذلك، وعندئذ تكون مهانة الله أو الإنسان أن يحمي الكتاب بالقوة الغاشمة، أو قتل البديهة والمنطق والتفكير!!..

وقد تصور البعض أن النقد العلمي لهذا الكتاب جاء متأخرا في القرن الثامن عشر وال.ع عشر في إعقاب النهضة العلمية الأوربية فيما عرف بالنقد الكتابي "Biblical Criticism لكن هذا غير صحيح على الإطلاق، إذ أن النقد العلمي للكتاب بدا منذ فجر المسيحية، وقد اخذ به المدافعون المسيحيون في القرن الثاني الميلادي ليتمكنوا من إدراك النص، وصحته، وحجيته، وكيف ينفعهم في بنيان حياتهم المسيحية، والدفاع عن عقيدتهم في مواجهو الوثنيين، واليهود، والفلسفات المتعددة المختلفة التي شاعت في تلك العصور.. وعلى العكس من ذلك فان المحن الكبرى التي تعرض لها تاريخ هذا الكتاب، ومنع تداوله في العصور الوسطى، وحرمان تفسيره أو ترجمته أو الاجتهاد فيه.. وما أن عاد النور في النهضة العلمية، حتى رأى فيه الكثيرون من رجال الإصلاح أمثال لوثر وملانكثون وزونجلي وارزاموس أعظم فرصة لكشف الحق الإلهي في كلمة الله.

وقد انقسم النقد الكتابي إلى نوعين مختلفين من النقد العلمي فيما أطلق عليه علميا ""Lower Criticism النقد الأدنى، "Higher Criticism" النقد الأعلى، وقد قام بحث النقد الأدنى على دراسة مخطوطات دراسة علمية دقيقة، ووزن اللغة، والآية الكتابية، وتاريخ المخطوطة، وعصرها، وإمكانية الاعتماد بحلها علميا، وقد كان موفقا في ذلك كل التوفيق، لأنه ألقى ابهر الأضواء وأمجدها على الكتاب المقدس، وخدم قضية الكتاب أجمل خدمة واجلها على وجه الإطلاق، أما النقد الأعلى فقد تجاوز هذا الحد، ولم يكتف بالدراسة الواقعية الملموسة،بل مزجها بما يمكن أن يتخيلها الناقد أو يقبله عقله وذهنه وخياله، ومن ثم عيب على النقد الأعلى، خلط الواقع بالتصور،والحقيقة بالخيال، حتى لم نر بين النقاد جميعا، اثنان منهم اتفقا على شيء واحد، وقد لاحظ البرت شويترز على سبيل المثال في كتابه المعروف : "السؤال عن المسيح التاريخي" إنهم لم يصوروا المسيح، كالمسيح الذي جاء تاريخيا في القرن الأول، بل كالمسيح الذي تخيلوه في القرن التاسع عشر أو القرن العشرين، ومهما حاولنا تصفيفهم، فان إعدادهم لا يمكن أن تتحد أو تتفق على شيء، وتكفي الإشارة إلى الجماعات الصغيرة، منهم التي انشقت على القافلة المسيحية فيما أطلق عليها من بدع "المرمونية" وأصحاب "العلم المسيحي" أو "الثيوصفية" أو مذهب التصوف أو الاتصال أو الفناء في الله ا "المذهب الروحاني" أو "العقليين" الذين يعتمدون فقط على العقل البشري أو "الباطنيين" وهم ممن يرون إنارة الله للإنسان عن طريق الصمت والسكون أمامه.

ومهما اختلفت الآراء المنبثقة عن هؤلاء جميعا، ومما يطلق عليه حركة النقد الأعلى، فمما لا ريب فيه أن تضاربهم فيما يتعلق بكتاب الله واضح ومكشوف، إذ وجد فيهم من تمادى في أفكار الوعي كالعقليين والباطنيين أو مفكري الوحي، فان الضربة القاضية التي قد أصابت حركتهم كانت من الفيلسوف عمانوئيل كانت الذي هاجم جميع المعتقدات التي تؤمن بالوصول إلى إدراك الله عن طريق البحث أو العقل البشري، أما جان لوك الفيلسوف فقد هاجم مهاجمة عنيفة الإلحاد والملحدين وكان اقل صبرا في الإبقاء عليهم باعتبارهم أنهم عقبة كأداء في طريق المدنية والحضارة الغربية.. ولكننا فيما اعتقد لم نكن في حاجة إلى إسعاف كانط أو لوك للدفاع عن وجود الله والحاجة إليه أو وحيه، فان هذه الحقائق العظيمة موجودة ومؤكدة، قبل وبعد فلسفة الشرق والغرب معا، ولكننا ذكرنا من قبيل ذكر المشاهد لحلبة الصراع يتصارع فيها ويتقاتل المتصارعون والمقاتلون!!..

فإذا وجد بعد ذلك من سلم بالكتاب وامن به، ولكنه اتخذ نظرية أخرى مفادها أن الكتاب المقدس يحتوى على كلمة الله، وانه يجوز للإنسان أن يأخذ منه ما يراه كلمة الله، وان يرفض ما يراه غير ذلك، إي كلمة الناس، تعين أن نسال ولكن ما هو الفيصل بين هذه وتلك، وهنا نرى المؤمنين بهذه النظرية يختلفون، فمنهم من يسلم بالكتاب بالفكر والمعنى دون اللفظ، أو أمور الإيمان دون الإعمال، أو إسرار الإيمان غير المكشوفة والتي تتعلق بالمستقبل، وما إلى ذلك من أفكار مبهمة متناقضة،.. وكما شاهدنا حلبة الصراع بالنسبة للفكرة السابقة، يمكن أن نشاهد هنا حلبة أخرى مماثلة، فقد تصدى لهذه الأفكار ثلاث مدارس فكرية متتابعة قوضتها من الأساس مدرسة شيلر ميخر التي أسسها شيلر ميخر (١٧٦٨- ١٨٣٤م) والتي تركز فهمها الديني على الحسن لا العقل، ومدرسة البرخت رتشل (١٨٨٢-١٨٨٩م) والتي تعتمد في فهمها الديني على الإرادة أو التطبيق العملي دون الحس أو العقل، والمدرسة الثالثة مدرسة كارل بارت وإميل برونر والتي تأخذ بما يطلق عليه "اللاهوت المنطقي" والذي سنتعرض له وشيكا.. والمدارس الثلاثة مع اختلاف الفكر المحافظ معها من نواح متعددة، إلا إنها تذكر في جهدها في مواجهة النقد العالي من حيث حريته فيما يختار أو يرفض من كلمة الله بدون تحديد أو ضابط أو دليل.

والرأي الثالث العصري الذي ينادي به كارل بارت وإميل برونر، والذي يقوم على ما يطلق عليه اللاهوت المنطقي، والذي يعتقد أن الكتاب المقدس يصبح كلمة الله على قدر ما يأخذ الإنسان هذه الكلمة موجهة إليه مباشرة، وهذا الرأي قول أن كلمة الله في الكتاب المقدس تقوم على أساس إنها الخطاب المباشر للإنسان لان الله ليس سلبيا أو صامتا بالنسبة للبشر،بل يتحدث إليهم ويتكلم، فكلمة الله عند بارت ليست حالة موضوعية، أو ليست شيئا يمكن أن تضع يدك عليه وتقول هذه كلمة الله،أن الكتاب المقدس عند بارت، هو كلمة الله على قدر ما يتكلم الله فيها إلى لإنسان... ومع أن كارل بارت يعتبر نفسه محافظا وعدوا لدودا للآراء العصرية والطبيعية والمادية،وجماعته تطلق على نفسها الأرثوذكسية الحديثة،إلا انه في عرف الكثيرين من المحافظين يمثل تيارا عصريا، إذ أن كلمة الله في مشتملاتها التاريخية والعلمية والنبوية والتعليمية هي وحي الله سواء كانت حالة موضوعية، أو كانت خطابا مباشرا يوجه إلى النفس البشرية أو يشهد عليها!!..

فإذا انتهينا إلى هذا كله عدنا إلى السؤال: ولكن ما اثر هذا النقد العلمي في الكتاب المقدس!!؟ وهل كشف عن تعارض أو تناسق، عن تضارب أو تأييد بين الوحي والفكر العلمي!!؟.. في الواقع أن أخر الاكتشافات العلمية الحديثة جاءت كلها في النصف الثاني من القرن العشرين إلى جانب الكتاب والكنيسة أكثر من إي وقت مضى في كل التاريخ المسيحي، وهناك اقتراب في الميادين العلمية المختلفة يصل إلى التلاحق بين العالم والكتاب، ففي علة الجيولوجيا والتاريخ الطبيعي حيث زعم النقد الأعلى أن هناك تعارضا بين النظرية والكتابة وعلم الجيولوجيا والتاريخ الطبيعي ثبت بشهادة احد الدراسات العلمية أن هذا التعارض لم يكن إلا وهما قائما في أذهان المعترضين أو تفسيرا خاطئا للإجمال الذي ورد في النصوص الكتابية،أو جهلا بالحقائق التي لم تكن قد اكتشفت بعد، وتكفي الإشارة هنا إلى شهادة الدكتور ارنولد جيوت الذي ظل أستاذا لعلم الجيولوجيا في جامعة برنستون لمدة ثلاثين عاما وكتب كتابه الشهير " الخليقة ونظرية تكوين العالم في الكتاب المقدس في ضوء العلم الحديث" ودكتور الفونسو سميث في دراسته النقدية للإصحاح الأول من سفر التكوين، وكيف يشهدان هذان العالمان العظيمان إلى أن الإصحاح الأول من سفر التكوين بلا مثيل أو ريب في سرد الحقيقة العلمية في كل كتب العالم، مما اشرنا إليه عند التعرض للخليقة والعلم في هذا الكتاب (صفحة ٢١٩ -٢٢٠)... وفي علم الجغرافيا أو التاريخ قال النقاد أن التاريخ لم يذكر شيئا عن مدينة أو الكلدانيين التي ذكر الكتاب أن إبراهيم خرج منها إلى حاران في طريقه إلى ارض كنعان، وانه لا توجد إلا مدينة واحدة سميت باسم "أو عرفة" وهي على بعد ستمائة ميل من المدينة المذكورة في الكتاب وظل هذا في أوهام

هؤلاء القائلين حتى جاءت الاكتشافات الحديثة فكشفت عن مكان المدينة وحددته بذات المكان التي ذكرته القصة الكتابية الصادقة... كما أن رينان بعد زيارته لأرض فلسطين كتب في كتابه "حياة يسوع" ما يلي: "أن كل ذلك التاريخ الذي يبدو من على بعد كأنما يسبح في غيوم عالم غير حقيقي اخذ صورته وشكله الحقيقي بكيفية أثارت تعجبي واندهاشي فالموافقة التامة بين الآيات الكتابية والأمكنة والانسجام العجيب بين أمثال الإنجيل والبلاد التي احتوها كإطار لها كان كل هذا بمثابة الرؤيا العجيبة لدي، أن أمام عيني إنجيلا خامسا ممزقا- يقصد الأرض المقدسة- ولكنه واضح ومقروء، وسيستمر كذلك على الدوام خلال القراءات في متى ومرقس".. وفي علم الإحياء عندما خرج داروين بنظريته المشورة في النشوء والارتقاء عام ١٨٥٩م، حدثت المعركة الكبرى ي أصل الإنسان، وهل هو صنعة يد الخالق، أم نتاج جرثومة تطورات على ملايين السنين.

وهل هناك حلقه تربطه بالقرود، أم أن هذه الحلقة مفقودة، الأمر الذي ناقشناه في أكثر من موضع في هذا الكتاب، عند الخليقة، وعند الحديث عن أصل الإنسان، ومع ما استقبلت به هذه النظرية عند ظهورها من حماس، إلا أن معاول الهدم أخذت تعمل في كثير من أوضاعها وبنيانها، ويكفي أن نذكر في هذا الصدد ما أشار إليه بروفيسور فيرنون كليوج في دراسته عن الدارونينية والوقت الحاضر عندما قال: "نحن في جهل رهيب وجهل غارق، وكل علمنا أن نتعلم وان نلاحظ وان نختبر وان نبوب وان نسبب وان نستنتج، ولم يكن علم الإحياء يوما ما أدنى إلى الوضوح، أو الحقل الذي يدعو أو يرغب في العمل المتسم بالبهجة والفرح والمسرة والرجاء..انك قد تسال عن الحياة بأساليب جديدة، ومن زوايا جديدة، ومن آماد اقرب، وتحت أوضاع أرقى واضبط، هذا ما يحتاج إليه عالم الإحياء اليوم، أو هذه فرصته، ولكن لعل هذا الجيل يسمع بعض الهمسات من أبي الهول رمز الصمت العتيد".. فإذا كانت الحقيقة عند اكبر علماء الدنيا ما تزال في امتدادها وحواشيها من الوجهة العلمية الخالصة ألغازا محيرة رهيبة حتى أن اينشتين عندما سئل عن ما أدرك الإنسان من الحقيقة العلمية أجاب انه أدرك واحد على سبعة من البليون في المائة... ومن ثم سمعنا احد كبار العلماء، ويعود إلى كتاب الله ليقول: " أن من الأجدر والاوفق بجميع المتصدين للنقد العلمي للكتاب إلا ينسوا، أو يغفلوا هذه الحقيقة الواضحة الأساسية، أن العلماء أو المفكرين أو الفلاسفة ما زالوا عاجزين إلى اليوم عن الانتهاء إلى أراء ثابتة علمية موحدة فيما بينهم، وانه حتى في الأبحاث التجريبية الخالصة ما تزال هناك المجالات الواسعة المتعددة للافتراض المختلف عليه، إذا أن المعروف من الحقائق ما زال إلى ألان اقل من المجهول والغامض والغيبي وغير المعروف، ومن ثم فان الادعاء بان الوصول إلى حقيقة ما لا يمكن أن تتبدل أو تتغير هو ادعاء منقوص شهادة التطور العلمي الصحيح نفسه ".. ولا عجب بعد هذا إذ نرى ليس هذا العالم فحسب، بل أعظم علماء الدنيا يشهدون – كما سنرى وشيكا – لهذا الكتاب العجيب العظيم!!..

وليس اقل من هذا علم الأدبيات والأخلاقيات في هذا الكتاب، وقد كانت موضوع درس عميق للنقد الأعلى، بل كانت الموازنة بين الأدبيات والأخلاقيات في العهد القديم والجديد موضوع أبحاث أعداد كبيرة من رجال الفكر والفلسفة والعلم والآداب في العصور الحديثة، وكانت الحجة الكبرى التي انتهى إليها الفكر الحديث أن هذا الكاتب عاصر الإنسان في تدرجه التاريخي من طفولة الحياة البشرية حتى النضوج الكامل، وانه من غير الطبيعي، أن يطلب من الإنسان في مهد الدين، ما يطلب منه في نور المسيحية الكامل، ومن ثم سمعنا السيد المسيح في الموعظة على الجبل يقف على ربى المبادئ الأخلاقية ليقول إعلانه الخالد : " قد سمعتم انه قيل للقدماء لا تقتل ومن قتل يكون متوجي الحكم... أما فأقول لكم أن كل من يغضب على أخيه باطلا يكون مستوجب الحكم... سمعتم انه قيل للقدماء لا تزن وأما أنا فأقول لكم أن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه.. سمعتم انه قيل عي بعين وسن بسن وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الأخر...

سمعتم انه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك وأما أنا فأقول لم أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم أحسنوا إلى مبغضيكم وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم... فكونوا كاملين كما إن أباكم الذي في السموات هو كامل" (من الموعظة على الجبل الإصحاح الخامس من إنجيل متى)... والسؤال بعد هذا أي قمم في الوجود اعلي من قمم هذه الأخلاق والمبادئ التي انفرد به الكتاب المقدس!!؟.. نحن نعترف انه قد يخرج في التاريخ بين الحين والأخر كاتب أو أديب أو فيلسوف، يهاجم هذه المبادئ المسيحية المثلى، كما هاجمها الفيلسوف نشتيه، وهو يبحث عما اسماه الإنسان السوبر مان، ولكن السوبر مان الذي كان يحث عنه نيتشه،كان رجلا وحشيا تمخض في السياسة الألمانية عن الهتلرية التي رأت في الألماني تفوقا على جميع الشعوب، وأدت إلى مأساة الحرب العالمي الثانية"... وكما هاجمها بعض الوجوديين الذين نادوا بالتحلل والاستباحة المجون والعربدة، التي تنضح لها المدنية الغربية هذه الأيام"... ولكن المسيحية عاشت وبقيت وتبقى كالصخر الأشم تتكسر عند أقدامه موجات من الفلسفات أو الفلاسفة الذين ينادون بالقسوة أو الوحشية أو العنصرية أو المادية أو المجون أو ما أشبه. وسندحر الباطل، وسيبقى الحق المسيحي كما أعلنه الكتاب في مثالية الإنجيل العظيمة الخالدة..

فإذا تحولنا أخر الأمر إلى السؤال الذي أثاره البعض من رجال النقض الأعلى، عن الصور أو الاقتباسات التي كتبها رسل أو أنبياء لاحقون عن الذين جاءوا قبلهم، ولماذا لم يأخذوها بنصها وفصها كما وردت في السابق.. لأجبنا إن النبي أو الرسول أو الكاتب عندما كان يلجا إلى نص قديم، كان وهو ملهم من روح الله أيضا يضمن هذا النص موجزا أو مفسرا أو مكملا.. ولقد عجز النقد الأعلى على أن يجد نصا واحدا مضادا أو مناقضا أو متعارضا مع نص أقدم.. أو على العكس كما يقول أبراهام لبير: " إن الإحداث والحقائق المتنوعة، اجل نفس هذه الإحداث الحقائق على أهميتها من جوانبها المتعددة،عندما عرضها الرسام الأعظم (يقصد الله) في ألوانها المختلفة، وتفسيراتها المتعددة الجوانب، قد تربك في مطلع الأمر القارئ القصير النظر، ولكنها على العكس تبعث أروع ألوان الانسجام في عيني الفنان الأصيل الذي يمتلئ نظره بها من على كثب، إذ تعطيه في الواقع رؤى السماء"... فإذا عرض متى ومرقس مثلا لما فعلا اللصان اللذان صلبا مع المسيح، في مطلع الأمر، فان لوقا قد عرض بتفصيل أوفى إصرار احدهما على شره، وندم الأخر وتوبته، وإذا كان مرقس قد ذكر قصة تلميذي عمواس وهكذا.فان لوقا قد ذكرها بتفصيل كبير... وهكذا... لو عرضت أي اقتباسات أو صور بمجرد نصها وفصها لما كان هناك مبرر لتكرارها على الإطلاق..

وفي نفس الاتجاه قد يكون من اللازم أن نشير إلى إن مقتضى قبول الوحي والإيمان بسيطرة روح الله فيه يستلزم قبوله كما تنادي إقرارات الإيمان المتواترة لفظا ومعنى، عقيدة وادبا، إيمانا وعملا، كما فعلت القافلة المسيحية الكبرى طوال ألفي عام في التاريخ الكنسي المسيحي!!..

بعد هذا كله يبدو – من الوجهة العلمية الخالصة – إن هذا الكتاب سيبقى المنار الهادي للإنسان، عندما تحيط بسفينته غيوم من شك، أو ضباب من حيرة، أو ظلمة من ليل يأس أو ضيق أو عذاب أو ما يمكن أن يواجه من حياته المجهدة على هذه الأرض!!...

الكتاب المقدس وسلطانه

وإذا عرفنا الآن وحي هذا الكتاب ومصدره الإلهي، ويأتي ولا شك السؤال الأخر اللاحق، ما علاقتنا به؟ وما سلطانه علينا؟ وهل من حقنا أن نقبله أو نرفضه بملء الاختيار والطواعية دون أن يكون هناك عقاب أو جزاء؟.. وهل قواعده جوازية أو

وجوبية؟.. تكميلية أو مرآة؟ إن القواعد التكميلية أو الجوازية قواعد يجوز الخروج عليها في عرف القوانين المدنية المصطلح عليها، على العكس من القواعد الوجوبية الآمرة التي يبطل وينعدم كل اتفاق للخروج عليها، فما نوع قواعد هذا الكتاب أو سلطانه؟.. لعل الإجابة على هذا كله تتضح في المعنى العلمي الدقيق متى أدركنا طبيعة أو موضوعية هذه القواعد.. وفي تلك يتفق الشراح على إنها ثلاث قواعد. أولها متصلة بالعهود، وثانيهما متصل بالتصرف، وثالثتها متصلة بالعقيدة والإيمان.

إما الأولى فتختص بتلك العهود التي تقوم بين الله والإنسان في العصور المختلفة المتتابعة في التاريخ، كعهد الأعمال في جنة عدن حيث أمر الله ادم إلا يأكل من شجرة معرفة الخير والشر، وإذ تعدى العهد واكل، طرد وطردت معه البشرية كلها للعهد المنقوض، وعهد الناموس في سيناء،العهد المصحوب بالنار والتهديد والعقاب الصارم لمن تجاوز أو يتحلل من تنفيذه كما فعل الإسرائيليون مرات كثيرة، فروا الويل والعذاب والتشريد والنفي والآلام التي لا توصف، وعهد النعمة الذي قيل فيه: "١لِذلِكَ يَجِبُ أَنْ نَتَنَبَّهَ أَكْثَرَ إِلَى مَا سَمِعْنَا لِئَلاَّ نَفُوتَهُ، ٢لأَنَّهُ إِنْ كَانَتِ الْكَلِمَةُ الَّتِي تَكَلَّمَ بِهَا مَلاَئِكَةٌ قَدْ صَارَتْ ثَابِتَةً، وَكُلُّ تَعَدٍّ وَمَعْصِيَةٍ نَالَ مُجَازَاةً عَادِلَةً، ٣فَكَيْفَ نَنْجُو نَحْنُ إِنْ أَهْمَلْنَا خَلاَصاً هذَا مِقْدَارُهُ" (عب٢: ١-٣) "٢٨مَنْ خَالَفَ نَامُوسَ مُوسَى فَعَلَى شَاهِدَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةِ شُهُودٍ يَمُوتُ بِدُونِ رَأْفَةٍ. ٢٩فَكَمْ عِقَاباً أَشَرَّ تَظُنُّونَ أَنَّهُ يُحْسَبُ مُسْتَحِقاً مَنْ دَاسَ ابْنَ اللهِ، وَحَسِبَ دَمَ الْعَهْدِ الَّذِي قُدِّسَ بِهِ دَنِساً، وَازْدَرَى بِرُوحِ النِّعْمَةِ؟ ٣٠فَإِنَّنَا نَعْرِفُ الَّذِي قَالَ: «لِيَ الانْتِقَامُ، أَنَا أُجَازِي، يَقُولُ الرَّبُّ». وَأَيْضاً: «الرَّبُّ يَدِينُ شَعْبَهُ». ٣١مُخِيفٌ هُوَ الْوُقُوعُ فِي يَدَيِ اللهِ الْحَيِّ!" (عب١٠: ٢٨ -٣١). فهل بعد هذا كله تعد هذه القاعدة جوازية أو وجوبية؟! ما من شك بأنها قاعدة آمرة لا يمكن الخروج عليها دون نهوض فكرة الجزاء والعقاب الأكيد.

إما القاعدة الثانية فتتصل بالتصرف، وقد تصور البعض إن الله أمر بهذا أو بتلك من الأوامر والنواهي والوصايا لان سلطان الله مع هذا كله هو الجواد والمشبع والمحسن للناس، وانه لم يصنع واحد من الأوامر والنواهي والوصايا لان له سلطانه الأمر بمقتضى كونه الخالق والحاكم والسيد للجميع، وما علموا بان الله مع هذا كله هو الجواد والمشبع والمحسن للناس وانه لم يصنع واحد من الأوامر والنواهي والوصايا لمجرد إظهار سلطانه وسيادته عليهم، بل لأنه يريد لهم السعادة والخير والمسرة والبهجة والسلام.. ومن ثم فهناك رابطة أكيدة وحتمية بين قبول الناس أو رفضهم لما أمر الله أو نهى أو أوصى به، وما يواجهون في الحياة من سعادة و راحة أو تعب وشقاء. ومن ثم فالقاعدة المتصلة بالتصرف هي قاعدة آمرة أيضا.. فإذا انتهينا إلى القاعدة الأخيرة المتصلة بالعقيدة والإيمان، رأينا هذا الإيمان يدور على الدوام وجوبا وعدما مع فكرة الجزاء. الم يقل الكتاب: "إن لم تؤمنوا فلا تأمنوا "(اش٧ :٩) ومن هذا نتبين إن قواعد الله في الكتاب هي قواعد آمرة.. كل هذا يعطينا أن نفهم سلطان الكتاب ولغته ولهجته للناس إذ هو في الواقع فصل الخطاب لكل فكر مختلف عليه، استعمله المسيح في النزاع مع الشيطان عندما جربه هذا الأخير في البرية، واستعمله في منازعاته المتكررة المختلفة مع الفريسيين والكتبة، استعمله التلاميذ والرسل كالوسيلة الأولى والفعالة والأكيدة في الإقناع بصدق الرسالة المسيحية وصحتها وسلامة أفكارها ومبادئها ومعتقداتها، واستعملته الكنيسة في صراعها الطويل في كل أجيال التاريخ في القضاء على الهرطقات والخرافات والخزعبلات التي حاولت أن تتسلل إليها أو تأخذ الطريق إلى الصميم من مبادئها وتعاليمها ومعتقداتها وإيمانها.. فإذا ما تبينا هذه كلها، سهل علينا أن ندرك بان الكتاب المقدس لا يمكن أن يكون مجرد كلمات أو حروف متراصة، أو حتى مبادئ عامة أو مثل عليا يقراها الإنسان مستمتعا أو منتشيا أو ما أشبه من العواطف التي تسود علينا عندما نقرا شيئا رائعا وعظيما.. بل هو أكثر من ذلك إذ هو خطاب الله إلى النفس البشرية، فالكتاب في لغة أخرى هو كلمة الله وصوته إلى كل نفس، لان الله لا يمكن أن يكون سلبيا أو ساكنا أو منشغلا عن الإنسان على الإطلاق، بل دائما هو ايجابي يوقف الإنسان كل يوم ليتحدث

إليه،ويتخاطب معه وينذره ويحذره وينصحه ويعلمه ويوجهه، وهذا هو المعنى المفهوم لما جاء في الكتاب: "١٢لأَنَّ كَلِمَةَ اللهِ حَيَّةٌ وَفَعَّالَةٌ وَأَمْضَى مِنْ كُلِّ سَيْفٍ ذِي حَدَّيْنِ، وَخَارِقَةٌ إِلَى مَفْرَقِ النَّفْسِ وَالرُّوحِ وَالْمَفَاصِلِ وَالْمِخَاخِ، وَمُمَيِّزَةٌ أَفْكَارَ الْقَلْبِ وَنِيَّاتِهِ (عب٤ :١٢) فالله يتكلم إلى كل إنسان في الكتاب، كما كان يتكلم إلى الأقدمين مباشرة، فإذا ظهر الأمر بهذا الوضوح كان سلطان الكتاب علينا، كذلك السلطان الذي أحس به الصبي الصغير صموئيل عندما قال لله راكعا في هيكله: "تكلم يارب لان عبدك سامع" (١صم ٣ :١٠) أي السلطان المطلق التام الكامل الحاسم النهائي الذي يستقبل بكل طاعة وخضوع وامتثال ويقين وإيمان وتعبد.

الكتاب المقدس وتأثيره

وبعد إن استعرضنا ما سبق عن الكتاب بقي أن نسال هذا السؤال الجوهري الهام: "ما تأثير هذا الكتاب وفاعليته في حياة الناس؟.." ولابد أن ندرك حقيقة هذا التأثير وعمقه وقوته وجلاله ومجده أن نتابعه في حياة أعداد وأنماط مختلفة من بني البشر وفي عصور متفاوتة من التاريخ!!.. على انه من الواجب أن نقول بادئ ذي بدء، قبل أن نأتي، بالشهادات المتعددة عن هذا التأثير انه شامل عام لكل نواحي الإنسان العقلية والأدبية والروحية.. فما أكثر ما ألقى شعاعه على الفكر الإنساني، وقاد بآلاف الوسائل المباشرة، وغير المباشرة، أفكار الناس في مختلف نواحي الفن والأدب والعلم والشعر والفلسفة وغيرها مما أشرنا إليه ونحن بصدد الحديث عن شهادته عن وجود الله بل ما أكثر ما استمد الكثيرون من الفلاسفة والعلماء ورجال الأدب والفن أسس نظرياتهم أو برهانها ودليلها من هذا الكتاب العظيم..

فإذا انتقلنا إلى تأثيره الأدبي فيمكنك أن تتحدث دون تحفظ أو حرج عن أثره العميق البعيد الغائر في المجتمع الإنساني، فما أكثر ما صاغ من مبادئ وهذب من قوانين وأبدع من عادات. ولعل أقوال هنري فان ديك في هذا الصدد هي خير ما يقال على وجه الإطلاق: "ولينما اتجه فانه يرفع ويطهر الإنسانية جمعاء، فالبر والسلام ينتعشان في ظله، وهو حصن الحرية المدنية والدينية، وحجر الزاوية في المستشفى والملجأ، والملاذ والأمان للبيت السعيد.. على أساسه الراسخ تؤسس الحكومات، وبموافقته المقدسة تأخذ القوانين قدسيتها، انه ينبوع العدالة العام، والفضيلة الخاصة، وهو يجعل الناس مطيعين خاضعين عادلين، ويربطهم في رباط موحد لخدمة بلادهم والمجموع البشري، ويحفزهم للدفاع عن المظلوم ومقاومة الطغيان، ويوحي إليهم أعمال البطولة والجسارة، ويمد ساعد الحماية للفقير والمتألم، ويفتح الينابيع الحلوة والرحمة في القلب البشري... والنساء على الدوام أنقى وارق، والرجال أشجع وأفضل عندما تأتي هناك كلمة الله"... فإذا ما صعدنا أكثر إلى تأثيره الروحي وجدناه على الدوام خلف الفرد المحرر من الخطية والمختبر الولادة الجديدة، ورأيناه داخل البيت المتعبد في الشركة مع الله... وعرفناه في الكنيسة الحية القوية المدركة لرسالتها على الأرض، واركناه العامل البعيد العميق الأثر في امتداد رسالة المسيح في كل مكان وزمان.. ولعل الشهادات التالية الآتية من أناس مختلفين تؤكد كل هذا بالمعنى المطلق الدائم الكامل المستمر. فهناك شهادة السياسيين، إذ قال جون كوينزي بصددها: " من أي جانب تفحصنا الكتاب المقدس سواء من ناحية الإعلان أو التاريخ أو الآداب وجدناه منجم معرفة، وأكد دانيال وبستر باحترام عميق: " إن الكتب المقدسة موضوع درسي اليومي وتأملي المتعمق، ولو إننا تمسكنا بالمبادئ المأخوذة من الكتاب، فان بلادنا ستنجح وتستمر على الدوام في النجاح" كما إن جنرال جرانت عندما كان رئيسا للولايات المتحدة كتب يقول : " تمسكوا بالكتاب المقدس كالمرساة المؤتمنة لكل ما نملك من

حريات، واكتبوا أجزاءها على قلوبكم، واختبروها في حياتكم، فنحن مدينون بتأثير هذا الكتاب لكل تقدم ونمو في المدنية الحقيقية، ومن ثم ينبغي أن نتطلع إليه كمرشدنا في المستقبل " وذكر غلادستون في كتابه " الحصن المنيع في الكتاب المقدس"، هذه الحقائق: " إن إعلان الله لا ينير فحسب ولكنه يلزم أيضا، وكأوراق الاعتماد للسفير الأرضي، من الضرورة والعدالة أيضا أن تفحص أوراق الوحي والإعلان الإلهي، فمتى وجدت صحيحة، وتبرهن لنا على صحتها في ذات المستوى المألوف والمنشود لما يمكن أن تكون عليه سائر أمور الحياة الأخرى، فان العقل لابد أن يعترف ويقبل ما لها من صفة إلزامية.. ولا نجد أنفسنا بعد ذلك أحرارا في الانطلاق كما نشاء من دون قيد أو شرط، بل خداما لسيد، وتلاميذ لمعلم وأبناء لأب، وكل واحد منا مرتبط بذات الربط التي يرتبط بها هؤلاء.. ومن ثم فالرأس والركبة ينبغي أن ينحنيا إما الله الأبدي كما إن المشيئة الإلهية ينبغي أن يخضع لها الإنسان، ويقبلها من كل قلبه، وكل فكره، وكل نفسه، وكل قوته".. فإذا تركنا السياسيين واتجهنا صوب العلماء، استمعنا إلى الكثير والمتعدد من الشهادات المتماثلة.. فالعالم المشهور سرجون هارشال كتب يقول: " إن كل الاكتشافات البشرية وجدت كما يخيل اليّ لغرض واحد إلا وهو تثبيت وتأكيد الحقائق الموجودة في الكتب المقدسة" بل أن داروين نفسه عندما زار قبائل الفيجو عام ١٨٣٣م كتب يقول : " أن الفيجيين في حالة من البربرية التعسة بالصورة التي لم أكن أتوقعها على الإطلاق في أي مخلوق بشري" ولكنه عندما زار البلاد مرة أخرى عام ١٨٦٩م اندهش من التغيير الذي حدث في حياة الناس هناك عندما عملت بينهما الإرساليات المسيحية، حتى انه أرسل لجمعية لندن التبشيرية مظروفا بداخله خمسة وعشرون جنيها مع هذه الكلمات : " إني شديد الشعور بالفخر لو إن مجتمعكم يمكن أن يفكر في اختياري عضوا فخريا في جمعيتكم : وقد كان من اللازم أن أتكهن انه ليس من المتوقع أن تفعل كل الإرساليات في العالم مثلما قطعتم فعله..

وإذا انتهينا إلى أعظم فلاسفة في الدنيا سمعنا عمانوئيل كانت يقول: "انك تصنع حسنا إذا أسست سلامك وتقواك على الإنجيل.. ففي الإنجيل هناك الينبوع والمصدر لكل الحقائق الروحية والعميقة بعد أن أعيا العقل وأفلس في كل الميادين والاتجاهات.. وجون لو يصرح : " في سبيل إعطاء الإنسان معرفة كاملة عن الآداب الحقيقية لا يلزمني أن أرشده إلا إلى كتاب العهد الجديد " والرئيس كيرد يهتف ويردد: " إن روح الله في القصة الكتابية المقدسة يعلمنا ويبنينا في كل ما يتصل بمبادئ الحكومة الإلهية.. القوة الفطرية والغريزية الحق، والغلبة والانتصار أخر الأمر للخير على الشر وعلى كل الميول الأنانية والخاطئة والتي ترغب في ازدياد الحيوية والقضاء على الرفاهية العالة والكريمة لشعوب الأرض!!.. وهذه المبادئ لم توضع في القصة الكتابية لتكون كلمات، ولو إنها الصفة الامرة الملزمة في الكتاب، بل لتحيك وتصنع حياة الإنسانية بأكملها".. فإذا انتهينا أخر الأمر إلى أقوال رجال الدين، وجدنا دافقا من الأحاديث والشهادات التي لا يمكن أن تعد وتحصر، فإذ ا ما ذكرنا البعض منها، فإنما نذكره على سبيل القياس فحسب دون الحصر أو التحديد أو الإكثار أيضا، قال جيروم: "أحب كتابك المقدس ولن تكمل بعد ذلك شهوة الجسد".. وقال الذهبي الفم: "إن من يعرف كتابه المقدس كما ينبغي أن يعرف، لن يتعثر في شيء، بل سيتحمل كل شيء بصبر نبيل" وقال دكتور و.م. كلاو : "أنها الكلمة التي استطاع بها اثناسيوس أن يحاب بها الهرطقة التي قامت ضد لاهوت المسيح.. وأمكن أن ينتصر بها اغسطينوس على فيض الخلاعة التي أوشكت أن تقضي على الآداب المسيحية.. وأعانت لوثر للوقوف في مواجهة البابوية في إبان قوتها وسيطرتها العاتية والمناداة بإنجيل

نعمة الله المجانية العظيمة.. ودفعت كيرو لغزو المعاقل الوثنية وفتح الباب أمام الإرساليات الحديثة".. حقا ما اقدر وما افعل الله في التاريخ البشري!!..

الكتاب المقدس والانتفاع به

والآن لم يبق إلا كلمة أخيرة موجزة نختم بها الحديث عن الكتاب المقدس، ونعني بها كيف ننتفع به، ونستعمله ونستخدمه الاستخدام الدقيق النافع الصائب؟.. ولعل من العجيب أن نعلم إن نابليون اخذ يصنف كتبه ويرتبها، وضع والكتاب المقدس بين كتب السياسة، إذ لم يكن هذا الكتاب في نظره كتاب دين وعلم وأدب وفن واجتماع فحسب بل كتاب سياسة أيضا،يعلم من يقرؤه أن يكون خبيرا بالحياة وسياستها من طراز ممتاز..وفي الواقع إن كتاب الله يهدينا ويرشدنا وينيرنا ويقودنا في كل لون من ألوان الحياة الإنسانية على مختلف الألوان.. والسؤال القائم هو كيف ننتفع بهذا الكتاب على الوجه الأكمل والأمثل؟.. ربما تعنينا إلى حد كبير هذه النصائح التي أفادت الكثيرين من محبيه وقارئيه:

١. اقرأ الكتاب يوميا : وهذا ينشأ فيك عادة من أجمل العادات وأبدعها، وإذ تتمكن فيك هذه العادة تشعر إن حاجتك إلى الكتاب تعتدل، إن لم تزد عن حاجتك اليومية إلى الطعام والشراب والنوم، واني لا أود أن أشير عليك في إي ساعة تتفرغ لدرس الكتاب، أفي المساء أم في الصباح أم في منتصف الليل أم في منتصف النهار، فذلك أمر يتكيف بحسب طبيعتك في الحياة وظروفك وأوضاعك، مع ملاحظة إن هذا لا يدخل طبعا في نطاق الصلاة العائلية الصباحية أو المسائية، إنما يلزم أن تقرا الكتاب في اصفي ساعات الذهن وأرهفها، وينبغي أن يكون لك كتابك الخاص، ومن المناسب أن تحتفظ بنسخة صغيرة في جيبك وأنت في زحمة الحياة والنهار ليكون صديقك في مختلف المناسبات والأحوال..

٢. اقرأ الكتاب بنظام، فلا تقرا كيفما اتفق، بل تعود أن تقرءاه بترتيب وتتابع، كي تتمكن من دراسة الكتاب كله على الأقل بكيفية دورية كل عام.. ويرى بعض علماء النفس انه يحسن بك أن تختار المكان والمصباح والمقعد والكيفية التي تدرس بها الكتاب، ولا ينبغي أن يفرض عليك وقت معين غير قابل للزيادة أو النقص في درس الكتاب،فذلك أمر موكول لظروفك، إنما لا ينبغي أن يقل وقت دراستك بأي حال عن ربع ساعة، وإذا كان من الممكن الاستعانة بشروح أو تفاسير مختصرة فلا بأس، وإذا لم يتيسر هذا يحسن الالتجاء إلى راعيك أو صديقك أو غيرهم من المتعمقين في درس الكتاب للاستنارة فيما يواجهك من صعوبات ومعضلات كتابية..

٣. اقرأ الكتاب بتعمق، ولتعلم أن كتاب الله هو الكتاب الوحيد الذي سيصاحبك مدى الحياة، وانه عميق كالبحر، ممتد كالأفق، عال كالسماء، وستكف كلما قرأت فيه على الدوام أشياء جديدة، فلا تقراه قراءة سطحية عابرة، أو لمجرد العادة، أو كالملهاة والتسلية لمعرفة حظك أو بختك في الحياة، بل اقرأه قراءة المدقق المتخصص، وكن إزاءه كالغواص الذي يغوص في أعماق البحار ليكشف الكنوز واللآلئ!!.. أن إي كتاب في الدنيا في إي فن وعلم لا يمكن أن نلم به إلا إذا أجهدنا النفس وتعمقنا في درسه.

٤. اقرأ الكتاب بتعبد: ولتدرك يقينا انه كتاب الله الذي ينبغي أن تقرءاه بروح الخشوع والتعبد والصلاة، إذ هو صوت الله إليك، وحديثه معك، ونداءه إلى مشاعرك. ولا مانع من أن تفعل ما يفعله الكثيرون من وضع الخطوط هنا وهناك

تحت هذه وتلك التي لها الفكر الخاص أو العناية الخاصة أو المطلب الخاص أو الأمر الخاص أو التشجيع الخاص في العلاقة القائمة بينك وبين الله على هذه الأرض، ولتعلم بان هذا الكتاب لا يمكن أن يفهم أو تكشف إسراره ومخابئه على الإطلاق ما لم تقرءاه بروح الوقار والاتضاح، طالبا من المولى أن يكشف عن عينيك لترى عجائب من شريعته، وما أكثر ما اكتشف الأطفال الذين أقدموا على دراسته بروح التواضع ما عجز عنه الحكماء والفلاسفة والفهماء الذين تناولوه بروح الكبرياء والاعتدال والشموخ والأنفة!. انه كتاب الذهن المتفتح والنفس الصافية والروح الوادعة والقلب المفعم بالأشواق والانتظار والرجاء الفائض في حضرة الله. تكلم يارب فان عبدك سامع من ذا الذي
لا ينضم بعد هذا كله إلى الركب القديم ليقول: " ٧نَامُوسُ الرَّبِّ كَامِلٌ يَرُدُّ النَّفْسَ. شَهَادَاتُ الرَّبِّ صَادِقَةٌ تُصَيِّرُ
الْجَاهِلَ حَكِيماً. ٨وَصَايَا الرَّبِّ مُسْتَقِيمَةٌ تُفَرِّحُ الْقَلْبَ. أَمْرُ الرَّبِّ طاهرا يُنِيرُ الْعَيْنَيْنِ. ٩خَوْفُ الرَّبِّ نَقِيٌّ ثَابِتٌ إِلَى
الأَبَدِ. أَحْكَامُ الرَّبِّ حَقٌّ عَادِلَةٌ كُلُّهَا. ١٠أَشْهَى مِنَ الذَّهَبِ وَالإِبْرِيزِ الْكَثِيرِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَقَطْرِ الشِّهَادِ. ١١أَيْضاً
عَبْدُكَ يُحَذَّرُ بِهَا وَفِي حِفْظِهَا ثَوَابٌ عَظِيمٌ." (مز١٩: ٧-١١). " خبأت كلامك في قلبي لكي لا أخطئ إليك" (مز١١٩: ١١). "إلى الشريعة والشهادة أن لم يقولوا مثل هذا القول فليس لهم فجر" (اش٨: ٢٠). "وجدت كلامك فأكلته فكان كلامك لي للفرح ولبهجة قلبي" (ار١٥: ١٦).

الفصل العاشر: إيماني بقضاء الله

تختلف أفكار الناس وإفهامهم اختلافا بينا متباعدا كبيرا حول الإيمان بقضاء الله، فمنهم من لا يكاد يؤمن بهذا القضاء على الإطلاق،استنادا أو زعما إن لكل مجتهدا نصيب!. وان الإنسان يستطيع أن يدفع أموره في الحياة بكل ما يملك من قوة وجلد ونشاط وهمة!!..ومهم من يعتقد – على العكس تماما –انه لا يملك من أمره شيئا، وانه مسمار في آلة ضخمة أو ترس فيها، أو مندفع في قطيع شرود، لا يملك أن يتوقف أو يسكن أو يهدا أو يلوي عن شيء!! ومنهم من لا يقبل هذا الرأي أو ذاك، بل يتصور أو يزعم أن القضاء الإلهي مبني على المعرفة السابقة عند اله بما سيفعله الإنسان، ومن ثم فقد وضع الله الحكم قبل الحيثيات والنتيجة قبل إبداء الأسباب. فهو أدنى إلى القضاء المكتشف منه إلى إي شيء آخر!!. ومنهم من يؤمن بان قضاء الله شامل عام كامل، متضمن الكل، للحكم والحيثيات، والنتيجة والأسباب معا، ولكنه في الواقع القضاء الدقيق الحكيم العادل السرمدي المتوازن السرمدي العجيب!!. وها نحن أولا سنعرض لهذه الآراء والأفكار جميعا، في لغة أدنى إلى التيسير والتبسيط لعلنا نخرج آخر الأمر بالأمر الأدق والأصح عن قضاء الله!.

القضاء المعدوم

وهذا الرأي يوسع في مقدرة الإنسان وحريته وسلطانه ونشاطه، حتى لا يكاد يؤمن على الإطلاق بوجود شيء خارجي عن هذا الإنسان.

وقد اخذ به البعض من اللاداريين المفتونين. أو المغرورين من البشر، الذين يظنون أن في قدرتهم صنع ما يرغبون أو يشتهون دون أن يجدون من يقف في طريقهم، أو يحد من نشاطهم، أو يقول لهم ماذا تفعلون؟. ولقد قيل أن نابليون قال في زهو وغرور ذات مرة: "إني أفكر وأدبر!". فردت عليه إحدى السيدات: "كلا بل أنت تفكر والله الذي يدبر؟". ولكنه لم يكن يؤمن بهذا علا الإطلاق إذ ألف أن يقول في لغة السخرية والتهكم : " أن الله مع الأقوياء".. أي إن الأمر كله يرجع لا إلى قوة في ذات الله تساعد أو تساند الإنسان في حياته أو كفاحه أو صراعه على هذه الأرض، بل يرجع أولا وأخيرا إلى مدى ما يتجهز به هذا الإنسان من قدرة وقوة وعتاد ولكنه لم يدرك انه: "لا بالقدرة ولا بالقوة بل بروحي قال رب الجنود" (زك٤ :٦). حتى انتهى إلى سانت هيلانة حيث قضى الجبار أتعس أيامه وأقسى لياليه. اجل فالزعم بان الإنسان سيد ظروفه وأوضاعه، وان لقضاء أو قدر يمكن أن يغير أو يحد من أسلوبه، أمر تصرخ في وجهه وأمامه كل حقيقة معروفة للناس، على توالي العصور وامتداد الأجيال.. فالتاريخ يصرخ ضده!!. إذ من منا استطاع أن يحدد القرن الذي يولد فيه، وآلامه التي ينتسب إليها، والعائلة التي منها يجيء، والاسم الذي يحمله بين الناس، والشكل الذي يكون عليه، والنصيب من الغنى أو الفقر الذي يحيط به، واللغة التي يستطيع أن ينطق بها، وحظه من الذكورة أو الأنوثة وما للجنس من تأثيره في الحياة.

والمجتمع البشري لا يقره، إذ أن الفرد في تفاعل دائم مع المجمع تتلون حياته وظروفه وأساليبه وأوضاعه تبعا للمجتمع الذي يعيش فيه، فأعظم قائد عبقري لا يمكن أن يفعل شيئا لأمة بلا سلاح. وانبغ رجل اقتصادي لا يمكن أن يقيم من التراب دولة

بلا مال، والمجموع كله في تراكض لا يستطيع فيه الإنسان مهما أوتي من الذكاء والفطنة أن يحدد موقفه من السباق، أو نصيبه من الفوز، بل أن التكامل البشري يحتم أن يوجد الإنسان في موضعه المحدد الذي لا يمكن تجاوزه، إذ لا يمكنه على سبيل المثال أن يكون القائد والجندي والمهندس والبناء والمحامي والحكم، أو ما أشبه حتى ولو رغب تمام الرغبة في ذلك. كل هذا والكثير من الأمثال أو الصور المنبثقة عن العقل البشري تدفع فكرة القضاء المعدوم، وتبين أن هناك أشياء خفية وظاهرة هي التي تحدد مجرى الإنسان، وسبيل التاريخ، إلى جانب حرية البشر وإرادتهم ونشاطهم وقوتهم مهما اتسع مجال هذه جميعا.

القضاء الجهلي

وهو قضاء يأخذ بالنظرية المضادة، وقد قال به في مبدأ الأمر بعض الوثنيين الأقدمين ممن كانوا يؤمنون بمبدأ القدر المطلق الكامل، على اعتبار أن كل الأمور مؤكدة الحدوث، لان النواميس لا تتغير،بل تجري مجراها دون تمييز عقلي، وبقوة لا تقاوم وبدون النظر إلى النتائج، وإنها مستقلة عن إرادة الخالق أو المخلوق، إذ ليس فيها مدخل للغايات والمقاصد العقلية، ولا محل للاختيار أو استعمال الوسائط إذ كل الحوادث تجري بالقدر أو القضاء الجهلي. ومن المؤسف أن هذا الرأي قد عرف طريقه بين الحين والأخر إلى بعض كتابات من لا يؤمنون بوجود الله، أو من اللاادارين، أو من استوت عليهم نزعة يائسة متشائمة من الحياة، من الكتاب أو الروائيين، المحدثين، ممن صوروا الحياة من منظار رهيب اسود، ولعل البعض منهم لم يكن يعبر بالضرورة عن حقيقة معقدة فيما كتب أو روى من أقاصيص وخيالات، كمثل ما قال زولا الفرنسي في إحدى رواياته "الوحش البشري" والتي فيها يصور سبعة من القاتلين يقتلون بالضرورة،لأنهم لا يملكون إلا أن يقتلوا في مثل ظروفهم، ثم يختم قصته بتصوير الحياة البشرية، في صورة قطار مندفع في أعماق الليل مزدحم بالجنود،وفقد قتل سائقه، والقطار هو العالم، والاندفاع هو الحظ، والجنود هم البشر، والليل هو الموت، والسائق الميت هو القضاء الأبدي المحتوم غير المتغير. أو كمثل ما ذكر لويس كوباريس الروائي الهولندي في روايته "القضاء والقدر" والتي فيها يصور أربعة من الناس وقد ربطوا بعضهم إلى بعض في قيد رهيب لا يمكن أن يحل أو يفك!. وواحد منهم قد سقط منهكا متداعيا فوق كرسيه وهو يتلوى من الألم والعذاب والعار الذي لحق به، وقد انهمرت الدموع من عينيه لتغمر وجهه ووجنتيه،وقد انتصب أمامه عار الشبح الماثل، وإذ أحدق في عينيه الخائفتين – أي عيني الشبح – لم يرى ما يستدعي الندم أو اللوم لأنه مثل ما صنع الحظ أو القسمة له، فهو نذل، ولكن ليس من ذلك بد، والناس يدعونه جبانا، ولكن الجبن ليس عنده أكثر من لفظ.. إذ ما هو الجبن أو الشجاعة أو البساطة أو الصلاح أو النبل؟. أنها ألفاظ تقليدية أو معان مصطلح عليها، ولكن العالم كله ليس إلا اصطلاحا أو خيالا أو ظنا أو وهما يراود الذهن.. ولا شيء حقيقي على الإطلاق لا شيء.." أو ما جاء في إحدى روايات ابسن والتي أطلق عليها "الأرواح" وهو يصور الحياة البشرية، ويصور كل لاعب فيها، وكأنما تتملكه الأرواح القديمة التي تنظر من خلال عينه، أو تتكلم من خلال لسانه،أو تعمل من خلال أفعاله، وأصداء العواطف المستهلكة، وأشلاء وضحايا الخطايا المرتكبة، واثمال وبقايا الماضي ليست إلا النسيج التي يتكون منه الحياة، كقطعة بالية رثة من القماش في طاحونة الإحداث والحوادث العظيمة، المقامة على شاطئ نهر الزمن، والتي تحول وتكيف الحياة القذرة للرجال والنساء.

هل يمكن أن يكون الإنسان بهذه الصورة التي رسمها القضاء الجهلي؟. أن هذا القضاء يصور الإنسان كما لو كان مجرد آلة ميكانيكية يسير بالقوة الضاغطة عليه ويتحرك كما يتحرك بندول الساعة من دون ما إرادة أو سلطان!؟ أو يقربه من الوجهة التشريحية للحيوان أو النبات من دون ما حرية أو إدراك أو مسئولية!. ولكن هل الإنسان هكذا!؟. من حسن الحظ أن هؤلاء

جميعا وان كانوا قد بلغوا بالإنسان هذا المنحدر التعس المشئوم من التفكير، إلا إن واحد منهم لم يجرؤ على القول بان الإنسان لا يمكن أن يزيد عن كونه آلة ميكانيكية، إذ أنهم لا يزالون يفرقون مع ت.ه. هكسلي بين القوة والمادة والشعور في الحياة البشرية، كما إن جميع الاتجاهات الحديثة تقف بالمرصاد لكل محاولة تحاول تصوير الإنسان هذا التصوير الآلي الميكانيكي المادي.. فالفلاسفة المحدثون وعلى رأسهم برجسون قد هدموا هذا الفكر وأصابوه بجرح بالغ، كما إن العلماء المبرزين قد شهدوا بالتفرقة الحاسمة بين المادة والحياة، وفي ذلك يقول لورد كالفن العالم الكبير: "إن اثر الحياة الحيوانية والنباتية على المادة ما يزال إلى اليوم خارج نطاق أي بحث علمي، فقوة الحياة في توجيه الحركات في أعضائنا المتحركة،والتي تسجل المعجزة الظاهرة اليومية في إرادتنا البشرية الحرة، وفي النمو من جيل إلى جيل في النبات المنبثق عن بذرة واحدة، تختلف اختلافا بينا عن أي نتيجة محتملة للاتفاق العرضي للذرات.. وفي الواقع إن الظاهرة الحقيقية للحياة تتجاوز تماما أي علم بشري ".. فإذا تحولنا إلى رجال النفس أو الاجتماع رأينا إن أشدهم تعصبا لفكرة الوراثة أو البيئة لا يمكن أن يسلب الإنسان حريته أو إرادته.. ومن منهم جرؤ على أن ينفي عن الإنسان المسئولية أو التبعية أو الواجب أو الالتزام وان يعطل له الإجرام أو الشر أو الرزيلة أو الانحراف أو الفساد أو ما أشبه من العيوب أو الآثام على اعتبار إنها ضرورة لا مفر منها، أو لا عقاب عليها!!؟. إن القضاء الجهلي نشا في الواقع عن الآخذين به من ذلك اليأس الذي يدهمهم ويروعهم، وهم يرون الأوضاع المتعددة المقلوبة بين الناس حتى أنهم ليسلمون بما اصطلح على تسميته "بالصدفة" أو "القضاء العارض" أو "الحظ الأعمى" وما أشبه من ألفاظ، التي إن دلت على شيء فإنما لتؤكد وتدل على إن العيب فيهم هم، لا في الحظ المسكين، إذ إن رؤاهم مهما توهمت إنها تبصر أو تدرك اعجز من أن تتبع جميع السلبيات أو العلل الرئيسية أو الثانوية.. وما الصدفة أو القضاء العارض، عند من يتصور أو يسلم به إلا أشبه بالكلمة التي لا معنى لها قبل أن توجد في جملة، أو السطر قبل أن يقرا في صفحة، أو الصفحة قبل أن تنضم إلى كتاب.. ومن المسلم به على أي حال إن القضاء الجهلي لم يعد لم يعد في المعنى المذكور مقبولا من العلم أو الفلسفة أو الاجتماع أو التاريخ أو المنطق أو الدين، إذ هو قضاء متشائم بالضرورة، ومضيع للنشاط الإنساني المدفوع بنوازع التقدم والطموح والاستعلاء والتسامي، والدافع للإخطار والماسي والمكارة والآلام.. بل هو القضاء الذي ينهي ويبدد كل إحساس أو دافع أو وازع أو حافز بالامتياز أو المسئولية بين الناس، مما لا يمكن أن يعقله عاقل أو يقبله شعور أو يرتضيه ضمير!!

قضاء العلم السابق

ويقوم هذا القضاء على الآخذين به على أساس العلم السابق أولا وأخيرا عند الله.. إذ قضاء الله في الاختيار أو الترك مؤسس على علمه السابق بأخلاق البشر، فالذين راوبسابق علمه أنهم يحفظون وصايا عينهم للخلاص والحياة الأبدية، وإما الآخرون الباقون فالدينونة والعقاب الأبدي.. ولعل بيلاجيوس الراهب البريطاني كان في مقدمة الآخذين به في مطلع القرن الخامس الميلادي والذي انشأ المذهب اللاهوتي المعروف بالبيلاجي عام ٤٠٠م، وتابعه في الأمر في القرن السابع عشر يعقوب ارمنيوس مبدع النظام الأرميني عندما كان أستاذا بجامعة ليون بهولندا عام ١٦٠٢م.. وقد قام المعتقد الأرميني كالمعتقد البلاجي على إن القضاء الإلهي لا يمكن أن يكون قضاء مطلقا غير مشروط أو محدود، إذ هو مهما طال أو امتد لا يمكن أن يمتد إلى كل ما يتعلق بإرادة الإنسان الحرة، وان اختيار الله للبشر للخلاص، للاختيار الأزلي، اختيار محدود غير مطلق يتوقف أولا وأخيرا على المعرفة السابقة لله بما للمؤمن من إيمان وطاعة.. أو في لغة أخرى إن قضاء العلم السابق هو قضاء اكتشافي تسجيلي لا يعدو أن يقوم العمل الإلهي فيه بأكثر من الاكتشاف والتسجيل، فانه إذ اكتشف إن بعض الناس سيطيعونه

ويحبونه ويخلصون له في الحياة، سجل أسمائهم من قبل في سفر الحياة الأبدي..والعكس صحيح بالنسبة لمالمحزن. إذ تركهم للمصير التعس الأبدي المحزن.. وقد رفض اغسطينوس من قبل، وكلفن من بعد، مثل هذه الآراء وهاجمها في أكثر من موضع أو ومظهر.. ولعله من المناسب قبل الحكم على الرأي البيلاجي أو الأرميني أو الحكم له أن نعلم بادئ ذي بدء لماذا امن بيلاجيوس وارمنيوس به واعتنقاه؟..

اغلب الظن أنهما آمنا وارتضياه مدفوعين نتصورهما للعدالة الإلهية من جهة والإرادة البشرية من الجهة الأخرى.. أو على الأقل إن هذا السبب المزدوج هو الداعي أو الدافع لبعض المذاهب المسيحية الحديثة التي ترفض أصلا فكرة الاختيار وتؤمن بالإطلاق الذي تركه الله للإنسان إن يقبل أو يرفض، أو يؤمن أو يرتد، من دون ما تدخل أو تعيين سابق الهي محتوم.. ومع إن هذا الرأي القائل بالقضاء على أساس العلم السابق يبدو للنظرة الأولى إن الفكر المتعجل الرأي الأدنى إلى الصحة والأقرب إلى المعقول، إلا إن الإمعان في التفكير فيه حكم عليه بالنقض والقصور وعدم السداد مما سنتنبه وشيكا عند مناقشة النظرية الأخيرة الأصح فيما نعتقد عن القضاء الإلهي.. غير إننا نسارع فنقول ههنا إن هذا الرأي لا يمكن إن يكون صحيحا أو منطقيا للأسباب الآتية :

١- إن القضاء المقيد أو المحدود يتنافى مع سلطان الله وإرادته الكاملة وتدخله التام في أعمال خليقته، إذ هو الخالق والمحيي والحارس والمنبه والمعين والدافع، مما يشمل قصة القضاء من أولها إلى أخرها. فإذا قيل بان القضاء الإلهي لا يمتد إلى الإرادة البشرية أو يقصر دونها، كان هذا في المعنى الدقيق بمثابة التجزئة له، وان الله يعمل بعضه ثم يترك الباقي الأخر لمحض اختيار الإنسان وإرادته ومسئوليته. كما إن الحقيقة الواقعة هي إن هناك اختيارا أو تعيينا إلهيا أكيدا لا شبهة فيه، ولا نعلم كيف ينكره أو يرفضه أولئك الذين ينادونا أو يتصورون إن لا اختيار هناك!!؟

٢- وكيف يمكن إن نفسر عندهم هذه الآيات الواضحة من كتاب الله: " وآمن جميع الناس الذين كانوا معينين للحياة الأبدية" (اع١٣: ٤٨) " فالبسوا كمختاري الله القديسين" (كو٣: ١٢) " إن الله اختاركم من البدء للخلاص" (٢تس٢: ١٣) " لأجل ذلك أنا اصبر على كل شيء لأجل المختارين" (٢تي ٢: ١٠) " بُطْرُسُ، رَسُولُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ، إلى... الْمُخْتَارِينَ ٢ بِمُقْتَضَى عِلْمِ اللهِ الآبِ السَّابِقِ، فِي تَقْدِيسِ الرُّوحِ لِلطَّاعَةِ، وَرَشِّ دَمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ. لِتُكْثَرْ لَكُمُ النِّعْمَةُ وَالسَّلاَمُ. (١بط١: ١و ٢).

٣- إن القضاء المؤسس على علم الله السابق عند الآخذين به، وان كان قد ادخل في الاعتبار عدالة الله، إلا إن هذا الاعتبار لم ينسه أيضا الرافضون لفكرته. وكل الفرق بين الاثنين إن العدالة كانت عند الفريق الأول هي الباعث الرئيسي والأساسي والظاهر للفكرة، واحد من بين الكثير أو العديد من البواعث الأساسية عند الله.. أو في لغة أخرى إن هذا القضاء إذا كان منبعثا من صفة العدالة عند الله- في رأي الفريق الأول- فانه في رأي الآخرين منبعث، لا عن هذه الصفة وحدها فحسب، بل عن سائر الصفات الأخرى المتعددة في الله، كالوجود والإحساس والمسرة والمحبة والرحمة والحكمة والسلطان والقدرة والقوة مجتمعة معا.

٤- إن الآخذين بفكرة هذا القضاء يعتقدون إن الإرادة البشرية في قدرتها إن تلعب دورا رئيسيا ينكره عليها الرافضون له.. فإذا فصلنا الإجمال قلنا أن بيلاجيوس كان يعتقد إن الإنسان ذو إرادة مطلقة، بمعنى انه يقدر من تلقاء نفسه أن يريد أو يعمل الخير أو الشر، فصلاح الإنسان وشره باعتبار طبيعته وأفعاله يتوقفان عليه مطلقا من غير ما تأثير أو فعل خارجي!! ولم يؤمن ارمنيوس بهذا الإطلاق عند الفكر البيبلاجي، فقال إن الإنسان ليس لديه القدرة على إنشاء الصالح أو عمله بمجرد قوته ودون مساعدة النعمة الإلهية. ولكن هذه النعمة لا تزيد عن كونها حثا أدبيا يشجعه على الأفضل أو الأصلح، فإرادة الإنسان أولا وأخيرا هي الفيصل في كل الأمور، فبهذه الإرادة يمكنه العمل مع النعمة أو رفضها.. وما يصنع منه القديس أو الخاطئ هو حسن أو سوء استعمال النعمة الإلهية.. إما اوغسطينوس فقد أنكر على الإرادة إي مقدرة على الإطلاق.. ونعى عليها العجز الكلي عن عمل إي إصلاح، وقد شايعه في ذلك كالفن، بل بين الاثنان إن الإنسان بسبب السقوط ميال ونزاع على الدوام لكل شر أو إثم وخطية وتمرد، فمن العبث أن يقال بعد ذلك انه يستطيع مجردا من النعمة الإلهية، أو بمجرد حث النعمة الأدبي له، ومثالها المشجع أمام عينيه، أن يقوم بأي خير أو صلاح، ما لم تعمل هذه النعمة فيه عملا أعمق واجل واقوي واقدر،، أو في لغة أخرى ما لم تقم بعمل سري فعال مغير، يلده من جديد وينقله من الموت إلى الحياة، ومن السكون إلى الحركة، ومن السلبية إلى الايجابية، ويرجعه من ظلمات إلى نور، ومن سلطان الشيطان إلى سلطان الله.. أن الإنسان بدون النعمة هو الإنسان الصارخ : " وَأَمَّا أَنَا فَجَسَدِيٌّ مَبِيعٌ تَحْتَ الْخَطِيَّةِ. ١٥لأَنِّي لَسْتُ أَعْرِفُ مَا أَنَا أَفْعَلُهُ إذ لَسْتُ أَفْعَلُ مَا أُرِيدُهُ بَلْ مَا أُبْغِضُهُ فَإِيَّاهُ أَفْعَلُ.... ١٨فَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ سَاكِنٌ فِيَّ أَيْ فِي جَسَدِي شَيْءٌ صَالِحٌ. لأَنَّ الإِرَادَةَ حَاضِرَةٌ عِنْدِي وَأَمَّا أَنْ أَفْعَلَ الْحُسْنَى فَلَسْتُ أَجِدُ. ١٩لأَنِّي لَسْتُ أَفْعَلُ الصَّالِحَ الَّذِي أُرِيدُهُ بَلِ الشَّرَّ الَّذِي لَسْتُ أُرِيدُهُ فَإِيَّاهُ أَفْعَلُ.(رو٧: ١٤ و ١٨ -١٩). إما الإنسان في النعمة فهو القائل: " ١٠وَلَكِنْ بِنِعْمَةِ اللهِ أَنَا مَا أَنَا وَنِعْمَتُهُ الْمُعْطَاةُ لِي لَمْ تَكُنْ بَاطِلَةً بَلْ أَنَا تَعِبْتُ أَكْثَرَ مِنْهُمْ جَمِيعِهِمْ. وَلَكِنْ لاَ أَنَا بَلْ نِعْمَةُ اللهِ الَّتِي مَعِي.(١كو١٥ :١٠) "استطيع كل شيء في المسيح الذي يقويني " (في٤: ١٢). فإذا كان هذا الفكر الأخير، كما هو ظاهر، هو الرأي الكتابي، كان القول بان القضاء على أساس العلم السابق المجرد بما يفعله الإنسان غير صحيح أو سديد، يوضع في الجزء موضع الكل، ويعتبر فيه الترس في الساعة كأنه الساعة كلها، أو المسمار في الآلة كأنه الآلة نفسها، بل تحمل فيه الإرادة البشرية أكثر مما يستطيع أو تقدر أو تحتمل.. ولهذا فانه من الواجب أن نستدرك ههنا فنقول أن ما أشار إليه الرسول بطرس في القول : " بِمُقْتَضَى عِلْمِ اللهِ الآبِ السَّابِقِ، فِي تَقْدِيسِ الرُّوحِ لِلطَّاعَةِ، وَرَشِّ دَمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ" (١بط١: ٢). لا يمكن أن يتخذ حجة لتأييد القضاء بالعلم السابق، بل لعلة إثبات وتأييد لما اشرنا إليه من عمل النعمة الإلهية الكاملة في هذا القضاء،إذ يتحدث عن اشتراك الاقانيم الثلاثة في عملية الاختيار نفسها، إذ أن هذا الاختيار يتم بترتيب الأب وفداء الابن وتقديس الروح القدس، مما سنعرض له بإفاضة أوفر فيما بعد، فالعلم المذكور ههنا – دفعا لأي شبهة أو مجادلة في الموضوع – جزء من كل، وحلقة من الحلقات المتتابعة المتراصة المتماسكة في الترتيب كله.. ولهذا فنحن نرفض أن يكون القضاء الإلهي مبنيا على أساس العلم السابق بالأعمال الصالحة للمؤمنين، نرفضه لقصوره

وجزئيته وضعفه عن مواجهة الأسئلة أو الثغرات التي يمكن أن تفتح في هيكل هذه لعقيدة وبنائها الشامخ العظيم المتناسق الرائع المجيد!!

القضاء الحكيم

وهذا القضاء يتفادى ولا شك كل العيوب والثغرات التي وجدت في النظريات السابقة بل يقوم كالبناء المتراص المترابط الأجزاء والكاشف عن حكمة الله المطلقة الأولية المنظمة الدقيقة المسرة الجوادة المتوازنة العادلة.. وسنقف قليلا من كل عنصر من عناصر هذا القضاء الإلهي الحكيم فيما يلي:

١ـ القضاء المطلق

وما من شك بان هذا القضاء مطلق غير مقيد في شيء وهذا ما تقتضيه أولا طبيعة الله وسيادته وسلطانه، إذ أن الله كما هو بديهي عاقل، لا يفتقر إلى شريك أو مشير، وهو متعقل في التفكير والتدبير، ومقاصده اعلي وأعظم من كل فكر أو إدراك، وقدرته من غي قيود أو حدود، إذ : "١٩لَيْسَ اللهُ إِنْسَاناً فَيَكْذِبَ وَلاَ ابْنَ إِنْسَانٍ فَيَنْدَمَ. هَلْ يَقُولُ وَلاَ يَفْعَلُ؟ أَوْ يَتَكَلَّمُ وَلاَ يَفِي؟ (عدد٢٣: ١٩). "كُلَّ مَا شَاءَ الرَّبُّ صَنَعَ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ فِي الْبِحَارِ وَفِي كُلِّ اللُّجَجِ.(مز١٢٥: ٦). "هوذا الله يتعالى بقدرته.من مثله معلما من فرض عليه طريقه أو من يقول له قد فعلت شرا؟" (اي٢٦: ٢٢ و ٢٣) "١٣مَنْ قَاسَ رُوحَ الرَّبِّ وَمَنْ مُشِيرُهُ يُعَلِّمُهُ؟ ١٤مَنِ اسْتَشَارَهُ فَأَفْهَمَهُ وَعَلَّمَهُ فِي طَرِيقِ الْحَقِّ وَعَلَّمَهُ مَعْرِفَةً وَعَرَّفَهُ سَبِيلَ الْفَهْمِ.؟ (اش٤٠: ١٣، ١٤) " ٣٥وَحُسِبَتْ جَمِيعُ سُكَّانِ الأَرْضِ كَلاَ شَيْءَ وَهُوَ يَفْعَلُ كَمَا يَشَاءُ فِي جُنْدِ السَّمَاءِ وَسُكَّانِ الأَرْضِ وَلاَ يُوجَدُ مَنْ يَمْنَعُ يَدَهُ أَوْ يَقُولُ لَهُ: مَاذَا تَفْعَلُ؟ (دا٤: ٣٥) " لأَنْ مَنْ عَرَفَ فِكْرَ الرَّبِّ أَوْ مَنْ صَارَ لَهُ مُشِيراً؟..٦لأَنَّ مِنْهُ وَبِهِ وَلَهُ كُلَّ الأَشْيَاءِ. لَهُ الْمَجْدُ إِلَى الأَبَدِ. آمِينَ. (رو١١: ٣٤، ٣٦) "...فإذا صح أن البستاني في الحديقة ينسقها وفقا للفكر الذي يتمشى في ذهنه.. وإذا صح أن المهندس يقيم البناء وفقا للرسم الذي ابتدعه من مخيلته.. وإذا صح أن رب البيت يرتب الأوضاع في بيته وفقا للاسلقب الذي يريده دون معقب.. وإذا صح أن القائد ينظم وينسق ويدفع حركات الجيش الذي يتولى قيادته من دون ما تدخل أو اعتراض من غير.. فان الـه – جل جلالـه – لا يمكن أن يكون اقل من هؤلاء انفرادا أو تسلطا أو إحكاما أو تدبيرا، لهذا الكون الذي خلقه في المجموع أو التفصيل.. إذ ما القضاء الإلهي في حقيقته إلا الأخذ بيد الإنسان، لا من المهد إلى اللحد فيقولون، بل من قبل المهد إلى ما وراء اللحد، أي من الترتيب الأزلي إلى المجد البدي، أو كما جاءت إشارات متعددة في الكتاب إلى ذلك إذ قال المسيح نفسه : " إِذْ أَعْطَيْتَهُ سُلْطَاناً عَلَى كُلِّ جَسَدٍ لِيُعْطِيَ حَيَاةً أَبَدِيَّةً لِكُلِّ مَنْ أَعْطَيْتَهُ.(يو١٧: ٢) وقيل " أعطى الله الأمم أيضا التوبة والحياة (اع١١: ١٨) " أن الله اختاركم من البدء للخلاص بتقديس الروح وتصديق الحق "(٢تس٢: ١٣) " ١٥وَكُلُّ مَنْ لَمْ يُوجَدْ مَكْتُوباً فِي سِفْرِ الْحَيَاةِ طُرِحَ فِي بُحَيْرَةِ النَّارِ." (رؤ٢٠: ١٥) "٢٧وَلَنْ يَدْخُلَهَا شَيْءٌ دَنِسٌ وَلاَ مَا يَصْنَعُ رَجِساً وَكَذِباً، إِلَّا الْمَكْتُوبِينَ فِي سِفْرِ حَيَاةِ الْحَمَلِ.(رؤ٢١: ٢٧).. وفي الواقع أن القضاء من الآلف إلى الياء ومن جملة التفصيل لابد يخضع ويتمشى مع سلطان الله المطلق الكامل غير المقيد أو المحدود..

٢ـ القضاء الأزلي:

وهذا القضاء كما يتبين من لغة الكتاب ليس فكرا طارئا أو أمرا حدث أمام الله، بل هو من البدء الأزلي عند الله، إذ: "معلومة عند الرب منذ الأزل جميع أعماله" (أع١٥: ١٨) "تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم" (مت٢٥: ٣٤) "الحكمة المكتومة التي سبق الله فعينها قبل الدهور لمجدنا" (١كو٢: ٧) "كما اختارنا فيه- أي في المسيح- قبل تأسيس العالم لنكون قديسين وبلا لوم قدامه في المحبة" (أف١: ٤) "حسب قصد الدهور الذي صنعه في المسيح يسوع ربنا" (أف١:

١١) "عني رجاء الحياة الأبدية التي وعد بها الله المنزه عن الكذب قبل الأزمنة الأزلية" (تي١: ٢) ولعل هذه كلها وغيرها من الآيات المماثلة الكثيرة تفصح عن ذلك القصد الأزلي العميق الكائن من قلب الله، بل هو القضاء الذي تتجمع فيه البشرية بأكملها، ويرتكز فيه التاريخ، وتتجه إليه، وتصب فيه، جميع المتعلقات المتصلة بسير الموكب البشري في كل العصور والأجيال: "حسب قصد الدهور".. وهو السابق لكل حركة أو نأمة في العالم، إذ فيه الملكوت المعد لأبناء الله والمؤمنين: "منذ تأسيس العالم" وهو الموغل في القدم والمكتوم والمعين والموعود به قبل الدهور والأزمنة الأزلية!!.. وهل يمكن بعد ذلك أن يقال أن قضاء الله المقصود والموعود به المعين من قبل الأزل هو قضاء مسبوق بالعلم أو المعرفة بما سيفعله البشر من خير أو شر..؟ كلا بل هذا في الواقع ما يعبر عنه رجال القانون بالمصادرة على المطلوب.. أو قلب الأوضاع.. أو عكس الترتيب.. أو ما أشبه من ألفاظ.. وحاشا أن يكون قضاء بهذا المعنى، إذ ليس يسبقه عند الله أية سوابق أو بوادر أو نية أفعال تصدر من البشر أو تتحرك فيهم على الإطلاق..

٣- القضاء المرتب:

وهذا القضاء الأزلي لا يمكن إلا أن يكون قضاء مرتبا منسقا منظما عند الله، إذ ليس من المعقول بداهة أن الله يقصد أمرا ويحتم أمرا به ويعينه دون أن ينظم وينسق ويرتب كافة أوضاعه وتفاصيله بكلياته وجزئياته.. ولقد تبين فيما أوردناه وأشرنا إليه من آيات مختلفة أن القضاء بدا أولا سرا إلهيا مكتوما أزليا من قبل الدهور لا يعلمه ملاك أو يدريه مخلوق، إذ هو كائن في قلب الله قبل أن توجد أية مخلوقات على الإطلاق أو لغة أخرى هو القضاء حسب القصد.. على أن الأمر إذ يتعدى القصد إلى الإنجاز أو التنفيذ، يتحول الأمر من القضاء المرسوم إلى القضاء الفعال.. إذ حاشا لله أن يقصد أمرا ثم يتراجع أو يندم أو يقصر أو يعجز عن تنفيذه، ومحطات الزمن تشهد وتؤكد أن القضاء المرسوم يتحول إلى القضاء الناجز أو القضاء الفعال، في الوقت المعين في القصد الأزلي. ومن المحال أن يترك في هذا القضاء شيء واحد مهما دق شأنه أو صغر أمره للصدفة والعارض.. ويكفي أن نذكر على سبيل القياس أو المثال، لا أمر الصليب كتدبير أزلي، فهذا الأمر هو مركز قضاء الله وجوهره، بل أن نذكر بعض الدقائق والجزئيات في قصة الصليب نفسها، لنعلم أن أبسط الأمور لم تترك غفلا من أ/ر الله وقضائه المحتوم، قبل نيف وألف عام من الصليب تنبأ داود ببعض ما سيحدث أو يتم فذكر من بين ما ذكره واقعتين جزئيتين، إحداهما عن لباس المسيح، والأخرى عن شرابه. أما الواقعة الأولى فهي: "يقسمون ثيابي بينهم وعلى لباسي يقترعون" (مز٢٢: ١٨) والثانية: "وفي عطشي يسقونني خلا" (مز٦٩: ٢١) وقد تمثلت الواقعتان يوم الصليب كما هو مكتوب: "ثم أ، العسكر إذ كانوا قد صلبوا يسوع، أخذوا ثيابه وجعلوها أربعة أقسام لكل عسكري قسما وأخذوا القميص أيضا. وكان القميص بغير خياطة منسوجا كله من فوق، فقال بعضهم لبعض:لا نشقه بل نقترع عليه لمن يكون. ليتم الكتاب القائل اقتسموا على ثيابي بينهم وعلى لباسي ألقوا قرعة. هذا فعله العسكر" "بعد هذا رأى يسوع أم كل شيء قد كمل فلكي يتم الكتاب قال: أنا عطشان. وكان إناء موضوعا مملوءا خلا. فملئوا اسفنجة من الخل ووضعوها على زوفا وقدموها إلى فمه، فلما أخذ يسوع الخل قال قد أكمل" (يو١٩: ٢٣، ٢٤، ٢٨-٣٠) ولعله لا يمكن أن يوجد في الوجود كله دقة بعد هذه الدقة، وإحكام بعد هذه الإحكام في ترتيب القضاء الإلهي، إذ أن قميصا يمزق أو لا يمزق يخضع للمكتوب أكثر من ألف من الأعوام، وكذلك جرعة من الخل، وليست من الماء تعطى للمصلوب،إتماما للنبوءة القديمة الإلهية المحتومة.. فإذا أضيف إلى هذا كله أن سفر الرؤية لا يترك للبشرية حتى ينتهي به المطاف الأخير إلى الأرض الجديدة والسماء الجديدة، إلى حضرة الله بعد أن يكون كل شيء قد تم وفقا للترتيب الدقيق الإلهي العظيم للبشر جميعا.. إذا أدركنا كل هذا عرفنا أننا إزاء قضاء مرتب منسق عظيم..

٤ـ قضاء المسرة الإلهية

وهذه هي هدف هذا القضاء وغايته الأولى والأخيرة. وفي الواقع أن هذا القضاء المطلق، الأزلي، المرتب، لابد أن يكون قضاء ذا غاية أو هدف جدير بما له من الترتيب أو التنظيم أو الإحكام الإلهي.. وقد أفصح الكتاب عن الغاية الإلهية بأقوال متعددة منها : " أَحْمَدُكَ أَيُّهَا الآبُ رَبُّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لأَنَّكَ أَخْفَيْتَ هَذِهِ عَنِ الْحُكَمَاءِ وَالْفُهَمَاءِ وَأَعْلَنْتَهَا لِلأَطْفَالِ. ٢٦نَعَمْ أَيُّهَا الآبُ لأَنْ هَكَذَا صَارَتِ الْمَسَرَّةُ أَمَامَكَ." (مت١١: ٢٥، ٢٦) "لا تخف أيها القطيع الصغير لان أباكم قد سر أن يعطيكم الملكوت" (لو١٢: ٥٢) "٥إِذْ سَبَقَ فَعَيَّنَنَا لِلتَّبَنِّي بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ لِنَفْسِهِ، حَسَبَ مَسَرَّةِ مَشِيئَتِهِ، ٦لِمَدْحِ مَجْدِ نِعْمَتِهِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْنَا فِي الْمَحْبُوبِ" (اف١: ٥،٦). وهذه المسرة أن تحدثت عن شيء، فهي لا تتحدث عن استقلال القضاء الإلهي وبعده عن كل مؤثر أو حافز أو دافع خارج عن شخص الله فحسب إذ انه قد صنع الكل حسب مسرته الشخصية، ولكنها تتحدث أيضا عن نبل هذا القضاء وعظمته ومجده وجلاله.. وهل يمكن أن يكون الأمر غير ذلك، ومسرة الله على الدوام خالية من كل أنانية أو أثرة أو إسفاف أو ضعف أو قصور أو ما أشبه من تلك العواطف التي يمكن أن تلوث أو تقلل أو تظلل حتى أجمل المسرات عند الناس..؟ أن مسرة الله في الواقع كلمة النقاوة والاستقامة والجمال والإجلال والنور، كذا شخص الله الكامل المستقيم العظيم والجميل والذي ليس عنده تغيير ولا ظل دوران.. بل إن هذه المسرة وحدها هي التي تضع البشر موضع الخضوع والتسليم لقضاء الله عندما يبدو من المتعذر في بعض الأحايين فهم الكثير من الإلغاز والخفيات التي قد تخف أو ترتبط به، إذ ليس يجمل بالإنسان في مثل هذه الأوقات إلا أن يهتف : لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض.. لتكن لا إرادتي بل إرادتك...

٥ـ القضاء الجواد

وظاهرة الجود في هذا القضاء أوضح من أن تذكر، إذ هو جود الاختيار وجود الفداء، وجود الإتمام، والتقديس والتكريس. ومرة أخرى نكرر ونقول أن الكتاب المقدس يؤكد بما لا يدع مجال للشك أو الريب، أن هناك اختيارا أكيدا ثابتا علويا لكل مؤمن ومخلص، وان هذا الاختيار لا يرجع لشيء فينا على الإطلاق بل يرجع في كل شيء إلى شخص الله، كيف لا والرسول يقول: "٢٦فَانْظُرُوا دَعْوَتَكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنْ لَيْسَ كَثِيرُونَ حُكَمَاءُ حَسَبَ الْجَسَدِ. لَيْسَ كَثِيرُونَ أَقْوِيَاءُ. لَيْسَ كَثِيرُونَ شُرَفَاءُ. ٢٧بَلِ اخْتَارَ اللهُ جُهَّالَ الْعَالَمِ لِيُخْزِيَ الْحُكَمَاءَ وَاخْتَارَ اللهُ ضُعَفَاءَ الْعَالَمِ لِيُخْزِيَ الأَقْوِيَاءَ ٢٨وَاخْتَارَ اللهُ أَدْنِيَاءَ الْعَالَمِ وَالْمُزْدَرَى وَغَيْرَ الْمَوْجُودِ لِيُبْطِلَ الْمَوْجُودَ ٢٩لِكَيْ لاَ يَفْتَخِرَ كُلُّ ذِي جَسَدٍ أَمَامَهُ. ٣٠وَمِنْهُ أَنْتُمْ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ الَّذِي صَارَ لَنَا حِكْمَةً مِنَ اللهِ وَبِرّاً وَقَدَاسَةً وَفِدَاءً. ٣١حَتَّى كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: «مَنِ افْتَخَرَ فَلْيَفْتَخِرْ بِالرَّبِّ».(١كو١: ٢٦-٣١) فإذا قيل بعد ذلك أن هذا الاختيار يرجع إلى شيء في الإنسان أو استعداد فيه أو عمل منه، لما كان ثمة تأكيد من أن يتحدث الوحي هنا عن أن الاختيار الإلهي لفظ كل أسباب الاختيار المصطلح عليه عند الناس، واختار على النقيض من ذلك أولئك الذين لم يكن يظن احد على الإطلاق أنهم موضوع الاختيار أو التمييز أو التفضيل.. إذ اختار الجهال والضعفاء والأدنياء والمزدرى وغير الموجود، أو في لغة أخرى أن العلم السابق عند الله بالنسبة لهؤلاء المختارين لم يكن في صالحهم على الإطلاق، بل على العكس من ذلك كان ضدهم، ومع ذلك فقد اختارهم الله حتى لا يكون لواحد منهم أدنى الحق في الاعتداد بشخصه أو ذكاءه أو أصالته أو أخلاقه أو مجهوده أو أعماله.. وإلا فهل تستطيع أن تعلل لي لماذا حرص الكتاب وهو يتحدث عن سلسة انساب المسيح أن يذكرنا برحاب الزانية وراعوث الموآبية وبثشبع التي لاوريا..؟ ولماذا حرص الرسول وهو بصدد يعقوب وعيسو على أن ينبر عن أن الاختيار حدث قبل أن يولدا أو يعرفا في حياتهما الخير والشر..؟ ولماذا سجل التاريخ، ويسجل كل يزم، صيحات تشبه

صيحة ذلك الإنسان الذي إذ سئل عما فعل مع الله من اجل اختياره أجاب: "لقد فعلت كل ما هو سلبي وضد الله.. ومع ذلك فان أعجب ما في الوجود هذا هو الشيء الواحد.. لماذا اختارني الله واتي بي إلى ذاته وشخصه وملكوته الأبدي العتيد أن يكون؟".. أليس هذا عين ما قاله الرسول: " ٩الَّذِي خَلَّصَنَا وَدَعَانَا دَعْوَةً مُقَدَّسَةً، لاَ بِمُقْتَضَى أَعْمَالِنَا، بَلْ بِمُقْتَضَى الْقَصْدِ وَالنِّعْمَةِ الَّتِي أُعْطِيَتْ لَنَا فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ قَبْلَ الأَزْمِنَةِ الأَزَلِيَّةِ. (٢تي١: ٩).. بل لماذا يكون الموت هو المظروف الأسود، والذي يغلف جود الله في قصة الملايين من الأطفال الذين يموتون كل عام، والذين قطع الله عليهم الإرادة البشرية التي كان من الممكن جدا أن توردهم مورد الهلاك الأبدي فيما لو عاشوا وضلت نفوسهم وحياتهم بين الناس.؟ ولعله من اللازم ما دمنا بهذا الصدد أن نشير مرة أخرى إلى أن الحجة التي يتصورها البعض مؤيدة للاختيار على أساس العلم السابق تأتي في نظرهم من موضعين في كتاب الله أولهما قول الرسول بولس: " لان الذين سبق فعرفهم سبق فعينهم(رو٨: ٢٩)" والثانية المشار إليها آنفا في قول الرسول بطرس: "المختارين بمقتضى علم الله السابق" (١بط١: ٢).. ولكن من المسلم به أن المعرفة أو العلم المشار إليه ههنا لا يقصد به سوى الترتيب أو التنظيم، باعتبار أن العملية كلها منظمة ومرتبة من عند الله، فادم كلارك وهو كما نعرف لا يسلم بالاختيار غير المشروط، ويعترف بان المقصود بالتعبير" سبق فعرفهم أي سبق " فدبر ونظم.. ومثل هذا يمكن أن يقال أيضا عن المقصود في "علم الله السابق" إذ أن كلمة "علم" ترادف في الأصل الغوي كلمة المشورة أو التدبير أو التنظيم، وقد جاء في العهد الجديد كله مرتين، هنا، وفي سفر الأعمال حيث قيل عن ترتيب الفداء الإلهي في الصلب: "٢٣هذَا أَخَذْتُمُوهُ مُسَلَّماً بِمَشُورَةِ اللهِ الْمَحْتُومَةِ وَعِلْمِهِ السَّابِقِ وَبِأَيْدِي آثَمَةٍ صَلَبْتُمُوهُ وَقَتَلْتُمُوهُ (اع٢: ٢٣)...هذا هو الجزء الأول في تدبير الخلاص وترتيبه، أو في لغة أخرى هي القضاء المتسم بالإحسان والكرم والجود في التدبير الإلهي العظيم.. على أن الأمر لا يقتصر على مجرد تدبير أو تنظيم يقف فيه الله مجرد موقف المراقب أو المشجع أو المنسق أو المنظم، بل يمتد الأمر إلى ما هو أعظم واجل وابهر، إلى البذل.. أو قضاء الفداء كما يقولون الله!ا هو جوهر أو مركز قضاء الله... وان ذبيحة الفداء ليست امرأ حادثا أو طارئا تم يوم الصلب، بل هو التدبير الأزلي المعروف سابقا قبل تأسيس العالم.. ويكفي أن نرى وجود الله ومحبته العجيبة والعظيمة المعروفة في الصلب، حتى نعلم كما يتسم هذا القضاء بالوجود...وليت الأمر وقف عند هذا الحد ولكنه امتد إلى ما هو أكثر أو أعظم، إذ امتد إلى ما يسميه رجال اللاهوت بالقضاء الفاعل، إذ أن الصليب لا يمكن أن يجدي أو يفعل مفعوله المنتج والقوي والعظيم إلا إذا قبله الإنسان وامن به وانجذب إليه. وهذه الجاذبية لا يمكن أن تتم دون فعل الروح القدس في النفس، فالروح القدس هو الذي يكشف عن جمال الصليب ويقنع به، حتى يطيع الإنسان ويصدق وكما قيل.. " بتقديس الروح وتصديق الحق" (٢تس٢: ١٣) "في تقديس الروح والطاعة (١بط١ :٢) وهكذا يتضح من قضاء الله من أوله لأخره معين ومرتب ومدبر من الله، والله وحده، قبل أن يعرف الإنسان كيف يفكر أو يقبل أو يريد أو ينتصر !!

٦ـ القضاء المتوازن

على أن هذا القضاء، بالإضافة إلى هذا كله، قضاء متوازن، يوازي في الدقة الرائعة وفي المنطق السديد، وببلاغة الإعجاز، بين إرادة الله وحرية الإنسان وليس يقدر على هذا سواء اله وحده، بل هذه هي المعجزة التي تحدث وتتكرر في حياة جميع الناس الموجودين على ظهر الأرض كل يوم.. وفي الواقع أن هذا القضاء لا يمكن إلا أن يسير على ساقين، هما إرادة الله وحرية الإنسان، كما ر يمكن أن يعمل إلا بيدين هما الأمر الإلهي، ويد التنفيذ البشري..فإذا ما قيل بغير ذلك فان هذا القضاء لا يمكن أن يكون إلا قضاء اعوج أو اقطع. وفي الواقع انك لا يمكن أن تفصل حرية الإنسان عن إرادة الله دون أن تمزق أو

تحطم أو تجزأ أو تقضي الفضاء النهائي المبرم على فكرة القضاء الحكيم المقدس المبارك وفي الوقت عينه نحن نسال لماذا يستصعب الناس أن يسيروا الأمران معا دون تناقض أو تعارض أو انفصال مع أن واقع الحياة يشهد كل يوم على سيرهم معا فانا في حياتي، شخص حي حر مسئول، افعل هذا وامنع عن ذاك واقبل أو ارفض أو ارضى أو اسخط دون أن يصادر احد هذه الحرية التي لي على الإطلاق.. ومع ذلك فها أنا حر حقا.؟ كلا بل أنا في الواقع خاضع ادري أو لا ادري، كما سبق الإشارة – في نقض القضاء المعدوم إلى عوامل اعلي وارفع واقوي وارهب مني.. فإذا صح ما صوره البعض من إرادة الله وإرادة الإنسان أشبه بدائرتين احدهما صغيرة والأخرى كبرى، إما الصغيرة فهي الدائرة البشرية الموضوعة في نطاق وداخل الدائمة الكبرى، مهما افعل أو مهما اتسع أو مهما أضيق أو مهما أتخبط فدائرتي الصغيرة المحدودة تدخل وتسير في داخل الدائمة الإلهية وصورها آخرون في صورة " ترس" من ترس العجلات أو الساعات يتعانق أو يتشابك مع ترس آخر، كلاهما يسير ويندفع، فيدفعه بهذا الاندفاع المتشابك العجلة أو الآلة جميعا.. فأيهما يسير و أيهما لا يسير؟ وما من شك بان كليهما يسير ويندفع ويتفاعل مع الترس الأخر، وتسير وتندفع العجلة أو الآلة كلها.. وللوضوح الأكبر يمكن أن نذكر أو نشير إلى مثل آخر.. هب أن أبا رأى ابنه الصغير يقترب من النار الملتهبة وهو راغب ومصر على أن يمسك بالنار، والأب يريد أن يبتعد الابن عن ذلك.. فانه يستطيع أن يفعل ذلك بإحدى وسيلتين، إما أن يعدم الإرادة ذاتها في الابن إعداما كليا، بان يربط أو يمسك أو يشل جميع قواه البدنية، مبعدا إياه عن النار، وهما لم تعمل سوى إرادة واحدة، إما الأخرى فقد عطلت أو اعدم عملها على الإطلاق، إما الأسلوب الأخير فتتم بان تدخل الإرادة الصغرى تحت سيطرة واستعلاء الإرادة الكبرى دون أن تفقد حريتها ومسئوليتها، كأن يقدم الأب لابنه الذي يحب التفاح مثلا تفاحه يعلم إنها ستحوله عن النار، وهذا ما يصنعه الله على الدوام مع الإنسان.. وهذا هو الإعجاز في الاحتفاظ بين الإرادة الإلهية وإرادة الإنسان، ولعله هذا كله يتضح من القول: " تَمِّمُوا خَلاَصَكُمْ بِخَوْفٍ وَرِعْدَةٍ، ١٣لأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَامِلُ فِيكُمْ أَنْ تُرِيدُوا وَأَنْ تَعْمَلُوا مِنْ أَجْلِ الْمَسَرَّةِ.(في٢: ١٢، ١٣) وقول الرسول بطرس: "١٠لِذلِكَ بِالأَكْثَرِ اجْتَهِدُوا أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنْ تَجْعَلُوا دَعْوَتَكُمْ وَاخْتِيَارَكُمْ ثَابِتَيْنِ. لأَنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ ذلِكَ لَنْ تَزِلُّوا أَبَدًا." (٢بط١: ١٠) وهذا وحده هو الذي يدفع ما يمكن أن يقال من أن الإرادة الإلهية المحتومة ستعطل أو تصادر الحية البشرية، إذا مادام الله سيقضي بالأمر، فلا سبيل للإنسان بعد ذلك أن يفكر في التحرك أو النشاط أو القيام بهذا أو ذاك من ضروب العمل أو الامتناع عنه، لان الأمر سيتم على أي حال سواء رضي الناس أو كرهوا، عملوا أو لم يعملوا.. ولكن هذا مردود بان الإرادة الإلهية تطوي في ذاتها وتحيط بالإرادة البشرية، كما أن الله في حكمته البالغة قد أسدل ستارا كثيفا على النتيجة التي لابد أن تكون، حتى لا يحتج احد بأنه كل من العسير عليه أن يغير أو يتاضل هذا القضاء المحتوم.. فهو في مبدان الحياة أشبه بالجندي في المعركة، وان هذا الجندي من واجبه أن يناضل ويقاتل كيفما تكن، أو تنته المعركة بالفوز والهزيمة.. أو أشبه بالمريض الذي يصارع في سبيل الحياة، ولو علم إن الموات دان منه قرب..بل إن الطبيب وهو يعلم إن الموت أكيد وقريب لا يكف عن بذل المجهود للإنقاذ في اقسي الحالات وادعاها إلى اليأس والقنوط، مادام هناك نبضة أو نأمة حركة مترددة في صدر المريض أو في قلبه أو إطرافه.. فإذا كان الإنسان يتمسك في الأصل بالصحة لا المرض، بالحياة لا الموت، بالقوة لا بالضعف، بالنجاح لا بالفشل.. فليس من حقه بعد ذلك أن يمتنع عن الخير، أو يستسلم لنازعة من نوازع الشر أو الإثم أو الخطية بدعوى أن الأمر مقضي أو مكتوب، وهو لا يملك أن يدفع عنه هذا المكتوب أو المقضي.. بل على العكس إن الإنسان مطلوب منه أن يستعمل حريته وإرادته مسئوليته في دفع الشر بكل ما يملك من قوة، والسعي وراء الخير بكل ما فيه من عزم ونشاط وهمة وغير وحماس كما لو إن إرادته هي الأول والأخر في الأمر، وان لا شيء إلى جوارها على الإطلاق..

كما إن له أن يستسلم بعد ذلك إلى ما يحدث من نتائج باليقين الخاص والثقة الكاملة، كما لو إن الإرادة الإلهية وحدها هي التي تعمل كل شيء.. وتبتلع وتسيطر سيطرة تامة على كل ما يمكن أن تفيض أو تنعكس عنه الإرادة البشرية. وقد يتصور البعض أو يتوهم بان هذا غير ممكن أو غير ميسور، ولكن الواقع والتاريخ يفيان ذلك. فمثلا لا يعر فالتاريخ مذهبا امن بالقضاء الإلهي المطلق غي والمشروط كما أمنت جماعة البيوريتان المشهورة في التاريخ؟، ولكن هذه الجماعة اعطتنا إعلاما من أعظم الأعلام والأبطال في العالم، فإنها الجماعة التي خرج منها وليم الصامت في هولندا، والأميرال كولوني في فرنسا، ويوحنا نوكس في اسكتلندا، واوليفر كروميل في انجلترا، وهي الجماعة التي إذ أمنت بان كل شيء في يد الله لم يعد تخشى سوى الله والخطية، بل الجماعة التي أحس كل واحد منها بأنه مرسل من الله إلى العالم ليؤدي رسالة معينة لا يمكن أن تقف في طريقها أي صعوبة أو معضلة أو مشكلة أو عقبة، اجل فان الإيمان بقضاء الله المطلق الصالح الأمين هو الذي يصنع من الضعيف بطلا ومن الجبان أسدا، ومن الحائر رسولا، أو كما قال ج. أ. فرويده في واحدة من كتاباته الصغيرة عن الكلفينيين : "لقد جذبوا إلى أنفسهم كل رجل في أوربا يكره الكذب، لقد سحقوا إلى الأرض ولكنهم نهضوا ثانية، لقد كسروا ومزقوا، ولكنه لم توجد قوة على الإطلاق تستطيع أن تخضعهم وتخيفهم. لقد ابغضوا كما لم تبغض مجموعة من الناس قط، كل إحساس بالكذب والنجاسة، وكل نوع من أنواع الأخطاء الأدبية مما يمكن أن تظهر أو تعرف، وما لم يوجد اليوم في انجلترا أو اسكتلندا من الخوف الوجداني بالخطأ ليس إلا البقايا الباقية من هذا الإقناع الذي زرعه الكلفينييون في قلوب الناس". ولا نحسب أن هناك شهادة تعادل هذه الشهادة عن الأثر العميق التي تحدثه الإرادة الإلهية في الحرية البشرية. بل لا حاجة بعد ذلك إلى القول إن التخبط أو الشر أو الإثم الذي قد يحدث من الإنسان لا يمكن أن يكون الله مسئولا عنه، مادام قد أتاح لحرية البشرية أن تعمل بكل ما لها من قوة وسعة وسلطان في توازن تام كامل مع الإرادة الإلهية.

٧- القضاء المطلق

وهذا آخر ما نود أن نشير إليه ونحن بصدد القضاء الإلهي العظيم الحكيم، ونعني به إن هذا القضاء لا يمكن إلا أن يكون القضاء العادل إلى آخر ما يمكن أن تعني أو تشير إليه كلمة العدالة من معنى، وإذا كان الإطلاق هو القاعدة والأساس في قضاء الله، فان العدالة هي حجر الزاوية في هيكله وبنيانه الفخم الإلهي العظيم. وكل قضاء يتجرد من هذه العدالة أو ينحرف عنها ليس جديرا بان ينتسب إلى الله أو يتصل بشخصه من قبل أو من بعد، كيف لا وقد كان السؤال الحاضر في ذهن إبراهيم عندما استمع إلى مصير سدوم وعمورة ومدن الدائرة: "٢٥حَاشَا لَكَ أَنْ تَفْعَلَ مِثْلَ هَذَا الأَمْرِ أَنْ تُمِيتَ الْبَارَّ مَعَ الأَثِيمِ فَيَكُونُ الْبَارُّ كَالأَثِيمِ. حَاشَا لَكَ! أَدَيَّانُ كُلِّ الأَرْضِ لاَ يَصْنَعُ عَدْلاً؟» (تك١٨ :٢٥)!!؟ كما أن المرنم دعى الطبيعة كلها لتهتف وتترنم معا: " ٩أَمَامَ الرَّبِّ لأَنَّهُ جَاءَ لِيَدِينَ الأَرْضَ. يَدِينُ الْمَسْكُونَةَ بِالْعَدْلِ وَالشُّعُوبَ بِالاِسْتِقَامَةِ. (مز٩٨ :٩). فإذا كان الله في عدله يبدو بهذه الدقة العظيمة الرائعة، فمهما يكن قضاء اله حافلا بالخفيات والإسرار، فانه لابد أن يكون في الخفي أو المنظور، في المدرك أو البعيد عن الإدراك، القضاء العادل بل الدقيق والمطلق والكامل في عدالته!! وعدالة الله تبدو أول ما تبدو في القضاء الإلهي في إعطاء الفرصة الكاملة للحرية البشرية في القبول أو الرفض، بالمعنى المفهوم المشار إليه والمذكور آنفا. كما إن هذه العدالة تحمل معها في الوقت عينه معنى المكافأة أو العقوبة على حد سواء، إذ انه لو تكن هناك حرية أمام المؤمن المختار لكي يعمل فيثاب، لما حق له أن يكافأ، مادام هو مجبر أو غير مخير في عمل الحسن والطيب والكريم والصالح، والعكس صحيح، إذ لا يجوز على الإطلاق محاكمة أو عقاب أي مذنب لم تعط له الحرية في الرفض أو القبول، أما أولئك الذين قالوا بان الله قد قرر مصير المؤمن والشرير ثم دفع كل منهما إلى المصير المحتوم الذي ينتظره، فهؤلاء ينسون أو

يتجاهلون أو قضاء الله المطلق هيهات إن يكون متعسفا أو ظالما أو منحرفا عن العدالة والحق، ولعل هذا هو ما عناه الرسول بولس عندما فرق بين المؤمنين والأشرار في القول : ٥بَيِّنَةً عَلَى قَضَاءِ اللهِ الْعَادِلِ، أَنَّكُمْ تُؤَهَّلُونَ لِمَلَكُوتِ اللهِ الَّذِي لأَجْلِهِ تَتَأَلَّمُونَ أَيْضاً، ٦إِذْ هُوَ عَادِلٌ عِنْدَ اللهِ أَنَّ الَّذِينَ يُضَايِقُونَكُمْ يُجَازِيهِمْ ضِيقاً، ٧وَإِيَّاكُمُ الَّذِينَ تَتَضَايَقُونَ رَاحَةً مَعَنَا عِنْدَ اسْتِعْلاَنِ الرَّبِّ يَسُوعَ مِنَ السَّمَاءِ مَعَ مَلاَئِكَةِ قُوَّتِهِ،(٢تس١: ٥-٨).

هذا هو المشجع لنا على رفض النظريات الثلاثة الأولى سواء في ذلك القضاء المعدوم أو الجهلي أو المبني على مجرد العلم السابق عند الله بما سيفعله الإنسان، لنقبل بالتأكيد واليقين عقيدة القضاء الإلهي الحكيم المتزن بالإطلاق، والأزلية، والتنظيم، والمسرة، والجود، والتوازن، والعدل، ولنهتف آخر الأمر لان: " الله هو القاضي، هذا يضعه وهذا يرفعه" (مز٧٥: ٧) " ٥إِذْ سَبَقَ فَعَيَّنَنَا لِلتَّبَنِّي بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ لِنَفْسِهِ، حَسَبَ مَسَرَّةِ مَشِيئَتِهِ، ٦لِمَدْحِ مَجْدِ نِعْمَتِهِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْنَا فِي الْمَحْبُوبِ، ٧الَّذِي فِيهِ لَنَا الْفِدَاءُ، بِدَمِهِ غُفْرَانُ الْخَطَايَا، حَسَبَ غِنَى نِعْمَتِهِ، ٨الَّتِي أَجْزَلَهَا لَنَا بِكُلِّ حِكْمَةٍ وَفِطْنَةٍ، ٩إِذْ عَرَّفَنَا بِسِرِّ مَشِيئَتِهِ، حَسَبَ مَسَرَّتِهِ الَّتِي قَصَدَهَا فِي نَفْسِهِ، ١٠لِتَدْبِيرِ مِلْءِ الأَزْمِنَةِ، لِيَجْمَعَ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْمَسِيحِ، مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا عَلَى الأَرْضِ، فِي ذَاكَ ١١الَّذِي فِيهِ أَيْضاً نِلْنَا نَصِيباً، مُعَيَّنِينَ سَابِقاً حَسَبَ قَصْدِ الَّذِي يَعْمَلُ كُلَّ شَيْءٍ حَسَبَ رَأْيِ مَشِيئَتِهِ" (اف١: ٥-١١).

الفصل الحادي عشر: إيماني بعناية الله

لا يكاد الإنسان يتأمل في قصة العناية الإلهية حتى تنتصب أمام ذهنه آراء مختلفة ونظريات متعارضة للكثيرين من الشخصيات المعروفة في التاريخ حول هذه العناية ومدى تدخلها أو تعاملها مع الأحياء أو الأشياء... فهناك عمر الخيام بفلسفته المحزونة البائسة القائلة عن السماء: "ما هذه القبة الزرقاء إلا صحن مقلوب يزحف تحتها البشر ويحيون ويموتون!!.. فلا ترفع إليها يدًا في طلب العون!! فهي صماء بكماء عاجزة مثلي ومثلك".. وهناك اللورد بيرون الذي صور الله وهو لا يكاد يبالي بأحزان الناس وآلامهم وتعاستهم وحروبهم ومآسيهم، وإذ يقف من الجميع موقف المتفرج غير المبالي!! وهناك توماس كاريل الذي زعم بأن الله أهمل البشر ونأى عنهم، ولا يكاد يهتم في شيء فيما يتصارعون عليه أو يقاتلون من أجله، أو ما تتلون به حياتهم أو تحفل من ضروب التعاسات والعذابات... وهناك على النقيض من هؤلاء أوليفر كروميل الذي صاح معرفًا التاريخ: "بأنه قوة الله الظاهرة في إسقاط الممالك وإقامتها"... وكلفن الذي قال: "إني لا أؤمن بعناية الله كإله فحسب، بل بعنايته كأب محب مشفق".. ويوحنا ويسلي الذي درج على القول كلما قرأ صحيفة من الصحف: "إني أقرأ ما يفعل الله كل يوم في حياة الناس".. قد يكون إذًا من الضروري أن نقف من هذه العناية لنتأملها بدقة وأصالة وإمعان، لنعرف مدلولها ومعناها وعظمتها وبرهانها، والمفهوم الصحيح لشتى مظاهرها، وكيف يمكن أن نتفاعل معها أن نتعامل... وكل هذا على الوضوح التالي:

العناية ومدلولها

والعناية في المعنى المعروف هي مداخلة الله وتعامله مع الكون بكل ما فيه من أحياء وأشياء، وقد قسمها البعض إلى ثلاثة أقسام، إلى العناية العامة، والخاصة، والأخص.. أما العامة فتلك التي تتصل بالكون كله وتعم الأشياء والأحياء والمخلوقات جميعًا على كافة أنواعها وألوانها، وهي العناية التي لابد أن تحدث من خالق الكون ليضبطه ويحفظه ويصونه ويدفعه لإتمام الغرض الذي وضع له والرسالة التي عليه أن يؤديها، وليس شيء في هذا الكون كله مهما يكن صغيرًا ودقيقًا بعيدًا عن عينيه وفكره.. فإذا ظن الإغريق قديمًا أن الشمس لا تشرق كل صباح إلا لأن آلهة معينة من الآلهات تسوقها وتدفعها كما يدفع السائق مركبته وخيله.. فإن العناية الإلهية تسوق وتدفع كل يوم – صدقًا وحقًا – جميع الأشياء والأحياء بأساليب منوعة ومختلفة مباشرة وغير مباشرة، إذ تدفع الجماد والماديات بالنواميس الطبيعية والمادية حتى ليصح أن يُقال في لغة لمسيح: "فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين" (مت٥: ٤٥) أي أ، إشراق الشمس أو إمطار الأمطار يرجع إلى العناية العامة الشاملة لجميع الناس.. كما أن العناية بالحيوانات والدبابات والطيور وسائر المخلوقات

والعجماوات غير العاقلة ترجع كل يوم أولا وأخيرًا إلى رحمة الله وعينه التي لا يمكن أن تغيب عن نظرها أصغر وأضعف الكائنات أو المخلوقات، وهذه العناية تتحقق وتتم مرات متعددة بتحريك الغرائز والقوى المعطاة والممنوحة لهذه العجماوات، كما تتحقق مرات أخرى بتدخل الله وسيطرته العظيمة المباشرة على الجزيئات والتفاصيل في كل ما يمكن أن يجري أو يحدث في الطبيعة والوجود... وليس أدل على ذلك من القول الإلهي لأيوب: "اتصطاد للبوة فريسة أم تشبع نفس الأشبال، حين تجرمز في عريسها وتجلس في عيصها للكمون. من يهيئ للغراب صيده إذ تنعب فراخه إلى الله وتتردد لعدم القوت" (أي٣٨: ٣٩-٤١). أو قول المرنم: "المفجر عيونًا في الأودية بين الجبال، تجري. تسقي كل حيوان البر. تكسر الفراء ظمأها. فوقها طيور السماء تسكن. من بين الأغصان تسمع صوتًا... المنبت عشبًا للبهائم... صنع القمر للمواقيت الشمس تعرف مغربها. تجعل ظلمة فيصير ليل. فيه يدب كل حيوان الوعر... الأشبال تزمجر لتخطف ولتلتمس من الله طعامها تشرق الشمس فتجمع وفي مآويها تربض... ما أعظم أعمالك يا رب كلها بحكمة صنعت ملآنة الأرض من غناك. هذا البحر الكبير الواسع الأطراف، هناك دبابات بلا عدد صغار حيوان مع كبار. هناك تجري السفن. لوياثان هذا خلقته ليلعب فيه. كلها إياك تترجى لترزقها قوتها في حينه. تعطيها فتلتقط تفتح يدك فتشبع خيرًا. تحجب وجهك فترتاع. تنزع أرواحها فتموت وإلى ترابها تعود. ترسل روحك فتخلق وتجدد وجه الأرض" (مز١٠٤: ١٠-١٢، ١٤، ١٩-٢٢، ٢٤-٣٠) أو قول المسيح: "انظروا إلى طيور السماء. إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن وأبوكم السماوي يقوتها" (مت٦: ٢٦) "أليس عصفوران يباعان بفلس وواحد منها لا يسقط على الأرض بدون أبيكم" (مت١٠: ٢٩).

أما العناية الخاصة فتشمل جميع الكائنات الحية العاقلة والتي يتعامل معها الله ويعتني ويتدخل بأساليب ووسائل متعددة، وعلى الوجه الأدق بالسيطرة والتوجه لما فيها من أفكار ومشاعر وإرادة حرة، فالوزنات والمواهب والملكات المعطاة لجميع الناس جزء من هذه العناية الخاصة التي تبسط ظلها على كل امرئ على سطح الأرض، كما أن الانفعالات والمشاعر وضروب وألوان التصرفات المتعددة للإنسان تخضع لها كما قيل: "ثم قال الرب لموسى أدخل إلى فرعون فإني أغلظت قلبه وقلوب عبيده لكي أصنع آياتي هذه بينهم" (خر١٠: ١) "إن الله أعطاه قلبًا أخر" (١صم١٠: ٩) "لأن الله أضعف قلبي والقدير روعني" (أي٢٣: ١٦) "قلب الملك في يد الرب كجدول مياه حيثما شاء يميله "(أم٤١: ١)... وهذه العناية هي التي تدفع التاريخ وتوجه الحوادث وتصرف أمور الناس، أو كما قالت حنة في صلاتها العظيمة: "لأن الرب إله عظيم وبه توزن الأعمال قسى الجبابرة انحطمت والضعفاء تمنطقوا بالبأس، الشباعى آجروا أنفسهم بالبز والجياع كفوا، حتى أن العاقر ولدت سبعة وكثيرة البنين ذبلت، الرب يميت ويحيي يهبط إلى الهاوية ويصعد. الرب يفقر ويغني. يضع ويرفع. يقيم المسكين من التراب. يرفع الفقير من المزبلة للجلوس مع الشرفاء ويملكهم كرسي المجد" (١صم٢: ٣-٨) أو كما قال دانيال: "ليكن اسم الله مباركًا من الأزل وإلى الأبد، لأن الحكمة والجبروت وهو يغير الأوقات والأزمنة. يعزل ملوكًا وينصب ملوكًا. يعطي الحكماء حكمة ويعلم العارفين فهمًا" (دا٢: ٢٠-٢١) أو كم أقر نبوخذ نصر في أقواله: "وعند انتهاء الأيام أنا نبوخذ نصر رفعت عيني إلى السماء فرجع إلى عقلي وباركت العلي وسبحت وحمدت الحي إلى الأبد الذي سلطانه سلطان أبدي وملكوته إلى دور فدور، وحسبت جميع سكان الأرض كلا شيء، وهو يفعل كما يشاء في جند السماء وسكان الأرض ولا يوجد من يمنع يده أو يقول له ماذا تفعل" (دا٤: ٣٤-٣٥).

أما العناية الأخص فهي تلك التي ترعى أبناء الله وتهتم بظروفهم وتشبعهم من الخير والجود والإحسان على الوجه المذهل العجيب الذي صاح إزاءه المرنم: "يا رب قد اختبرتني وعرفتني، أنت عرفت جلوسي وقيامي فهمت فكري من بعيد مسلكي

ومربضي ذريت وكل طرقي عرفت، لأنه ليس كلمة في لساني إلا وأنت يا رب عرفتها كلها، مكن خلف ومن قدام حاصرتني وجعلت على يدك. عجيبة هذه المعرفة فوقي، ارتفعت لا أستطيعها. أين أذهب من روحك ومن وجهك أين أهرب؟ إن صعدت إلى السموات فأنت هناك وإن فرشت في الهاوي فها أنت. إن أخذت جناحي الصبح وسكنت في أقاصي البحر فهناك أيضًا تهديني يدك وتمسكني يمينك" (مز١٣٩: ١-١٠) أو كما ذكر الله على لسان النبي إشعياء: "هل تنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنها؟ حتى هؤلاء ينسين وأنا لا أنساك، خوذا على كفي نقشتك، أسوارك أمامي دائمًا" (إش٤٩: ١٥-١٦) أو كما جاء في أقوال زكريا النبي: "لأنه من يمسكم يمس حدقة عينه" (زك٢: ٨).. والواضح بعد هذا كله أن لا مجال هناك لمن يدعي بـ "الصدفة" أو "العارض" أو "الحظ" أو ما أشبه من مرادفات، عند الله.. إذ هذه كلها إذا ذكرت أو فهمت عند الناس، فإنما تذكر أو تفهم أو يصطلح عليها لما فيهم من عجز أو نقص أو قصور أو جهل أو ضعف لا يمكنهم من متابعة العناية ودقتها ورقتها وشمولها ومجدها وجلالها وعظمتها الجديرة بالله... كيف لا وغير المعروف في العناية أكثر في الواقع بما لا يقاس من المعروف والمدرك!! فهذا المرنم في المزمور الحادي والتسعين أجمل عدة مظاهر عن العناية أغلبها خفي ومباغت وسري ومجهول، ففخ الصياد والوباء الخطر وخوف الدجى والسهم الطائر في النهار والألوف والربوات الساقطة عن اليمين واليسار، كلها تتحدث عن الفصول العظيمة المجيدة الخفية عن العناية التي يشمل بها الله أولاده، وهم لا يدرون.. كما أن سفر أستير، السفر العظيم الذي رصد للعناية في الكتاب، لم يذكر فيه اسم الله قط، ومع ذلك فكل سطر في هذا السفر يكشف ويفصح عن عمل الله وتدخله العجيب ورعايته الشاملة وعنايته الدقيقة، العناية التي ترمز على الدوام لاهتمام الله الأخص بأبنائه وأتباعه والمؤمنين ومريديه من كل جنس وأمة وشعب وقبيلة على اختلاف العصور وتوالي الحقب والأجيال والأزمان...

العناية وعظمتها

ولعله لا يوجد شك بعد كل ما ذكر عن عظمة هذه العناية وروعتها ومجدها. وإن كان لابد أن نفصل بعض الإجمال في هذه العظمة فإننا يمكن أن نقول أنها:

١) عظمة العناية الموجودة في كل مكان، إذا ليس مكان أو مجال في الوجود كله يبعد عن فعلها وأثرها، ولقد رأينا المرنم يتخيل نفسه والعناية تلاحقه سواء صعد إلى أعلى السموات أو هبط إلى أعماق الهاوية أو أخذ جناحي الصبح أو صار إلى أقاصي البحر... وحقًا صدق، ففي اختبارات الناس رؤى الله في عنايته العجيبة في أرهب الأماكن وأقساها وأقصاها وأبعدها عن الظن أو التصور أن هناك عناية.. ألم ترد هاجر وهي هاربة مشردة طريدة في الصحراء عندما صاحت: "أنت إيل رئى، لأنها قالت أههنا أيضًا رأيت بعد رؤية" (تك١٦: ١٣) وألم يبصره يعقوب في بيت إيل عندما هتف: "حقًا أن الرب في هذا المكان وأنا لا أعلم، وخاف وقال ما أرهب هذا المكان، ما هذا إلا بيت الله وهذا باب السماء" (تك٢٨: ١٦-١٧) وألم تمتد يده القوية إلى يونان وهو في جوف الحوت في أعماق البحار عندما صاح: "نزلت إلى أسافل الجبال مغاليق الأرض علي إلى الأبد، ثم أصعدت من الوهدة حياتي أيها الري إلهي" (يون٢: ٦) وألم يظهر في بابل في أتون وسط النار.. "ها أنا ناظر أربعة رجال محلولين يتمشون في وسط النار وما بهم ضرر ومنظر الرابع شبيه بابن الآلهة" (دا٣: ٢٤-٢٥). بل ألم يرسل ملاكه إلى دانيال في جب الأسود عندما قال لداريوس: "إلهي أرسل ملاكه وسد أفواه الأسود لأني وجدت بريئًا قدامه وقدامك أيضًا أيها الملك، لم أفعل ذنبًا" (دا٦: ٢٢-٢٣) وألم يهتف بولس في زنزانته الضيقة في رومية: "في احتجاجي الأول لم يحضر أحد

معي بل الجميع تركوني. لا يحسب عليهم. ولكن الرب وقف معي وقواني لكي تتم بي الكرازة فأنقذت من فم الأسد" (٢تي٤: ١٦-١٧)..

٢) عظمة العناية في كل زمان، إذ أن الله أزلي أبدي سرمدي وهو هو أمسًا واليوم وإلى الأبد، وعنايته تبسط ظلالها على الفرد، كفرد، من المهد إلى اللحد، فهو الإله الذي تستطيع النفس أن تقول إزاءه ما قاله يعقوب: "الله الذي رعاني منذ وجودي إلى هذا اليوم" (تك٤٨: ١٥) أو ما قاله المرنم: "لأنك أنت جذبتني من البطن جعلتني مطمئنًا على ثديي أمي. عليك ألقيت من الرحم. من بطن أمي أنت إلهي" (مز٢٢: ٩-١٠) "اللهم قد علمتني منذ صباي إلى الآن أخبر بعجائبك وأيضًا إلى الشيخوخة والشيب يا الله لا تتركني حتى أخبر بذراعك الجيل المقبل وبقوتك كل آت" (مز٧١: ١٧-١٨).. بل هو الإله الذي قال لشعبه على لسان إشعياء: "اسمعوا لي يا بيت يعقوب وكل بقية بيت إسرائيل المحملين على من البطن المحمولين من الرحم وإلى الشيخوخة أنا هو وإلى الشيبة أنا أحمل. قد فعلت وأنا أرفع وأنا أحمل وأنجي" (إش٤٦: ٣-٤).. وإلى جانب هذا فهو الإله الذي يتمشى في كل مواكب التاريخ والأجيال.. وليس جيل أو عصر أو زمن ببعيد عن عينيه ورعايته وعنايته، فهو إله آدم وإبراهيم وإسحق ويعقوب وموسى وداود والأنبياء وبطرس وبولس والتلاميذ جميعًا، وهو إله اوغسطينوس ولوثر وكلفن وإلهي وإلهك! وهو في القرن الأول الميلاي كالقرن العشرين سواء بسواء لا يتغير ويكل أو يضعف أو يتراجع أو ينهزم أو يقصر عن العناية أو المعونة أو المساعدة... بل إنه في ظاهرة الزمن والأوقات لا يمكن أن يفاجأ أو يباغت، إذ هو السباق على الدوام في الإعداد بالترتيب والتجهيز لكل تغير أو حادث آت... فقد أعد يوسف وأرسله إلى مصر وجهزه هناك قبل أن تحدث المجاعة القاسية المهددة لكافة الشعوب بعشرين من الأعوام.. وقد أعد موسى وجهزه للخروج المرتقب قبل أن يحدث هذا الخروج بثمانين من الأعوام... كما أعد أستير وجهزها للقصر الملكي قبل أن تتم مؤامرة هامان الأحاجي بتسع سنوات على الأقل... أجل وفي الواقع إن أدق ساعة على الأرض في تعيين أو ضبط الزمن لا يمكن أن تقارن أو تقاس بدقة ساعة عناية الله في الاستعداد لأحداث والحوادث ومواجهتها بالترتيب الإلهي العظيم!!..

٣) عظمة العناية في تسخير كافة القوى، إذ هي العناية التي تسخر قوى البشر بما فيهم الطاغية والرقيق والمستبد والوادع والقوي والضعيف والجميل والقبيح والماكر والساذج والكبير والصغير والغني والفقير والمؤمن والشرير والرجل والمرأة والملك والصعلوك. ألم تستغل هذه العناية فرعون وموسى وشمشون وياعيل ودبورة وأستير وهامان ومردخاي وأحشويرش وسنحاريب وحزقيا وإشعياء وغيرهم وغيرهم وغيرهم من مختلف الشخصيات والطبقات في العد القديم أو الجديد على حد سواء. بل هي العناية التي تسخر قوى الطبيعة جميعًا كالريح التي شقت البحر الأحمر يوم الخروج، والشمس والقمر اللذين وقفا بأمر يشوع، والزلازل والنيران والزوابع، كما قد تستغل أبسط المواد وأيسرها كعصا موسى صانعة المعجزات، والملح الذي غير به اليشع مرارة الينبوع، ودهنة الزيت المالئة الأوعية، وقرص التين الشافي من العلة، وطمي الطين المستخدم في شفاء الأعمى المرسل إلى بركة سلوام، وزنبيل بولس للنجاة في دمشق، وغيرها وغيرها من الوسائل والأساليب التي يستخدمها الله في إتمام عنايته. وفي الواقع إن عناية الله لا تعجز في أي وقت من الأوقات عن إتمام المقاصد الإلهية بشتى الوسائل والطرق المباشرة وغير المباشرة وسواء سخرت في ذلك القوى العاقلة أم القوى الخفية أم القوى الصماء على حد سواء.

العناية وبرهانها

وهناك دلائل وبراهين كثيرة على هذه العناية لعل أهمها:

١) التطابق الأكيد بين العناية وجود الله ومحبته وحكمته ورحمته، إذ لا يعقل أن يكون إله كامل أزلي أبدي قادر غير محدود له مثل ما ذكرناه من سجايا وصفات دون أن تكون هناك عناية واضحة ثابتة أكيدة آتية ولا شك، وفي الواقع إن الإيمان بالله يستنتج منه بالضرورة الإيمان بنايته الباهرة السرمدية على الجميع!!

٢) شهادة التاريخ، ولعل هذه الشهادة تصحح في الكثير من الأحايين ما يمكن أن يراه الناس من أوضاع نختلفة متعددة مقلوبة، إذا التاريخ يؤكد أن غلبة الشر إلى حين، وأنه ما من طغاة أو مستبدين أو الأشرار إلا وكما ارتفعوا سقطوا، وحق عليهم ما قاله آساف النبي: "وانتبهت إلى آخرتهم، حقًا في مزالق جعلتهم أسقطتهم إلى البوار. كيف صاروا للخراب بغتة؟ اضمحلوا، فنوا من الدواهي، كحلم عند التيقظ يا رب عند التيقظ تحتقر خيالهم" (مز٧٣: ١٧-٢٠).

٣) الاختبار البشري الذي حدث مع الآلاف والملايين من الناس الذين جاءت عليهم لحظات دقيقة قاسية نفذ فيها كل معين بشري، وإذا باليد الإلهية العجيبة تتدخل بقوة خارقة تفوق حد الخيال أو التصور!! كما حدث مع يوسف وموسى وجدعون وشمشون وداود وصموئيل وغيرهم من رجال الله، وكما حدث أو يحدث مع أعداد لا تحصى أو تعد من الناس في شتى العصور، وفي عصرنا الحاضر، ولقد قيل أن شابًا كان يستحم في أحد الأنهار الأفريقية وكان من عائلة مسيحية، وكانت أمه تصلي من أجله على الدوام من مطلع حياته حتى الشباب، ولكن الشاب مع ذلك كان موغلا في الشر، مندفعًا في الإثم، وسار في رحلة إلى أواسط أفريقيا وعن له ذات يوم، وهو في أحد القوارب النهرية أن ينزل من القارب ويسبح في النهر وإذ بعد عن القارب تلفت وراءه فأبصر تمساحًا يسعى إليه مقتربًا منه، فأسرع بكل ما يملك من قوة ليخرج إلى الشاطئ وعلى مقربة من الشاطئ أبصر نمرًا يتحفز للوثوب عليه، وعندئذ صرخ إلى الله قائلا: "ليس من حقي أن أطلب منك النجاة، ولا أعلم كيف أنجو!!؟ ولكني أعلم أنك على كل شيء قدير!! فأنقذني وخلصني!!" وما كان أن أتم صلاته حتى اندفع إليه النمر قافزًا بكل قوته ومن قوة القفز تجاوزه وسقط فوق التمساح، ونشب بين الاثنين صراع قتل فيه أحدهما الآخر، وخرج هو إلى الشاطئ ليركع ويسلم حياته لله من أجل العناية الخارقة العجيبة التي حفظت روحه. وليس اختبار هذا الشاب كما ذكرنا بالاختبار الفريد حتى يمكن أن ينسب إلى هذا أو ذاك من العوارض أو الصدف، ولكنه اختبار الكثيرين من الناس في كل جيل وعصر، الذين يمكن أن يقول الواحد منهم ما قاله بولس: (أع٢٦: ٢٢).

٤) النبوات والمواعيد والتهديدات الكثيرة العدد التي تمت في وقتها المعين من الله، مما يفيد بأن يده ممسكة بكل الحوادث الصغيرة والكبيرة والحاضرة والمستقبلة. والكتاب زاخر بمثل هذه النبوات التي ظفرت فيها عناية الله وأمانته وصدق مواعيده. ألم يتحدث الله عن كورش الملك الفارسي ومجيئه وسلطانه وانتصاراته قبل أن يولد كورش بمائتي عام على الأقل (إش٤٥: ١-٧)!!؟ وألم يتحدث رجل الله يربعام بن نباط، ويربعام واقف لدى المذبح لكي يوقد قائلا:" ١٢فقَالَ لَهُمْ أَبُوهُمْ: [مِنْ أَيِّ طَرِيقٍ ذَهَبَ؟] وَكَانَ بَنُوهُ قَدْ رَأَوْا الطَّرِيقَ الَّذِي سَارَ فِيهِ رَجُلُ اللَّهِ.(١مل١٣: ٢). وألم يحكم على زكريا بالصمت حتى يولد ابنه يوحنا المعمدان لأنه لم يستطيع تصديق كلام الرب وهو شيخ فان عقيم!!..
كل هذه وغيرها تؤكد صدق العناية وقوتها ومجدها وثباتها بين الناس.

٥) شهادة الوجدان، وهي تؤكد أن الإنسان الضعيف العاجز مفتقر إلى العون الدائم التام الكامل من الله، وأن صلواتنا وإيماننا ورجاؤنا وانتظاراتنا وتوقعنا تدخل القوى الخفية غير المنظورة في الحياة، كل هذه تضحي عبثًا ما لم نؤمن بوجود العناية الحية العاملة المتداخلة في حياة الناس. أو في لغة أخرى أن كل صلاة أو إيمان أو رجاء يشهد بصحة هذه العناية وانتظار عملها!!

العناية والتفسير الخاطئ لبعض مظاهرها

على أنه من اللازم أن نشير، ما دمنا بصدد العناية، إلى أن كثيرًا من عدم الفهم والأخطاء تقع عند النظر إلى مظاهرها المتعددة، فهناك مثلا حادثتان حدثتا مع داود عند مطاردة شاول له، وقد فسر رجال داود الحادثتين تفسيرًا يختلف عن تفسير داود لهما، إذ اعتقد هؤلاء الرجال أن وقوع شاول في قبضة يد وداود أن هو إلا ترتيب من العناية الطيبة في القضاء على الخصم العنيد!! ألم يقولوا:" ٤فقَالَ رِجَالُ دَاوُدَ لَهُ: «هُوَذَا الْيَوْمُ الَّذِي قَالَ لَكَ عَنْهُ الرَّبُّ:هَئَنَذَا أَدْفَعُ عَدُوَّكَ لِيَدِكَ فَتَفْعَلُ بِهِ مَا يَحْسُنُ فِي عَيْنَيْكَ». فَقَامَ دَاوُدُ وَقَطَعَ طَرَفَ جُبَّةِ شَاوُلَ سِرّاً." (١صم٢٤: ٤) "فقال أبيشاي........... أضربه بالرمح إلى الأرض...........أثني عليه" (١صم٢٦: ٨) ولكن داود لم ير هذا الرأي إذ قال لرجاله: "٦فَقَالَ لِرِجَالِهِ: «حَاشَا لِي مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ أَنْ أَعْمَلَ هَذَا الأَمْرَ بِسَيِّدِي بِمَسِيحِ الرَّبِّ, فَأَمُدَّ يَدِي إِلَيْهِ لأَنَّهُ مَسِيحُ الرَّبِّ هُوَ».(١صم٢٤: ٦). "٩فَقَالَ دَاوُدُ لأَبِيشَايَ: «لاَ تُهْلِكْهُ, فَمَنِ الَّذِي يَمُدُّ يَدَهُ إِلَى مَسِيحِ الرَّبِّ وَيَتَبَرَّأُ؟» ١٠وَقَالَ دَاوُدُ: «حَيٌّ هُوَ الرَّبُّ, إِنَّ الرَّبَّ سَوْفَ يَضْرِبُهُ أَوْ يَأْتِي يَوْمُهُ فَيَمُوتُ أَوْ يَنْزِلُ إِلَى الْحَرْبِ وَيَهْلِكُ. ١١حَاشَا لِي مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ أَنْ أَمُدَّ يَدِي إِلَى مَسِيحِ الرَّبِّ! وَالآنَ فَخُذِ الرُّمْحَ الَّذِي عِنْدَ رَأْسِهِ وَكُوزَ الْمَاءِ وَهَلُمَّ».(١صم٢٦: ٩-١١). أجل وما أكثر ما يفهم الناس في كل جيل وعصر عناية الله فهمًا خاطئًا فمثلا:

١- ليست الظروف المواتية دليلا لا يقبل النقض على عناية الله، إذ أن وقوع شاول في يد داود لم يكن دليلا على أن عناية الله قد أعطته الفرصة المواتية للقضاء على خصمه. كما أن وجود السفينة الذاهبة إلى ترشيش، وقدرة يونان على دفع الأجرة.. لم يكن هذا بالطبع دليلا على العناية التي تساعد النبي المتمرد على الهروب من وجه الله. أجل فليست الفرصة الميسرة المواتية دليلا أكيدًا على عناية الله، وهذا شكسبير الذي كان يمجد الفرصة على الدوام حذر في أحد أشعاره من الفرصة التي تقود إلى الخطية، إذ حذر الخائن من استغلال الفرصة ليخون، وحذر الذئب الخاطئ من السقوط في التجربة أو الخطية المحيطة به بسهولة إذا ما كانت هناك خطية أو شبه خطية في الظروف المواتية، فإن هذه الظروف لا يمكن أن تكون بحال ما دليلا على العناية الإلهية!!

٢- ليست آراء الأغلبية على الدوام دليلا أكيدًا على عناية الله. فكثيرًا ما تكون الأغلبية على ضلال والأقلية على حق. ألم يتفق رجال داود على رأي وكان داود بفرده على رأي آخر!! ألم يقف أثناسيوس فترة من الزمن فريدًا أو شبه فريدة ضد هرطقة آريوس وجماعته، وشهد التاريخ أن الرجل الوحيد كان على حق وأن الأكثرية المناوئة كانت على ضلال بل أشنع ضلال!!؟ ألم يقف لوثر في جانب وأوربا كلها في جانب آخر، ومع ذلك فقد أدار هذا عجلة التاريخ نحو الإصلاح، إذ كان هو على حق وخصومه المتعدين على باطل.

٣- ليس النجاح السريع دليل العناية الدائمة!!.. فلقد كان أمام داود أن يقضي على خصمه بضربة واحدة، أليس شاول هو الرجل الذي فارقه روح الله وانتابه روح شرير؟ بل أليس هو الرجل الذي يقود بلاده بعيدًا عن الله، ومن ثم يقودها يومًا إلى الهلاك والدمار!! بل أليس هو الرجل الذي يطارد داود ظلمًا وعدوانًا؟ وها ضربة واحدة تقضي على هذه

كلها، وتخطو بداود في خطوة واحدة إلى العرش!!.. ولكن داود لم ير في هذا الطريق القصير أو النجاح السريع دليلا من أدلة عناية الله على الإطلاق!!

ليس التعليق بالشكليات والطقوس والفرائض دليلا صادقًا أو حقيقيًا عن عناية الله. فلقد كان اليهود يربطون بين العناية وبناء الهيكل في بلادهم حتى جاء قول الرب على لسان إرميا:" ٣هكَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ إِلهُ إِسْرَائِيلَ: أَصْلِحُوا طُرُقَكُمْ وَأَعْمَالَكُمْ فَأُسْكِنَكُمْ فِي هذَا الْمَوْضِعِ. ٤لاَ تَتَّكِلُوا عَلَى كَلاَمِ الْكَذِبِ قَائِلِينَ: هَيْكَلُ الرَّبِّ هَيْكَلُ الرَّبِّ هَيْكَلُ الرَّبِّ هُوَ!" (إر٧: ٣-٤). وقد دمر الله الهيكل وأورشليم معًا عندما لم يتحول اليهود عن شرورهم وآثامهم ومفاسدهم وخطاياهم!! ومثل هذا الأمر حدث عندما دق محمد الفاتح أبواب القسطنطينية في الوقت الذي تجمع فيه أهلها الأشرار في الكاتدرائية الكبرى آملين أن ترسل السماء ملاكًا لإنقاذهم ورد الجيوش الغازية عنهم، وإذ كان فهمهم ولا شك فهمًا قاصرًا خاطئًا عن عناية الله!! وناهيك بأولئك الذين يظنون أن العناية مرتبطة بحجاب يعلق أو علامة صليب ترسم أو كتاب مقدس يوضع في الجيب أو تحت وسادة!! والعناية عن هذه الشكليات المجردة من العمق أو الجوهر بريئة وبعيدة بعد السماء عن الأرض. إن عناية الله الصادرة عن شخص الله لابد أن تكون عناية مقدسة حكيمة رحيمة كذات قداسة الله وحكته ورحمته ومجده وجوده وسلطانه وعظمته!!

العناية وصعوبة تصور بعض الناس لها

وقد تبدو العناية مرات كثيرة صعبة التصور عند بعض الناس لأسباب متعددة لعل أهمها:

١- صعوبة تصورها إزاء الأوضاع المقلوبة في الأرض، إذ مرات كثيرة ما يزهو الشرير ويتسع ويرتفع في الوقت الذي يضيق فيه البار ويتعذب ويتألم.. ألم يحدث هذا مع يوسف الصديق الشاب التقي النقي البار، وكيف أخذ إلى العبودية والغربة والسجن والآلام في الوقت الذي كان فيه أخوته المعتدون الظالمون الأشرار يمرحون ويهنأون ويتندرون بأحلامه الضائعة وأمانيه المفقودة، وكانت زوجة فوطيفار تتجنى وتسخر وتعربد!!.. بل ألم يتساءل أيوب في نكبته ومأساته بالقول:" ٧لِمَاذَا تَحْيَا الأَشْرَارُ وَيَشِيخُونَ نَعَمْ وَيَتَجَبَّرُونَ قُوَّةً؟ ٨نَسْلُهُمْ قَائِمٌ أَمَامَهُمْ مَعَهُمْ وَذُرِّيَّتُهُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ. ٩بُيُوتُهُمْ آمِنَةٌ مِنَ الْخَوْفِ وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ عَصَا اللهِ. ١٠ثَوْرُهُمْ يُلْقِحُ وَلاَ يُخْطِئُ. بَقَرَتُهُمْ تُنْتِجُ وَلاَ تُسْقِطُ. ١١يُسْرِحُونَ مِثْلَ الْغَنَمِ رُضَّعَهُمْ وَأَطْفَالُهُمْ تَرْقُصُ. ١٢يَحْمِلُونَ الدُّفَّ وَالْعُودَ وَيُطْرِبُونَ بِصَوْتِ الْمِزْمَارِ. ١٣يَقْضُونَ أَيَّامَهُمْ بِالْخَيْرِ. فِي لَحْظَةٍ يَهْبِطُونَ إِلَى الْهَاوِيَةِ. ١٤فَيَقُولُونَ لِلّهِ: ابْعُدْ عَنَّا. وَبِمَعْرِفَةِ طُرُقِكَ لاَ نُسَرُّ. ١٥مَنْ هُوَ الْقَدِيرُ حَتَّى نَعْبُدَهُ وَمَاذَا نَنْتَفِعُ إِنِ الْتَمَسْنَاهُ!. "(أي٢١: ٧-١٥). بل ألم يهتف آساف في حيرته الشديدة:" ٢أَمَّا أَنَا فَكَادَتْ تَزِلُّ قَدَمَايَ. لَوْلاَ قَلِيلٌ لَزَلِقَتْ خَطَوَاتِي ٣لأَنِّي غِرْتُ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ إِذْ رَأَيْتُ سَلاَمَةَ الأَشْرَارِ. ٤لأَنَّهُ لَيْسَتْ فِي مَوْتِهِمْ شَدَائِدُ وَجِسْمُهُمْ سَمِينٌ. ٥لَيْسُوا فِي تَعَبِ النَّاسِ وَمَعَ الْبَشَرِ لاَ يُصَابُونَ."(مز٧٣: ٢-٥).. ولكننا نعلم أن هذه الصعوبة تحل متى أمكن أن ننظر إلى النهاية القريبة أو البعيدة فندرك أن الوضع المقلوب لا يمكن أن يدوم إلى الأبد، وأن الله لابد أن يتدخل إن آجلا أو عاجلا لترفع كما فعلت مع يوسف، أو تعوض كما فعلت مع أيوب، أو تغير كما كشفت لآساف!!..

٢- صعوبة تصورها إزاء التوزيع الذي لا يخضع لميزان!! إذ مرات كثيرة ما يأخذ المكثر أو المغني ما يفيض عن حاجته في الوقت الذي لا يجد فيه المحتاج أو الفقير ما يكفي أو في طلباته.. ألم تعط فننة أولادًا كثيرين في الوقت الذي كانت تشتاق فيه حنة المؤمنة إلى ولد واحد؟!! وألم يفض الطعام عن الغني المترفه في الوقت الذي لم يكن يجد فيه لعازر المسكين ما يكفيه

من الفتات المتساقط من مائدة هذا الغني!!؟ غير أن هذا التوزيع سيتوزن كما نعلم، أما في الحياة الحاضرة أو العتيدة أو كليهما معًا، فقد أعطيت حنة صموئيل وأولادًا آخرين، عوضًا عن العارية التي أعارته الله، وتغير التوزيع في الأبدية فأصبح الغني محتاجًا والمحتاج غنيًا!!.. والصعوبة في الأ/ر على الداوم ليست قاصرة على التوزيع في حد ذاته، بل قاصرة على العين التي تبصر أو ترى مراحل أو طرق التوزيع في الحياة الحاضرة والأبدية..

٣- صعوبة تصورها إزاء المجهود أو التعب أو الذكاء!! إذ مرات كثيرة ما يتعب المكدود ويجاهد حتى الإعياء أو الكلل دون أن يحصل على نتيجة ما ويأتي آخر ليحصد ما لم يزرع ويحق فيه قول السيد:" ٣٧لأَنَّهُ فِي هَذَا يَصْدُقُ الْقَوْلُ: إِنَّ وَاحِداً يَزْرَعُ وَآخَرَ يَحْصُدُ. ٣٨أَنَا أَرْسَلْتُكُمْ لِتَحْصُدُوا مَا لَمْ تَتْعَبُوا فِيهِ. آخَرُونَ تَعِبُوا وَأَنْتُمْ قَدْ دَخَلْتُمْ عَلَى تَعَبِهِمْ"(يو٤: ٣٧-٣٨).. كما أن الكثيرين قد أخذوا من المراكز أو المناصب ما لم يكونوا يتصورون على الإطلاق أنهم سيأخذونها في يوم من الأيام، فهذا واشنطون الرئيس الأول للولايات المتحدة كان أقصى أحلامه أن يكون بحارًا، وتحول في آخر لحظة عن المشروع تحت ضغط أول للولايات المتحدة كان أقصى أحلامه أن يكون بحارًا، وتحول في آخر لحظة

أمه وإلحاحها ليتغير تاريخه بأكمله التغير الحاسم العجيب!!.. كما أن امرأة كانت تسخر ذات يوم من أبراهام لنكولن لشكله القبيح وقالت له في سخرية لاذعة: "ترى ماذا ستكون في المستقبل؟" فأجابها هو أيضًا ساخرًا بالقول: "سأكون رئيس للولايات المتحدة!!" ولم يكن يعني في ذلك الوقت بالطبع ما يقول، لأن هذا كان أبعد من مجرد أحلامه!! غير أن السخرية قد تحولت مع الأيام حقيقة رائعة عجيبة!!. ولعل حل هذه الصعوبة يرجع في الأساس الأول إلى أنه من واجبنا أن نذكر بأن نصيب كل إنسان يقرره الله أكثر مما يقرره الذكاء أو الاجتهاد أو التعب أو الإعياء!! كما أنه من المحتم أن ندرك بأن الفرد ليس منقطعًا أو منعزلا عن المجتمع الذي يعيش فيه، وأن علاقته بالمجتمع ووضعه فيه يتدخلان ويتشابكان مع ما له من وزنات أو ملكات، ومن ثم فإن العناية ليست هي العناية بالفرد مجردًا من المجتمع أو المجتمع غير متأثر بالفرد، بل هي العناية الحكيمة الضابطة للفرد والمجتمع في الحاضر والمستقبل والأبدية معًا!!.

٤- صعوبة تصورها إزاء الآلام الكثيرة المترعة في الحياة البشرية!! وما أكثر ما يصعب على الناس الإيمان بعناية الله إزاء هذه الآلام الفياضة المنهمرة من الجراح البشرية دون تقطع أو توقف أو هدوء!! ومع أن مشكلة الألم من أعقد ألغاز الحياة، بل أن الألم في حد ذاته هو الضريبة التي ينبغي أن يدفعها كل إنسان، إذ أن الألم للإنسان كالجناح للطائر أو كما يقول الكتاب:" وَلَكِنَّ الإِنْسَانَ مَوْلُودٌ لِلْمَشَقَّةِ كَمَا أَنَّ الْجَوَارِحَ لارْتِفَاعِ الْجَنَاحِ." (أي٥: ٧) إلا أن عناية الله هي التي تتحكم في الآلام وتصقلها وتضبطها وتوجهها وتصنع منها أفضل ما يمكن ترجمتها في الأقوال:" أَنْتُمْ قَصَدْتُمْ لِي شَرّاً أَمَّا اللهُ فَقَصَدَ بِهِ خَيْراً لِكَيْ يَفْعَلَ كَمَا الْيَوْمَ لِيُحْيِيَ شَعْباً كَثِيراً." (تك٥٠: ٢٠). "فَقَالَ لَهُمْ: «مِنَ الآكِلِ خَرَجَ أُكْلٌ وَمِنَ الْجَافِي خَرَجَتْ حَلاَوَةٌ». فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَحُلُّوا اللُّغْزَ فِي ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ."(قض١٤: ١٤). "١٠لأَنَّ غَضَبَ الإِنْسَانِ يَحْمَدُكَ. بَقِيَّةُ الْغَضَبِ تَتَمَنْطَقُ بِهَا." (مز٧٦: ١٠). "وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ الأَشْيَاءِ تَعْمَلُ مَعاً لِلْخَيْرِ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَ اللهَ الَّذِينَ هُمْ مَدْعُوُّونَ حَسَبَ قَصْدِهِ."(رو٨: ٢٨).. وفي الواقع أن الله كثيرًا ما يستخدم الآلام للتأديب أو التنقية أو التكريس أو التدريب أو التمجيد، فتكون هذه الآلام ذاتها دليل العناية لا دليل الضد لها!! ولنفرض أن الآلام التي عرفها يوسف وموسى وشمشون ويفتاح وداود ومنسى وبولس وغيرهم من الأبطال والقادة لم تحدث، فأية خسارة كان يمكن أن تصيبهم، بل كانت تصيب العالم كله إلى جانب خسارتهم!!. إن معظم مآثر التاريخ ودوافعه وحوافزه ونتائجه جاءت قبل وبعد كل شيء عن طريق الآلام...

٥- صعوبة تصورها إزاء بعض الصلوات والانتظارات!! ولقد يحدث أن يفقد الناس يقينهم بالعناية لأنهم صلوا أو طلبوا من جهة شيء معين، ولكن الله لم يجبهم كما كانوا يتصورون الإجابة، كذلك الفتاة التي كانت تصلي بإيمان وحرارة من أجل أمها المريضة، ولكن الأم ماتت، وإذ حاولت إحدى صديقاتها تشجيعها وتعزيتها علمت منها أنها فقدت الإيمان بعنايته تعالى، وعندئذ قالت لها الأخرى: "العناية وتصورها، إذ هبى أن الله أجاب كل صلاة يصليها الناس من أجل حياة الآخرين أو أنفسهم، فماذا تكون النتيجة؟ تكون أن الموت ينعدم من الأرض! وتطول حياة الناس الفائضة بالضيق والتعب والمآسي والأحزان ويضج الناس بالحياة، ويضيقون بها أكثر من ضيقهم من الموت نفسه، لا يا صديقتي لا: إن الله يجيب الصلاة في ضوء حكمته وجوده ومسرته ومشيئته مجتمعة معًا، ومن واجبنا أن نؤمن ونصلي ونسلم لله، وبذلك نفهم مدلول العناية الآتية من إله طيب صالح!".. أجل ولو درس الناس جميعًا هذه الصعوبات وغيرها في الضوء الكتابي الجليل لهتفوا لكل عناية وغنوا لها، بدلا من أن يتحيروا إزائها أو يتذمروا منها أو يتمردوا عليها!!

العناية والتمتع بها

على أنه يتبقى ثمة سؤال أخير وهو لماذا يتمتع الناس بالعناية؟ وكيف يتمتعون بها؟

وللجواب على السؤال لابد أن نشير إلى أن الله لم يمنح هذه العناية ليتمتع بها الإنسان عبثًا أو لهوا أو من غير هدف أو غاية، ولكنه يضع على الدوام مقابلة تامة بين الامتياز والمسئولية، والفرق بين الشرير والمؤمن إزاء العناية، هو أن الأول استعمل الامتياز وانحرف به وتباعد عن المسئولية أو قصر دونها، والآخر استخدمه لمجد الله ولخير الآخرين... إن الله لم يعط المال أ, الصحة أو المعرفة أو الموهبة أو ما أشبه لإنسان ما لكي يستخدمها في شهواته الأنانية وغاياته الذاتية، ولكن ليقدمها على مذبح الخدمة الخالدة لمجد الله!!.. ومن هنا نعلم أن العناية التي أعطت الخمس وزنات أو الوزنتين أو الوزنة لم تعطها لمن أخذوها إلا للاتجار والبذل والتضحية والخدمة! وطوبى لمن يفهم أو يدرك أو يستمتع بالعناية بهذا المعنى، وويل لمن يتصورها في ضوء أو معنى آخر!! أما كيف نتمتع بهذه العناية على الوجه الأصح أو الأكمل فيكون:

أولا: بالسير الأمين مع الله، وها نحن لا نتمتع بالعناية العامة أو الخاصة بل الأكثر من ذلك بالعناية الأخص، وقد نمتحن ونحن في طريق هذه العناية الأخيرة كما امتحن إبراهيم عندما طلب إليه أن يقدم ابنه إسحق على المذبح، وإذ أطاع الامتحان ونجح، وجد رضا الرب وعنايته في الكبش المقدم عوضًا عن ابنه!!.. من أجل ما حدث واقعيًا قصة شاب نزح مع أمه إلى مدينة شيكاغو، وكان الاثنان في أشد حالات الضنك والضيق المالي، ولكن الأم كانت تعلم ابنها أن يتمسك بالله في وسط كل الظروف، وأتيح للشاب أن يجد عملا بعد بحث في أحد المتاجر الكبرى ككاتب صغير وبأجر ضئيل، وقبل تحت ضغط الظروف وقسوتها، وبعد قليل رفع راتبه وعهد إليه بالعمل كبائع في فرع الأحذية بالمتجر، غير أن مدير المتجر فصله من العمل لأنه رفض أن يتكلم كذبًا أمام إحدى السيدات عن نوع من الأحذية!! ثم أعيد إلى العمل الأول بالأجر الضئيل إذ توسل له بعض الخيرين!! وضاقت نفس الفتى وتساءل مرات كثيرة هل يا رب هذا جزاء الأمانة والصدق؟ وبينما هو يسير في أحد الشوارع لفت نظره كتاب شلدون المشهور الذي يقوم على سؤال واحد: ماذا يفعل يسوع لو كان في محلي!!؟ وآمن بأن المسيح كان سيفعل تمامًا مثلما فعل هو، فسار هادئًا مطمئنًا آمنًا في الطريق... وبعد عامين جاءه المدبر الأعلى للمتجر واستدعاه ووجه إليه عدة أسئلة منها: متى جاء إلى شيكاغو؟ وإذ أجاب منذ تسع سنوات سأله: ومنذ كم من الزمن التحقت بالمتجر؟ فأجاب: منذ ثلاث سنوات.. فسئل وهل فصلت قبل ذلك من العمل؟ أجاب: مرتين، الأولى لأني رفضت أن أشتغل

يوم الأحد، والثانية لأني رفضت أن أكذب!!.. ولدهشته قال له المدير: إن الذي فصلك سجين الآن لأنه ضبط يسرق.. وقد تقرر أن تحل محله رغم أنك أصغر جميع موظفي المتجر سنًا!! ورد الله سبي الشاب الذي آثر أن يسير مع الله رغم قسوة التجارب العاصفة التي أحاطت به.. إن أعظم من اعتني بهم الله كانوا من أولئك الذين ساروا معه بأمانة في الطريق. ومن المحقق أن يوسف ويفتاح ودانيال والثلاثة فتية وغيرهم وغيرهم ما كانت لتختص بهم عناية الله العجيبة بالصورة العظيمة المدونة في كتاب الله لو لم يكونوا أمناء مع الله وملتصقين به وممسكين بجوده ومحبته ونعمته وشركته وعنايته!!..

ثانيًا: الانتظار والصلاة. ومع أن عناية الله تأتي فضلا ومن غير مقابل أي ثمن، إذ هي كما سلف القول في العناية العامة، الشمس والمطر وما أشبه، وفي العناية الخاصة والأخص تأتي من جود الله الكريم.. إلا أن الانتظار والصلاة والإيمان ضرورية في الكثير من ألوانها المتعددة، فالله لم يظهر عنايته لشعبه القديم إلا عندما صرخوا وصعد صراخهم إلى الله من أجل العبودية.. ولم ينقذ الله أورشليم من قبضة سنحاريب إلا بعد صلاة حزقيا.. ولم ينج بطرس من السجن بالكيفية المعجزية إلا بعد أن صارت من الكنيسة صلاة بلجاجة إلى الله من أجله.. إن عناية الله وإن كانت جاهزة على الدوام إلا أن الله يسر كثيرًا أن يسمعنا ونحن نسأل ونطلب ونقرع من أجلها..

ثالثًا: الشكر وعدم التذمر. إذ من واجب الإنسان أن يشكر على العناية مهما يكن لونها، فأيا كان موقفنا منها في النور أو في الظلال، في الراحة أو في التعب، في القوة أو في الضعف، فمن الواجب أن نتقبل كل شيء بالشكر والحمد والتعبد والإجلال لله!! بل من الواجب أن نمجد الله حتى في أسوأ الظروف التي يمكن أن نكون عليها..

أصيب شاب بالشلل وقضى في الفراش خمس سنوات، ولكنه لم يشك أو يتذمر بل كان يعمل وهو في فراشه في إصلاح الساعات والراديو، وكان يبعث بعشوره إلى الكنيسة ولم يستطع المرض أن يقضي على يقينه برحمة الله ونعمته!!.. وقضى آخر خمسة عشر عامًا في الفراش، وكان قبل ذلك أستاذًا ومعلمًا في إحدى الجامعات وكان يدرس مادة الصحافة، وإذ سقط في الفراش، آلى على نفسه أن يكون صديقًا ومعينًا للعاثرين والمنكوبين والفاشلين، وكان الداخل إلى غرفته يرى ابتسامة السماء المنطلقة من شفتيه.. ما أكثر ما نحتاج إلى روح الشكر حتى يمكن أن نتمتع بل نستمتع بعناية الله العظيمة الشاملة لجميع ظروفنا وحياتنا على هذه الأرض.

وهل نقصر بعد هذا كله أن نقول:" ١٢مَنَحْتَنِي حَيَاةً وَرَحْمَةً وَحَفِظَتْ عِنَايَتُكَ رُوحِي."(أي١٠: ١٢). "١٩مَا أَعْظَمَ جُودَكَ الَّذِي ذَخَرْتَهُ لِخَائِفِيكَ وَفَعَلْتَهُ لِلْمُتَّكِلِينَ عَلَيْكَ تُجَاهَ بَنِي الْبَشَرِ. ٢٠تَسْتُرُهُمْ بِسِتْرِ وَجْهِكَ مِنْ مَكَايِدِ النَّاسِ. تُخْفِيهِمْ فِي مَظَلَّةٍ مِنْ مُخَاصَمَةِ الأَلْسُنِ. ٢١مُبَارَكٌ الرَّبُّ لأَنَّهُ قَدْ جَعَلَ عَجَباً رَحْمَتَهُ لِي فِي مَدِينَةٍ مُحَصَّنَةٍ. ٢٢وَأَنَا قُلْتُ فِي حَيْرَتِي: [إِنِّي قَدِ انْقَطَعْتُ مِنْ قُدَّامِ عَيْنَيْكَ]. وَلَكِنَّكَ سَمِعْتَ صَوْتَ تَضَرُّعِي إِذْ صَرَخْتُ إِلَيْكَ. ٢٣أَحِبُّوا الرَّبَّ يَا جَمِيعَ أَتْقِيَائِهِ. الرَّبُّ حَافِظُ الأَمَانَةِ وَمُجَازٍ بِكَثْرَةٍ الْعَامِلَ بِالْكِبْرِيَاءِ. ٢٤لِتَتَشَدَّدْ وَلْتَتَشَجَّعْ قُلُوبُكُمْ يَا جَمِيعَ الْمُنْتَظِرِينَ الرَّبَّ."(مز٣١: ١٩-٢٤)!!

الفصل الثاني عشر: إيماني بمعجزات الله

هل تؤمن بالمعجزات؟ هذا هو السؤال الذي اختلفت إجابة الناس عليه اختلافا متباينا كبيرا!! فمن الناس من لا يؤمن بالمعجزات على الإطلاق، أما لأنه لا يؤمن بالمعجزات على الإطلاق، أما انه ليؤمن بوجود اله على الإطلاق يمكن أن يصنع هذه المعجزات، أو لأنه يتصور بان الله لا يمكن أن يغير نظم النواميس أو سننها في الكون، وانه تعالى مقيد بهذه النواميس أو يحترموها على الأقل لأنه مبدعها، فهو لا يمكن أن يغير من أمرها شيئا، إذ تسير على الدوام سيرها المحتوم الرتيب غير المتغير.. وهناك من يؤمن بالمعجزات كوقائع تاريخية حدثت في الماضي ودونت في الكتاب المقدس، وقامت بصحة تدخل الله وسيطرته على الكون، وتأييد الحق الإلهي المعلن، وإنها انتهت بثبات هذا الحق ووضوحه ورسوخ المسيحية في الأرض، وهي بهذه لا يمكن أن تتكرر مادامت قد أدت غرضها وغايتها، وان القول بتكرارها قول يعوزه البيان أو البرهان... بينما يوجد من يقول أن المعجزات حق وإنها ما تزال قائمة حتى الآن وان رسالتها في الشهادة لله لم تختم أو تنتهي بعد، وانه ليس في الكتاب ما يقطع بأنها كانت هناك لفترة معينة أو زمن محدود!!.. فما هو القول الفصل يا ترى إزاء هذه الآراء وماذا يقول كتاب الله والاختبار البشري؟

هذا هو ما أردنا أن نضعه أمام عيوننا ألان آملين أن نصل إلى الحق الصراح. ولعلنا نستطيع أن تتبين الرأي الثواب والأصح فيما يلي

المعجزات ومعناها

ولعل هذا أول ما يتجه إليه الفكر إذ ما معنى "المعجزة" وما مدلول هذا التعبير ومرادفاته الموجودة في الكتاب المقدس؟ هناك ثلاث عبارات رئيسية ترادف معنى المعجزة وهي العجائب والقوات والآيات كما جاء في قول الرسول بطرس وهو يتحدث عن برهان رسالة المسيح : "قَدْ تَبَرْهَنَ لَكُمْ مِنْ قِبَلِ اللهِ بِقُوَّاتٍ وَعَجَائِبَ وَآيَاتٍ صَنَعَهَا اللهُ بِيَدِهِ فِي وَسَطِكُمْ كَمَا أَنْتُمْ أَيْضاً تَعْلَمُونَ." (أع٢: ٢٢) أو كما تحدث الرسول بولس عن صحة رسالته بالقول: "١٢إِنَّ عَلاَمَاتِ الرَّسُولِ صُنِعَتْ بَيْنَكُمْ فِي كُلِّ صَبْرٍ، بِآيَاتٍ وَعَجَائِبَ وَقُوَّاتٍ." (٢قو١٢: ١٢).ومن هنا ندرك أن المعجزة هي تلك الأعجوبة التي تثير الدهشة، ولكن هذه الدهشة ليست المقصودة بذاتها، إذ أن الأعجوبة هي "الآية" أو العلامة التي تشهد وتتحدث عن حضور الله ووجوده وتخله في صنع المعجزة، وهذه الآية لا يمكن أن تتم إلا "بالقوة" الخارقة اللالهية، القوة التي لا يمكن أن تكون من صنع البشر أو من حيلة الإنسان.. فإذا ما قارنت هذه كلها معا أدركنا أن المعجزة هي ذلك الحادث الإلهي الذي يصنعه الله مباشرة، أو يصنع عن طريق واحد من رسله وأتباعه وقديسيه على كيفية تعلو وترتفع على كل نظام أو ترتيب أو مقدرة بشرية، وان هذا

الحادث لا يمكن أن يكون المقصود منه اللهو أو الإمتاع أو إثارة الفضول أو المشاعر الرخيصة، إذ أن الله في ذلك ضن ضنين بمعجزاته قاصد فيها محترم لها.. بل المعجزة هي الحدث الذي يقصد منه الختم على صحة الدعوة ونسبتها إلى الله وتأييد النبي أو الرسول المرسل بها، أو الكشف عن معدنها وأسلوبها، أو في لغة أخرى أن المعجزة كما يقولون برهان وبيان، فهي برهان على صحة الدعوة وفي الوقت عينه بيان أو كشف عن طبيعتها وأسلوبها.. هذه هي المعجزة في معناها الدقيق الضيق المحدد المنضبط، أما المعجزة في معناها الواسع فهي كل تدخل خارق للعادة ونادر وغير مألوف والذي قد تستخدم فيه وسائل طبيعية، ولكن هذه الوسائل ما كانت لتستخدم لولا التدخل الفعلي الحقيقي لله، فإذا كانت المعجزة في المعنى الأول المقصود الأهم والرئيسي فيها، تثبيت وتقوية الشهادة للدين.. فان المعجزة في المعنى الأخر قد تنصرف إلى هذه كلها، كما قد تنصرف إلى معنى المعونة والإغاثة والمساعدة والإنقاذ التي تعز فيها الوسائل العادية الطبيعية، أو تكون موجودة وميسورة ولكنها غير مكتشفة حتى يكشف الله عنها ويوضحها ويستخدمها على الوجه ألمعجزي العجيب!!فإذا كانت معجزات الضربات العشر، ووقوف الشمس والقمر بكلمة يشوع، وإقامة ابن أرملة صرفة من الموت، وابن الشونامية وضرب ١٨٥,٠٠٠ من جيش أشور في ليلة، وعدم الاحتراق في وسط الأتون، وإقامة ابنة ياريرس وابنة أرملة نايين ولعازر من الموت، والمشي على الماء، وإطعام خمسة آلاف بخمسة أرغفة شعير وسمكتين، وشفاء الإمراض المستعصية بكلمة أو لمسة، وإخراج بطرس من السجن، وإقامة افتيخوس من الموت.. إذا كان هذه وغيرها هي المعجزات في المعنى الأول المنضبط الدقيق، فان فتح عين هاجر في الصحراء لتبصر بئر الماء، وتحول قلب عيسو من الانتقام إلى القلب الحار، وقلق احشويرش من اجل نجاة شعب الله، ونجاة بولس في زنبيل عندما كان مهددا بالموت في مدينة دمشق. هذه وأمثالها هي المعجزات في معناها الواسع المنبسط، والذي كان من المستحيل أن تتم دون التدخل الفعلي لله!! وقد عرف أصحابها بان شيئا خارقا للعادة قد حدث، ولولا هذا لما تمت لهم نجاة، أو حدث لهم إنقاذ، حتى أن بولس الذي برهن على أن دعوته بالمعجزات في المعنى الأول كما سلفت الإشارة إلى ذلك (٢كو١٢: ١٢). هو هو الذي رأى في نجاته من دمشق معجزة، وإلا لما كان هناك معنى على الإطلاق لان يجمل كافة الأخطار التي تعرض لها كرسول ثم يذكر على وجه خاص ومحدد القول: "٣٢فِي دِمَشْقَ وَالِي الْحَارِثِ الْمَلِكِ كَانَ يَحْرُسُ مدِينَةَ الدِّمَشْقِيِّينَ يُرِيدُ أَنْ يُمْسِكَنِي، ٣٣فَتَدَلَّيْتُ مِنْ طَاقَةٍ فِي زَنْبِيلٍ مِنَ السُّورِ، وَنَجَوْتُ مِنْ يَدَيْهِ."(٢قو١١: ٣٢، ٣٣). لما كان معنى هذا التخصيص والتفصيل ما لم ير في هذه الحادثة معجزة تستحق كل امتنان وشكر أمام الله.. رغم الم العملية في حد ذاتها من الوجهة المادية عادية وطبيعية، وكان من الممكن إلا تثير أي تفكير لولا الظروف الدقيقة التي أحاطت بالرسول وجعلته حياته كلها في خطر، ليس من السهل أن يفلت منه أو يتجنبه ..!!

ولعله من اللازم ونحن بهذا الصدد أن نخرج من دائرة المعجزات كل ما يمكنه أن يصنعه الإنسان عن طريق الحيلة أو الإيحاء أو أساليب التنويم أو الخداع العملي، إذ أن أساس المعجزة يبدأ من حيث تنتهي كل مقدرة بشرية على الإطلاق كما انه من اللازم أن نذكر بان الشيطان، وهو بحسب الطبيعة ملاك ساقط، وفي قدرته أن يصنع عجائب قد أعطى أو يعطي مرات متعددة، بالطريق المقابلة لمعجزات الله فرصة لا لإظهار قوته فحسب، بل لإظهار مجد الله المنتصر عليه، وهذا واضح من لغة الكتاب، إذ يقول موسى : "إذا قامَ فِي وَسَطِكَ نَبِيٌّ أَوْ حَالِمٌ حُلماً وَأَعْطَاكَ آيَةً أَوْ أُعْجُوبَةً ٢وَلوْ حَدَثَتِ الآيَةُ أَوِ الأُعْجُوبَةُ التِي كَلمَكَ عَنْهَا قَائِلاً: لِنَذْهَبْ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى لمْ تَعْرِفْهَا وَنَعْبُدْهَا ٣فلا تَسْمَعْ لِكَلامِ ذَلِكَ النَّبِيِّ أَوِ الحَالِمِ ذَلِكَ الحُلمَ لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَكُمْ يَمْتَحِنُكُمْ لِيَعْلمَ هَل تُحِبُّونَ الرَّبَّ إِلهَكُمْ مِنْ كُلِّ قُلوبِكُمْ وَمِنْ كُلِّ أَنْفُسِكُمْ."(تث١٣: ١-٣). كما أن السيد المسيح قال: "٢٢كَثِيرُونَ سَيَقُولُونَ لِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ: يَا رَبُّ يَا رَبُّ أَلَيْسَ بِاسْمِكَ تَنَبَّأْنَا وَبِاسْمِكَ أَخْرَجْنَا شَيَاطِينَ وَبِاسْمِكَ صَنَعْنَا

قوَّاتٍ كَثِيرَةً؟ ٢٣فَحِينَئِذٍ أُصَرِّحُ لَهُمْ: إِنِّي لَمْ أَعْرِفْكُمْ قَطُّ! اذْهَبُوا عَنِّي يَا فَاعِلِي الإِثْمِ."(مت٧: ٢٢،٢٣). وقال: "٢٤لأَنَّهُ سَيَقُومُ مُسَحَاءُ كَذَبَةٌ وَأَنْبِيَاءُ كَذَبَةٌ وَيُعْطُونَ آيَاتٍ عَظِيمَةً وَعَجَائِبَ حَتَّى يُضِلُّوا لَوْ أَمْكَنَ الْمُخْتَارِينَ أَيْضاً." (مت٢٤: ٢٤). كما أن الرسول بولس تحدث عن إنسان الخطية: "٩الَّذِي مَجِيئُهُ بِعَمَلِ الشَّيْطَانِ، بِكُلِّ قُوَّةٍ، وَبِآيَاتٍ وَعَجَائِبَ كَاذِبَةٍ."(٢تس٢: ٩).كما أن الرائي تحدث عن الوحش قائلا:" ١٣وَيَصْنَعُ آيَاتٍ عَظِيمَةً، حَتَّى إِنَّهُ يَجْعَلُ نَاراً تَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الأَرْضِ قُدَّامَ النَّاسِ." (رؤ ١٣: ١٣). وعن النبي الكذاب : "٢٠فَقُبِضَ عَلَى الْوَحْشِ وَالنَّبِيِّ الْكَذَّابِ مَعَهُ، الصَّانِعُ قُدَّامَهُ الآيَاتِ الَّتِي بِهَا أَضَلَّ الَّذِينَ قَبِلُوا سِمَةَ الْوَحْشِ."(رؤ١٩: ٢٠)... فإذ قيل بعد ذلك، وكيف يمكن أن نفرق بين المعجزة الصحيحة والكاذبة تعين علينا أن ندرس المعجزة من حيث الصانع والوسيلة والهدف .

أما من حيث الصانع فكل شخص ادعى المعجزة أو حاول صنعها وهو شرير آثم خاطئ مدعي أو رسول الشيطان، وعمله لا يمكن أن يصدر بحال ما عن شخص الله القدوس المبارك، كما أن الوسيلة المستخدمة تنبأ أيضا عن طبيعة المعجزة المزعومة أو الكاذبة، فالسحر أو العرافة أو التعاويذ أو ما أشبه ليس إلا وسائل شيطانية لا يمكن أن تصدر بحال ما عن إرادة الله أو قداسته أو كماله، كما أن الهدف أو الغاية المقصودة من المعجزة تكشف إلى حد كبير عما إذا كانت من الله أم من الشيطان فكل معجزة أو أعجوبة تبعد بالإنسان عن الله، أو عن الحياة المقدسة أو تقوده إلى الخرافات أو الحماقات أو الضلال، لا يمكن أن تكون أعجوبة من عند الله، وبئس من يتعلق بها أو يبحث عنها أو يسر بوجودها. وإعانة محتاج أو سد عاجز على النحو السالف الذكر

المعجزات والاعتراض عليها

والآن نعود إلى السؤال: ولكن لماذا يعترض البعض على المعجزات وإمكانية حدوثها!!؟ تتلخص اعتراضات المعترضة في ثلاثة أمور هم على التوالي: اللياقة، والمضادة، والإثبات!!.. أما اللياقة فالمقصود بها صنع المعجزات غير لائق، أما لأنهم لا يعتقدون بوجود اله يصنعا، وليس من اللائق في نظرهم أن يقال صدرت عرضا، أو لأنه لا يليق بالله أن يصنعها عند من يعتقدون بوجوده، لان الله قد صنع نواميس دقيقة منظمة في للكون، ولا يجمل به أن يغير هذه النواميس أو يبدلها، كما انه لا يليق بالمعجزات أن تكون سببا للإيمان لان في ذلك تصغيرا للعقل البشري الباحث عن الحق أو امتهانا لله أو احتيالا – عند البعض – على وصول الحقيقة إليه... ولكن هذه المزاعم جميعا مردودة، فاليقين بوجود الله اثبت واقوي وأعظم من أي زعم يتخيله أو يتصوره أو يتوهمه الكافرون!! أما الزعم بأنه لا يليق بالله أن يتدخل في الناموس الذي أبدعه ونظمه، فهو قول خلا من شيء فإنما هو ذاته يحتي على كل لياقة في التعبير... لان معنى ذلك أن هذا الناموس المذكور قد أضحى إلها أخر مستقلا معادلا أو متكافئا مع الله، يفلت من كل إشراف أو يعلو على كل رقابة، ولا يجوز بحال ما التدخل في إطلاق سيره!! كما أن معناه أن الله صنع هذا الناموس، ليقف منه موقف المتفرج أو العاجز عن صنع امرأ أو شيئا ما!! أن مثل هذا القول كمثل من يقول أن صانعا صنع آلة ضخمة كبيرة وحركها ووقف أمامها يتطلع إلى حركتها دون أن يملك من أمر إيقافها أو الإقلال من حركتها أو زيادة هذه الحركة شيئا!! وكل ذلك عبث غير كريم أو غير لائق بشخص الله .

ثم نعود إلى السؤال: ولكن هل كل ناموس في الكون يسير سيره الدقيق غير المنحرف أو المتخلف؟ قد يسير الناموس الماد سيره الدقيق المنتظم الرتيب؟ ولكن من قال أن هذا الناموس هو وحده الموجود في الكون وليس غيره!؟ ومن قال انه لا يوجد ناموس أخر قد انحرف، ونعني به وليس غيره!!؟ ومن قال انه لا يوجد ناموس أخر قد انحرف، ونعني به الناموس

الأدبي عند الناس!!؟ وان هذا الناموس اعلي وأعظم عند الله والناس من الناموس المادي، وعلى قدر ارتفاع الروحيات أو الأدبيات على الماديات. وان قصة الدين في جوهرها ليست إلا تدخل الله في شتى العصور والأجيال، لإصلاح ما طرا على هذا الناموس من خلل أو انحراف أو خطا!! ومن اللياقة أن يستخدم الله شتى النواميس أدبية ومادية في سبيل هذا الإصلاح وخير الإنسان ومجده. أما الزعم بان الالتجاء إلى المعجزات امتهان أو تحقير أو تحايل على العقل لإدخال الحقيقة إليه، فهو في الواقع الزعم غير المعقول أو المناقض للحقيقة والتاريخ. وإلا فمتى كان العقل وحده فيصلا في الكشف عن الحقيقة او البرهان عليها في أي عصر من عصور التاريخ، وعند أي جماعات أصابها السمو أو العلو الفكري العظيم؟ ومتى استقر الفلاسفة أو العلماء على رأي أو حجة أو منطق أو برهان!؟! ومن يسلم اليوم مثلا برأي أفلاطون القائل أن للكواكب نفوسا!؟! أو بألوهية الكون التي استساغها عقل هيجل واسبينوزا وغيرهم من فلاسفة الألمان!!؟ فالقول – بعد ذلك – أن المعجزات يمكن أن تكون أدلة على البرهان في لحظات أو فترات الانحطاط العقلي فقط قول مردود تاريخيا وعقليا على حد سواء؟! ثم من قال أن الله قد جعل البرهان في الدين أو الحق فقط قاصرا على الخاصة من الناس ممن هم من أصحاب العقول الجبارة المميزة دون العامة ممن أوتوا حظا يسيرا محدودا في التفكير أو المحاجة، مع أنهم في كل جيل وكل عصرهم الأغلبية الساحقة بين الناس!!؟ ومن قال أخر الأمر أن العقل هو ميدان أو مجال المخاطبة الوحيد في الإنسان، أليس الحس في رأي عدد كبير من الفلاسفة هو الأساس الأصلح للمناقشة أو الاستيعاب، حتى أن "عمانوئيل كانط:" هاجم العقل هجومه المشهور في كتابه " نقد العقل الخالص" ومع انه ليس المجال هنا أن ندخل في ترجيح هذا الرأي أو ذاك أو غيره، إلا إننا نود أن نخرج بالنتيجة إلى أن الله لا يخاطب في الإنسان مجرد عقله دون مشاعره أو إرادته!! فالقول بعد هذا كله أن صنع المعجزات أمر لا يدخل في باب الموائمة أو اللياقة قول غير سديد وغير لائق على وجه الإطلاق!! أما القول بان هناك مضادة أكيدة بين المعجزات والنواميس الطبيعية في الكون، وانه لا يمكن أن يستقيم وجود المعجزة مع وجود هذه القوانين، فقول غير صحيح ويحتاج إلى شيء من الفهم والإيضاح لعمل النواميس، وعمل المعجزة.. فمن الحق أن النواميس تعمل بنظام دقيق رتيب حكيم، فناموس الجاذبية في الأرض يعمل بكل سلطانه في جذب ما يسقط من الفضاء على الأرض مثلا أو في تحديد أو تعيين الوزن أو الثقل تباعا لوجود المادة في دائرة تأثيره أو سلطانه، فإذا ما خرج الشيء لسبب ما عن دائرة هذا الناموس انعدم الوزن أو امتنع عن السقوط أو تعلق بناموس أخر غير ناموس الجاذبية الأرضية! ومن هنا نفهم أن الناموس باق في حدوده الخاصة، حتى تعمل إرادة قوية حرة على التخلص من جزء من تأثيره، أو كل هذا التأثير، دون أن يقال أن هناك تحطيما أو قضاء على هذا الناموس!! وقد استطاع الإنسان بإرادته الحرة أن يصنع ما يشبه العجائب والمعجزات دون أن يقال انه حطم ناموس الجاذبية أو قضى عليه، إذ أمكنه أن يبعث بالصواريخ الموجه لتدور حول القمر، كما استطاع أن يتحكم فيها أو يرجعها أو يحدد أو يحدد مناطق سقوطها. ولو أتيح "الديفيد هيوم" أن يبصر كل هذا عمليا لغّير ولا شك تفكيره بان المعجزة لا يمكن أن تحدث لأنها المضادة التي لا تستقيم مع ثبات النواميس أو نظامها، ولعل مثلا أخر مبسطا يوضح هذا الأمر إذ إننا لو امسكنا بمسمار وتركناه من بين أصابعنا لسقط ولا شك بتأثير الجاذبية إلى الأرض، لكننا لو أخذنا بعد ذلك مغنطيسا قويا وسلطناه على المسمار من اعلي لانجذب إليه صعودا إلى فوق، متخلصا من تأثير الجاذبية الأرضية. فإذا أمكن للإرادة البشرية الحرة أن تعلو على الناموس في حدود متفاوتة من الضعف أو القوة تباعا لما يمكن أن نملك من مقدرة ووسائل أو أساليب، فهل يمكن بعد ذلك أن إرادة الله لا تملك في قدرتها الكاملة أن تعلو أو تسود على أي ناموس معروف أو غير معروف... أن أي معجزة بالنسبة لله هي السيطرة البسيطة العادية على أي ناموس. والأمر كله يتعلق في الفرق بين

حكمة وقدرة الإنسان، وحكمة وقدرة الله العلي، إذ ما يعتبره الإنسان خارقا إنما هو بالنسبة لمجال حكمته وقدرته على العكس من الحكمة الإلهية وقدرتها، إذ كل شيء بالنسبة لها يسير عادي بسيط، أو كما شبه احدهم الأمر بهذا المثل : ربطت الضفدعة في كنف حجر ضخم وهي تظن انه من الجبال الرواسي، وجاء رجل وحمل بين يديه الحجر وذهلت الضفدعة، إذ من يستطيع أن يحمل هذا الجبل الكبير!! لا شك أنها معجزة وكان الأمر بالنسبة للرجل شيئا يسيرا عاديا.. وهكذا نحن على الدوام فيما يبدو من أمامنا من معجزات وخوارق إلهية، إذ المسافة بين حكمتنا وقدرتنا وبين حكمة وقدرة الله العظيم، ابعد بما لا يقاس بالمسافة القائمة بين الضفدعة والرجل! والنتيجة الخالصة انه ليست سمت مناقضة أو تحطيم للنواميس في صنع المعجزات، بل علوا عليها أو تسخيرها بيد من معه أمرنا وأمرها.. أما الاعتراض على المعجزة الناشئ من أنها تفتقر إلى الشهادة الثابتة، أو كما يقول بأنه يشترط في معجزة إقامة ميت صنعها بمحضر جمهور من الأطباء أو العلماء، وإلا فلا يمكن التسليم بها، فهو اعتراض مقلوب، لان الأساس في المعجزة لا أعمال الفكر العلمي، ولعل لا يعنيه "رينان " ليست معجزة الإقامة في نفسها، بل الخوف من إلا تكون الوفاة قد حدثت، وأن يكون الأمر مجرد إغماء أو ما أشبه، وقد يصح هذا في الوفاة الحديثة، أما إذا حدثت الوفاة وظلت الجثة أربعة أيام في القبر فإننا نكون إزاء افتراض مستبعد!! فإذا أضيف إلى هذا فإننا لسنا في حاجة في كثير من المعجزات على هذه البرهنة العلمية، فالذي يولد أعمى من بطن أمه ويظل هكذا حتى الرجولة لا يحتاج إلى شهادة طبيب من أطباء العيون حتى يثبت ما إذا كان قد أبصر أم لا!! كما أن إطعام خمسة آلاف بخمسة أرغفة وسمكتين لا يحتاج إلى علماء أو مفكرين للشهادة بصحة الأمر من عدمه!! أن الأمر كله كان متوقفا على أخلاق الشهود وعددهم وتنوع المعجزات وكثرتها، فإذا ما صدرت الشهادة في أوقات مختلفة من التاريخ، ومن أناس عاشوا طوال حياتهم صادقين أمناء، وكانوا من الكثرة بحيث لا يوجد مجال للانخداع أو التضليل، وكانت المعجزات نفسها بكيفية باتة حاسمة تعلو على كل ما يمكن أن يوصف بالتوهم أو الغش أو سيطرة الإيحاء، أو ما أشبه، كانت هذه كلها برهانا على ثبات المعجزات وصحتها، والقول بعد هذا بأنه لا يمكن تصديقها ما لم يرها الإنسان بنفسه أو يختبرها بشخصه، كالقول برفض كل حقيقة تاريخية لمجرد إننا لم نرها بعيوننا أو نلمسها بأيدينا أو نختبرها بحواسنا!! ولا مناص في الواقع من أن نقبل اليقين بهذه المعجزات، ونقبل أيضا الذين قاموا بها أو صنعوها، إذ ليس يعقل أن نقبل أشخاصهم وتعاليمهم، ونسلم بها دون أن نقبل ما قاموا به من معجزات، إذ في هذه الحالة لا يمكن إلا أن يكونوا مدعيين مضللين، ومثل هذا المعدي أو المضلل لابد أن يكون ضعيف الأخلاق أو معدومها، وهيهات أن يقبل من مثل هذا تعليم أو حقيقة!! ومن ثم فجميع الاعتراضات التي أثيرت حول المعجزات أو مدلولها أو معقوليتها أو لزومها اعتراضات غير صحيحة وقاصرة، ولا سند لها من عقل أو منطق أو واقع أو كتاب!!

المعجزات وهل ما تزال باقية إلى ألان؟؟

وقد اختلف في هذا الأمر، فهناك من يؤكد بان عصر المعجزات قد انتهى على اعتبار أن المعجزات كانت لها رسالة معينة أدتها، إذ رسالتها تثبيت دعائم الحق والدين والإقناع بصحة نسبة الرسالة إلى الله، أو كما قال نيقوديموس: "يَا مُعَلِّمُ نَعْلَمُ أَنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ مِنَ اللَّهِ مُعَلِّماً لأَنْ لَيْسَ أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَعْمَلَ هَذِهِ الآيَاتِ الَّتِي أَنْتَ تَعْمَلُ إِنْ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ مَعَهُ».(يو٣: ٢) وقد سجل يوحنا هدف الآيات في القول: "٣٠وَآيَاتٍ أُخَرَ كَثِيرَةً صَنَعَ يَسُوعُ قُدَّامَ تلاَمِيذِهِ لَمْ تُكْتَبْ فِي هَذَا الْكِتَابِ. ٣١وَأَمَّا هَذِهِ فَقَدْ كُتِبَتْ لِتُؤْمِنُوا أَنَّ يَسُوعَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ وَلِكَيْ تَكُونَ لَكُمْ إِذَا آمَنْتُمْ حَيَاةٌ بِاسْمِهِ.(يو٢٠: ٣١،٣٠). أو كما ذكر بولس أن الآيات التي صنعها كانت لبرهان رسوليته بين الأمم كما قال عن الألسنة: "إذا الألسنة أية لا للمؤمنين، بل لغير المؤمنين" (١قو١٤: ٢٢) فإذا ما

انتهيت الرسالة الموضوعة لهذه المعجزات لم يعد ثمة حاجة إليها، إذ أن القصد الأساس عند الله لا أحداث المعجزة للمعجزة نفسها بل للغاية الخاصة المعينة لها. ومن ثم قال هؤلاء أن عصر المعجزات انتهى بنهاية العصر الرسولي أو العصر التالي له باستقرار الديانة المسيحية وقبول الناس لها والتمسك بعقيدتها.. غير انه وجد من لم يسلم بهذه النتيجة أو يقبلها، إذ لم يوجد في الكتاب نصا يعين أو يحدد زمنا للمعجزات بل على النقيض من ذلك قال السيد: «ٱذْهَبُوا إِلَى الْعَالَمِ أَجْمَعَ وَاكْرِزُوا بِالإِنْجِيلِ لِلْخَلِيقَةِ كُلِّهَا. ١٦مَنْ آمَنَ وَاعْتَمَدَ خَلَصَ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ يُدَنْ. ١٧وَهَذِهِ الآيَاتُ تَتْبَعُ الْمُؤْمِنِينَ: يُخْرِجُونَ الشَّيَاطِينَ بِاسْمِي وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَةٍ جَدِيدَةٍ. ١٨يَحْمِلُونَ حَيَّاتٍ وَإِنْ شَرِبُوا شَيْئاً مُمِيتاً لاَ يَضُرُّهُمْ وَيَضَعُونَ أَيْدِيَهُمْ عَلَى الْمَرْضَى فَيَبْرَأُونَ». (مر ١٦: ١٥- ١٨).

وفي الواقع إننا نستطيع الوصول إلى الرأي الأصح متى أمكن أن نعود إلى ما سبقت الإشارة إليه من الفرق بين المعجزة في المعنى الضيق أو المعنى الواسع، وحيث أن المعجزة في المعنى الضيق برهان صحة الرسالة أو الرسول، وقد صنعها الله على أيدي أتباعه وخدامه لهذا القصد الخاص المحدد، فهي ادني إلى البرهان منها إلى البيان، ومن ثم كان وجودها على الدوام مرتبطا بهذا الإعلان أو البرهان عن صحة الدين.. ولهذا كانت الضربات العشر أكثر من مجرد انتقام أو تأديب من الله، إذ كان المقصود منها إعلان مجد الله إزاء آلهة المصريين، إذ كان المصريون يعتبرون أن النيل إلههم المفضل، فتحويل مائه إلى دم إعلان عن بطل عقيدتهم وفسادها، كما كان الأمر بالنسبة للضفادع والذباب أو الثيران أو الأبقار، إذ كانت ترمز عندهم لهذه الإلهة أو تلك، فكان رأس الضفدع يشير إلى اله، كما كان العجل أبيس يشير إلى اله أخر. فإذا ما جاءت الضربات على هذه جميعا فإنما يقصد منها الإعلان عن صدق الله الذي يتحدث عنه موسى إزاء هذه الإلهة الوثنية الباطلة .

ولعل هذا يتضح أكثر إذا ذكرنا بان عبادة البعل أيام إيليا كانت تقدس النار، ومن ثم تحدها النبي القديم عن طريق مقدساتها، لكي يثبت بطل البعل بالنسبة للإله الحي... ويزداد هذا الأمر وضوحا في العهد الجديد متى ذكرنا ألن الرسول الذي يصنع المعجزات في شفاء المرضى، كان هو مصابا بشوكة لم يستطع التخلص منها!!.. كما انه لم يشف تيموثاوس بل نصحه بعلاج معدته وأسقامه الكثيرة بالصورة التي يتمنع فيها عن شرب الكثير من الماء واستعمال القليل من الخمر كوسيلة طبية، مما يجزم بان المعجزة في معناها المادي الضيق كان المقصود منها إثبات صحة المسيحية والبرهنة عليها، فمتى ثبت هذا البرهان لم تعد هناك من حاجة لاستغلالها في غرض أخر... ومن ثم فعلى بولس المتألم وتيموثاوس السقيم أن يحتملا مرضهما، لان هذا جزء من ترتيب الله الخاص لهما دون الاستنجاد بالمعجزة الخارقة للقضاء على العلة، والتي وجدت أصلا للشهادة المسيحية. وعلى هذا يكون عصر المعجزات بالنسبة للمعجزات الطبيعية المادية في المعنى الضيق كإقامة الموتى وفتح أعين العمي أو شرب السم دون ضرر أو ما أشبه غير باقية، إذ هي تتبع المؤمنين فقط متى وجدت ظروف حتمية حاسمة في نظر الله لشهادة الحق الإلهي في المجالات الوثنية، لان المسيح لم يقل إن الآيات تتبع المؤمنين إلا للجماعة التي أرسلها للعالم اجمع لتكرز بالإنجيل للخليقة كلها، ومن ثم كانت هذه الآيات المرتبطة بالكرازة وثبات مركز الإنجيل في العالم، ومتى تحقق هذا الثبات كان القول بضرورتها غير صحيح أو غير سديد!!.. على إن المعجزة في المعنى الواسع باقية ما بقي على الأرض إنسان أو مؤمن، إذ إنها للمعونة والمساعدة والإنقاذ والتشجيع والعناية، وستبقى ما بقي الإنسان في حاجة إلى واحدة من هذه أو إلى جميعها .

وبشيء قليل من التقصي نجد إن اختبار كل مؤمن يشير إليها، إذ إن حياة كل مؤمن تبدى بمعجزة التغيير والولادة الروحية، الم يقل السيد: "يَنْبَغِي أَنْ تُولَدُوا مِنْ فَوْقُ." (يو٣: ٧). وهل يمكن أن يتم هذا دون معجزة عمل روح الله في النفس البشرية؟ كما إن عبادة المؤمن لا يمكن أن تخلو من عنصر المعجزة إذ قال المسيح: "لأنه حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فهناك أكون في وسطهم" (مت١٨: ٢٠). فإذا أضيف إلى هذا كله إن في اختبار الكثيرين من المؤمنين هذا الاختبار الذي أحس به الملك القديم يهوشافاط عندما جاء إليه العمونيون والموآبيون بجيش ثقيل قاس محاصر فصاح إلى الله : "ونحن لا نعلم ماذا نعمل ولكن نحوك أعيننا" (٢ أخ٢٠: ١٢). إذ كثيرا ما تأتي عليهم أوقات من الشدة والضيق والتعب والألم والمرض بالكيفية التي يسقط معها كل سلاح ارضي وكل معونة بشرية فهل يمكن أن يقال ههنا بان معونة الله تعز أو إن معجزاته لا تجيء؟ أن القول بذلك معناه ضياع أجمل صفحات التاريخ والاختبار البشري. اجل! ومن الجائز أن نقول أن معجزة شق البحر الأحمر وعبور الإسرائيليين في اليابسة معجزة مادية في المعنى الأضيق لا يمكن أن تتكرر أو تعود، ولكن من ذا الذي لا يمكنه القول أن تحطيم الارمادا في البحر الانجليزي في الواقعة المشهورة في التاريخ لم يكن بعمل معجزة إلهية، في المعنى الواسع والشامل والصحيح لكلمة معجزة!!؟ ومن ذا الذي ينكر أن هزيمة نابليون في موسكو حيث قتل الشتاء الروسي قرابة نصف مليون جندي وهزيمته في وترلو لم تكون بعمل الله ألمعجزي العظيم!!؟ ومن ذا الذي يتردد في القول أن هناك معجزات لا تعد ولا تحصى كل يوم من معجزات الشفاء تمت بعد أن القي الطب كل سلاح في المعركة مع المريض!!؟

هذه وغيرها من الأنواع المتعددة المختلفة للمعجزات اليومية والمتكررة في حياة الأفراد والجماهير والشعوب، تعلن بما لا يدع مجالا للشك أن اله المعجزات ما زال يعمل إلى اليوم كما كان يعمل في العهد القديم أو الجديد على حد سواء، إذ هو هو أمس واليوم والى الأبد، الإله الذي يقول: "١ وَالآنَ هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ خَالِقُكَ يَا يَعْقُوبُ وَجَابِلُكَ يَا إِسْرَائِيلُ: «لاَ تَخَفْ لأَنِّي فَدَيْتُكَ. دَعَوْتُكَ بِاسْمِكَ. أَنْتَ لِي. ٢إِذَا اجْتَزْتَ فِي الْمِيَاهِ فَأَنَا مَعَكَ وَفِي الأَنْهَارِ فَلاَ تَغْمُرُكَ. إذا مَشَيْتَ فِي النَّارِ فَلاَ تُلْذَعُ وَاللَّهِيبُ لاَ يُحْرِقُكَ.(أش٤٣: ١، ٢). "أستطيع كل شيء في المسيح الذي يقويني" (في٤: ١٣).

الفصل الثالث عشر: إيماني بملائكة الله

من هم الملائكة؟ وهل هم حقا موجودون؟وإذا وجودوا فأين هم؟ وما مسكنهم وطبيعتهم وهيئتهم وقوتهم وصفاتهم ونظمهم وخدماتهم ورسائلهم؟ وما مدى تدخلهم في حياة الناس وأعمالهم وظروفهم وأحوالهم العامة والخاصة؟ فإذا فكر أنهم على الدوام فريقان: فريق الملائكة الأخيار، وفريق الملائكة الأشرار، فما أساس التفرقة بين الاثنين؟ ولماذا يختلفان على هذا الوضع المتباعد عن الاختلاف؟ وما اثر الاختلاف في حياة البشرية وعملها واتجاهاتها ونظمها، وهل يمكن أن يؤثر الملائكة الأشرار في البشر بمثل ما يؤثر الملائكة الأشرار. وهل يقف هذان الفريقان في موكب الحياة البشرية، كما يقف الخير والشر على الدوام في ذات المضادة والمدافع الصراع والنضال الذي ينتقل من جيل إلى جيل من عصر إلى عصر؟

هذه أسئلة قد تثار وغيرها، لا من قبل الفضول الفكري أو المتاع الذهني، بل لان لها علاقة أساسية جوهرية مباشرة بالتاريخ البشري كله، إذ أن هذا التاريخ في صراعه المتلاطم في حاجة أن يكشف عن الأسباب الحقيقية العميقة للنزاع بين الخير والشر، وكيف السبيل إلى غلبة الخير والحق والعدالة والفضيلة على الشر والبطل والظلم والرزيلة؟ وقد يجد أخر الأمر إن الملائكة والشياطين دورا أساسيا لا يحسن به أن يتجاهله أو يضعه في مكان متأخر عند بحث القضية الإنسانية كلها.. ومع أن العقل البشري يمكنه أن يكشف بعض الطريق إلى الملائكة أو الأشرار على حد سواء، إلا انه من الواضح إننا لا نستطيع السير الطويل بأكمله من غير مساعدة أو مساندة الوحي والكتاب المقدس، إذ انه هو الذي يلقي الضوء الكامل على ما وراء الطبيعة وما يتعلق بالكائنات الروحية وغير الهيولية والمادية، ومن ثم يمكننا متابعة هذه الحقائق:

الملائكة ووجودهم

هل الملائكة موجودون؟ وهل يمكن أن يقبل العقل وجودهم دون أن يكون هناك برهان حسي على هذا الوجود؟ وما هي الأدلة التي يستند إليها المؤمنون بوجودهم؟

من المسلم به أن هذا الكون ممتلئ بظاهرة التدرج، وانه إذا وجد فيه الجماد والنبات والتنوع الطبقي في الكائنات ذات الأنفس الحية التي تبدأ من الحيوانات الدنيا حتى الإنسان على الأرض، فانه لا يمكن استساغة القول بان الإنسان هو أخر أو ختام التدرج الطبيعي في الكون، وانه لا يمكن أن تكون هناك طبقات أخرى مخلوقة غير الوجود غيره، ومن ثم رأينا الكثيرين يسلمون من الوجهة العقلية الخالصة بوجود طبقات أخري يرجحون أنها اعلي من طبقة الإنسان، أخذا بفكرة التدرج عينها، فإذا أضيف إلى هذا إن ظاهرة الخير أو الشر كثيرا ما لا يمكن تفسيرها عقليا من دون تصور وجود ملائكة أو شياطين يدفعون إليها دفعا.. فإذا وجد إنسان ما ماثلا – وكثيرا ما يحدث هذا - يفعل ما تعف عن فعله أقذر الحيوانات، فلابد أن هناك قوة خارج هذا الإنسان تدفعه إلى ذلك دفعا.

فإذا انتقلنا من العقل، والاختيار البشري، إلى نور الكتاب المقدس وجدنا الحقيقة في وضوح اظهر وأكمل، إذ إن الملاك في الكتاب هو في المعنى الواسع كل رسول لله يتمم رسالته ومقصده الإلهي العظيم، ولقد استعمل لهذا السبب لفظ الملاك للرسل العاديين المرسلين من الناس (اي١: ١٤، ١صم ١١: ٣، لو ٧: ٢٤، ٩: ٥٢) أو المرسلين من الله كالنبي (اش٤٢: ١٩، حج١: ١٣، مل٣: ١)، وكالكاهن (اش٤٢: ١٩) أو كراعي الكنيسة (رؤ١: ٢٠) كما قد تشير إلى ظهور الثاني في العهد القديم" (تك٢٢: ١١، ١٢، ١٦: ٧، ٣١،١٣: ١١، ١٣، ٤٨: ١٥، قض١٣) وغيرها من مواطن متعددة في الكتاب، على إن المعنى الأخص والضيق والمتعارف عليه للملائكة أنهم شخصيات روحانية عاقلة قوية مخلوقة، وان هذه الشخصيات موجودة قبل خلق الإنسان، إذ هي هتفت سجودا وترنما عن خلق الأرض كما جاء في محاجة الله مع أيوب "أين كنت حين أسست الأرض... عندما ترنمت كواكب الصبح معا وهتف جميع بني الله" (اي٣٨: ٤، ٧).

الملائكة وافتراقهم

ومن الواضح من القصة الكتابية أن الملائكة جميعا دخلوا بعد خلقهم امتحان ما، لا نعلم أين ومتى وكيف؟ ولكن نتيجة هذا الامتحان فصلتهم فصلا حاسما أبديا، وقسمتهم إلى ملائكة أشرار وآخرين أخيار، والبادئ إن قضاء الله، في الوقت الذي كان يتمم فيه الإرادة الإلهية الأزلية المحتومة بالنسبة للجميع أعطى الحرية التامة للملائكة ليختاروا الوضع الذين يريدون أن يكونوا فيه تماما مثل ما يفعل مع الإنسان على الدوام، وكل ما نعلمه أن الملائكة الناجحين دعوا الملائكة المختارين " (١تي٥: ٢١) توضيحا وتوكيدا للاختيار الأزلي المطلق الراجع إلى حكمة الله وعدالته ومسرته وجوده، كما دعوا "الملائكة القديسين" (مت٢٥: ٢١) إثباتا لنجاحهم في الامتحان، وعيشتهم الممتلئة بالتقوى والقداسة والغيرة والطاعة لله.

أما الملائكة الأشرار فهم أولئك الذين فشلوا في الامتحان وسقطوا في الخطية، ويبدو إن خطيتهم كانت بصورة ما محاولة التعالي والتساوي مع الله، إذ هذا ما يبدو من القول : " وَالْمَلاَئِكَةُ الَّذِينَ لَمْ يَحْفَظُوا رِيَاسَتَهُمْ، بَلْ تَرَكُوا مَسْكَنَهُمْ حَفِظَهُمْ إِلَى دَيْنُونَةِ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ بِقُيُودٍ أَبَدِيَّةٍ تَحْتَ الظَّلاَمِ." (يه٦)، بل هذا ما يبدو من ذات التجربة والخداع الذي استخدمه الشيطان – كملاك – ساقط، في إسقاط الجنس البشري، إذ قال ادم لحواء: " ٥بَلِ اللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلاَنِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ».(تك٣: ٥).

أما ما عدد هؤلاء أو أولئك فعلمه عند الله، فإذا كان البعض يرجحون إن الملائكة الناجحين أكثر عددا، فإنما مرجع هذا في الواقع إلى اليقين برحمة الله وإحسانه، أكثر من الترجيح المأخوذ من الكتاب عند بعض المفسرين، لان الكتاب إذا كان قد أشار إلى أن الملائكة الإبرار موجودين في السماء بأعداد لا تحصى، إذ إن جيشا منهم أرسل لمساعدة يعقوب في الطريق: " وَأَمَّا يَعْقُوبُ فَمَضَى فِي طَرِيقِهِ وَلاَقَاهُ مَلاَئِكَةُ اللهِ. ٢وَقَالَ يَعْقُوبُ إِذْ رَآهُمْ: «هذَا جَيْشُ اللهِ!» فَدَعَا اسْمَ ذلِكَ الْمَكَانِ «مَحَنايِمَ».٢: ١، ٢). كما إن غلام اليشع عندما فتحت عيناه فأبصر : "واد الجبل مملوء خيلا ومركبات نار حول اليشع" (٢مل٦: ١٧).وميخا ابن يملة قال: " قَدْ رَأَيْتُ الرَّبَّ جَالِساً عَلَى كُرْسِيِّهِ، وَكُلُّ جُنْدِ السَّمَاءِ وُقُوفٌ لَدَيْهِ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ. (٢مل٢٢: ٩). وفي جثسيماني قال المسيح لبطرس: " ٥٣أَتَظُنُّ أَنِّي لاَ أَسْتَطِيعُ الآنَ أَنْ أَطْلُبَ إِلَى أَبِي فَيُقَدِّمَ لِي أَكْثَرَ مِنَ اثْنَيْ عَشَرَ جَيْشاً مِنَ الْمَلاَئِكَةِ؟(مت٢٦: ٥٣).

إذا كان هذا حقا فانه من الوجهة الأخرى احتاج الأمر إلى لجئون أو فرقة تقدر بحوالي ستة آلاف شيطان لاحتلا فرد واحد، كما جاء في قصة مجنون كورة الجدريين إذ ساله المسيح ما اسمك فأجابت الشياطين فيه :"اسمي لجئون لأننا كثيرون" (مر٥: ٨). كما ذكر الرسول قائلا: "فَإِنَّ مُصَارَعَتَنَا لَيْسَتْ مَعَ دَمٍ وَلَحْمٍ، بَلْ مَعَ الرُّؤَسَاءِ، مَعَ السَّلاَطِينِ، مَعَ وُلاَةِ الْعَالَمِ، عَلَى

ظُلْمَةِ هَذَا الدَّهْرِ، مَعَ أَجْنَادِ الشَّرِّ الرُّوحِيَّةِ فِي السَّمَاوِيَّاتِ." (اف٦: ١٢). مما ينبئ إن هذه الأجناد هي بأعداد هائلة مخيفة لا تكاد تعد أو تحصى أيضا.

فإذا ما ذكر بان الملائكة الإبرار منظمون وتحت رياسات متعددة كالفيالق والرتب المختلفة في تنظيم الجيوش، فان الأمر كذلك أيضا مع الملائكة الأشرار، إذ هم منظمون ومرتبون كفرق تحت أنواع مختلفة من الرياسات والرتب والسلاطين!

الملائكة الإبرار

ومادمنا بصدد الملائكة الإبرار فلابد أن نسال أولا: هل يمكن أن يكون السيرافيم والكاروبيم المذكورون في الكتاب المقدس من بين هؤلاء الملائكة!؟ أم أن هناك فرقا بين هؤلاء وأولئك؟ وإذا صح إن هناك هذه الفرق، فهل الكاروبيم والسرافيم أسماء لمسميات واحدة أم لمسميات مختلفة؟.

لقد اختلف كثيرا حول هذه الأسئلة، ويكفي للتدليل على هذا الاختلاف إن الكاروبيم المرموز إليه في الكتاب بالخلائق الحية دو الوجوه الأربعة، وجه الإنسان والأسد والثور والنسر، فقد فسر أمرها تفسيرات متعددة، فهي في نظر البعض.

١- إعلان عن الحكمة الإلهية والقوة والعلم والخليقة.

٢- وآخرون يرونها إشارة إلى الأناجيل الأربعة، فمتى يشير إلى المسيح كملك في صورة الأسد، ومرقس يشير إلى الذبيحة في صورة الثور، ولوقا يشير إلى الطبيعة البشرية في التجسد في صورة إنسان، ويوحنا إلى اللاهوت الممثل في النسر. ومن الآخذين بهذا الرأي اغسطينوس وجيروم واثناسيوس وايرانيوس وغريغوري وامبروز وورد وثورث.

٣- وغيرهم يرونها إشارة إلى كنيسة العهد القديم وكنيسة العهد الجديد.

٤- وهناك أخيرا من ينظر إليهم على اعتبار أنهم اعلي طبقة من طبقات الملائكة. أما السيرافيم فالرأي الراجح سواء هم كانوا ذات الكروبيم أو غيرهم أنهم طبقة من الطبقات العالية في الرتب الملائكية. وعلى إي حال فمن الواضح أن الملائكة يكونون جيشا وفرقا منظمة تخضع بعضها لبعض بحسب الترتيب الإلهي، ولكل منها اسمها الخاص عند الله، ونحن نعرف من أسمائها على الأقل اسمين : ميخائيل رئيس الملائكة وجبرائيل الواقف قدام الله. وقد تصور البعض أن ميخائيل هو ملاك العهد أو رئيس الملائكة لا على الرب يسوع، وقد بنوا اعتقادهم على أساس أن الاسم يعني " من هو الذي يماثل الله" وقالوا أن هذا اللفظ لا يمكن أن يطلق على ملاك، ولكن الرد على ذلك يمكن أن يقال أن العبارة المنضمة في الاسم يمكن أن تكون بمثابة تساؤل لينصرف معناها إلى القول " من هو هذا الذي يمكن أن يماثل الله" حتى ولو كان رئيس الملائكة ميخائيل نفسه، إذ أن اللم منفرد في السلطان والمجد، وقد أضاف البعض إلى ذلك القول: " وَلاَ أَحَدٌ يَتَمَسَّكُ مَعِي عَلَى هَؤُلاَءِ إِلاَّ مِيخَائِيلُ رَئِيسُكُمْ." (دا١٠: ٢١). ولكن هذه العبارة لا يمكن أن تنصرف إلى مناقضة اعتبار،ميخائيل رئيس الملائكة، فالتعبير هنا يشير إلى مركز ميخائيل في حماية شعب الله، والواضح أن ميخائيل هو "واحد من الرؤساء الأولين" (دا١٠: ١٣). "الرئيس العظيم القائم لبني شعبك" (دا١٢ :١). "٠يهوذا٩). إذ يمكن أن يكون الرئيس على اعتباره انه "أول"في طبقة رؤساء الملائكة، حتى أن البعض يترجم "واحد". "أول" ولكنه لا يمكن أن يكون شخص المسيح، إذ أن المسيح هو ذات الذي "تسجد له كل ملائكة الله" (عب١: ٦).

كما انه لا يمكن أن يدخل بطبيعته اللاهوتية في المقارنة بتاتا مع الملائكة حتى ولو قيل انه الأول في الرؤساء فيهم، إذ تعالى على ذلك علوا كبيرا!! كما أن مخاصمة ميخائيل لإبليس ومحاجته معه عن جسد موسى تاركا الحكم لمن له الحكم، لا يمكن أن تصدر هذه عن شخص المسيح، إذ هو صاحب الحكم والديّان العادل، لذلك فالرأي الأصح والكتابي انه واحد من رؤساء الملائكة، والتقليد اليهودي يجعله واحد من سبعة رؤساء بينهم جبرائيل الواقف أمام الله، وعلى إي حال فان الملائكة الإبرار يخضعون لنظام رائع مجيد عظيم دقيق، وهذه أمر بديهي إذ أن السماء هي المكان الأمثل والأعلى لكل النظام، وإذا كان الله قد خلق النظام مطبوعا في كل ناموس ومكان، فلابد أن ملائكة السماء هم النموذج المثالي الرائع لهذا النظام!! ومن المحقق أنهم أرواح. "أليس جميعهم أرواحا" (عب١: ١٤) وان كنا لا نعلم هل لهم أجساد من نوع ما روحاني، على أساس ذلك الفارق المذكور بين الجسد الحيواني والجسد الحيواني والمشار إليه فيما يتعلق بالإنسان (اكو١٥: ٤٠-٥٠) أم أنهم أرواح خالصة.. لا نعلم ولا يستطيع احد دان يجزم، وان كان إباء الكنيسة الأولى أمثال ايرانيوس واكليمندس وترتليانوس واغسطينوس يرجحون الرأي الأول، على العكس من الآراء المتأخرة في التاريخ الكنسي وهي التي تعتقد إنها أرواح من غير أجساد.. وغير خاف أن الملائكة جميعا يرتفعون عن الجنس البشري ارتفاعا هائلا عظيما فيما يتعلق بالقوة والحكمة والعظمة والأخلاق.

فمن ناحية القوة قيل: " باركوا الرب يا ملائكته المقتدرين قوة" (مز١٠٣: ٢). "مع ملائكة قوته" (٢تي١: ٧). "حيث ملائكة وهو أعظم قوة وقدرة" (٢بط: ٢: ١١). "ورأيت ملاكا قويا" (رؤ٥: ٢). "ورفع ملاك واحد قوي" (رؤ١٨: ٢١) وتتضح هذه القوة عندما نعلم أن ملاكا واحد قتل في ليلة واحدة مائة وخمسة وثمانون ألفا من جيش سنحاريب (أش٣٧: ٣٦). أما من ناحية الحكمة فهم ولا شك بحكم طبيعتهم وحياتهم ووظائفهم أكثر حكمة وإدراكا من الإنسان، إذ لا يعقل أن يعهد الله إليهم بأدق الأعمال دون أن تكون لهم الحكمة البالغة والفهم العظيم، ومن ذات المقارنة بينهم وبين الناس، وبين ذات الله نفهم أنهم كانوا وان كانوا حمقى بالنسبة لله ولكنهم اعلي إدراك ومعرفة بالنسبة للإنسان إذ قال اليفاز التيماني: "هُوَذَا عَبِيدُهُ لاَ يَأْتَمِنُهُمْ وَإِلَى مَلاَئِكَتِهِ يَنْسِبُ حَمَاقَةً. ١٩فَكَمْ بِالْحَرِيِّ سُكَّانُ بُيُوتٍ مِنْ طِينٍ الَّذِينَ أَسَاسُهُمْ فِي التُّرَابِ وَيُسْحَقُونَ مِثْلَ الْعُثِّ؟" (إي٤: ١٨-١٩). ومن ناحية العظمة فهم أعظم ولا شك من الإنسان، وان كانت هذه العظمة إلى حين حتى يبلغ الإنسان مجده، وعندئذ يعلو في المسيح إلى لمرتبة التي تضحى فيها الملائكة خداما أمامه..

أما عن الأخلاق فحدث ولا حرج إذ هم الملائكة القديسون الغيورون الطائعون الذين عندما يمثلون في حضرة الله يمكن أن يقال عنهم: "٢السَّرَافِيمُ وَاقِفُونَ فَوْقَهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ سِتَّةُ أَجْنِحَةٍ. بِاثْنَيْنِ يُغَطِّي وَجْهَهُ وَبِاثْنَيْنِ يُغَطِّي رِجْلَيْهِ وَبَاثْنَيْنِ يَطِيرُ. ٣وَهَذَا نَادَى ذَاكَ: «قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْجُنُودِ. مَجْدُهُ مِلْءُ كُلِّ الأَرْضِ». ٤فَاهْتَزَّتْ أَسَاسَاتُ الْعَتَبِ مِنْ صَوْتِ الصَّارِخِ وَامْتَلأَ الْبَيْتُ دُخَاناً."(أش٦: ٢-٤). فإذا كان الواحد من السيرافيم يغطي وجهه فذلك للاحترام والهيبة والطاعة، وإذا كان باثنين يطير فإنما ذلك للاستعداد والغيرة والالتهاب في تنفيذ المشورة الإلهية، وإذا كان هتافهم يتحدث عن شيء فإنما يتحدث عن الولاء المطلق والغيرة الكلية.

على انه من الخطى البين أن يؤخذ الإنسان ببريق هذه القوة أو الحكمة أو العظمة أو الأخلاق فيعطي من المركز ما لا يجد بهم أن يأخذوه، وقد ظهرت بدع حاربها الرسل في تعظيم الملائكة أو عبادتهم ومهما يقل بان هذه العبارة نسبية وغير مطلقة وغير مطلقة، فان الكتاب ضدها على خط مستقيم، وهي تعد تجديفا وإهانة لمجد الله ومركزه، بل إنها تهدد خلاص الإنسان كله، إذ هي نوع من الشرك والعبادة الوثنية، الم يقل الرسول بولس بوضوح محذرا الكولوسيين من التواضع الزائف

والتصاغر المجدف على مجد الله: " لا يخسركم احد الجعالة راغبا في التواضع وعبادة الملائكة" (كو٣: ١٨). بل الم يهتف الملاك نفسه للرائي الذي اخذ من جلال المنظر وعظمة الحديث وخر ليسجد له : " فَقَالَ لِيَ: «انْظُرْ لاَ تَفْعَلْ! أَنَا عَبْدٌ مَعَكَ وَمَعَ إِخْوَتِكَ الَّذِينَ عِنْدَهُمْ شَهَادَةُ يَسُوعَ. اسْجُدْ لِلَّهِ."(رؤ٩: ١١). أما ما هي الأعمال التي يقوم الالأقل:في السماء وعلى الأرض، فذلك ما يمكن إدراكه إلا في حدود، وعلى القدر من الضوء الذي شاء الله أن يعلنه لنا في الكتاب. ولعلنا نستطيع أن نرى منها على الأقل :

١- العبادة والسجود لله وإتمام مشيئته بكل رغبة وقوة ونشاط وابتهاج، ولقد قيل أن الله أرسل ملاكين إلى الأرض احدهما ليكون حاكم المدينة والأخر كناس شوارعها، لما حسد الأخير الأول، ولأدى كلاهما عمله بذات الغيرة والحماس والرغبة والوفاء والولاء لله!!.
٢- إعلان رسائل الله على الأرض مهما يكن نوعها وغايتها، فقد يرسل الملاك برسالة التشجيع والتقوية لأداء الواجب كما أرسل إلى جدعون (قض١٦: ١٢)، كما قد يرسل للتوبيخ (قض٢: ١) وقد يرسل أيضا بالبشارة المفرحة كما إعلان عن مجيء المعمدان وميلاد المسيح (لو١: ١١، ٢٦) فهو على إي حال قبل وبعد كل شيء رسول الله، مهمة إعلان رسالة الله للمرسل إليهم في الأرض.
٣- على أن للملائكة دورا أهم وأعمق من مجرد الإخبار والإعلان، إذ يرسل الله للعناية بالمؤمنين ورعايتهم وحراستهم وإنقاذهم، فقد قيل، : "ملاك الرب حال وينجيهم" (مز٣٤: ٧). "١١لأَنَّهُ يُوصِي مَلاَئِكَتَهُ بِكَ لِكَيْ يَحْفَظُوكَ فِي كُلِّ طُرُقِكَ. ١٢عَلَى الأَيْدِي يَحْمِلُونَكَ لِئَلاَّ تَصْدِمَ." بحجر رجلك، على الاسد والصل تطأ، والثعبان تدوس." (مز٩١١١-١٣). "أنْظُرُوا لاَ تَحْتَقِرُوا أَحَدَ هَؤُلاَءِ الصِّغَارِ لأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ مَلاَئِكَتَهُمْ فِي السَّمَاوَاتِ كُلَّ حِينٍ يَنْظُرُونَ وَجْهَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ."(مت١٨: ١٠). "٥٣أَتَظُنُّ أَنِّي لاَ أَسْتَطِيعُ الآنَ أَنْ أَطْلُبَ إِلَى أَبِي فَيُقَدِّمَ لِي أَكْثَرَ مِنِ اثْنَيْ عَشَرَ جَيْشاً مِنَ الْمَلاَئِكَةِ؟"(مت٢٦: ٥٣). وقد تدخلت الملائكة في إنقاذ أخيه في محنايم " (تك٣٢: ١-٢) وأنقذت شعب الله في الخروج والاستقرار في ارض الموعد" (خر١٤: ١٩، ٣٢: ٢٠-٢٣) وحرست اليشع وغلامه (٢مل٦: ١٦-١٧) وجاء الملاك لحراسة دانيال في جب الأسود (٦: ٢٢)..

والسؤال القائم هو، هل لكل مؤمن ملاك حارس خاص؟. ويعتقد البعض هذا استنادا إلى قول المسيح عن الملائكة الصغار، والمعتقد اليهودي الشائع الذي ظهر، ف قول المؤمنين عندما خرج بطرس من السجن وذهب إلى بيت أم يوحنا مرقس واخذ يطرق الباب وسمعته رودا الجارية: "١٤فَلَمَّا عَرَفَتْ صَوْتَ بُطْرُسَ لَمْ تَفْتَحِ الْبَابَ مِنَ الْفَرَحِ بَلْ رَكَضَتْ إِلَى دَاخِلٍ وَأَخْبَرَتْ أَنَّ بُطْرُسَ وَاقِفٌ قُدَّامَ الْبَابِ. ١٥فَقَالُوا لَهَا: «أَنْتِ تَهْذِينَ!». وَأَمَّا هِيَ فَكَانَتْ تُؤَكِّدُ أَنَّ هَكَذَا هُوَ. فَقَالُوا: «إِنَّهُ مَلاَكُهُ!». (أع:١٢ ١٤-١٦). ولكن العبارتين لا تقطعان بالأمر، أولا: لان عبارة المسيح جاءت في صياغة الجمع وليس ما يمنع أن يكون ملاك أو أكثر لرعاية صغار المؤمنين، كما أن العبارة الواردة عن ملاك بطرس كانت تسجل المعتقد اليهودي أكثر من الجزم بان لكل مؤمن حارسا خاصا، والمعتقد أن الله قد يرسل حارسا أو أكثر كما تشاء مسرته لكل مؤمن متضايق أو منكوب أو محزون أو ألمت به ملمة من ملمات الحياة! وسواء أكان للمؤمن ملاك حار خاص أو أكثر من ملاك، فان الأمر يتحدث عن مدى رعاية الله العجيبة التي تحيط بنا، ندري أو لا ندري على حد سواء، وقد حرص الكتاب أن يبقي دور الملائكة في العناية والرعاية دورا خفيا غير ملحوظ في حياتنا

حتى لا نغفل عن الحقيقة العظمى، أنهم ما هم – أفراد وجماعات – إلا خدام الله، أرسلهم الله لغاية معينة محددة، والمجد لا ينبغي أن يعطى لشخص الخادم بل لله الذي أرسله:

٤- خدمة الخلاص.. والخدمة الواضحة للملائكة على الأرض هي خدمة الخلاص، وفي ذلك شهرتهم العميقة الكبرى: "اَلْخَلاَصَ الَّذِي فَتَّشَ وَبَحَثَ عَنْهُ أَنْبِيَاءُ، الَّذِينَ تَنَبَّأُوا عَنِ النِّعْمَةِ الَّتِي لأَجْلِكُمْ، ١١ بَاحِثِينَ أَيُّ وَقْتٍ أَوْ مَا الْوَقْتُ الَّذِي كَانَ يَدُلُّ عَلَيْهِ رُوحُ الْمَسِيحِ الَّذِي فِيهِمْ، إِذْ سَبَقَ فَشَهِدَ بِالآلاَمِ الَّتِي لِلْمَسِيحِ وَالأَمْجَادِ الَّتِي بَعْدَهَا. ١٢ الَّذِينَ أُعْلِنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ لَيْسَ لأَنْفُسِهِمْ، بَلْ لَنَا كَانُوا يَخْدِمُونَ بِهذِهِ الأُمُورِ الَّتِي أُخْبِرْتُمْ بِهَا أَنْتُمُ الآنَ بِوَاسِطَةِ الَّذِينَ بَشَّرُوكُمْ فِي الرُّوحِ الْقُدُسِ الْمُرْسَلِ مِنَ السَّمَاءِ. الَّتِي تَشْتَهِي الْمَلاَئِكَةُ أَنْ تَطَّلِعَ عَلَيْهَا."(١بط١: ١٠-١٢). كما انه١٠).لذين هتفوا بمجيء المخلص على الأرض في أغنيتهم أمام الرعاة، وهم الذين يشاركون بغبطة توبة التائب كما قال السيد المسيح : "١٠هكَذَا أَقُولُ لَكُمْ يَكُونُ فَرَحٌ قُدَّامَ مَلاَئِكَةِ اللهِ بِخَاطِئٍ وَاحِدٍ يَتُوبُ».(لو١٥: ١٠).. وهم الذين أعطيت الشريعة بخدمتهم (أع٧: ٥٣)، (عب٢: ٢) ويحضرون اجتماعات العبادة، ومن ثم قال الرسول بوجوب الاحتشام والاحتراف في الصلاة: "١٠لِهذَا يَنْبَغِي لِلْمَرْأَةِ أَنْ يَكُونَ لَهَا سُلْطَانٌ عَلَى رَأْسِهَا مِنْ أَجْلِ الْمَلاَئِكَةِ."(١كو١١: ١٠). وهم أخيرا الذين يشتركون في المعركة الكبر بين الخير والشر وبين المسيح والشيطان، إذ أنهم يحاربون التنين وملائكته (رؤ١٢: ٧).. ما أكثر ما يحيطنا الله بالملائكة ونحن لا ندري!!..

الملائكة الأشرار

أما الملائكة الأشرار فهم ذلك الفريق الذي هوى وسقط من الملائكة كما أشرنا آنفا فاحتفظوا بطبيعتهم من حيث القوة والمقدرة والفهم، ولكن هذه الطبيعة إذا سقط صاحبها تحولت جميعا إلى الشر وخدمته، ورئيس الملائكة الأشرار إبليس، ومعنى الاسم المجرب أو المشتكي أو المخادع أو القاذف وله اسم الشيطان ومعناه المضاد أو المخاصم أو المقاوم أو الكامن، وقد أطلق عليه بعلزبول وهو في الأصل اله عقرون الإله الأعظم عند الفلسطينيين (٢مل٢: ١). ودعي الشرير (مت٤: ١١)، وبليعال (٢كو٦: ١٥)، ورئيس هذا العالم (يو١٢: ٣١) ورئيس سلطان الهواء (أف٢: ٢)، واله هذا العالم (٢كو ٤: ٤)، وقتال الناس وكذاب وأبو الكذاب (يو٨: ٤٤)، وأسد زائر (١بطه: ٨)، والحية (٢كو١١: ٣)، والحية القديمة (رؤ١٢: ٩) والتنين العظيم (رؤ١٢: ٣، ٩). ون هذه الألقاب وما جاء في الكتاب من أعمال الشيطان وغدره وتأثيره وضحاياه تتضح لنا عدة حقائق.

١- إن قوة الشيطان المادية هائلة ومخيفة، وتظهر هذه القوة في انه يستطيع أن يعصف ويحطم ويخرب كما ترك بيت أيوب حطاما ركاما، وكما يترك في أجساد الناس من أمراض و اوصاب وجنون وتشوهات!. ومن اللازم أن نوضح أن تأثيره هنا كأي تأثير أخر، لا يمكن أن يتم إلا في داخل نطاق الحدود والأوامر النهائية، إذ لا يمكن أن يأخذ قلامة ظفر من غير إذن الله!. وهذا واضح من قصة أيوب، كما هو واضح في قصص المجانين الكثيرة الذين شفاهم المسيح، وقصة مجنون كورة الجدريين الذي تركته الشياطين ليستقروا في الخنازير ويصرعوها، ولكن بأمر المسيح وسلطانه، وهذا يعود بنا مرة أخرى إلى القول بان الكثير من الأعمال الشيطانية التي تبين فيها القوة المادية المعجزية لا تظهر في كل عصور التاريخ بقوة واحدة، بل أن هذه الأعمال تظهر على وجه خاص عندما يريد الله أن يتمجد في إثبات الحق الإلهي أو الدين المعلن، فيسمح الله للشياطين أن يفعلوا بقوة وسلطان ما يتغلب هو عليه بقوته وكلمته الآمرة، كما سمح للعرافين أن يفعلوا أيام موسى حتى ينطقوا هم بأنفسهم عندما يرون معجزات الله الأقوى والأعظم

بأن هذه أصبع الله، وكما سمح بأن يظهر فعل الشيطان في أجسا الناس وفي أيام المسيح وفي العصر الرسولي لكي يظهر عمله وقوته الخارقة في شخص المسيح وفي أتباعه ورسله في إخراج الشياطين والانتصار عليها!!

٢- إن قوة الشيطان المعنوية وتأثيره في عقول الناس وأرواحهم ارهب وأروع، والتاريخ البشري هو المسرح الدامي لنواحيه القاسية المروعة! وعندما صنع الله جهنم لم يصنعها للبشر بل صنعها لإبليس وملائكته، وكل من سيدخل إليها من البشر إنما سيكون بفعل ذلك القتال للناس الذي من البدء يخطئ، فهو وراء كل دم وحرب وعار وقسوة وخزي وغدر وخداع ومرارة وبؤس ومرض وشقاء، من أول التاريخ البشري حتى البوق الأخير على الأرض، وهناك أشياء ما كان من المؤمن أن ينحدر إليها الإنسان ويسقط مهما أوتي من الضعف والضعة والانحطاط ما لم يدخله الشيطان، ويظهر هذا في أتم وضوح في أن يهوذا ما كان يرتكب أبشع خيانة في التاريخ دون أن يقال عنه : "وبعد اللقمة دخله الشيطان" (يو١٣: ٢٧).

٣- إن من صفات الشيطان وأعماله ما يستنفد كل قدرة وطاقة عند الإنسان! فهو الذي يورث الفوضى في كل مكان، ومع ذلك فهو في أعماله منظم غاية التنظيم بفرقه وجيوشه، وما لهذه الفرق والجيوش من رؤساء وأتباع وهو الذي يصنع كل انقسام، ومع ذلك فهو لا ينقسم على ذاته، ولا يمكن أن يحارب الشيطان شيطانا أخر. ولو تعلم المؤمنون من عدوهم هذه الحقيقة لما حارب بعضهم بعضا، ولما انقسموا إلى مذاهب وطوائف وشيع لا حد لها أو حصر، ولما ابغض الأبيض الأسود، أو الغربي الشرقي..

كما أن من صفات الشيطان أيضا العناد والمثابرة فهو لا يكل ولا يمل ولا ييأس، وحتى في أقسى المعارك وأدناها إلى اليأس والقنوط لا يمكن أن يتراجع أو يتردد أو يتخاذل، ولعل هذا نراه بكل وضوح في صراعه مع المسيح، إذ أنه بعد أن استنفذ تجاربه معه في البرية والهيكل وفوق الجبل، فارقه إلى حين وعاد له بهذا الأسلوب أو ذاك، وقاتله القتال المرير، وهو يعلم انه يدخل أقسى المعارك على الإطلاق، لكنه لا ييأس أو يفشل!! ولو ثابر المؤمنون في القتال والدفاع عن ملكوت المسيح مثل أو بعض هذه المثابرة لغزو الأرض قاطبة لسيدهم وملكهم العظيم!!

كما أن هناك صفة أخرى عنده يتسلح بها في الحرب كثيرا إلا وهي الاختفاء فهو الذي يزرع في البشر كل تعال وكبرياء، ويقضي على الكثيرين بإثارة الذات والاعتداد والغرور، ولكنه يحاول دائما أن يقنع الناس بأنه لا يوجد شيء اسمه شيطان على الإطلاق، ولو أدى الناس رسالتهم بهذا الاختفاء والتنكر لتغير وجه الأرض كثيرا!!

كما أن خداعه وغدره لا يمكن تصورهما، وفي قصة عربية قديمة قيل أن الشيطان جاء لرجل وقال له : أنت على وشك الموت، وأنا استطيع أن أنقذك من الموت بواحد من ثلاث طرق، أما أن تقتل خادمك، أو تضرب زوجتك، أو تشرب هذه الخمر. قال الرجل: دعني أفكر: أما أن اقتل خادمي فهذا مستحيل، وان اضرب زوجتي فهذا مضحك : اذاً سأشرب الخمر... وعندما شرب الخمر سكر وبدا يضرب زوجته، وإذ حاول الخادم أن يدافع عنها قتله!١.. ولا ننسى أن نذكر أيضا يقظته وسهره، إذ انه لا يعقل على الإطلاق في تتبع كل بشري في الليل والنهار وفي الصحو والنوم وفي العزلة والضجيج، وفي الثانية التي يتخلى فيها الله عن إنسان، في هذه الثانية بالذات يستلمه الشيطان، وهذا يفسر لنا معنى تقسي قلب فرعون إذ أن الكتاب ينسبه مرة إلى عمل الله ومرة ينسبه إلى الإرادة الحرة لفرعون، وفي الواقع أن الله إذ يترك إنسانا أو قلبا يستولي عليه الشيطان في الحال. كما يمكن على هذا الأساس فهم إحصاء الإسرائيليين الذي أمر به داود، إذ ذكر مرة انه نتيجة غضب الله على إسرائيل، وفي مرة أخرى عمل الشيطان، وفي الواقع أن

التعبيرين يلحق احدهما في الحال بالأخر، إذ ليس هناك مسافة أو قدر من الزمن بين الاثنين، فعندما يتخلى الله عن إنسان أول عمل يحل الشيطان ويأتي في الوقت نفسه، في الحال، إذ ليس هناك أيضا فراغ في الحياة الروحية كما في المادة سواء بسواء!. هذه وغيرها من الصفات الشيطانية الرهيبة ترينا مدى شناعة هذا العدو وقسوته ورهبته.

٤- إن الخلاص من الشيطان لا يمكن أن يتم إلا بالاستناد إلى من هو اقوي منه، وقد بين المسيح انه جاء إلى الأرض لينقض أعمال إبليس، وانه هو الذي يقاوم بأساليب متعددة في الخفاء والعلانية أعمال الشيطان، وان المعركة على الدوام محتدمة ولا تهدا حتى يسقط التنين وملائكته وحتى يطرح في بجيرة النار المتقدة ليصعد عذابه إلى الأبد. ومن جميل الرعاية الإلهية أن نرى شخص الله خلف المعركة القائمة بين أيوب والشيطان!!.. كما أن العناية الخفية هي بعينها التي قالت لبطرس الغافل عن التجربة المقبلة عليه وعلى زملائه : "٣١وَقَالَ الرَّبُّ: «سِمْعَانُ سِمْعَانُ هُوَذَا الشَّيْطَانُ طَلَبَكُمْ لِكَيْ يُغَرْبِلَكُمْ كَالْحِنْطَةِ! ٣٢وَلَكِنِّي طَلَبْتُ مِنْ أَجْلِكَ لِكَيْ لاَ يَفْنَى إِيمَانُكَ. وَأَنْتَ مَتَى رَجَعْتَ ثَبِّتْ إِخْوَتَكَ».(لو٢٢: ٣١، ٣٢).

حقا إن لكل مؤمن أن يقول في كل معركة ينتصر فيها على الشيطان: " حقا أن الرب في هذا المكان وأنا لا اعلم". وفي الواقع أن حلم البشرية الأكبر وحنينها الطاغي وفردوسها المنتظر، كل هذه مرصودة بالقضاء على هذا العدو الأكبر للجنس البشري فمن لنا بمن يغني : "٧وَحَدَثَتْ حَرْبٌ فِي السَّمَاءِ: مِيخَائِيلُ وَمَلاَئِكَتُهُ حَارَبُوا التِّنِّينَ. وَحَارَبَ التِّنِّينُ وَمَلاَئِكَتُهُ ٨وَلَمْ يَقْوُوا، فَلَمْ يُوجَدْ مَكَانُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي السَّمَاءِ. ٩فَطُرِحَ التِّنِّينُ الْعَظِيمُ، الْحَيَّةُ الْقَدِيمَةُ الْمَدْعُوُّ إِبْلِيسَ وَالشَّيْطَانَ، الَّذِي يُضِلُّ الْعَالَمَ كُلَّهُ - طُرِحَ إِلَى الأَرْضِ، وَطُرِحَتْ مَعَهُ مَلاَئِكَتُهُ. ١٠وَسَمِعْتُ صَوْتاً عَظِيماً قَائِلاً فِي السَّمَاءِ: «الآنَ صَارَ خَلاَصُ إِلَهِنَا وَقُدْرَتُهُ وَمُلْكُهُ وَسُلْطَانُ مَسِيحِهِ، لأَنَّهُ قَدْ طُرِحَ الْمُشْتَكِي عَلَى إِخْوَتِنَا الَّذِي كَانَ يَشْتَكِي عَلَيْهِمْ أَمَامَ إِلَهِنَا نَهَاراً وَلَيْلاً. ١١وهما غَلَبُوهُ بِدَمِ الْحَمَلِ وَبِكَلِمَةِ شَهَادَتِهِمْ، وَلَمْ يُحِبُّوا حَيَاتَهُمْ حَتَّى الْمَوْتِ."(رؤ١٢: ٧-١١). "٣وَسَمِعْتُ صَوْتاً عَظِيماً مِنَ السَّمَاءِ قَائِلاً: «هُوَذَا مَسْكَنُ اللهِ مَعَ النَّاسِ، وَهُوَ سَيَسْكُنُ مَعَهُمْ، وَهُمْ يَكُونُونَ لَهُ شَعْباً. وَاللهُ نَفْسُهُ يَكُونُ مَعَهُمْ إِلَهاً لَهُمْ. ٤وَسَيَمْسَحُ اللهُ كُلَّ دَمْعَةٍ مِنْ عُيُونِهِمْ، وَالْمَوْتُ لاَ يَكُونُ فِي مَا بَعْدُ، وَلاَ يَكُونُ حُزْنٌ وَلاَ صُرَاخٌ وَلاَ وَجَعٌ فِي مَا بَعْدُ، لأَنَّ الأُمُورَ الأُولَى قَدْ مَضَتْ». ٥وَقَالَ الْجَالِسُ عَلَى الْعَرْشِ: «هَا أَنَا أَصْنَعُ كُلَّ شَيْءٍ جَدِيداً». وَقَالَ لِيَ: «اكْتُبْ، فأن هَذِهِ الأَقْوَالَ صَادِقَةٌ وَأَمِينَةٌ».(رؤ٢١: ٣-٥).

الفصل الرابع عشر: إيماني بأصل الإنسان

كان ثلاثة من الشبان يزرون المتحف القومي بواشنطن،وقد توقفوا عند صندوق زجاجي به عدة أباريق زجاجية،اثنان منها ممتلئان ماء وبأخر مواد من جير وفسفور وحديد وكالسيوم، وبغيره أيدروجين ونيتروجين وأكسجين، وكتب على الصندوق رجل يزن مائة وخمسين رطلا وقال احدهم: "وهل هذا كل ما فيّ!؟ وهل لا يوجد ما هو أكثر!؟ " فأجاب رجلا كان واقفا إلي جوارهم: نعم توجد نسمة القدير التي تجعل من كل هذا أنسانا حيا!! " وما أجمل أن نقف إذا من هذا الإنسان من النواحي المختلفة المتعددة المتصلة بأصله ووجوده وطبيعته وسموه ورسالته، ولنعلم أن القدير لم يخلقه صدفة أو عارضا أو كما ثانويا أو مهملا بل خلقه لغاية رائعة عجيبة مذهلة للعقول، وها نحن أولا نتابع هذه الحقائق فيما يلي:

الإنسان ووجوده

متى وجد الإنسان على هذه الأرض؟ ومتى أبدع وخلق؟ هذا هو السؤال الذي اختلفت إجابة الناس عليه اختلافا متباعدا كبيرا حسبما أتيح لهم من فهم أو ما توصلوا إليه من نور.

فهناك اللادريون الذين يخرجون عن نعم ولا بلا ادري.. فهم لا يعلمون كيف وجد الإنسان أو خلق، ومع ذلك فقد طرحهم اليأس من الفهم إلي القول بأنه لابد أن يكون صادر عن قوة مجهولة، وان تكون هذه القوة غير قوة الله المعلن عنها في الكتاب المقدس، ونحن لا نعلم كيف أتيح لهم أن يقطعوا بهذا وهم في طبيعتهم لا ادريون. والبس هذه مناقضة في حد ذاتها للادرية الجاهلة!.. وهناك الحلوليون الذين يعتبرون كل شيء في الكون جزء من الله لان الكون هو الله، فالإنسان بذلك جزء من هذا الكون، كما إن الغصن جزء من الشجرة وكما إن قطعة الأثاث جزء من البيت، وقد بيننا انحطاط وسخافة هذا الرأي عندما تحدثنا عن إلوهية الكون،كيف لا وهناك فارق حاسم تصرخ به كل ذرة في الكون بين الإنسان والجماد أو الحيوان على حد سواء؟!

وهناك الماديون الذين لا يعتقدون بإلوهية الكون، ولكنهم في الوقت نفسه يعتقدون إن الإنسان نشا عن التطور المادي خلال ملايين السنين حتى انتهى إلي ما وصل إليه من دون تدخل خالق على الإطلاق، وقد بينا فساد هذا الرأي عند مناقشة الخليقة، كما إن صعوبة تصوره اقسي واقدح من تصور وجود خالق خلق الإنسان. وإذا اتضحت صعوبة هذا الرأي أمام الكثيرين اضطروا إلي القول بان الخالق انشأ الجرثومة الأولى للكائنات، ثم ترك هذه الجرثومة لنفسها تتوالد وتتنوع وتتفرع حتى انتهت إلي ما انتهت إليه من ملايين الجراثيم.

وقد اخذ دارون بهذا الفكر استنادا إلي ما اسماه : " قانون الانتخاب الطبيعي وبقاء الأنسب" مما ذكرناه أنفا عند مناقشة الخليقة، والظاهر إن دارون قد اضطر اضطرارا إلي أن يدخل الإنسان في نطاق هذه النظرية، دفعا لما يمكن أن ينشا من اعتراض على تكاملها وصحتها، وقد خبا لمعان هذه النظرية، الأمر الذي اشرنا إليه في حينه عند الكلام عن الخليقة والعلم لسير اوليفر لودج مما لا نحتاج معه إلي مزيد من التكرار، وكل ما يمكن أن نشير إليه إلي إن إتباع دارون قد اختلفوا فيما بينهم في الأمر، فمنهم من حاول أن يخرج الإنسان إطلاقا من النظرية، كولس الانجليزي، لما لاحظه من ضعف النظرية وقصورها في التطبيق على الإنسان، ومنهم من حاول أن يثبت موافقة النظرية للكتاب المقدس على الزعم بان القصة الكتابية كلها أما إنها قصة رمزية أو تمثيلية، أو إنها لم تكن تناقش حقائق علمية، ولعل هذه المحاولات نفسها هي أول البراهين على المناقضة الصريحة بين قصة الكتاب ومزاعم الدارونيين، ومنهم أخر الأمر من لم يجد بد من الإعلان الصريح بالتخلي عن الكتاب والتمسك بالنظرية المذكورة، لأنه لا يمكن أن يلتقي الاثنان في الفكرة أو الاتجاه أو الغاية.. وعلى أي حال، فان القصة الكتابية تزداد كل يوم وضوحا وثباتا إذ تجد تأييدها من الاكتشافات العلمية، على العكس من النظرية الداروينية التي أخذت فيها معاول الهدم، ولعل تحسن الإشارة هنا لاشى أقوال أخر العلماء بهذا الصدد، إذ قال البروفسور جورج ميفرت : " إن الإنسان يرتفع عن القرد كما يرتفع القرد على ورقة من أوراق الحشائش" كما إن جون فيسك عبر تعبيرا مماثلا بالقول: " انه لا مندوحة عن قسمة الكون إلي قسمين، الإنسان في جهة وبقية المخلوقات في جهة أخرى".. وعندما تأمل لورد كالفن الإرادة الحرة في الإنسان قال: " إن كل عمل من أعمال الإرادة الحرة هو خارقة في الإنسان لا يمكن ربطها بعلم الطبيعيات".

فإذا أضيف إلي هذا إن الإنسان تفرد عن بقية المخلوقات والحيوانات ببعض حقائق واضحة، فمن ناحية البنية والتركيب هناك مسافة لا يمكن عبورها بين جمجمة الإنسان البدائي واعلي أنواع القرود، إذ تبلغ جمجمة الإنسان البدائي ثلاثة إضعاف جمجمة الغوريلا، كما إن عقل الإنسان مقطوع الصلة ومن غير نظير أو مثيل في جميع المخلوقات أو الحيوانات القائمة على هذه الأرض، ولا يمكن ربطه متقرب أو من بعد ببعض التصرفات أو الانفعالات الغرائزية في أفضل الحيوانات... فإذا انتقلنا إلي الجانب الأدبي في الإنسان ونزعة الإحساس بالخير أو الشر التي لا يمكن أن تعدم أو تنكر حتى في رجل الأدغال البدائي، وقوة وصلة الضمير في البشر على مختلف العصور والأجناس، تبين إن الإنسان كانسان هو قطعة فريدة في ذاته في الخليقة يصح معها القول: إن القصة الكتابية المتحدثة عن خلق الإنسان في الأرض هي وحدها الجديرة بكل ثقة ويقين، وإنها المرجع الأول عن كل فهم صحيح عن هذا المخلق، الذي أبدعه الله ليحمل في ذاته ومعه أروع قصة سطرت في هذا الوجود!!..

الإنسان وخلقه

والقصة الكتابية تكشف عن عدة حقائق أساسية جديرة بكل تأمل وتفكير في خلق الإنسان إذ ترينا:

١- افتراق الإنسان في الخلق عن بقية المخلوقات، إذ إن هذه كان الإنسان يقول لها: "لتكن" فتكون على العكس من الإنسان الذي قال إزائه الله: "نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا" (تك١: ٢٦). وقد اختلف الشراح في المقصود بصيغة الجمع الواردة في هذه العبارة، فذهب البعض إلي إنها دليل التعظيم والإجلال اللائقين بشخص الله، وهو دليل ضعيف فيما نعتقد، لان صيغة الجمع لم تظهر في صيغة البشر كدليل التعظيم والإجلال عند الملوك وغيرهم من السادة والعظماء إلا في وقت متأخر نسبيا من التاريخ. ولو صح هذا المعنى لكانت كل كلمة تقال عن الله أو توجه إليه تعالى ترد في صيغة الجمع، لأنه هو المنفرد

في عظمته الدائمة الأبدية.. وذهب آخرون إلي إن الله كان يخاطب الملائكة، وذهب غيرهم إلي انه كان يتحدث إلي الأرض ذاتها وما بها من مخلوقات، على إن الرأي الأرجح إن المقصود بصيغة الجمع هو إن الله يتحدث إلي ذاته في الثالوث الأقدس العظيم، وان الإنسان بهذا المعنى لم يخلق كغيره من المخلوقات السابقة، بل جاء نتيجة تدبير ومشورة وحكمة إلهية خاصة تجعله فريدا في بابه في كل الخليقة.

٢- مماثلة الإنسان وشبهه لله، وإذا كان الإنسان قد انفرد في الخليقة عن سائر المخلوقات، فانه قد اقترب إلي الخالق وصنع على صورته وشبهه، والسؤال القائم ولا شك هو: كيف يمكنان يكون الإنسان على صورة الله وشبهه!؟ وإذا كان من المتفق عليه إن الصورة والشبه يفيدان معنى واحد، وإذا كانت كلمة ألسبه تعتبر تأكيدا وتخصيصا للصورة، إذ تعبر عن التماثل القوي القائم بين الأصل والصورة، إلا إن الخلاف قام على نوع التماثل القائم بين الله والإنسان. وقد اتفق الجميع عل استبعاد التماثل في الجانب المادي إذ أن الله منزه عن اللحم والدم، وهذا أم بديهي ولا شك، لا يمكن أن يثور معه نزاع ما.. غير أن الخلاف ظهر عندما حاول البعض أن يحددوا هذا التماثل في الثالث في الله، والثالوث في الإنسان إذ قالها انه كما إن الله الواحد له ثلاثة اقانيم هي الأب والابن والروح القدس، هكذا الإنسان له نفس وروح وجسد، هذه الثلاثة تكون شخصا واحدا، وقد أبى الكثيرون أن يسلموا بهذا التشبيه لقصوره شكلا وموضوعا عن تعيين التماثل بين الإنسان والله، إذ إن النفس والروح والجسد ليست في ذات المساواة القائمة بين الأب والابن والروح القدس في الجوهر الإلهي العظيم، كما إن العلاقة القائمة بينهم جميعا تقوم على التدرج فالجسد أدنى الجميع، وفي خدمة الكل، والروح أعلاها مما يمتنع معه التشبيه من هذا القبيل.. ضاف إلي ذلك إن الكثيرون لا يسلمون على الإطلاق بان الإنسان ثلاثي الطبيعة يقوم على ثلاثة عناصر هي النفس والروح والجسد، بل هو ثنائي يقوم على اثنين لا ثالث لهما، هما الجسد والروح، وانه إذا كان قد جاء في الكتاب ألفاظ مختلفة عن النفس أو الروح فان الاثنين يفيدان معنى واحد. ولعل الأمر يزداد وضوحا متى تأملنا مدلول الكلمات الثلاثة للجسد والنفس والروح، فالجسد مثلا قد يشير:

١- إلي الجنس البشري كله أو الطبيعة البشرية بما فيها من نفس وروح كما قيل: "لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان الاثنان جسدا واحدا" (تك٣: ٢٤) "ولو لم يقصر الرب تلك الأيام لم يخلص جسد" (مر١٣: ٢٠) " الكلمة صار جسدا" (يو١٤:١) أي أصبح إنسانا ذا طبيعة بشرية!١ "والخبز الذي أعطي هو جسدي الذي ابذله من اجل حياة العالم" (يو٦:٥١).

٢- كما انه يشير إلي الفكر أو المجهود أو النشاط البشري في مواجهة الحق الإلهي كالقول: "إن لحما ودما لم يعلن لك" (مت١٦: ١٧) "لم استشر لحما ودما" (غل١: ١٦).

٣- كما قد تشير إلي المادي والأدنى في مواجهة الروحي والأعلى: "نحن السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح" (رو٨: ٤) "فإذا أيها الإخوة نحن مدينون ليس للجسد لنعيش حسب الجسد" (٢كو١٠: ٢). ومن هذا نفهم إن الجسد قد يشير إلي معنى جزئي في كيان الإنسان كله.

ومثل هذا يمكن أن يقال عن النفس أيضا، أكثر من معنى فقد جاءت:

١- إشارة إلي النفس كما قيل عن لوياثان: "نفسه يشعر جمرا ولهيب يخرج من فمه" (أي٣١: ٢١) أو كما قبل "ويتنفس ابن أمتك" (خر٢٣: ١٢) "وفي اليوم السابع استراح وتنفس" (خر١٧:٣١) وهذه الكلمات قد وردت في الأصل لذات الكلمة نفس أو مشتقاتها.

٢- كما إنها تعني أيضا الكائن الحي: "فصار ادم نفسا حية" (تك٣: ٧) "وكل ما دعا به ادم ذات نفس حية فهو اسمها" (تك٢: ١٩).

٣- كما قد يقصد بها الحياة ذاتها: "واطلب أنا دمكم لأنفسكم فقط من يد كل حيوان واطلبه من يد الإنسان واطلب نفس الإنسان "(تك ٩: ٥) "صنعت لطفا باستبقاء نفسي" (تك١٩: ١٩) "مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك" (خر١: ١٩) "وإذا حصلت أذية تعطى نفسا بنفس" (خر١٢: ٢٣) "لأنه قد مات الذين يطلبون نفس الصبي" (مت ٢: ٢٠) "وليبذل نفسه فدية عن كثيرين" (مر١٠: ١٥).

٤- وتعني النفس أيضا الأشخاص كأشخاص: "فقال ملك سدوم لابرام أعطيني النفوس" (تك١٥: ٢١) "فقد أذنبت تلك النفس" (عد٥: ٦).

٥- وقد تعني الذات: "لتمت نفسي موت الأبرار" (عد٢٢: ١٠). لتمت نفسي مع الفلسطينيين" (قض١٦: ٢٠) " يا أيها المفترس نفسه في غيظه" (أي١٨: ٤) "على أيوب حمى غضبه لأنه حسب نفسه ابر من الله " (أي٣٢: ٢).

٦- وقد تعني تعبيرا عن مركز الشهوات والغرائز الجسدية: "وليس لنفسه عوز من كل ما يشتهيه" (جا٦: ٢) "وكل تعب الإنسان لفمه ومع ذلك فالنفس لا تمتلئ" (جا٦: ٧).

٧- وقد تشير إلي كونها مركز العاطفة: "ولا تضايق الغريب لا نقم عارفون نفس الغريب" (خر٢٣: ١٩) "لأنه فقير واليه حامل نفسه إلي يصرخ عليك إلي الرب فتكون عليك خطية" (تث٢٤: ١٥).

وقد تشير إلي العلاقة بالخلود: "نفوس الذين قتلوا" (رؤ٦: ٩) " ورأيت نفوس الذين قتلوا" (رؤ٢٠: ٤).

وأما الروح فقد تستعمل في ذات التعبير الذي تدل عليه النفس كما قيل في أيوب: "الذي بيده نفس كل حي وروح كل البشر" (أي١٢: ٤).

١- والروح هنا في الأصل "نسمة" وكما قيل: "لان الروح يغشى عليها أمامي والنسمات التي صنعتها" (اش٥٧: ١٦).

٢- وقد جاءت إشارة إلي النسمة: "كل ما في انفه نسمة روح حياة من كل ما في اليابسة مات "(تك٧: ٢٢) "من يعلم روح بني البشر هل هي تصعد إلي فوق وروح البهيمة هل تنزل إلي أسفل الأرض" (جا٣: ١٢)

٣- كما تشير إلي نوع الحياة الروحية للإنسان أو الاتضاح: "وقبل السقوط تشامخ الروح. تواضع الروح مع الدعاء. تواضع الروح مع الدعاء خير من غنيمة" (أم ١٦ : ١٨، ١٩) أو الحكمة او الفهم " ويشوع ابن نون كان قد امتلأ روح الحكمة" (تث٢٤: ٩) أو الإحساس بالضعف أو النقص أو المسكنة إزاء الله: "طوبى للمساكين بالروح لان لهم ملكوت السموات" (مت٥: ٢).

ومن المسلم به على أي حال أن الروح تشير في الإنسان إلي السمو والقمة في كيانه الشخصي، فإذا ما عدنا للتاء بعد ذلك هل الإنسان ثنائي التكوين أم ثلاثي لكان الجواب إن ظاهر النص يقف إلي جانب الثلاثة، إذ يقول الرسول : "٢٣وَإِلهُ السَّلاَمِ نَفْسُهُ يُقَدِّسُكُمْ بِالتَّمَامِ. وَلْتُحْفَظْ رُوحُكُمْ وَنَفْسُكُمْ وَجَسَدُكُمْ كَامِلَةً بِلاَ لَوْمٍ عِنْدَ مَجِيءِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ.(١تس٥: ٢٣) ومن ثم فقد فرق ترتليانوس بهذا الصدد: "أن الجسد جسم النفس وان النفس جسم الروح" وقال غيره: "إن الجسد مركز الإحساس النفسي، والروح مركز الإدراك الإلهي".

غير انه قد تبين لنا من الدراسة الشاملة للنفس والروح والجسد إن هذه التفرقة غير حاسمة، وان النفس والروح قد تشيران إلي معان متبادلة، وان كانت الروح تشير على الوجه الأشهر إلي النفس في علاقتها الروحية بالله، بينما تشير النفس مجردة إلي الحياة في نشاطها وحركتها وانفعالاتها الحسية والعاطفية، مما شجع على القول إلي صلاة الرسول للتسالونيكيين بقصد منها أن يحفظوا جسدا ونفسا بكل ما في النفس من مشتملات، وعلى وجه اخص الروح التي هي الجانب الأعلى في النفس والكيان الإنساني كله... والذي يشجع على قبول هذا الرأي إن التفصيل الوارد في العبرانيين أيضا، والذي ترادف فيه القول: "مفرق النفس والروح والمفاصل والمخاخ" يمكن أن يشير في الشطر الأول منه إلي الجانب الروحي، بالمقابلة مع الشطر الثاني، والذي تدخل فيه المخاخ والمفاصل في نطاق الجسد، وان كان التعبير في كلا الشطرين قد ورد على وجه التفصيل والتخصيص لا الإجمال والتعميم كمثل القول: "وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك" (مر١٢: ٣٠) ومع إن القلب والنفس والفكر والقدرة ليست بالضرورة عناصر مستقلة بعضها عن بعض تمام الاستقلال، وان كانت تعبر بالبداهة عن معان خاصة لكل منها. يضاف إلي هذا إن قصة خلق الإنسان تتحدث عن عمليتين واضحتين احدهما خاصة بالجسد والأخرى خاصة بالنفس وليس عن ثلاثة، كما إن مصير الإنسان مرتبط أيضا بعمليتين مشابهتين أخريين : "فيرجع التراب إلي الأرض كما كان وترجع الروح إلي الله الذي أعطاها" (جا١٣: ٧) مما يقطع أن الإنسان ثنائي الطبيعة، وان كانت النفس في علاقتها الروحية مع الله يجوز أن يطلق عليها على وجه التخصيص أو التحديد الروح.

وعلى أي حال فان التماثل بين الله والإنسان مستبعد من هذه الوجهة. والرأي المسلم به إن التماثل قائم أولا بين الإنسان كشخص وبين الله كشخص، وان للإنسانية مقومات الشخصية الثلاثية. الفكر، والشعور، والإرادة، مع هذا الفارق الحاسم إن الله له هذه المقومات في كمالها اللانهائي الذي اشرنا إليه في دراستنا عن طبيعة الله (صفحة ٤٩)بينما يجوزها الإنسان في المعنى الجزئي المحدود، ويكفي الإنسان مجدا أن يكون على صورة الله وشبهه في هذه كلها، مهما يكن الفرق بينهما كالفرق بين شعاعة النور والشمس الكاملة، على أن التماثل قائم أكثر من ذلك بين الإنسان من الوجهة الروحية وبين الله، أن الإنسان لا يمكن أن يستريح أو يهدا أو يشبع بعيدا عن الله ولو أعطيته الدنيا بأكملها! الم يقل اوغسطينوس لله قولته المشهورة وهو يمجده كخالق " لقد خلقتنا لنفسك وقلوبنا لن تجد الراحة إلا بين يديك".فإذا انتهينا من هذا كله عنا لنذكر كيف خلق الله الإنسان جسدا ونفسا وروحا، أما الجسد فقد خلقه من تراب الأرض إذ يقول الكتاب : "وجبل الرب الإله ادم ترابا من الأرض" (تك٢: ٧).

ومن الملاحظ أن كلمة " جبل" هي ذات أكلمة التي تشير إلي عمل الفخاري المذكور في سفر ارميا، وهنا تبدو المقارنة واضحة، إذ أن الله هو الفخاري الأعظم، وان الإنسان بين يديه هو الكتلة من الطين التي يشكلها كما يشاء وكيفما يريد، أما

النفس فقد جاءت من نفخة القدير ونسمته إذ قيل: "ونفخ في انفه نسمة حياة فصار ادم نفسا حية" (تك٢: ٧) وهذه النسمة هي التي أكسبته الحياة والروحانية والخلود. ولعل هذا هو الذي يدعونا للهتاف مع شكسبير:

أي قطعة من العمل هذا الإنسان؟

كل هو رائع في عقله!!

لانهائي في ملكاته!!

وفي صورته وحركته!!

وكم هما مندفع ومثير!!

في أعماله كملاك!! وفي إدراكه كاله!!

الإنسان ورسالته

على أن السؤال الهام والأخير هنا: لم خلق الإنسان؟ ما الرسالة التي عليه أن يؤديها؟ يبدو أن قصة الخل تشجع على أن رسالة الإنسان الموضوعة له من الله كانت:

١- **الشركة مع الله:** إذ أن الله وضعه في الجنة وأحاطه بمختلف الظروف والأحوال التي تمكنه من الشركة، وقد تبين لنا وان كان عنصر من التراب، إلا أن عنصره السماوي من نفخة الله، وان ذات الكلمة "إنسان" تعني في اللغة اليونانية "المرفوع النظرة" وفي اللغة الانجليزية "الكائن المفكر" وعند علماء فلسفة اللغات "الكائن النبيل الطالعة". فإذا أضيف إلي ذلك أن مستواه الأدبي كان رائعا وممتازا إذ يقول الكتاب في وصف حالته الأولى: "أن الله صنع الإنسان مستقيما" (جا٧: ٢٩) اتضح لنا ولاشك انه تمتع قبل سقوطه في الخطية بأجمل وأبدع مظاهر الشركة مع الله. وإذا كان يلتقي بالله في الجنة كما يلتقي الابن بابيه المحب الودود، ومع إننا لا نستطيع أن نقطع على وجه الإطلاق كم بقي الإنسان على هذه الحالة – وان كنا في الوقت ذاته نستبعد التقليد القائل انه لم يبق في الجنة سوى يوم واحد – إلا إننا يمكننا القول بأنه كان على حال من الإدراك العقلي والاستعداد الأدبي تمكنه من الشركة الممتازة مع الله، فلم يكن كما توهمه البعض، أو صوره، في صورة الإنسان البدائي الساذج، أو الوحش رجل الأدغال، إذ لا يمكن أن يكون هكذا، وهو المصنوع في الصورة الرائعة التي أجملناها فيما سبق، وله القدرة التي أمكنته من أن يطلق على جميع بهائم الأرض وطيور السماء وحيوانات البرية الأسماء التي دعيت بها فيما بعد!!. على انه من الواجب إلا نغرق في الخيال في الوقت ذاته فنذهب مذهب التقليد اليهودي القائل بأنه أوتي من الحكمة ما لم يؤته الأولون والآخرون!!. لقد خلقه الله في الجنة ليعملها ويحفظها، وبذلك تكون ميدان ومجاله ونموه العقلي والأدبي على حد سواء.. وعلى أي حال فان رسالته الأولى كانت التعبد والشركة والقدسية المجيدة مع الله!!..

٢- **الوكالة عن الله:** وأما رسالته الثانية فكانت الوكالة والنيابة عن الله، إذ أعطاه الله السلطة والسيادة على جميع المخلوقات الأرضية ليكون حاكم الأرض، ووكيل الله عنها، ومن هنا ندرك أن السلطة المعطاة له، لم تكن لمجرد الإمتاع واللذة، بل كانت لخيره وخير المخلوقات معا، أو كما قال جورج ادم سميث: "أن علاقة الإنسان بالحيوان نوع من العناية فهو يرعاها بحكمته فلا تهيم، وهي تخدمه وتعينه". ومن هنا ندرك مدى امتياز الإنسان، ومسئوليته الكبرى، وهل هناك امتياز اعلي أو اسمي من

أن يكون وكيل الله وممثله على الأرض!؟ وان كان في الوقت عينه يحمل في مواجهة هذا الامتياز، المسئولية الكبرى المماثلة... وقد زود الله الإنسان بكل ما يجعله يرحب بهذا الامتياز، ويقدر هذه المسئولية، ومن ثم فمن الحماقة أن يقال أن الإنسان الأول قد جبل بدون صفات أدبية كما زعم البيلاجيون ممن صوروه على الحياد بين الخير والشر، دون حب أو رغبة في هذا أو ذاك.. الأمر الذي لا يستطاع تصوره ما دمنا نؤمن انه خلق على صورة الله وشبهه، وانه بذلك لابد أن يكون قد خلق مزودا بالميل الأدبي والروحي لكل بر وحق وقداسة وخير!!.

ومن لا يقول بعد هذا كله مع دكتور ديان عندما قال: "إني ارفض أن أتنازل عن عظمتي وسيادتي في مواجهة الكون المادي، إذ إني أعظم من الشمس وأعظم من البحر، وأعظم من الكواكب، وأعظم من النجوم، أعظم منها جميع، إذ إنها خاضعة لي، وأنا سيد، وهي مربوطة وأنا حر" أو مع المرنم: "٤فَمَنْ هُوَ الإِنْسَانُ حَتَّى تَذْكُرَهُ وَابْنُ آدَمَ حَتَّى تَفْتَقِدَهُ! ٥وَتَنْقُصَهُ قَلِيلاً عَنِ الْمَلاَئِكَةِ وَبِمَجْدٍ وَبَهَاءٍ تُكَلِّلُهُ. ٦تُسَلِّطُهُ عَلَى أَعْمَالِ يَدَيْكَ. جَعَلْتَ كُلَّ شَيْءٍ تَحْتَ قَدَمَيْهِ. ٧الْغَنَمَ وَالْبَقَرَ جَمِيعاً وَبَهَائِمَ الْبَرِّ أَيْضاً ٨وَطُيُورَ السَّمَاءِ وَسَمَكَ الْبَحْرِ السَّالِكَ فِي سُبُلِ الْمِيَاهِ. ٩أَيُّهَا الرَّبُّ سَيِّدُنَا مَا أَمْجَدَ اسْمَكَ فِي كُلِّ الأَرْضِ! (مز٨: ٤-٩).

الفصل الخامس عشر: إيماني بسقوط الإنسان

في قصة خيالية أن احدهم تخيل نفسه وكأنه يقف إلى جانب أمنا حواء عندما مدت يدها لتأخذ الثمرة المحرمة من شجرة معرفة الخير والشر، وإذا به يصيح: إي أمنا حواء! انك لا تعلمين ماذا تفعلين؟ انك تظنين إن لا شيء سيحدث على الإطلاق من مجرد ثمرة تأكلينها ويأكلها زوجك؟ ولكنك لا تعلمين انك ستقودين الموكب البشري بأجمعه إلى بحار من الدم والدموع والعرق والتعاسة والشقاء. إن ملايين الملايين من أبنائك سيصرخون في شتى العصور والأجيال من وراء هذه الأكلة صرخات الوجع والألم والمرض والعار، في أنين مروع وحزن رهيب!. بل هل ذكرت أكثر من هذا كله منظر ابن الله في جيثسيماني وهو منبطح على وجهه ينضح بالعرق الممزوج بالدم حيث كان عليه أن يحتمل الآم الورى وتعاسات الناس!؟ وهل عرفت بان أخر الأمر بان فريقا من أبنائك سيقضى عليه في عذاب دائم إلى ابد الآبدين!؟. إي أمنا حواء ارفعي يدك عن أكل الثمرة!.

غير أن حواء أكلت وأعطت زوجها فأكل! وسقطا! وسقط الجنس البشري كله بالتبعية والوراثة من جراء هذا السقوط. وها نحن الآن سنتابع القصة بشيء من عمق التأمل وأصالة التفكير فتعلم لماذا امتحن الأبوان الأولان؟ وما معركتهما التي خاضاها؟ وكيف سقطا؟ وما اثر هذا السقوط عليهما وعلى أبنائهما من بعد؟ وما العقاب المحتوم الذي أضحى على البشر أن يلاقوه في سيرهم مع الأجيال. وهل من رجاء أو بارقة أمل تلاحق الإنسان في هذا السقوط؟.

ويمكن معرفة هذا كله إذا تابعنا الأمر فيما يلي:

الإنسان وامتحانه

وهل كان من الضروري أن يمتحن الله الإنسان؟ ولماذا وضع الله في طريقه هذه الشجرة وحرم عليه في الوقت ذاته أن يأكل منها؟ وإذا أضيف إلى ذلك إن الله كان ولا شك يعلم مقدما بسقوط الإنسان فهل يكون بعد هذا الامتحان مبرر؟ وهل يتفق هذا مع جود الله وحنانه وحبه ورحمته؟.

هذه أسئلة كثيرا ما تمسك بالفكر البشري وتتابعه وتلح عليه وتضغط على ملكاته جميعا! ومع إننا لا نستطيع الإجابة عليها إجابة شافية شاملة. إلا إننا نستطيع مع ذلك أن نؤكد أن هناك على الأقل عاملين أساسيين يلزمان ويحتمان بهذا الامتحان، أولهما: إن امتحان إنسان كان لابد أن يمتحن، لقد تدرج إليه في الخليقة فصنع الجماد الذي لا يحس أو يشعر، ثم صنع النبات الحي المجرد من الغرائز دون فهم أو عقل. وأخر الأمر صنع الإنسان الحي العاقل الحي العاقل الحي المريد! وكان لابد أن

ينشأ تباعا لهذا كله التفرقة بين هذه المخلوقات، وكان لابد أن ينشأ فيها التقابل المستمر بين الوظيفة والعضو. والامتياز والمسئولية! فكما علت أعضائها وامتيازاتها زادت تباعا لذلك وظائفها ومسئوليتها. والإنسان الذي بلغ اعلي مراتب الخليقة في الأرض كان لابد أن يقع على الجانب الأخر مما يطلب أو ينتظر من هذه الخليقة أيضا! ومن ثم وقع عليه الامتحان الأدق والأعسر فيها جميعا. فإذا انفرد الإنسان من هذه المخلوقة بملكة الإرادة الواعية العاقلة المقتدرة. كان لابد لهذه الإرادة أن توجد بما تختار أو يظهر فعلها بما تقبل أو ترفض. ومن ثم زرع الله مقابلها شجرة معرفة الخير والشر لتعرف كيف تتحرك وتنشط وتدرب ذاتها على قبول الخير ورفض الشر. فالإرادة والامتحان من وجه الطبيعة الإنسانية يقفان أو يسقطان معا على وجه الحتمية والتلازم، ولا يمكن أن يطلب ظهور احدهما دون الأخر أو قيام الأول دون الثاني!!.. فالذي يقول بعد ذلك. وهل كان من الضروري للإنسان أن يمتحن؟ كأنما يريد القول، يدري أو لا يدري، وهل كان لابد للإنسان أن يكون أنسانا!؟ فإذا كان الله قد صنع الإنسان على هذه الصورة وجعله في مثل الوضع المرسوم له، كان من مستلزمات الأشياء وطبيعتها أن يضع أمامه الامتحان المتعلق بإرادته.

ثانيا: إن امتحان الإنسان ضرورة تمليها الطبيعة الإلهية! فعدالة الله كانت لابد أن تفعله، إذ إن الله يودع، ويطالب على الدوام بما يقابل ما يودع، والذي يودعونه كثيرا يطالبونه بأكثر، كما إن العدالة الإلهية التي امتحن الملائكة لتحديد مصيرهم ومراكزهم كان لابد أن تفعل مع الإنسان ذي الإرادة المماثلة... ثم إن محبة الله وجوده ورحمته كان من المحال أن تظهر في أروع صورها وأمجدها من غير هذا التدخل الذي حدث في حياة الإنسان الساقط، فمن السهل أن نرى محبة الله في شتى مظاهرها ونحن أبرار قديسون طائعون، ولكن أدق محبة وأعمقها تكشف فقط عند السقوط أو الانهيار والخطية.. كما إن جود الله قد يظهر مع هذا أو ذاك فمن يتممون مشيئته ويصغون إلى إرادته، ولكن الجود أعمق الجود يظهر عندما يكون الإنسان غير مستحق أو غير أمين... كما إن رحمة الله قد تظهر في اجل وأبهى صورها عندما يحف بنا الضعف، أو يظهر ويبين في الخطية القاسية والإثم العظيم... على إن هذا لا يعني انه كان لابد أن يسقط بالضرورة حتى تظهر هذه الصفات الإلهية كلها، بل المقصود إن طبيعة الله تكشفت في امجد وأروع مظاهرها في ملاحظة هذا الامتحان ومتابعة نتائجه!! إذ إن طبيعة الله اللانهائية تسبقه وتلحقه وتحيط به من كل جانب وفي كل مظهر وزمان... حقا أن طبيعة الإنسان وطبيعة الله تقتضيان معا هذا الامتحان وتحتمان وتلزمان به.

الإنسان ومعركته

وفي معركة الإنسان لابد لنا من أن ندرك مدى الظروف الطيبة أو المعاكسة التي تحيط به ومدى ما له من استعداد للدخول فيها، وطبيعة المعركة أو التجربة التي عليه أن يصارع أو يكافح فيها. وكيف انتهت بالفشل أو الفوز على حد سواء!! وقد أعطانا الكتاب لمحات دقيقة من هذه كلها!!.. أما من حيث الظروف فما لاشك فيه إن جميع الظروف كانت إلى جانب الإنسان. إذ إن الله وضعه في "جنة" في بقعة هي أجمل بقاع الدنيا وأروعها، وأحاطه بكل ما يمكن أن يجعله هادئا أمنا ناعما مستريحا، ولم يحرم عليه من الأشجار سوى شجرة واحدة، وما عداها فهو حر في أن يأكل منها كما يشتهي وكما يريد... وفرق بين ادم الأول وادم الثاني، أو في لغة أخرى فرق بين تجربة ادم وتجربة المسيح. لقد حارب ادم الأول في جنة، وحارب ادم الأخير في برية، وحارب ادم الأول لا ليدفع غائلة الجوع أو قسوة الحاجة، كما فعل ادم الثاني الذي صارع في أدق الظروف وأصعبها وأمرها على الإطلاق!!. ومن هنا نعلم إن الظروف لم تكن معاكسة أو معادية للإنسان الأول وهو

يحارب، بل كانت إلى جواره وتعمل معه... أما من حيث استعداده للدخول للمعركة فقد كان أيضا استعدادا مؤقتا. إذ كان بالفطرة والطبيعة على صورة الله وشبهه، أو في لغة أخرى على استعداد كامل للخير وعمله، فهو لم يكن كما صوره البعض أنسانا بدائيا وحشيا، أو كما صوره البيلاجيون محايدا في نزعته بين الخير والشر دون ميل فطري إلى واحد منهما على الإطلاق! بل كان على العكس الإنسان المستعد لكل ما هو صالح وخير وجميل ونبيل! وهل تكون صورة الله وشبهه على غير هذا المثال؟

كما إن امتحانه على الأغلب لم يكن إلا لفترة محدودة، إذ لا نعتقد إن الله قصد أن يضعه أمام امتحان مستمر وتجربة دائمة، ومن المتصور أن يكون امتحانه موقوتا كما حدث مع الملائكة الذين انقسموا نتيجة الامتحان إلى أخيار أو أشرار، ومن المتصور أيضا أن يبقى هذا الامتحان حتى تنكشف إرادته وتنمو وتتدرب وتصقل. وعلى إي حال فان الامتحان جاء في صورة هينة ميسورة إذ: "وَأَوْصَى الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ قَائِلاً: «مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ أَكْلاً ١٧وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلاَ تَأْكُلْ مِنْهَا لأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتاً تَمُوتُ».(تك٢: ١٦ و ١٧) أو في لغة أخرى أن الله وضع بهذه الشجرة السور أو الفاصل بين ما يحق لأدم أن يأخذه أو يتناوله، وبين ما يمتنع عليه أو يقصر دونه، لقد أراد الله أن يعلمه إن هناك فاصلا أو سورا بين الحلال والحرام، وان خطيته القاتلة الميتة أن يتعدى هذا الفاصل إلى حيث لا يحق له أن يأخذ أو أن يملك، وقد جعل الله هذا كله بأسلوب رمزي ميسور في ثمر الشجرة الممتنعة عليه. كما إن سهولة الامتحان تظهر من إن التجربة جاءته عن طريق الشيطان المتكلم في الحية، إذ لم يأتي إليه الشيطان في شبه ملاك نور، مما قد يتعذر معه معرفة حقيقة التجربة على وجه الوضوح لصعوبة التفرقة بين الملاك وشبيهه المخادع. لقد جاء في صورة الحية وتكلم فيها، ومن هنا نعلم أيضا أن المعركة جاءت أيضا عن طريق الهجوم الخارجي دون أن يكون هناك استعداد داخلي للسقوط، ولو لم يحكم الشيطان الهجوم لما أمكنه أن يتسلل إلى داخل قلعة الإنسان! وكان الخطأ القاسي للإنسان أن سمح للشيطان أن يقترب منه، ومن العسير أن يقترب الإنسان من الشيطان أو يتحدث معه أو ينصت إليه دون أن يتعرض لخطر السقوط القاسي الماحق.. إن اقترابنا إلى التجربة، واقتراب التجربة لنا، هما أول سبيلا إلى إضعاف المقاومة أو إسكاتها فينا!!.. كما إن خطاه الأخر هو انه لم يستطيع اكتشاف ما دثره الشيطان وأخفاه، وهو يحدثه بالكلمات المداهنة المعسولة عن الإدراك والاتساع كالله في معرفة الخير والشر، والشيطان يفعل هكذا على الدوام، إذ يخفي السم في الدسم، ويعرض نصف الحقيقة دون النصف الأخر، إذ ينشر ستار كثيفا على العار والموت والتعاسة والشقاء والخراب، عندما يظهر أو يغري بصور التجربة والفتنة والشهوة واللذة والمتعة!!..

والخطأ الثالث عند الإنسان هو إعطاء الفرصة للشيطان لإثارة الشك في وجود الله وإحسانه، إذ قال المجرب للمرأة :" أحقا قد قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة" (تك٣ : ١) وهو في ذلك كأنما يتساءل عن جود الله وحبه وإحسانه إزاء هذا المنع والحرمان!!.. وإذ علق هذا السؤال بذهن المرأة وفكرها. وان كانت قد حصرته فقط في شجرة واحدة. لا في كل الأشجار، تحول الشيطان إلى الهجوم الصريح القاسي المباغت منهما لله جل جلاله بالكذب والحسد والخوف من تساوي الاثنان به، إذ قال: " لَنْ تَمُوتَا! ٥بَلِ اللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلاَنِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ».(تك٣: ٤ و٥). وخدعت المرأة وسقطت وسقط في أعقابها الرجل!!..

ومن اللازم أم نلاحظ هنا الفرق بين تجربة الرجل والمرأة مستضيئين بقول الرسول: "ادم لم يغو لكن المرأة أغويت" (اتي٢: ١٤) إذ إن السقوط عند المرأة كلن وليد الخداع : "الحية غرتني" لقد جاءت الحية إلى المرأة كمن يطلب لها الخير ويريد أن

يرفعها إلى مركز الله، واخفت عنها الجنة المهدمة والحزن والتعب والشقاء والدموع والماسي والموت وما إلى ذلك مما سيصيب الجنس البشري على توالي الأجيال، أما ادم فقط سقط بعين مفتوحة، إذ يظن البعض انه شك في كلمة الله عندما أبصر حواء تأكل من الشجرة دون أن تموت في الحال كما كان متوقع، على إن ملتون يذهب في التفسير مذهبا أخر إذ يقول في خياله الشعري في الفردوس المفقود، إن ادم أكل من الشجرة مدفوعا بحب حواء، إذ اثر أن يموت معها دون أن تهلك وحدها!!.. وهكذا فقد الأبوان الأولان المعركة، وهزما هزيمتهما التعسة المنكرة، الهزيمة التي تركت فيهما، وفي نسلهما أعمق وابعد وارهب الآثار في الحياة الحاضرة والعتيدة على حد سواء!!..

الإنسان وسقوطه

أصبح الإنسان خاطئا بالسقوط فما هي الخطية. وما مدلولها ومعناها عند الإنسان؟ إن الخطية ومشتقاتها في الأصل اللغوي تعني "القصور" أو "عدم بلوغ الهدف" أو "الانحراف". إذ الجميع اخطأوا وأعوزهم مجد الله " (رو٣: ٢٢) وتعني "البطل" أو "العدم" كالقول : " مَاذَا وَجَدَ فِيَّ آبَاؤُكُمْ مِنْ جَوْرٍ حَتَّى ابْتَعَدُوا عَنِّي وَسَارُوا وَرَاءَ الْبَاطِلِ وَصَارُوا بَاطِلاً؟ "(ار٢ :٥) "إذ أخضعت الخليقة للباطل" (رو٨ :٢٠) وتعني "التمرد" أو "العصيان" كما تعني أيضا "عدم الاستقرار" في القول: "٢٠أَمَّا الأَشْرَارُ فَكَالْبَحْرِ الْمُضْطَرِبِ لأَنَّهُ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَهْدَأَ وَتَقْذِفُ مِيَاهُهُ حَمْأَةً وَطِيناً. ٢١لَيْسَ سَلاَمٌ قَالَ إِلَهِي لِلأَشْرَارِ. (اش٥٧: ٢٠ -٢١) وتعني" الخيانة" : "مَاتَ شَاوُلُ بِخِيَانَتِهِ الَّتِي بِهَا خَانَ الرَّبَّ مِنْ أَجْلِ كَلاَمِ الرَّبِّ الَّذِي لَمْ يَحْفَظْهُ".(١اخ١٠ :١٣) كما جاءت بمعاني "مرض" أو "ذنب" أو "خراب" أو "ضيق" أو "تعب" أو "تعد". وهذه الألفاظ تساعدنا على إدراك الحالة التي وجد فيها بالسقوط. إذ لم يعد الإنسان البار السليم الصحيح بل الإنسان المريض المنحرف الخائن المتمرد القاصر المتعب المتعدي المذنب غير المستقر!.

الإنسان موروث الخطية

وغير خاف إن الأبوين الأولين لم يصبحا خاطئين فحسب. بل مورثسن للخطية لجميع أبنائهم على وجه التعاقب والاستمرار : "مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَأَنَّمَا بِإِنْسَانٍ وَاحِدٍ دَخَلَتِ الْخَطِيَّةُ إِلَى الْعَالَمِ وَبِالْخَطِيَّةِ الْمَوْتُ وَهَكَذَا اجْتَازَ الْمَوْتُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ إِذْ أَخْطَأَ الْجَمِيعُ." (رو٥ :١٢) ومن ثم فمن العبث أن يقال إن خطية ادم لم تنحدر إلينا كما زعم بيلاجيوس. وان كل بشري يولد بقدرة كاملة على اختيار الخير أو الشر، إذ لا اثر لخطية أبوية فيه أو ما تصوره ارمنيوس بان خطية أبوينا الأولين أنقصت أو أضعفت من قدرتنا الروحية، دون أن تتسرب إلينا وتعمل فينا. ونرث كل آثارها ونتائجها على وجه الإطلاق، ونحن لا ندري كيف جاز لكل من بيلاجيوس أو ارمنيوس أن يعتنق مذهبه، وكل حقيقة في الكتاب المقدس تناهضه وتسد عليه الطريق!؟ بل لا نعلم كيف يجوز لنا أن نسلم بآثار الوراثة العميقة في الحياة وشتى نواحيها، ولا نسلم بان الميراث الآتي للإنسان من خطية أبوين أولين؟ أن كل أحاسيس البشر واختياراتهم تصرخ في فزع دائم رهيب مع الإنسان القديم الصائح : "أَمَّا أَنَا فَجَسَدِيٌّ مَبِيعٌ تَحْتَ الْخَطِيَّةِ. ١٥لأَنِّي لَسْتُ أَعْرِفُ مَا أَنَا أَفْعَلُهُ إِذْ لَسْتُ أَفْعَلُ مَا أُرِيدُهُ بَلْ مَا أُبْغِضُهُ فَإِيَّاهُ أَفْعَلُ. ١٧فَالآنَ لَسْتُ بَعْدُ أَفْعَلُ ذَلِكَ أَنَا بَلِ الْخَطِيَّةُ السَّاكِنَةُ فِيَّ. ١٨فَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ سَاكِنٌ فِيَّ أَيْ فِي جَسَدِي شَيْءٌ صَالِحٌ. لأَنَّ الإِرَادَةَ حَاضِرَةٌ عِنْدِي وَأَمَّا أَنْ أَفْعَلَ الْحُسْنَى فَلَسْتُ أَجِدُ. ١٩لأَنِّي لَسْتُ أَفْعَلُ الصَّالِحَ الَّذِي أُرِيدُهُ بَلِ الشَّرَّ الَّذِي لَسْتُ أُرِيدُهُ فَإِيَّاهُ أَفْعَلُ. إِنْ كُنْتُ مَا لَسْتُ أُرِيدُهُ إِيَّاهُ أَفْعَلُ فَلَسْتُ بَعْدُ أَفْعَلُهُ أَنَا بَلِ الْخَطِيَّةُ السَّاكِنَةُ فِيَّ." (رو٧: ١٤، ١٥، ١٧- ٢٠) كما نصرخ في كل جيل وعصر في

صيحات العلماء والكتاب والفلاسفة والشعراء قائلة مع هكسلي العالم الانجليزي : "إني اصرخ باني لو وجدت قوة عظيمة تتعهد باني أفكر فيما هو طاهر واعمل ما هو حق على شرط أن تحيلني إلى شبه الساعة وتملاني كل صباح، لما ترددت في تسليم نفسي إليها" أو قوله: "لا اعلم أن هناك دراسة انتهت إلى نتيجة تعسة للنفس كدراسة تطور الإنسانية.. من وراء ظلام التاريخ إلى اليوم بين الإنسان انه خاضع لعنصر وضيع فيه مسيطر عليه بقوة هائلة!!.. انه وحش ولكنه وحش أذكى فقط من الوحوش الأخرى.. انه فريسة واهنة عمياء لدوافع تقوده إلى الخراب، وضحية لأوهام لانهائية جعلت كيانه العقلي هما وحملا. وأفنت جسده بالهموم والمتاعب والصراع.. لقد بلغ شيء من الراحة وانتهى إلى نظام عملي في الحياة على ضفاف النيل أو ما بين النهرين، ولكنه هو لآلاف السنين ما يزال يصارع بحظوظ مختلفة، مصغيا إلى دوافع لانهائية من الشر والدم والبؤس، ليشق طريقه بنفسه بين جشع الآخرين.. لقد قاتل واضطهد الذين حاولوا دفعه وتحريكه عما هو عليه، ولكنه لما تحرك خطوة عاد باكيا ضحاياه، بانيا قبورهم!! وهاتف وعصبي.عر اميرسون عندما صور الإنسان في هوله ورعبه كابي الهول الجاثم الغامض إذ قال:

انه يربض ويخجل..

يولي ويختبئ!!

يزحف ويختلس النظر.

يداهن ويسرق..

مرتاب وعصبي..غيور ومتردد..

أحمق ومذنب..

وهو يسمم الأرض!!

وهل أنت في حاجة إلى هذه الشهادات الصارخة، والآتية إليك عبر القرون والأجيال!؟ وإلا يكفي أن ننظر إلى أعماق نفسك وصرخات قلبك لتعلم بان الخطية هي ارهب حقيقة وأمرها عرفها الإنسان. وانه من العبث أن نتجاهل وجودها. أو نقلل من آثارها، أو نضع لها من المسميات أو الألفاظ ما يبررها أو يخفف من وقعها على الأذن أو الفكر أو المشاعر أو الكيان الإنساني كله!!. وان محاولة كهذه تعد اخطر محاولة يمكن أن يسقط فيها الإنسان في كل تاريخه الطويل على الأرض.ض... وقد حق لواعظ تحدث ذات يوم برهبة وترويع عن الخطية في كنيسة كبرى، فجاءه احد المتقدمين يلومه على قسوة الحديث وصراحته، وعلى وجه اخص لأنه تحدث به في مواجهة أناس ارستقراطيين متمدينين مثقفين.كان يجمل به أن يتخير لهم حديثا أخر خلاف هذه الحديث، وأنصت الواعظ لمحدثه هنيهة قال له بعدها: "ما رأيك يا سيدي في رجل يضع في صيدلية زجاجة مملوءة بالسم الفتاك، ويكتب على الورقة الملتصقة بها روح النعناع؟" فأجاب الأخر : "أن هذا الرجل مجرم من غير شك " وإذا بالواعظ يقول : "وهذا حق صراح في كل ما يصف الخطية بغير أوصافها الرهيبة المروعة المدمرة القاسية المميتة "!!...

الإنسان وعقابه

وقصة السقوط تكشف لنا عن العقاب الذي يحق على الإنسان ولحق به وقد ظهر هذا العقاب في قصة ادم وحواء وفي قصص ذريتهم من بعدهما في أكثر من لون ومظهر إذ كان عقاب:

١ـ العار

لقد جاءت الخطية إلى ادم وحواء بالعار والخزي والخجل، إذ أدركا أول كل شيء إنهما عريانان، ولعل هذا أول ما يحس به المرء عند ارتكاب الخطية، ولعل هذا هو الدافع الذي يجعله يرتكب الخطية في الظلام: " (يو٣: ١٩-٢٠) وكلمة الخطية على الدوام مقارنة وملاحقة للعار والخزي.إذ أنها تهدر في الإنسان كل ما هو ادمي والهي، إذ تقتل فيه المروءة والشرف والكرامة والنبل والإنسانية، وتسفل به إلى الحيوانية القذرة. الم يتعر ادم وتكشف نوحا وتلطخ داود بالوحل وتنحط بالمنون إلى أسفل المدركات؟ بل إلا تنشئ على الدوام ما اصطلح رجال النفس على تسميته بعقدة اوديب. عقدة ذلك الفتى اليوناني القديم الذي قتل أباه وتزوج أمه، وعندما أدرك بشاعة عمله فقأ عينيه، ورقع بنفسه أفظع عقاب يجرؤ عليه إنسان.

٢ـ الخوف

وإذ سمع ادم وحواء صوت الإله ماشيا في وسط الجنة عند هبوب ريح النهار فزعا وخافا. وهذا ما تصنعه الخطية دائما بمرتكبها إذ تظهره في مظهر الضعيف الذي تمسك به حبال إثمه وشروره فلا يستطيع الهروب من عدل الله مهما حاول إلى ذلك سبيلا. لقد ظن ادم وحواء في بادئ الأمر إن التعدي من الأكل من الشجرة سيجعلهما مثل الله، وفي مستواه تعالي، ولكنهما تبينا أخر الأمر إنهما أضافا إلى ضعفهما ضعفا، إذ لم يجسرا على النظر إلى الله فحسب، بل خشيا حتى من مجرد الاستماع إلى صوته عند هبوب ريح النهار. والخطية توهم المرء على الدوام انه اقوي وجسور حتى يرتكبها. وإذ به يكتشف انه جبان وضعيف. وانه اعجز من أن يواجه نفسه أو المجتمع أو صوت الله.وقد جاء صوت الله إلى أبوينا عند هبوب ريح النهار أو قبيل الغروب كما يرجح بعض المفسرين، عندما سكنت الطيور إلى الأعشاش أو الحيوانات إلى المرابض، ولم تكن هناك نأمة أو حركة خلا الريح التي هبت وجاء معها صوت الله قويا مؤثرا يبلغ الشغاف والأعماق، وهكذا يأتينا هذا الصوت عندما لا نرتكب الخطية بقوة لا تغالب أو تناهض في الحوادث والإحداث التي تمر بحياتنا، وفي تأنيب الضمير المرهب وعذاباته وضرباته التي هي اقسي من لذع السياط أو طعنات السيوف، فتنكمش وتتقلص وتفزع وتصنع منا الخطية جبناء، كما يقول شكسبير!!..

٣ـ العداوة

والخطية سر كل نزاع وخصام وعداوة وخراب في الأرض، إذ لا سلام قال الهي للأشرار، وإذا سقط أبوانا الأولان ضعفت المحبة بينهما، كما صار بينهما وبين المحبة عداوة قاسية، واكبر من ذلك قتلت محبتهم لله. أما إن محبتهم بعضهما البعض فلم تعد كالأول،فذلك يبدو من محاولة ادم إلقاء التبعية على زوجته دون أن يهتم بحمايتها أو تحمل ذنبها كما كان ينتظر منه كمحب مخلص غيور، ولا ننسى أيضا انه عندما ذكرها أمام الله لم يقل "زوجتي" أو "حواء" بل قال : "المرأة الذي أعطيتني" مما يدل على أن محبته لها لم تعد في قوتها الأولى! أما العداوة للحية فقد أضحت عداوة دائمة مستمرة أبدية، ومن المستطاع ملاحظتها إذا ذكرنا العداوة القائمة بين الجسد والروح في الإنسان الواحد، وبين المؤمن أو غير المؤمن على طوال

الأجيال، كما نستطيع ملاحظتها في تلك المنازعات والحروب التي لا تنتهي أو تهدا في إي رن من أركان الأرض وفي كل زمان ومكان!!.. أما العداوة لله فتبدو في البعد عنه، وعدم الشوق إليه، وفعل كل ما هو آثم وشرير وغير مرضي أمام عينيه، ومن هنا نعلم لماذا يعيش الإنسان على الدوام في الفزع والرعب والقلق والفوضى وعدم الاستقرار.. بل هنا نعلم لماذا تبدو حياته مجموعة من الأشتات والمتناقضات والازدواج بعد أن دخلته الخطية وجرثومتها، أو كما وصفه بسكال الفيلسوف: " مزاج فريد من المتناقضات، جمع الكرم والخسة، والسمو والصغار، والقوة والضعف، حتى أصبح لغزا عسير الحل.. وهو بطبعه يميل إلى التصديق ويميل إلى الشك. شجاع وجبان. راغب في الاستقلال وخاضع لشهواته، محتاج دائما إلى شيء ما، مضطرب قلق سريع الملل، تخدعه حواسه، ويخدعه خياله، ويخدعه حبه لنفسه، فلا يرى الأشياء كما هي وإنما يراها من وراء ستار. ولا أدل على ذلك من اختلاف الناس إلى شيء واحد باختلاف أشخاصهم وبيئاتهم وعواطفهم ونزاعاتهم.يستطيع أن يقتل إنسانا مثله، ولكن ذبابة تستطيع أن تقتله هو "!!

٤ـ الحياة المعذبة

طرد ادم وحواء من الجنة فطردا بذلك من الحياة الوادعة المستريحة، ولعنت الأرض بسببها، فضعفت خصوبتها وتحول الشطر الأكبر من اليابسة إلى البراري والصحاري والقفار، وكان على ادم أن يجد لقمته بالتعب والجهد وعرق الجبين: "١٧وَقَالَ لِآدَمَ: «لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِ امْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ قَائِلاً: لاَ تَأْكُلْ مِنْهَا مَلْعُونَةٌ الأَرْضُ بِسَبَبِكَ. بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. ١٨وَشَوْكاً وَحَسَكاً تُنْبِتُ لَكَ وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ. ١٩بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْزاً حَتَّى تَعُودَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لأَنَّكَ تُرَابٌ وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ».

(تك٣: ١٧ ـ١٩) وكان على حواء أن تعيش حياتها متألمة كزوجة وأم، وفقد الاثنان سيادتهما على العديد من الحيوانات إذ توحشت، وسار الركب البشري يئن مجهدا مثقلا متعبا يقول مع يعقوب عن الحياة: "قليلة وردية" (تك٤٧: ٩) ومع موسى في مزموره الباكي: "وأفخرها تعب وبلية (مز٩٠: ١٠) ومع بولس : "فإننا نعلم أن الخليقة تئن وتتمخض معا" (رو٨: ٢٢)

٥ـ الموت

وأجرة الخطية هي موت، وقد ماتا ادم وحواء في اللحظة التي سقطا فيها وانفصلا عن الله، لقد مات في الحال الموت الروحي والأدبي إذ لم تعد لهم الشركة الجميلة الحلوة المقدسة مع خالقهما المحب وأبيهما القدوس، بل لم يعد لهما ذلك الإحساس الذي إلفاه ودرجا عليه، إحساس الحنين إليه والشوق للرؤيا، بل شرعوا للمرة الأولى بان غشية الظلام، استولت على عيونهما فلم يعودا يميزان تمييزا كاملا بين الحق والباطل، والنور والظلام، والجمال والقبح، بل شعرا بما يشبه السم الزعاف القاتل يسري في بدنيهما، فيخدر في كيانهما كل المعاني والحقائق، ويقتلهما في بطء وعذاب وقسوة، والى جانب هذا كله شعرا بالموت المادي يأخذ السبيل إلى جسديهما بالضعف والوهن والتعب والمرض والانحلال، وهكذا أدركا صدق الله القائل: "لأنك يوما تأكل منها موتا تموت" (تك ٢: ١٧).

اجل ما اقسي وارهب ما أرى أو يرى الإنسان من عقاب نتيجة لسقوطه المروع الشنيع هذا... ولكن هل ضاع الرجاء وانتهى الأمل في عودته مرة أخرى إلى فردوسه الضائع ومجده السليب؟!! "أليس بلسان في جلعاد أم ليس هنا طبيب؟". إن الرجاء لا

يرجع بتاتا إلى شيء في طبيعة الإنسان أو قوته أو قدرته أو مجهوده أو استعداده، فان الرجاء كل الرجاء يرجع إلى شيء أخر في طبيعة الله وحبه ورحمته وحنانه، إذ هو وحده منقذ الإنسان ومحرره وفاديه في شخص المسيح العظيم مخلص العالم!!..

الفصل السادس عشر: إيماني بخلاص الإنسان

في دفاع رائع لمحامي مشهور سيرجنت برنتس ختم هذا الدفاع بالقول : "لقد قرأت في مكان ما إن الله في مشورته الأزلية سال العدالة والحق والرحمة قائلا: "هل نصنع الإنسان؟ " فأجابت العدالة: " لا تصنعه فانه يدوس جميع نواميسك ونظمك ومبادئك" وقال الحق: " لا تصنعه لأنه سيكون بشعا وسيسعى على الدوام وراء الكذب والباطل والتفاهة ".. ولكن الرحمة صاحت: " إن اعلم أن هذا سيكون، ولكني مع ذلك سأتولاه وسأسير به في كل الطرق المظلم التي يجتازها حتى أتى به أخيرا إلى جلالك وحضرتك!!..

وصنع الله الإنسان وخلقه مستقيما ولكنه سقط واندفع في سقوطه موغلا وراء الفساد والشر والإثم والموبقة والخطية، ولكن رحمة الله تابعته بمحبته لا تموت وبعطفه لا ينتهي إذ دبرت له الخلاص الكامل الشامل الأبدي.. وها نحن اليوم سنقف من هذا الخلاص لنرى حاجة الإنسان إليه ومعناه ومدلوله الكامل بل لنرى ضرورته حتميته عند الله، وكما نعلم الطريق والسبيل إليه وكيف يمكن أن يقبله الإنسان، وما نتائج آثار هذا القبول في حياته وحاضره والأبدية... ولعلنا نصل بعد ١ هذا كله إلى ما يمكن أن ندعوه النظرية المسيحية الكاملة عند الخلاص.

الخلاص وحاجة الإنسان إليه

وما من شك بان الحاجة إلى الخلاص حاجة عامة عند جميع الناس، إذ ليس شيء أسهل كما يقول كرينجي سمسون من إثبات تهمة الخطية على الجنس البشري بوجه عام، سواء كان بالحقائق أو بالشهادات الآتية من مصادر مسيحية أو غير مسيحية ولقد صدق ذلك الأديب الروماني القديم القائل: "كلنا قد أخطانا" كما صدق من قال: "إن الخطية شائعة في جميع الناس" والآداب الحديثة مملوءة بمثل هذا الاعترافات، التي تذكرها دون مواربة أو إحياء بالقول أنها تصف الحياة وتصورها كما هي ليس إلا..فالإحساس العام في جميع العصور والأجيال والمتردد في كل الطبقات والأجناس هو إن البشر اخطئوا وحاجتهم الملحة الصارخة إلى الخلاص...

١- الإحساس الفردي

على انه من اللازم أن نذكر بان هذه الحاجة ليست مجرد حاجة جماعية عامة، بل هي حاجة كل إنسان على حدة، فكل إنسان من المهد إلى اللحد في حاجة إلى الخلاص، فالملك والصعلوك والذكر والأنثى والمتعلم والجاهل والغني والفقير والكبير والصغير والأبيض والأسود، جميعهم في حاجة متساوية إلى الخلاص، من غير تمييز أو تفرقة أو استثناء!. من غير تمييز أو

تفرقة أو استثناء!. ومن الواضح إن علاقة الإنسان بالله علاقة فردية أحادية لا يغني فيها آب عن ابنه، وأم عن ابنتها، أو أخ عن أخيه، أو صديق عن صديقه، فإذا صح إن إنسان لا يمكنه أن يتناول الطعام بدلا عن أخر، أو يستنشق الهواء بدلا عن غيره، أو يشرب أو يلبس بالنيابة عن غيره، فان احد لا يستطيع أن يأخذ مركز الأخر في الحاجة إلى الخلاص.. وإذا صح إن الطعام والشراب والهواء واللباس من أمس الضروريات للإنسان ولا يمكنه أن يستغني عنها، فان الحاجة إلى الخلاص أكثر ضرورة من جميعها.. وليس هذا من قبيل التعبير المندفع المبالغ فيه، بل هو التعبير الحقيقي الصحيح، لان هذه إذا مست شيئا في الإنسان فإنما تمس جسده أو الغلاف الذي يحتويه، بينما يمس الخلاص كيانه الجسدي والروحي معا... وإذا كانت هذه تتناول الحياة الحاضرة عنده، فان الخلاص يتناول الحياة الحاضرة والأبدية أيضا، ومن ثم صدق السيد المسيح في قوله العظيم: "٢٨وَلاَ تَخَافُوا مِنَ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ الْجَسَدَ وَلكِنَّ النَّفْسَ لاَ يَقْدِرُونَ أَنْ يَقْتُلُوهَا بَلْ خَافُوا بِالْحَرِيِّ مِنَ الَّذِي يَقْدِرُ أَنْ يُهْلِكَ النَّفْسَ وَالْجَسَدَ كِلَيْهِمَا فِي جَهَنَّمَ."(مت١٠: ٢٧). حقا إن واجب كل فرد بالنسبة للخلاص، لا أن يتحدث عنه في صيغة الجمع أو المفرد أو المخاطب، بل في صيغة المتكلم بالقول: " أنا فلان – قبل وبعد إي إنسان على ظهر الأرض- في حاجة إلى الخلاص.

٢- الإحساس في قوته وقمته

على إن هذا الإحساس الفردي لا يمكن أن يكون في قو واحدة في كل وقت في حياة الإنسان، إذ انه كأي إحساس أخر يتعرض للقوة والضعف واليقظة والنوم والالتهاب والخمود والنهوض والتعثر، ومرات كثيرة كما لو انه قد مات، ولكن من المثير انه مرات أخرى ينهض بقوة غلابة وبثورة عارمة لا تستريح أو تسكن أو تهدا أو تقر حتى تجد السبيل إلى معرفة الخلاص والوصول إليه، عندما يستيقظ الضمير والمنبه والحارس الإلهي الكامن في أعماق النفس البشرية، وعندما يقف الإنسان أمام مطاليب الله ووصاياه الإلهية وعندما يكشف نفسه وقصوره إزاء عدالة الله وقداسته وحقه وبره... إن ضعف الإحساس عند الناس بالحاجة إلى الخلاص مرده في الكثير من الأحايين إلى التبلد، نتيجة الإدمان أو الإغراق في الخطية، كما تفعل الخمر أو المخدرات في المدمن عليها... أو مرده محاولة القياس على الخطاة الآخرين أو المبادئ البشرية المبتورة المشوهة القاصرة الناقصة... ولعل هذا هو السر، في الفاجعة البشرية، إذ إن مقياس الله في الخلاص لا يقصر أو يطول تباعا لإدمان الناس أو اعتيادهم الشيء، أو لأنهم يقيسون بعضهم على البعض، أو على ما يتبعون من نظم أو مبادئ تتلون وتتغير باختلاف محيطاتهم وميولهم وظروفهم ونزعاتهم وتطوراتهم وأوهامهم وأمالهم وثقافتهم وما إلى ذلك مما يلون العقول والمبادئ وأعمال البشر في مختلف العصور والأجيال.. ولربما نتعرض إزاء ذلك لسؤال جوهري هام إذا ما هو المقياس الصحيح والدائم لمطاليب الله ومبادئه ونظمه غير المتغيرة؟... ولا يمكن أن نجد هنا سوى جواب واحد لا غير، وهو إن المقياس الكامل لمطاليب الله، وانتظارا ته من البشر متمركز في شخص واحد هو يسوع المسيح.. ومن المسلم به في كل التاريخ إن كمالات المسيح لا يمكن أن ينازع عند المسيحيين أو غير المسيحيين على حد سواء وان تعاليمه ومبادئه ومثله وشخصه، هي القياس الكامل الذي يقاس به البشر في كل زمان ومكان، وان الإحساس العام بالحاجة إلى الخلاص يبلغ القمة والسمت، عندما يقف الإنسان من هذا الشخص العجيب موقف القرب، حتى يكشف حقيقة نفسه وحاله في ابهر نور وأكمل وضوح... ويكفي أن تضع نفسك أمام مبادئ وتعاليم الموعظة على الجبل لتعرف من أنت ومن تكون إزاء الله ومطاليب الله. بل يكفي أن تقف من شخصه الكامل في القداسة والطهارة والنقاوة والمحبة والإيثار واللطف والجمال والبذل والتضحية لتحس ذات الإحساس الذي أحس به المعمدان قديما عندما صاح: "لست أهلا أن انحني واحل سيور حذائه") (مر: ١: ٧). أو إحساس بطرس عندما

اكتشف نفسه إزاء جلال المسيح ومجده فخر عند قدميه قائلا: "اخرج من سفينتي يارب لأني رجل خاطئ" (لو٥: ٨) أو إحساس الطرسوسي عندما رآه في لمعانه الباهر على مقربة من دمشق، فسقط مأخوذا بجلاله وصاح: "يارب ماذا تريد أن افعل" اجل إن قياس المسيح هو القياس في كل التاريخ البشري الذي لا يخدع أو يضلل أو يكذب أو ينحرف أو يهادن أو يتراجع!١..

الخلاص ومعناه

وإذا كان الخلاص له هذا الأثر والخطورة والعمق في حياة الإنسان وأبديته، فمن اللازم أن نسال عن طبيعته ومعناه ومدلوله المحدد المنضبط، أو في لغة أخرى من الواجب أن نسال: ما هو الخلاص؟ ومما ينبغي أن نخلص؟ ومن الواضح أن الديانة المسيحية بجملتها تقوم أو تسقط بقيام هذا السؤال أو سقوطه، إذ أنها هي ديانة الخلاص أولا وأخيرا، ومؤسسها وبانيها لقبه الأول والأشهر المسيح مخلص العالم!!. إن الخلاص كما هو واضح من رسالة المسيح والمسيحية هو خلاص الإنسان من الخطية إذ قال الملاك عن العذراء: "٢١فَسَتَلِدُ ابْناً وَتَدْعُو اسْمَهُ يَسُوعَ لأَنَّهُ يُخَلِّصُ شَعْبَهُ مِنْ خَطَايَاهُمْ». (مت١: ٢٦). ووصف المعمدان المسيح بالقول: "هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم" وقال هو عن نفسه : "لان ابن الإنسان قد جاء ليطلب ويخلص ما قد هلك" (لو١٩: ١). وتحدث عنه الرسول بولس قائلا : "صَادِقَةٌ هِيَ الْكَلِمَةُ وَمُسْتَحِقَّةٌ كُلَّ قُبُولٍ: أَنَّ الْمَسِيحَ يَسُوعَ جَاءَ إِلَى الْعَالَمِ لِيُخَلِّصَ الْخُطَاةَ الَّذِينَ أَوَّلُهُمْ أَنَا."(١تي ١: ١٥). ولكن السؤال ما زال يتابعنا، إذ بأي معنى يخلّص المسيح من الخطية؟. ومن الواضح إذا كان مخلّصا حقا، فلابد أن يخلص إلى التمام من جميع ما تطبعه أو تتركه الخطية في حياة الإنسان. أو في لغة أخرى لابد أن يتمم.

١ـ الخلاص من دين الخطية

وهذا الدين أعمق جدا مما دار بخيال أبي العلاء المعري في بيته المشهور القائل:

هذا جناه أبي عليّ وما جنيت على احد

ولم يكن أبي العلاء يقصد أكثر من مجيئه إلى العالم، ومن ثم امتنع عن الزواج لكي لا يرتكب جناية مماثلة في حق الذراري التي قد تأتي منه.. لكن الأمر في الواقع أكثر من ذلك كثيرا، إذ إن الإنسان لا يرث من أبويه مجيئه إلى العالم بما يحفل به هذا المجيء من شقاء أو ضيق أو الم أو تعاسة أو شدة قد يلاقيها في هذه الأرض، بل يرث أكثر من ذلك أكثر من ذلك مركز أبويه القانوني أمام الله، كما اشرنا إلى ذلك عند الحديث عن سقوط الإنسان مما لا مندوحة من التسليم به فيما يدعوه رجال اللاهوت بالخطية الأصلية، والتي تلاحق مولود كل امرأة ينص الكتاب والواقع فالكتاب يفيد بان الجنس البشري ورث الأبوين الأولين في سقوطهما الجرم وفساد الطبيعة، الم يقل داود في ذلك : "ها انذا بالإثم صورت وبالخطية حبلت بي أمي" (مز٥١: ٥). وقال بولس : "١٢مِنْ أَجْلِ ذلِكَ كَأَنَّمَا بِإِنْسَانٍ وَاحِدٍ دَخَلَتِ الْخَطِيَّةُ إِلَى الْعَالَمِ وَبِالْخَطِيَّةِ الْمَوْتُ وَهَكَذَا اجْتَازَ الْمَوْتُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ إِذْ أَخْطَأَ الْجَمِيعُ." (رو٥: ١٢). والواقع يشهد بذلك تماما، لان آدم ودواء أما إنهما كانا في سقوطهما نائبين عن الجنس البشري، أو إن هذا السقوط كان قاصرا عليهما دون أن يمتد إلى أولادهما، فإذا كان الأمر الأخير فمعنى ذلك إننا نولد أبرياء في استقلال تام عن كل نزعة أو ميل أو انحراف إلى الشر أو الفساد أو الخطية، أو في لغة أخرى نولد اقرب وأشبه إلى الملائكة، وهذا ما لا يستطاع التسليم به على الإطلاق!!.. فإذا أمكن التسليم بالطبيعة البشرية الفاسدة من واقع الاختبار

الملموس في حياة الناس، فان النتيجة تنتهي بنا إلى الدليل العكسي إلى قبول السبب والتسليم بحقيقة الوراثة الآتية إلينا من الأبوين الأولين، فإذا أضيف إلى هذا إننا خطاة ومدينون لي على أساس الخطية فحسب، بل على أساس ما نرتكب من خطايا فعلية مستمرة دائمة أمام الله، أضحى مركز كل بشري مركز المدين أمام الله بدين الخطية الأصلي والفعلي معا.. والمسيح في أكثر من مثل عبر عن الخطية كدين، إذ قال في مثل العبد الشرير: "فلما ابتدأ في المحاسبة قدم إليه واحد مديون" (مت١٨: ٢٤) وفي المثل الذي تحدث به إلى سمعان الفريسي: "كان لمداين مديونان" (لو٧: ٤١)... وفي الواقع إن كلمة الدين ليست مشكلة نظرية، بل هي أعظم واخطر وارهب مشكلة حقيقية تواجه الإنسان، فإذا كانت الطبيعة تعلمنا إن الجزاء دائما مرتبط بأي انحراف أو خروج على النظام والناموس الطبيعي، وإذا كان المجتمع كلما خرج عن قانون الغاب وتدرج في مراقي المدنية والحضارة جعل السيادة العليا فيه للقانون والنظام، فهل يعقل أن تكون كمالات الله اقل مطلبا من ناموس الطبيعة أو قوانين المجتمع؟ لد خلق الله الإنسان وربطه بطبيعته تعالى ونظامه وناموسه الأدبي، وكل خروج على هذه الطبيعة وحكمها الأدبي وعدالتها وحقها وقداستها لابد أن ينال الجزاء. والإنسان بهذا المعنى مدين من هامة رأسه إلى أخمص قدميه، وفي حاجة إلى الخلاص من دين الخطية.

٢- الخلاص من سلطان الخطية

وهذا ما يحتاجه الإنسان بكل يقين وتأكيد إلى جانب تحرره من دينها البغيض، إذ إن طبيعة الإنسان الفاسدة طبيعة مريضة، والمريض المنحرف لا يمكن أن يتصرف تصرفا سليما، وكلما أمعن وأوغل في الخطية،كلما ازدادت قسوة هذه العادات والغرائز في حياته ومنهاج سلوكه، تعف عنها أقذر الحيوانات وأوسخها بل رأيناه يصرخ فياحاييين متعددة الصرخة المؤثرة المحزونة: "١٥لأَنِّي لَسْتُ أَعْرِفُ مَا أَنَا أَفْعَلُهُ إذ لَسْتُ أَفْعَلُ مَا أُرِيدُهُ بَلْ مَا أُبْغِضُهُ فَإِيَّاهُ أَفْعَلُ... لأَنَّ الإِرَادَةَ حَاضِرَةٌ عِنْدِي وَأَمَّا أَنْ أَفْعَلَ الْحُسْنَى فَلَسْتُ أَجِدُ... ٢٤وَيْحِي أَنَا الإنسان الشَّقِيُّ! مَنْ يُنْقِذُنِي مِنْ جَسَدِ هَذَا الْمَوْتِ؟"(رو٧: ١٥، ١٨، ٢٤). وكل هذا لأنه مريض بأقسى مرض، وعنه يقول المسيح: "لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى" (مت٩: ١٢). ومن ثم فهو في حاجة لا إلى الخلاص من الخطية كدين فحسب بل كمرض أيضا. ومن ثم فان كلمة خلاص ومشتقاتها قد جاءت في الأصل اليوناني في الإنجيل كما يقول:"الأسقف مول" بما يفيد الماضي والحاضر والمستقبل، فمن جهة الماضي نسمع القول: "٩لأَنَّكَ إِنِ اعْتَرَفْتَ بِفَمِكَ بِالرَّبِّ يَسُوعَ وَآمَنْتَ بِقَلْبِكَ أَنَّ اللهَ أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ خَلَصْتَ. (رو١٠: ٩). وهذا الخلاص يتم في الحال على اعتبار إن الخطية دين، وهناك خلاص في المستقبل عندما يتحرر الإنسان من كل رواسب الخطية عندما يصل إلى المجد الأبدي، وهذا ظاهر من القول: "فان خلاصنا الآن اقرب مما كان حين أمنا" (رو١٣: ١١) على أن هناك خلاصا أخر مثمرا يقوم على أساس إن الخطية مرض يعالج منه الإنسان، وهي عملية مستمرة في الحاضر كالقول: (عب٧: ٢٤).

ومن كل هذا نفهم معنى ومدلول الخلاص وهو تحرير الإنسان الكامل من دين الخطية ومرضها وسلطانها واستبعادها نفسًا وروحًا وجسدًا، والأخذ بيده حتى يقف أما الله في كمال البر والقداسة والمجد والعزة والبهاء إلى أبد الآبدين.

الخلاص وضرورته في نظر الله

أما وقد فهمنا الآن حاجة الإنسان إلى الخلاص على المعنى الواضح المذكور والدقيق لكلمة الخلاص بقى أن نسأل لماذا يهتم الله بهذا الخلاص وتدبيره وترتيبه للإنسان مهما نكن مشقة هذا التدبير، والثمن الذي يبذل أو يدفع فيه؟ ولماذا لا يترك الله الإنسان الساقط ليتحمل جزاء خطيته؟!!.. من الواضح أن الله باعتباره الحاكم الأدبي كان من الممكن أن يترك الجنس البشري

لينال جزاءه العادل على ما يرتكب من خطايا وآثام دون أن تكون هناك أدنى شبهة من حيف أو ظلم.. ولكن المعلوم أن الله ليس هو الحاكم الأدبي فقط، بل هو الآب المحب أيضًا، فإذا كانت عدالته تحتم وتؤكد عقاب الخطية فإن رحمته وجوده وحنانه ولطفه ومحبته تحتم وتؤكد تدبير الخلاص أيضًا. فإذا كان من المسلم به أن عدالة الله كاملة، وأن محبته كاملة كذلك. وأنه لا يمكن أن يكون هناك تناقض بين العدالة والمحبة، كان لنا أن نتوقع حتمًا أن العدالة تعمل حيث يكون الجزاء. وأن المحبة تعمل حيث يكون الفداء والخلاص أيضًا، ولا يستطاع على الإطلاق تصور أحد المجالين يبرز دون الآخر، وإذا كان من الواضح أنه بسبب أكلة واحدة تعدى فيها آدم أمر الله ألحقت العدالة الإلهية بالجنس البشري كله ما نرى من جزاء وعقوبة، كان لابد لنا أن نتصور أن محبة الله من الجانب الآخر تبذل كل شيء لفداء الإنسان وخلاصه!!.. والكتاب صريح وأكيد في أن الخلاص مبعثه الله: "لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية" (يو٣: ١٦). :" ٨ولَكِنَّ اللهَ بَيَّنَ مَحَبَّتَهُ لَنَا لأَنَّهُ وَنَحْنُ بَعْدُ خُطَاةٌ مَاتَ الْمَسِيحُ لأَجْلِنَا." (رو٥: ٨). وهذا التوازن بين عدالة الله ومحبته هو الذي يجعلنا نرفض فكرة محدودية الكفارة، وكون الله قصد بها فقط جماعة المختارين المؤمنين، إذ أن كفارة المسيح كانت عامة عن الجنس البشري كله، وإن كان الذين ينتفعون بها، ويقبلونها، وذات فاعلية فيهم، هم جماعة المؤمنين. والخلاصة في الأمر أن الخلاص هو النتيجة الطبيعية لمحبة الله، وأن المحبة هي السبب الحتمي لخلاص الإنسان.

الخلاص وطريقته

ولا حاجة إلى القول بأن اختلاف الأفكار والأديان يرجع أولا وأخيرًا إلى الاختلاف حول كيف يتم خلاص الإنسان، وكيف يمكن له أن يشق الطريق إلى الله مرة أخرى بعد سقوطه فما هي هذه الطرق المختلفة، وأيهما هو الصحيح والحقيقي والسليم؟ أو في لغة أخرى ما هب الطرق الخاطئة والطريق الصحيح إلى الله؟

١- طريق الخلاص الظني

أن أول طريق خاطئ يمكن أن يكون هو الطريق التصوري أو الظني الذي يبنيه الناس على مجرد تصوراتهم أو ظنونهم دون سند من وحي أو كتاب، إذ يتصورون أن الله يمكن أن يغفر الخطية بمجرد الإغضاء عنها أو نسيانها، ويقولون أنه إذا صح أن الإنسان يغفر بمجرد التسامح والنسيان، فهل يكون الله أقل من الإنسان في ذلك؟ مع العلم بأن الله هو الذي يطالب الإنسان بأن يغفر لغيره بالصفح والترك والتسامح والنسيان، ولكن القياس هنا مع الفارق البعيد، إذ أن الخطية من إنسان إلى إنسان آخر هي في الواقع جزء داخل من خطية هذا الإنسان تجاه الله، إذ هي جزء من التشويش أو الانحلال ضد الناموس الأدبي الذي يمثل طبيعة الله الظاهرة، الحياة، ومهما غفر الإنسان لأخيه الإنسان دون أن ينال الغفران الإلهي الشامل تجاه الله فمن العبث أن يقال أن موقفه صحيح تجاه الله، وأنه قد نال الخلاص، وإلا لما جاء في صلب الصلاة الربانية:" ١٢واغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا كَمَا نَغْفِرُ نَحْنُ أَيْضاً لِلْمُذْنِبِينَ إِلَيْنَا." (مت٦: ١٢) فإذا كان الغفران من إنسان إلى إنسان آخر كافيًا، لما كان ثمة حاجة إلى طلب غفران الله بالنسبة للخطايا مع الآخرين، بل لما كانت هناك حاجة لأن يشعر الإنسان عندما يخطئ إلى أخيه الإنسان بأن الجرم في الأمر إزاء الله في هذه الخطية يبتلع ويطوي الجرم إزاء البشر حتى أن داود عندما صاح تائبًا عن خطيته الكبرى لم يقل أنه أخطأ إلى بثشبع أو أوريا أو المملكة بل قال: "إليك وحدك أخطأت والشر قدامك عينيك صنعت" (مز٥١: ٤) وهذا كله ينتهي بنا مرة أخرى إلى تأكيد ما سبقت الإشارة إليه، أن الخطية تجاه الله هي الخطية ضد كمالات الله وطبيعته وناموسه ونظامه الأدبي، وأن هذه لا يكون فيها الغفران بمجرد التجاوز أو الإغضاء أو الإغفاء، لأن ذلك معناه في واقع الأمر هو

التجاوز أو الإغفاء أو الإغضاء عن الصفات الطبيعية والأدبية في الله كالعدالة والحق والقداسة والجمال... وقد يقال: ولكن أليس من حق الله وسلطانه، وهو صاحب السلطان الأدق والأعلى، أن يعفو بكلمة عمن يريد أو يشاء، وهل يكون الله أقل من الملوك أو الرؤساء الذين يستطيعون بكلمة أن يعفوا عن المجرمين والمحكوم عليهم بأقسى العقوبات؟!. ومرة أخرى نذكر هنا أن القياس مع الفارق لأن عفو الملوك الأرضيين أو الرؤساء إذا صح أنه نبيل وعظيم ومجيد، إلا أنه مع ذلك على حساب العدالة في إطلاقها وكمالها ومجدها، وأنه إذا صح أن البشر، لأنهم ناقصون. يغفون أو يتساهلون بدافع من نقصهم أو ضعفهم عن العدالة المطلقة فإن الله لا يمكن أن يغفو أو يتساهل قيد شعرة عن العدالة المطلقة. وأن القول أن الله قادر على العفو بمجرد كلمة، أن هذا القول يفهم القدرة الإلهية فهمًا خاطئًا!. لأن الله مع قدرته اللانهائية تود أشياء نقول بكل احترام وإجلال لا يقدر عليها، فمثلا يمكن أن نقول أن الله لا يقدر أن يخطئ ولا يقدر بحال ما أن يفعل شيئًا ضد طبيعته وكمالاته، ومن ثم يمكن أن نقول بملء اليقين أن الله لا يمكن أن يغفر الخطية بمجرد كلمة إلهية تصدر منه، لأنه لا يقدر أن يكون غير عادل أو غير قدوس أو غير حق، فإذا استحال على سبيل المثال أن يقف الحجر الساقط في الفضاء لأن ناموس الجاذبية يجذبه إلى الأرض، وهذا الناموس لابد أن يعمل عمله، استحال كذلك في معنى أعمق وأكمل أن يكون هناك الغفران لآية معصية أو خطية تصطدم مع ناموس الله الأدبي، وطبيعته وكمالاته ونظامه العام، ما لم تجد عقوبتها الكاملة، ومن ثم فإن المسيحية ترفض رفضًا باتًا تصور أن الله يعفو لمجرد العفو من غير جزاء كامل تحتمه العدالة الإلهية المطلقة!!..

٢- طريق الخلاص البشري

وإذ بات تصور طريق الخلاص الظني غير مفهوم أو مقبول عن طريق النص الكتابي أو القياس المنطقي، بحث الناس عن طريق آخر لعل فيه غناء، طريق يقوم على المجهود أو البذل البشري، وهذا الطريق كما تؤكد المسيحية لا يقل خطأ عن الطريق الأول، فهناك طريق الإذلال الجسدي الذي حاول به كثيرون في العصور المختلفة من التاريخ التقرب إلى الله عن طريق حرمان الجسد أو تعذيبه أو إيذائه أو فرض عقوبات مختلفة عليه، ولكن هذا الطريق خاطئ ومضلل لأكثر من سبب، أولا لأن المحكوم عليه بالإعدام لا يغير من الحكم عليه بالموت نتيجة الخطية أي تصرف يتصرفه إزاء جسده، والجنس البشري الساقط والمحكوم عليه بالموت نتيجة الخطية لا يغير من الحكم عليه أو يبدل فيه أي تصرف يقوم به الإنسان إزاء جسده.

ثانيًا: أن الجسد في حد ذاته ليس شرًا، وأن الخطية قبل وبعد كل شيء هي لوثة في الفكر والنفس والروح، وأن آدم وحواء لم يخرجا من الجنة لمجرد اقتطاف ثمرة أكلها الجسد بل لأنهما تعديا الوصية، وخانا العهد وخرجا على الحدود الموضوعة لهما، فحصر الأمر كله في الجسد وإيقاع العقوبة به، هو فهم ساذج للخطية والسقوط، وبعد أحمق عن أصل الداء وحقيقته ومستقره. وقد يمزق الإنسان جسده أو يعذبه أو يحرقه أو يوقع به أشنع وأرهب العقوبات دون أن يمزق أو يعذب أو يحرق أو يوقع العقوبة بالخطية الساكنة فيه. ألم ير الرسول هذه الحقيقة في القول: " وَإِنْ سَلَّمْتُ جَسَدِي حَتَّى أَحْتَرِقَ وَلَكِنْ لَيْسَ لِي مَحَبَّةٌ فَلاَ أَنْتَفِعُ شَيْئًا." (١كو١٣: ٣). في الواقع أن فكرة تعذيب الجسد للقضاء على الخطية فكرة وثنية قامت عند الوثنيين على أساس أن الجسد بطبيعته أساس الشر ومنبعه ومستودعه ومحركه، في حين أننا نعلم أن الله عندما صنع الإنسان صنعه في الأصل مستقيمًا، جسدًا وروحًا، كما أن الجسد لا يزيد عن كونه غلاف الروح والوعاء الذي تستقر فيه، وأن العقوبة التي توقع بالوعاء أو الغلاف أو الآنية لا يمكن أن تغير من طبيعة ما به من قذارة أو سم أو حال.

وثالثًا: لأن تعذيب الجسد فيه فهم خاطئ عن العدالة عند الله، وإذ أن الله الذي يهتم بأجسادنا وييسر لها سبيل الحياة والقوة والصحة لا يمكن أن يسر برؤية تعذيبها وحرمانها، بل أكثر من ذلك أن الإمعان في هذا التعذيب والحرمان هو خروج عن الرغبة والقصد الإلهي في استخدام أجسادنا الاستخدام الصحيح الحق السليم... إن كل ما يطلبه الله منا في معاملتنا لأجسادنا هو وضعها في الموضع اللائق بها، دون زيادة أو نقص، فهي لا يمكن أن تأخذ الأولوية على حساب النفس أو الروح، كما لا يصح أن تأخذ الآنية الخزفية الأولوية على الجوهر القائم بها، أو لغة أخرى أن الجسد لا ينبغي أن يكون سيد الإنسان بل عبده الطائع الصاغر له، فإذا ما حاول الجسد أن يخرج على هذا الوضع أو يتمرد كان من اللازم إخضاعه وترويضه كما يخضع ويروض الجواد الجموح، أو كما يفعل الرياضيون الذين يدخلون حلبة السباق والذين من واجبهم الأساسي للفوز في ميدان السباق ترويض أجسادهم واخصها بأسباب دقيقة من النظام والتمرين، والأمر الذي شبه به الرسول الحياة المسيحية في القول: " ألستم تَعْلَمُونَ أَنَّ الَّذِينَ يَرْكُضُونَ فِي الْمَيْدَانِ جَمِيعُهُمْ يَرْكُضُونَ وَلَكِنَّ وَاحِداً يَأْخُذُ الْجَعَالَةَ؟ هَكَذَا ارْكُضُوا لِكَيْ تَنَالُوا. ٢٥وَكُلُّ مَنْ يُجَاهِدُ يَضْبِطُ نَفْسَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ. أَمَّا أُولَئِكَ فَلِكَيْ يَأْخُذُوا إِكْلِيلاً يَفْنَى وَأَمَّا نَحْنُ فَإِكْلِيلاً لاَ يَفْنَى. ٢٦إِذاً أَنَا أَرْكُضُ هَكَذَا كَأَنَّهُ لَيْسَ عَنْ غَيْرِ يَقِينٍ. هَكَذَا أُضَارِبُ كَأَنِّي لاَ أَضْرِبُ الْهَوَاءَ. ٢٧بَلْ أَقْمَعُ جَسَدِي وَأَسْتَعْبِدُهُ حَتَّى بَعْدَ مَا كَرَزْتُ لِلآخَرِينَ لاَ أَصِيرُ أَنَا نَفْسِي مَرْفُوضاً." (١كو ٩ :٢٤-٢٧)، ومن هنا تقوم قاعدة كبح جماح الشهوات وعدم الإفراط في أي شيء، والإقلاع عن عبادة الجسد بالأكل أو الشرب أو ما أشبه من ينقله إلى المركز الأول من اهتمامنا، وبالجملة أن تصير النفس دائما وفي طول رحلتنا الأرضية في المقدمة...

فإذا ما أكدنا هذه الحقائق كلها تبين لنا إن البحث عن الخلاص عن طريق الإذلال الجسدي طريق خاطئ، مضلل، معكوس توضع فيه النتيجة موضع السبب، وتأخذ فيه الخاتمة مكان المقدمة، ويصور فيه الله تصويرا رهيبا كأنما يسر بعذابات الإنسان وآلامه، ويبعد بعدا أبديا عن الفكر المسيحي الذي يفهم الخلاص على أساس انه رفع العقوبة عن جنس بشري خاطئ محكوم عليه بالموت، وإصلاح طبيعة فاسدة في الفكر والروح والنفس والقلب الملوثة جميعا ببرص الخطية وشرها قبل أن يلوث الهيكل الجسدي في الإنسان..

وهناك طريق أخر عند الناس هو طريق الطقوس والفرائض التي يتوارثها الناس من جيل والى جيل ومن عصر إلى عصر، ومن الواضح إن هذه الطقوس والفرائض لا يمكن أن تكون سبيلا للخلاص من الخطية لأنها في حقيقتها ليست إلا رموزا أو مظاهرات أو إشارات إلى الحقائق والإسرار التي ترمز إليها وتدل عليها وتفصح عنها، والخطية لا يمكن أن تستأصل ويقضى عليها بمجرد الرموز أو الإشارات أو المظاهر. إن الخطية شيء عميق غائر، ضرب شعابه في الجنس البشري كما يضرب ويتغلغل السرطان في الجسم، وأي طقس أو فريضة لا يمكن أن يخلص منها كما لا يستطيع أي علاج ظاهري أن يستأصل المرض الخبيث المتعمق والذي مد جذوره في جسد الإنسان.

وهناك طريق ثالث يمكن أن يدعى طريق الأعمال التي يتوهم فريق من الناس أنها تخلصهم وتدنيهم من الله في اليوم الأخير. ولا نعتقد أن هناك طريقا مضللا وخدّاعا كما يضلل ويخدع طريق الأعمال. ولعل اقرب شبه له هو صدقة الزانية، وإذا صح أن هذه الصدقة يقبلها الناس فإنها مكرهة في نظر الله، وبما إن الجنس البشري ساقط وخاطئ أمام الله، فكل عمل يأتي عن الساقط أو الخاطئ لا يمكن أن يصحح وضعه أو يغير مركزه، والكتاب صريح في إن أفضل أعمال النجس نجسة مثله، ألم يصح اشعياء قائلا: "قد صرنا كلنا كنجس، وكثوب عدة أعمال برنا " (اش٦٤: ٦).ولعل هذا يظهر بوضوح فيما ألف الناس

أن يقدموه من تقدمات وعطايا وقرابين وما أشبه في هيكل الله في القديم، ومما كان يطلق عليه "الأقداس"، وطبعا هذه الأقداس هي أفضل تقدمات الناس إلى الله، ولكن رئيس الكهنة كان يضع مع ذلك على جبهته صفيحة من ذهب مكتوب عليها "قدس للرب" ليحمل هرون أثم الأقداس، أو في لغة أخرى إن أفضل قربان وتقدمة وعطايا يقدمها الإنسان إلى الله لا تخلو من شائبة الإثم والتلوث والخطية، ولا يمكن أن تقبل أمام الله إلا بشفاعة رئيس الكهنة. وهذا حق لان الإناء ينضح بما فيه، والنبع القذر لا يمكن أن يعطي ماءا صافيا، والأعمال الصالحة نتيجة للخلاص وليست سبب له، وان الثمرة الحلوة برهان على طبيعة الشجرة وليس أساسا لها أو أصلا لحياتها، والله لا ينظر إلى أفضل أعمال الخطاة والأشرار إلا كما ينظر القانون إلى الرشوة المقدمة من الراشي لنيل طلب أو مصلحة.. وإذا كان جل جلاله قد حرّم أن : "١٨لا تُدْخِلْ أُجْرَةَ زَانِيَةٍ وَلا ثَمَنَ كَلبٍ إِلى بَيْتِ الرَّبِّ إِلهِكَ عَنْ نَذْرٍ مَا لأَنَّهُمَا كِليْهِمَا رِجْسٌ لدَى الرَّبِّ إِلهِكَ. (تث٢٣: ١٨). فان هذا ليس إلا رمزا لتقدمات الأشرار و الخطاة أمامه مهما يكن مظهر هذه التقدمة أو شكلها أو لونها أو صورتها.

هذه هي الطرق الخاطئة المرفوضة عند الله للخلاص، ومن المؤسف حقا إن الشيطان استخدمها في صور لا عدد لها ولا حصر من أفكار ومبادئ وديانات ومذاهب ليضيع بها الملايين المتعددة من بني البشر بعيدا عن طريق الخلاص والحياة الأبدية.

٣- طريق الخلاص الإلهي

أما وقد أدركنا الطرق الخاطئة التي تعثرت فيها حشود هائلة من الموكب البشري هنا وهناك، ف فترات مختلفة من التاريخ،بدأ من اللازم أن نعرف بوضوح طريق الخلاص الإلهي ونرسم معالمه وسماته، حتى يتجنب ابسط الناس وأيسرهم فهما الزلل فيه أو التنكيب عنه أو الانحراف عن خطه الصريح المستقيم الكامل المنتهي إلى عرش الله وفردوسه.. ولعل هذا الطريق يتميز على الأقل بالحقيقتين الأساسيتين التاليتين :

١- إن خلاص الإنسان من الله وبترتيبه!.. وهذا أمر طبيعي بديهي لأنه لا يمكن أن يصنع هذا الخلاص ويرتبه سوى الله وحده إذ من يستطيع أن يجمع بين العدالة الكاملة والرحمة الكاملة، وبين القداسة الكاملة والمحبة الكاملة سوى شخص الله وحده، أليس الله هو اعدل العادلين وارحم الراحمين معا، وألبس هو القدوس الطاهر الذي هو نار آكلة، وفي الوقت عينه هو المحبة الكاملة، ومن يستطيع أن يصنع نظاما لخلاص الإنسان الساقط ورفعه من هذا الشر أو الخطية، وفي الوقت عينه تظهر هذه الكلمات الإلهية في أجلى بيانها واكل مظاهرها إلا الله وحده، أليس هذا ما عناه المرنم عندما قال : "إِنِّي أَسْمَعُ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ اللهُ الرَّبُّ. لأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ بِالسَّلاَمِ لِشَعْبِهِ وَلأَتْقِيَائِهِ فَلاَ يَرْجِعُنَّ إِلَى الْحَمَاقَةِ. ٩لأَنَّ خَلاَصَهُ قَرِيبٌ مِنْ خَائِفِيهِ لِيَسْكُنَ الْمَجْدُ فِي أَرْضِنَا. ١٠الرَّحْمَةُ وَالْحَقُّ الْتَقَيَا. الْبِرُّ وَالسَّلاَمُ تَلاَثَمَا. "(مز٨٥: ١٠). أجل فان أي خلاص يتصوره إنسان أو يبتكره خياله، لابد أن يكون ناقصا كنقص هذا الإنسان عاجزا كعجز خياله، فإذا أضيف إلى هذا إن ذات طبيعة الله وصفاته في مقارنتها مع طبيعة الإنسان وصفاته تحتم صدور الخلاص من الله، إذ أن الخلاص والإنقاذ يأتي في العادة من الأكبر إلى الأصغر، ومن الأقوى إلى الأضعف، ومن الأكرم إلى الأشح، ومن القادر على كل شيء إلى العاجز عن كل شيء!!.. فإذا بدا في الجانب الواحد الله الغير محدود في عظمته وقوته وكرمه وحبه وجوده، وفي الجانب الأخر الإنسان الحقير الملوث المجرم الخاطئ العاجز المعدم، لم يعد هناك للتساؤل أيهما يصنع الخلاص وأيهما يرتبه ويدبره!؟ ومن ثم كان من البديهي والمنطقي آن يسعى الله وهو آب جوادا إلى إنقاذ الإنسان كابن عاجز منحدرا.. وان يتبع كراع عظيم الحمل الضائع التائه، وفي مجاهل الخطية

والشر.. بل كل هذا يعلل لما لم يكن الخلاص أمرا طارئا عند الله بل هو ترتيب أزلي في علم الله وحكمته ومشورته المحتومة، إذ أن الله الحكيم العالم بكل شيء لم ينتظر حتى يسقط الإنسان، وبعد ذلك يفكر في أمر خلاصه بل جهز واعد هذا الخلاص في حكمة فائقة قبل الدهور الأزلية مما جعل الرسول يلهج بالترنم إزاء : "الحكمة المكتوبة التي سبق الله فعينها قبل الدهور لمجدنا" (١كو ٢: ٧). وكل هذا تجعلنا نجزم ونؤكد أن ترتيب الخلاص من الألف والياء، ومن البداية إلى النهاية ومن الجملة إلى التفصيل، يرجع أولا وأخيرا ودائما إلى شخص الله وحكمته وجوده وحنانه وحبه وقدرته.

ثانيا: إن خلاص الإنسان يقوم أساسا على الفداء، إذ إن الخلاص ليس مجرد فلسفة بل هو الحقيقة العملية لا محيص منها لرفع الخطية كدين وكفساد عن الجنس البشري، وأي نظرية لا تقوم على تصحيح هذين الوضعين تعتبر نظرية باطلة غير سديدة أو سليمة، فإذا كان من المسلم به إن آدم سقط، وان السقوط لم يلحقه وحده بل لحق الجنس البشري بأكمله، إذ كان آدم نائبه وممثله في الامتحان الإلهي، وكان وصول الخطية إلى البشر آتيا إليهم – على خلاف الملائكة الذين سقطوا فان سقوطهم كان فرديا – عن النيابة والوراثة، إذ لم يكن أحدا من أبناء آدم هناك ليشترك مع الأبوين اشتراكا حرا مستقلا فعليا في التعدي والسقوط، كانت العقوبة أيضا أو الدين يتحتم بالطريق المقابل أن يتحملها نائب عن الجنس البشري وممثل له...ومن هنا برزت فكرة المخلص الذي يخلص العالم، وكان من المتعين أن يعبر هذا المخلص عن قدرة الله ومحبته الكاملة في إنقاذ الجنس البشري ومثل هذا التعبير الكامل لا يمكن إن يصدر عن شخص أخر سوى الله ذاته.. والصعوبة الوهمية في هذا الأمر انه من المستحيل على الله إن يتنازل مثل هذا التنازل أو يقبله، وفضلا على انه ليس في قدرتنا أو حكمتنا إن نحكم على طبيعة أعمال الله فان السؤال يبقى قائما، ولكن هذا يقلل أي عمل أو بذل يبذله الله من اجل الجنس البشري الساقط، هل يقلل هذا العمل من عظمة الله ومجده وجلاله وسلطانه، والجواب الأكيد بالنفي القاطع.. إذ انه واضح إن اعلي ما في الوجود المحبة، واعلي ما في المحبة البذل الكامل، وانه كلما تدرجت المخلوقات في السمو والترقي كلما ظهرت المحبة!!.. وكلما علت المحبة علت مراتب التضحية، فالمخلوقات الدنيا تأكل بعضها بعضا لأنها لم تصل بعد إلى مرتبة المحبة، ولكن ما تتدرج المخلوقات في السمو حتى تأخذ في التعبير عن المحبة عن طريق العناية والرعاية فتطعم أولادها، أو تدفع عنهم الخطر أو الأذى، فإذا علت المحبة أكثر وضحت بجلاء فكرة التضحية والبذل حتى تبلغ أعظم مراتبها في الإنسان كتاج الخليقة على الأرض، والإنسان في مراتبه كانسان يصعد على قدر ما يبذل من إيثار وتضحية وبذل، وأعظم رواد الإنسانية وأبطالها وعظمائها كانت تقاس عظمتهم ومجدهم على مقدار ما حادوا وبذلوا، بل كانت آلامهم ومتاعبهم ومآسيهم أنبل صفحات كتبها الإنسان على الأرض، ولم يقل احد إنها قللت من شانهم أو حطت من عظمتهم، فإذا صح إن توصف محبة الإنسان بهذا الوصف فهل تكون محبة الله ادني واقل... ونحن نعلم بداهة أنها تعلو على اسمي محبة بشرية علوا سرمديا؟! كلا والى الأبد كلا! بل إن محبة الله الظاهرة في فداء الجنس البشري هي أعظم وأروع محبة تعلن عن مجد الله وعظمته السرمدية.. إن قلب الفداء في العقيدة المسيحية هو إن الله الذي هو محبة لم يتركه لمخلوق يتممه، ولم يقف منه موقف المراقب أو المحفز على إتمامه، بل أتمه وأنجزه كما يقدم المحب العظيم على فداء حبيبه وأثيره، مهما يكن الثمن الذي يبذل في سبيل المحبة.

والحقيقة الثانية في المخلص انه لكي تتم وتصبح نيابية عن الجنس البشري، لابد إن يندمج في هذا الجنس ويصبح واحدا منه، إذ إن الغريب عن الجنس لا يمكن إن ينوب عنه نيابة كاملة، ومن البداهة انه لكي يفدي هذا النائب غيره من الخطية لابد إن يكون كاملا مبررا من الخطية، إذ فاقد الشيء لا يعطيه، ومن ثم كان من الضروري إن يتجسد المسيح ويأتي إلى العالم، والمسيح وحده بهذا المعنى هو الذي يستطيع إن ينوب عن البشر ليصبح كما أطلق الكتاب عليه "آدم الثاني" وكما أطلق هو

على نفسه ما يقرب من ثمانين مرة "ابن الإنسان" وكما ناب آدم الأول عن الجنس البشري في السقوط ناب آدم الثاني عن الجنس البشري في الكفارة والفداء. ولا يمكن إن يكون الأمر بعد ذلك غريبا أو عجيبا مادمنا إن نسلم بالحقيقة الواقعة التي لا مفر منها، بأنه بخطية الإنسان الأول دخلت الخطية إلى العالم، فمن المقبول أو المعقول إذا، انه بفداء الأخر أو بره ترفع الخطية عن العالم نفسه.

والحقيقة الثالثة في المخلص انه لابد إن يدفع الثمن كاملا لرفع الخطية عن العالم، وإلا كان الأمر مجرد تمثيلية بعيدة عن الحقيقة والواقع! ومن ثم لم يكن صليب المسيح مجرد دفاع عن مبدأ يؤثر الإنسان الموت على تركه، أو استشهاده من اجل عقيدة يتمسك بها صاحبها، وإلا لما افترق موت المسيح عن موت الشهداء وأصحاب المبادئ والمثل، ولكن موت المسيح كان كفارة وفداء عن العقوبة التي وقعت عن الجنس البشري كله بسقوط وخطية نائبه الأول، وقد يتصور البعض إن هذا الكلام مبتدع وغريب ولا يسهل الإيمان به وتصديقه، ولكن الواقع يؤكد إن مبدأ النيابة هو اعم مبادئ الطبيعة والحياة وأظهرها، فأينما سرت واتجهت تجد المبدأ النيابي مرسوما في كل مكان! فالطبيعة تفت الصخر لتقدم الطمي الذي يبعث الخصوبة في الأرض، والشمعة تحترق وتذوب لكي تعطي النور والضياء، وعندما تتحول عذراء القز إلى فراشة تأخذ سبيلها إلى الموت عندما تخلف ورائها ما يمكن أن يصبح مئات مثلها! والإباء والأمهات في تعبهم وكدهم وبذلهم وتضحياتهم ليسوا إلا صورة متكررة دائمة لجيل يفنى لكي يبعث الحياة من جديد في جيل أخر. وألم يكن اوسكار ويلد على حق عندما صور لنا الأمومة في صورة ذلك الطفل الذي اخذ يصرخ طالبا وردة الحياة الحمراء، والتي قيل إنها لا توجد إلا في شجرة بعيدة يرويها الدم، وإذ بطائره العزيز يسعى حتى يبلغ هذه الشجرة ويرفرف فوقها بجناحيه، وينحني على أشواكها مغردا، والشوك ينفذ في صدره وهو يرويها بالدم حتى يحقق للصغير أمنيته الحلوة وأمله الحبيب.. وألبست إلام هي ذلك الطائر الفريد الذي يموت متغنيا وهو يحتضن صغاره تحت جناحيه.. وهذه وغيرها من صور وأمثال تجعل المبدأ النيابي هو الظاهرة العظمى في الحياة، وتجعل الصليب هو القمة العليا لهذا المنبث في أحشاء الطبيعة والحياة، بل تكشف عن الحقيقة العجيبة الجلية، وهي إن الموت على الدوام هو مفتاح الحياة، والبذل أساس الإثمار والإخصاب، ولذا لا عجب أن يقول المسيح وهو يتحدث عن الصليب : "اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ لَمْ تَقَعْ حَبَّةُ الْحِنْطَةِ فِي الأَرْضِ وَتَمُتْ فَهِيَ تَبْقَى وَحْدَهَا. وَلَكِنْ أن مَاتَتْ تَأْتِي بِثَمَرٍ كَثِيرٍ. (يو١٢: ٢٤).

والذي يجعل الصليب أمرا لا مفر منه، أو غير بديل لخلاص البشر هو إن الذبائح الدموية المعروفة والقديمة قدم الإنسان كانت ترمز إليه وتشير من اليوم الذي أعلن فيه الله لأبوينا الأولين : إن نسل المرأة سيسحق رأس الحية، وصنع لهما من الذبيحة أقمصة جلدية لتغطي عريهما!!. ومن البديهي إن الذبائح الحيوانية لا يمكن أن تكون مقصودة لذاتها، لان الحيوان الذبيح لا يمكن أن يرفع خطية ارتكبها الابنان، وإنما كانت هذه الذبائح إشارة ورمزا إلى إن أجرة الخطية هو موت، وان مرتكبها كان يلزم أن يموت كما تمت الذبيحة، وتحرق، لولا أن الله نقل الحكم ووجد له فدية تأخذ مكانه الذبيحة المذكورة... وهذه العملية لم تكن ترفع الخطية عن مرتكبها فحسب بل تحذره وتدفعه لعدم ارتكابها مرة أخرى، إذ إنها تكشف له عن المصير الرهيب الذي تفعله الخطية لمرتكبها إن لم يتب ويندم، ومن ثم كانت الذبيحة تحرره من دين الخطية، وتعمل أيضا على تطهيره من فسادها ودنسها وشرها... وهذا ما يفعله الصليب أيضا إذ هو رافع العقوبة والدين، وشاف ومطهر من اللوثة والطبيعة الفاسدة التي يقترب من الصليب لا يتحرر فقط من جرم الخطية، بل لا يملك إلا أن يكرهها ويمقتها لما يراه من فعلها الرهيب وعقوبتها المخيفة. ومن ثم حق للرسول يوحنا أن يقول: "٧هَذَا جَاءَ لِلشَّهَادَةِ لِيَشْهَدَ لِلنُّورِ لِكَيْ يُؤْمِنَ الْكُلُّ بِوَاسِطَتِهِ. ٨لَمْ يَكُنْ هُوَ النُّورَ، بَلْ لِيَشْهَدَ لِلنُّورِ. ٩كَانَ النُّورُ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي يُنِيرُ كُلَّ إِنْسَانٍ آتِياً إِلَى الْعَالَمِ(يو١: ٧-٩).

الخلاص وقبوله

ومن كل ما أشير إليه سابقا يتبن إن الخلاص منحة وعطية من الله للإنسان، وكل ما ينتظر من الإنسان قبول المنحة والتمتع بها، إذ لا يمكن أن يجبر على قبولها احد، ولقد عرض على القضاء الأمريكي ورقة عفو ضد مجرم حك عليه بالإعدام، ولكن رئيس الجمهورية عفا بقرار عنه، غير أن لشدة دهشة الناس، رفض ورقة العفو، فعرض الأمر على المحكمة العليا للولايات المتحدة، فقضت إن ورقة العفو تكتسب قوتها وأثرها بقبول من صدرت لمصلحته، واعدم المجرم لأنه رفض الخلاص المقدم له، ولقد جهز الله الخلاص للناس في المسيح يسوع الذي اخذ مكان الإثم وحمل عقوبته، وواجبي الوحيد أن اندمج فيه واقبل نيابته وأتمتع بثمرتها.

وقد عبر الرسول بولس عن هذه الحقيقة بالقول:" مَعَ الْمَسِيحِ صُلِبْتُ، فَأَحْيَا لاَ أَنَا بَلِ الْمَسِيحُ يَحْيَا فِيَّ. فَمَا أَحْيَاهُ الآنَ فِي الْجَسَدِ فَإِنَّمَا أَحْيَاهُ فِي الإِيمَانِ، إِيمَانِ ابْنِ اللهِ، الَّذِي أَحَبَّنِي وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لأَجْلِي." (غلا٢: ٢٠) وهذا هو المعنى المنسجم والمتسق مع فكرة النيابة، إذ كما أتيح لي أن اسقط في أبي الأول آدم كما لو كنت حاضرا معه، ومندمجا فيه ومشتركا في السقوط الذي سقطه، هكذا أنا بالنسبة للخلاص الأتي من المسيح، وفي المسيح، إذ يبدو، كما لو إني كنت هناك في المسيح ومعه يوم الصليب واندمجت فيه، واشتركت في تحمل العقوبة، وأخذت كل نتائج الصلب وأثارها الكاملة في حياتي. وقد يتضح هذا أكثر عندما نعلم حقيقة علاقة المسيحي بالمسيح، إذ إن هذه العلاقة ليست علاقة التابع بالسيد أو الجندي بالقائد أو التلميذ بالمعلم، بل هي أكثر من هذا كله، علاقة الغصن بالكرمة وعلاقة العضو بالجسد، أو في لغة أخرى علاقة الشركة الواحدة والاندماج الكلي، فالمسيح لذلك هو رأس المؤمنين وهو جسد الكنيسة، والمؤمنون جميعا قائمون به وفيه ومعه في اتحاد سري عجيب، ومن ثم لا يملك الرسول أن يقول: "لأنكم قد متم وحياتكم مستترة مع المسيح في الله" (كو٣:٣).

على إن السائل قد يسال هذا السؤال، ولكن كيف تتحقق لي هذه الشركة وهذا الاتحاد المرموق؟ والجواب بسيط وواضح ومستقر في كلمة واحدة: "الإيمان"... وقد سال سجان فيلبي بولس وسيلا هذا السؤال عندما صرخ أمامهما :"يا سيد ماذا ينبغي أن افعل لكي اخلص؟" (اع١٦: ٣٠) فجاء الجواب الوحيد الحاسم : "امن بالرب يسوع المسيح فتخلص أنت وأهل بيتك" (اع١٦: ٣١) ولربما يسال السائل سؤالا أخر : ولكن لماذا جعل الله الإيمان الأساس الأول والأخر والوحيد للتمتع بالخلاص؟!!

توجد أسباب متعددة لذلك أهمها:

١- سهولة الخلاص بالإيمان: إذ لا يحتاج الأمر من أي إنسان ليخلص أكثر من الإيمان القائم على الثقة واليقين والقبول والاطمئنان، وهذه جميعها يمكن للصبي الصغير والفيلسوف، الأمي والمتعلم، والمعدم والغني، والعبد والحر أن يتمموها من غير مشقة وفي ادني يسر، كما إن الخلاص بالإيمان لا يحتاج إلى زمن ووقت لمن يرغب فيه أو يمسك به، إذ انه ادني إلى الإنسان من لفتة. وقديما أوصى الله موسى أن يرفع في البرية حية نحاسية حتى إن كل من لدغته حية محرقة ونظر إلى الحية النحاسية شفي، ولم يكن هذا إلا رمز للخلاص بالإيمان بالمسيح المصلوب الشافي من سم الخطية بالصليب، ولذا قال السيد المسيح لنيقوديموس : "وَكَمَا رَفَعَ مُوسَى الْحَيَّةَ فِي الْبَرِّيَّةِ هكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُرْفَعَ ابْنُ الإنسان ١٥ لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ."(يو٣: ١٤، ١٥).

وقال الله على لسان اشعياء: "التفتوا إلى واخلصوا يا جميع أقاصي الأرض لأني أنا الله وليس أخر"(اش٤٥: ٢٢) كما إن العشار الخاطئ وجد بره وغفرانه في الحال عندما صاح في هيكل الله : "اللهم ارحمني أنا الخاطئ" (لو١٨: ١٣) وظفر اللص التائب في أخر لحظة من لحظات حياته بالفردوس المجيد وهو معلق على الصليب عندما صاح للمسيح المصلوب: "٤٢ثُمَّ قَالَ لِيَسُوعَ: «اذْكُرْنِي يَا رَبُّ مَتَى جِئْتَ فِي مَلَكُوتِكَ». ٤٣فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنَّكَ الْيَوْمَ تَكُونُ مَعِي فِي الْفِرْدَوْسِ».(لو٢٣: ٤٢، ٤٣).

٢-مسئولية رفض الخلاص تصبح مسئولية قاسية: إذ انه سهولة الإيمان بالخلاص تجعل مسئولية الرفض مسئولية قاسية، إذ لا يكون لأي إنسان بعد عذر في رفضه، وهل يعذر إسرائيلي في ليلة الخروج من مصر لأنه لم يضع الدم على القائمتين والعتبة العليا في بيته حتى يعبر الملاك المهلك؟ وهل يعذر أي إنسان عن الإيمان بالصليب مادام الأمر لا يكلفه أكثر من التوبة الصادقة والاتجاه الأمين إلى الثقة بالغفران في الصليب!؟ ومن المؤسف والمحزن حقا إن هذا اليسر أضحى في نظر الكثيرين عسرا، إذ أنهم لا يصدقون أن الله يمكن أن يقبل الإنسان بمثل هذه السهولة ليغفر له جميع خطاياه وآثامه، وإنهم كانوا ينتظرون أن يكلفهم الله بما يشق أو يعسر حتى ينالوا الخلاص.. وقديما غضب نعمان السرياني عندما ذهب إلى اليشع النبي ليشفيه من مرض البرص، لان اليشع طلب منه أن يذهب ويغتسل سبع مرات في الأردن فيرجع لحمه إليه ويطهر، وكاد يرفض إذ كيف يمكن أن يكون الخلاص من البرص بهذه السهولة، حتى أقنعه عبيده وغلمانه بالطاعة، الأمر الذي لما فعله شفي!!.. إن أقسى مسئولية تقع على من يرفض الخلاص هي لأنه يرفض أعظم منحة قدمها الله في أيسر سبيل وأسهل تقديم...

٣- واهم من الأمرين السالفين وأعظم هو إن الله جعل الخلاص بالإيمان: لان الإنسان لا يستطيع إن يناله بطريق أخر، ولان مجد الله وكرامته وجوده في الخلاص كلها متعلقة بهذا الطريق... لقد جعل الخلاص مجانا لسبب بسيط هو إن احد لا يستطيع إن يشتريه أو يشارك فيه أو يصنعه... وأعظم هبات الله وعطاياه هي التي يقدمها لجميع الناس مجانا ومن غير ثمن، وإلا فمن يستطيع إن يعطي ثمنا للنور والماء والهواء. فإذا صح أن يقال هذا عن العطايا المادية وأشباهها، فان عطية الخلاص أعظم، بل إن مجرد عرض ثمن أي ثمن مهما كان في نظر صاحبه غاليا وكبيرا، يعرض عطايا الله للامتهان والتحقير..

وإذا صح إن الإنسان في حق إنسان مثله، إذا حاول إن يقوم المعنويات العليا كالشرف والكرامة والمحبة والإيثار والبذل بالمال، فكم هو إثم وشر ودنس إذا تصورنا انه يمكن إن نشتري الخلاص و نشارك في الحصول عليه، ويكون مثلنا في هذه الحالة كمثل امرأة فقيرة دعيت أولادها إلى حفل عشاء عظيم، وبعد إن تناول الجميع الطعام ذهبت إلى صاحب الدعوة الكريم الغني، وحاولت إن تقدم له بعض الدراهم بالقول إن هذا يوافق على وجه التقريب ثمن ما أكلته هي وأولادها!!.. هذا بالضبط حال من يتصور انه يمكن إن يحصل على الخلاص عن طريق مال يقدمه إلى الله أو أعمال يقوم ويساهم بها، أو ما أشبه من مجهود بشري.. ولعلنا نذكر هنا تقدمة أو لأخوين في التاريخ البشري عندما أرادا إن يتعبدا لله، وان يتقربا إليه، فلم يصدق قايين أو يؤمن بفكرة الذبيحة، وامن بها هابيل، فجعلهما الله مثلين خالدين للبشرية كلها، إذ رفض تقدمة قايين وقبل ذبيحة هابيل، ولعل من أجمل ما قيل بهذا الصدد كلمات دكتور أ.ب. سمسون عندما وصف الاثنين بالقول:

" إن الرجلين اللذين وقفا على أبواب عدن ليعبدا الله يمثلان الجنس البشري في انقسامه إلى مؤمنين وغير مؤمنين.. أما الرجل الأرضي فيبدو في ديانته كما لو انه أكثر طرافة وكياسة ومجالا إذ يقدم من إثمار تعبه ومن أولها وأحسنها! أو في لغة أخرى انه يقدم زهور الربيع العطرة النقية وثمار الصيف الناضجة الغنية، وربما بدا مذبحه أكثر جمالا وبهاء، إذ قورن بالمذبح

الخشن غير المصقول الذي قدم هابيل عليه الذبيحة المقدمة، والتي تبدو في صفرة الموت لحمل دام محتضر ملتهب! غير إن تقدمة قايين في جملتها ليست إلا نكرانا تاما شاملا لكل ما قاله الله عن لعنته للأرض وإثمارها، وعن حقيقة الخطية والحاجة إلى مخلص مكفر، الأمر الذي أوضحه الله لأدم وحواء عندما صنع لهما اقمصة من جلد، والذي لا شك انه أكده أكثر من مرة في تعاليمه ووصاياه لكليهما... ولم تكن ذبيحة هابيل سوى اعتراف وديع متضع بكل هذه، وقبول صريح واضح لطريقة الله في الغفران والقبول".

وغير إن هذا يقودنا بالبداهة إلى السؤال الجوهري الحيوي في الدين : إذا كان الأمر كذلك فما معنى الأعمال الصالحة وما قيمتها وما مركزها؟ ومن اللازم إن نكرر على الدوام من هنا والى الأبد، إن الأعمال الصالحة لا قيمة لها بتاتا في الخلاص، ولا يمكن إن تساعد الإنسان قيد أنملة في الحصول على الخلاص، وان الخلط والتخبط اللذين يقع فيهما عدد كبير من الناس مرجعهما عدم وضوح هذه الحقيقة وجلائها..

إن الأعمال الصالحة هي النتيجة الحتمية للخلاص، والنتيجة لا يمكن إن تكون بحال ما سببا، أو في لغة أخرى إن الإنسان يعمل أعمالا صالحة لأنه خلص، ولكنه لا يخلص لأنه عمل أعمال صالحة، إن الأعمال الصالحة هي البرهان على الخلاص، وليست القاعدة التي يقوم عليها أو يبنى.. إن الإيمان، والإيمان وحده، هو الذي يخلص، ونسبة الأعمال إلى الإيمان هي نسبة الثمر إلى الأصل، لا الإضافة إليه أو الشركة معه... وقد وضح هذا في ذهن الرسول بولس فتحدث عن كفاية الإيمان للخلاص بدون أعمال بالقول: "٥وَأَمَّا الَّذِي لاَ يَعْمَلُ وَلَكِنْ يُؤْمِنُ بِالَّذِي يُبَرِّرُ الْفَاجِرَ فَإِيمَانُهُ يُحْسَبُ لَهُ بِرّاً. (رو٤: ٥). وقد يتضح هذا أكثر في أذهاننا إذا ذكرنا مثلا: إن المركز القانوني للإنسان يتم حال استيفاء الشروط الخاصة المعينة من القانون، فالزواج على سبيل المثال يتم حال توقيع الزوجين العقد بعد استيفاء الشروط القانونية الخاصة بذلك، ومن اللحظة التي ييتم فيها التوقيع القانوني يأخذ كل من الزوجين مركزه القانوني، وكافة اثأر هذا المركز، بمعنى انه لو مات احد الزوجين في الدقيقة التالية للتوقيع فان الطرف الأخر يرثه رغم إن الممارسة الفعلية للحياة الزوجية لم تتم!!

كما إن العقد المعبر عن إرادة صحيحة سليمة ينتج كافة أثاره، حتى ولو مات احد المتعاقدين في الحال عقب إتمامه، دون ما حاجة إلى اشتراط التنفيذ أو البدء في العمل.. وهكذا الخلاص يتم بالإيمان الصحيح أما الله، فإذا ما مات الإنسان في اللحظة التالية لهذا الإيمان دخل في الحال إلى فردوس الله، إذ يأخذ مركز المؤمن القانوني أمام الله، رغم انه لم يتح له فرصة للخدمة أو اعمل على وجه الإطلاق.. على انه بما إن الإيمان حالة داخلية وشعور خفي، فان الله وحده هو الذي يستطيع الحكم على الإيمان المعبر عن إرادة صحيحة، والإيمان الزائف أو الصوري، والإنسان لذلك لا يستطيع مثل هذا الحكم حتى يعبر الإيمان عن نفسه بمظاهر خارجية، وهذه المظاهر وحدها هي التي تكسف عن معدن هذا الإيمان، ومبلغ ما فيه من صحة أو زيف، ومن حق أو بطل، ومن حياة أو موت.

وقد دافع الرسول يعقوب عن هذه العلاقة بين الإيمان والأعمال، ولم بكن يقصد إنهما طرفان يستقل ألواح منهما عن الأخر بدليل قوله:" ١٨لَكِنْ يَقُولُ قَائِلٌ: «أَنْتَ لَكَ إِيمَانٌ، وَأَنَا لِي أَعْمَالٌ!» أَرِنِي إِيمَانَكَ بِدُونِ أَعْمَالِكَ، وَأَنَا أُرِيكَ بِأَعْمَالِي إِيمَانِي. (يع٢: ١٨). مما يبين إن الأعمال برهان الإيمان وثمرته ومظهره، وهذا واضح وابلغ وضوح في القول :"وأنا اريك بالعمالي إيماني"... وقصارى القول إن الأعمال لا شان لها على الإطلاق بإنشاء مركز المؤمن القانوني أمام الله، وان كانت تعبر عن

الآثار والمظاهر لهذا المركز بعد وجوده وشانه!!.. وأما المركز نفسه فينشا بشيء واحد لا غير، ونعني به الإيمان ولا سواه على الإطلاق.

علاقة المؤمن بالناموس

وإذا انتهينا إلى هذا كله لم يبق إلا سؤال أخير كثيرا ما احدث الاضطراب أو الاختلاف في إفهام الناس في الكنيسة المسيحية وهو : ما علاقة المؤمن بالناموس، وهل هو مكلف بحفظ هذا الناموس سواء كان ناموسا أدبيا أو طقسيا، أم مكلف بحفظ الناموس الأدبي دون لطقسي، أم لا علاقة له بالناموس على وجه الإطلاق.

ولعل الإجابة على كل هذا لا يمكن إن تكون واضحة أو مستوفاة ما لم نفهم معنى الناموس وحقيقته بل ما لم نلم بتاريخه، وهل كان الناموس الموسوي هو أول ناموس وضعه الله أمام الإنسان؟

إن كلمة ناموس تعني في مدلولها العام، النظام، أو القانون كمثل ما يقال عن ناموس الجاذبية أو الكهربائية أو المغناطيسية أو الحرارة أو ما أشبه من نواميس الطبيعة، فهذه كلها تعني النظام أو القوانين الثابتة التي تعمل بها وتسير وتؤثر وتتحكم، أو كمثل ما يقال عن المجتمع أو قوانينه المتعددة التي تنظم علاقة الناس بالدولة، وعلاقتهم بعضهم ببعض فيما يصطلح على تسميته بالقانون العام، والقانون الخاص.. ومن ثم كان من البديهي إن يحكم الإنسان بناموس ينظم علاقته بالله وبأخيه الإنسان وفقا للطبيعة الأدبية في الله والإنسان معا، والناموس في الواقع ما هو إلا هذه الطبيعة الأدبية التي أودعها الله في الإنسان عندما صنعه في الأصل على صورته وشبهه... ومن ثم فقد كان هناك ناموس قديم يقدم لإنسان نفسه قبل إن يظهر الناموس الموسوي في التاريخ، وهذا الناموس هو ناموس الضمير الموجود في أي إنسان أينما وجد هذا الإنسان وفي أي حالة كان على ظهر الأرض. ولم يأت ناموس موسى إلا ليكشف وبوضوح ويحدد ويظهر طبيعة هذا الناموس، على وجه لا يسمح بالغموض أو الإبهام أو التباس المفاهيم أو المدلولات أو عدم انضباطها تماما أمام الضمير..

ومن الواضح إن العدالة الإلهية لا يمكن إن تحاكم الإنسان إلا غلى أساس ما يعي أو يفهم أو يدرك، ومن ثم فإنها لم تحاكم الذي قبل الناموس الموسوي، إلا على أساس ناموس الضمير، ولهذا يقول الرسول: "١٤لأَنَّهُ الأُمَمُ الَّذِينَ لَيْسَ عِنْدَهُمُ النَّامُوسُ مَتَى فَعَلُوا بِالطَّبِيعَةِ مَا هُوَ فِي النَّامُوسِ فَهَؤُلاَءِ إِذْ لَيْسَ لَهُمُ النَّامُوسُ هُمْ نَامُوسٌ لأَنْفُسِهِمِ ١٥الَّذِينَ يُظْهِرُونَ عَمَلَ النَّامُوسِ مَكْتُوباً فِي قُلُوبِهِمْ شَاهِداً أَيْضاً ضَمِيرُهُمْ وَأَفْكَارُهُمْ فِيمَا بَيْنَهَا مُشْتَكِيَةً أَوْ مُحْتَجَّةً (رو ٢: ١٤، ١٥).

وعلى أي حال فالناموس بهذا المعنى قبل أو بعد موسى لا يمكن إن يتمم الكمال، وعلى وجه اخص بعد إن يتضح هذا الكمال، ويظهر وينجلي ويكتب في الناموس الموسوي.. بل الناموس يوقف كل إنسان عاجزا أمامه، ومن ثم جاء قول الرسول عن اليهود والأمم: "فَمَاذَا إِذاً؟ أَنَحْنُ أَفْضَلُ؟ كَلاَّ الْبَتَّةَ! لأَنَّنَا قَدْ شَكَوْنَا أَنَّ الْيَهُودَ وَالْيُونَانِيِّينَ أَجْمَعِينَ تَحْتَ الْخَطِيَّةِ ١٠كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: «أَنَّهُ لَيْسَ بَارٌّ وَلاَ وَاحِدٌ. ١١لَيْسَ مَنْ يَفْهَمُ. لَيْسَ مَنْ يَطْلُبُ اللهَ. ١٢الْجَمِيعُ زَاغُوا وَفَسَدُوا مَعاً. لَيْسَ مَنْ يَعْمَلُ صَلاَحاً لَيْسَ وَلاَ وَاحِدٌ.. ١٩وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا يَقُولُهُ النَّامُوسُ فَهُوَ يُكَلِّمُ بِهِ الَّذِينَ فِي النَّامُوسِ لِكَيْ يَسْتَدَّ كُلُّ فَمٍ وَيَصِيرَ كُلُّ الْعَالَمِ تَحْتَ قِصَاصٍ مِنَ اللهِ. ٢٠لأَنَّهُ بِأَعْمَالِ النَّامُوسِ كُلُّ ذِي جَسَدٍ لاَ يَتَبَرَّرُ أَمَامَهُ. لأَنَّ بِالنَّامُوسِ مَعْرِفَةَ الْخَطِيَّةِ. (رو ٣: ٩-١٢، ١٩، ٢٠).

وقد أصاب الرسول هنا كبد الحقيقة عندما بن عجز الإنسان عن فعل الناموس كما بين في الوقت عينه في تعبير غاية في الدقة عمل الناموس إذ قال : لان بالناموس معرفة الخطية" ولعل اقرب الأمثلة إلى ذلك وأكثرها سبها القانون في الدولة، فهذا القانون هو الذي يحدد معنى الجريمة، وهو الذي يحدد عقوبتها، وهو الذي يحكم ويؤدب عند التعدي، ولكن مع ما له من حق وقوة محذرة ومرهبة فهو اعجز من إن يمنع الجريمة أو يحول دون سقوط الناس فيها.. وإذا تبين بعد كل هذا سقوط الجنس البشري أمام مطاليب الناموس، واستحالة تغاضي عدالة الله عن هذا السقوط، ثبتت حاجة الناس إلى من يحمل عنهم عقوبة الناموس ويفتديهم من لعنته.. ومن ثم جاء المسيح ليتمم كل هذا بالمعنى النيابي الذي أشرنا إليه سالفا : "١٦إِذْ نَعْلَمُ أَنَّ الإِنسان لاَ يَتَبَرَّرُ بِأَعْمَالِ النَّامُوسِ، بَلْ بِإِيمَانِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ، آمَنَّا نَحْنُ أَيْضاً بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ، لِنَتَبَرَّرَ بِإِيمَانِ يَسُوعَ لاَ بِأَعْمَالِ النَّامُوسِ. لأَنَّهُ بِأَعْمَالِ النَّامُوسِ لاَ يَتَبَرَّرُ جَسَدٌ مَا. ١٧فَإِنْ كُنَّا وَنَحْنُ طَالِبُونَ أَنْ نَتَبَرَّرَ فِي الْمَسِيحِ نُوجَدُ نَحْنُ أَنْفُسُنَا أَيْضاً خُطَاةً، فَالمسيح خَادِمٌ لِلْخَطِيَّةِ؟ حَاشَا!.. ١٩لأَنِّي مُتُّ بِالنَّامُوسِ لِلنَّامُوسِ لاحيا لِلَّهِ. ٢٠مَعَ الْمَسِيحِ صُلِبْتُ، فَأَحْيَا لاَ أَنَا بَلِ الْمَسِيحُ يَحْيَا فِيَّ. فَمَا أَحْيَاهُ الآنَ فِي الْجَسَدِ فَإِنَّمَا أَحْيَاهُ فِي الإِيمَانِ، إِيمَانِ ابْنِ اللهِ، الَّذِي أَحَبَّنِي وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لأَجْلِي. (غل ٢: ١٦، ١٧، ١٩، ٢٠).

والسؤال الباقي بعد ذلك : إذا لم يكن الناموس اداة للتبرير والخلاص لعجز الإنسان عن تمام مطاليبه بعيدا عن المسيح، وان الخلاص يتم بالنعمة والمنحة ليس إلا: "متبررين مجانا بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح" (رو٣: ٢٤) فما هو موقفنا كمؤمنين من الناموس!!؟.

وللإجابة الدقيقة على هذا السؤال ينبغي إن نشير إلى نوعي الناموس الموسوي، وهما الناموس الطقسي، والناموس الأدبي.. وقد كان الناموس الطقسي بجملته رمزا وإشارة إلى عمل المسيح الكفاري، وعندما يأتي المرموز إليه ويتم عمله، يسقط الرمز ولا يبقى له معنى، ولهذا انتهى وانتفى عمل هذا الناموس ولا يمكن ممارسته واستمراره، ولهذا فالذبائح والاغتسال وتناول أطعمة معينة أو أي طقوس أو فرائض جاءت في العهد القديم لم يعد لها محل أصبحت غير ذات موضوع.. وأما من جهة الناموس الأدبي فانا لا أحفظه لأني سأخلص به، بل أحفظ مطاليبه الأبدية لأني خلصت، وأصبحت إنسانا جديدا في المسيح عاد لينسجم مرة أخرى مع أبيه السماوي ويسترد مثاله المجيد فيه.. وحفظ هذه المطاليب لا يمكن إن يكون بقوتي المجردة، بل بعمل روح المسيح فيّ واتحاده بي.

ومن كل ما ذكر يتضح إن الخلاص لا يقوم على الإطلاق بأي طريق ظني أو بشري أو بأعمال الناموس أو بالأعمال الصالحة، بل يقوم بالإيمان بخلاص المسيح ومنحته المجانية لكل خاطئ وآثم وشرير.

الخلاص ونتائجه

وأخر ما ننهي به الحديث عن الخلاص هو ذكر نتائجه الأساسية والفعلية أثاره العميقة في الحياة البشرية.. ولعل أول هذه الآثار تعرية الخطية وكشفها ومع إننا نرى الخطية في مظاهرها المتعددة وألوانها البشعة وأثارها المدمرة في كل ركن من أركان الحياة البشرية، إلا انه ليس هناك مكان تظهر فيه الخطية في أبشع ورهب صورها كمثل ظهورها عند الصليب.. أليست هي التي صلبت رب المجد وجعلته يحمل عنا عارها ولعنتها وشرها وبؤسها وشقاءها، ويشرب حتى الثمالة كأسها المروعة المريرة في تعاسة لا تتصور وألام لا توصف وفاء للعدل الإلهي الكامل؟!.. حقا إن وجه الخطية الكالح وصورتها المفزعة لا يمكن إن يعرف على حقيقتها إلا عند الصليب، وليس من مكان تكره فيه كما تكره عند التأمل فيما فعلت مع المصلوب الحبيب..

والنتيجة الثانية للخلاص هو الحصول على وثيقة العفو والنجاة من عقوبة الخطية ودينها، ولعلنا نذكر ها إن أخر ما خلفته حكمة اليونان للعالم عقدة الملك اوديب، الملك الذي قتل أباه وهو لا يدري وتزوج أمه، وإذ أدرك بعد ذلك بشاعة عمله خرج هائما على وجهه مقاداً بإحساس الذنب بعد إن فقأ عينيه، إلى حيث لا يستقر أو يلوي على شيء.. ولم يعرف التاريخ حلا لهذه العقدة أو علاجا لهذا الذنب؟ حتى جاء المسيح ليكفر عن خطايانا على الصليب ويدفع ثمن وعقوبة أبشع خطية ارتكبها إنسان على الأرض، وكل مؤمن به يستطيع إن يصبح منتصرا في مواجهة الخطية بالقول: " (رو٨: ١)!!.

والنتيجة الثالثة للخلاص، ليست هي رفع الخطية كعقوبة فحسب، بل أكثر من ذلك التحرر منها كعادة وسرطان ومرض. وكم من أعداد لا تحصى أو تنتهي من الناس عندما وقفوا من المصلوب كانوا أشبه بالكونت زنزندورف، ذلك الفتى الارستقراطي الغني العظيم، الذي إذ أبصر في احد المعارض صورة للمسيح المصلوب والمكلل بإكليل الشوك، أخذت الصورة بمجامع قلبه واستولت على كافة مشاعره، حتى انه ظل أمامها ساعات وهو لا يدري، وإذ نبه حارس المعرض إلى انتهاء ميعاد الزيارة، خرج ليودع كل شيء من متعة ولهو وجاه ونفوذ ومجد، ليكرس حياته من اجل المسيح وفي خدمته!!.. ويعوزنا الوقت إن تحدثنا عن ملايين من بني البشر الذين إذ تمتعوا بالخلاص خرجوا من حياة الأوحال والقذارة والفساد والأنانية والشرور إلى حياة القداسة والبر والراحة والسعادة والمجد قائلين مع الرسول:" ١٧إِذاً إِنْ كَانَ أَحَدٌ فِي الْمَسِيحِ فَهُوَ خَلِيقَةٌ جَدِيدَةٌ. الأَشْيَاءُ الْعَتِيقَةُ قَدْ مَضَتْ. هُوَذَا الْكُلُّ قَدْ صَارَ جَدِيداً. (٢كو٥: ١٧). عندما دخل " جودفري" أورشليم أيام الحروب الصليبية خلع عن رأسه إكليل الذهب وسار حافي القدمين وعندما سئل : "لماذا يفعل ذلك؟" أجاب: "وكيف البس إكليلا من ذهب في مكان لبس فيه المسيح إكليلا من شوك". وكل إنسان يدرك معنى الخلاص وأثره لابد إن يصيح بكل جارحة فيه لله: "طهرني بالزوفا فاطهر. اغسلني فابيض أكثر من الثلج" (مز٥١: ٧). ويكون منافقا إذا ادع الخلاص من غير تجديد، أو مخدوعا إذا ظن انه مؤمن، دون إن يتحول عن حياته القديمة وماضيه الإثم الملوث..!!

والنتيجة الأخيرة للخلاص هو فتح الطريق المسدود أمام الجنس البشري للعودة إلى فردوس الله، وقد رأى المسيح بهذا الخلاص هزيمة الشيطان وسقوطه عندما قال: "رأيت الشيطان ساقطا مثل البرق من السماء" (لو١٠: ١٨).. وعندما دنى من الصليب وأوشك إن يرتفع عليه قال قوله العجيب الرائع: "٣١اَلآنَ دَيْنُونَةُ هَذَا الْعَالَمِ. اَلآنَ يُطْرَحُ رئيسا هَذَا الْعَالَمِ خَارِجاً. ٣٢وَأَنَا إِنِ ارْتَفَعْتُ عَنِ الأَرْضِ أَجْذِبُ إِلَيَّ الْجَمِيعَ».(يو١٢: ٣١، ٣٢).. وهل من شك في إن الصليب هو القاهر الأعظم للخطية في الأرض، والجاذب الأفضل للموكب البشري في شتى العصور والأجيال تجاه المسيح والخلاص؟.. وألم يكن ذلك الكاتب الغربي على حق عندما قال: "منذ ألفي عام ارتفع على هضبة صليب في الجو الشرقي وكان على هذا الصليب المسيح يموت، فهل كان هناك فشل حسب الظاهر أو هزيمة تعدل هذه الهزيمة؟!. ولكن مع ذلك فمن ذلك التاريخ هوت إمبراطوريات شامخة إلى الحضيض والرماد، ولم يبق من أطلالها سوى أحجارا هنا أو خرائب هناك، غير إن ذلك الفرد العجيب المصلوب يعيش اليوم أسرا أفئدة الناس وضمائرهم إلى الأبد.. وفي العالم اليوم ثمانمائة مليون يعترفون به ربا ومسيحا وهو يعيش فيهم بقوة روحه، روح الحق والمحبة والتضحية، وهذا الروح هو أعظم قوة رافعة محيية مخلصة عرفها البشر في كل أجيالهم"...

هذا هو الخلاص وهذه هي نتائجه، أو في تعبير أدق بعض نتائجه. أما نتائجه الكاملة فلعلنا لا نستطيع إن ندرك عمقها ومعناها وجدواها إلا عندما نقف على الشاطئ الأبدي في حضرة الله ونبلغ المدينة المقدسة مدينة أحلام الإنسان في كل حياته المجهدة على الأرض، ونسمع الصوت الصائح: "٣وَسَمِعْتُ صَوْتاً عَظِيماً مِنَ السَّمَاءِ قَائِلاً: «هُوَذَا مَسْكَنُ اللهِ مَعَ النَّاسِ، وَهُوَ سَيَسْكُنُ

مَعَهُمْ، وَهُمْ يَكُونُونَ لَهُ شَعْباً. وَاللهُ نَفْسُهُ يَكُونُ مَعَهُمْ إِلَهاً لَهُمْ. ٤وَسَيَمْسَحُ اللهُ كُلَّ دَمْعَةٍ مِنْ عُيُونِهِمْ، وَالْمَوْتُ لاَ يَكُونُ فِي مَا بَعْدُ، وَلاَ يَكُونُ حُزْنٌ وَلاَ صُرَاخٌ وَلاَ وَجَعٌ فِي مَا بَعْدُ، لأَنَّ الأُمُورَ الأُولَى قَدْ مَضَتْ». ٥وَقَالَ الْجَالِسُ عَلَى الْعَرْشِ: «هَا أَنَا أَصْنَعُ كُلَّ شَيْءٍ جَدِيداً». وَقَالَ لِيَ: «اكْتُبْ، فأن هَذِهِ الأَقْوَالَ صَادِقَةٌ وَأَمِينَةٌ».(رؤ ٢١: ٣-٥).

ومن ذا الذي لا يغني بعد كل هذا هاتفا في الأغنية الحلوة الشادية:

يا عسكر الرحمن من تجندوا — في موكب الرب العلي مجدوا

فزتم بنصر دائم فحمدوا — مليكنا المنصور

ثم الخلاص هللويا رنموا — ثم الخلاص هللويا رنموا

لربنا يسوع

الفصل السابع عشر: إيماني بحياة المؤمن

لعل من أجمل الوثائق التاريخية في وصف حياة المسيحيين الأولين ما كتبه ارستيدس إلى الإمبراطور هادريان إذ قال : "أنهم يعزون من يحزنهم ويصنعون الخير لأعدائهم، وعندما يصبح العبيد فيهم مسيحيين يعونهم دون ادني تفريق إخوة، وحياتهم تتميز بالتواضع والرقة، والبطل لا يمكن أن يعرف سبيله إليهم، وهم يحبون بعضهم بعضا!!.. أنهما ينقذون اليتيم من يد من يقسو عليه. ويعطي من عنده من ليس عنده دون ضجر أو تذمر، وإذا وجد بينهم فقير أو محتاج، وليس لديهم ما يعطون فإنهم يصومون يومين أو ثلاثة أيام ليمنحوه الطعام اللازم لحياته!!

أنهم يعيشون بأمانة وعفة كما أمرهم بذلك الرب إلههم، وفي كل صباح بل وفي كل ساعة يحمدون الله ويرنمون له مناجل حسناته لهم، وعند الطعام أو الشراب يشكرون!!..

وإذا ما انتقل عزيز لديهم من هذا العالم فأنهم يفرحون ويشكرون الله، ويسيرون وراء جثمانه كما لو كان منتقلا من مكان إلى مكان، وإذا ولد طفل لأحدهم يحمدون الله من اجله، ولو تصادف ومات في صغره فأنهم يشكرون الله أيضا كثيرا، لان الطفل قد اجتاز العالم دون أن يرتكب إثما أو خطية!!.

وكأناس يعرفون إلههم لا يسالون إلا عن الأشياء التي يليق أن يعطيها والتي يليق أن يتسلموها، وهكذا يسلكون سبيلهم في الحياة، وكل ما فيهم من فضل ينسبونه إلى الله. ولذا فالجمال الذي فيهم يشع وينبثق من حياتهم دون تكلف، وهم حقا من الذين اكتشفوا الحق على الأرض وسعوا إليه، والأفعال الصالحة التي يفعلونها لا يعلنون عنها أو يبوقون لها في آذان الناس، بل يفعلونها في صمت ويؤذونها في خفاء، تماما كما لو وجد احدهم كنزا وسعى ليخفيه.. وهم يجاهدون في سبيل البر كمن يتوقعون أن يروا مسيحيهم لينالوا ما وعدهم به مع مجد عظيم"..

هذه هي الصورة التي عرفها العالم القديم الوثني عن حياة المؤمنين، وهي الصورة التي ينبغي أن يكون عليها كل مسيحي مؤمن في كل جيل وعصر، وهي أن تحدثت فإنما تتحدث عن اثر المسيحية في حياة الإنسان وكيف تغيره تغييرا رائعا عجيبا، وترفعه إلى مركز ممتاز مجيد، وتعطيه من الوسائط والقوة ما يتيح له أن يحيا حياة القوة والنصرة، كما تحدد علاقته بالعالم تحديدا فذاً دقيقا. وأخر الأمر تكشف عن واجباته ورسالته في هذا العالم في مختلف الظروف والأوضاع التي يمكن أن تحيط به!!..

المؤمن والحياة الجديدة

١ـ المؤمن وبدء الحياة الجديدة

ومن الأهمية بمكان أن نعرف من هو المؤمن، ومن ذا الذي يصح أن نطلق عليه هذا التعبير: "مؤمن"؟وهل يجوز أن نطلق هذه الكلمة على أي إنسان دعي عليه اسم المسيح، ويقول عن نفسه عندما يسال عن دينه انه مسيحي!!..

في الواقع أن الكتاب حاسم وصريح في هذا الموضوع إذ إن "المؤمن" في تعريف الكتاب هو "إنسان جديد" "خليقة جديدة" تبدأ حياته بنقطة فاصلة بين ماضيه وحاضره ومستقبله دعاها المسيح "الولادة الجديدة" والمسيحية لذلك ترفض أن تطلق لفظ المؤمن على كثيرين ممن يتصور الجهلة بالفكر المسيحي. أو المخدوعون في فهمه أنهم كذلك. فالمسيحية مثلا لا تقرر:

١- **المؤمن بالوراثة.** إذ لا يمكن أن يكون الإنسان مؤمنا لمجرد انه ولد في بيت مسيحي أو من أبوين مسيحيين أو في بلاد مسيحية أو لأنه يكتب مقابله: في شهادة الميلاد أو البطاقة الشخصية أو شهادة الزواج أو ما أشبه من شهادات انه مسيحي. أن هذه جميعا قد تصلح لكل شيء إلا لهذا الشيء الواحد: إنها ليست الدليل أو المعيار أو البرهان على إن الإنسان "مؤمن"... وهذا بديهي لان الإنسان لا يمكن إن يولد مؤمنا أو يرث الإيمان لسبب صغير دقيق بسيط. هو انه لا يمكن أن يرث من أبويه الخطية المنحدرة إلينا بالسقوط كما قال داود: "هاأنذا بالإثم صورن وبالخطية حبلت بي أمي" (مز ٥١: ٥)، فكيف يمكن أن يرث في الوقت نفسه عن هذين الأبوين الصق وأعمق من ميراث الإنسان لهما حسب القوانين الأرضية. إذ أن الإنسان لا يعتبر حسب هذه القوانين الأخيرة وارثا لأبويه إلا بالميلاد، أو بتعبير أدق لحظة ميلاده حيا. فإذا ولد سقطا أو جنينا ميتا فلا حق له في الوراثة. على العكس من ميراث الخطية الذي يلحق به من بدء تكوينه جنينا في بطن أمه. أو كما عبر داود لحظة الحبل والتصوير كجنين.. ومن هذا يمكن التأكد انه لا عبرة أو اعتداد أمام الله بوراثة لقب المسيحي من الأبوين!!..

ولعل هذا يذكرنا بذلك السؤال الذي وجهه مودي ذات مرة إلى أحدى السيدات عندما قال لها: "هل أنت مسيحية؟ " فأجابته: "بالتأكيد إني مسيحية"فقال لها: "متى صرت مسيحية؟" أجابت : "إني ولدت فيها يا سيدس" فقال "انك أهنئك يا سيدتي. فأنت سعيدة الحظ ولا شك لأنك المرأة الوحيدة التي قابلتها وولدت مسيحية، إذ كان كل من قابلتهن ولدن بنات ادم وحواء.. لا يا سيدتي، انك لست مسيحية لأنك ولدت في انجلترا في بلد مسيحي، أو لأنك ولدت من أبوين مسيحيين، إذ لا يمكن أن تكوني مسيحية ما لم تولدي الميلاد الثاني!!..

٢- **والمسيحية لا تقر كذلك** "المؤمن " الذي يدعى مؤمنا لمجرد ممارسة مظاهر الإيمان المسيحي، ما لم يحدث تغيير أساسي داخلي في حياته. فليس مجرد تعود الحضور إلى بيت الله برهان الإيمان أو حجته أو دليله، إذ ليس كل رواد الكنائس مؤمنين، بل أكثر من ذلك أن ممارسة الفرائض الكنسية أو إتمام الواجبات الدينية لا يمكن أن يقوم مقام تغيير الحياة أو الولادة الجديدة، فكافة الصلوات الطقسية أو الاصوام التقليدية أو النذور أو الصدقات أو ما أشبه لا قيمة لها البتة عند الله. ولقد تطلق الأرض على الإنسان ألقاب "المحسن الأكبر" "المتمم جميع الواجبات الدينية " وما أشبه من ألقاب وتقول السماء في الوقت نفسه لذات الإنسان: "وزنت في الموازين فوجدت ناقصا". ومن اللازم أن نتقدم خطوة ابعد وأطول وأشجع وأصرح فنقول إن مجرد تقلد إن مهنة أو وظيفة منسية مهما يكن شانها وخطرها لا

يمكن أن يعطي الإنسان لقب "المؤمن" فليس انتخاب إنسان أو تعينه أو رسامته شماسا أو شيخا أو قسا أو أسقفا أو بطريركا أو بابا يمكن أن يعطيه أو يمنحه ختم السماء وتصديقه على كونه "مؤمنا" إذ إن أي استحسان أو تقدير أو فعل ارضي لا يمكن أن يعبر بالضرورة عن رأي الله وقصده وفكره إذ ما أكثر ما يتباعد رأي الله ورأي الناس في هذا الأمر بعد السماء عن الأرض!. وهل ننسى إن المسيح رب المجد قد صلب وتألم بتدبير رجال الدين الأشرار من كتبة وفريسيين وكهنة؟. وهل ننسى أن الكثير من أبشع وارهب واقسي جرائم التاريخ قد ارتكب على أيدي رجال انتسبوا ظلما وعدوا إلى كنيسة المسيح؟ وهل ننسى إن المناصب الكنسية كثيرا ما أخذت في عصور متفاوتة بما يندى له الجبين خجلا وخزيا من رشوة واغتصاب وجون وفساد. ممن جعل الكثيرين يصيحون قائلين: أيه أيها الذين كم من الآثام ترتكب باسمك الجميل!؟

كل هذا يقطع بأنه ليس في الإنسان كانسان بطبيعة مولده أو ميراثه أو المظاهر التي تجري عليها حياته أو حتى المناصب أو الأعمال التي يتغلغل بها في الحياة الكنسية. ما يمكن أن يغني عما يسميه النقطة الفاصلة في الحياة بين الماضي والحاضر. وبين حياته قبل الإيمان وبعد الإيمان أو ما أطلق الكتاب عليه بحق الولادة الجديدة"

ب المؤمن وضرورة الحياة الجديدة

ولكن لماذا تبدو هذه الحياة الجديدة حتمية وضرورية ولا غنى عنها؟ ولماذا يتحتم أن يحدث في اختبار الإنسان وحياته هذه النقطة الفاصلة؟ ولماذا لا يمكن التجاوز عنها أو إيجاد البديل لها؟

إن ضرورتها تظهر من :

١ـ **شهادة المسيح بحتميتها.** ولعله من الملاحظ أن نذكر إن السيد المسح عندما تحدث عنها صدر حديثه بالقول: "إن كان احد لا يولد من فوق لا يقدر أن يدخل ملكوت الله" (يو٣:٣) مما يبين حاجة كل مولود امرأة إليها. وتزداد هذه الصورة عندما نعلم إن المسيح عندما تحدث إلى الولادة الجديدة تحدث بها إلى رجل من رجال الدين لعله كان في نظر الكثيرين في ذلك الوقت من أفضل الناس في عصره. أليس اسمه نيقوديموس أو النقي الدم. والبس هو الفريسي المدقق بل لعله كان زعيم الفريسسين في ذلك الوقت في السنهدريم، فالأول الرئيس والثاني نائب الرئيس والثالث "الحكيم" أو" المعلم " وهو لقب نيقوديموس وحيث إن الرئيس ونائبه كانا يجتازا في ذلك الوقت عادة من الصدوقيين، كان المعلم هو رئيس الحزب الفريسيي في المجلس، ولا يمكن أن يكون هكذا إلا إذا كان من أعظم رجال الدين في عصره.. لمثل هذا يقول المسيح "ينبغي أن تولدوا من فوق" (يو٣: ٧) أو في لغة أخرى: " إن أعظم رجال الدين اشر الخطاة يتساويان في حاجتهما إلى الولادة الجديدة، وان أيا منهما لابد أن يحدث في حياته بشهادة المسح، هذا التغير الحاسم قبل أن يطلق عليه بحق لقب "المؤمن".

٢ـ **إن الطبيعة البشرية الخاطئة لا يجد فيها أي تهذيب أو إصلاح أو ترويض ما لم تتغير أساسا بالولادة الجديدة،** إذ قال السيد: "المولود من الجسد جسد هو والولود من الروح هو روح" (يو٣: ٦) أي إن الإنسان كمولود المرأة يولد بكل ما في الجسد من ملكات أو رغبات أو شهوات أو ميول أو خطية، إذ انه يولد وله كل استعداد أن يضحى عالما أو فيلسوفا أو عبقريا يضرب بسهم وافر في ميادين العلم والمعرفة والمدنية والحضارة. كما انه على استعداد أكيد ويجاهد ويشتغل وينغمس في

الشهوات والآثام، ولكنه لا يمكن أن يتحرر مهما حاول العلم والأخلاق والتهذيب من ثقل الخطية ودينها ومرضها وسلطانها، ما لم يولد من الروح، ويحدث في حياته ذلك التغيير السماوي العلوي الفاصل في حياته كلها.

وهناك شهادات لا تحصى أو تعد أو تفصح بما لا يدع مجالا للشك أو الإبهام عن عجز كل مجهود ارضي عن إصلاح الإنسان وتقويمه، مهما تكن عظمة هذا المجهود أو جلاله أو جماله.. فالعلم مثلا بات عاجزا عن تغيير الإنسان أو الصلاح حياته الداخلية، وفي ذلك يقول الرئيس ودرو ولسون: " لقد اخفق العلم في تحقيق الإصلاح وتوفير الفردوس الأرضي للناس، لقد افدنا في عالم المادة إذ حررنا من خوف الخرافة أو المرض، ولكنه فشل في تغيير الطبيعة البشرية وتخليصها من أدران الحقد والضغائن، وبذلك يظل الناس عبيد أنفسهم ". ولعل العالم لم يشهد إلى اليوم تقدما مذهلا في العلم كما شهد في القرن العشرين، ولكن هذا العلم مع ذلك لم يغير طباع الناس أو يبدل أو يهذب مشاعرهم أو يسيطر على الطبيعة الشهوانية أو الآثمة أو الشريرة فيهم.. ولعل هذا الكلام عينه يمكن أن يقال عن ضروب المبادئ الفلسفية أو الرياضية أو مناهج التربية أو الاقتصاد أو السياسة، إذ هذه جميعا لا يمكن أن تستأصل الشر في الإنسان أو تنتزع منه الطبيعة الفاسدة، إذ هي في أفضل حالاتها كما وصفها "هنري وورد بيتشر" بالقول: " ضع ما يعجبك على حمار وحشي، ضع لجاما من ذهب أو سرجا من دمقس، هل هذا يغير من طبيعته أو يخضع روحه!؟ غطه بكل الزينات، هل يخرجه هذا عن وحشيته؟ هكذا الطبيعة البشرية لا يمكن تغييرها مهما بذل معها رجال الآداب والفلسفة والأخلاق".

إن المسيحية بذلك لا تنادي بطلاء البناء أو ترميمه بل بإعادة بنائه من جديد، وهي لهذا السبب لا تقبل التغيير الظاهري أو الشكلي كما لا تقبل الإصلاح الوقتي أو الجزئي، بل هي تطلب الخليقة الجديدة بالميلاد الجديد!!..

(ج) المؤمن وكيفية تحقيق الحياة الجديدة

وهنا ينهض أمامنا ذات السؤال القديم الذي سأله نيقوديموس : "كيف يمكن أن يكون هذا؟" (يو٣: ٩). والسيد المسيح إذ يرد على الجواب ينبر على ما يلي:

١ـ إن الولادة لا تحدث تدريجيا بل تحدث دفعة واحدة، شانها شان الولادة الطبيعة.. وهذا حق لان التغير الحادث في حياة الإنسان لا يمكن أن تتمن إلا إذا جاءت اللحظة المعينة التي فيها يقطع الإنسان قطعا حاسما صلته بالماضي الملوث الشرير الإثم، والتي يحس فيها إحساسا جازما باتا بالحياة الجديدة، وكما يقف الإنسان من ماض تعس وحياة فاسدة، وفي لحظة واحدة يقول: " وداعا إلى الأبد أيتها الحياة فلن تكوني بعد اليوم في، ولن أمت إليك من الآن بسبب". وهكذا تكون الولادة الجديدة في لحظة واحدة فاصلة قاطعة بين حياة وحياة. وهنا ينبغي أن نذكر بان الذي يظن أن تجديده يأتي على مراحل، أما انه جاهل لا يفهم معنى التجديد، أو انه مخدوع فيه، وإذا كان من الواضح إن كثيرين من الناس قد يدركون أو يعلمون تمام العلم الساعة التي تغيروا فيها. وتحولت حياتهم من النقيض إلى النقيض. غير أن البعض الأخر لا يستطيعون تحديد هذا الوقت بمثل هذا الدقة. ولكن العبرة في هذه الحالة أو تلك ليست بمعرفة الساعة المعينة، بل بحقيقة الولادة الثانية أو كما قال سبرجن: "قد يجهل إنسانا ما تاريخ ميلاده، ولكنه لا يمكن أن يشك في هذا الميلاد مادام يحس انه كائن حي موجود. ولا يعقل في هذه الحالة إن يقول عن نفسه انه غير مولود لأنه يجهل تاريخ ميلاده، وهكذا المؤمن يستطيع أن يتأكد بتاريخ ميلاده الثاني الجديد، ما دام قد وصل إلى الاختبار الأكيد انه تغير وتحول عن الشر إلى الله، وان صفحة جديدة قد بدأت في حياته وقطعت صلته بكل ماضيه"!!..

٢- إن الولادة عملية خفية داخلية تحدث في قلب الإنسان وتتم بعمل روح الله فيه.وقد شبه المسيح هذه العملية بهبوب الريح: " ٨اَلرِّيحُ تَهُبُّ حَيْثُ تَشَاءُ وَتَسْمَعُ صَوْتَهَا لَكِنَّكَ لاَ تَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ تَأْتِي وَلاَ إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ. هَكَذَا كُلُّ مَنْ وُلِدَ مِنَ الرُّوحِ». (يو٣: ٨). فهذا صحيح لان الإنسان يتغير لان شيئا حدث في قلبه فأقنعه بالتوبة، والإقلاع عن الماضي وكراهية الحياة القديمة الملوثة. وأعانه على الإيمان بالحقائق الإلهية العليا وقبول الخلاص الذي في المسيح يسوع. وهذا الشيء يتم بروح الله وتأثيره العميق الفعال في نفس الإنسان. ومع إن هذه الحقائق خفية وغائرة في أعماق النفس. إلا أنها هي التي تؤثر وتحكم جميع أفعال الإنسان وتصرفاته، وعندئذ تظهر من خلال تصرفاته وأعماله جميع خفاياه تماما. كما نسمع الريح ونحس بها عند هبوبها دون أن ترى أو تنظر... والأمر الهام والأساسي في الموضوع هو أن يحس الإنسان هذا التغيير ويتأكد اختباريا بكيفية ترتفع على كل منازعة ومجادلة!!..

(د) الاختبارات المختلفة للحياة الجديدة

على انه من اللازم أن نتبين أن هذا الاختبار لا يأتي للمؤمنين بصورة واحدة وبطابع واحد، بل قد يختلف الإحساس به من شخص إلى أخر، وقد ظل ريتشارد باكستر يعاني قلقا بالغا لسنوات عديدة، لان اختباره في التجديد لم يكن كاختبار غيره من القديسين أمثال بولتن وهوكر وروجرز، ولأنه لم يعرف بالضبط ميعاد تجديده، ولكنه أدرك فيما بعد انه كان مخطئا في هذا القلق، إذ إن الله يمس نفوس المؤمنين بآلاف الطرق تباعا لاستعداد الإنسان وأسلوب حياته ولون ظروفه وطريق الوصول المثلى لمشاعره ونفسه... فقد يأتي التجديد في حياة البعض في صورة التبكيت العنيف كمثل ما حدث مع سجان فيلبي، وقد يأتي في الهدوء الوادع كمثل ما تم مع ليديا بائعة الأرجوان، وقد يأتي في الإحساس بكراهية الحياة المبتذلة الدنسة الملوثة التي يعيشها الخاطئ، أو قد يصدر عن نفس تنزع إلى حياة الشوق العارم صوب الله.. ومع انه من المستحيل ذكر الكيفيات المتعددة التي يأتي بها هذا الاختبار إلى الناس، إلا انه يمكن الإشارة إلى ستة منها كما عددها جون ماكبث في كتابه " حياة المسيحي" إذ قد يجيء للبعض:

١- في بهجة الغفران.. وقد عرفه مارتن لوثر بهذا الأسلوب إذ كان وهو راهب في الدير مضطربا معذبا قلقا من الإحساس بخطاياه، دون إن يجد سبيلا إلى الراحة والهدوء والسلام، لقد صلى وصام ومارس طقوسا كثيرة دون أن تستريح نفسه أو تهدا على الإطلاق.. وذلك يوم إن كان يتلو أمام صديقه الطيب الراهب استاوبتز. قانون الإيمان، وعندما وصل إلى القول : "أؤمن بغفران الخطايا". وتوقف عندها قائلا، صاح صديقه الحب: "آه إننا لا ينبغي أن نؤمن بان الله غفر خطايا داود وبطرس فحسب، بل لابد أن نؤمن إن هذا الغفران يشملنا نحن جميعا. وانه من واجبنا أن نضع أنفسنا في ذات الوضع الذي وصل إليه غيرنا من الأقدمين عندما جاءهم هذا الغفران، وتمتعوا به". وامن لوثر بذلك وامتلأ من تلك الساعة بسلام الله الذي يفوق كل عقل. سلام الإنسان الذي حصل على الغفران الشامل لجميع خطاياه!!..

٢- وقد يجيء إلى البعض الأخر في الاستنارة من الظلام.. كما يأتي النور في أعقاب ليل عميق طويل، وحياة الشر في جملتها واصلها حياة ظلام، أو كما قال السيد له المجد: "وأحب الناس الظلمة أكثر من النور لان أعمالهم كانت شريرة"" (يو٣: ١٩) أو كما جاء في أمره ورسالته إلى الرسول بولس: "لتنفتح عيونهم كي يرجعوا من ظلمات إلى نور" (اع٢٦: ١٨) أو كما جاء في قول هذا الرسول نفسه إلى أهل افسس : "لأنكم كنتم قبلا في الظلمة وأما الآن فنور الرب" (اف٥: ٨).

والإنسان في الظلام لا يستطيع التفرقة بين الأبيض والأسود، والجميل والقبيح، والخطر والأمن. وهو بهذا المعنى في الحياة الروحية اعمي عن كل حقائق الله وأعماله ووصاياه حتى يفتح الله عينيه، وينير دهنه، ويرفع الغشاوة عن قلبه، فينبلج أمامه النور، ويتضح الحق وتنكشف الروحيات ويعلم من هو. ولماذا جاء إلى الأرض، وما رسالته التي ينبغي أن يعيش لها في الحياة، أو في لغة أخرى تتفتح بصيرته، حتى ولو كان بالجسد مكفوف البصر أو أميا أو ساذج المعارف والإدراك في أمور الناس وأحوالهم. وقد شهد توماس بليني هذا الاختبار عندما اقتنى نسخة من ترجمة ارازمس اللاتينية للعهد الجديد، إذ قال: "لقد بزغ أمامي النور عندما تصادف أن وقعت عيناي وأنا افتح الكتاب على العبارة القائلة: "صادقة هي الكلمة ومستحقة كل قبول، إن المسيح يسوع جاء إلى العالم ليخلص الخطاة الذين أولهم أنا " وقد فعلت هذه العبارة الواحدة فعلها العميق في نفسي، هذه النفس المحطمة المسكينة ترتفع وتنتصب حتى إنني أحسست كما لو أن عظامي بجملتها تكاد تقفز في فرح وبهجة!!.. لقد بدا كما لو إن لانهار قد بزغ فجأة في حياتي بعد ليل طويل".. وكم كثيرون مثل هذا الرجل كان اختبار التجديد عندهم بمثابة الخروج من ليل دام مظلم طويل من القبح والفساد والإثم والشر والالتواء والانحراف والقذارة إلى نهار لامع صاف رائق من النقاوة والطهارة والنور والجمال والأخلاق السامية.

٣- **وقد يأتي إلى آخرون في صورة النهوض من الموت** وذلك لما عدوا حياتهم البعيدة عن الله حياة ميتة كما يتحدث الإنسان عن " الأيام الميتة" أو "الماضي الميت" أو كما تعد أية حياة حقيرة تافهة تخجل عن معنى وجودها ورسالتها على الأرض. والواقع إن الحياة لا تقاس عند الله بعدد السنين التي يعمر فيها الإنسان على الأرض نمهما تطل أو تمتد، بل تقاس بمقدار اتصالها بالله وخدمتها له وعملها من اجل مجده.. ومن ثم فان التجديد يأتي إلى هؤلاء عندما ينتقلون من هذه الحياة، أو بالأحرى من هذا الموت إلى معنى الحياة الحقيقية عند الله، ولهذا يقول الرسول: " وَأَنْتُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَمْوَاتاً بِالذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا، ٢الَّتِي سَلَكْتُمْ فِيهَا قَبْلاً حَسَبَ دَهْرِ هَذَا الْعَالَمِ، حَسَبَ رَئِيسِ سُلْطَانِ الْهَوَاءِ، الرُّوحِ الَّذِي يَعْمَلُ الآنَ فِي أَبْنَاءِ الْمَعْصِيَةِ، ٣الَّذِينَ نَحْنُ أَيْضاً جَمِيعاً تَصَرَّفْنَا قَبْلاً بَيْنَهُمْ فِي شَهَوَاتِ جَسَدِنَا، عَامِلِينَ مَشِيئَاتِ الْجَسَدِ وَالأَفْكَارِ، وَكُنَّا بِالطَّبِيعَةِ أَبْنَاءَ الْغَضَبِ كَالْبَاقِينَ أَيْضاً، ٤اَللهُ الَّذِي هُوَ غَنِيٌّ فِي الرَّحْمَةِ، مِنْ أَجْلِ مَحَبَّتِهِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي أَحَبَّنَا بِهَا، ٥وَنَحْنُ أَمْوَاتٌ بِالْخَطَايَا أَحْيَانَا مَعَ الْمَسِيحِ - بِالنِّعْمَةِ أَنْتُمْ مُخَلَّصُونَ" (اف٢: ١-٥). اجل وهل تبدأ الحياة حقا، بكل ما في الحياة من معنى، إلا عندما تمسها يد الله، وتبدأ مع الله؟!.

٤- **وقد يجيء التجديد في صورة الانفلات من الأسر،** إذ إن كل إنسان خاطئ هو في الواقع في قبضة الشيطان وتحت سلطانه، وعندما تحدث الله إلى بولس عن رسالته لم يقل له : "لتفتح عيونهم ليرجعوا من ظلمات إلى نور" فحسب بل قال له أيضا: "ومن سلطان الشيطان إلى الله" (اع٢٦: ١٨) وسلطان الشيطان واضح، فيما يجريه من أفعال آثمة وعادات شريرة وتصرفات لا يمكن أن تنسجم مع معاني الحق والعدالة والكرامة والنبالة والاستقامة والشرف!!.. كما لا تبعث على هدوء الضمير أو راحته.. وكثيرا ما يصحوا هذا الضمير ويستيقظ ويصرخ في طلب الخلاص والتحرر من هذا الأسر والاستعباد. ولن يتحقق هذا على الوجه الكامل إلا عندما يأتي يسوع المسيح المخلص بقوته المنتصرة إلى النفس البشرية ليفك عنها أغلالها ويحطم قيودها ويطلقها من الأسر إلى الحرية المارحة الواسعة، كما قال هو في مطلع رسالته الجهارية : "لأنادي للمأسورين بالإطلاق. وأرسل المنسحقين في الحرية" (لو٤: ١٧) وكما قال في مناسبة أخرى: "فان حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحرارا" (يو٨: ٣٦).وقد نالت أعداد من الناس لا تحصى أو تعد، هذا الاختبار فقالوا مع س. ف..اندروا عندما جاء إلى المسيح :"لقد تحطمت سلسلة العادات الشريرة التي كانت تغله، ولم تعد قبضتها ذات سلطان عليه".كما شهد يوحنا نيوتن

عندما اخذ طريقه إلى إفريقيا ليعمل بحارا في سفينة من السفن التي كانت تتاجر في العبيد ليكون بمنأى عن أي رقابة، وليعيش حياة حيوانية شهوانية قذرة كما يحلو له ويشاء، غير أن السفينة عصفت بها الرياح وطوحتها الزوابع، وفي ١٠مارس عام ١٧٤٨ جاء السيد من الأعالي لينقذه من المياه العميقة وينجيه. لا من الغرق فحسب، بل من الحياة البهيمية التي كان يعيشها. ومن ذلك الوقت عاش ليكون خاما من أعظم خدام الله!!..

٥- وقد يظهر في مظهر العودة من المنفى. وكل إنسان يبعد عن الله إنما يندفع بعيدا إلى مجاهل ومتاهات لا يعلم لها مدى أو نهاية. وقد كان قايين مثالا تعسا لهذه النتيجة المروعة،إذ خرج من لدن الله ليسكن ارض نود أي ارض البعد، وليندفع شريدا طريدا تائها معذبا لا يلوي على شيء.وقصة الابن الضال عندما خرج بعيدا عن بيت أبيه تردد الحقيقة عينها، وبل وذات قصة الحمل الضال التائه البعيد الذي يسعى وراءه الراعي المحب تكشف عن الوضع عينه، وفي الواقع أن الإنسان عندما يندفع في الشر والإثم والضلال إنما يندفع، يدري أو لا يدري، إلى منفاه بعيدا عن الله.

والتجديد يأتي لمثل هذا الإنسان في الرجوع إلى النفس والعودة إلى بيت الأب. "١٨أَقُومُ وَأَذْهَبُ إِلى أَبِي وَأَقُولُ لَهُ: يَا أَبِي أَخْطَأْتُ إِلى السَّمَاءِ وَقُدَّامَكَ ٢٠فَقَامَ وَجَاءَ إِلى أَبِيهِ."(لو١٥: ١٨، ٢٠) وكما فعل الابن الضال، واخذ طريقه وعاد إلى البيت القديم بيت أبيه، هكذا يفعل الكثيرون في رحلة الحياة ووهادها وقفاره، ممن يتحولون عن طريق الخطية والشيطان والإثم والفساد والعالم إلى الطرق الأخر، طريق للعودة إلى الله، والمجيء إلى حياة النقاوة والطهارة والسعادة والمجد الأبدي!!..

٦- وقد يتم التجديد في صورة المصالحة من العداوة.. إذ أن الخطية تبني حاجزا فاصلا بين الإنسان والله، كما تجعل من هذا الإنسان كائنا متمردا عاصيا عدو الله في الفكر والقول والعمل، كما توقع البشرية كلها تحت الغضب من الله مخيف ورهيب، والتجديد يعيد الإنسان إلى الله، ويعيد الله إلى الإنسان وتتم المصالحة كما يقول الكتاب: "٢٠وَأَنْ يُصَالِحَ بِهِ الْكُلَّ لِنَفْسِهِ، عَامِلاً الصُّلْحَ بِدَمِ صَلِيبِهِ، بِوَاسِطَتِهِ، سَوَاءٌ كَانَ مَا عَلَى الأَرْضِ أم مَا فِي السَّمَاوَاتِ. ٢١وَأَنْتُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ قَبْلاً اجْنَبِيِّينَ وَأَعْدَاءً فِي الْفِكْرِ، فِي الأَعْمَالِ الشِّرِّيرَةِ، قَدْ صَالَحَكُمُ الآنَ ٢٢فِي جِسْمِ بَشَرِيَّتِهِ بِالْمَوْتِ، لِيُحْضِرَكُمْ قِدِّيسِينَ وَبِلاَ لَوْمٍ وَلاَ شَكْوَى أمامه" (كو١: ٢٠-٢٢) وهل هناك اختيار امجد وأروع من هذا الاختيار، الذي يتحول فيه الإنسان من العداء لله ليكون حبيبه وخليله وصديقه وأثيره!!..

هذه هي بعض الاختبارات التي يجتازها أولئك الذين ينالون الحياة الجدية. ومن ثم يمكن القول بان هذه الحياة من المستحيل أن تكون مجرد أوهام أو خيالات أو تصورات طافت بأذهان بعض الناس، أو راودت أحلامهم وأمانيهم، ولكنها الواقعة التي فصلت فصلا أبديا بين ماضيهم وحاضرهم. وبين حياتهم مع الجسد والخطية والعالم والشيطان. وحياتهم مع الله والحق والمجد والسعادة الأبدية..وقد عرف الملايين من البشر هذه الحياة في مختلف العصور والأجيال، ولا يمكن أن يدعي الإنسان مؤمنا ما لم يختبرها، ويتاكدها اختبارا حقيقيا لا شبهة فيه أو غموض أو جدل أو التباس على الإطلاق!١..

المؤمن والمركز الممتاز

والمؤمن إذ ينال الحياة الجديدة ينال معها وفيها مركزا ممتازا ودونه كل مركز يمكن أن يعرفه الإنسان على الأرض. ولعلنا نستطيع إيجاز تصوير مظاهرات وامتيازات هذا المركز الممتاز إذ هو أولا وقبل كل شيء:

١- مركز البنوة لله

مركز البنوة لله، وهذه الحقيقة هي التي ذكرها الرسول يوحنا في إنجيله بالقول " ١٢وَأَمَّا كُلُّ الَّذِينَ قَبِلُوهُ –أي المسيح- فَأَعْطَاهُمْ سُلْطَاناً أَنْ يَصِيرُوا أَوْلاَدَ اللَّهِ، أَيِ الْمُؤْمِنُونَ بِاسْمِهِ. اَلَّذِينَ وُلِدُوا لَيْسَ مِنْ دَمٍ، وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ جَسَدٍ، وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ رَجُلٍ، بَلْ مِنَ اللَّهِ." (يو ١: ١٢، ١٣) وقال عنها في رسالته الأولى: "انظروا أية محبة أعطانا الأب حتى ندعى أولاد الله" (١يو٢: ١) ولقد قيل أن احد المرسلين كان يترجم هذه الآية الأخيرة إلى أحدى القبائل الأفريقية، وإذ سمعها واحد من أبناء هذه القبيلة صاح قائلاً للمرسل: " أحقا ما تقول؟ وهل يمكن أن يكون الإنسان ابنا لله؟ " وإذ أجاب المرسل بالإيجاب صاح الرجل : "وكيف تنطق هذه الكلمات دون دموع؟!". اجل ومن ذا الذي يدرك هذه الحقيقة، ويعي معناها الدقيق دون أن تصدح حياته بأغنية أبدية لا تنتهي، فمن أنا وأنت وأي إنسان مهما يكن شانه أو اسمه، يمكن أن يبلغ هذه المرتبة.. وإذا صح أن الإنسان التعس البائس الفاشل عندما يتحول عن هذا البؤس أو الفشل أو التعاسة ليأخذ مجدا أو منصبا ارضيا يرى في ذلك يرى في ذلك رفعة أو أملا لم يحلم بالوصول إليه قط من فرط الشقاء والتعاسة، ويكون أشبه بذلك الرجل الذي كان يرمي في العام ١٨٣٨م، وهو مسكين بائس ممزق الثياب بكومة من خشب في بدروم، وقد كسرت قطعه من الخشب لوحا زجاجيا من ألواح النوافذ، فانهالت عليه صاحبة المنزل بالشتائم والتقريع والاهانة، وقد سمع الرجل ما فاهت به دون أن ينطق ببنت شفة، وقد سمع الكلام رجل أخر اقبل على الصوت، وكان بدوره رجلا فاشلا جائعا متعبا بائسا، وكان منظر الرجلين في تلك اللحظة ينبئ عن فشل عميق وتعاسة كبرى، على إنهما بعد بضعة سنين كانا من المع الشخصيات في بالولايات المتحدة، إذ كان الأول الجنرال جرانت، والثاني الجنرال شرلمان، وقد تخطيا بالكفاح السنين السوداء في حياتهما!.. فإذا صح أن يعتبر هذا التخطي مجدا في حياتهما، فأي مجد يمكن أن يطلق على الواحد منا، الذي نقلعه الله من شره وإثمه وتعاسته وفشله إلى حرية مجد أولاد الله!١..

وفي الواقع أن الواحد منا أشبه بتلك الكتلة البشعة الصخرية التي كانت على قمة تل يشرف على واد في ايطاليا يعد من أجمل وديان العالم، وكان الزائرون لهذا الوادي يستمتعون بابهج مناظر الطبيعة هناك، ولم يكن يشوش المنظر سوى هذه الكتلة الصخرية التي ضاق الناس بها وتأذوا من منظرها جميعا، ما خلا إنسان واحد، فهذا كان يذهب إليها ويطيل النظر فيها ثم يعود إلى بيته، وبعد بضع زيارات حما أزميله وبدا يعمل فيها، وبعد مدة صنع تمثالا رائعا لملاك منها، وكان هذا الرجل ميشيل أنجلو المثال الايطالي العظيم!!.. وقد ألف الناس أن يذهبوا إلى هناك لا ليتمتعوا بجمال الوادي الخصيب فحسب، بل ليروا التمثال الجميل هناك!١.. وهل أنا وأنت إلا تلك الكتلة الصخرية البشعة التي رضي الله أين يصنع منها ما هو امجد وأعظم من ملاك، إذ صنع منها ابنا لله!١.. أي مركز اعلي من هذا، وأي مجد يداني هذا المجد!١.. ومن لا يتغنى ويترنم ويفخر بعد ذلك بالإله العظيم المجيد..

٢- مركز الكهنوت الملوكي

وإذا كنا قد تحدثنا عن المؤمن كابن الله، فلابد أن نوضح مركزه كملك وكاهن في الأرض، وهذه الصفة المزدوجة، ليست قاصرة على مؤمن دون أخر، بل هي حق كامل لكل مؤمن مسيحي، مهما كان حظه أو ظرفه في تلك الحياة.. والأصل الكتابي في ذلك، أن الله جعل الشعب كله في العهد القديم ملوكا وكهنة: " تَكُونُونَ لِي خَاصَّةً مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الشُّعُوبِ. فَإِنَّ لِي كُلَّ الأَرْضِ. ٦وَأَنْتُمْ تَكُونُونَ لِي مَمْلَكَةَ كَهَنَةٍ وَأُمَّةً مُقَدَّسَةً." (خر١٥: ٥،٦) أو كما ذكر اشعياء بالنبوة على الكنيسة كلها: "أما انتم

فتدعون كهنة للرب تسمون خدام إلهنا" (اش٦١: ٦)أو كما جاء في العهد الجديد في أقوال الرسول بطرس وهو يصف جميع المؤمنين: " وَأَمَّا أَنْتُمْ فَجِنْسٌ مُخْتَارٌ، وَكَهَنُوتٌ مُلُوكِيٌّ، أُمَّةٌ مُقَدَّسَةٌ، شَعْبُ اقْتِنَاءٍ، لِكَيْ تُخْبِرُوا بِفَضَائِلِ الَّذِي دَعَاكُمْ مِنَ الظُّلْمَةِ إِلَى نُورِهِ الْعَجِيبِ. ١٠ الَّذِينَ قَبْلاً لَمْ تَكُونُوا شَعْباً، وَأَمَّا الآنَ فَأَنْتُمْ شَعْبُ اللهِ. الَّذِينَ كُنْتُمْ غَيْرَ مَرْحُومِينَ، وَأَمَّا الآنَ فَمَرْحُومُونَ." (١بط٢: ٩، ١٠).. وفي سفر الرؤيا: " الَّذِي أَحَبَّنَا، وَقَدْ غَسَّلَنَا مِنْ خَطَايَانَا بِدَمِهِ، ٦وَجَعَلَنَا مُلُوكاً وَكَهَنَةً لِلَّهِ أَبِيهِ، لَهُ الْمَجْدُ وَالسُّلْطَانُ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ. آمِينَ."ة (رؤ٥:١، ٦).. لأَنَّكَ ذُبِحْتَ وَاشْتَرَيْتَنَا لِلَّهِ بِدَمِكَ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ وَلِسَانٍ وَشَعْبٍ وَأُمَّةٍ، ١٠وَجَعَلْتَنَا لِإِلَهِنَا مُلُوكاً وَكَهَنَةً، فَسَنَمْلِكُ عَلَى الأَرْضِ».(رؤ٥: ٩، ١٠)..

لعل أروع ما كتب مؤخرا عن هذا الموضوع ما جاء في كتاب "الكنيسة" لعالم لاهوتي كاثوليكي هو الدكتور هانز كونج السويسري وعميد كلية اللاهوت الكاثوليكية في جامعة توبنجن في الفصل الذي افرده في الكتاب تحت عنوان: "كهنوت كل المؤمنين صفحة ٢٦٣ – ٣٨٧ طبعة ١٩٦٧".. ومع انه ليس من السهل ذكر كل ما جاء في هذا الكتاب ههنا، إلا أن الكاتب، في درسه العميق للكهنوت الملوكي، ناقش أولا الحقيقة المسيحية الأساسية التي تؤكد أن المسيح هو رئيس الكهنة والشفيع الوحيد، وانه احدث تغييرا أساسيا في النظام الكهنوتي، بما جعله يختلف في كل شيء، عن النظام اليهودي، أو النظم الأممية!!..

يقول الكاتب أن الكلمة الحديثة "كاهن" وفي الانجليزية "Priest" وفي الاسبانية " Presbitero" وفي الفرنسية "Pretre" وفي الايطالية "Prete" وفي الألمانية والهولندية "Priester" وهي المشابهة للكلمة اللاتينية "Presbyter" والمأخوذة من الأصل اليوناني الذي هو "شيخ " وبمعنى القائد في الجماعة!!.. لكن الكلمة على العكس من ذلك تطورت في اللغة الكنسية اللاتينية وتباعدت عن هذا المعنى، حتى انصرفت إلى الكلمة اللاتينية Sacerdo أو الايطالية والاسبانية Sacerdote وهي تعبير يقصد به من وظيفته الأساسية تقديم ذبيحة... ولعله من المثير أن الكلمة "كاهن " لم تطلق على أي شخص في العهد الجديد اخذ وظيفة في الكنيسة، كما أن السيد المسيح كان واضح النقد للكهنة الذين كانوا في وقته.. كما انه أنهى النظام الكهنوتي الذي كان معروفا في العهد القديم، فلم يأت على رتبة هارون بل على رتبة ملكي صادق، كما انه كان يختلف عن الكهنة، الذين كانوا عاجزين بالذبائح المتكررة عن أن يكفروا عن خطايا أنفسهم وخطايا الشعب، أما هو فقد كان الكاهن والذبيحة معا، وبقربان واحد أكمل إلى الأبد المقدسين، ومن ثم فهو رئيس الكهنة القادر، والذي لا يمكن أن يحل محله أخر، وعمله كامل وشامل، ولا يحتاج إلى إضافة أو تكرار أو تحسين، والملائكة أو الناس لا يمكن أن تقوم مقامه على الإطلاق من هذا القبيل!..

والمسيح هو الوسيط الوحيد، وليس في اللغة العبرانية أو الآرامية، ما يعطي كلمة وسيط مدلولا معينا، وقد جاءت في اللغة اليونانية بمعنى يقف بين اثنين،ر وليس مجرد موقف المحايد بل الوكيل، ولا يمكن أن يصلح لهذه الوساطة، وعلى وجه الخصوص، غفران الخطايا، سوى شخص المسيح ولهذا قال الرسول: " ٥لأَنَّهُ يُوجَدُ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَوَسِيطٌ وَاحِدٌ بَيْنَ اللهِ وَالنَّاسِ: الإِنْسَانُ يَسُوعُ الْمَسِيحُ، ٦الَّذِي بَذَلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً لأَجْلِ الْجَمِيعِ،" (١تي٢: ٥، ٦).. والمسيح هنا يعلو على موسى: " يقدر ما هو وسيط أيضا لعهد أعظم قد تثبت على مواعيد أفضل "(عب٦:٨)." ١٥ولأَجْلِ هَذَا هُوَ وَسِيطُ عَهْدٍ جَدِيدٍ، لِكَيْ يَكُونَ الْمَدْعُوُّونَ - إِذْ صَارَ مَوْتٌ لِفِدَاءِ التَّعَدِّيَاتِ الَّتِي فِي الْعَهْدِ الأَوَّلِ - يَنَالُونَ وَعْدَ الْمِيرَاثِ الأَبَدِيِّ." (عب٩ :١٥).. "وَإِلَى وَسِيطِ الْعَهْدِ الْجَدِيدِ: يَسُوعَ، وَإِلَى دَمِ رَشٍّ يَتَكَلَّمُ أَفْضَلَ مِنْ هَابِيلَ." (عب١٢: ٢٤).. ولا يمكن للمؤمن أن يثق أو يطمئن إلى وسيط أخر

غبر المسيح الذي هو وحده بفدائه الجنس البشري يصلح دون غيره لهذه الوساطة، ويحذر الكاتب من الخطر الذي يمكن أن تقع فيه الكنيسة، أن تضعها نفسها ونظمها في مركز الوسطاء، وإذا كان العهد الجديد قد كشف عن وسائل متعددة لمعرفة مشيئة الله وإرادته عن طريق الملائكة والرسل والأنبياء، إلا انه لم يذكر قط أن هناك وسطاء، إذ ليس وسيط بكل ما في الكلمة من معنى سوى يسوع المسيح، أما الآخرون فما هم إلا شهود أو سفراء لهذا الوسيط الواحد، أو كما يقول الرسول بولس : "١٨وَلكِنَّ الْكُلَّ مِنَ اللهِ، الَّذِي صَالَحَنَا لِنَفْسِهِ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ، وَأَعْطَانَا خِدْمَةَ الْمُصَالَحَةِ، ١٩أَيْ إِنَّ اللهَ كَانَ فِي الْمَسِيحِ مُصَالِحاً الْعَالَمَ لِنَفْسِهِ، غَيْرَ حَاسِبٍ لَهُمْ خَطَايَاهُمْ، وَوَاضِعاً فِينَا كَلِمَةَ الْمُصَالَحَةِ. ٢٠إِذاً نَسْعَى كَسُفَرَاءَ عَنِ الْمَسِيحِ، كَأَنَّ اللهَ يَعِظُ بِنَا. نَطْلُبُ عَنِ الْمَسِيحِ: تَصَالَحُوا مَعَ اللهِ. "(٢كو٥: ١٨-٢٢).. ومن المهم أن نعلم أن المسيح كوسيط ورئيس كهنة هو وحده الذي يفتح الطريق إلى قدس الأقداس : "١٩فَإِذْ لَنَا أَيُّهَا الإِخْوَةُ ثِقَةٌ بِالدُّخُولِ إِلَى «الأَقْدَاسِ» بِدَمِ يَسُوعَ، ٢٠طَرِيقاً كَرَّسَهُ لَنَا حَدِيثاً حَيّاً، بِالْحِجَابِ، أَيْ جَسَدِهِ، ٢١وَكَاهِنٌ عَظِيمٌ عَلَى بَيْتِ اللهِ."(عب١٠: ١٩-٢١).. "١٥فَلْنُقَدِّمْ بِهِ فِي كُلِّ حِينٍ لِلَّهِ ذَبِيحَةَ التَّسْبِيحِ، أَيْ ثَمَرَ شِفَاهٍ مُعْتَرِفَةٍ بِاسْمِهِ."(عب١٣: ٥)...

وجميع المؤمنين بهذا المعنى الأخير يمكن أن يكونوا كهنة يقدمون الذبائح الروحية لله!١ فالصلاة، والكر والتسبيح، وثمار التوبة، والإيمان، والمحبة، لا يمكن أن تأتي من مجرد قوة الإنسان أو جهده، بل بشفاعة وفاعلية الوسيط ورئيس الكهنة الوحيد الرب يسوع المسيح!١.. كما إن المؤمنين ملوك خرجوا من سلطان إبليس وعبوديته، وأضحوا أحرارا وسادة لأنفسهم، وللعالم الذي يخضع الفادي سيخضع بالتالي لهم لمملكتهم!!..

.. ويعدد الكاتب صور الكهنوت الملوكي لجميع المؤمنين فيراه أولا: في الاقتراب المباشر إلى الله، الأمر الذي كان مجهولا لدى الأمم ومتعذرا لدى اليهود، الذين كانوا يقتربون عن طريق الكهنة لتقديم الذبائح، وكان رئيس الكهنة يدخل مرة واحدة كل عام قدس الأقداس في رهب ورعب، أما المسيح فقد أزال الحجاب الحاجز : "١٤فَإِذْ لَنَا رَئِيسُ كَهَنَةٍ عَظِيمٌ قَدِ اجْتَازَ السَّمَاوَاتِ، يَسُوعُ ابْنُ اللهِ، فَلْنَتَمَسَّكْ بِالإِقْرَارِ. ١٥لأَنْ لَيْسَ لَنَا رَئِيسُ كَهَنَةٍ غَيْرُ قَادِرٍ أَنْ يَرْثِيَ لِضَعَفَاتِنَا، بَلْ مُجَرَّبٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِثْلُنَا، بِلاَ خَطِيَّةٍ. ١٦فَلْنَتَقَدَّمْ بِثِقَةٍ إِلَى عَرْشِ النِّعْمَةِ لِكَيْ نَنَالَ رَحْمَةً وَنَجِدَ نِعْمَةً عَوْناً فِي حِينِهِ." (عب٤: ١٤-١٦)..

ثانيا: تقديم الذبائح الروحية : وهي الذبائح التي يشير إليها الرسول بولس : " ١فَأَطْلُبُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ بِرَأْفَةِ اللهِ أَنْ تُقَدِّمُوا أَجْسَادَكُمْ ذَبِيحَةً حَيَّةً مُقَدَّسَةً مَرْضِيَّةً عِنْدَ اللهِ عِبَادَتَكُمُ الْعَقْلِيَّةَ."(رو١٢: ١). "لكنني وان كنت أنسكب على ذبيحة إيمانكم وخدمته أسر وأفرح معكم أجمعين" (في٢: ٧)،(في٤: ١٨).. وما ذكره بطرس: (١بط٢: ٥).

ثالثًا: الوعظ بالكلمة: وهي رسالة جميع المؤمنين بحياتهم وتصرفاتهم وكرازتهم، ولا يجوز لأحد أن يتخلف عن هذا: (١بط٢: ٩).. وفي العهد الجديد هناك حوالي ثلاثين لفظًا تستخدم في هذا المجال، ليعلن ويخبر، ويبشر، ويعلم، ويشهد، ويقول، ويشرح، ويقنع، ويعترف، ويكرز، ويحث.. وهذه جميعًا تبين ضرورة مساهمة كل مؤمن ومسيحي في حث النفوس، والكرازة للناس.. ويلاحظ دكتور كونج أن الكرازة كانت من الوجهة التاريخية عمل كل مسيحي، في القرن الأول الميلادي... وأنها أهملت للأسف، على نحو محزن في القرون التالية، أو جعلت قاصرة على قادة متخصصين لها.. وقد بقى الأمر على هذه الحال حتى جاء عصر الإصلاح، كما أشار إلى أن أبطال الدفاع عن الحق المسيحي، من اللاهوتيين، كان أغلبهم في الأصل من العلمانيين في الكنيسة أمثال يوستيان، وترتليانوس، وبانتانيوس، وكلمنت السكندري، وعشرات منهم!!

رابعًا ممارسة المعمودية، والعشاء الرباني، وغفران الخطايا، وهذه جميعها من حق الكنيسة كلها، وليست اختصاصًا أو احتكار لفئة دون فئة فيها!!.. (مت٢٨: ١٩).. "وإن لم يسمع فقل للكنيسة وإن لم يسمع " (مت١٨: ١٧-١٨).. (لو٢٢: ١٩)..

خامسًا: خدمة الوساطة: وكهنوت المؤمنين يمتد في وساطته من أجل العالم، ومن أجل الأخوة أنفسهم، إذ أن الاقتراب المباشر لله ليس من أجل أغراض ذاتية أو شخصية، بل هو أكثر من ذلك لأجل الآخرين، فنحن ينبغي أن نتوسط بين الله والعالم.. وهذا يتم بإعلان حقائق الله للعالم، والصلاة من أجل الجميع: (قي٢: ١٥) (١تي٢: ١).. كما أننا ينبغي أن نصلي من أجل أخوتنا المؤمنين في شتى أحوالهم وظروفهم.. (غل٦: ٢)..

ومن هذا الذي ذكرنا جميعًا يتبين أن الكهنوت منصرف إلى جميع المؤمنين، وليس هو نوعًا من المقابلة ما يطلق عليه خدام أو قادة الكنيسة، وعلمانيون.. وأن هذه التفرقة، غير معروفة في الإنجيل، وأنها شاعت نتيجة الاندفاع المتزايد نحو تخصيص ما أطلق عليه وظائف كهنوتية، استبدلت فيه كلمة كاهن بالمعنى الإنجيلي الصحيح، لتأخذ صورة الكاهن الذي هو من طبقة معينة، ويقف بين الله والناس على نحو يهودي أو وثني.. وبهذا المعنى تفقد الكنيسة أجمل خصائص الكهنوت المسيحي، والتي تتركز في الوسيط الواحد ورئيس الكهنة الرب يسوع المسيح وكهنوت كل المسيحيين.

كما أن دكتور كونج يختم في النهاية بان الألفاظ أو الأوصاف التي ينفرد بها الرهبان أو أي طبقة كنسية كالروحانيين أو المقدسين ليست إلا ابتداعا متأخرا في الكنيسة، وتناقض ما جاء في الإنجيل، الذي يؤكد أن الحياة المقدسة حق لكل مسيحي بالخليقة الجديدة بعمل الروح القدس.. فليس إنكار الجسد أو عدم الزواج أو حياة العزبة هي التي توجد الروحانية، بل على العكس قد تكون هذه: " الَّتِي لَهَا حِكَايَةُ حِكْمَةٍ، بِعِبَادَةٍ نَافِلَةٍ، وَتَوَاضُعٍ، وَقَهْرِ الجَسَدِ، لَيْسَ بِقِيمَةٍ مَا مِنْ جِهَةِ إِشْبَاعِ البَشَرِيَّةِ.(كو٢: ٢٣).. أن الروحانية أو حياة القداسة لا يمكن أن تأتي إلا بعمل روح الله في كل المؤمنين: "١٦وَإِنَّمَا أَقُولُ: اسْلُكُوا بِالرُّوحِ فَلاَ تُكَمِّلُوا شَهْوَةَ الجَسَدِ. ١٧لأَنَّ الجَسَدَ يَشْتَهِي ضِدَّ الرُّوحِ وَالرُّوحُ ضِدَّ الجَسَدِ.. وَأَعْمَالُ الجَسَدِ ظَاهِرَةٌ:..٢٢وَأَمَّا ثَمَرُ الرُّوحِ فَهُوَ: مَحَبَّةٌ فَرَحٌ سَلاَمٌ، طُولُ أَنَاةٍ لُطْفٌ صَلاَحٌ، إِيمَانٌ ٢٣وَدَاعَةٌ تَعَفُّفٌ." (غل٥: ١٦- ٢٣).. والأمر ذاته في الكلمة "اكليروس" إذ هي في الأصل تعني كلمة "قرعة" كما جاء في القول : "ولما صلبوه اقتسموا ثيابه مقترعين عليها ماذا يأخذ كل واحد" (مر ١٥: ٢٤).. وقد استعملت بمعنى نصيب أو قرعة لمن حل محل يهوذا: " إِذْ كَانَ مَعْدُوداً بَيْنَنَا وَصَارَ لَهُ نَصِيبٌ فِي هَذِهِ الخِدْمَةِ.. فَأَلْقَوْا قُرْعَتَهُمْ فَوَقَعَتِ القُرْعَةُ عَلَى مَتِّيَاسَ فَحُسِبَ مَعَ الأَحَدَ عَشَرَ رَسُولاً. (اع١: ١٧، ٢٦).. ولهذا فهي في معناها الأصيل هي المشاركة في خدمة المشيخة، غير إنها أضحت تطلق فيما بعد على كل الممارسين للأعمال والخدمات الكنسية.. وشاعت أيام اوريجانوس كل من يمسك في الكنيسة "خدمة " في مقابل "الشعب"... وعلل جيروم التسمية، بأنها تعطى لمن يصبح ملكا للرب أو أن الرب نصيبه، وقسمته!!.. على أن التفرقة اتضحت على نحو اسم بعد عصر قسطنطين بين العلمانيين والكهنة!!.. حيث أن كلمة العلمانيين لم تأت في العصر اليوناني إلا بمعنى الطبقة غير المتعلمة، وعند اليهود لمن هو غير كاهن أو لاوي، ولم ترد على الإطلاق في العهد الجديد.. غير إنها جاءت في الرسالة الأولى لكلمنت لتشير إلى المؤمن الصادق في مواجهة رؤساء الكهنة، والكهنة، واللاويين، وأخذت طريقها بعد ذلك في التاريخ الكنسي لتكون صورة لطبقة متميزة في لباسها ونظامها وامتيازاتها.. مع إن هذا متناقض مع الإنجيل، والذي وان كان قد أعطي مواهب مختلفة، إلا انه لم يقسم الشعب إطلاقا إلى طبقة من الاكليروس وطبقة من العلمانيين، إذ الكهنوت من حق كل مؤمن، ولكل واحد من المؤمنين قرعته ونصيبه في خدمة الخلاص، ولم يجرد واحد قط من هذا النصيب!!..

هذه خلاصة أراء الدكتور هانز كونج في "كهنوت كل المؤمنين" وقد أثرنا تلخيصها لا لأنها تمثل رأيا متقدما حديثا في الكنيسة الكاثوليكية، بل لأنها في الواقع محاولة تقترب في الجانب الكبير منها من الدرس الكتابي المنشود، وهي على أي حال تعطينا في هذا المجال غنى وثروة كبرى، في مركز المؤمن باعتباره كاهنا وملكا أمام الله والناس!!..

٣- مركز الاطمئنان

وعلى المؤمن أن يعلم على الدوام انه في مركز الأمان طالما يستند إلى وجود الله معه ومعونته إياه.

عندما هاجم مستر **ستيد** الصحفي الانجليزي العظيم شرور لندن ومخازيها هجوما قويا لاذعا، أثاره ضده كثيرين من القادة والمسئولين، فقال له صديق :"إلا تخشى هؤلاء جميعا؟ " فأجابه: " أن لي شريكا قويا" فسأله: "ومن هو؟ " فأجاب: " الإله القوي".ومن يتأمل حقا معنى هذه الحقيقة : إن الله معه وان يده تؤازره، لابد أن يهدا ويطمئن ويستريح؟!!

قال احد الرجال اليهود للدكتور جونسون روس: "سلام لكما". فسأله هذا: "لي ولمن" فأجابه: " لك والملاك الذي يسير خلفك".. غير خاف إن فكرة الملاك الحارس شائعة عند اليهود، وقد تتيح لنا الإشارة إلى هذه الفكرة سلفا عند الحديد عن الملائكة، غير انه يمكننا الجزم هناعلى إي حال إننا نسير في الحياة في كل لحظة على الدوام بمصاحبة المسيح، وقد صنع احد المثالين تمثالا رائعا **لفيلبس بروكس** في مدينة بوسطن معتمدا على هذا اليقين، إذ نحته واقفا وخلفه المسيح واضعا يده برفق على كتفه.

٤- مركز الإخوة مع الآخرين

ومركز النبوة لله يتضمن في المركز عينه مركز الإخوة بالنسبة لسائر المؤمنين: وهنا يتخطى المؤمن سائر الفروق الاختلافات التي قد يصنعها الجنس أو الثقافة أو الثروة أو الدم أو ما أشبه، مما قد يفرق بين إنسان وإنسان.. وقد حدث إن دخل ذات مرة دوق **ولنجتون** القائد الانجليزي العظيم الذي هزم نابليون في معركة ووترلو ليصلي بجانب احد العمال، وما أن أبصره العامل حتى هم بالوقوف، إذ كيف يركع إلى جانب القائد العظيم، وإذ **بولنجتون** يهمس في أذنه، اركع معي أيها السيد فنحن متساويان في نظر الله!!.. اجل وهنا تذوب كل الفروق والحواجز البشرية المصطنعة، ويضحى جميع المؤمنون إخوة في الرب يسوع أخينا الأكبر البكر...ولعله من واجبنا الأساسي أن نذكر على الدوام هذا المركز حتى في اضعف الناس وأبسطهم وارقهم حالا، إذ لا يمكن أن تنسينا ثيابهم الممزقة وظروفهم المحدودة في الحياة مركزهم العظيم المجيد عند الله.

٥- مركز المجد العتيد

وأخيرا وليس أخرا لا ينبغي إن ننسى مركز المؤمن الأبدي العتيد، وما حياته الحاضرة في حقيقتها وواقعها إلا عربون الحياة الأبدية العتيدة.. وإذا كان قد قيل عن لعازر، كما جاء في احد التقاليد القديمة، انه من الوقت الذي أعاده فيه الناصري إلى الحياة كان يسير بقدميه على الأرض، ولكن فكره وقلبه كان على الدوام في السماء التي منها عادت روحه بعد أن بقيت هناك أربعة أيام.. وكل مؤمن حقيقي وان كان يتمشى بقدميه على الأرض ولكن مركزه وسيرته الحقيقية في السموات، وإزاء هذا المركز العظيم المجيد يضحى تبر الأرض بالنسبة لأشواقه وأحلامه وأمجاده السماوية ترابا واقل من تراب!!..

هذه هي بعض امتيازات المؤمن ومجده السني العظيم، ولعله من اللازم أن يتأملها بين الحين والحين كلما ضاقت به السبل أو أخذه شيء من اكلل واملل، وهو في الطريق الأبدي، إذ يعلو عندئذ ويرتفع ويسمو ويقوى على السير وهو مندفع منطلق في رحلته الخالدة إلى الله...

المؤمن ووسائط النعمة

ولكن كيف أن يدرك المؤمن حقيقة هذا المركز الممتاز على أساس الفهم العميق والإدراك السليم؟!! بل كيف يمكن أكثر من ذلك أن يحافظ عليه ويثبت فيه؟!!

في الواقع إن الله لم يتركه في الأمر لمجرد مجهوده الخاص أو مساعيه الذاتية، بل زوده بكل ما يمكن أن يقويه ويساعده ويعينه ويحفظه، لا في الثبات فحسب، بل في النمو والتقدم في الحياة المقدسة المباركة أيضا.. فما هي هذه الوسائط التي يمكن أن تدفعه إلى الأمام وإلى اعلي في الوقت نفسه؟ لعل أهمها في الواقع ما يلي:

١- الشركة السرية مع المسيح

وهذه الشركة ليست وهما أو خيالا، ولكنها الحقيقة الأكيدة في الاختبار المسيحي، إذ إن علاقة المسيح بإتباعه علاقة الشركة التي لا تنفصم عراها أو تتباعد أثارها، بل هو أكثر من ذلك كثير، إذ هو الشخص الحي الساكن المستقر في حياته استقرار راسخا أكيدا لا شبهة فيه، وقد وضع الكتاب لهذه الحقيقة أكثر من صورة أو مثل، فعلاقة المسيحي بسيده علاقة الغصن بالكرمة، وعلاقة العضو بالجسد، وعلاقة الهيكل بالساكن فيه، وهذه العلاقة لا تحتمل التجزئة أو الانفصال و التباعد.. وهذه العلاقة، كما هو واضح، علاقة سرية خفية عميقة أو كما يقول الرسول: "٣لأَنَّكُمْ قَدْ مُتُّمْ – عن الحياة القديمة - وَحَيَاتُكُمْ مُسْتَتِرَةٌ مَعَ الْمَسِيحِ فِي اللهِ" (كو٣: ٣) أو كما وصفها المسيح بالقول :" هاأنذا وَاقِفٌ عَلَى الْبَابِ وَأَقْرَعُ. إِنْ سَمِعَ أَحَدٌ صَوْتِي وَفَتَحَ الْبَابَ، أَدْخُلُ إِلَيْهِ وَأَتَعَشَّى مَعَهُ وَهُوَ مَعِي." (رؤ٣: ٢٠) «إِنْ أَحَبَّنِي أَحَدٌ يَحْفَظْ كلاَمِي وَيُحِبُّهُ أَبِي وَإِلَيْهِ نَأْتِي وَعِنْدَهُ نَصْنَعُ مَنْزِلاً." (يو١٤: ٢٣).. وغير خاف لذلك انه لا يمكن تحقيقها إلا بالإيمان: "١٦لِكَيْ يُعْطِيَكُمْ بِحَسَبِ غِنَى مَجْدِهِ أَنْ تَتأيدوا بِالْقُوَّةِ بِرُوحِهِ فِي الإِنْسَانِ الْبَاطِنِ، ١٧لِيَحِلَّ الْمَسِيحُ بِالإِيمَانِ فِي قُلُوبِكُمْ،" (اف٣: ١٦، ١٧). وكلم تحقق الإنسان هذه آيات ومعجزات!! بل كلما انصاع لقيادته وإرشاده ومشورته وسلطانه، كلما اندفع إلى الطريق السوي الأمن بالقوة الغامرة ولانتصار المجيد!! ومن المأثور عن جون باتون قوله : "لولا الإحساس المستقر الثابت بوجود الرب يسوع، لما وجدت في كل العالم ما يحفظني من ضياع عقلي، وكلماته القائلة: "ها انا معكم كل الأيام وإلى انقضاء الدهر" كانت حقيقة في اختباري، لدرجة إني لم أكن استغرب لو انه خرج من العليقة!!. لقد شعرت بقوته المعينة لي إلى الحد الذي يمكنني معه أن أقول إني استطيع كل شيء في المسيح الذي يقويني!!"... ومن هو الرجل الأحمق بعد ذلك الذي لا يغني أو تصدح موسيقاه مع هنري فرانسيس **لايت** بالقول:

امكث مع سيدي فالغمر غطى جسدي

والوهن قد أعيى يدي وليس لي من منجد

***

فكن أمامي في النهار ياراحتي حين القرار

يا حافظي وقت المنام يا مرشدي حين الكلام

***

وكن معي في كل حين يا حارسي الحصن الأمين

يا عاضدي طول الحياة يا ناصري عند الوفاة

فإذا كانوا قد قالوا عن **تشارلس ديكنز** انه كتب خطابا ذات يوم وأمضاه باسم جون **فورستر**، وعندما اكتشف الخطأ كتب إلى صديقه يقول انه طوال الوقت الذي كان يكتب فيه الخطاب، كان يفكر في الصديق إلى الدرجة الذي نسي معها نفسه، فامضي وهو لا يدري باسم صديقه!! فإذا صح أن يقال هذا عن علاقة صديق بصديق مثله، افليس الأمر أولى وأجدر واصح بالنسبة لعلاقتنا بأعظم صديق وأوفى محب واخلص شريك... ما احونا حقا أن ننسى نفوسنا وحياتنا وشخصياتنا ونحن نندمج بشخصه العجيب لنعش في ذوب حبه وجوده وسيطرته وانتصاره مستأثرين كل فكر إلى طاعة المسيح.. وعندئذ فقط تنفتح في حياتنا طاقات هائلة يمكن أن يقال إزائها الضعيف فينا ": "بطل أنا"!!..

٢- دراسة الكتاب المقدس

إذا جاز أن يجث للإنسان نمو بدون طعام، جاز أن يحدث للمؤمن نمو في حياته الروحية دون دراسة الكتاب المقدس. ونحن نلاحظ على الدوام أن عصور الضعف في الكنيسة هي العصور التي يضعف فيها درس الكتاب، والعكس صحيح!!.. وقد قال احد القديسين: "إني لا أحب أي كتاب إلا كتاب الله" ولعلنا نلاحظ في هذا الصدد اطراد الشهادات القوية الآتية من الأنبياء والرسل والقديسين، وكيف كان لهذا الكتاب أعمق واقوي الآثار في حياتهم ورسائلهم. ويكفي أن نذكر هنا على سبيل المثال قول داود : "٧نَامُوسُ الرَّبِّ كَامِلٌ يَرُدُّ النَّفْسَ. شَهَادَاتُ الرَّبِّ صَادِقَةٌ تُصَيِّرُ الْجَاهِلَ حَكِيماً. ٨وَصَايَا الرَّبِّ مُسْتَقِيمَةٌ تُفَرِّحُ الْقَلْبَ. أَمْرُ الرَّبِّ طاهرا يُنِيرُ الْعَيْنَيْنِ. ٩خَوْفُ الرَّبِّ نَقِيٌّ ثَابِتٌ إِلَى الأَبَدِ. أَحْكَامُ الرَّبِّ حَقٌّ عَادِلَةٌ كُلُّهَا. ١٠أَشْهَى مِنَ الذَّهَبِ وَالإِبْرِيزِ الْكَثِيرِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَقَطْرِ الشِّهَادِ. ١١أَيْضاً عَبْدُكَ يُحَذَّرُ بِهَا وَفِي حِفْظِهَا ثَوَابٌ عَظِيمٌ."(مز١٩: ٧-١١) وقل اشعياء :" إلى الشريعة وإلى الشهادة، وان لم يقولوا مثل هذا القول فليس لهم فجر "(اش٨: ٢٠) وبقول ارميا: "وجدت كلامك فأكلته، فكان كلامك لي للفرح ولبهجة قلبي" (ار١٥: ١٦) وقول الرسول بولس لتلميذه تيموثاوس : " وَأَنَّكَ مُنْذُ الطُّفُولِيَّةِ تَعْرِفُ الْكُتُبَ الْمُقَدَّسَةَ، الْقَادِرَةَ أَنْ تُحَكِّمَكَ لِلْخَلاَصِ، بِالإِيمَانِ الَّذِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ. ١٦كُلُّ الْكِتَابِ هُوَ مُوحىً بِهِ مِنَ اللهِ، وَنَافِعٌ لِلتَّعْلِيمِ وَالتَّوْبِيخِ، لِلتَّقْوِيمِ وَالتَّأْدِيبِ الَّذِي فِي الْبِرِّ، ١٧لِكَيْ يَكُونَ إِنْسَانُ اللهِ كَامِلاً، مُتَأَهِّباً لِكُلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ." (٢تي٣: ١٥-١٧) وفوق وقبل الكل شهادة المسيح القائلة:"ِّتشوا الْكُتُبَ لأَنَّكُمْ تَظُنُّونَ أَنَّ لَكُمْ فِيهَا حَيَاةً أَبَدِيَّةً. وَهِيَ الَّتِي تَشْهَدُ لِي." (يو٥: ٣٩).

ومن اللازم أن نوضح ههنا انه لا يجوز لأحد على الإطلاق أن يقف بين المؤمن ودراسة الكتاب..وقد ارتفع الآن النداء في شتي المذاهب بضرورة فتح الطريق المباشر بين أي مسيحي والكتاب المقدس. وقد حدث ذات مرة أن انتهر احد الكهنة الكاثوليك فتاة صغيرة درجت على الذهاب إلى الاجتماعات لدراسة الكتاب، وكان أبواها يشجعانها على الذهاب، ولكن الكاهن قال: إنها ينبغي أن تطيعه هو لولا تطيع أباها فأجابته: "ولكن الكتاب يعلمنا قائلا: أكرم أباك وأمك" فأجابها الكاهن: "ولكن

ليس من شغلك أن تقرئي الكتاب"! فأجابته: "ولكن كيف يكون هذا والمخلص يقول: "فتشوا الكتب" فقال لها: "ولكن هذا كان لليهود وليس للأطفال وأنت لا تفهمين الكلمة" فقالت له: " ولكن بولس قال لتيموثاوس: "وانك منذ الطفولية تعرف الكتب المقدسة!!" فقال لها: " أن تيموثاوس كان يدرب لكي يكون أسقفا وقد درب بأمر الكنيسة وتحت رعايتها" فأجابته: " لا ياسيدي، لقد علمته جدته وأمه"... وعندئذ حار معها الكاهن وتحول عنها دون أن يجد حجة أخرى يقنعها بها!!.. وفي الواقع أن أعظم بركة تتاح للإنسان أن يكون صديقا وأليفا لكتاب الله!!..

٣- معونة الصلاة

قال احدهم أن الصلاة للمسيحي أشبه بالتنفس للجسد، وإذا أمكن للجسد أن يعيش بدون تنفس أمكن للمسيحي أن يعيش بدون صلاة. وكما جعل الله التنفس للإنسان والحيوان والنبات امرأ هاما ولازما لا يمكن الاستغناء عنه، هكذا جعل الصلاة للمؤمن. فهو لا يمكن أن يحيا أو ينمو بدونها... وقال أخر أن الصلاة هي الفن الضائع عند الكثيرين من المسيحيين في عصرنا، وان الضعف الكامن في حياتنا، والخور الذي أصابنا أفرادا وجماعات يرجع إلى عدم إدراكنا فن الصلاة أو تأثيرها أو مجدها!!. وقد أراد الوحي أن يذكرنا بضرورة الصلاة وأهميتها، فدون في الكتاب المقدس مائة واحد وثلاثون صلاة رفعها رجال ونساء الكتاب المقدس في العهد القديم والجديد، ومن هذه الصلوات ثلاثة وثمانون في العهد القديم كله، ومن بينها ثلاثة وسبعون جاءت ما بين التكوين وسفر الملوك الأول، ومن هذه عشرون صلاة رفعها موسى، وهي اكبر عدد من الصلوات دونت لفرد واحد في الكتاب. كما أن الأناجيل الأربعة حفظت لنا تسعة وعشرين صلاة، منها تسع صلوات للمسيح وحده، وواحدة منها شملت إصحاحا بأكمله وهو الإصحاح السابع عشر من إنجيل يوحنا، وأما التسع عشرة صلاة الباقية فقد جاءت في سفر الإعمال والرسائل وسفر الرؤيا، ومنها سبع صلوات لبولس وحده.. وما من شك بان ذكر هذه الصلوات جاء عمدا في الكتاب لكي نرى مقدار أهمية الصلاة وفاعليتها وأثرها في حياة القديسين والمؤمنين... فإذا تبين بعد ذلك أن أعظم أبطال التاريخ والكنيسة كانوا رجال صلاة، وأنهم كانوا يضعون الصلاة في المركز الأول والاسنى من حياتهم، لأدركنا السر الحقيقي الكامن وراء قوتهم ونجاحهم.. ومن ينسى على سبيل المثال أن تشارلس سيمون كان يصلي كل يوم من الرابعة إلى الثامنة صباحا، وان وسيلي كان يقضي ساعتين يوميا في الصلاة بعد أن يستيقظ في الصباح، وان لوثر كان يعد اليوم الذي لا يتمكن فيه من قضاء ساعتين في حضرة الله يوما ضائعا؟ كما أن احدهم وصف جورج فوكس بالقول : "ولكنه قبل كل شيء تفوق في الصلاة، فالعمق والاتزان في روحه والمهابة والجلال في حديثه وعمله، والقلة والملء في كلماته التي هزت بالإعجاب كل من يقترب إليه بروح التأمل والبحث... على أن أفضل وأروع واجل ما فيه كانت صلاته، لقد عرف الله وعاش قريبا من الرب أكثر من أي إنسان أخر، ولكن الذين يعرفون الأب لابد أن يقتربون منه باحترام ومهابة وخوف!!". ما أكثر ما نحتاج إلى فهم الصلاة وأثرها العظيم المعجزي في حياة المؤمنين.

٤- الكنيسة

والكنيسة ولا شك من اقوي الوسائط التي أوجدها الله لنمو المؤمنين وتقدم حياتهم. ومع انه سيتاح لنا تخصيص دراسة أو سع واشمل للكنيسة وفرائضها المقدسة في البابين التاليين، إلا انه يمكن القول عنها مبدئيا أن وجود الكنيسة ورسائلها يعدان من أعمق واقوي المؤثرات في حياة المسيحيين على الأرض، إذ هي التي تجمعهم في وحدة تعاونية كاملة يعين فيها المتعلم

الجاهل، والبالغ في الإيمان الحديث والقوي والضعيف، كما إنها هي التي تنظم وتحدد علاقة المؤمنين بسيدهم بما فيها من تعليم وتشجيع وتقوية ومعونة وفرائض مقدسة، وقد عدد احدهم الأسباب التي تجعلنا نذهب إلى بيت الله فقال:

١- الشعور بالواجب، وعرفان بالجميل، ومحبة الله الذي يعطينا كل شيء طيب.

٢- الإنسان في حاجة إلى العبادة، إذ أن وجود اله ضروري في حياة الإنسان.

٣- أن النفس في حاجة إلى التدرب والنمو، كما يحتاج العقل والجسد سواء بسواء، والنفس المهملة ستسقط في الضعف والفساد.

٤- الإنسان في حاجة إلى العبادة الجمهورية لأنه خلق للتعاون والتعاضد.

٥- لان المسيح كان متعودا على الصلاة.

٦- لان العبادة لها فوائد كثيرة لجسد الإنسان وعقله ونفسه وروحه جميعا.

٧- لان الذهاب إلى الكنيسة يلون المرء ويطبعّه بطابع خاص، إذ يرى نفسه يختلف عن غير المؤمنين.

٨- لان الذهاب إلى الكنيسة يحمي من الإلحاد.

٩- انه يسيرا أيضا الغيرة والمحبة

١٠- أن العبادة تجعلنا على الدوام متذكرين أن لنا نفوسا، كما أن لنا أجسادا أيضا

١١- العبادة الجمهورية تقرب الناس بعضهم من بعض فتحميهم من العزلة الروحية، وبالتالي من الأنانية والجبن والتعصب

١٢- يحتاج الزمن والعصر الذي نعيش فيه إلى تعبير ظاهر عن الإيمان بوجود الله وعنايته.

١٣- أن مجرد تلقي الدين عن الآخرين دون عبادة يجعل الحياة ضعيفة واهنة.

١٤- أن المقاعد الخالية في بيوت الله معناها أن هناك قلوبا خالية وبيوتا خاوية وخرابا روحيا...

ولعل هذه الحقائق كلها تبين مدى الدور الذي تلعبه الكنيسة في حياة المؤمن

٥- استثمار المواهب

وأخيرا وليس أخر الوسائط الإلهية، استثمار المواهب المتعددة التي يعطيها الله للمؤمن، ومع أن النظرة المتعجلة تنظر إلى المواهب في نطاق الواجب وميدانه، ولكنها في الواقع- وقبل كل شيء، وبعد كل شيء-سر نمو المستثمر نفسه، -وأساس تقدمه ومصدر نجاحه...فإذا كانت اليد المبسوطة والمتعودة على الكفاح والخدمة، لابد أن تسير سيرا مطردا في القوة مع ما تقدم من خدمة أو كفاح، وإذا كان أحسن أسلوب للتعلم هو التعليم، فمما لا شك فيه أن استثمار المواهب يعطي المستثمر نفسه من الحصانة والقوة والمناعة ما يعيِّنه على التقدم والنضوج والبلوغ والانتصار ويكون من الصعوبة بمكان الفصل بين الواجب والامتياز في ذات المواهب... ولعل الخدمة في حد ذاتها هي التي تكشف عن معدن الإنسان وحقيقته... وقد كتب

احدهم قصيدة رائعة يصور فيها أدعياء الخدمة، ومدى ما في نفوسهم المريضة من نفاق أو ضعف، فقال فيها على لسان احد أتباع المسيح لسيده : " سأذهب حيثما تأمرني يا سيدي، فالخدمة الحقيقية هي ما ارغب وسأنادي بكل ما تطلب مني، ولكن لا تطلب مني أن أساعد الأولاد والبنات، فاني لا ارغب أن اعمل في الفصل.. إني اعمل ما تريده مني يا سيد، فأعدائك يورثونني الغضب وسأعطيك الفلس والمليم، ولكن لا تطلب مني العشور... سأذهب حيثما تريدني أن اذهب وسأقول كل ما تريدني أن أقول...ولكني أنا الآن مشغول مع نفسي يا سيدي العزيز، وفي وقت أخر سأذهب!!".. ومن هنا ندرك أن استثمار المواهب هو في حد ذاته خير وسيلة لنهوض الحياة وقوتها!!..

المؤمن والعالم

وهل يمكن دراسة حياة المؤمن، دون فهم العلاقة التي ينبغي أن يكون عليها إزاء العالم؟!! ولعله من الأهمية بمكان أن يحدد كل مؤمن حقيقة وطبيعة موقفه من العالم.. وإلى أي حد ينبغي أن ينتفع بالعالم؟ وكيف يحفظ من شره؟ وكيف يستطيع أداء رسالته فيه؟ وقد بيَّن المسيح كل هذه في صلاته الشفاعية في القول :" ١٥لسْتُ أَسْأَلُ أَنْ تَأْخُذَهُمْ مِنَ الْعَالَمِ بَلْ أَنْ تَحْفَظَهُمْ مِنَ الشِّرِّيرِ. ١٦لَيْسُوا مِنَ الْعَالَمِ كَمَا أَنِّي أَنَا لَسْتُ مِنَ الْعَالَمِ." (يو١٧: ١٥، ١٦) ومن هذا التعبير تتضح عدة حقائق لعل أهمها :

١- أن المؤمن بحياته الجديدة لن يعد "من العالم" وقد وصف "جويت" حياة إنسان العالم بالقول :"أن حياة النشاط البشري دون التطلع إلى الله، إذ هي الحياة دون دعوة سماوية، ودون مثل إلهية ودون ارتفاع، إذ لا تفهم على الإطلاق دعوة الله العليا في المسيح يسوع، كما لا توجد بها قمم الله أو أفاق القدير... إنها الحياة التي لها طموح دون أشواق سماوية، وتهدف إلى النجاح دون أن تعني بالقداسة، وهي التي تقول دائما إلى الأمام، ولكنها لا تنادي إلى اعلي". وبهذا المعنى لا يمكن أن يكون المؤمن من العالم، إذ أن أشواقه وأحلامه وأمانيه اعلي واسمي وأقدس من أن تعيش باحثة عن تراب الأرض أو تطمر فيه... وبهذا المعنى لا يمكن أن تكون حياته حياة من يأكل ويشرب لأنه غدا يموت، أو يعيش للشهوات والنزوات، إذ هو إزاء هذه كلها يمكن أن يقول: "صلب العالم لي وانأ للعالم" (غل٦: ١٤).كما يقول : "١٥لاَ تُحِبُّوا الْعَالَمَ وَلاَ الأَشْيَاءَ الَّتِي فِي الْعَالَمِ. إِنْ أَحَبَّ أَحَدٌ الْعَالَمَ فَلَيْسَتْ فِيهِ مَحَبَّةُ الأب. ١٦لأَنَّ كُلَّ مَا فِي الْعَالَمِ شَهْوَةَ الْجَسَدِ، وَشَهْوَةَ الْعُيُون، وَتَعَظُّمَ الْمَعِيشَةِ، لَيْسَ مِنَ الأب بَلْ مِنَ الْعَالَمِ. ١٧وَالْعَالَمُ يَمْضِي وَشَهْوَتُهُ، وَأَمَّا الَّذِي يَصْنَعُ مَشِيئَةَ اللهِ فَيَثْبُتُ إلى الأَبَدِ." (١يو٢: ١٥-١٧).

٢- على أن ذلك لا يعني أن المؤمن يلزم أن ينصرف عن العالم أو يقاطعه ولا يعني أن يعرض عما فيه من علم وأدب وفن وموسيقى وثروة واختراع، ولا أن يمتنع عن التمتع بخيراته وبركاته فهذا ما لا يمكن أن يكون المسيح قد قصده على الإطلاق، بل أن هذا ما يتنافى مع ذات القول: "لست أسال أن تأخذهم من العالم ". ومع أن البيوريتان الأقدمين كانوا من اقوي وأعظم وأشجع المسيحيين الذيم ظهروا على وجه الأرض، إلا إننا لا نتردد في القول أنهم كانوا مخطئين، أو بتعبير أدق متزمتين في مواقفهم من العلم والموسيقى والصور والملبس.. ألم يطرد يوحنا بنيان من كنيسته امرأة لأنها لبست ثوبا حريريا!!؟ وألم يكن يوحنا وسيلي يخاف من أن يبدو أنيقا في ملبسه!!؟ وألم تعزف مس هيفرجال عن أن تسمع أي لحن سوى الإلحان الدينية!!؟ وألم يقصر الرسام انجليكو فنه على رسم الصور الدينية!!؟. مثل هذه المواقف وان دلت على رغبة في التكريس إلا إنها تقصّر في الانتفاع بأشياء كثيرة أساسية في العالم!! ونحن نستطيع أن ننتفع بما في العالم عندما نضع ما ننتفع به في ضوء الله بل أن العالم عندئذ يمتلئ بالغنى

والبهاء والجمال والكمال!! ألم يكن "ورد ثورت" يحب الطبيعة وكان يتمشى في سفوح الجبال كمن يتمشى مع الله في معبد؟ ألم يتعود صموئيل كوكس في بكور حياته، وهو يعمل بين طبقة شريرة من العمال، من أن يضع أمامه زهرة بيضاء نقية تذكره بقداسة الله وجلاله في ارض الأوحال؟ ألم يكن لوثر يحب الموسيقى ويعجب بألحانها ويعتبرها بعد الوحي أجمل أصوات الله إلينا؟ ومن ذا الذي ينسى ما تؤديه وسائل النقل الحديثة من بواخر وقطارات وسيارات وطائرات، والمكتشفات المتعددة في الطب، والمخترعات الكثيرة في الكهرباء والإذاعة والنشر وما أشبه؟ ومن ذا الذي ينسى ما تؤديه هذه جميعا لخير البشرية ومجد الله عندما يحسن استخدامها وينظر إليها في ضوء الخدمة النافعة المثمرة المنتجة ابني الإنسان.

٣- فإذا ما قيل بعد ذلك : وكيف يتسنى للمرء أن يحسن الاستخدام، وما هو الضابط الذي يعينه على التفرقة بين ما هو مفيد وخيّر ونافع، وبين ما هو باطل وشرير وآثم، أو في لغة أخرى كيف " يحفظ من الشرير" كما طلب المسيح في صلاته العظيمة؟

في الواقع أن الله قد وضع أمام المؤمن ما يساعده على هذه التفرقة والفصل، بين ما هو حرام وحلال.. ومع أن هذه التفرقة وهذا الفصل ليس من الميسور القيام بهما على وجه الدقة واليقين إلا بعد تدرب طويل، إلا انه مع ذلك يمكن القول أن ما لا يستريح إليه الإنسان، أو يفزع منه ضميره حتى ولو بدا بريئا في الظاهر، من المصلحة أن يمتنع عن فعله، أو يرجي فعله، حتى يصل إلى نور أكمل وأعظم.. ومن المؤكد أن الله لا يمكن أن يتركه طويلا دون بت في الأمر... كما أن الأمر الذي يلوث فكره أو يقضي على راحته يتحتم عليه أن يمتنع عن ممارسته حتى ولو كان غيره يفعلون.. وهناك وسيلة أخرى فعالة تحفظ المؤمن من شر العالم وهي الاعتدال الدائم فيما يدعوه الناس حلالا من أكل وشرب ولباس وما أشبه؛ لان الإفراط في استعمال هذه جميعا يستخدمه الشيطان من غير شك في الإضرار بجوهر الإنسان وحياته وروحانياته!!..

٤- والمؤمن في هذه كلها عليه رسالة أكيدة نحو العالم، الم يقل المسيح لتلاميذه: "انتم ملح الأرض"، "انتم نور العالم". وكيف يمكن بعد ذلك تصور عالم لا طعم له أو مظلم؟ وكيف يمكن تصور عالم لم يعمل فيه أمثال بولس وبطرس ويوحنا ومرقص ولوثر وكالفن من القواد الزعماء والقديسين!!..وهنا من واجبنا أن نقول أن المسيح يوبخ الانعزال والرهبنة كما نراهما في أخر الأيام، وعلى الصور التي فيها يختبئ بعض الناس عن الواجب المسيحي والرسالة المسيحية. عندما بدأت الرهبنة بدأت من أناس قديسين هالهم فجور العالم وإثمه وشره، فتصوروا انه يمكنهم الهرب منه والابتعاد عنه، وكان منه ولا شك أبطال لم يقصروا على الإطلاق في الخروج من أديرتهم لأداء أعظم الخدمات للبشر.. لكن الرهبنة بعد ذلك تحولت في كثير من الأوضاع والأماكن إلى دور كسل وشر ومجون وعربدة وجهل، مما لا يمكن وصفها معه إلا بالقول القائل: أن الرهبان المنحدرين، وهم في سبيلهم للهرب من روح واحد شرير، ذهبوا إلى الدير ليلتقوا هناك بسبعة أرواح أخر اشر!!..

المؤمن وواجباته

وأخر ما ننهي به الحديث عن حياة المؤمن هو واجباته المتعددة المتشعبة في الأرض... ومن اللازم أن نبيّن هنا أن الحياة في جملتها ليست نزهة نشوان أو راحة مترفة، ولكنها حياة كفاح ممتلئ بالعرق والدموع الجهاد والمشقة، فإذا أتيح لنا أن نضع

حياة المؤمن من هذا القبيل بين شطري أو قوسين لكان الأول عبارة عن كلمة بولس في مطلع حياته المسيحية: "يارب ماذا تريد أن افعل" (اع٩: ٦)، وكان الثاني : "قد جاهدت الجهاد الحسن أكملت السعي حفظت الإيمان ". (٢تي٤: ٧).. وبين الشطرين أو القوسين تتعدد وتظهر على الأقل الواجبات التالية :

١- الواجب الدائم نحو مجد الله

أن أي واجب يقوم به المؤمن مهما يكن سببه وغايته ينبغي أن يكون أولا وأخيرا وبعد وقبل كل شيء لمجد الله ولمجد الله وحده، ولعل الكثيرين منا يذكرون قصة ليوناردو دافنشي عندما رسم صورته العظيم : "العشاء الرباني" وقد لاقى دافنشي المشقة والتعب الشديد وهو يرسم هذه الصورة بكل عناية، وقد رأى احد أصدقاءه الصورة، وأبدى إعجابه وذهوله بجمال الكأس التي كان التلاميذ يشربون فيها، فما كان من دافنشي إلا أن محاهم محوا واخذ يرسم كأسا أخرى، وإذا اندهش صديقه لفعلته هذه أجاب الرسام: "لا ينبغي أن يكون في الصورة ما يشغل الناس عن التأمل في شخص المسيح ذاته"... وقد قيل أيضا أن عالما كبيرا دعي ليلقي خطابا في حفلة تخريج الخريجين في إحدى الجامعات، وقبل إلقاء الخطاب اجتمع بهؤلاء الخريجين وابتدأ يسال الواحد بعد الأخر: "ماذا تريد أن تكون في الحياة؟ ". وإذا بهذا يقول: أريد أن أكون مهندسا، والأخر يريد أن يكون طبيبا والثالث اختار المحاماة والرابع التجارة، وهكذا... وعندئذ قال لهم العالم: "يبدو إنكم لم تفهموا سؤالي بعد، فانا لم اطلب منكم أن تتحدثوا عن المهنة التي تمتهنوها في الحياة، بل الرسالة التي تودون أن تؤدوها، وهذه الرسالة هي ماذا تعمل وأنت طبيب أو محامي أو مهندس أو تاجر لمجد الله؟ ". أليس هذا مما يتفق مع قول الرسول: "٨لأَنَّنَا إِنْ عِشْنَا فَلِلرَّبِّ نَعِيشُ وَإِنْ مُتْنَا فَلِلرَّبِّ نَمُوتُ. فَإِنْ عِشْنَا وَإِنْ مُتْنَا فَلِلرَّبِّ نَحْنُ."(رو١٤: ٨)، "٣١فَإِذَا كُنْتُمْ تَأْكُلُونَ أَوْ تَشْرَبُونَ أَوْ تَفْعَلُونَ شَيْئاً فَافْعَلُوا كُلَّ شَيْءٍ لِمَجْدِ اللهِ." (١كو١٠: ٣١).

قال بريطاني لأحد المرسلين في الهند، وكان هذا البريطاني شغوفا بالصيد: "لقد قضيت في الهند ثلاثين عاما دون أن أرى مرسلا وكنت اصطاد النمور في هذه البلاد : "فقال له المرسل: "لقد قضيت مثلك ثلاثين عاما في ذات البلاد دون أن أرى نمرا واحدا". اجل وهذه حقيقة جديرة بالانتباه، فالإنسان يتجه ويجد ما يسعى للوصول إليه، ورسالة المؤمن الأولى والأخيرة أن يكتب على كل شيء في حياته لمجد الله"...

٢- الواجب نحو ملكوت الله

كان أمر المسيح لتلاميذه قبل صعوده إلى السماء: "اذهبوا إلى العالم اجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها". وقد أطاع الرسل هذا الأمر وتفرقوا في الأرض، وأدوا الشهادة واستشهدوا من اجلها جميعا ما خلا يوحنا، فيعقوب بن زبدي مات قتيلا في ارض الوطن بسيف هيرودس ومتى قتل في الحبشة، وفيلبس شنق في فيريجية، ونثنائيل سلخ جلده في ارمينيا، واندراوس صلب في اخائية، وتوما مات طعنا بالسهام في الهند الشرقية، وتداوس قتل بالسهام، وسمعان الغيور استشهد في فارس، وبطرس صلب في روما. ولم يمت على فراشه سوى يوحنا الحبيب، أن بولس فقط قطع رأسه بالسيف، وقد صار في أعقاب هؤلاء كثيرون من أبطال المسيحية طوال التاريخ المسيحي ممن استشهدوا في سبيل خدمة المسيح ونشر رسالته في كل مكان، ومع أن رسالة المسيحية امتدت شرقا وغربا، ولكنها ما تزال بعيدة عن بلوغ غايتها من جعل العالم كله للرب ولمسيحه، وواجب المسيحي في هذا الأمر ليس من قبيل التزيد أو الخدمة في وقت دون أخر: " لأنه إِنْ كُنْتُ أُبَشِّرُ فَلَيْسَ لِي فَخْرٌ إِذِ الضَّرُورَةُ مَوْضُوعَةٌ عَلَيَّ فَوَيْلٌ لِي إِنْ كُنْتُ لاَ أُبَشِّرُ." (١كو٩: ١٣). فلا مهرب لمؤمن من هذه الخدمة على

الإطلاق.. وما أكثر الوسائل التي يستطيع بها بلوغ العالم اجمع والآتيان به عند أقدام المسيح، فالوعظ، والكتب، والنبذ والعمل الفردي، والإذاعة، والخدمات الطبية، أو الاجتماعية، أو الثقافية، يمكن أن تكون بعض هذه الوسائل، وكل واحد من المؤمنين مكلف أن يقوم بالخدمة بالصورة والاستعداد اللذين أعطيا له من قبل الله..

٣- الواجب نحو الوطن

وواجب المؤمن نحو الوطن من أهم وأقدس الواجبات وأجدرها بالرعاية والعناية، وقد جاءت قاعدة هذا الواجب من قول المسيح الخال: " أعطوا إذا ما لقيصر لقيصر وما لله لله" (لو ٢٠: ٢٥). وقد جاء هذا القول كما هو معلوم نتيجة مؤامرة حيكت للمسيح، وتحالف فيها فريقان متضادان عليه هم الفريسيون أعداء كل ما يصل بروما، والرومانيون والهيرودسيون إتباع هيرودس والأتباع والأصدقاء التقليديون لقيصر، وقد قدم الجميع سؤالهم :"أيجوز أن نعطي جزية لقيصر أم لا؟ " وقد كان هذا السؤال ماكرا ودقيقا، إذ أن المسيح أجاب قائلا :" لا تعطوا" يثير عليه الهيرودسيين والوالي، وان قال : "أعطوا" يثير الفريسيين والشعب جميعا، وان امتنع عن الإجابة يعدونه غير جدير بالتعليم والقيادة! غير أن المسيح أجاب إجابته الخالدة فوضع عدة مبادئ عامة عظيمة:

١- الركن الأساسي والأول لكل نظام وقانون هو الله... كان سؤالهم خلوا من الله، لكن المسبح لم يخل الله من الجواب، وبذلك وجه نظرهم إلى ما هو اعلي واسمي وأقدس. وما أكثر الذين يحسنون أداء الواجب لقيصر، إذ يؤدون واجبهم لما تضعه الدولة عليهم من قوانين اجتماعية وأدبية ومادية دون أن يتطلعوا لما يتطلبه الله منهم.

٢- ليس هناك من تعارض بين الدين والحياة المدنية...إذ يمكننا ن نطيع قول قيصر دون أن نفقد الولاء لله. بل أننا إذ نطيع قيصريي إنما نطيع في الواقع الله الذي وضع قيصر حيث هو على عرشه. أليس هذا هو عين ما قاله الرسول بولس: "١لِتَخْضَعْ كُلُّ نَفْسٍ لِلسَّلاَطِينِ الْفَائِقَةِ لأَنَّهُ لَيْسَ سُلْطَانٌ إِلاَّ مِنَ اللهِ وَالسَّلاَطِينُ الْكَائِنَةُ هِيَ مُرَتَّبَةٌ مِنَ اللهِ" (رو١٣: ١) وعلى هذا الأساس يمكن تصور دائرتين احدهما داخل الأخرى، فالدائرة الأضيق دائما دائرة قيصر، والأوسع دائرة الله، ومهما تتسع الدائرة الأولى فلن تخرج عن نطاق الثانية!!..

٣- أما الحدود التي للطاعة فتبدو فقط عندما يتعارض ما لقيصر مع ما لله، عندئذ ينبغي أن يطاع الله أكثر من الناس، إذ يكون قيصر في هذا الوضع قد خرج عن الغاية التي يريدها الله منه، ويحق للمؤمن في هذه اللحظة أن يمتنع عن طاعته.. ولا يمكن أن ننسى هذا على سبيل المثال قولا يشعا فاه به ستيفن ديكانور والذي كان من اقدر ضباط البحرية الأمريكية، وقد قال قولا ما يزال عند الكثيرين من الأمريكيين شعارهم المفضل، بينما لا يأسف كثيرون قدر أسفهم لهذا القول، قال: "أرجو أن تكون بلادنا على علاقتها بالأمم الأخرى إلى جانب الحق أو الباطل على حد سواء " والشطر الأخير من القول، مهما يكن الباعث الوطني على قوله، من اشر الأقوال المنافية لإرادة الله والسمو والفضيلة والآداب والإنسانية المهذبة الراقية لهذا لا عجب أن صحح أمريكي أخر اسمه دكتور صموئيل لاند بونل الشعار بالقول: "بلدي عند الباطل يصحح إلى الحق وعند الحق يستمر فيه".

٤- الواجب نحو المجتمع

وإذا تحولنا من الوطن إلى المجتمع الذي قد توجد فيه، مهما يكن ضيقا أو واسعا، ومهما يكن وطنيا أو أجنبيا، فمن واجب المؤمن أن يعمل: "الخير للجميع، ولاسيما لأهل الإيمان" (غل٦: ١٠) ومن واجبه أن يتحرر من كل نعرة أو تعصب للون أو الجنس أو الثقافة أو الدم أو ما أشبه، على أساس من المساواة والعدالة والمحبة وتكافؤ الفرص، ومن واجبه أن يباشر جميع أعماله على نحو من الدقة والأمانة ومراعاة الضمير، لا كمن يرضي الناس بل كمن يرضي الله أولا وأخيرا وقبل كل شيء... كان احد التجار ممن يبيعون الأدوات المنزلية والصحية، وقد طلبته إحدى العائلات تليفونيا إذ هي في حاجة إلى جهاز ميكانيكي مما يستعمل في تنظيف المنازل وعندما ذهب إلى المنزل قال لأصحابه : "يؤسفني جدا أن الأجهزة التي عندي لا تناسب مع بيت كبير كبيتكم وانا أوصي أن تشتروا من غيري الجهاز الذي يناسبكم".. وإذ سمع رب البيت الجواب اندهش وقال له: "انك الشخص الوحيد الذي اسمع منه قولا كهذا، فكل الذين يأتون اليّ يعرضون بضائعهم كأنها أحسن ما في السوق" فأجابه الرجل: " إنني مسيحي ولا أريد أن افعل شيئا لا يوافق عليه سيدي". وكانت النتيجة أن العائلة أحبت هذا التاجر والفت التعامل معه بعد ذلك.. ترى كيف يكون المجتمع والوسط الذي نعيش فيه لو إننا سلكنا بروح هذا الرجل وأمانته!!.. ومن الناحية الأخرى علينا أن نعلم أن أي خدمة نقدمها للبائس والمسكين والفقير والمعوز والمحتاج إنما نقدمها لشخص المسيح ذاته ممثلا في أخويه الصاغر المذكورين.. وقد كتب تولستوي قصة جميلة في هذا الشأن عن اسكافي اسمه مارتن، كان يتوق رغم فقره وسذاجته أن يفعل شيئا عظيما من اجل المسيح، فكان يقرا الكتاب المقدس بشغف كل يوم، وهو يتمنى أن يصبح جنديا صالحا لخدمة المسيح، وكان يود لو أمكنه ترك عمله والذهاب لتبشير الآخرين ولكنه كيف له أن يحقق ذلك، وهو يكاد يحصل على قوته اليومي بشق الأنفس؟ وفي ليلة من الليالي حلم وكأنه يسمع صوتا يقول له مارتن: "انتظرني غدا فسآتي إليك " وفي الصباح ذهب إلى دكانه دون أن يهتم كثيرا بتفسير الحلم، وبينما هو ينظر إلى هنا وهناك أبصر جنديا مقرورا متعبا، فدعاه إلى الدكان، وقدم له فنجانا من الشاي، وبعد أن شرب الجندي الشاب قال له: ليباركك الرب يا مارتن وانصرف".. وبعد ذلك أبصر امرأة فقيرة تحمل طفلا على ذراعيها فأدخلها إلى الدكان لتصطلي النار. وقدم لها ثوبا قديما لتلبسه، ثم رأى ولدا صغيرا وقد سرق تفاحة من امرأة، غير أن المرأة أمسكت بالولد لتقوده لدار البوليس، وغذ به يتدخل بينهما ويدفع ثمن التفاحة ويقول لها: "إذا كان هذا الولد يجلد من اجل سرقة تفاحة، فماذا يفعل معنا من أجل خطايانا"؟ فعفت المرأة عن الولد متأثرة من كلام مارتن.. وفي ذلك اليوم عاد مارتن متأخرا على بيته، وبينما هو يقرأ الكتاب. واذا به يسمع صوتا يقول له: "يا مارتن ألا تعرفني؟" فتطلع حوله فلم ير أحدا، فعاد على مواصلة القراءة في الكتاب، واذا به يجد أمامه الكلمات: "لأني جعت فأطعمتموني عطشت فسقيتموني كنت غريبا فآويتموني. عريانا فكسيتموني مريضا فزرتموني محبوسا فأتيتم إلي. فيجيبه الأبرار حينئذ قائلين يا رب متى رأيناك جائعا فأطعمناك أو عطشانا فسقيناك. ومتى رأيناك غريبا فآويناك أو عريانا فكسوناك. ومتى رأيناك مريضا أو محبوسا فأتينا إليك. فيجيب الملك و يقول لهم الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد أخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم" عندئذ أدرك مارتن أن الصوت الذي سمعه كان صوت المسيح، وقد جاءه في التعس والمتعب والمحتاج والبائس من اخوته.. بل كم نرتفع بعد ذلك عن الضيق والشكوى والألم والندم والتوتر في أقسى الحالات، ونكون كمثل ذلك الرجل الذي ترك الثروة والغنى والجاه والنفوذ في مدينة لندن، وكرس حياته لخدمة اللقطاء في ملجأ يضمهم، وفي ضجعة الموت وقف إلى جواره أحدهم، وقد رآه يموت وحيداً أو شبه وحيد، فقال له: "ألم تندم على حياتك التي ضيعتها هكذا بين اللقطاء، وكان يمكن أن تأخذ الكثير من المجد والثروة والشهرة بين الناس لو أنك سلكت سبيلا آخر"..

ونظر إليه الآخر وهو يجود بأنفاسه الأخيرة وقال ولمعان سماوي يكسو وجهه: "كلا لم أندم! بل لم أضيع حياتي على الإطلاق.. لأن الذي علق على الصليب هو الذي أمسكني ودعاني إلى هذه الخدمة، وها أنا ذاهب الآن للقائه في المجد" ,, إن أي واجب نقوم به في خدمة المجتمع باسم المسيح يضحى واجبا دينيا محتوما!!

٥- الواجب نحو العائلة

ولا حاجة إلى الإشارة هنا بأن هذا الواجب قديم بقدم العائلة نفسها، فعندما دعا شيث باسم الرب كان يدعو ولا شك بهذا الاسم مع عائلته وأولاده وآله، وعندما كرز نوح أنقذ بالكرازة بيته من الطوفان بعد أن فرق الجميع، وعندما قدم أيوب ذبيحته كان يقدمها من أجل جميع أولاده واحدًا فواحدًا دون استثناء، وعندما طلب يشوع أن يختار الشعب بين الله والآلهة الأخرى صاح: "وأما أنا وبيتي فنعبد الرب" (يش٢٤: ١٥) وعندما نادى يسوع زكا بالخلاص قال: "الآن حصل خلاص لهذا البيت إذ هو أيضًا ابن لإبراهيم" (لو١٩: ٩) وعندما تحدث بولس وسيلا إلى سجان فيلبي قالا له: "آمن بالرب يسوع المسيح فتخلص أنت وأهل بيتك" (أع١٦: ٣١) ولعله من أجمل وأعظم ما يقال في الحياة أن يقال: "إذ أتذكر الإيمان العديم الرياء الذي فيك، الذي سكن أولا في جدتك لوئيس وأمك أفنيكي، ولكني موقن أنه فيك أيضًا" (٢تي١: ٥) وقد كتب لويل توماس أثناء الحرب العالمية الأولى عن حياته وتربيته المنزلية: "كان أبي يصاحبني مرات كثيرة في منتصف الليل ليريني الجبال الحمراء الغارقة في ضوء القمر، وكان يعود بهذا المنظر الجميل الفاتن إلى يد الله التي صنعت كل هذا، ولقد زرع في أعماق نفسي الشعور الروحي الذي صاحبني، وأنا أتجول في الأرض، في كل ما يتصل بالكون وكم كان يقضي أوقاتًا طويلة في فترات متعددة ليقرأ لي ما كان يؤمن أنه أعظم كتاب في العالم، وأعني به الكتاب المقدس، وكان يقرأ الكتاب، لا كما يقرأه أثناء الصلاة العائلية،بل كما يقرأه العالم المتفقة، وقد جعل القصص الكتابية تسري في روحي وشراييني وتضحي خلف جميع الاختبارات التي عرفتها في حياتي.. أم الكنيسة فكانت جزءًا حيويًا من حياتي، مثلها تمامًا مثل المدرسة في حياتي، ومثل الحكومة في واشنطن، ومثل الطعام اليومي، ومثل أسلوب المعيشة، وكما أنك لا تفكر أو تناقش هذه كلها أو تحللها تمامًا، كما لا تفكر في تحليل زوجتك إذ هي جزء من كل شيء، فكذلك الكنيسة عندي جزء من كل شيء، وأنا لم أفكر أبدًا في الكنيسة من ناحية تحليلها أو المناقشة في ضرورتها، إذ هي جزء طبيعي عادي من اختباري اليومي، وأنا شديد الحماس في تشجيع الناس في الذهاب إلى الكنيسة".

٦- الواجب نحو الكنيسة

ولا يعتبر الكلام معادًا مكررًا إذا قلنا أن المؤمن لا يمكن أن يدعي مؤمنًا إلا إذا أحس بواجبه الشخصي الكامل الثابت الأساسي نحو كنيسة الله، عمود الحق وقاعدته... ومن المؤسف أن يتصور عدد كبير من رواد الكنائس أن الخدمة ليست من واجبهم أو عملهم، بل هي واجب الرعاة أو الشيوخ أو الشمامسة أو المتقدمين فيها. وهذا غير صحيح إذ أن مقياس الكنيسة الصحيح، ومدى ما فيها من قوة وحيوية يرجع إلى عمل العضو العادي فيها.. وقد قيل أن رجلين التقيا ذات مرة في قطار، ومن الحديث اكتشفا أنهما راعيان، وكان أحدهما عجوزًا والآخر شابًا، وقد قال العجوز للشاب أن الأعمال التي يقوم بها كثيرة ولا يدري كيف يستطيع القيام بها، وقد شاخ في العمر، ويعتقد أنه لابد أن يفكر مجلس الكنيسة قريبًا في اختيار راع مساعد، لأن عضوية الكنيسة عنده أربعمائة عضو، وقال الآخر: "ولكن أنا سعيد لأن عندي أربعين راعيًا مساعدًا". فذهل الراعي العجوز وقال: "ولكن لابد أن كنيستكم كبيرة جدًا، لأني لم أسمع عن كنيسة تستطيع أن تدبر مرتبات هذا العدد الضخم.. كم

عدد الأعضاء عندكم؟" فأجاب الآخر: "أربعون" فقال له الراعي: "ألعلك تضحك، إذ كيف يكون ذلك؟" فأجاب الآخر: "إن جميع أعضائي يقوم كل عضو منهم بعمل رئيسي، وقد وزعتهم جميعًا على العمل الذي يتقونه، فمنهم من يرتب الأمور المالية، ومنهم من يكتب الخطابات والنشرات، وجميعهم يركعون ويصلون ليدعموا يدي". وسمع الراعي الكبير وقال بعد التأمل: "كم أتمنى لو أن عددًا قليلا من أعضائك يوزعون بين أعضائي".

٧- الواجب نحو النفس

وفي جميع هذه الواجبات السابقة ومعها هناك واجب مستمر ودائم نحو النفس، فأنا مسئول عن هذه النفس وعن نموها وتقدمها وعملها ورسالتها وصحتها، فإذا كنت أهتم بجسدي إلى حد ما وبعقلي أكثر من ذلك، فان واجبي الأعظم والاهم أم اهتم بنفسي أضعافا مضاعفة، ولهذا يقول الرسول بولس : "١٦لِذلِكَ أَنَا أَيْضاً أُدَرِّبُ نَفْسِي لِيَكُونَ لِي دَائِماً ضَمِيرٌ بِلاَ عَثْرَةٍ مِنْ نَحْوِ اللهِ وَالنَّاسِ." (أع٢٤: ١٦). كما يقول مارتن لوثر:إني أؤمن أن الله خلقني وخلق كل الموجودات، وانه أعطاني وما يزال يصون لي جسدي ونفسي بكل ما املك من أعضاء وحواس وعقل وروح، وجهز طعامي وبيتي وعائلتي، ومنحني الكل دون استحقاق لأرد له الجميع حمدا وشكرا وطاعة وخدمة"..

حقا ما عظم وامجد حياة المؤمن، حياة الإنسان الجديد، العائد مرة أخرى إلى أبيه السماوي، إلى الفردوس المردود السعيد المجيد!!..

الفصل الثامن عشر: إيماني بالكنيسة

وصف هنري هث كرين الكنيسة وصفا بارعا حين قال: "في بيت الحياة وجدت مذبحا عليه صليب وشموع متقدة، وإذ انحنيت في إجلال واحترام أغمض عيني، رأيت الكنيسة الحية.. لم تكن جدرانها من أحجار وطوب، بل من عزائم مكرسة يربطها التعاون والتبادل والولاء المشترك لإعلان الاسمي والأحسن.. ولم تكن نوافذها من الزجاج الملون بل من الألوان المتعددة من الأحلام والأماني والأشواق، التي يبدو منها جمال لانهائي يشع بالأضواء اللامعة التي تأتي منها ألف شمس.. ولم تكن أعمدتها العالية وأقواسها المقببة من الأحجار والصلب، بل من الأذرع الممتدة المرتفعة في الصلوات الضارعة التي لا حصر لها.. ولم تغط أبهاؤها بالسجاجيد والباسطة المخملية، بل بالتجارب المداسة تحت الإقدام، والأعمال الصالحة المحفوظة.. وأبوابها لا تغلق أبدا، إذ هي واسعة ومفتوحة للإنسانية كلها، القديسين والخطاة، الأغنياء والفقراء، والسود والسمر والصفر والبيض على حد سواء. ولم يكن المذبح من خشب منحوت، بل من القلوب التائبة الخجلة من خطاياها والقوية بإحساس الغفران.. ولم يكن المنبر منصة الحديث المذهب بل كان النور والنار، والذي يشع منه الحق والقوة، والكتاب المقدس ليس مجلد واحد موضوع في مكان منعزل على المقرأة، بل الحياة التي تدوس دون خجل وتشهد بجسارة وتختبر بعمق وتتعزى برقة وتتحدى باستمرار.. وليست الموسيقى اختلاط الأسواق مع الاورغن، بل في القيادة المكرسة والخدمات النامية المتنوعة التي تتسق وتجتمع في تعاون مجيد، والحرارة في الكنيسة الحية ليست التي هي تتوهج أو تضيء من موقد أو وقود، بل بطاعة ذاك الذي قال: "تحب الرب إلهك من كل قلبك. ومن كل نفسك. ومن كل فكرك.. وتحب قريبك كنفسك".. أو في لغة أخرى إن الرجل يقصد أن يقول: "إن الكنيسة لا يمكن أن تكون مجرد مبان عظيمة أو أبهاء واسعة أو مناظر عالية مرتفعة شامخة في الجو، مهما يكن جمالها وعظمتها. ولا يمكن أن يكون مجرد طقوس أو فرائض جامدة أو ميتة، مهما يكن حظها من حلاوة المظهر أو ضجيج التعبد، ما دامت لا تدفع الإنسان دفعا متصلا متزايدا متواليا نحو الله... ولا يمكن أن تكون مجرد أنظمة إدارية أو اجتماعية أو علمية أو طبقية، مهما تكن هذه الأنظمة دقيقة وجميلة ما لم تنظم حياة الإنسان وتستثمر وزناته وخدمته لمجد الله وخير الآخرين..

فما هي إذا هذه الكنيسة؟ وما وضعها الصحيح، وما رسالتها؟ وسلطانها، ووسائلها؟ وإمراضها؟ وعلاج هذه الأمراض؟ وما مجدها الحاضر والتليد؟ هذه هي الأسئلة التي لابد من الإجابة عليها قبل أن تعرف المدلول الدقيق للكنيسة ونؤمن به، كما شاء لها السيد أن تكون، وكما تحتم أن تسير في سيرها المكافح العتيد على هذه الأرض..

الكنيسة وأوصافها الخاطئة

١- الكنيسة ليست المبنى المادي.

ولعل من اللازم قبل أن نتعرض لحقيقة ومعنى ومدلول كلمة كنيسة. أن نصحح بعض التصورات التي قد ترسخ في أذهان البعض من معنى الكنيسة، فالكنيسة ليست المبنى المادي مهما تكن عظمة بناءه ومجده.. وقد عرف التاريخ هياكل رائعة من أجمل وأروع ما أبدع المعمار على الأرض وفي مقدمتها هيكل لسليمان العظيم الذي بني على الوصف الرائع وبالتكاليف الضخمة الخيالية المذكورة في الكتاب المقدس، وهيكل هيرودس الذي بني في ستة وأربعين سنة، وكنيسة القديسة صوفيا التي بناها الإمبراطور جوستيان ودشنها عام ٥٤٨م، وصاح عند التدشين: "لقد تفوقت عليك يا سليمان "!.. ولكن أين هذه جميعها ألان؟ ولم سمح الله بتخريب الهيكل الأول؟ ولماذا قال المسيح لتلاميذه عن الهيكل عندا تقدموا ليروا أبنيته: "أما تنظرون جميع هذه، الحق الحق أقول لكم انه لا يترك حجر على حجر لا ينقض" (مت٢٤: ٢) وأين كنيسة اجا صوفيا وقد تحولت بالفتح الإسلامي إلى جامع استانبول، وانتهى بها الأمر أخيرا لتكون متحفا قديما!!؟. لا، ليست الكنيسة أي مبان مهما تكن رسوم هذه المباني وروعتها وعظمتها، ومهما تكن أحجارها وألوانها، ولا لحرس الله هذه المباني القديمة وحفظها من الدمار والانهيار، ولما عفا الزمان عليها وضيعتها يد الحدثان.. ومنذ القديم والله يوبخ التطلع إلى الأحجار الجامدة أو التعلق بها أو التبرك الخرافي بلمسها أو الاعتقاد بأنها مادامت قائمة فلن يصيب الزمان الذين حولها أو من فيها أدنى شر أو مكروه.. أو لم يقل على لسان ارميا لشعب إسرائيل: "٤لاَ تَتَّكِلُوا عَلَى كَلاَمِ الْكَذِبِ قَائِلِينَ: هَيْكَلُ الرَّبِّ هَيْكَلُ الرَّبِّ هَيْكَلُ الرَّبِّ هُوَ.. ١١هَلْ صَارَ هَذَا الْبَيْتُ الَّذِي دُعِيَ بِاسْمِي عَلَيْهِ مَغَارَةَ لُصُوصٍ فِي أَعْيُنِكُمْ؟ هَئَنَذَا أَيْضاً قَدْ رَأَيْتُ يَقُولُ الرَّبُّ. ١٢لَكِنِ اذْهَبُوا إِلَى مَوْضِعِي الَّذِي فِي شِيلُوهَ الَّذِي أَسْكَنْتُ فِيهِ اسْمِي أَوَّلاً وَانْظُرُوا مَا صَنَعْتُ بِهِ مِنْ أَجْلِ شَرِّ شَعْبِي إِسْرَائِيلَ. ١٤أَصْنَعُ بِالْبَيْتِ الَّذِي دُعِيَ بِاسْمِي عَلَيْهِ الَّذِي أَنْتُمْ مُتَّكِلُونَ عَلَيْهِ وَبِالْمَوْضِعِ الَّذِي أَعْطَيْتُكُمْ وَآبَاءَكُمْ إِيَّاهُ كَمَا صَنَعْتُ بِشِيلُوهَ. ١٥وَأَطْرَحُكُمْ مِنْ أَمَامِي كَمَا طَرَحْتُ كُلَّ إِخْوَتِكُمْ كُلَّ نَسْلِ أَفْرَايِمَ."(ار٧: ٤، ١١، ١٢، ١٤، ١٥). كيف لا وقد كانت أقبح المناظر أمام عين الله الهياكل الوثنية المتعددة، كهيكل ارطاميس احد عجائب الدنيا السبع، والهياكل اليونانية والرومانية التي كانت آية في الجمال والفتنة والروعة، ومع ذلك دكها الله من الأساس وقضى عليها قضاء أبديا.. ذلك لأنه على الدوام لا يهتم بالمظهر دون الجوهر، وبالحجارة الجامدة الميتة، بل بالحجارة الحية الروحية..

٢- الكنيسة ليست مجرد طقوس وفرائض

والكنيسة ليست مجموعة من الطقوس والفرائض، كأن يشترط بنائها بكيفية معينة أو بنظام معين، أو تكون منابرها موضوعة على صورة معينة، أو أن تكون ذات صحن خارجي، أو مذبح داخلي أو هيكل، أو تردد صلوات على نهد معين أو ترتيب مرسوم، أو يشترط أن يرتدي رجال الدين فيها زيا أو مظهرا معينا، بهذا كله، بشهادة الكتاب قد انتهى بنهاية العهد القديم وتدمير هيكل أورشليم وانتهاء تقديم الذبائح وما صاحبها من طقوس وادعيات وفرائض أتممها المسيح في جسده المعلق على الصليب.. وإلا أ فليس الكتاب صريحا في ذكره إن أول وأعظم كنيسة في التاريخ نشأت في علية، ولم يكن فيها ما يميزها عن غيرها من البيوت أو العليات؟ كما إن الكنائس التي شاد الرسول بولس بذكرها كانت تجتمع في البيوت، إذ لم يكن لها مكان على الإطلاق أو مركز يميزها بلون معين أو مظهر خاص، كالكنيسة التي أنشأت في بيت اكيلا وبريسكلا : "سلموا لي على اكيلا وبريسكلا العاملين معي في المسح.. وعلى الكنيسة التي في بيتهما" (رو١٦: ٣، ٥) والكنيسة التي كانت في بيت

فيلمون: "إلى فيلمون المحبوب... والى الكنيسة التي في بيتك" (في١: ٢). وفي الكنيسة التي في ترواس كان التلاميذ يعقدون الاجتماع في علية في دور ثالث علوي: "٧وَفِي أَوَّلِ الأُسْبُوعِ إِذْ كَانَ التَّلاَمِيذُ مُجْتَمِعِينَ لِيَكْسِرُوا خُبْزاً خَاطَبَهُمْ بُولُسُ وَهُوَ مُزْمِعٌ أَنْ يَمْضِيَ فِي الْغَدِ وَأَطَالَ الْكَلاَمَ إِلَى نِصْفِ اللَّيْلِ. ٨وَكَانَتْ مَصَابِيحُ كَثِيرَةٌ فِي الْعِلِّيَّةِ الَّتِي كَانُوا مُجْتَمِعِينَ فِيهَا. ٩وَكَانَ شَابٌّ اسْمُهُ أَفْتِيخُوسُ جَالِساً فِي الطَّاقَةِ مُتَثَقِّلاً بِنَوْمٍ عَمِيقٍ. وَإِذْ كَانَ بُولُسُ يُخَاطِبُ خِطَاباً طَوِيلاً غَلَبَ عَلَيْهِ النَّوْمُ فَسَقَطَ مِنَ الطَّبَقَةِ الثَّالِثَةِ إِلَى أَسْفَلُ وَحُمِلَ مَيِّتاً."(اع٢٠: ٧-٩) كما إن طرق العبادة في هذه الكنائس لم تتأسس إطلاقا على مجرد طقوس أو فرائض متنوعة أو متعددة، إذا كانت العبادة في كنيسة أورشليم قائمة على : " تعليم الرسل والشركة وكسر الخبز والصلوات" (اع٢: ٤٢) وفي كنيسة كورنثوس: " ٢٦فَمَا هُوَ إِذاً أَيُّهَا الإِخْوَةُ؟ مَتَى اجْتَمَعْتُمْ فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ لَهُ مَزْمُورٌ لَهُ تَعْلِيمٌ لَهُ لِسَانٌ لَهُ إِعْلاَنٌ لَهُ تَرْجَمَةٌ: فَلْيَكُنْ كُلُّ شَيْءٍ لِلْبُنْيَانِ." (١كو١٤: ٢٦) مما يبين إن الغالب في العبادة في الكنيسة المسيحية الأولى كانت الصلاة ودراسة الكتاب والوعظ والترنيم وتناول المادة الربانية، دون أن يكون هناك فرائض أو طقوس شكلية أو جامدة يلزم مراعاتها أو اعتبار صحة العبادة مرتبطة بها، فإذا أضيف إلى ذلك إن سيدنا يسوع المسيح ومعلمنا الأعظم لم يكن له في لبسه أو زيه ما يميزه عن غيره من الناس، كما إن التلاميذ والرسل لم يعرف عنهم أنهم ابتدعوا أو ابتكروا زيا معينا يفرق بينهم وبين الآخرين.. ولا يمكن أن يقال على الإطلاق انه من واجبنا كمسيحيين أن نحتفظ لأنفسنا في الكنائس بنظام الكهنوت اللاوي، من مذبح أو مأكل أو ملبس، لسبب كتابي، وسبب منطقي!!..

أما السبب الكتابي فواضح تمام الوضوح في الرسالة إلى العبرانيين، مما يغني النص فيه عن كل اجتهاد، إذ يقول الوحي : "١١فَلَوْ كَانَ بِالْكَهَنُوتِ اللاَّوِيِّ كَمَالٌ - إِذِ الشَّعْبُ أَخَذَ النَّامُوسَ عَلَيْهِ - مَاذَا كَانَتِ الْحَاجَةُ بَعْدُ إِلَى أَنْ يَقُومَ كَاهِنٌ آخَرُ عَلَى رُتْبَةِ مَلْكِي صَادِقَ، وَلاَ يُقَالُ «عَلَى رُتْبَةِ هَارُونَ»؟ ١٢لأَنَّهُ إِنْ تَغَيَّرَ الْكَهَنُوتُ فَبِالضَّرُورَةِ يَصِيرُ تَغَيُّرٌ لِلنَّامُوسِ أَيْضاً. ١٣لأَنَّ الَّذِي يُقَالُ عَنْهُ هَذَا كَانَ شَرِيكاً فِي سِبْطٍ آخَرَ لَمْ يُلاَزِمْ أَحَدٌ مِنْهُ الْمَذْبَحَ.. ١٨فَإِنَّهُ يَصِيرُ إِبْطَالُ الْوَصِيَّةِ السَّابِقَةِ مِنْ أَجْلِ ضُعْفِهَا وَعَدَمِ نَفْعِهَا."(عب٧: ١١-١٣، ١٨). ومثل هذا قول الرسول إلى الكولوسيين:" ١٤إِذْ مَحَا الصَّكَّ الَّذِي عَلَيْنَا فِي الْفَرَائِضِ، الَّذِي كَانَ ضِدّاً لَنَا، وَقَدْ رَفَعَهُ مِنَ الْوَسَطِ مُسَمِّراً إِيَّاهُ بِالصَّلِيبِ.. ١٦فَلاَ يَحْكُمْ عَلَيْكُمْ احَدٌ فِي أَكْلٍ أَوْ شُرْبٍ، أَوْ مِنْ جِهَةِ عِيدٍ أَوْ هِلاَلٍ أَوْ سَبْتٍ.. ١٧الَّتِي هِيَ ظِلُّ الأُمُورِ الْعَتِيدَةِ، وَأَمَّا الْجَسَدُ فَلِلْمَسِيحِ.. إِذا إِنْ كُنْتُمْ قَدْ مُتُّمْ مَعَ الْمَسِيحِ عَنْ أَرْكَانِ الْعَالَمِ، فَلِمَاذَا كَأَنَّكُمْ عَائِشُونَ فِي الْعَالَمِ، تُفْرَضُ عَلَيْكُمْ فَرَائِضُ: ٢١لاَ تَمَسَّ، وَلاَ تَذُقْ، وَلاَ تَجُسَّ؟ ٢٢الَّتِي هِيَ جَمِيعُهَا لِلْفَنَاءِ فِي الاِسْتِعْمَالِ، حَسَبَ وَصَايَا وَتَعَالِيمِ النَّاسِ، ٢٣الَّتِي لَهَا حِكَايَةُ حِكْمَةٍ، بِعِبَادَةٍ نَافِلَةٍ، وَتَوَاضُعٍ، وَقَهْرِ الْجَسَدِ، لَيْسَ بِقِيمَةٍ مَا مِنْ جِهَةِ إِشْبَاعِ الْبَشَرِيَّةِ. (كو٢: ١٤، ١٦، ١٧، ٢٠-٢٣).

أما السبب المنطقي فيقوم على أساس انه إذا كان منن الواجب الديني أن نحتفظ بنظام الكهنوت اللاوي، فلابد أن نحتفظ به كاملا، أو نتركه كاملا، إذ لا خير لنا في أن نأخذ منه البعض ونترك البعض الأخر. ولا يستطيع واحدد ممن يدافعون عن هذا النظام وضرورته في الكنيسة أن يقول أن إي كنيسة في الشرق أو الغرب تسير على هذا النظام اللاوي القديم، وإلا فأين من يلبس كما كان هرون أو أولاده، من زي مقدسة كالرداء والصدرة وجبة الرداء والاقمصة والعمامة والعصائب والسراويل والمنطقة، مما كان يتحتم صنعها من أنواع خاصة معينة من القماش وبكيفية محددة في طريقة صنعها.. كما أن الكنائس كان يتحتم أن تبنى على نظام الهيكل القديم بما فيه من دار خارجية وقدس أقداس وما يلحق بهم جميعا من مرحضة ومذبح نحاس ومنارة ومائدة ومذبح بخور وتابوت الشهادة. ولا يمكن أن يجزأ هذا النظام مادام هو النظام الإلهي المحتوم الذي لا تقوم العبادة بدونه.. فإذا كانت الأنظمة التقليدية الحالية تهجر الأوضاع اللاوي القديمة، فعلى إي أساس تربط بينها وبين هذا النظام؟

ولماذا تزعم أنها تنسب إليه، وهي تهجره بكل وضوح في اغلب إشكالها وممارستها؟.. فإذا أضيف إلى ذلك كله أن الكنيسة بجملتها وبكل من فيها وما فيها هي البيت الروحي والكهنوت المقدس الملوكي والذي لا يقدم إلا الذبائح الروحية، لا المادية كما يقول الرسول بطرس: "كُونُوا أَنْتُمْ أَيْضاً مَبْنِيِّينَ كَحِجَارَةٍ حَيَّةٍ، بَيْتاً رُوحِيّاً، كَهَنُوتاً مُقَدَّساً، لِتَقْدِيمِ ذَبَائِحَ رُوحِيَّةٍ مَقْبُولَةٍ عِنْدَ اللهِ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ.. وَأَمَّا أَنْتُمْ فَجِنْسٌ مُخْتَارٌ، وَكَهَنُوتٌ مُلُوكِيٌّ، أُمَّةٌ مُقَدَّسَةٌ، شَعْبُ اقْتِنَاءٍ، لِكَيْ تُخْبِرُوا بِفَضَائِلِ الَّذِي دَعَاكُمْ مِنَ الظُّلْمَةِ إِلَى نُورِهِ الْعَجِيبِ. ١٠ الَّذِينَ قَبْلاً لَمْ تَكُونُوا شَعْباً، وَأَمَّا الآنَ فَأَنْتُمْ شَعْبُ اللهِ. الَّذِينَ كُنْتُمْ غَيْرَ مَرْحُومِينَ، وَأَمَّا الآنَ فَمَرْحُومُونَ."(١بط٢: ٥، ٩، ١٠) " أو كما يذكر يوحنا الرائي: " ٥وَمِنْ يَسُوعَ الْمَسِيحِ الشَّاهِدِ الأَمِينِ، الْبِكْرِ مِنَ الأَمْوَاتِ، وَرَئِيسِ مُلُوكِ الأَرْضِ. الَّذِي أَحَبَّنَا، وَقَدْ غَسَّلَنَا مِنْ خَطَايَانَا بِدَمِهِ، ٦وَجَعَلَنَا مُلُوكاً وَكَهَنَةً لِلَّهِ أَبِيهِ، لَهُ الْمَجْدُ وَالسُّلْطَانُ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ. آمِينَ."(رؤ١: ٥، ٦). وواضح أن هذا لا يشير لا إلى طبقة معينة هي الرعاة أو خدام الدين، بل إلى جميع المؤمنين باعتبارهم امة وجنسا وشعبا وملوكا وكهنة، لهم حظوتهم ومجدهم وخدمتهم، مما لم يكن معروفا في النظام اللاوي الذي كان قاصرا على سبط واحد من أسباط، ولا يجرؤ احد من خارجه أن يوجد فيه ينتسب إليه.. من كل ما ذكر يتبين أن الكنيسة في العهد الجديد ليست مجرد طابع معين تقليدي يقوم على دعامة من الطقوس أو الفرائض أو المراسيم الشكلية.

٣- الكنيسة ليست مجرد تاريخ قديم

والكنيسة ليست مجرد تاريخ قديم يعود بكل مجده أو ثروته أو تراثه إلى الماضي القريب أو البعيد. فآلاف الكنائس القديمة التي حملت يوما ما مشعل الحرية والحق والمجد. لم يشفع لها هذا التاريخ عندما انحرفت عن تاريخها الأول وقصتها القديمة. فاندثرت معالمها وعبثت بها أيد رهيبة قاسية غير رحيمة.. والمسيح نفسه يحذر مهددا ملاك كنيسة افسس بالقول : "٥فَاذْكُرْ مِنْ أَيْنَ سَقَطْتَ وَتُبْ، وَاعْمَلِ الأَعْمَالَ الأُولَى، وَإِلَّا فَإِنِّي آتِيكَ عَنْ قَرِيبٍ وَأُزَحْزِحُ مَنَارَتَكَ مِنْ مَكَانِهَا، إِنْ لَمْ تَتُبْ. (رؤ٢: ٥). كما يقول لملاك كنيسة اللاودكيين : "هَكَذَا لأَنَّكَ فَاتِرٌ، وَلَسْتَ بَارِداً وَلاَ حَارّاً، أَنَا مُزْمِعٌ أَنْ أَتَقَيَّأَكَ مِنْ فَمِي."(رؤ ٣: ١٦).. ومن العبث الإشارة إلى التفاضل أو المباهاة بان هذه الكنيسة أو تلك ترجع إلى خلافة رسول أو تلميذ معين، وذلك لأنه لو صح مثل هذا الأمر لخرجت أول كنيسة أمميةفي التاريخ عن أن تكون كنيسة مسيحية، إذ أن كنيسة أنطاكيا لم ينشاها رسول أو تلميذ بل أسسها جماعة من القبرسسين والقيراونيين من العلمانيين الذين هاجروا من أورشليم من جراء الضيق، كما جاء في القول: "أَمَّا الَّذِينَ تَشَتَّتُوا مِنْ جَرَّاءِ الضِّيقِ الَّذِي حَصَلَ بِسَبَبِ إِسْتِفَانُوسَ فَاجْتَازُوا إِلَى فِينِيقِيَةَ وَقُبْرُسَ وَأَنْطَاكِيَةَ وَهُمْ لاَ يُكَلِّمُونَ أَحَداً بِالْكَلِمَةِ إِلاَّ الْيَهُودَ فَقَطْ. ٢٠وَلَكِنْ كَانَ مِنْهُمْ قَوْمٌ وَهُمْ رِجَالٌ قُبْرُسِيُّونَ وَقَيْرَوَانِيُّونَ الَّذِينَ لَمَّا دَخَلُوا أَنْطَاكِيَةَ كَانُوا يُخَاطِبُونَ الْيُونَانِيِّينَ مُبَشِّرِينَ بِالرَّبِّ يَسُوعَ. ٢١وَكَانَتْ يَدُ الرَّبِّ مَعَهُمْ فَآمنا عَدَدٌ كثيرا وَرَجَعُوا إِلَى الرَّبِّ." (اع١١: ١٩ - ٢١).. ودعي التلاميذ مسيحيين في أنطاكيا أولا.. فكيف يتم هذا دون أن يؤسسها رسول؟.. وهل يعقل منطقا أن الله الذي يقول : "وإذا رجع البار عن بره وعمل إثما وفعل كل الرجاسات التي يفعلها الشرير افيحيا؟ كل بره الذي عمله لا يذكر في حياته التي خانها، وفي خطيته التي أخطا بها يموت" (حز١٦: ٢٤). هل يعقل أن هذا الإله يذكر كنيسة ما انحدرت وهوت، ولفها الانحراف والشر، لمجرد أنها كانت في الماضي المتباعد كنيسة مجيدة عظيمة؟..

أن الكنيسة بالتأكيد لا يمكن أن تكون كنيسة بالمعنى الدقيق للكلمة، والوصف الصحيح لمجرد أنها مرتفعة البنيان رائعة المنظر، أو لأنها الكنيسة التي تقوم على أفخم الطقوس وأبهى الفرائض، أو التي تعتمد في عزتها وعظمته ومجدها على

تاريخ قضي وماض لا يعود.. إذ أن هذه كلها متفردة أم مجتمعة معا لا يمكن أن تعين أو تكشف عن حقيقة كنيسة الرب يسوع المسيح.

الكنيسة وحقيقتها

والسؤال إذا: ما هو المعنى الحقيقي للكنيسة كما كشف عنها المسيح، والروح القدس والرسل الأطهار؟

١ـ الوحدة غير المنظورة

ولعل أول وأدق تعريف للكنيسة هو أنها الوحدة الروحية غير المنظورة التي تجمع جميع المؤمنين في كل زمن وجيل في العهدين القديم والجديد على حد سواء، وهي بهذا المعنى تدعى جسد المسيح : "وأما انتم فجسد المسيح وأعضاؤه أفرادا" (١كو ١٢: ٢٧) " كما أن المسيح أيضا رأس الكنيسة" (اف٥: ٢٣) وتدعى بيت الله وعامود الحق وقاعدته كما قيل : "وَلَكِنْ إِنْ كُنْتُ أُبْطِئُ فَلِكَيْ تَعْلَمَ كَيْفَ يَجِبُ أَنْ تَتَصَرَّفَ فِي بَيْتِ اللهِ، الَّذِي هُوَ كَنِيسَةُ اللهِ الْحَيِّ، عَمُودُ الْحَقِّ وَقَاعِدَتُهُ."(١تي ٣: ١٥). وتدعى "هيكل الله " و "عروس المسيح" وغيرها من الألقاب الرمزية التي تكشف وتتحدث عن تلك الوحدة السرية الطاهرة الكريمة والمقدسة المباركة التي أشار إليها المسيح في صلاته الشفاعية بالقول: " (يو١٧: ٢١، ٢٣).. وذكرها الرسول يوحنا في القول: "ليجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد" (يو١١: ٥٢). والكنيسة بهذا المعنى ليست قاصرة كما اشرنا على مؤمني العهد الجديد فحسب، بل إلى جميع المؤمنين من بدء الخليقة حتى أخر الدهر، ولهذا أطلق على شعب الله في البرية أيام موسى "الكنيسة" في القول : "٣٨هَذَا هُوَ الَّذِي كَانَ فِي الْكَنِيسَةِ فِي الْبَرِّيَّةِ مَعَ الْمَلاَكِ الَّذِي كَانَ يُكَلِّمُهُ فِي جَبَلِ سِينَاءَ وَمَعَ آبَائِنَا. الَّذِي قَبِلَ أَقْوَالاً حَيَّةً لِيُعْطِيَنَا إِيَّاهَا." (اع٧: ٣٨). وهي بهذا المعنى أيضا الكنيسة المرتفعة فوق العصور والأجيال والأجناس واللغات والطبقات وسائر الفوارق التي قد تفرق أبناء الله في حياتهم على هذه الأرض، وهي الكنيسة المعروفة العدد عند الله وحده، ولا يمكن أن تنتهي الأرض وما عليها قبل تمام هذا العدد وكماله، كما شاء الله أن يكون في الأبدية.. ولهذا السبب عينه الكنيسة التي يستحيل على البشر إحصاء عددها، فضلا عن عجزهم المطلق التام عن حصر جموعها، العجز الذي بدا في قول الرائي عندما أبصر هذه الجموع على الشاطئ الأبدي فصاح: " بعد هذا نظرت وإذا جمع كثير لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَعُدَّهُ، مِنْ كُلِّ الأُمَمِ وَالْقَبَائِلِ وَالشُّعُوبِ وَالأَلْسِنَةِ، وَاقِفُونَ أَمَامَ الْعَرْشِ وَأَمَامَ الْحَمَلِ، مُتَسَرْبِلِينَ بِثِيَابٍ بِيضٍ وَفِي أَيْدِيهِمْ سَعَفُ النَّخْلِ."(رؤ٧: ٩).. والى جانب ذلك يستحيل أن يترك الله أمر الحكم فيها على المؤمن وغير المؤمن لفهم الناس وحكمتهم وأمزجتهم وعواطفهم، وكم سيبين في اليوم الأخير أن هناك أناس ظنهم البشر أول الذاهبين إلى السماء، ولكنهم في قرارة الجحيم استقروا معذبين.. وأناس آخرين حكم عليهم بالموت والعذاب في الأرض بالزعم أنهم غير مؤمنين، وهم من أول وأعظم وامجد القديسين في السماء..

اجل فكم ظن الناس الحنطة زوانا، والزوان حنطة.. ولعل هذا ما عناه كاتب القصة الخيالية الطريفة التي قال فيها : أن الرسول بطرس لاحظ وهو يجول في السماء أن هناك أشخاصا يسيرون فيها، ولم يرهم يدخلون من الباب حيث وضعه المسيح ليستقبل الداخلين، واندهش بطرس إذ لاحظ يوما بعد يوم تزايد الداخلين دون علمه، وازدان دهشته إذ رأى فيهم شخصيات ما كان يظن إطلاقا أنهم يستقبلون في السماء. وأراد بطرس أن يكتشف كيفية دخولهم، وفي ليلة من الليالي ترك عمله واخذ يسير متفقدا الأسوار وإذ به يبصر في احدهما ثغرة، واحد الأشخاص يرفع البعض ويدخلهم منها، فاقترب بطرس من هذا الشخص ولشدة دهشته رآه السيد المسيح! وإذ وقف بطرس متعجبا قال له السيد : "أنا اعلم أن هؤلاء قد لا يروقك

دخولهم إذ تظن أنهم أشرارا، ولكني أنا قبلتهم وفديتهم وقبلوا هم بالإيمان خلاصي ومن ثم فهم يدخلون مجدي ". ومعنى القصة الخيالية مما لا يخفى على احد، إذ مرات كثيرة ما نحتقر أشخاصا قبلهم المسيح وضمهم إلى حضنه الأبدي.. وهذا يفسر قول ذلك القديس الذي صاح : "عندما اذهب إلى السماء سأكتشف ثلاثة أمور عجيبة، إذ أرى أشخاصا لم أكن أظن انم هناك، وسأبحث عن أشخاص كنت أؤكد أنهم بلغوا السماء دون أن أجدهم، والأعجوبة الأخيرة هي كيف تنازلت وتدانت رحمة الله العجيبة فقبلتني أنا في السماء".

٢- الوحدة المنظورة

والمعنى الثاني لحقيقة الكنيسة هو الوحدة المنظورة التي تضم جميع المعترفين بالإيمان المسيحي، على انه من الثابت كما اشرنا أنفا انه ليس كل من يدعى عليه اسم المسيح، أو كل من يطلق عليه لقب "مسيحي"، أو كل من يدون اسمه في سجلات الكنيسة يمكن لمجرد هذه الأسباب أن يدعى مؤمنا، ما لم يولد الولادة الجديدة من فوق ويحيا الحياة المسيحية اللائقة التي تشهد بصحة هذا الإيمان.. ولهذا فان الكنيسة المنظورة كثيرا ما تجمع إعداد لا تحصى من الناس ممن لم ينالوا نعمة الخلاص، ويحق عليهم قول المسيح: "لَيْسَ كُلُّ مَنْ يَقُولُ لِي: يَا رَبُّ يَا رَبُّ يَدْخُلُ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ. بَلِ الَّذِي يَفْعَلُ إِرَادَةَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ. ٢٢كَثِيرُونَ سَيَقُولُونَ لِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ: يَا رَبُّ يَا رَبُّ أَلَيْسَ بِاسْمِكَ تَنَبَّأْنَا وَبِاسْمِكَ أَخْرَجْنَا شَيَاطِينَ وَبِاسْمِكَ صَنَعْنَا قُوَّاتٍ كَثِيرَةً؟ ٢٣فَحِينَئِذٍ أُصَرِّحُ لَهُمْ: أني لَمْ أَعْرِفْكُمْ قَطُّ! اذْهَبُوا عَنِّي يَا فَاعِلِي الإِثْمِ!".(مت١٧: ٢١- ٢٣)اجل ولما كان من الواضح أن الكنيسة المنظورة لا يجوز أن تضم إلى سجل عضويتها لا المؤمنين المخلصين استناد إلى القول: "وكان الرب كل يوم يضم إلى الكنيسة الذين يخلصون" (اع ٢: ٤٧) وكان التدقيق في قبول الأعضاء في الكنيسة أمرا هاما وأساسيا، حتى لا يفسد الدخيل واللفيف غيرهما من المؤمنين : "لأَنَّهُ أَيَّةُ خِلْطَةٍ لِلْبِرِّ وَالإِثْمِ؟ وَأَيَّةُ شَرِكَةٍ لِلنُّورِ مَعَ الظُّلْمَةِ؟ ١٥وَأَيُّ اتِّفَاقٍ لِلْمَسِيحِ مَعَ بَلِيعَالَ؟ وَأَيُّ نَصِيبٍ لِلْمُؤْمِنِ مَعَ غَيْرِ الْمُؤْمِنِ؟"(٢كو٦: ١٤-١٥) "أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ خَمِيرَةً صَغِيرَةً تُخَمِّرُ الْعَجِينَ كُلَّهُ؟ ٧إِذاً نَقُّوا مِنْكُمُ الْخَمِيرَةَ الْعَتِيقَةَ لِكَيْ تَكُونُوا عَجِيناً جَدِيداً كَمَا أَنْتُمْ فَطِيرٌ." (١كو٥: ٦-٧).. وكان على الكنيسة في حدود الإدراك البشري أن تمنع من الانضمام إليها من لم يختبروا الحياة الجديدة أو يعيشوا مع الله ولمجد الله في الأرض..

٣- اجتماع المؤمنين المحلي

والمعنى الثالث للكنيسة يقوم على أساس المحلية، إذ يمكن أن تطلق كلمة كنيسة على أساس اجتماع المؤمنين في مكان معين أو مدينة معينة أو مجموعة متقاربة من المدن، والكنيسة تحدد هنا وتعرف مستندة إلى هذا المكان المعين. كالكنيسة التي في بيت فليمون والكنيسة التي في بيت اكيلا وبريسكلا أو كنيسة فيلبي ورومية، أو ككنائس غلاطية واسيا. وقد دعيت الكنيسة بهذا المعنى "كنيسة" تيسيرا لجمع المؤمنين في بقعة معا، وفي وحدة الشركة والإيمان، وتغذية لنشاط الإيمان وفاعليته أينما يذهب أو يتجه في إي ركن من أركان الأرض.. ومن الواضح أن هذه الكنيسة المحلية إنما تهدف إلى جمع المؤمنين بدون إي فارق أو تمييز، ومن غير الجائز أن تقوم في كيانها أو بنيانها على أساس معين من جنس أو لون أو ثقافة أو ثروة أو عصبية أو ما أشبه من الفوارق الأرضية أو البشرية.. ومن ثم فجميع الفوارق التي اصطنعت لتجعل كنائس للفقراء وأخرى للأغنياء، أو كنائس للبيض وغيرها للسود، أو كنائس لجنس معين دون جنس، لا يمكن أن تكون كنائس مسيحية تستلهم روح المسيح وتعاليمه وإرادته..

عندما دعي دكتور هنري سلوين كوفين ليرعى كنيسة من اكبر الكنائس في إحدى المدن، لاحظ أن قاعة صغيرة بنيت في الطرف الشرقي للمدينة للأعضاء الفقراء، فثار الرجل وقال لكنيسته : انه لا يستطيع أن يعظ بالحق المسيحي بوضوح، بل لا يستطيعان يبقى في هذه المدينة، إذا كان الفقراء مفصولين عن الأغنياء، والغي الراعي القاعة وجمع الفقراء والأغنياء معا في مكان واحد..

طلب من احد الرسامين أن يرسم صورة على زجاج إحدى الكنائس تمثل عرش الله، فرسم صورة المسيح وحوله مجموعة من الأطفال الصغار، وعندما أوى إلى مضجعه حلم بأن احدهم قد جاء واخذ يعمل بفرشاته في وجوه الصغار، فامتلأ غضبا وغيظا وذهب إليه ليرى من هو، لشدة دهشته رآه شخص المسيح.. لقد رسم الفنان جميع الوجوه بيضاء، ولكن المسيح رسم بعض الوجوه سمراء، وغيرها صفراء وسوداء وحمراء إلى جانب الوجوه البيضاء، إذ أن المسيح يجمع حوله وفي كنيسته جميع الأجناس والألوان والطبقات..

الكنيسة ونظامها

والكنيسة المسيحية من نشأتها الأولى كنيسة منظمة، إذ لا يمكن أن تقوم في هيئتها المنظورة أو المحلية من غير ترتيب أو نظام.. ولقد وضع الكتاب لنا هذا النظام مما لا يدعنا نحتاج إلى الابتداع أو الاستحسان، وواضح أن المسيح يقوم من هذا النظام إلى الأبد مقام "السيد" أو "الرأس" " كما أن المسيح أيضا رأس الكنيسة" (اف ٥: ٢٣) ولا يجوز أن يعطي احد هذا المكان على الإطلاق سواه، مهما يكن مركزه وشانه في هذه الكنيسة، وجميع المؤمنين هم أعضاء في الكنيسة مهما تختلف مناصبهم ومراكزهم: "١٢لأَنَّهُ كَمَا أَنَّ الْجَسَدَ هُوَ وَاحِدٌ وَلَهُ أَعْضَاءٌ كَثِيرَةٌ وَكُلُّ أَعْضَاءِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا كَانَتْ كَثِيرَةً هِيَ جَسَدٌ وَاحِدٌ كَذَلِكَ الْمَسِيحُ أَيْضاً. ١٣لأَنَّنَا جَمِيعَنَا بِرُوحٍ وَاحِدٍ أَيْضاً اعْتَمَدْنَا إِلَى جَسَدٍ وَاحِدٍ يَهُوداً كُنَّا أَمْ يُونَانِيِّينَ عَبِيداً أَمْ أَحْرَاراً. وَجَمِيعُنَا سُقِينَا رُوحاً وَاحِداً. ١٤فَإِنَّ الْجَسَدَ أَيْضاً لَيْسَ عُضْواً وَاحِداً بَلْ أَعْضَاءٌ كثيرون."(١كو ١٢: ١٢-١٤).. ولهذا كان لابد من إبراز معنى العضوية وتثبيتها وتأكيدها في كل نظام كنسي، بل لابد من توزيع العمل على كل عضو بكيفية لا يستثنى منها احد قط مهما صغر أو ضؤل شانه.. وهكذا تبرز أهمية العضو في الكنيسة وأهمية الدور الذي يؤديه ويقوم به.. وحيث أن أعضاء الجسد تختلف بعضها عن بعض فيظهر منها البعض ويختفي الأخر، ويؤدي هذا من أوجه النشاط، ما يختلف ويتكامل في الوقت نفسه مع غيره من الأعضاء، هكذا اقتضى النظام في الكنيسة أن يبرز البعض ويأخذ مكان القيادة والتوجيه، بينما يعمل آخرون بمجهودات اقل ظهورا وابسط شانا : "٢٨فَوَضَعَ اللهُ أُنَاساً فِي الْكَنِيسَةِ: أَوَّلاً رُسُلاً ثَانِياً أَنْبِيَاءَ ثَالِثاً مُعَلِّمِينَ ثُمَّ قُوَّاتٍ وَبَعْدَ ذَلِكَ مَوَاهِبَ شِفَاءٍ أَعْوَاناً تَدَابِيرَ وَأَنْوَاعَ أَلْسِنَةٍ.(١كو١٢: ٢٨).. وواضح أن بعض هذه المناصب قد انتهى بنهاية العصر الرسولي، كالرسل مثلا، وتبلور النظام في الكنيسة في أمرين أساسيين هما: نظام الرعاية الروحي، ونظام الخدمة المادية.

١ـ نظام الرعاية الروحي

وهذا النظام هو أهم واخطر وأدق نظام في ميدان الخدمة والنشاط الكنسي، ويقوم على اختيار قادة ورعاة في الكنيسة يفرزهم الله للخدمة الروحية الكنسية، والكتاب يدعو هؤلاء الرعاة بألقاب مختلفة، فمنهم "أساقفة" أو "قسوس" أو "شيوخ" أو "نظار".. وهذه الألقاب كما يظهر في لغة الكتاب لا تشير إلى رتب مختلفة أو متدرجة بل تشير إلى أشخاص لهم رتبة واحدة هي رتبة الرعاية الروحية، وهذا واضح كل الوضوح من أقوال الوحي، إذ أن الكتاب يذكر أن بولس: "١٧وَمِنْ مِيلِيتُسَ أَرْسَلَ

إلى أَفَسُسَ وَاسْتَدْعَى قُسُوسَ الْكَنِيسَةِ. ١٨فَلَمَّا جَاءُوا إِلَيْهِ قَالَ لَهُمْ.. ٢٨اِحْتَرِزُوا إذا لأَنْفُسِكُمْ وَلِجَمِيعِ الرَّعِيَّةِ الَّتِي أَقَامَكُمُ الرُّوحُ الْقُدُسُ فِيهَا أَسَاقِفَةً"(اع٢٠: ١٧،١٨، ٢٨) مما يفيد أن القوس هم بذاتهم الأساقفة، كما أن الرسول بطرس كتب في رسالته الأولى يقول : "أَطْلُبُ إِلَى الشُّيُوخِ الَّذِينَ بَيْنَكُمْ، أَنَا الشَّيْخَ رَفِيقَهُمْ، وَالشَّاهِدَ لآلاَمِ الْمَسِيحِ، وَشَرِيكَ الْمَجْدِ الْعَتِيدِ أَنْ يُعْلَنَ، ٢ ارْعَوْا رَعِيَّةَ اللهِ الَّتِي بَيْنَكُمْ نُظَّاراً،"(١بط٥: ١- ٢) مما يفيد أن الشيخ هو ذات الناظر.. فالأسقف والقسيس والشيخ والناظر ألقاب متعددة لشخص واحد، ويتأكد هذا من أن الرسول بولس عندما تحدث عن هذا النظام لتيطس قال: "٥مِنْ أَجْلِ هَذَا تَرَكْتُكَ فِي كِرِيتَ لِكَيْ تُكَمِّلَ تَرْتِيبَ الأُمُورِ النَّاقِصَةِ، وَتُقِيمَ فِي كُلِّ مَدِينَةٍ شُيُوخاً كَمَا أَوْصَيْتُكَ. ٦إِنْ كَانَ أَحَدٌ بِلاَ لَوْمٍ، بَعْلَ امْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، لَهُ أَوْلاَدٌ مُؤْمِنُونَ لَيْسُوا فِي شِكَايَةِ الْخَلاَعَةِ وَلاَ مُتَمَرِّدِينَ - ٧لأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الأُسْقُفُ بِلاَ لَوْمٍ كَوَكِيلِ اللهِ." (تيطس٢: ٥-٧) كما أن الرسول نفسه وهو يتحدث إلى تيموثاوس عن التنظيم الكنسي في الإصحاح الثالث من الرسالة الأولى لتيموثاوس لم يذكر سوى وظيفتي الأسقفية والشموسية.. وبالرجوع إلى الصفات المذكورة في هذا الإصحاح عن الأسقف يتضح الأتي:

١- سمو الأخلاق، وهي الصفة العامة التي ينبغي أن يكون عليها "بلا لوم". والإنسان غير الملوم هو الإنسان الذي يجد شهادة الأصدقاء والأعداء على حد سواء، فلأصدقاء لا يملكون سوى الإعجاب بسمو أخلاقه وعظمتها، والأعداء لا يملكون إلا الاعتراف على الأقل بينهم وبين أنفسهم بالفارق الكبير بين الرجل وغيره من الناس في عظمة الأخلاق وارتفاعها.

٢- المثالية في حياة الزوجية: يبدو هذا من القول: "بعل امرأة واحدة" وما من شك بان المرأة هنا ليست الكنيسة كما يتصور التقليديون، لان ذلك واضح من القول: "وإنما أن كان احد لا يعرف أن يدبر بيته فكيف يعتني بكنيسة الله " أن البيت ههنا هو الحياة العائلية التي يكون فيها الأسقف رب العائلة. وقد ظن آخرون أن المقصود"ببعل امرأة واحدة" ما يفيد بأنه لا يجوز للأسقف أن يتزوج مرة أخرى إذا ماتت زوجته، على أن المعنى المقصود هو انه في أوائل العصر المسيحي دخل الكنيسة وثنيون كانوا متزوجين بأكثر من زوجة، وكان زواجهم هذا من مشكلات الكنيسة في ذلك الوقت، وكان على الأسقف ا يكون بعيدا عن هذه المشكلة، بل أكثر من ذلك كان من واجبه أن يكون مثاليا في حياته العائلية بين زوجته وأولاده.. وإذا لم يعرف كيف يسوس بينته كيف يمكنه أن يسوس ويرعى كنيسة الله؟ أن البيت مرآة الأخلاق والتصرفات، والذي يعيش في بيته مثاليا لابد أن يكون كذلك مع الآخرين، وفي مواجهة المجتمع.. ومما يؤيد هذا الرأي أن غالبية الرسل كانوا متزوجين بشهادة الرسول بولس: "٥أَلَعَلَّنَا لَيْسَ لَنَا سُلْطَانٌ أَنْ نَجُولَ بِأُخْتٍ زَوْجَةً كَبَاقِي الرُّسُلِ وَإِخْوَةِ الرَّبِّ وَصَفَا؟" (١كو ٩: ٥).

٣- قوة الإرادة: "صاحبا عاقلا متحشما" وهذه تكشف عن قوة إرادته الضابطة لفكره ومشاعره وتصرفاته. والأسقف في مركز القيادة لابد أن يكون قوي الإرادة متمكنا من موقفه وعواطفه وإرادته، وفي الواقع لا يمكن أن يصلح واحد وهو ضعيف واهن الإرادة.

٤- الكرم: إذ لا يمكن أن يكون خادم الله بخيلا قابض اليد، بل يجب أن يكون بابه وبيته مفتوحا للمحتاج والغريب.

٥- سعة الإدراك: مما يمكنه أن يكون صالحا للتعليم، إذ هذه هي مهمته الأولى في الكنيسة أن يعلم ويكشف الحقائق أمام الصغار والكبار.

٦- ٦- سعة الصدر: إذ لا ينبغي أن يكون عبدا للنزاع والخصام والضرب، بل يكون حليما. والخادم أمامه من المشكلات ما يرهق أعصابه، وإذا لم يكن حليما فسيفشل في خدمته.

٧- ٧- القناعة التي تجعله بعيدا عن محبة المال...وكل هذه لا يمكن أن تتم في حياة الأسقف بسهولة، ولذا فمن واجبه أن يتأكد من دعوة الله له: "الرعية التي أقامكم فيها الروح القدس أساقفة" ولا يكون حديث الإيمان معرضا للانهيار أمام الإحداث والتجارب.

٢- نظام الخدمة المادية

وهذا النظام هو الذي يدبر الجانب المادي والمالي في الكنيسة، وهو نظام الشموسية. وقد ظهر هذا النظام في الكنيسة الأولى في أورشليم حتى يتفرغ الرسل والرعاة للجانب الروحي وحده، والكلمة "شماس" من أصل يوناني معناه يخدم أو يعين، والشمامسة بذلك هم مساعدو الأساقفة، وفي علاقتهم بالآخرين ينبغي أن يكونوا ذوي وقار لا ذوي لسانين، أو في لغة أخرى ينبغي أن ينالوا احترام الناس ومحبتهم، وفي علاقتهم بأنفسهم ينبغي أن يتحرروا من الشهوات كإدمان الخمر أو الطمع بالربح القبيح، وفي علاقتهم بالخدمة والرسالة التي اؤتمنوا عليها ينبغي أن يعملوا بضمير طاهر، وهذا الضمير لم يتطهر أو يرق إلا بسر الإيمان الذي يربطهم بالله بعلاقة وثقى.

الكنيسة ورسالتها

وما من شك بان رسالة الكنيسة أعظم واخطر رسالة في الأرض كلها وقديما قال بلوتارك: "تجول في العالم كله فقد تجد مدن بدون عملات أو مدارس أو مسارح احد لم يرى إلى ألان مدينة دون هيكل للصلاة" وظاهر أن بلوتارك يقصد إننا نستطيع أن نستغني عن إي شيء من ضروريات الحياة أو مباهجها لكننا لا نستطيع أن نستغني عن الدين وبيت الله... وهذا يفسر لنا ما حدث ذات مرة أثناء الحرب الأهلية الأمريكية إذ تحولت كثير من المباني إلى مستشفيات، وصدر الأمر بتحويل إحدى الكنائس المشيخية إلى مستشفى. وكانت هذه الكنيسة قريبة من البيت الأبيض، وفي احد أيام الآحاد أعلن الراعي من المنبر أن الكنيسة ستعطل عن عملها بأمر الحكومة إلى نهاية الحرب الأهلية، وكان الرئيس لنكولن حاضرا في ذلك اليوم في الكنيسة فنهض على قدميه، وطلب الكلمة من الراعي ثم قال: "أن هذا الأمر قد صدر دون علمي ولكنني أعلن بأنه لن يكون، إذ إننا في حاجة إلى هذه الكنيسة لتبقى الأنوار لامعة في الجو". ويقصد الرئيس انه وان كانت المستشفيات لازمة وضرورية، إلا أن الكنيسة ألزم واهم ليبقى حق الله في الأرض، ويبنى المجتمع الأصلح والأفضل.. وسنمر سريعا في لمحات خاطفة برسالة الكنيسة.

١- الكنيسة المبشرة

ورسالة التبشير في الكنيسة هي الرسالة التي تلف وتطوي كل رسالة أخرى، الم يقل الرسول بولس: "٨لِي أَنَا أَصْغَرَ جَمِيعِ الْقِدِّيسِينَ أُعْطِيَتْ هذِهِ النِّعْمَةُ، أَنْ أُبَشِّرَ بَيْنَ الأُمَمِ بِغِنَى الْمَسِيحِ الَّذِي لاَ يُسْتَقْصَى، ٩وَأُنِيرَ الْجَمِيعَ فِي مَا هُوَ شَرِكَةُ السِّرِّ الْمَكْتُومِ مُنْذُ الدُّهُورِ فِي اللهِ خَالِقِ الْجَمِيعِ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ. ١٠لِكَيْ يُعَرَّفَ الآنَ عِنْدَ الرُّؤَسَاءِ وَالسَّلاَطِينِ فِي السَّمَاوِيَّاتِ بِوَاسِطَةِ الْكَنِيسَةِ بِحِكْمَةِ اللهِ الْمُتَنَوِّعَةِ." (اف٣: ٨-١٠).. وثابت من هذا أن الكنيسة هي التي توجد الواعظ، وتعده للخدمة والرسالة والتبشير إذ هي التي تقدم كما قال احدهم: للواعظ مركز الخدمة ومسرح الوعظ، والمقدس الذي نتعلم فيه.. ابعد الكنيسة عن الوعظ وأنت

تدمر الواعظ والعظة معا. والكنيسة هي التي قدمت في كل زمان ومكان أمراء المنبر ورجال الوعظ وهي التي علمت سبرجن أن يقول: "إني أفضل عملي كأعظم من إي عمل أخر!!. أن الوعظ بالمسيح يسوع عمل حلو وعمل مسر وعمل سماوي، وقد ألف هوبتفيلد أن يدعو منبره عرشه، والذين ينسون كل شيء إلى جانب النداء المجيد العظيم بالمسيح المصلوب، يدركون أن ذلك القول لم يكن مبالغا فيه، انه السباحة في مياه الفردوس أن تعظ بتأييد الروح القدس المرسل من السماء، وليس هناك مكان اقرب إلى السماء من أن تعظ وأنت تشعر بحضور السيد، الذي يحملك فوق الانشغال والمتاعب لتشغل فقط بهذا الشيء الوحيد الذي هو أعظم ما يمكن أن يشغل فكر إنسان وقلبه"..

ومنذ قرون من الزمان زار فرنسي اسمه اليكس دي توكفيل أمريكا وقال: لقد بحثت عن عظمة وعبقرية أمريكا في موانيها وأنهارها، ولكني لم أجد أمريكا هناك، وفي حقولها الخصبة ومنتجاتها العظيمة ولكنها لم تكن هناك، وفي مناجمها الغنية وصناعتها الجبارة ولكنها لم تكن هناك أيضا، إلى أن ذهبت إلى كنائس أمريكا واستمعت إلى منابرها وهي تنادي بالبر والحق، وهنا أدركت سر عبقريتها وقوتها وستبقى أمريكا عظيمة طالما هي طيبة وخيرة، وإذ لم تكن كذلك فستنتهي هذه العظمة!!ط. اجل وهذا حق، فالكنيسة وحدها هي التي تستطيع بالتبشير والخدمة الأمينة أن تخلص العالم وتنقذه من شروره وآثامه وماسيه.

ومع انه يوجد ما يقرب من اثنين وعشرين إلى ثلاثة وعشرين ألفا من المرسلين البروتستانت في العالم اليوم خلاف الإرساليات من المذاهب الأخرى فان عدد المسيحيين ما يزال بالنسبة لغيرهم في العالم بنسبة ١: ٤، إذ يقدر عدد سكان العالم حاليا بحوالي ثلاثة آلاف مليون نسمة منهم من المسيحيين حوالي ثمانمائة مليون، والكثيرون من هؤلاء كما قلنا أنفا ليسوا مسيحيين حقيقيين فكم تبدو إذا مسئولية الكنيسة قاسية وملحة في هذا الميدان!!..

٢ـ الكنيسة والعبادة

وربما نستفيد كثيرا إذا أدركنا معنى كلمة عبادة كما جاءت في الأصل اليوناني في الكتاب المقدس "برسكيناو" وهذه الكلمة تشير إلى معنى الانبطاح أمام أخر والمصحوب بتقبيل القدم أو هدب الثوب والتي تعني الاحترام البالغ العميق. وهي ذات الكلمة التي استعملها الشيطان في محاولته تجربة يسوع (مت٢:٢) والكلمة في اللغة الانجليزية من أصل معناه يستحق، وقد استعملت بمعنى التفخيم والإجلال، وهل على إي حال تعني الاحترام اللائق بمن هو اله. والعبادة الجمهورية في الكنيسة هب عبادة المؤمنين المجتمعين معا بإيمان واحد ونفس واحدة، وقد تحدث المسيح عن جلال هذه العبادة في القول:" ١٩وَأَقُولُ لَكُمْ أَيْضاً: إِنِ اتَّفَقَ اثْنَانِ مِنْكُمْ عَلَى الأَرْضِ فِي أَيِّ شيء يطلبانه فَإِنَّهُ يَكُونُ لَهُمَا مِنْ قِبَلِ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ ٢٠لأَنَّهُ حَيْثُمَا اجْتَمَعَ اثْنَانِ أَوْ ثَلاَثَةٌ بِاسْمِي فَهُنَاكَ أَكُونُ فِي وَسَطِهِمْ». (مت١٨: ١٩و٢٠). ولعل كلمات كامبل مورجان في هذا الصدد هي خير ما يقال على الإطلاق : "الكلمة. اتفق" تعني في الأصل اليوناني "يصوت معا" ونحن نفهم في هذه الأيام معنى كلمة "سيمفونية" وهذا في الواقع معنى الكلمة الصحيح، فان العبادة تعني اجتماع اثنين لسيمفونية، أو التصويت لشيء واحد، وكم تبدو الآية جميلة إذا ذكرناهن بالمعنى الذي تدرك فيه السيمفونية – أو اللحن أو القطعة الموسيقية في أيامنا- فالسيمفونية الكلاسيك التي صاغها هاندل مثلا شيء رائع عظيم، فالسيمفونية هي أعظم لحن أو قطعة موسيقية معروفة عندنا في هذه الأيام، واجتماع الصلاة -سيمفونية -قطعة موسيقية رائعة – وان اتفق اثنان أو ثلاثة منكم على هذه السيمفونية، إذا كانت صلاتهم كاملة وموزونة وقوية كالسيمفونية فكل ما يطلبونه يكون لهم.. أن الكلمة " اجتمع" لا تفيد في الأصل الاجتماع

لمجرد الصدفة، بل تعني الاجتماع بترتيب وبقوة، وهذا الاجتماع الذي يعنيه السيد يعني الاتفاق الكامل الذي يأتي وليد الإعداد والعلاقة الوثقى.. أصوات متعددة ولكن موسيقى واحدة، وهذا هو معنى العبادة الذي يقوم في الكنيسة، وهذا هو مجدها وجلالها إذ أنها تشنف آذان الله وتصنع أجمل موسيقى في أذن إنسان على هذه الأرض ". لذلك لا عجب أن علق احد الأمريكيين لافتة مكتوب عليها "مزرعة للبيع" وإذ مر به احدهم وسأله عن الثمن : "أجاب لقد انتظرت من المزرعة عشرة ألاف دولار ولكني على استعداد أن أعطيها لأول من يطلبها مقابل خمسة ألاف. فدهش الغريب السائل وقال: "ولكن المنزل الموجود بالمزرعة يساوي عشرة ألاف إذا تركنا الأرض فلم تريد أن تبيعها بهذا الثمن البخس؟ " فأجاب الرجل: إني على استعداد أن أبيعها بهذا الثمن لأنها تبعد عن اقرب كنيسة ومدرسة عشرين ميلا".. أن هذا الرجل يفهم ضرورة الكنيسة كمركز ومكان العبادة المسيحية. ولذلك لا عجب أيضا أن ذهب عالم الكيمياء الألماني الكبير هوفمان إلى جلاسكو وأراد أن يزور في صباح يوم احد سير وليم طومسون الذي دعي فيما بعد لورد كلفن، واشرنا إليه أكثر من مرة فيما مضر، وإذا دق جرس البيت خرجت الخادمة تسأله عما يريد، فأجابها : انه يريد أن يرى سير وليم تومسون فإجابته الخادمة: "انه بالتأكيد لا يمكن أن يكون ألان بالمنزل " فسألها : "وأين إذا أجده؟"فإجابته: "أن سير وليم توموسون موجود ألان بالمكان الذي ينبغي أن تجده فيه.. الكنيسة".

٣- الكنيسة والدفاع عن الحق

والكنيسة هي المعقل الأول والأعظم للدفاع عن مبادئ الحق والحرية في الأرض، ولا يمكن أن ينسى المرء حديث البرت اينشتين أعظم عالم في القرن العشرين بهذا الصدد، عندما وصف الكنيسة في ألمانيا إذ قال: "عندما قامت الثورة النازية، وقفت كانسان محب للحرية انظر إلى الجامعات كمعقل الدفاع عن الحرية، لأنها دائما تبحث عن قضية الحق، ولكن الجامعات خضعت في الحال، وعندئذ وضعت رجائي في الصحفيين العظام الذين أعلنوا الكثير منهم حبهم للحرية، ولكن هؤلاء أيضا صمتوا بعد أسابيع، ولم يقف في طريق معسكر هتلر إلا الكنيسة وحدها، وقد كنت قبل ذلك لا أجد إي مسرة فيها، ولكني ألان اشعر بتقدير وإعجاب لها، لأنها وحدها كانت لها الشجاعة والمثابرة لتقف إلى جانب الحق الذهني والحرية الأدبية، وأنا ملزم أم أقول أن التي كنت احتقرها قبلا أصبحت اليوم أعجب بها علنا".. هذه شهادة يهودية عن الكنيسة، والحق ما شهد به الخصوم أو الأعداء.. ولأجل ذلك عاشت الكنيسة طوال عصور التاريخ تهب عندما تدرك رسالتها لتقف إلى جانب : "كُلُّ مَا هُوَ حَقٌّ، كُلُّ مَا هُوَ جَلِيلٌ، كُلُّ مَا هُوَ عَادِلٌ، كُلُّ مَا هُوَ طَاهِرٌ، كُلُّ مَا هُوَ مُسِرٌّ، كُلُّ مَا صِيتُهُ حَسَنٌ - إِنْ كَانَتْ فَضِيلَةٌ وَإِنْ كَانَ مَدْحٌ."(في٤ : ٨) وقد وقف إبطالها في مختلف العصور يشهدون للحق بشجاعة لا تنتهي أو تضعف أو تموت.. هدد الإمبراطور الروماني الأسقف يوحنا فم الذهب بالنفي، وإذ برجل الله يقول: "انك لا تستطيع أن تنفيني لان العالم كله بيت أبي".. وعندما هدده الإمبراطور بالقتل قال له: "ولا تستطيع ذلك لان حياتي مستترة مع المسيح في الله".. وإذ هدده بالاستيلاء على ثروته أجاب : "انك لن تقدر لان كنزي في السماء، وهناك قلبي أيضا". إذ قال له الإمبراطور انه سيبعد جميع أصدقائه عنه أجاب: "انك لا تستطيع ذلك، لان لي في السماء صديقا لا يمكن أن تفصلني عنه. أيها الإمبراطور ليس هناك شيء واحدا لا يمكن أن تأخذه ".. وهل بعد هذا كله من شك في أن الكنيسة هي المعقل العظيم والمجيد للدفاع عن المبادئ العظيمة والنبيلة في الأرض؟

٤ـ الكنيسة والمساعدات الاجتماعية

والكنيسة أيضا هي مركز المساعدات الاجتماعية وقلبها، فدور الملاجئ والعجزة والمستشفيات وأعمال الإحسان والشفقة والترفيه، كل هذه انبعثت عن الكنيسة ومنها. كيف لا وقد تحدث سيدها، عن القاعدة العملية لجميع هذه الأعمال في مثل السامري الصالح، كما أن الكنيسة قد مارست هذا الشعار من مطلع نشأتها عندما خصصت الشمامسة للأعمال المادية والإحسان.

كانت الأميرة اوجنى إحدى أميرات البيت السويدي تصطاف في إحدى الجزر السويدية وقد قضت اغلب وقتها في زيارة الأسرات الفقيرة، وقد هالها أن ترى عددا كبيرا من النساء يرزحن تحت إثقال إمراض قاسية لا سبيل إلى البرء منها، فعصف بقلبها الألم وقررت أن تبني لهم مستشفى، ولكن لم يكن معها نقود، فلم تر بدا من بيع جميع مجوهراتها ولآلئها، وبنيت المستشفى وسرعان ما امتلأت بالمريضات الفقيرات المتألمات، وفي يوم من الأيام زارت الأميرة المستشفى وانحنت فوق سرير امرأة تحتضر، وأشرق وجه المرأة وهي ترى الأميرة وقالت: "اشكر الله لان دم يسوع المسيح ابنه يطهر من كل خطية وقد طهرني". وانهمرت عيناها بالدموع دموع الرضا والفرح بالمسيح المخلص. وقالت الأميرة: "في هذه الدموع أبصرت لآلتي مرة أخرى وذكرت قول السيد : "مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ ".. وهكذا تعلم الكنيسة أبنائها وبناتها معنى الخدمة من كل وجه وجانب.

وهكذا تتناول رسالة الكنيسة حياة الإنسان من كل جانب الروحي والأدبي والمادي على حد سواء، لان الدين في الواقع يشمل هذه جميعا، ولا يمكن أن يخرج واحد منها عن امتداد يده وعمله وفاعليته.

الكنيسة وسلطانها

والسؤال الحيوي العام الذي يبحث عنه الإنسان طوال عصور التاريخ منذ أن أنشئت الكنيسة حتى اليوم هو: ما حق هذه الكنيسة وسلطانها وسيادتها، والى إي مدي تجوز أن تربط وتحل في حياة الناس، أو مصائرهم أو مناهج أعمالهم وسلوكهم، وهل تبقى في هذه كلها دون معقب، حتى ولو جاء حكمها في تفسير الحياة والتاريخ حكما متحاملا أو غير صائبا؟..

ومن اللازم أن نؤكد بادئ ذي بدء، أن للكنيسة سلطانا لا شبهة فيه، وهي تستمد هذا السلطان من وعد المسيح وأمره إذ قال لبطرس: "١٩وَأُعْطِيكَ مَفَاتِيحَ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ فَكُلُّ مَا تَرْبِطُهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَرْبُوطاً فِي السَّمَاوَاتِ. وَكُلُّ مَا تَحُلُّهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَحْلُولاً فِي السَّمَاوَاتِ».(مت١٦: ١٩). على أن المسيح وهو يعطي هذا السلطان لبطرس لم يعطيه إياه كفرد، بل كالتلميذ المعترف والمؤمن بلاهوت المسيح عندما قال: "أنت هو المسيح ابن الله" وقد أكد المسيح هذا بما لا يدع مجالا للبس، إذ بين أن هذا سلطان الكنيسة كلها: "١٧وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ مِنْهُمْ فَقُلْ لِلْكَنِيسَةِ. وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ مِنَ الْكَنِيسَةِ فَلْيَكُنْ عِنْدَكَ كَالْوَثَنِيِّ وَالْعَشَّارِ. ١٨اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: كُلُّ مَا تَرْبِطُونَهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَرْبُوطاً فِي السَّمَاءِ وَكُلُّ مَا تَحُلُّونَهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَحْلُولاً فِي السَّمَاءِ." (مت١٨: ١٧و ١٨). وقد تأيد هذا السلطان بأمر المسيح قبل الصعود عندما قال: " (مت ٢٨: ١٨و١٩) وهذا حق لان الكنيسة كمنظمة على الأرض ينبغي أن يكون لها يقرر وينظم ويدعم كيانها ورسالتها وأعماله، ولكن السؤال هو: ما طبيعة هذا السلطان وحدوده؟ ولعل الجواب الدقيق يقتضي تحديدا معنى كلمتي "الحل" و "الربط" التين

أثارتا خلافا كبيرا في الكنيسة المسيحية.. واضح أن الكلمتين كانتا معروفتين ومفهومتين عند اليهود، إذ أن الربين اليهود أشاعوا استعمالهما كتعبيرين في الحكم على الطاهر والنجس، والبريء والمذنب، وقد نقل المسيح مدلولهما من الاستعمال اليهودي إلى الاستعمال المسيحي، فكما كان من اللازم أن يحكم الكاهن اليهودي على الأبرص مثلا، وهل هو طاهر أو نجس، وهل يحق له أن يمارس الفرائض المقدسة أم لا، وهكذا أضحى على الكنيسة المسيحية أن تحدد وتفرق بين ما هو محلل أو ما هو محرم، وبين ما لا ينبغي عمله وما لا يجوز القيام به، وبين ما يصح أن يكون مؤمنا، وما لا يصح أن نعته لنجاسته وفساده وشره بالإيمان،وهل يجوز أن يقترب من المائدة الربانية ويتناولها أو لا يجوز، تباعا للحياة والحالة الروحية التي يكون عليها.. وقد مارس التلاميذ هذا الحق فأجازوا دخول الأمم إلى الإيمان المسيحي، وأجازوا إلا يثقل على الداخلين من الأمم إلى الكنيسة سوى في الامتناع عن نجاسات الأصنام والزنا والمخنوق والدم.. وكل هذا قد أجازته السماء وصدقت عليه. وكما أن الكاهن في حد ذاته لا يملك أن يجعل من الأبرص طاهرا ومن الطاهر أبرص. بل عليه أن يحكم بطهارته أو نجاسته تباعا للعلامات التي يراها فيه. والتي تقرر وحدها حقه ونصيبه من الطهارة أو النجاسة، هكذا يحق للكنيسة تباعا لإرشاد روح الله والحق المسيحي في الكتاب أن تحكم عل الصالح أو الطالح و أن تمنع أو تمنح حق قبوله في عضويتها، ولكن هذا المنع أو المنح لا يمكن أن يغلق أو يفتح أمامه باب السماء، وإلا لعلق المسيح قبول العشار والخاطئ وتبريره على الحكم الكهنوتي، ولما قال انه نزل إلى بيته مبررا دون الفريسي الذي يظن انه من زمرة الإبرار وخيرة القديسين.. وان التوبة هي المقياس الوحيد لقبول الإنسان أمام الله حتى ولو حكمت مجامع البشر ضده والعكس صحيح، إذ لا يجدي المرء أن يأخذ جميع صكوك الغفران وهو عائش في حياة الإثم والمنكر والخطية. وقديما حكم اليهود على استفانوس بالرجم وقام ابن الله ليستقبله كالشهيد العظيم الأتي إلى السماء، وهل يمكن أن ينسى المرء بهذا الصدد أقوال توماس مور عندما قال للقضاء الذين حكموا عليه بالموت : "ليس لي ما أقوله أيها السادة أكثر من أن الرسول بولس كان حارسا لثياب الذين رجموا استفانوس، والآن هما صديقان إلى الأبد في السماء وأنا أرجو واصلي، ولو أنكم حكمتم بالموت عليّ في الأرض أن نلتقي في السماء في الخلاص الأبدي"... ولعل اظهر مثال لحقيقة هذا السلطان وعمله يظهر في قصة ذلك الرجل الزاني الذي اخذ امرأة أبيه في كنيسة كورنثوس، ولم تحرك الكنيسة في بادئ الأمر شيئا إذ يبدو انه كان شخصية ذات نفوذ أو سلطان فيها، حتى سمع الأمر عند الرسول بولس، فاصدر الحكم المكتوب في الإصحاح الخامس من الرسالة الأولى إلى كورنثوس والقاضي بفصله من عضوية الكنيسة، لعله يتوب ويرتدع إذ جاء النص قائلا: "فَإِنِّي أَنَا كَأَنِّي غَائِبٌ بِالْجَسَدِ وَلَكِنْ حَاضِرٌ بِالرُّوحِ قَدْ حَكَمْتُ كَأَنِّي حَاضِرٌ فِي الَّذِي فَعَلَ هَذَا هَكَذَا ٤بِاسْمِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ – إِذْ أَنْتُمْ وَرُوحِي مُجْتَمِعُونَ مَعَ قُوَّةِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ – ٥أَنْ يُسَلَّمَ مِثْلُ هَذَا لِلشَّيْطَانِ لِهَلاَكِ الْجَسَدِ لِكَيْ تَخْلُصَ الرُّوحُ فِي يَوْمِ الرَّبِّ يَسُوعَ.(١كو٥: ٣-٥) وإذ فصل أحس حقيقة موقفه وحزن ورجع تائبا، فجاء حديث الرسول عنه: "٦مِثْلُ هَذَا يَكْفِيهِ هَذَا الْقِصَاصُ الَّذِي مِنَ الأَكْثَرِينَ، ٧حَتَّى تَكُونُوا - بِالْعَكْسِ - تُسَامِحُونَهُ بِالْحَرِيِّ وَتُعَزُّونَهُ، لِئَلاَّ يُبْتَلَعَ مِثْلُ هَذَا مِنَ الْحُزْنِ الْمُفْرِطِ.(٢كو٢: ٦) ولم يزد عمل الرسول والكنيسة في الحالين إلا كشف الواقع، وتحديد الموقف تباعا لهذا الكشف لا أكثر أو اقل... أما علاقة الإنسان بربه فأمرها في يد الإنسان وهذا الرب

الرحيم العادل، ولا تملك كنائس الدنيا بأكملها أن تغير هذه العلاقة، أو تبدلها من غير التوبة أو الإيمان الصحيح السليم أمام الله...

الكنيسة ووسائلها

ووسائل الكنيسة على الدوام وسائل روحية إلهية إذا رامت ن تخلص نفسا أو تنشر نفوذا، فهي لا يمكن أن تستخدم الغزو أو السيف، وتكون في الوقت نفسه في السبيل السوي أو الطريق الصحيح، ولعل اكبر المحن في تاريخ الكنيسة هي التجاؤها لهذا السلاح أو ذاك من أسلحة البشر..

وقديما حاول بطرس أن يرفع السيف دفاعا عن سيده، فجاءه الصوت الرادع الحاسم: «رُدَّ سَيْفَكَ إِلَى مَكَانِهِ. لأَنَّ كُلَّ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ السَّيْفَ بِالسَّيْفِ يَهْلِكُونَ."(مت٢٦: ٥٢). ولو اتبعت الكنيسة هذا الصوت وأصاخت الأذن لهذا الأمر لما سقطت في اكبر أخطاؤها التاريخية، ولما جردت الجيوش فيها عرفه التاريخ بالحروب الصليبية، وهل يليق بالله أو يتفق مع مجده أن يسيطر على إنسان قسرا دون أن يجتذب فكره أو يستولي على مشاعره أو ياسر قلبه... وما قيمة الاستيلاء على جسد الإنسان دون عقله أو على عقله دون قلبه!!؟ وإذا كان المسيح قد احترم الإرادة البشرية وبني علاقته بها على الدوام على أساس القول: "أن أراد احد أن يأتي ورائي" فهل يعقل أن تجيء الكنيسة لتجعل الكلمة للسيف والحاجة للقوة الغاشمة!؟.. فإذا أضيف إلى ذلك أن المسيح هو أساس السلام ورئيسه في الأرض، وان مجيئه قد اقترن بأغنية: " المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة" فهل تجرد الكنيسة بعد هذا جيشا لتصنع حربا أو غزوا؟.. أن أسلوب الكنيسة لا يجوز أن يخرج بأي، في إي مجال أو دور عن أسلوب السلام، ومن هنا نقول أيضا أن الأحكام الكنسية التي قضت بإحكام وحرق وقتل من سمتهم بالهراطقة أو المارقين عن الدين، لا يمكن أن تكون أحكاما تنسب إلى المسيح على الإطلاق، حتى ولو كان جميع المحكوم عليهم هراطقة أو مارقين، وذلك لان لكل إنسان يومه الأكيد أمام ربه : "١٠لأَنَّهُ لاَ بُدَّ أَنَّنَا جَمِيعاً نُظْهَرُ أَمَامَ كُرْسِيِّ الْمَسِيحِ، لِيَنَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مَا كَانَ بِالْجَسَدِ بِحَسَبِ مَا صَنَعَ، خَيْراً كَانَ أَمْ شَرّاً. (٢كو٥: ١٠). وان إي مارق أو زنديق أو ملحد، وان افلت من إي عقاب ارضي لا يمكن أن يفلت من عقاب السماء، كما أن التلاميذ والرسل لم يشجعوا على الإطلاق إي سلوك من هذا السبيل تاركين الأمر كله لعدالة الله التي لا تغفل أو تنام، وقد تركها بطرس لتقتص من حنانيا وسفيرة، كما سلم سيمون الساحر لمصيره مقدما له مجال التوبة في الوقت نفسه بالقول: "فَتُبْ مِنْ شَرِّكَ هَذَا وَاطْلُبْ إِلَى اللهِ عَسَى أَنْ يُغْفَرَ لَكَ فِكْرُ قَلْبِكَ ٢٣لأَنِّي أَرَاكَ فِي مَرَارَةِ الْمُرِّ وَرِبَاطِ الظُّلْمِ».(اع٨: ٢٢). ولم يجر عليه حكم الحرمان، أو ير نفسه واسطة بينه وبين الله في الغفران.

كما إننا لم نسمع أن واحدا من الرسل اصدر حكما بالحرمان أو ما أشبه ضد المعتدين عليهم، والمضطهدين لهم بل بالعكس قال بولس وهو يحتج لدى الملك اغريباس وأعداؤه وقوف يطلبون نفسه ودمه: "«كُنْتُ أُصَلِّي إِلَى اللهِ أَنَّهُ بِقَلِيلٍ وَبِكَثِيرٍ لَيْسَ أَنْتَ فَقَطْ بَلْ أَيْضاً جَمِيعُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَنِي الْيَوْمَ يَصِيرُونَ هَكَذَا كَمَا أَنَا مَا خَلاَ هَذِهِ الْقُيُودَ».(اع٢٦: ٢٩). إي كان يطلب لهم جميعا أن يصبحوا مسيحيين يشاركونه في كل شيء إلا قيود الأسر والأغلال والسجن، كما انه إذا يئس وفقد كل أمل من إصلاح اسكندر النحاس تركه للعدالة الإلهية وحدها إذ قال: "١٤إِسْكَنْدَرُ النَّحَّاسُ أَظْهَرَ لِي شُرُوراً كَثِيرَةً. لِيُجَازِهِ الرَّبُّ حَسَبَ أَعْمَالِهِ."(٢تي ٤: ١٤).. ومن هذا كله يتبين أن أحكام الإعدام والحرق والقتل التي صدرت في الكنيسة في كل التاريخ قد تنسب إلى إي شيء، ولكنها لا يمكن أن تنسب إلى اسم المسيح الذي هو برئ منها إلى الأبد...

والكنيسة كأي كائن حي تتعرض للأمراض والاوصاب المختلفة، وأول إقناع للناس، أو الإتيان بهم إلى حظيرة الإيمان إذ لا سلاح لها إلا الوعظ والإرشاد والتعليم، وهي في كل ذلك لا يجوز لها أن تعمد إلى التحايل أو التضليل أو الخداع أو الرشوة، إذ أن الجهاد الحسن هو الجهاد القانوني، ومن ثم فكل محاولة لكسب إنسان عن طريق التلويح له بمال أو وظيفة أو منصب لا يمكن أن يصادق عليها الله أو يؤيدها الروح القدس، وقد دخل كثيرون إلى المسيحية يوما من الأيام لان الإمبراطور قسطنطين أصبح مسيحيا، والناس كما يقول البشر على دين ملوكهم، وقد اثر هذا تأثيرا مروعا في حياة الكنيسة، للان عدد غير قليل من هؤلاء الداخلين لم يدخلوا عن طريق الاقتناع الحر الأمين المستقل، ولذا فقد دخلوا تصطحبهم ضعفاتهم وآثامهم وشرورهم ومفاسدهم ومبادلهم مما كان له أسوا الآثار وأعمقها في حياة الكنيسة آنذاك، بل لقد اثبت التاريخ أن المسيحية عندما فصلت الدين عن الدولة، وجعلت كلاهما يعمل في مجاله الواسع الحر، كانت اقوي واجل آثرا وأعمق فاعلية، من الوقت الذي ربطت فيه بن الاثنين عندما كان الإمبراطور ممثل الدين والدولة معا، أو كان البابا الحاكم الديني والسياسي في الوقت عينه.

في أثناء رئاسة الرئيس ايزونهاور للولايات المتحدة تعود عدد كبير من الناس أن يحضروا إلى الكنيسة التي يصلي فيها الرئيس لمجرد أن الرئيس هناك، وحدث أن غريبا ذهب إلى الكنيسة وسال احدهم: "هل ايزنهاور هنا؟" فأجابه الأخر : "كلا، ولكن هنا الله". ما أحوج الكنيسة حقا أن تتحرر من كل وازع أو دافع نفساني غير الهي في التعبد أو الاقتراب لله.. والكنيسة عندما تواجه بالظلم والاضطهاد لا يجوز لها أن تقابل المثل بالمثل فتعمد إلى التنكيل والتخريب، بل عليها أن تقابل كل شيء بروح المحبة والغفران والتسامح كما فعل المسيح سيدها!!.

ومن اللازم أن نوضح أن هذا لا يعني التخاذل والضعف فالتسامح المسيحي ابعد ما يكون عن ذلك، والدليل على ذلك انه في الوقت الذي تغفر فيه الكنيسة المسيحية لمن أساءوا إليها لا يجوز لها أن تتراجع قيد أنملة عن العقيدة والواجب والمبادئ المسيحية التي تناضل من اجلها، كما أن العفو عند المقدرة من سماتها الأساسية، والمسيحي الحق هو الذي يحمل في قلبه شجاعة الأسد وحكمة الحية ووداعة الحمل وبساطة الحمام.

والكنيسة في هذه المجالات جميعا لا يجوز لها أن تبدأ مع الناس قبل البدء مع الله، إذ أن من واجبها قبل أن تثق بالناس، أن تؤمن بالله، وقبل أن تعظ للناس أن تصلي لله، وقبل أن تقوم بأي حركة أو عمل بين المجموع البشري أن تطلب إرشاد الله وحكمته ومشيئته وإرادته، أو في لغة أخرى أن جهادها الأول مع الله قبل أن تمارس إي جهاد أو نشاط أو مجهود على هذه الأرض.. وعظيم ذلك الإنسان أو المجموع من الناس الذي من الممكن أن يسمع من الله ما قاله ليعقوب قديما: "لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت" (تك٣٢: ٢٨). ومن الثابت أن أعظم الأبطال الذين أدوا أروع الخدمات في الحياة البشرية كانوا دائما رجال صلاة ومحبة وخدمة.

الكنيسة وأمراضها

والكنيسة كأي كائن حي يتعرض للأمراض والاوصاب المختلفة، وأول هذه الأمراض هو الاندماج في العالم عندما يزال الخط الفاصل بينها وبين غير المؤمنين، ولا حاجة إلى القول أن هذا الاندماج يدخل العالم إلى الكنيسة بمفاسده ومبادله وظلمه ومجونه وعربدته وشره وخلافاته، وبدلا من أن تؤثر الكنيسة في العالم يقتل العالم الكنيسة كما يفعل الميكروب في جسم الإنسان، ولا علاج بهذا المرض إلا بالاختلاط الأكثر بالله، ورسم المبادئ المسيحية الخاصة بالمؤمنين وعدم الاشتراك في أعمال الظلمة غير المثمرة، والامتناع عن التقليد الأحمق في أساليب البشر أو ألفاظهم أو أعمالهم أو زيهم أو طعامهم أو

شرابهم، والحرص على أن تكون العلاقة بين المؤمن وغير المؤمن إلى الحد الذي لا يورط أو يغرق أو يضيع كما قال الكتاب المقدس: "١٤ لاَ تَكُونُوا تَحْتَ نِيرٍ مَعَ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ، لأَنَّهُ أَيَّةُ خِلْطَةٍ لِلْبِرِّ وَالإِثْمِ؟ وَأَيَّةُ شَرِكَةٍ لِلنُّورِ مَعَ الظُّلْمَةِ؟ ١٥وَأَيُّ اتِّفَاقٍ لِلْمَسِيحِ مَعَ بَلِيعَالَ؟ وَأَيُّ نَصِيبٍ لِلْمُؤْمِنِ مَعَ غَيْرِ الْمُؤْمِنِ؟ ١٦وَأَيَّةُ مُوَافَقَةٍ لِهَيْكَلِ اللهِ مَعَ الأَوْثَانِ؟"(٢كو ٦: ١٤و ١٥). وواضح أن الخلطة والشركة والاتفاق والنسيب والموافقة هي التي تفسر وتحدد معنى النير ومدلوله.. ومن الممكن أن ابتسم لغير المؤمن واعطف عليه وأساعده وأعينه واعلمه وأرشده دون أن ادخل في شركة معه أو قسمة أو نصيب أو ما أشبه، مما تتحول أخر الأمر إلى نيرا ثقيلا على عنقي وفي حياتي!!..

على أن المرض الأخر المقابل لهذا المرض هو مرض الابتعاد والانعزال عن العالم وفي هذا المرض تعيش الكنيسة، في عزلة العائشين في الدير أو المنطويين على أنفسهم، فتحبس نورها وتمنع ملحها وتغلق على مبادئها، هذا المرض يصيبها بالضعف والهزال والأنانية والكساح والعمى والبكم والصمم، وإذا كان أرسطو قد عرّف الفضيلة بأنها وسط بين رزيلتين، فان من واجب الكنيسة لا أن تندمج في العالم اندماجا كليا أو تنعزل منه انعزالا تاما، إذ عليها إلا تكف عن إعلان مبادئها والمناداة للجميع برسالتها، ومن واجبها أن تتقدم الصفوف في مساعدة المحتاج وتقوية الضعيف وتشجيع اليائس وتعضيد البائس وسند المنكوب، فإذا ما قصرت وأمست خرساء دون رسالة، وعمياء دون إدراك، وصماء دون سمع، وكسيحة دون حركة، كان من الصعب أن ندعوها كنيسة سليمة صحيحة حية قوية.

والمرض الثالث هو مرض الخوف من العالم، وهو مرض تتعرض له الكنيسة في كفاحها مع قوات الشر والظلام.. ومرجع هذا الخوف هو تجسيم الخطر وعدم التطلع صوب الله، الم يقل السيد المسيح: "٢٨وَلاَ تَخَافُوا مِنَ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ الْجَسَدَ وَلكِنَّ النَّفْسَ لاَ يَقْدِرُونَ أَنْ يَقْتُلُوهَا بَلْ خَافُوا بِالْحَرِيِّ مِنَ الَّذِي يَقْدِرُ أَنْ يُهْلِكَ النَّفْسَ وَالْجَسَدَ كِلَيْهِمَا فِي جَهَنَّمَ. ٢٩أَلَيْسَ عُصْفُورَانِ يُبَاعَانِ بِفَلْسٍ؟ وَوَاحِدٌ مِنْهُمَا لاَ يَسْقُطُ عَلَى الأَرْضِ بِدُونِ أَبِيكُمْ. ٣٠وَأَمَّا أَنْتُمْ فَحَتَّى شُعُورُ رُؤُوسِكُمْ جَمِيعُهَا مُحْصَاةٌ."(مت١٠: ٢٨ – ٣٠). وقد يأخذ هذا المرض في بعض حالاته لون الخجل أو الحياء أو اليأس أو ما أشبه من الحالات التي تصاحب الإنسان، عندما يخاف من تهديد أو سطوة أو نفوذ أو سيطرة أو غير ذلك. مما تعمم في فترات الاضطهاد أو الضيق أو الاستبداد أو المذلة.. ولكن هذه الأمراض يمكن القضاء عليها بالتحول عن فكرة الخوف نفسها والارتفاع إلى اليقين التام، بان الحياة والموت والراحة والتعب والضيق والشدة لا يمكن أن تتحكم فيها أو تسود عليها يد غير يد الله الذي يحصي جميع شعور رؤوسنا، ولا يمكن أن يسقط واحدة منها من دون أمره وإرادته وحمه!!.

وفي الواقع إننا لا يمكن أن نجد بديلا للعلاج من أمراض الكنيسة جمعاء إلا بالتطلع إلى شخص الله، والتمسك به في كل حال، والكنيسة لا يمكن أن ترى الله وتتأمل فيه، ثم تندمج في العلام، أو تهرب من رسالتها المعينة في هذه الأرض، أو تخاف من اضطهاد البشر وآلامهم وماسيهم وضيقتهم وأزماتهم... أن علاج الكنيسة الدائم منحصر في رؤية الله والإيمان بالقدير.

الكنيسة ومجدها

وهذا أخر ما نختتم به الحديث عن الكنيسة، وهي في قمة مجدها وعظمتها وسؤودها وجلالها ومركزها! من ماضي الكنيسة وكفاحها المجيد طوال هذه القرون المتعددة على الأرض! لقد كانت الكنيسة في صبرها واحتمالها وشجاعتها مثالا في الثبات على المبدأ والاستشهاد من اجل العقيدة، كما أنها زرعت في الأرض، وأبدعت فيها أروع المثل، وارفع المبادئ، واجل الفضائل، وأنبل السير، في مهدها الخصيب وحضنها المتسع ولد وعاش المسيح... وإذا صح لوليم ويكهام أن يكتب على نافذة

إحدى الكنائس عندما كلفه ادورد السابع ببنائها : "هذا العمل صنع وليم ويكهام" ولما سأله الملك ماذا يعني بذلك أجاب: "أن بناء الكنيسة قد منحه مجدا وشرفا وامتيازا، فهو لم يصنع الكنيسة بل الكنيسة التي صنعته" إذا صح لهذا الرجل أن يقول مثل هذا القول فانه اصح وأولى بكل من غيرت الكنيسة تاريخهم، وحولتهم من الظلمة إلى النور، ومن الضعة إلى الرفعة، ومن الهوان إلى المجد، ومن الأنانية إلى البذل، ومن الحياة الضائعة الفقيرة المغمورة إلى حياة العظماء والأبطال والقادة والقديسين.. وهل يمكن أن ينسى المرء أيضا أن الكنيسة واحدة من حركات التحرير وأعظمها في كل التاريخ؟!! فتحرير العبيد، ومساواة المرأة بالرجل، ورعاية الطفولة، ومكافحة المسكرات والمخدرات، وما أشبه من حركات تحريرية كبرى أتت من أناس نبتوا في أحضان الكنيسة، ورضعوا لبانها وتمثلوا مبادئها وعاشوا حياتهم لمجد الله وخير الإنسان.

على أن مجد الكنيسة الأعظم لا يمكن أن يقف عن حدود الماضي الرائع أو الحاضر المجيد، بل لابد أن يرتقي ويعلو ويسمو ويسود حتى يبلغ أخر الأمر المجد الأسنى والفردوس المردود.. وإذا كان الإنسان في كل ادوار التاريخ قد عاش يحلم بهذا الفردوس، وقد كتب كثيرون من الكتاب والفلاسفة يتصورونه في صورته اللامعة والمجيدة، فكتب أفلاطون كتابه المعروف "بالجمهورية" وكتب توماس مور كتاب "اليوتوبيا" أو عالم الكمال، وكتب فرانسيس بيكون كتاب "المدينة الفاضلة" وكل هذه جميعا ليست إلا صور خيالية لعلام مفقود. إلا أن يقين الكنيسة ثابت بان هذا العالم سيتحقق أخر الأمر بها وفيها، عندما يتم النشيد: "قد صارت ممالك العالم كله، لربنا ومسيحه فسيملك إلى ابد الآبدين" (رؤ ١١: ١٥) ومن يتردد بعد هذا كله في أن يهتف من أعماق قلبه بكل حمية وحماس وقوة ويقين، مع قانون الإيمان الرسولي العظيم القائل: ".. وأؤمن بكنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية"..

الفصل التاسع عشر: إيماني بالفرائض المقدسة

تتفق المذاهب المسيحية في مختلف العصور والأجيال على الإيمان بفريضتي المعمودية والعشاء الرباني، فيما خلا جماعة الكويكرز "الأصحاب" الذين لا يكاد يقام لشذوذهم في هذا الأمر وزن. ومرد هذا الإيمان عند جميع المذاهب أمر المسيح الصريح، ومتى أمر المسيح فلا حاجة بعد ذلك للتساؤل والنقاش. بل إن المذاهب البروتستانتية التي تقصر إيمانها بالفرائض على هاتين الفريضتين ترد هذا الإيمان للسبب ذاته، أن تؤكد انه لا يجوز ابتداع فرائض أخرى لم يأمر بها المسيح أو ينص عليها الإنجيل.. وواضح كل الوضوح إن الفريضتين تشيران إلى معنى المسيحية ولبها، فالمعمودية ترمز إلى الاغتسال من الخطية، والحياة النظيفة المجددة، والتي لا يمكن أن تكون لإنسان يعيش في حياة العالم وأقذاره وأوحاله.. والعشاء الرباني يشير إلى ذلك الثمن العظيم الذي قدمه المسيح لأجلنا على الصليب، إذا بذل حياته لأجل خطايانا، ولتطهيرنا من أوزارنا وآثامنا ولا حاجة إلى الإشارة إلى إن المسيحيين كانوا يعبرون عن إيمانهم بل ويعرفون لدى العالم بممارسة هاتين الفريضتين عرفتا في التاريخ المسيحي قبل وحي الله بالإنجيل.. ولا حاجة إلى الإشارة أيضا إلى أن الإيمان المسيحي يصل إلى النفس عن طريق الفريضتين لا بمجرد السمع كما في كلمة الله، بل بالرؤية والممارسة العملية الحسية، لان الأعلى في الحياة لا ينطق به، كما يقول جوتة شاعر الألمان، بل يحس به.. وقوة الفريضتين متركزة لا في كونها إعلانا أو اعترافا علنيا بالمسيحية أمام الناس، بل أكثر من ذلك لأنهما تحضان على الدوام، وتذكران بالوحدة والشركة المسيحية التي تربط أبناء الله جميعا في المسيح الواحد.. وها نحن أولا سنتابع كل فريضة على حدة لنرى مدلولها ومعناها وأهميتها وضرورة ممارستها في الحياة المسيحية.

أولا ـ فريضة المعمودية

والدرس الدقيق من هذه الفريضة ينبغي التأمل فيها من الجوانب التالية:

١ـ المعمودية ومفهومها التاريخي

قبل أن يأمر المسيح بفريضة المعمودية المسيحية كانت المعمودية عند اليهود تمارس في أكثر من مظهر ومعنى، إذا كانت تشير في المعنى الواسع إلى التطهيرات المختلفة عنده، إذا قيل: "٤وَمِنَ السُّوقِ إِنْ لَمْ يَغْتَسِلُوا لاَ يَأْكُلُونَ. وَأَشْيَاءُ أُخْرَى كَثِيرَةٌ تَسَلَّمُوهَا لِلتَّمَسُّكِ بِهَا مِنْ غَسْلِ كُؤُوسٍ وَأَبَارِيقَ وَآنِيَةِ نُحَاسٍ وَأَسِرَّةٍ.(مر٧: ٤). ولفظ "غسل" المذكورة ههنا هو ذات اللفظ المستعمل لكلمة "عماد".. وقيل: "وهي قائمة بأطعمة واشربة وغسلات مختلفة" (عب٩: ١٠). والكلمة "غسلات" هي ذات

الكلمة المستعملة "للعماد". ومن ثم فالعبارة عند اليهود كانت تشير أساسا إلى التطهير، كما جاء في اغتسال هرون وبنيه عند دخولهم خيمة الاجتماع: "١٨«وَتَصْنَعُ مِرْحَضَةً مِنْ نُحَاسٍ وَقَاعِدَتَهَا مِنْ نُحَاسٍ لِلاغْتِسَالِ. وَتَجْعَلُهَا بَيْنَ خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ وَالْمَذْبَحِ وَتَجْعَلُ فِيهَا مَاءً. ١٩فَيَغْسِلُ هَارُونُ وَبَنُوهُ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ مِنْهَا. ٢٠عِنْدَ دُخُولِهِمْ إِلَى خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ يَغْسِلُونَ بِمَاءٍ لِئَلاَّ يَمُوتُوا. أَوْ عِنْدَ اقْتِرَابِهِمْ إِلَى الْمَذْبَحِ لِلْخِدْمَةِ لِيُوقِدُوا وَقُوداً لِلرَّبِّ. ٢١يَغْسِلُونَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ لِئَلاَّ يَمُوتُوا. وَيَكُونُ لَهُمْ فَرِيضَةً أَبَدِيَّةً لَهُ وَلِنَسْلِهِ فِي أَجْيَالِهِمْ». (خر٣٠: ١٨-١٢).

واغتسال النجسين حسب حكم الفريضة كمن يصحب تيس عزازيل إلى البرية أو من يحرق ثور الخطية وتيس الخطية خارج المحلة في يوم الكفارة العظمى: "٢٦وَالَّذِي أَطْلَقَ التَّيْسَ إِلَى عَزَازِيلَ يَغْسِلُ ثِيَابَهُ وَيَرْحَضُ جَسَدَهُ بِمَاءٍ وَبَعْدَ ذَلِكَ يَدْخُلُ إِلَى الْمَحَلَّةِ. ٢٧وَثَوْرُ الْخَطِيَّةِ وَتَيْسُ الْخَطِيَّةِ اللَّذَانِ أُتِيَ بِدَمِهِمَا لِلتَّكْفِيرِ فِي الْقُدْسِ يُخْرِجُهُمَا إِلَى خَارِجِ الْمَحَلَّةِ وَيُحْرِقُونَ بِالنَّارِ جِلْدَيْهِمَا وَلَحْمَهُمَا وَفَرْثَهُمَا.(لا١٦: ٢٦ و ٢٧)... وكالأبرص وذوي السيل وغيرهم.

وكانت المعمودية في المعنى الأخص والأدق الفريضة التي يتحتم على المتهود ممارستها عند إيمانه باليهودية واعتناقها له كرمز لتخلصه من كل ادران الوثنية التي علقت به كأممي. وكانت معمودية يوحنا المعمدان بذات المعنى تشير إلى اغتسال التائبين وإعدادهم لمجيء المسيح، حمل الله الذي يرفع خطية العالم، وعندما اعتمد المسيح من يوحنا لم يكن هو بذاته في حاجة إلى المعمودية، إذا هو البار القدوس المنزه عن كل خطية، ولكنه قبلها مع ذلك تثبيتا لرسالة يوحنا، وتأكيدا لصدقها وعملها في إعداد الأمة لمجيئه وإعلانا عن نيابته عن البشرية المحتاجة إلى التوبة والاغتسال من الخطية، وإفصاحا عن كراهيته للخطية ووقوفه إلى جانب البر وتسلمه مركزه الكهنوتي، إذا كان قد بلغ الثلاثين من عمره، وهي سن التجنيد عند الكهنة حسب الشريعة (عد٤: ٣) ومن كل ما سبق يتبن إن الأصل التاريخي للمعمودية هو الاغتسال من الماضي الملوث، والخطية، والسلوك في منهج القداسة وحياة الطهارة والبر.

٢- المعمودية ومعناها المسيحي

أما وقد عرفنا الأصل التاريخي للمعمودية ومفهومها عند اليهود قبل ظهور المعمودية المسيحية، بقي أن نعرف مدلول هذه الأخيرة والمعنى المقصود منها، ولعل من أهم ما تشير إليه أو تكشف عنها إنها:

أولا – ختم الملكية: إذا إن من يعتمد باسم:الأب والابن والروح القدس" إنما يشير إلى قبوله الإيمان المسيحي بالإله الواحد والثالوث الأقدس، وانه يعترف جهارا وعلنا هذا الإيمان أمام الجميع، وانه يفخر بالانتساب إلى هذا الاسم المبارك والولاء الكامل المطلق غير المشروط البتة له، على انه ينبغي في الوقت عينه أن نذكر إن أهمية المعمودية ومجدها يرجعان في الدرجة الأولى، لا إلى المعتمد أو من عمده، بل إلى جلال هذا الاسم وعظمته، ولذا فلا يجوز البتة تكرار المعمودية لمسيحي عمد بهذا الاسم الكريم، إذا في هذا انتقاص واستخفاف وازدراء بذات الاسم الجليل المطبوع على المعتمد من قل.. هذا من جهة من يطلب أن يعمد المعتمد مرة أخرى، أما من جهة المعتمد نفسه فعليه أن يدرك انه لم يضح بالمعمودية ملكا لنفسه أو العالم، بل أضحى ملكا خاصا لله، وانه لم يعد فيه أو لهما يمكن أن يكون بعيدا عن سلطان هذا الختم ونطاقه. وفي رسالة منسوبة إلى اكليمندس الروماني من أوائل التاريخ المسيحي قوله: "المعمودية ختم لا يفض وقد قيل عمن لا يحافظ على سلامة هذا الختم أن دودهم لا يموت ونارهم لا تطفأ"..ولذلك كان من الخطأ آن يعد سكسون شرلمان عندما قبلوا الإيمان المسيحي أن يعتمدوا على شرط واحد يعلنوه أمام المعمودية، وعندما اعتمدوا في النهر غطسوا بأكملهم إلا أذرعهم اليمنى

المحاربة، التي أبو أن يخضعوها لأمر ولسلطان المعمودية... ومن المؤسف أن يتكرر هذا الأمر في حياة الملايين من المسيحيين الذين لهم هذه الفرصة طقس بولاء ناقص، أو من غير ولاء على وجه الإطلاق..

ثانيا – رمز الامتياز: إذا إن المعمودية باسم "الأب والابن والروح القدس" ليست ختما للملكية فحسب، لكنها رمز لأعظم امتياز يمكن أن يناله بشري على الأرض، إذا إن المعتمد باسم الأب له كل بركات الأبوة الإلهية وخيراتها ومزاياها، من خلق وعناية وحفظ ورعاية وحراسة وشرف ومجد، والمعتمد باسم الابن له كل آثار الفداء وغناه وجلاله وعظمته ومجده، والمعتمد باسم الروح القدس له كل ما يمكن أن يفعل الروح من تقوية وتشجيع وتأثير وفاعلية.. وهل هو قليل أن يتمتع الإنسان بمثل هذه البركات المجيدة العظمى!!؟

ثالثا- خلاص من الدينونة: والمعمودية هنا رمز لهذا الخلاص من الدينونة، وقد جاءت الإشارة إلى هذا في خلاص نوح وبيته بفلك النجاة، كما ذكر الرسول بطرس في القول: "١٩ الَّذِي فِيهِ أيضا ذَهَبَ فَكَرَزَ لِلأَرْوَاحِ الَّتِي فِي السِّجْنِ، ٢٠ إذا عَصَتْ قَديماً، حِينَ كَانَتْ أَنَاةُ اللهِ تَنْتَظِرُ مَرَّةً فِي أَيَّامِ نُوحٍ، إذا كَانَ الْفُلْكُ يُبْنَى، الَّذِي فِيهِ خَلَصَ قَلِيلُونَ، أَيْ ثَمَانِي أَنْفُسٍ بِالْمَاءِ. ٢١ الَّذِي مِثَالُهُ يُخَلِّصُنَا نَحْنُ الآنَ، أَيِ الْمَعْمُودِيَّةُ. لاَ إِزَالَةُ وَسَخِ الْجَسَدِ، بَلْ سُؤَالُ ضَمِيرٍ صَالِحٍ عَنِ اللهِ بِقِيَامَةِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ. "(١بط٣: ١٩-٢١)، وكما انسكب الماء على الفلك من كل جانب، وجازت تياراته عليه، ولكنه ارتفع فوقها، هكذا المؤمنون، جازوا في المسيح فلك النجاة، تحت تيارات غضب الله، ونالوا خلاصهم ونجاتهم، في موته الكفاري، والمعمودية ترمز إلى ذلك وتشير، لا بالمظهر الخارجي، من ناحية إزالة وسخ الجسد، بل بالحقيقة الداخلية، التي فيها يؤمن المؤمن بموت المسيح وقيامته، الذي اسلم لأجل خطايانا وأقيم لأجل تبريرنا..

رابعا – ختان الحياة والانعزال عن العالم: فإذا تحولنا من أيام نوح إلى أيام إبراهيم رأينا المعمودية تأخذ مكان الختان، بنفس المعنى الذي اخذ فيه العشاء الرباني مكان الفصح، فقد كان العهد بين إبراهيم والله عهدا أبديا، كما قيل: "يُخْتَنُ خِتَاناً وَلِيدُ بَيْتِكَ وَالْمُبْتَاعُ بِفِضَّتِكَ فَيَكُونُ عَهْدِي فِي لَحْمِكُمْ عَهْداً أَبَدِيّاً." (تك١٧: ١٣).. والعهد الأبدي لا يمكن أن ينقض، إنما يأخذ صورته الروحية في المعمودية، ولهذا جاء قول الرسول: "١١ لِئَلاَّ يَطْمَعَ فِينَا الشَّيْطَانُ، لأَنَّنَا لاَ نَجْهَلُ أَفْكَارَهُ. ١٢ وَلَكِنْ لَمَّا جِئْتُ إِلَى تَرُوَاسَ، لأَجْلِ إِنْجِيلِ الْمَسِيحِ وَانْفَتَحَ لِي بَابٌ فِي الرَّبِّ." (٢كو٢: ١١، ١٢) ولا نزاع في إن الرسول هنا يضع المعمودية مكان الختان، فإذا قيل إن الختان في العهد القديم كان للذكور فقط، قلنا إن ذلك يرجع إلى إن الذكر كان رمزا لرعوية شعب الله، أما في المسيح فلا ذكر أو أنثى، إذا الجميع سواء، ولهذا السبب فنحن أيضاناكل المسيح فصحنا في العشاء الرباني، بالمعنى الروحي السامي، الذي يختلف عن الفصح..وكما إن الختان كان يرمز إلى الانفصال عن العالم، ودحرجة العار أو الشر التي تشير إليه العزلة، فان المعمودية التي حلت محل الختان، أشبه بالدفن مع المسح في القبر بعد الصلب، والقيام بحياة جديدة مباركو، معزولة عن الحياة الأولى.

خامسا – اعداد للمجد: وهذا يحولنا من أيام نوح وإبراهيم إلى أيام موسى إذا يقول الرسول بولس :" ٢وَجَمِيعَهُمُ اعْتَمَدُوا لِمُوسَى فِي السَّحَابَةِ وَفِي الْبَحْرِ ٣وَجَمِيعَهُمْ أَكَلُوا طَعَاماً وَاحِداً رُوحِيّاً(١كو١٠: ٢، ٣) وهذه المعمودية، كما يشير إليها الرسول بولس، وكما كان يعتقد الربيون اليهود، كانت تعني غسل ألامه بأكملها، حتى يمكن الدخول إلى ارض الموعد، ولذلك أحاط بها البحر وظللتها سحابة السماء، والواضح إن المعمودية هنا كانت للكبار والصغار من المنتسبين إلى رعوية شعب

الله، شانها شان الختان الذي أشير إليه، وكان للكبار والصغار معا، الذين سقطت جثثهم في البرية، لعدم إيمانهم وتمردهم على الله.

سادسا- علامة ظاهرية: والمعمودية من ظاهر ما سبق علامة ظاهرية تدل على حقيقة داخلية، وغير خاف إن هذه العلامة لا تشير بالضرورة إلى الحقيقة الداخلية، إذا لا تلازم حتمي بين الاثنين بنص الكتاب، والواقع، فلو إن المعمودية كانت شرطا للخلاص لتحتم قيامها في العهد القديم إلى جانب الختان أو بدلا عنه.. وكما إن الختان لم يكن إلا رمزا أو إشارة إلى الإيمان، وليس بديلا عن هذا الإيمان أو يغني عنه كما أشار الرسول بولس بالقول:" ٢٥فَإِنَّ الْخِتَانَ يَنْفَعُ إِنْ عَمِلْتَ بِالنَّامُوسِ. وَلكِنْ إِنْ كُنْتَ مُتَعَدِّيًا النَّامُوسَ فَقَدْ صَارَ خِتَانُكَ غُرْلَةً! ٢٦إِذًا إِنْ كَانَ الأَغْرَلُ يَحْفَظُ أَحْكَامَ النَّامُوسِ أَفَمَا تُحْسَبُ غُرْلَتُهُ خِتَانًا؟ ٢٧وَتَكُونُ الْغُرْلَةُ الَّتِي مِنَ الطَّبِيعَةِ وَهِيَ تُكَمِّلُ النَّامُوسَ تَدِينُكَ أَنْتَ الَّذِي فِي الْكِتَابِ وَالْخِتَانِ تَتَعَدَّى النَّامُوسَ؟ ٢٨لأَنَّ الْيَهُودِيَّ فِي الظَّاهِرِ لَيْسَ هُوَ يَهُودِيًّا، وَلاَ الْخِتَانُ الَّذِي فِي الظَّاهِرِ فِي اللَّحْمِ خِتَانًا ٢٩بَلِ الْيَهُودِيُّ فِي الْخَفَاءِ هُوَ الْيَهُودِيُّ، وَخِتَانُ الْقَلْبِ بِالرُّوحِ لاَ بِالْكِتَابِ هُوَ الْخِتَانُ الَّذِي مَدْحُهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ بَلْ مِنَ اللهِ.(رو٢: ٢٥-٢٩). فإذا كان من الثابت إن إبراهيم دخل الإيمان وهو اغر، وان الختان لم يكن إلا العلامة الظاهرية لهذا الإيمان، وانه لم يعرف وغيره من المؤمنين في العهد القديم المعمودية كعلامة الدخول إلى الشركة المقدسة، إن الختان مع كونه العلامة التي يتحتم إظهارها في الجسد عند كل إسرائيلي إلا أنها لم تكن بشهادة الرسول دليل الإيمان وبرهانه، إذا وجد على العكس من ذلك بين الأمم من قبل وهو اغرل أمام الله لأنه كان مختون الحياة والقلب.. إذا كانت هذه الحقائق كلها واضحة أدركنا إن المعمودية لا يمكن أن تكون إلا علامة ظاهرية لا غنى لها عن الإيمان أو فعل بدونه، وانه إذا استحال أو تعذر ممارستها لسبب من الأسباب فان الإيمان هو الشرط الوحيد للخلاص والتمتع بالأبدية.. وواضح كل الوضوح إن اللص الذي تاب وأمن وانطلق مع سيده إلى الفردوس في ذات يوم الصليب لم يعلق دخوله إلى المجد على أساس هذه المعمودية، كما لا يمكن أن يقال بتاتا إن في هذه العلامة الظاهرية، فاعلية ذاتية، وان كل من يعتمد ينال الخلاص، إذا فضلا عما في هذا القول من إهدار بشع للإيمان كالسبيل الوحيد للخلاص، فان الواقع والاختيار يصرخان على الدوام ضده، إذا يستحيل إن ملايين الفجار والآثمة والأشرار الذين كانت حياتهم مجموعة من الرزيلة والفساد، يستحيل إن يقال إن هؤلاء يخلصون لمجرد إن الكنيسة عمدتهم صغارا كانوا أم كبارا في يوم من الأيام. فإذا ظن البعض إن قول المسيح لنيقوديموس يسعف حجتهم عندما قال: "«اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللَّهِ. (يو٣: ٥). قلنا إن هذه الحجة ضدهم لا معهم، إذا إن المسيح إن صح انه يشير هنا إلى المعمودية بالماء، بين عدم كفايتها وجدواها من غير الولادة من الروح، وبما إن الولادة من الروح لا تخضع لقاعدة أو مشورة بشرية إذا : "٨اَلرِّيحُ تَهُبُّ حَيْثُ تَشَاءُ وَتَسْمَعُ صَوْتَهَا لَكِنَّكَ لاَ تَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ تَأْتِي وَلاَ إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ. هَكَذَا كُلُّ مَنْ وُلِدَ مِنَ الرُّوحِ». (يو٣: ٨). تبين سقوط القول إن المعمودية ذات مفعولية ذاتية، ومجددة بمجرد حدوثها.. في الواقع إن إشارة المسيح هنا للماء إشارة رمزية للتطهير والاغتسال الذي يصاحب الولادة الجديدة، ويتأكد هذا مما فعله عندما غسل أرجل التلاميذ عشية ذلك اليوم الذي اسلم فيه، وقوله لبطرس الذي اعترض على غسل رجليه : "٨قَالَ لَهُ بُطْرُسُ: «لَنْ تَغْسِلَ رِجْلَيَّ أَبَدًا!» أَجَابَهُ يَسُوعُ: «إِنْ كُنْتُ لاَ أَغْسِلُكَ فَلَيْسَ لَكَ مَعِي نَصِيبٌ».... ١٠قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «الَّذِي قَدِ اغْتَسَلَ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ إِلاَّ إِلَى غَسْلِ رِجْلَيْهِ بَلْ هُوَ طَاهِرٌ كُلُّهُ. وَأَنْتُمْ طَاهِرُونَ وَلَكِنْ لَيْسَ كُلُّكُمْ».(يو١٣: ٨ و ١٠). ومستحيل أن يكون المسيح قد قصد بمجرد هذا العمل الظاهر الخارجي الذي عمله مع التلاميذ، مما يغني عن الحقيقة الداخلية الأساسية المرموز إليها بغسل الأرجل بالماء. ومن كل هذا يتبين إن المعمودية ليست إلا رمزا ظاهريا يشير إلى مرموز داخلي في حياة الإنسان وقلبه.

سابعا- مسئولية حتمية: وأخر ما تشير إليه المعمودية في معناه المسيحي هو مسئولية المعتمد تجاه من له، ممن لم يدرك بعد معنى المسئولية، أو في لغة أخرى مسئولية المعتمد تجاه الأطفال الصغار وضرورة تنشئتهم وتربيتهم في الحياة المسيحية.. ومن هنا سار التساؤل: هل تجوز معمودية الأطفال؟ وقد وقفت بعض المذاهب المسيحية ضد هذه المعمودية، بدعوى إن الأساس في المعمودية أنها رمز يشير إلى حقيقة، وما لم تثبت الحقيقة فلا يصح الإشارة إليها برمز، كما قالوا إن المعمودية تلحق بالإيمان، لا العكس، إذا جاء قول السيد: "من امن واعتمد خلص" (مر١٦: ١٦). وأضافوا إن الخصي الحبشي، وليديا، وسجان فيلبي وغيرهم عمدوا بعد قبل الإيمان، وعليه فلا يجوز معمودية الصغار ممن لم يدركوا بعد الإيمان المسيحي والولادة الجديدة.. وكل ما قيل هنا حق تماما فيما يتعلق بمعمودية الكبار والبالغين، غير إن من يرفضون معمودية الصغار فاتتهم بعض الحقائق الكتابية الأخرى وهي:

أولا: إن المعمودية حلت محل الختان في العهد القديم كما سلفت الإشارة، وان الختان كان يشمل بالأمر الإلهي الكبار والصغار معا، وكان من المفروض ن يختتن الأب ابنه في اليوم الثامن من ميلاده، إذا تحسب عليه رعوية شعب الله من قبل إن يعرف خيرا أو شرا، وان الأب مسئول عن تعليم الابن وتنشئته في الإيمان حتى يدرك هذا الابن مسئوليته، فتتحول العلاقة مباشرة بينه وبين الله، وبهذا المعنى عينه يتحمل الأب المسيحي مسئوليته عن ابنه، حتى تنتقل هذه المسئولية بالإدراك إلى الابن بوعيه ومعرفته.. ومن الغريب إن يسلم هؤلاء الذين يرفضون المعمودية للصغار بمسيحية أولادهم في شهادات ميلاد هم في مختلف الأقطار والبلاد، فيكتبون أمامهم أنهم مسيحيون، ولو ساروا وراء ذلك المنطق والمبدأ الذي اعتنقوه في المعمودية لكتبوا أمام الدين لا دين لهم، حتى يتبين إن كانوا سيصبحون مسيحيين حقا أم لا. في الواقع انه لا مندوحة في إن تبسط الكنيسة المسيحية ظلها على الكبار والصغار معا، أما الكبار فعلى أساس المستولية الذاتية والإدراك الواعي، أما الصغار فعلى أساس المسئولية العائلية للوالدين أو لأحدهما، كما جاء في قول الرسول: "١٤لأَنَّ الرَّجُلَ غَيْرَ الْمُؤْمِنِ مُقَدَّسٌ فِي الْمَرْأَةِ وَالْمَرْأَةُ غَيْرُ الْمُؤْمِنَةِ مُقَدَّسَةٌ فِي الرَّجُلِ - وَإِلاَّ فَأَوْلاَدُكُمْ نَجِسُونَ. وَأَمَّا الآنَ فَهُمْ مقدس. (١كو٧: ١٤).

ثانيا: إن الرسل لم يترددوا قط بناء على هذه القاعدة لا في تعميد رب البيت ممن قبل الإيمان المسيحي، بل في تعميد البيت كله، باعتبار إن دخول الإيمان إلى البيت يشمل جميع من فيه بالتبعية. ولو إن قاعدة معمودية الكبار ممن ثبت إيمانهم كانت قائمة في أذهان الرسل لما عمدوهم إلا إفرادا، ولتريثوا في اقل القليل في معمودية الآخرين من أهل البيت، غير إننا نرى ليديا لما قبلت الإيمان " اعتمدت هي وأهل بيتها" (اع١٦: ١٥). وكذلك سجان فيلبي الذي قيل عنه: " واعتمد في الحال هو والذين له أجمعون" (اع١٦ : ٣٣). وبيت استفانوس أيضا: "وعمدت أيضا بيت استفانوس" (١كو١: ١٦).

ثالثا: وأكثر من ذلك فقد وجدت عادة قديمة شاعت أيام الاضطهاد، إذا كان يحدث إن يؤمن البعض بالمسيح، وقبل إن يعمدوا كانوا يستشهدون، فنشأت عادة المعمودية بالنيابة التي أشار إليها الرسول في القول: " وإلا فماذا يصنع الذين يعتمدون من اجل الأموات، إن كان الأموات لا يقومون البتة فلماذا يعتمدون من اجل الأموات."(١كو١٦: ٣٩). ومع ذلك لم يتبن في كلام الرسول تأييده أو اعتراضه على هذه العادة، إلا إن أهميتها التاريخية لا تخفى على البال، فإذا كانت معمودية الموتى النيابية جائزة أفلا تجوز معمودية الأطفال تحت وصاية ومسئولية إبائهم المسيحيين.

رابعا: فإذا رجعنا إلى واقع التاريخ المسيحي، رأينا بما لا يقبل منازعة، إن معمودية الصغار كانت الفريضة المسيحية التي مارستها العائلات المسيحية منذ فجر التاريخ المسيحي، ففي أواخر القرن الثاني المسيحي، كان الخلاف بين كبريانوس

وترتليانوس، إن كبريانوس كان يصر على تعميد الطفل حتى اليوم الثامن من عمره، بينما يطلب ترتليانوس إن يعمد الطفل عندما يعي معنى المعمودية، ونحن لا يعنينا مدى الخلاف بين الاثنين إلا في إثبات إن الكنيسة المسحية كانت تعمد منذ البداءة الأطفال من صغرهم، ثم جاء غريغوري النايزنزي بعد ذلك مصرا على إن نضع ختم المعمودية على أولادنا، لكي نعدهم من الطفولة المبكرة للحياة المسيحية والإيمان المسيحي، كما إن امبروز حتم بالمعمودية الصغار لا لتطهيرهم من خطاياهم الموروثة، بل لإعدادهم لملكوت الله، وأكد اغسطينوس الخطية الأصلية في الأطفال، وان المعمودية رمز يشير إلى اغتسالهم منها بالإيمان المسيحي فيما بعد. وسار جيروم أيضا وراء تعليم اوغسطينوس في هذا الشأن.. وأيا كانت أفكار أو تفسيرات هؤلاء القديسين القدامى، مما لا يقبل الجدال في التاريخ المسيحي أعلن منذ بدء المسيحية معمودية الأطفال.

٣- المعمودية وكيفية ممارستها

أما وقد أدركنا معنى المعمودية ومدلولها بالنسبة للكبار والصغار معا، تعين السؤال بعد ذلك عن كيفية ممارستها، وهذا يقتضينا معرفة من يحق له تعميد الآخرين، وبأي صورة يتم هذا العماد.

أما من جهة من يتولى المعمودية فواضح إن المسيح ترك الأمر للتلاميذ الذين يتولون تبشير الآخرين وتحويلهم إلى الإيمان المسيحي: "١٩فَاذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الآبِ وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ." (مت٢٨: ١٩) وقد مارس فيلبس هذا الحق وهو شماس مع الخصي الحبشي وزير كنداكة: "فنزلا كلاهما إلى الماء فيلبس والخصي فعمده" (اع٨: ٣٨). وقد بين الرسول بولس إن له هذا الحق، وان كان قد درج على عدم القيام به كثيرا، إذا قال: "١٤أَشْكُرُ اللهَ أَنِّي لَمْ أُعَمِّدْ أَحَداً مِنْكُمْ إِلاَّ كِرِيسْبُسَ وَغَايُسَ ١٥حَتَّى لاَ يَقُولَ أَحَدٌ إِنِّي عَمَّدْتُ بِاسْمِي. ١٦وَعَمَّدْتُ أيضا بَيْتَ اسْتِفَانُوسَ. عَدَا ذَلِكَ لَسْتُ أَعْلَمُ هَلْ عَمَّدْتُ أَحَداً آخَرَ ١٧لأَنَّ الْمَسِيحَ لَمْ يُرْسِلْنِي لأُعَمِّدَ بَلْ لأُبَشِّرَ."بل لأبشر(١كو١: ١٤ - ١٧). ومن كل ما ذكر يتبن إن القيام بالمعمودية ليس حقا مشاعا لكل مسيحي بل هو للمخصصين للكرازة وللرعاة، وان كان في الوقت نفسه لم يعط الرسول هذا العمل ذات الأهمية التي أعطاها للكرازة والتبشير، ومع إن عمل الشماس الأساسي لا يتصل بقريب أو من بعيد بعملية المعمودية، إلا أن فيلبس الشماس قام به في البرية، مما يشجع على الاعتقاد بأنه في مثل هذه الحالات التي يتعذر فيها وجود رعاة وخدام للكلمة يجوز أن يتولى القيام بالمعمودية أي مسيحي من المؤمنين المتقدمين.

أما بأي صورة تتم المعمودية، وهل بالتغطيس أو بالسكب أم بالرش؟ فواضح إن الكتاب لم يعين صورة محددة للأمر، ومع ذلك فان بعض المذاهب المسيحية تصر على التغطيس مأخوذة، تدري أو لا تدري، بمعمودية يوحنا التي درج على القيام بها في نهر الأردن، وان المسيح اعتمد هناك، ومع إن المعمودية تختلف إلى حد ما عن المعمودية المسيحية، فإنها لم تعطنا صور قاطعة عن كيفية ممارسة يوحنا لها في ذلك الوقت، وهب إن معمودية يوحنا كانت بالتغطيس لوجوده على مقربة من النهر، فهل يستطيع احد أن يقطع أن معمودية الثلاثة آلاف يوم الخمسين كانت بالتغطيس!؟ وأين حدث هذا؟وكيف تم في يوم واحد وفيهم الرجال والنساء والكبار والصغار معا؟!!. ومن ذا الذي يمكن أن يجزم إن معمودية بولس في بيت يهوذا في دمشق" (اع٩: ١٨) " ومعمودية كرينليوس في بيته" (اع١٠: ٤٨) كانت جميعا بالتغطيس؟ قد يقول البعض أن التغطيس يرجع إلى القول: "فدفنا معه في المعمودية للموت" (رو٦: ٤) غير إن هذه الحجة قد تكون قاطعة في تأكيد التغطيس كالوسيلة الوحيدة للمعمودية، إذا تنهض في مواجهتها حجة أخرى مفادها، إن "الغسل" الذي استعملت فيه ذات الكلمة المخصصة للمعمودية واشرنا إليها في (مر٧: ٤)، (عب٩: ١٠)، لا يمكن أن يفيد التغطيس، إذا لا يعقا أن جميع الأواني المشار إليها

والأطعمة تغسل بالتغطيس حتى ولو كانت أسرة. وعليه فحيث أن اللفظ لا يقطع بالاغتسال بوسيلة معينة، وحيث انه لا يوجد نص صريح يعين طريقة المعمودية وصورتها، حيث أن الأساس هو في المعمودية ذاتها، لا في الصورة التي تمارس بها، كان القول بالتغطيس دون غيره تحميلا للمعاني الكتابية أكثر مما تحتمل، وكان من الجائز ممارسة المعمودية على أي صورة ممكنة من التغطيس أو السكب أو الرش على حد سواء.

٤ـ المعمودية وأهمية ممارستها

وأخر ما نذكر عن المعمودية هو أهميتها وضرورة ممارستها، ولا حاجة إلى القول أن هذه الأهمية ترجع إلى بادئ ذي بدء إلى أمر المسيح الواضح الصريح بممارستها والى المعاني المتعددة المتضمنة لها، والى جلالها في جمع شمل المسيحيين جميعا تحت راية الولاء للرب يسوع المسح، وربطهم بعضهم البعض من كل امة وجنس ولسان، مما يمكن معه القول: "رب واحد وإيمان واحد ومعمودية واحدة" (اف٤: ٥). فإذا قلل احد من معنى هذه الممارسة أو وجوبها بقصد أو من غير قصد، ارتكب من غير شك خطأ فاحشا بل وخطيئة نكراء، وإذا امتنع أي شخص ينتسب إلى المسيحية عن قبولها، وليس ثمة ما يعطل أو يجعل ممارستها متعذرا كان مرتكبا ذات الخطى أو الخطية.

على انه في الوقت ذاته لا خطا أو خطية على المؤمن المسيحي الذي تعلق بالإيمان ومات قبل أن تتاح له الفرصة لممارستها، كما اشرنا أنفا إلى اللص التائب أو الشهداء، ولا خطا أو خطية كذلك على الأطفال الصغار الذين يموتون دون معمودية، إذا أن خلاصهم متحقق بفداء المسيح الذي رفع عنهم على الصليب، عقوبة الخطية الموروثة من ادم، وبما أن هؤلاء الأطفال لم يمارسوا أية خطية فعلية، وعدالة الله لا يمكن أن تحاسبهم على ذنب لم يجنوه، ومسئولية لم يعرفوها أو يختبروها، وعمل لم يأتوا به أو يقصدوه، كان القول بان موتهم دون معمودية لا يعطيهم الخلاص، ليس مجافيا فقط لكل منطق، بل فيه تعريض غير كريم وشنيع بجميع الصفات الإلهية المنسوبة إلى الله. وحاشا لذاته الإلهية الكريمة من ذلك!!..

ولعلنا لا نعجب بعد كل ما ذكر عن هذه الفريضة من اخذ مكانتها السامية الأساسية الهامة في الإيمان المسيحي.

ثانيا : فريضة العشاء الرباني

والفريضة المسيحية الثانية التي أمر بها الرب يسوع هي فريضة العشاء الرباني ويمكن متابعة هذه الفريضة فيما يلي:

١ـ العشاء الرباني ومعناه المسيحي

وللعشاء الرباني بالنسبة للمسيحيين أكثر من معنى فهو:

أولا: "عهد" بين المسيح وإتباعه وتلاميذه من المؤمنين في كل جيل وعصر، وهو مكتوب بالدم، عهد الجود والإحسان والغفران. وهو بهذا المعنى أكثر عمقا وابعد امتدادا عن العهد الذي قام بين الله وشعبه عندما اخذ موسى: "٧وَأَخَذَ كِتَابَ الْعَهْدِ وَقَرَأَ فِي مَسَامِعِ الشَّعْبِ. فَقَالُوا: «كُلُّ مَا تَكَلَّمَ بِهِ الرَّبُّ نَفْعَلُ وَنَسْمَعُ لَهُ». ٨وَأَخَذَ مُوسَى الدَّمَ وَرَشَّ عَلَى الشَّعْبِ وَقَالَ: «هُوَذَا دَمُ الْعَهْدِ الَّذِي قَطَعَهُ الرَّبُّ مَعَكُمْ عَلَى جَمِيعِ هذِهِ الأَقْوَالِ». (خر٢٤: ٧، ٨). وغير خاف أن العشاء الرباني حل محل الفصح اليهودي، ويأخذ في الحياة المسيحية معنى أعمق أثرا وابعد مدى من الفصح القديم، إذا أن الفصح القديم في كل طقسيته وفروضه لم يكن إلا رمزا للمسيح: "فصحنا الذي ذبح من اجلنا". وقد كان الفصح عند اليهود يبدأ من ١٤ نيسان، وهذا الشهر

أضحى أول شهور السنة العبرية، إذا هو بمثابة مولد الأمة وتاريخها الجديد، وكانوا يأتون بحمل بلا عيب، ذكر، ابن سنة، ويضعونه تحت الحفظ إلى اليوم الرابع عشر ثم يذبحه الجمهور ويأخذون من الدم ويجعلونه على القائمتين والعتبة العليا إشارة إلى الفداء بالدم، المعد بترتيب سابق، كما كانوا يأكلون الحمل على إعشاب مرة، رمزا للتخلص من حياة العبودية ويأكلون الفطير معيدين: "٨إِذاً لِنُعَيِّدْ لَيْسَ بِخَمِيرَةٍ عَتِيقَةٍ وَلاَ بِخَمِيرَةِ الشَّرِّ وَالْخُبْثِ بَلْ بِفَطِيرِ الإِخْلاَصِ وَالْحَقِّ. ٨إِذاً لِنُعَيِّدْ لَيْسَ بِخَمِيرَةٍ عَتِيقَةٍ وَلاَ بِخَمِيرَةِ الشَّرِّ وَالْخُبْثِ بَلْ بِفَطِيرِ الإِخْلاَصِ وَالْحَقِّ." (١كو٥: ٨) وكانوا يفعلون كل هذا واحقاؤهم ممنطقة وعصيهم في أيديهم رمزا للتخلص من كل عائق والتأهب للانطلاق إلى ارض الموعد.. وهذه الإشارات كلها تساعد -في المجال المسيحي- على إدراك معنى العهد القائم بيننا وبين سيدنا، إذا هو عهد الدم المسفوك عنا على الصليب، والمعروف والمعد في علم الله السابق قبل تأسيس العالم، والذي يشير إلى ولائنا الكامل المطلق للسيد والاستعداد التام لتنفيذ ما يطلبه منا، مهما يكن الثمن الذي ندفعه في سبيل هذا الطلب.

ثانيا: شركة كما يقول الرسول: "١٦كَأْسُ الْبَرَكَةِ الَّتِي نُبَارِكُهَا أَلَيْسَتْ هِيَ شَرِكَةَ دَمِ الْمَسِيحِ؟ الْخُبْزُ الَّذِي نَكْسِرُهُ أَلَيْسَ هُوَ شَرِكَةَ جَسَدِ الْمَسِيحِ؟ (١كو١٠: ١٦)أي أن العشاء في قوة هذا العهد يتحول إلى شركة دائمة حية مستمرة تقوم بيننا وبين سيدنا وبين بعضنا مع البعض، فكلما نتناول العشاء نذكر هذه الشركة العظيمة المباركة، ومن الواضح أن المسيح أسس هذه الشركة وطبعها بطابع خاص مميز، فهو لم يربطنا بنفسه ويبعضنا البعض بشيء عام مما تركه في حياته من تعاليم أو مبادئ أو مثل، مع إنها جميعا وبلا شك ترسم معالم المسيحية.. ولكنه خصص بالذات الشيء الأهم في المسيحية ليكون أساس هذه الشركة ومظهرها وطابعها ورسمها المعين أمام جميع الناس، ونعني به الفداء عندما بذل جسده وحياته من اجلنا...

ثالثا: "شكر" أو "افخارستيا" وقد اخذ هذا اللقب عندما : "اخذ يسوع وبارك. واخذ ألكاس وشكر" (مت٢٦: ٢٦، ٢٧). ومن ثم دعي كاس البركة أو كاس الشكر، وقد بارك المسيح الخبز وقد شكر على ألكاس، لأجل تدبير الله العظيم للخلاص، ولأجل محبته العظمى التي سارت بها إلى الصليب، ولأجل فداء الملايين من المخلصين وأبناء الله في كل جيل وعصر.. وهل نكون نحن ممن تناول هذا العشاء الرباني المجيد اقل إحساس بالشكر أم نهتف من الأعماق : "فشكر لله على عطيته التي لا يعبر عنها" (٢كو٩: ١٥).

رابعا: "تذكار": "١٩وَأَخَذَ خُبْزاً وَشَكَرَ وَكَسَّرَ وَأَعْطَاهُمْ قَائِلاً: «هَذَا هُوَ جَسَدِي الَّذِي يُبْذَلُ عَنْكُمْ. اِصْنَعُوا هَذَا لِذِكْرِي».(لو٢٢: ١٩) ولعله من اللازم أن نعلم أن هذه الذكرى ليست مجرد ذكرى تاريخية للصليب بل هي تذكار حي فال يقوم إمام ذهن الإنسان ومشاعره ويبدو في الصليب اختبارا متجددا في الحياة يمكن إزاءه القول: "٢٠مَعَ الْمَسِيحِ صُلِبْتُ، فَأَحْيَا لاَ أَنَا بَلِ الْمَسِيحُ يَحْيَا فِيَّ. فَمَا أَحْيَاهُ الآنَ فِي الْجَسَدِ فَإِنَّمَا أَحْيَاهُ فِي الإِيمَانِ، إِيمَانِ ابْنِ اللهِ، الَّذِي أَحَبَّنِي وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لأَجْلِي.(غل٢: ٢٠).

خامسا: "تقدمة" وكثيرا ما أطلق على العشاء الرباني "التقدمة"

إذا كان يشير كما سلف القول إلى عطية الله التي لا يعبر عنها، وقد ألف المسيحيون أن يقرنوا ممارستهم للمائدة بالكثير من العطايا والمتقدمات التي درجوا على تقديمها للكنائس والفقراء عرفانا بالجميل وتذكارا وإجلالا لعطية الله العظمى والمباركة في المسيح.

هذه هي أشهر معاني العشاء الرباني ومدلولاته عند المسيحيين

٢- العشاء الرباني واستحقاق تناوله

أما وقد أدركنا معاني العشاء الرباني عند المسيحيين تعين أن نسال بعد ذلك من يجوز له تناوله هذا العشاء؟ وواضح:

أولا:إن هذا العشاء للمؤمنين، إذا لا يجوز لغيرهم تناوله. وكيف يستطيع هذا الغير الاشتراك في مائدته وهو كما أسلفا القول بمثابة العهد والشركة والشكر والتذكار والتقدمة لكل متناوليه. ومن المعتقد أن يهوذا الاسخريوطي لهذا السبب، وان كان قد تناول من الفصح، إلا انه لم يتناول من العشاء، إذا خرج من صفوف التلاميذ بعد أن أعطاه السيد اللقمة، ودخله الشيطان، وبقى التلاميذ مع سيدهم ليمارسوا أول فريضة للعشاء الرباني في كل التاريخ.

ثانيا: ويشترط في المؤمنين أيضا أن يكونوا مجهزين للعشاء ومستعدين، أو في لغة أخرى ينبغي أن يشعروا بالاستحقاق للاقتراب من المائدة: "٢٧إِذاً أَيُّ مَنْ أَكَلَ هَذَا الْخُبْزَ أَو شَرِبَ كَأْسَ الرَّبِّ بِدُونِ اسْتِحْقَاقٍ يَكُونُ مُجْرِماً فِي جَسَدِ الرَّبِّ وَدَمِهِ!!... ٢٩لأَنَّ الَّذِي يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ بِدُونِ اسْتِحْقَاقٍ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ دَيْنُونَةً لِنَفْسِهِ غَيْرَ مُمَيِّزٍ جَسَدَ الرَّبِّ.(١كو١١: ٢٧، ٢٩) وما من شك بان كلمة "استحقاق" قد أثارت عند الكثيرين من المسيحيين ارتباكا وحيرة وقلقا، إذا متى يمكن أن يكون الإنسان مستحقا لتناول المائدة أو غير مستحق!!.. ومن الثابت بادئ ذي بدء إن الاستحقاق هنا ليس الاستحقاق الذاتي، إذا ليس فينا واحد على الإطلاق له في ذاتيته أو شخصه ما يؤهله من الاقتراب من المائدة، إذا إن أساس الاقتراب إليها هو الخلوة من كل بر ذاتي، والحاجة إلى الفداء بالدم.. إن الاستحقاق هنا – على العكس – هو الاستحقاق النيابي الذي يندمج فيه الإنسان في شخص فاديه، فيحسب استحقاق المسيح استحقاقا له وبر المسيح برا كاملا لشخصه. ولهذا السبب عينه ينبغي ألا يفهم من الاستحقاق معنى الكمال وإلا لما حق لمخلوق أن يجلس على المائدة، ولما وجد واحد من تلاميذ المسيح القدامى آهلا للاقتراب منها. أو كما قال واتكنسن بحق: "كم كان هؤلاء التلاميذ غير مستحقين، فتوما الشاك، وبطرس المتهور الضعيف، ويوحنا الحاد العاطفة، كل منهم كانت له بقعة سوداء في قلبه. لكن السيد رأى وراء أخطاءهم إمكانيتهم اللامعة، فدعاهم إلى مائدته وشركته ولأجل ذلك شربوا. وهكذا نحن الآن ولو إن المسيح دعا الكاملين إلى مائدته لجلس هو وحده عليها، ولكنه قبل نفوس مخلصة، مهما تكن أخطاؤها". لقد سمح المسيح لتلاميذه بالتناول من المائدة الربانية رغم علمه بأنهم سيهربون منه وشيكا ويتركونه لمواجهة الصليب، إذا أدرك في الوقت ذاته مدى محبتهم له، وعدم إصرارهم على خطية معينة يمكن أن تعطل إيمانهم وتفصم ربطهم وولائهم به. أو في لغة أخرى أن المسيح على استعداد أن يقدم المائدة لكل نفس تأتي مقرة بضعفها تنشد الاقتراب أكثر فأكثر منه، ومن صليبه وروحه ومجده، أما الاقتراب إلى المائدة باستهتار وعدم مبالاة فلا يمكن أن يذهب دون عقاب من الله. ومن ثم رأينا الرسول بولس يرجع أسباب الفشل والاضطراب والموت عند الكثيرين لهذا السبب إذا يقول: "٣٠مِنْ أَجْلِ هَذَا فِيكُمْ كَثِيرُونَ ضُعَفَاءُ وَمَرْضَى وَكَثِيرُونَ يَرْقُدُونَ. ٣١لأَنَّنَا لَوْ كُنَّا حَكَمْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا لَمَا حُكِمَ عَلَيْنَا ٣٢وَلَكِنْ إِذْ قَدْ حُكِمَ عَلَيْنَا نُؤَدَّبُ مِنَ الرَّبِّ لِكَيْ لاَ نُدَانَ مَعَ الْعَالَمِ. (١كو ١١: ٣٠-٣٢).

٣- العشاء الرباني ومعنى تناوله

والسؤال الآن: بأي معنى يتناول المؤمنون هذا العشاء؟ إذا اختلف المسيحيون في فهم هذا المعنى، وقامت أربع نظريات مختلفة بشأنه:

١- الذكرى

وهي النظرية التي امن بها زوينجلي والارمينيون والسوسيتيون، وتقوم على أن العشاء الرباني ليس ألا مجرد ذكرى تبين من قول المسيح: "اصنعوا هذا لذكري" وعندما اختلف لوثر وزوينجلي في الأمر، وقال لوثر: "كيف يمكن أن يتفق هذا مع قول المسيح: "هذا هو جسدي" أجاب زوينجلي : "إن التعبير هنا ضرب من المجاز كقول المسيح أيضا ليوحنا عن العذراء: "هوذا أمك" (يو١٩: ٣٦) ومن ثم فالعشاء عن زوينجلي مجرد علامة ليس لها أدنى فاعلية ليس لها أدنى فاعلية ذاتية، وخالية من حضور المسيح المصاحب لها روحيا أو جسديا على الإطلاق، وهو لهذا لا يمكن أن يكون من وسائط النعمة. وهذا الرأي ولا شك ضعيف ومنهار، إذا إن العشاء الرباني أكثر من مجرد ذكرى تاريخية لحادث مضى ما يقرب من ألفي عام، وعلاقة المسيح وأتباعه لا تقف في العادة عند مغابن الماضي أو دهاليز القرون، بل هي العلاقة التي تمتد من الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل القريب والبعيد، ودور العشاء في هذه العلاقة دور فعال أكثر من يكون مجرد ذكرى.

ب- الحلولية

وهي النظرية التي اخذ بها مارتن لوثر، وقوامها حلو المسيح جسديا على كيفية خارقة للعادة في الخبز والكأس، وانه وان كان هذان يبقيان كما هما دون تغيير في مادتيهما، ألا إن المؤمن يتناول بالإيمان جسد المسيح ودمه الحال فيهما، ولهذا فالخبز والكأس فاعلية ذاتية حقيقة، وتأثير فعلي في كل من يقبلهما ويتناولهما بهذا الإيمان، وواضح أن لوثر وقف في الوسط بين "الذكرى" "والاستحالة" فهو يرفض أن يكون العشاء الرباني مجرد ذكرى، كما يأبى أن يقبل تحول هذا العشاء فعلا وحسا إلى جسد الرب ودمه، غير إن هذه الحلولية التي امن بها لوثر يظهر بها طابع الإبداع والتخيل، إذا ليس لها من سند كتابي أو واقعي على الإطلاق، ولوثر في الحقيقة يحاول حل المشكلة بمشكلة ليست اقل تعقيدا أو عسرا، إذا إن الحلول الجسدي السري في الخبز والكأس ليس اقل صعوبة من تحولهما فعلا إلى جسد الرب ودمه. ومن ثم عجزت نظريته عن أن تضع التفسير الوافي الصحيح لحقيقة الخبز والكأس على المائدة الربانية.

ج – الاستحالة

والنظرية الثالثة التي تأخذ بها الكنائس التقليدية تقوم على فكرة الاستحالة، أو إن الخبز والكأس يتحولان "فعلا مفعولا" إلى جس الرب ودمه، وان في العشاء نعمة ذاتية لا تتوقف على إيمان المتناول، بل على عدم مقاومته لها، وانه بمجرد تلفظ الكاهن بالقول: "هذا هو جسدي" "هذا هو دمي" يستحيلان كلاهما إلى جسد الرب ودمه حقيقة، ولا يعودان بعد خبزا وكأسا وقد دعي العشاء لذلك "ذبيحة القداس" وهي ذبيحة حقيقية كفارية لا تتوقف استحالتها على حياة الكاهن أو أفعاله الشخصية، مادامت الكنيسة قد أقامته في منصبه الكهنوتي بعد رسامة صحيحة..

على إن الكنائس البروتستانتية لا تسلم على الإطلاق بفكرة الاستحالة لأكثر من سبب:

١- السبب التاريخي

إن تعليم الاستحالة في التاريخ الكنسي تعليم محدث متأخر طارئ، والكنائس البروتستانتية تواجه التقليديين في هذا الأمر بمعظم أبطال وقادة الكنيسة الأولى الذين لم يعترفوا بفكرة الاستحالة، أو يتمسكوا بها ففضلا على انه ليس في مؤلفات اكليمندوس واوريجانوس وترتليانوس وكبريانوس ما يشير إليها فان يوسابيوس القيصري قال عام ٣٣٠م : "إن تذكار ذبيحة

المسيح على مائدته بواسطة " رموز الجسد والدم" وبين اثناسيوس عام ٢٧٠ م في شرح الإصحاح السادس من إنجيل يوحنا " إننا نأكل جسد المسيح ونشرب دمه إذا صار لنا شركة بالكلمة والحكمة بواسطة تجسده وحياته البشرية ط. وقال غريغوري النازينزي عام ٣٨٠م : إن عناصر الافخارستيا رموز جسد المسيح ودمه" وقال يوحنا فم الذهب عام ٤٠٠م : "إن الخبز المقدس يستحق أن يسمى جسد الرب، مع إن الخبز لم يزل حقيقته" وقال اوغسطينوس عام ٤٢٠م : إن قول المسيح انه يعطينا جسده لنأكل لا يجوز فهمه جسديا، لان نعمته لا تقبل بالأسنان وان قول المسيح "هذا هو جسدي" كان بمعنى إن الخبز وضع علامة لجسده وذكرى الوليمة التي فيها قدم " المسيح لتلاميذه جسده ودمه مجازا". وقال ثاودوريثوس عام ٤٥٠م : "إن العناصر إنما هي رموز سرية " وقال غيلاسيوس عام ٤٩٥م : "إن جوهر الخبز وجوهر الخمر لا يزالان فيهما، فالحق إننا نحتفل بالإسرار المقدسة بصورة جسد المسيح ودمه ورمزهما" أما قول يوستنياس وايرانيوس وكيرلس الأورشليمي ففيها من الرمزية والمجاز مما هو أدنى إلى الحلولية التي اخذ بها لوثر لا إلى الاستحالة، ولا يمكن القطع بتاتا بأنهم أشاروا إلى تغير جوهر الخبز والكأس.

ومن الملاحظ إلى جانب هذا إن الكنيسة الشرقية كانت تؤمن حتى مجمع القسطنطينية المنعقد في عام ٧٥٤م بان العناصر في الافخارستية إنما هي بمنزلة رموز وإشارات، ولم تأخذ في التحول عن هذا الرأي ألا مع المجمع النيقوي الثاني الذي حكم سنة ٧٨٧م بجواز اعتبار العناصر رموزا قبل تقديسها لا بعدها. أما الكنيسة الغربية فلم تأخذ بالفكر على نسق تعليمي ألا من منتصف القرن التاسع حيث ألف باسخاسيوس رادبرتس كتابه الخاص حول: "جسد الرب ودمه" مؤمنا بفكرة الاستحالة، وفي الخال قاومه معاصروه من اللاهوتيين أمثال سكوتس اريجينا وموريس واسترابو ودروثمار وماجستر وراترامنس الذي وضع كتابا لتفنيد أقوال باسخاسيوس وقال: "أما من جهة الجواهر المادية فكما كانت قبل التقديس لم تزل كذلك بعده". وقال اريجينا في تعلق المسيح بالافخارستيا نصه: "نقدمه روحيا ونأكله عقليا بالذهن لا بالأسنان". ولم تسلم الكنيسة الكاثوليكية بهذه العقيدة إلا في السنودس الروماني عام ١٠٧٩. ومن وقتها اخذ التعليم بالاستحالة يتغلغل فيها حتى صرح به قانونيا في المجمع اللاترانى الرابع عام ١٢١٥م. ومن كل ما ذكر يتبن إن التعليم لم يعرف إلا في العصور المتأخرة في الكنيسة وليس له من سند عند معظم أبطال ومشاهير الكنيسة الأولى.

٢- السبب الكتابي

وهذا السبب في عقيدتنا أهم وأعظم من السبب التاريخي، إذا يستند على الوحي الإلهي نفسه وتفسير الكلمة المقدسة، والمنادون بفكرة "الاستحالة" يتمسكون بحرفية قول المسيح " هذا هو جسدي الذي يبذل عنكم: "«هَذَا هُوَ جَسَدِي الَّذِي يُبْذَلُ عَنْكُمْ. اِصْنَعُوا هَذَا لِذِكْرِي». ٢٠وَكَذَلِكَ الْكَأْسَ أيضا بَعْدَ الْعَشَاءِ قَائِلاً: «هَذِهِ الْكَأْسُ هِيَ الْعَهْدُ الْجَدِيدُ بِدَمِي الَّذِي يُسْفَكُ عَنْكُمْ. (لو٢٢: ١٩، ٢٠). غير انه لا يمكن الأخذ بهذه الحرفية، لان الأخذ بها يعني إن الصليب قد تم قبل ميعاده، وان المسيح إذا كسر الخبز وقدم ألكاس في العلية معناه إن جسده المكسور ودمه المسفوك قد قدما في العلية، وان العملية كلها تمت بكيفية ما قبل إن يعلق مخلصنا على الصليب، وقبل إن تدق المسامير في يديه ورجليه، وقبل إن يطعن بالحربة في جنبه. وهذا ما لا يستطيع مسيحي واحد إن التسليم به، فكيف يصح القول: "هذا هو جسدي المكسور لأجلكم هذه ألكاس هي العهد الجديد بدمي" (اكو ١١: ٢٤، ٢٥) لجسد لم يكسر بعد، ودم لم يسفك بعدا؟ وبأي معنى يمكن إن يكون الجسد في الوقت نفسه صحيحا ومكسورا، والدم مسفوكا وغير مسفوك!؟ والأخذ بالحرفية تقتضي التساؤل عما إذا كانت هذه الحرفية تلحق بالأوصاف والألقاب التي أشار بها

المسح إلى نفسه كالقول: أنا نور العالم" "أنا خبز الحياة" أنا باب الخراف" "أنا الكرمة" وما أشبه، ولم يمكن إن تكون هذه من قبيل المجاز دون الخبز والكأس في مائدة الرب!؟... وإذا كان المسيح يقصد جسده حرفيا عندما قال: "هذا هو جسدي. هذا هو دمي" وإذا كانت كلمته قد حولت ألكاس إلى دم فعلا – كما هو المعتقد عند التقليديين في إن الجسد والكأس يستحيلان بمجرد نطق الكاهن – فلماذا يطلق المسيح على ألكاس بعد ذلك حالا نتاج الكرمة في القول : " وأقول لكم إني من ألان لا اشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم حينما اشربه معكم جديدا في ملكوت أبي (مت٢٦: ٢٩) وإذا سرنا في طريق الحرفية هذه، فهل معنى ذلك إن ذبيحة الصليب تتكرر كل عشاء، وكيف ينسجم هذا مع قول رسول العبرانيين: "١٠فَبِهَذِهِ الْمَشِيئَةِ نَحْنُ مُقَدَّسُونَ بِتَقْدِيمِ جَسَدِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ مَرَّةً وَاحِدَةً. ١١وَكُلُّ كَاهِنٍ يَقُومُ كُلَّ يَوْمٍ يَخْدِمُ وَيُقَدِّمُ مِرَاراً كَثِيرَةً تِلْكَ الذَّبَائِحَ عَيْنَهَا، الَّتِي لاَ تَسْتَطِيعُ الْبَتَّةَ أَنْ تَنْزِعَ الْخَطِيَّةَ. ١٢وَأَمَّا هَذَا فَبَعْدَمَا قَدَّمَ عَنِ الْخَطَايَا ذَبِيحَةً وَاحِدَةً، جَلَسَ إِلَى الأَبَدِ عَنْ يَمِينِ اللهِ، ١٣مُنْتَظِراً بَعْدَ ذَلِكَ حَتَّى تُوضَعَ أَعْدَاؤُهُ مَوْطِئاً لِقَدَمَيْهِ."(عب١٠: ١٠-١٤)؟!!.. وإذا لم تكن هذه هي ذات ذبيحة الصليب فأية ذبيحة تكون!؟ وفي كلتا الحالتين هل هي ذبيحة مقترنة بالألم شان كل ذبيحة، أم من غير الم!؟... وإذا كانت الأولى، فهل هي ذات إلام الفادي التي عانها على الصليب أم إلام أخرى!؟.. وهل يتكرر الم المسيح كلما مورست المائدة في إي مكان أو زمان!؟ وإذا كانت الثانية، فما نوع هذه الذبيحة التي تخالف ذبيحة الصليب وكل ذبيحة على الإطلاق!؟.

في الواقع إن الاستحالة تواجه من العقبات الكتابية ما لا يستطاع تخطيته بتاتا، ولهذا أبت الكنيسة البروتستانتية جميعا التسليم بها.

٣- السبب المنطقي

فإذا أضيف إلى ما سبق إن الاستحالة مضادة للحس، إذا إن الحس يشهد ببقاء الخبز والكأس على ما هما عليه دون تغير؟!! فإذا ما قيل إن شهادة الحس لا يمكن التعويل عليها في هذا المضمار، وان التغيير يقع في الجوهر لا في العرض، وانه بينما يتغير جوهر الخبز والكأس إلى جسد المسيح ودمع، يبقى العرض كما هو دون تغير، تسألنا كيف يتغير الجوهر ولا تغيير الإعراض؟. وإذا كان من المعتقد كما جاء في مجمع ترنت إن جسد المسيح ودمه مع نفسه الناطقة ولاهوته في كل دقيقة من الخبز، وفي كل قطرة من ألكاس، وان المؤمن يتناوله في كل جزء مسيحا كاملا، تعين إن نسال قبل التسليم بهذا الرأي عن الأساس الذي يستند إليه، أو الحجة التي يمكن إن يتمسك بها، وهل في قدرة مخلوق كائنا من كان إن يبتدع نظرية خاصة بالمسيح لا يمكن إن يسندها إلى وحي أو س أو عقل أو قياس!؟

ولهذه الأسباب السابقة الذكر لا تقبل الكنائس البروتستانتية جمعاء فكرة الاستحالة وترفضها تماما!!..

٤- الشركة

والنظرية الأخيرة في العشاء الرباني هي نظرية الشركة الروحية وهي النظرية التي نجد أساسها الكتابي في قول الرسول: "١٦كَأْسُ الْبَرَكَةِ الَّتِي نُبَارِكُهَا أَلَيْسَتْ هِيَ شَرِكَةَ دَمِ الْمَسِيحِ؟ الْخُبْزُ الَّذِي نَكْسِرُهُ أَلَيْسَ هُوَ شَرِكَةَ جَسَدِ الْمَسِيحِ؟ ١٧فَإِنَّنَا نَحْنُ الْكَثِيرِينَ خُبْزٌ وَاحِدٌ جَسَدٌ وَاحِدٌ لأَنَّنَا جَمِيعَنَا نَشْتَرِكُ فِي الْخُبْزِ الْوَاحِدِ.(اكو١٠: ١٦-١٧). وواضح كما سلفت الإشارة إلى معنى هذه الشركة ومضمونها، إذا إن العشاء ليس مجرد ذكرى تربطنا بالمسيح، بل هي شركة يدعونا فيها إلى مائدته، لنشترك معه، ومع بعضنا البعض على ذات الصورة التي تمت في العشاء الرباني الأول، وهذه الشركة مقدسة تباين وتنفصل

عن إي شركة أخرى، ومن ثم قال فيها: "٣وَجَمِيعَهُمْ أَكَلُوا طَعَاماً وَاحِداً رُوحِيّاً ٤وَجَمِيعَهُمْ شَرِبُوا شَرَاباً وَاحِداً رُوحِيّاً - لأَنَّهُمْ كَانُوا يَشْرَبُونَ مِنْ صَخْرَةٍ رُوحِيَّةٍ تَابِعَتِهِمْ وَالصَّخْرَةُ كَانَتِ الْمَسِيحَ."(١كو١٠: ٣ و ٤). وذات المعنى القائل: "١٧فَإِنَّنَا نَحْنُ الْكَثِيرِينَ خُبْزٌ وَاحِدٌ جَسَدٌ وَاحِدٌ لأَنَّنَا جَمِيعَنَا نَشْتَرِكُ فِي الْخُبْزِ الْوَاحِدِ."(١كو١٠: ١٧) وكيف يمكن التسليم بهذا دون التسليم بالشركة الروحية التي تربطنا في المسيح الواحد: " وأما انتم فجسد المسيح وأعضاؤه إفرادا" (١كو١٢: ٣٧). ودون التسليم بالاشتراك الروحي" في الخبز الواحد" الذي هو عشاء الرب. وبذات المعنى المشار إليه سابقا في عرض تفسير القديس اثناسيوس لقول السيد في إنجيل يوحنا: "٥٣فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ لَمْ تَأْكُلُوا جَسَدَ ابْنِ الإِنْسَانِ وَتَشْرَبُوا دَمَهُ فَلَيْسَ لَكُمْ حَيَاةٌ فِيكُمْ. ٥٤مَنْ يَأْكُلُ جَسَدِي وَيَشْرَبُ دَمِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ وَأَنَا أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ ٥٥لأَنَّ جَسَدِي مَأْكَلٌ حَقٌّ وَدَمِي مَشْرَبٌ حَقٌّ. ٥٦مَنْ يَأْكُلْ جَسَدِي وَيَشْرَبْ دَمِي يَثْبُتْ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ." (يو ٦: ٥٣-٥٦) وعندما أوضح إن مناولة جسد المسيح ودمه حقيقة أمر لا يقبل، والمعنى الذي يقصده المسيح في فهم هذه الآيات لا يفهم إلا روحيا.. وهي شركة فعالة تتوقف على حضور المسيح روحيا إي بالروح القدس وتأثيره في قلوب المشتركين حتى ينالوا جسد المسيح، على طريقة روحية، أما الجسد الحقيقي للسيد فهو في السماء وهو ممجد، إنما يحضر هو مع شعبه على الأرض، وفي احتفال مائدته بروحه متضمنا في الوعد الدائم: "٢٠لأَنَّهُ حَيْثُمَا اجْتَمَعَ اثْنَانِ أَوْ ثَلاَثَةٌ بِاسْمِي فَهُنَاكَ أَكُونُ فِي وَسَطِهِمْ». (مت١٨: ٢٠)..

هذه الشركة وحدها هي التي تجعل العشاء الرباني فترفعه إلى أقدس مكان الذكرى، فلا يضحى بعد مجرد ذكرى تاريخية لحادث الصليب، بل شركة حية نلتقي بها مع المسيح، ونخبر بموته إلى إن يجيء، وهي شركة تعطينا كافة الحلول للصعاب التي واجهت عقيدتي الحلولية والاستحالة، إذا تسلم بالأكل الروحي لجسد المسيح، والمأخوذ بالإيمان، وتحمي في الوقت نفسه من ابتداع نظريات غيبية من دن سند كتابي أو قياس أو محاجة منطقية.. ومن ثم فنظرية الشركة الروحية هي النظرية التي يتعين الأخذ بها دون غيرها في تفسير عنصري العشاء الرباني ومعنى تناوله.

العشاء الرباني وكيفية تناوله

وأخر ما نذكر في الحديث عن العشاء الرباني هو كيفية تناوله. وهذا يقتضي على الأقل أن ندرك من هم المتناولون ومتى يتناولون؟!!كما يتعين فهم ماذا يتناولون وترتيب وتنظيم تناولهم المائدة المقدسة؟!! وقد بينا أن العشاء من حيث معناه والمستحقين له، لا يجوز أن يتناوله غير المؤمنين المستعدين، والذين بلا لوم أو عثرة وان من يأخذه من غير معرفة أو فهم أو اعتراف بالإيمان المسيحي، أو من يأخذه وهو يحمل في نفسه خطية مستترة أو ظاهرة، أو ذنبا معينا يعرض نفسه لغضب الله وعقابه، ويكون مجرما في جسد الرب ودمه.

وعلى المؤمنين أن يتناولوا عنصري العشاء بالتعاقب كلا على حدة كما رسم المسيح العشاء الأول، ولذا فلا يجوز بتاتا خلط العنصرين كان يعطيا معا في ملعقة أو ما أشبه، كما لا يجوز الاقتصار على إعطاء الخبز دون ألكاس، والتفرقة بين الشعب وخدام الدين في الأمر، كما يظهر من البدعة التي أدخلت إلى الكنيسة الكاثوليكية بعد ألف عام، ولم تصر حكما إلا في عام ١٤١٥م في مجمع كونستانس والقاضية بإعطاء الخبز فقط للعامة دون ألكاس، ومن العجيب أن المجمع المذكور يعترف بان هذه العادة لم تكن معروفة بالقول: "ومع إن الكنيسة الأولى كانت تتناول هذا السر بالعنصرين، دخلت هذه العادة، وهي إن المناولين يأخذون العنصرين، وإما الشعب فيتناول عنصر الخبز، ولان هذه العادة أدخلتها الكنيسة والآباء القديسون لأسباب مقنعة، وبقيت زمانا طويلا يجب أن تحسب حكمة وشريعة"... ولا يمكن أن يقال في تبرير الأمر أن تناول الخبز بناء غلى

فكرة الاستحالة معناه تناول المسيح كاملا، إذا إن كمال السر قائم في كل دقيقة من الخبز أو كل قطرة من ألكاس، لأنه إذا صح هذا لما وجد مبرر على الإطلاق للتفرقة بين العامة وغير العامة في الأمر، أو إن عصير الكرمة يندر لما قد يصيب المحصول في بعض البلدان، أو يتكلف نفقات باهظة في نقله من مكان إلى مكان أخر في بعض البلاد الأخرى..لان هذه التعليلات إن صحت تنقصها حكمة المسيح الذي كان ولا شك لا يمكن أن تغيب عن فطنته عندما رسم الفريضة المقدسة... كما إن هؤلاء المتأخرين ممن ابتدعوا هذا النظام لا يمكن أن يكونوا أكثر حرصا وإجلالا للمائدة من السيد والرسل والكنيسة لألف عام على الأقل ممن مارسوا الفريضة بالعنصرين معا!!..

في الواقع انه لا يمكن ولا يحق لنا أن نغير أو نجزئ في طريق المسيح في ترتيب العشاء، فكما قدم المسيح الخبز على ألكاس، وكما شكر على الخبز وبارك ألكاس ينبغي أن نفعل نحن أيضا. وقد ظهر من عادة الكنيسة الأولى إنهم كانوا يلتزمون هذا النظام بدقة، وقد أمعنوا فيه لدرجة إنهم يتناولون كما هو ظاهر من سفر الأعمال ورسالة كورنثوس الطعام قبله، فمن الغريب أن يجيء بعد ذلك في أخر الأيام من يبتدعون طرقا أخرى، أو يجزئون أو ينقصون من نظام المسيح الكامل!!..

وبما إن السيد لم يعين ميعادا لتناول هذه الفريضة، أن يدخل هذا الميعاد في نطاق القول: "٢٦فَإِنَّكُمْ كُلَّمَا أَكَلْتُمْ هَذَا الْخُبْزَ وَشَرِبْتُمْ هَذِهِ الْكَأْسَ تُخْبِرُونَ بِمَوْتِ الرَّبِّ إِلَى أَنْ يَجِيءَ."(١كو١١: ٢٦) فانه لهذا السبب يتحد الميعاد حسب الاستعداد والملائمة، إذا يجوز تناول الفريضة كل يوم أو كل أسبوع أو كل شهر أو ما أشبه،بحسب الموائمة والترتيب، على انه في كل الحالات ينبغي أن يقوم الخدام المعينون للخدمة بترتيب المائدة وإقامتها على إلا يكون اقتراب مواعيد ممارستها أو تباعدها ما يمكن أن يقلل من هيبتها وقدسيتها وجلالها وجمالها ونظامها. ولنعلم أخر الأمر إن السيد عندما جلس على المائدة وصنع هذه الفريضة يقف في كل العصور والأجيال مراقبا ألكاس وهي تنتقل حول المائدة من تلميذ إلى تلميذ، حتى تنتهي الدائرة العظيمة بنهاية الزمن والتاريخ لتعود مرة أخرى إلى يده، بكمال المفديين والمؤمنين، ويتحقق القول الكريم الذي قاله في تلك الليلة الخالدة: "٢٩وَأَقُولُ لَكُمْ: إِنِّي مِنَ الآنَ لاَ أَشْرَبُ مِنْ نِتَاجِ الْكَرْمَةِ هَذَا إِلَى ذَلِكَ الْيَوْمِ حِينَمَا أَشْرَبُهُ مَعَكُمْ جَدِيداً فِي مَلَكُوتِ أَبِي».(مت٢٦: ٢٩)

الفصل العشرون: إيماني بيوم الرب

لعل من أهم الأمور في الحياة المسيحية أن يعرف المسيحي حقيقة موقفه بيوم الرب... ما هو هذا اليوم؟ ولماذا يقدس جميع المسيحيون على اختلاف مذاهبهم من مطلع التاريخ المسيحي حتى اليوم والى أخر الدهر يوم الأحد بدلا من السبت، ما خلا طائفة السبتيين المستحدثة والتي نشأت أخيرا مما يقرب من مائة عام، وشذت في أشياء كثيرة على الإجماع المسيحي، ومن بينها تقديس السبت كما يقدسه اليهود سواء بسواء؟!!.. وكيف يقدس المسيحيون هذا اليوم؟ وكيف يجعلونه يوم عبادتهم وراحتهم؟ ثم ماذا يجوز فيه من أعمال وما لا يجوز؟ وما هي امثل الطرق وأفضلها ليضحى هذا اليوم يوم القدسية والجلال والمسرة والبهجة، لا يوم العالمية أو الاستهانة أو الضيق أو الكسل أو ما أشبه من خطايا يرتكبها الكثيرون في هذا اليوم المقدس المبارك... ولعل ندرك هذا جميعها ونحن نتابع الحقائق التالية:

يوم السبت وأساسه التاريخي

وليس هناك من شبهة في إن الأساس التاريخي لتقديس هذا اليوم وتخصيصه من بين أيام الأسبوع للعبادة والراحة، يرجع بادئ ذي بدء إلى انه يشير إلى علاقة الإنسان بالله كخالق ومعتن، فالوصية الرابعة القائلة: "اذكر يوم السبت لتقدسه" (خر٢٠: ٨) تبين بالقول "اذكر" أن هناك شيئا كان معروفا وقائما يحتاج الإنسان أن يتنبه له ويتحفظ من إهماله... وفي الواقع إن هذه الوصية تعود بالفكر إلى فجر التاريخ البشري عندما صنع الله الخليقة: "٢وَفَرَغَ اللهُ فِي الْيَوْمِ السَّابعِ مِنْ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ. فَاسْتَرَاحَ فِي الْيَوْمِ السَّابعِ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ. ٣وَبَارَكَ اللهُ الْيَوْمَ السَّابعَ وَقَدَّسَهُ لأَنَّهُ فِيهِ اسْتَرَاحَ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ اللهُ خَالِقاً.(تك٢: ٢، ٣) وقد كان على الإنسان آن يتعبد في هذا اليوم ويقدسه ليذكر علاقته بالله الخالق، وهو أن يذكر هذه العلاقة يتذكر على الدوام إن الخليقة لم تنشا من تلقاء نفسها، بل خلقها الله بقوته وحكمته السرمدية، وأكثر من ذلك إن الله جعل الإنسان تاج الخليقة ومجدها، وانه تعالى إذ خلقه أخر الكل، إنما فعل ذلك ليعد له ويرتب جميع ما يحتاج إليه في الأرض، فهو بذلك الخالق المحب الودود... هذا هو الأساس التاريخي الأول لتقديس هذا اليوم للعبادة والراحة.

على انه في الوقت نفسه لا ينبغي أن ننسى إن هذه الوصية بالذات أخذت مظهرا خاصا بالعبرانيين وحدهم، إذ كان حفظ السبت مقترنا عندهم بعلاقتهم بالله كمحرر ومنقذ، إذ جاء القول الإلهي : "١٥وَاذْكُرْ أَنَّكَ كُنْتَ عَبْداً فِي أَرْض مِصْرَ فَأَخْرَجَكَ الرَّبُّ إِلهُكَ مِنْ هُنَاكَ بِيَدٍ شَدِيدَةٍ وَذِرَاعٍ مَمْدُودَةٍ. لأَجْل ذلِكَ أَوْصَاكَ الرَّبُّ إِلهُكَ أَنْ تَحْفَظَ يَوْمَ السَّبْتِ."(تث٥: ١٥) ومن الملاحظ إن الله نظم بالوصية تصرفات الإنسان، لا في يوم السبت وحده، بل في كل الأسبوع: "١٤وَأَمَّا الْيَوْمُ السَّابعُ فَسَبْتٌ لِلرَّبِّ إِلهِكَ لا تَعْمَل فِيهِ عَمَلاً مَا أَنْتَ وَابْنُكَ وَابْنَتُكَ وَعَبْدُكَ وَأَمَتُكَ وَثَوْرُكَ وَحِمَارُكَ وَكُلُّ بَهَائِمِكَ وَنَزِيلُكَ الذِي فِي أَبْوَابكَ لِيَسْتَرِيحَ عَبْدُكَ وَأَمَتُكَ مِثْلكَ.(تث٥: ١٤) أو في لغة أخرى إن الوصية لا توصي بالراحة فحسب بل بالعمل أيضا، لقد صنع الله

الستة أيام للعمل والخدمة في الأرض، ومن لا يعمل ويخدم يكسر الوصية، وفي اليوم السابع يتعين – سلبيا – عدم العمل بالامتناع عن كل ما يتعب الجسد والذهن والنفس، وما يدور في فلك الإنسان من أهل بيت وحيوان – وايجابيا- بالارتفاع بالحياة الإنسانية إلى شركة اسمي واعلي مع الله، وبمعنى اشمل إن الوصية توصي بالراحة والعبادة معا، دون أن تستبد احدهما بالأخرى، فلا تضيع في الراحة العبادة، وإلا كانت راحة جسدية لا نصيب للنفس والروح بها، كما لا ينبغي أن تضيع الراحة العبادة، وإلا ضعف وانحل الجسد الذي يمارس العبادة...

وعندما جاءت المسيحية حل الأحد محل السبت كما سيبين من مختلف البراهين التي سنعرض لوعلمهم".عد، ولعل يوستنيان الشهيد من أوائل من كشفوا في التاريخ المسيحي عن الأساس لهذه الحلول، إذ قال عام ١٤٠م في دفاعه المشهور ما نصه: "وعن يوم الأحد فنحن نعقد فيه اجتماعنا المشترك، لان اليوم الأول هو اليوم الذي بدد الله فيه الظلمة عندما صنع العالم، وهو اليوم الذي قام فيه مخلصنا من الأموات. ففي اليوم السابق على السبت صلبوه، وفي اليوم اللاحق للسبت يوم الأحد ظهر لتلاميذه وعلمهم". وهذه الوثيقة التاريخية وغيرها من الوثائق تبين لماذا احتل الأحد المكانة التاريخية التليدة كيوم الرب بدلا من السبت، لأنه إذا كان السبت يشير إلى عمل الله في الخليقة الجديدة في المسيح. وإذا كان السبت عند اليهود يرمز إلى الراحة من العبودية الأرضية، فان الأحد عند المسيحيين يرمز إلى الراحة من عبودية الإثم والخطية، إذ هو يوم قيامة سيدهم الذي حررهم من العبودية، بل هو أكثر من ذلك رمز وإشارة إلى الراحة الأبدية في المجد، كما يقول كاتب الرسالة إلى العبرانيين: "٣لأَنَّنَا نَحْنُ الْمُؤْمِنِينَ نَدْخُلُ الرَّاحَةَ، كَمَا قَالَ: «حَتَّى أَقْسَمْتُ فِي غَضَبِي لَنْ يَدْخُلُوا رَاحَتِي!» مَعَ كَوْنِ الأَعْمَالِ قَدْ أُكْمِلَتْ مُنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ. ٤لأَنَّهُ قَالَ فِي مَوْضِعٍ عَنِ السَّابِعِ: «وَاسْتَرَاحَ اللهُ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ مِنْ جَمِيعِ أَعْمَالِهِ». ٥وَفِي هَذَا أَيْضاً: «لَنْ يَدْخُلُوا رَاحَتِي». ٦فَإِذْ بَقِيَ أَنَّ قَوْماً يَدْخُلُونَهَا، وَالَّذِينَ بُشِّرُوا أَوَّلاً لَمْ يَدْخُلُوا لِسَبَبِ الْعِصْيَانِ، ٧يُعَيِّنُ أَيْضاً يَوْماً قَائِلاً فِي دَاوُدَ: «الْيَوْمَ» بَعْدَ زَمَانٍ هَذَا مِقْدَارُهُ، كَمَا قِيلَ: «الْيَوْمَ إِنْ سَمِعْتُمْ صَوْتَهُ فَلاَ تُقَسُّوا قُلُوبَكُمْ». ٨لأَنَّهُ لَوْ كَانَ يَشُوعُ قَدْ أَرَاحَهُمْ لَمَا تَكَلَّمَ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ يَوْمٍ آخَرَ." (عب٤: ٣-٨).هذا هو الأساس التاريخي بالنسبة ليوم الرب سواء في ذلك ما قبل الناموس أو بعده، كما أضحى عند المسيحيين ممثلا في يوم الأحد بقيامة المسيح يسوع مخلصنا من الأموات.

يوم الرب وكيف قدسه المسيح

رسم السيد المسيح بحياته وأعماله الطريق المثلى لتقديس يوم الرب، هناك على الأقل ثلاث أمور واضحة قام بها المسيح يوم السبت وهي العبادة، وأعمال الضرورة وأعمال الرحمة!!..

أما العبادة فواضحة في القول : "ودخل المجمع حسب عادته يوم السبت" (لو٤: ١٦) وهذه عبارة تشير إلى تمكن هذه العادة في نفسه، فيها توبيخ ظاهر لمن يهملون الذهاب إلى بيت الله، ومن ينصرفون عن العبادة في يومه المقدس أو من يظنون إن التعود على الذهاب إلى الكنيسة ليس أمرا ضروريا محتوما، إن الظروف والحوادث والأشغال وما أشبه من الجائز أن تعطلهم أو تقلل من اهتمامهم بتكريس يوم الرب في العبادة الجمهورية... دعي احد الرعاة ليعول عجوزا امتدت به الأيام ووقف على حافة النهاية، وإذ دخل الراعي دار الحديث عن الدين والحياة الأبدية قال العجوز: "إني أسف لأني قضيت حياتي مشغولا بأعمال كثيرة، لدرجة انه لم تكن لي فرصة للاهتمام بالأمور الدينية والذهاب إلى بيت الله".علق الراعي على ذلك بالقول: "لقد كان له في حياته أربعة ألاف احد"!..

والى جانب العبادة أجاز المسيح بل اوجب أعمال الضرورة إذ سمح لتلاميذه أن يقطفوا سنابل القمح ويأكلونها يوم السبت، ولما احتج الفريسيون على ذلك، إذ أن التقاليد المتوارثة عندهم كانت تمنع مثل هذا الأمر، فعمل التلاميذ في نظرهم كان أكثر

من مجرد الأكل، إذ إن قطف السنابل كان بمثابة حصاد، وفركها بمثابة درس، ونفخها بمثابة تذرية، أما المسيح فقد رأى في هذا كلها تقاليد لا تمت إلى السبت بصلة، وعاد بهم إلى ما فعل داود عندما جاع، ولم يجد أمامه سوى خبز التقدمة الذي لا يحل أكله إلا للكهنة، فأخذه واكله وأعطى الذين كانوا معه أيضا فأكلوا.. وبين لهم إن السبت خلق للإنسان أي لفائدته وخيره وبهجته ولذته، لا الإنسان للسبت ليحكم فيه ويتحكم في ضروراته، كما بين انه رب السبت الذي يستطيع أن يفسر ما يجب وما يليق عمله يوم السبي..

وأخيرا فالي جانب أعمال الضرورة بن المسيح أن فعل الخير واجب مفضل وأساسي يوم السبت، وكم له من معجزات صنعها في هذا اليوم، وقد كانت هذه المعجزات سبب حفيظة اليهود وتأمرهم عليه، وقد حدث ذات مرة انه شفى امرأة كان بها روح ضعف منذ ثمانية عشر سنة، في احد المجامع، وإذا احتج رئيس المجمع على الإبراء في السبت ضاق المسيح بهذا الاحتجاج إذ رأى في طياته رياء الرجل ونفاقه، فالتقليد اليهودي كان يجيز حل الحمار أو الثور يوم السبت والذهاب به ليشرب، ولا شك إن هذا الرجل استنادا على هذا التقليد أجاز لنفسه مثل هذا العمل، ولكن رياء دفعه إلى أن يجيز لحيوانه – مادام في ذلك نفعه ومصلحته – مما لا ينبغي أو يجوز للمرأة المسكينة.. أما المسيح فقد رأى ضرورة عمل الخير يوم السبت، كيف لا والسبت نفسه قد صنع أصلا لخير الإنسان، فهل ينتهي به التقليد إلى تحريم الخير فيه؟!!..

في الواقع إن السيد رسم بوضوح ما يجوز أو لا يجوز فعله في يوم الرب، وطريقته هي الطريقة المثلى لفهم الحلال والحرام فيه!!..

يوم الرب وكيف حل الأحد فيه محل السبت

على إن السؤال الذي لابد من الإجابة عليه بعد كل هذا هو كيف حل الأحد عند المسيحيين محل السبت؟ ||.. ولماذا يثر بين المسحيين أي خلاف حول هذا الموضوع، في التاريخ المسيحي كله شرقا وغربا، حتى ظهرت جماعة السبتيين لتزعم في منتصف القرن التاسع عشر بشيء يخالف الإجماع المسيحي الدائم!؟. في الواقع إن هناك براهين متعددة قطعية تثبت هذا الحلول ولا يستطيع غير المكابر أو المعاند تجاهلها وهاكم هي :

١- النص الكتابي الصريح بعدم التمسك بالسبت

وقد جاء هذا النص في قول الرسول بولس: "فَلاَ يَحْكُمْ عَلَيْكُمْ احَدٌ فِي أَكْلٍ أَو شُرْبٍ، أَو مِنْ جِهَةِ عِيدٍ أَو هِلاَلٍ أَو سَبْتٍ. "(كو٢: ١٦) وهذا النص قاطع ويغني عن الاجتهاد من أي وجه فسرناه فكلمة "سبت" واضحة صريحة لا غموض فيها، فان فسرناها التفسير الصحيح السليم، وقلنا إن الرسول هنا يقاوم جميع النزعات والطقوس والنظم اليهودية التي حاولت أن تتسلل للمسيحية بما فيها المحافظة على يوم السبت والتمسك به كما يتمسك به اليهود، لبدا التفسير واضحا صريحا شاملا لا لبس فيه، وإذا ا فترضنا جدلا إن الرسول لم يكن يعني يوم السبت بمعنى اليوم السابع من الأسبوع، وانه كان يعني شيئا أخر كسبوت الأعياد التي ظن السبتيون إنها تخرج من المأزق، فان الأمر مع ذلك لا يمكن إن يحل الموضوع، لان الرسول كان لابد أن يورد تحفظا على القاعدة التي أطلقها، إذ لا يعقل أن يمس السبت مادام له هذه الأهمية، ومادام هو أعظم علامة في عرف السبتيين على المسيحي، وفي الوقت نفسه يغفل على التفرقة السبت كعيد والسبت كيوم سابع، وعلى الأخص إن الرسول لم يتحدث هنا في لغة الإجمال بل في لغة التفصيل الدقيق، عن الأكل، والشرب، والعيد السنوي، والهلال شهريا، والسبت أسبوعيا.. فإذا كان الرسول قد فرق بين العيد والهلال والسبت فكيف غفل عن أن يتحفظ بالنسبة للسبت فلا يفرق أو يحذر أو ينبه من انه لا يعني اليوم السابع، وقد جاء اللفظ شاملا كاملا من غير تحديد.. في الواقع إن الرسول إن كان قد فكر في السبت

فهو لم يفكر فيه كما يفكر السبتيين، وإلا لكان قد صنع ألف تحفظ وتحذير عندما جاء ذكره.. بل فكر في وضع نص صريح يمنع التمسك به أو العودة إليه.

٢- قيامة المسيح وظهوره يوم الأحد

ومن المسلم به إن أعمال الله في صغيرها وكبيرها لا صدفة فيها، ولا يمكن أن يقال انه جاء من قبيل المصادفة، حرص البشيرين الأربعة على تدوين حدوث القيامة يوم الأحد، فمتى يقول: "وبعد السبت عند فجر أول الأسبوع" (مت٢٨: ١) ومرقس يذكر : " وبعدما مضى السبت. وباكرا جدا في أول الأسبوع" (مر١٦: ١، ٢). ولوقا يقرر: "ثم في أول الأسبوع أول الفجر" (لو٢٤: ١). ويوحنا يدون: "وفي أول الأسبوع" (يو٢٠: ١) : لا يمكن أن يحدث مثل هذا في القيامة التي تعد حجر الزاوية في الإيمان المسيحي ما لم يكن هناك قصد الهي، في ربط القيامة بيوم الأحد.. فما المغزى بعد هذا في أن يقوم المسيح يوم الأحد؟!! ثم أن يدون ذلك أربع مرات؟!! ثم يظهر المسيح في ذات اليوم أكثر من مرة لتلاميذه!! فإذا افترضنا إن كل هذا حدث من غير مغزى، وان الأمر كان تسجيل للحوادث التي حدثت في يوم القيامة من غير قصد يربطها بيوم الأحد، فانه يكون حقا من الغريب والعجيب أن يكون الظهور التالي للتلاميذ وتوما معهم في يوم الأحد لا يوم السبت.. ولو أن المسيح كان يقصد أن نهتم بالسبت لا الأحد، لكان على الأقل فعل شيئا واحدا يثير انتباهنا إلى السبت لا الأحد، ما بين قيامته وصعوده، ولكن العكس هو الذي حدث على طول الخط.

٣- حلول الروح القدس وميلاد الكنيسة يوم الأحد

ومن الحقائق العظيمة إن عصر الروح القدس وبدء تاريخ الكنيسة المسيحية لم يحدث يوم سبت بل حدث يوم احد، ولو إن السبت له هذه المكانة العجيبة الفائقة في التاريخ، والكنيسة المسيحية، كما يزعم السبتيون لحل الروح القدس وبدأت الكنيسة المسيحية يوم السبت، ولكن من العجيب أن يمر السبت بكامله ولا تولد الكنيسة إلا يوم الأحد، فمن المعلوم إن يوم الخمسين حدث غد السبت السابع لسبت الفصح ونحن نسال : ياترى هل هذا الأمر جاء مصادفة، أم كانت هناك حكمة مفقودة من أن يكون اظهر عبادة في كل التاريخ المسيحي في يوم احد لا يوم سبت، اليوم الذي انضم فيه إلى الكنيسة ثلاثة ألاف نفس؟.

٤- ممارسة العبادة في الكنيسة يوم الأحد

وهل هناك من شك في إن العبادة كانت تمارس في الكنيسة في يوم الأحد في جميع مظاهرها وألوانها، فبولس في ترواس مارس فريضة العشاء الرباني يوم الأحد، والكتاب حريص أن يدون هذه الحقيقة بالقول: "٧وَفِي أَوَّلِ الأُسْبُوعِ إِذْ كَانَ التَّلاَمِيذُ مُجْتَمِعِينَ لِيَكْسِرُوا خُبْزاً خَاطَبَهُمْ بُولُسُ وَهُوَ مُزْمِعٌ أَنْ يَمْضِيَ فِي الْغَدِ" (اع ٢٠: ٧) ونحن نسال لماذا يحرص الكتاب على أن يبين إن التلاميذ كانوا مجتمعين ليكسروا الخبز يوم الأحد، إذا لم يكن لهذا اليوم معناه الخاص عندهم؟ ويزداد الأمر تأكيد إن بولس وصحبه استقروا في هذه المدينة سبعة أيام، وليس هناك إشارة إلى اجتماع التلاميذ أو كسر الخبز في يوم السبت السابق على الأحد في أية ساعة من ساعاته الطويلة، وقد كان من البديهي إذا كان يوم السبت هو اليوم المقدس عند التلاميذ أن يتم كسر الخبز فيه لا في يوم الأحد، وإذا ما حاول مكابر أو معاند أن يقول انه من الجائز إن كسر الخبز كان يحدث يوميا طوال الأسبوع، وان كسر الخبز حدث في يوم السبت ثم في يوم الأحد أيضا، لما كان ثمة مبرر لان يشار إلى إن الاجتماع كان يوم الأحد لكسر الخبز حتى ولو كان بولس يسافر في اليوم التالي.. الحقيقة إن هذه العبارة تشير بجلاء إلى عادة التلاميذ في سر الخبز كمظهر من مظاهر العبادة يوم الأحد.

وهناك أيضا ظاهرة العطاء التي كانت تمارس من مطلع التاريخ المسيحي في يوم الأحد، وقد نبر الرسول على ذلك القول: "١وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ الْجَمْعِ لأَجْلِ الْقِدِّيسِينَ فَكَمَا أَوْصَيْتُ كَنَائِسَ غَلاَطِيَّةَ هكَذَا افْعَلُوا أَنْتُمْ أَيْضاً. ٢فِي كُلِّ أَوَّلِ أُسْبُوعٍ لِيَضَعْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ." (١كو١٦: ١، ٢) وهل من شك في إن الرسول وهو يتحدث بذلك إلى كنائس غلاطية وكورنثوس
عندما ظهر لوحنا في جزيرة بطمس وأعطاه الرؤية العظيمة التي تسجل تاريخ الكنيسة المجاهدة على الأرض لم يحدث هذا في يوم السبت بل حدث في ثوم احد، إذ كان الإجماع تام على إن اليوم المذكور في القول: "كنت في الروح في يوم الرب" (رؤ١: ١٠) هو يوم الأحد، والسبتيين أنفسهم لا يستطيعون أن ينازعوا ذلك البتة. بل إن عبارة يوحنا تكشف عن يوم الأحد كان يطلق عليه في الكنيسة الأولى دائما يوم الرب، وإذا كان الكتاب حريصا على أن يكشف هذه الحقائق يوم الأحد، فهل يجادل بعد في انه اليوم المقدس الذي حل محل السبت اليهودي؟.

٥- شهادة التاريخ المسيحي عن يوم الأحد

فإذا أضيف إلى كل ما سبق أن التاريخ المسيحي يحفظ لنا سلسلة من الشهادات المتواترة عن تقدي يوم الأحد من بدء المسيحية. ويعوزنا الوقت إذا اشرنا إلى هذه الشهادات واحدة فواحدة، ولكن يكفي أن نذكر أن اغناطيوس الذي مات عام ١٠٧م تحدث عن عادة المسيحيين في العبادة يوم الأحد، وكذلك فعل اريرانيوس الذي مات ١٥٥م، وقد نقلنا فيما سبق شهادة يوستنيان في هذا الأمر، ولا ننسى في هذا المضمار قول ترتليانوس الذي مات عام ٢٠٠م : "نحن نحسبه خطا أن يصوم الإنسان في يوم الرب" والكتاب الذي كتبه ملتو أسقف ساردس في القرن الثاني عن "يوم الرب".. هذه الشهادات التي جاءتنا من فجر المسيحية تبين أن المسيحيين من أيام الرسل عرفوا الأحد، وتمسكوا به بكيفية ترتفع على كل مجادلة ونزاع.

٦- اتفاق جميع المسيحيين على يوم الأحد

وأخر البراهين التي تؤكد حلول الأحد محل السبت هو اتفاق جميع المسيحيين على تقديسه من بدء التاريخ، ولم يفعل الإمبراطور قسطنطين عام ٣٢١م سوى أن يقر الواقع ويجعله عطلة رسمية للمحاكم والتجار والصناع.. والظاهرة الجديرة بالاعتبار انه على رغم الخلافات الكثيرة إلي حدثت بين الشرق والغرب على أمور كثيرة، واستدعت عقد المجامع المسكونية لتقول الكنيسة كلمتها الفاصلة في المواضيع المختلفة عليها، لأنه لم يحدث في كل التاريخ أن ثار نزاع حول السبت و الأحد وكل ما ذكر في هذه المجامع لا يتعدي تأكيد مجمع لاودكية الذي اثبت أن المسيحيين ليسوا مكلفين بحفظ يوم السبت، وقد ظل هذا الإجماع تسعة عشر قرنا من الزمان حتى ظهرت جماعة السبتيين ونبيتهم السيدة الن هوايت، والتي أذاعت فيما بينهم أنها رأت الوصية الرابعة محاطة بهالة من نور، ومن هنا نشا التقديس العجيب المستحدث للسبت عند هذه الجماعة التي شذت على هذا الإجماع المسيحي.. ولا يمكن لأي مسيحي عاقل أن يتصوران الكنيسة المسيحية طوال التسعة عشر قرنا السابقة على ظهور الن هوايت على خطا في تقديس يوم الأحد، والسبتين وحدهم على صواب، ولا يمكن لأحد به ذرة من تفكير أن يقول أن بولس ويوحنا وسائر الرسل وإباء الكنيسة وكل رجال الدين الذين عاشوا خلال تسعة عشر قرنا كانوا خطا، والن هوايت وحدها على صواب.

في الواقع انه ليس ثمة شك بعد كل ما ذكر من أدلة وبراهين على أن الأحد حل بالتأكيد محل السبت كيوم المسيحيين المقدس، ولا يمنعنا هذا من أن ندفع بعض المغالطات التي يتمسك بها الآخذون بيوم السبت. واظهر مغالطة بل وأجراها هي قولهم أن السيد المسيح حفظ السبت ولم يحفظ الأحد، وهذه مغالطة مكشوفة، إذ أن المسيح عاش كيهودي في كل شيء حتى الصليب، ولو أن هذا المنطق سليم لكان من الممكن أن يمتنع المسيح مثلا عن ممارسة الفصح، ويمارس من بداءة الخدمة الجهارية

فريضة العشاء الرباني. ولكن هذه الفريضة كيوم الأحد سواء بسواء، لم يكن وقتها قد جاء بعد. فإذا زعم هؤلاء في مغالطة أخرى أن وصية السبت أبدية لا تتغير، اجبنا أن الأحد اخذ مكان السبت بذات الكيفية التي اخذ بها العشاء الرباني مكان الفصح، مع أن هذا الأخير قيل فيه: "١٤وَيَكُونُ لَكُمْ هَذَا الْيَوْمُ تَذْكَاراً فَتُعَيِّدُونَهُ عِيداً لِلرَّبِّ. فِي أَجْيَالِكُمْ تُعَيِّدُونَهُ فَرِيضَةً أَبَدِيَّةً.(خر١٢: ١٤). وكما أخذت المعمودية مكان الختان مع ما قيل عن عهد الختان مع إبراهيم: "١٣يُخْتَنُ خِتَاناً وَلِيدُ بَيْتِكَ وَالْمُبْتَاعُ بِفِضَّتِكَ فَيَكُونُ عَهْدِي فِي لَحْمِكُمْ عَهْداً أَبَدِيّاً."(تك١٧: ١٢).

فإذا قالوا في مغالطة ثالثة وأخيرة أن الرسل كانوا يصلون كما هو واضح في سفر الأعمال في يوم السبت، اجبنا بان الرسل درجوا على الذهاب إلى الهيكل أو المجامع في يوم السبت لأنه كما هو ثابت أيضا من سفر أعمال الرسل أن رسالتهم الأولى كانت تبشير اليهود وتحويلهم إلى المسيح، ومن الطبيعي أن ينتهزوا فرصة عبادة اليهود يوم السبت للمناداة برسالة المسيح بينهم، وقد تبينا فيما أسلفنا انه عندما كان المسيحيون يجتمعون معا كمؤمنين وتلاميذ المسيح للعبادة وكسر الخبز والعطاء، كان يومهم المقدس كان يوم الأحد لا السبت.

يوم الرب وامثل الطرق لتقديسه

وإذا انتهينا أخيرا من كل ما يتعلق بيوم الرب وأساسه التاريخي وتقديس المسيح له وحلول الأحد فيه محل السبت، بقي أن نتساءل في كلمات قصار من امثل الطرق وأفضلها، مما يمكن أن تساعدنا على حفظ هذا اليوم المقدس واستخدامه على الوجه الصحيح السليم المنشود.

ويرى الكثيرون في هذا الشأن أن نتعود تقديس اليوم من الصغر، وهنا تقع اكبر مسئولية على الأبوين في تنشئة الصغار على هذه العادة، وتصرف الأبوين هو الذي يجعل من هذا اليوم لذة أو سجنا عند الصغار.. وقد كتب تشارلرس ديكنز في إحدى قصصه يصف رجلا كان يرتاع اشد الروع من سماع أجراس الكنيسة أيام الأحد، لان هذه الأجراس كانت تذكره بأيام طفولته، عندما كان يفرض عليه أبواه نظاما قاسيا دقيقا في الذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد، ومع أن الأبوان كانا يهدفان ولا شك إلى تنشئة ابنهما تنشئة دينية كريمة مقدسة، إلا أن أسلوبهما في الأمر كان غير حكيما، وكان ادني إلى التقاليد اليهودية التي أضاعت بهجة السبت ولذته واستبدلتهما سجنا مروعا قاسيا غير رحيم للإنسان، لا الإنسان لليوم!!.

ومن المناسب بناء على هذه القاعدة ملاحظة التوازن التام الدائم بين راحة الجسد وعبادة النفس في كل مراحل الحياة في هذا اليوم المبارك، فلا يجوز أن يستريح الجسد على حساب النفس كما يتصور كثيرون أن هذا اليوم لنومهم وكسلهم وخمولهم بعد المجهود الطويل الذي يبذلونه خلال أيام العمل في الأسبوع، كما لا يجوز من الوجهة المقابل أن تقضي العبادة على الجسد أو تضعفه أو تضنيه أو تفنيه، مما ينتهي بها أخر الأمر إلى الضياع عندما يعجز أو يتلاشى الجسد الذي يقوم بها ويمارسها. وامتداد لهذه القاعدة ينبغي أن نفرق بين مقدرة الصغار والكبار في العبادة أو الخدمة في هذا اليوم فلا نطالب الأولين بذات الوقت أو المجهود الذي ننتظره من الآخرين.

ولا حاجة إلى القول أن مثال المسيح الصالح الذي اشرنا إليه سابقا هو السبيل الوحيد لمعرفة ما هو جائز وغير جائز في هذا اليوم المقدس المبارك، فالعبادة وأعمال الضرورة وأعمال الخير جائزة بل واجبة، ويتعين القيام بها بكل يقين وراحة بال، ولا تثريب على الإنسان في أن يسترد في هذا المضمار أيضا بآراء واختبارات من هم أكثر معرفة ونضوجا من المؤمنين والقديسين، ومن خير ما كتب في هذا الأمر ما كتبه الدكتور جونسون في صحيفته عندما بلغ السادسة والأربعين من العمر، إذ قال انه عاش طوال حياته مكرما لهذا اليوم، والى جانب الواجبات المسيحية التي يؤديها فيه درج على:

١- أن يقوم مبكرا في الصباح، وليتيسر له ذلك كان يذهب إلى الفراش في المساء يوم البت مبكرا أيضا.
٢- أن يكون تعبده في صباح الأحد أوفى وأكمل وأطول من أي يوم أخر.
٣- أن يمتحن سير حياته، وعلى الأخص في الأسبوع السابق، فيلاحظ أي تقدم أو تأخر في حياته الدينية.
٤- أن يقرا الكتاب بتدقيق أكثر ويستعين بالمراجع التي يمكن أن تكون بين يديه.
٥- أن يذهب إلى الكنيسة مرتين.
٦- أن يقرا الكتب الدينية النظرية أو العملية على حد سواء
٧- أن يعلم عائلته.
٨- أن يخلع بالتأمل كل بذور تركها العالم في ذهنه خلال الأسبوع.

في الختام يحسن أن يواجه كل واحد منا كما قال احدهم – هذين السؤالين لنفسه: ماذا أنت فاعل بيوم الأحد في حياتك؟.
وماذا يفعل يوم الأحد أيضا في هذه الحياة؟!!..

الفصل الحادي والعشرون: إيماني بمجيء المسيح الثاني

ليس هناك من أمل يراود الكنيسة ويبهجها في كل جيل وعصر أكثر من الأمل بمجيء المسيح الثاني العتيد.. على إن المسيحي وهو بصدد هذا المجيء وفي انتظاره قد تنوعت وتباينت آراؤهم وأفكارهم ونزعاتهم نحوه، فمنهم من لا هم له إلا تحديد ميعاده وتفسير النبوات المتعلقة به، على النحو الذي يكاد يعين معه وقته أو ساعته، ناسيا أو متناسيا انه ليس من حق بشري أو في سلطانه أو علمه أن يعين هذا الوقت أو هذه الساعة على الإطلاق، ومنهم على النقيض من ذلك من لا يشغل نفسه كثيرا بالتفكير في هذا الموضوع، مع إن هذا الموضوع بالذات كان في قمة المواضيع التي شغلت بال الكنيسة في العصور المسيحية الأولى، ومنهم من يتطلع إلى هذا الموضوع مصحوبا بملك حرفي للمسيح، يملك فيها المسيح على الأرض كلها ويحقق عصرها الذهبي وحلمها المنشود قبل نهاية العالم ومجيء الأبدية، ومنهم من ينتظر هذا المجيء بعد الملك الروحي لا الأرضي الذي يسيطر فيه المسيح بسلطانه ومبادئه وروحه على البشر والأمم جميعا ثم يظهر في القيامة في اليوم الأخير.

على انه مهما اختلفت هذه الأفكار أو النزعات أو تنوعت، إلا أنها تتفق جميعا في اليقين بمجيئه وربط التاريخ وقصة البشرية بهذا المجيء العتيد العظيم..

ولعل من أهم ما ينبغي مراعاته ونحن بصدد دراسة هذا الموضوع العظيم تجنب الاندفاع أو الجموح أو التعصب أو الانسياق وراء فكرة معينة بإملاء العاطفة البشرية البحتة أو الخيال الإنساني الشرود، إذ إن الوحي هو الرائد الوحيد في الموضوع، وكتاب الله هو الفيصل والحكم النهائي فيه، ومن ثم فنحن أحوج ما نكون إلى الهدوء والأناة والاسترشاد بروح الله، ونحن نتعرض له أو نعالجه ولعلنا نأخذ فكرة واضحة كاملة عنه إذا تأملناه من الجوانب التالية :

أولا – مجيء المسيح الثاني وحقيقته

وحقيقة مجيء المسيح الثاني من الحقائق التي تنازع أو تجادل، وهي إحدى الحقائق المسيحية الكبرى التي ظفرت بإجماع المسيحيين في كل جيل وعصر، وقد كسب هذا الإجماع من الشهادات الواضحة الصريحة التي جاءت في الإنجيل عنها، وفي مقدمة هذه الشهادات أقوال المسيح نفسه، إذ قال: "٣٠وَحِينَئِذٍ تَظْهَرُ عَلاَمَةُ ابْنِ الإِنْسَانِ فِي السَّمَاءِ. وَحِينَئِذٍ تَنُوحُ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ وَيُبْصِرُونَ ابْنَ الإِنْسَانِ آتِياً عَلَى سَحَابِ السَّمَاءِ بِقُوَّةٍ وَمَجْدٍ كَثِيرٍ." (مت٢٤: ٣٠). "٣١«وَمَتَى جَاءَ ابْنُ الإِنْسَانِ فِي مَجْدِهِ وَجَمِيعُ الْمَلاَئِكَةِ القديسون مَعَهُ فَحِينَئِذٍ يَجْلِسُ عَلَى كُرْسِيِّ مَجْدِهِ.(مت٢٥: ٣١). "حينئذ يبصرون ابن الإنسان

أتيا في سحاب ومجد كثير" (لو ٢١: ٢٧) "ها أنا أتي سريعا وأجرتي معي لأجازي كل واحد حسبما يكون عمله" " (رؤ ٢٢: ١٢). كما تواترت شهادة الرسل، إذ قال بولس في أكثر من موضع : " وأنت متوقعون استعلان ربنا يسوع المسيح "(١كو ١: ٧) "إذ لا تحطموا في شيء قبل الوقت حتى يأتي الرب" (١كو ٤: ٥) "٢٣وَلكِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ فِي رُتْبَتِهِ. الْمَسِيحُ بَاكُورَةٌ ثُمَّ الَّذِينَ لِلْمَسِيحِ فِي مَجِيئِهِ. (١كو ١٥: ٢٣). "فَإِنَّ سِيرَتَنَا نَحْنُ هِيَ فِي السَّمَاوَاتِ، الَّتِي مِنْهَا أيضا نَنْتَظِرُ مُخَلِّصاً هُوَ الرَّبُّ يَسُوعُ الْمَسِيحُ، (في٣: ٢٠). "٤مَتَى اظْهِرَ الْمَسِيحُ حَيَاتُنَا، فَحِينَئِذٍ تُظْهَرُونَ انْتُمْ أيضا مَعَهُ فِي الْمَجْدِ.(كو٣: ٤). "١٠وَتَنْتَظِرُوا ابْنَهُ مِنَ السَّمَاءِ، الَّذِي أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ، يَسُوعَ، الَّذِي يُنْقِذُنَا مِنَ الْغَضَبِ الآتِي.(١تس١: ١٠)."١٩لأَنْ مَنْ هُوَ رَجَاؤُنَا وَفَرَحُنَا وَإِكْلِيلُ افْتِخَارِنَا؟ أَمْ لَسْتُمْ أَنْتُمْ أيضا أَمَامَ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ فِي مَجِيئِهِ؟ (١ تس٢: ١٩) "لان الرب نفسه بهتاف بصوت"١٤أَنْ تَحْفَظَ الْوَصِيَّةَ بِلاَ دَنَسٍ وَلاَ لَوْمٍ إِلَى ظُهُورِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ"(١تي٤: ١٦). "وَأَخِيراً قَدْ وُضِعَ لِي إِكْلِيلُ الْبِرِّ، الَّذِي يَهَبُهُ لِي فِي ذلِكَ الْيَوْمِ الرَّبُّ الدَّيَّانُ الْعَادِلُ، وَلَيْسَ لِي فَقَطْ، بَلْ لِجَمِيعِ الَّذِينَ يُحِبُّونَ ظُهُورَهُ أيضا."(٢تي٤: ٨). "مُنْتَظِرِينَ الرَّجَاءَ الْمُبَارَكَ وَظُهُورَ مَجْدِ اللهِ الْعَظِيمِ وَمُخَلِّصِنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ."(تي٢: ١٣)."هكَذَا الْمَسِيحُ أيضا، بَعْدَمَا قُدِّمَ مَرَّةً لِكَيْ يَحْمِلَ خَطَايَا كَثِيرِينَ، سَيَظْهَرُ ثَانِيَةً بِلاَ خَطِيَّةٍ لِلْخَلاَصِ لِلَّذِينَ يَنْتَظِرُونَهُ".(عب٩: ٢٨). وقال الرسول بطرس: "لِكَيْ تَكُونَ تَزْكِيَةُ إِيمَانِكُمْ، وَهِيَ أَثْمَنُ مِنَ الذَّهَبِ الْفَانِي، مَعَ أَنَّهُ يُمْتَحَنُ بِالنَّارِ، تُوجَدُ لِلْمَدْحِ وَالْكَرَامَةِ وَالْمَجْدِ عِنْدَ اسْتِعْلاَنِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ."(١بط١: ٧)." مُنْتَظِرِينَ وَطَالِبِينَ سُرْعَةَ مَجِيءِ يَوْمِ الرَّبِّ." (٢بط٣: ١٢) ويقول الرسول يوحنا: "أَيُّهَا الأَحِبَّاءُ، الآنَ نَحْنُ أَوْلاَدُ اللهِ، وَلَمْ يُظْهَرْ بَعْدُ مَاذَا سَنَكُونُ. وَلكِنْ نَعْلَمُ أَنَّهُ إِذَا أُظْهِرَ نَكُونُ مِثْلَهُ، لأَنَّنَا سَنَرَاهُ كَمَا هُوَ." (١يو٣: ٢).

وواضح من هذه الشهادات إن المسيح لم يأتي فحسب، بل أكثر من ذلك سيأتي منظور للجميع، كما قال الملاكان لتلاميذ بعد صعوده: "وَقَالاَ: «أَيُّهَا الرِّجَالُ الْجَلِيلِيُّونَ مَا بَالُكُمْ وَاقِفِينَ تَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ؟ إِنَّ يَسُوعَ هذَا الَّذِي ارْتَفَعَ عَنْكُمْ إِلَى السَّمَاءِ سَيَأْتِي هكَذَا كَمَا رَأَيْتُمُوهُ مُنْطَلِقاً إِلَى السَّمَاءِ».(اع١: ١١) أو كما جاء في سفر الرؤية: "هُوَذَا يَأْتِي مَعَ السَّحَابِ، وَسَتَنْظُرُهُ كُلُّ عَيْنٍ، وَالَّذِينَ طَعَنُوهُ، وَيَنُوحُ عَلَيْهِ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ.(رؤ١: ٧).

ثانيا: المجيء الثاني وخطا تحديد وقته

على انه إذا كان الإجماع مستقرا على المجيء، فانه الخطى الذي ارتكبه كثيرون هو محاولتهم تحديد أو تعيين وقت هذا المجيء. وهذا الخطأ فادح لأكثر من سبب:

أولا- تحديد موعد مجيء المسيح الثاني ليس كتابيا على الإطلاق، بل إن روح الكتاب ونهجه ضد التحديد على خط مستقيم. الم يقل السيد المسيح: "وَأَمَّا ذلِكَ الْيَوْمُ وَتِلْكَ السَّاعَةُ فَلاَ يَعْلَمُ بهما أَحَدٌ وَلاَ مَلاَئِكَةُ السَّمَاوَاتِ إِلاَّ أَبِي وَحْدَهُ."(مت٢٤ :٣٦) كما صرح قبل الصعود للتلاميذ والرسل بقوله: "٧فَقَالَ لَهُمْ: «لَيْسَ لَكُمْ أَنْ تَعْرِفُوا الأَزْمِنَةَ وَالأَوْقَاتَ الَّتِي جَعَلَهَا الآبُ فِي سُلْطَانِهِ" (اع١: ٧) ومن ذلك يتبين انه ليس في قدرة الملائكة أو التلاميذ أو الرسل تعيين ذلك الزمان أو تحديد ساعته ويومه، فإذا أضيف إلى ذلك أن هذا المجيء سيكون فجائيا وخاطفا يستحل التنبؤ بموعده، إذ وصفه السيد بالقول: "٢٧لأَنَّهُ كَمَا أَنَّ الْبَرْقَ يَخْرُجُ مِنَ الْمَشَارِقِ وَيَظْهَرُ إِلَى الْمَغَارِبِ هكَذَا يَكُونُ أيضا مَجِيءُ ابْنِ الإِنْسَانِ.(مت٢٤: ٢٧). فمن ذا الذي يمكنه بعد هذا أن يفهم السر الذي اخفي عن الملائكة والرسل والملهمين؟!!..

ثانيا- إن تحديد موعد مجيء المسيح الثاني يناقض فكرة الله التي جعلت القصد الرئيسي ممن الحديث عن المجيء في الكتاب، تنبه الناس وإعدادهم لهذا المجيء، فتحديد الوقت من حيث قربه، أو بعده، يحدث ارتباكا بالغا وضررا كبيرا في حياة

المؤمنين، إذا ما بدا هذا الوقت قريبا بالكيفية التي لا يتمكنون معها من القيام بالمشروعات العظيمة الموضوعة أمامهم. وقد وضح هذا عندما توهم كثيرون في مطلع المسيحية أن المسيح سيأتي في أيامهم وشيكا، فباعوا ممتلكاتهم وتعطلوا عن أعمالهم، وكاد يحدث الخلل والارتباك في حياتهم، حتى اضطر الرسول بولس إلى الكتابة في رسالته إلى أهل تسالونيكي قائلا:" ١ثُمَّ نَسْأَلُكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ مِنْ جِهَةِ مَجِيءِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ وَاجْتِمَاعِنَا إِلَيْهِ، ٢أَنْ لاَ تَتَزَعْزَعُوا سَرِيعاً عَنْ ذِهْنِكُمْ، وَلاَ تَرْتَاعُوا، لاَ بِرُوحٍ وَلاَ بِكَلِمَةٍ وَلاَ بِرِسَالَةٍ كَأَنَّهَا مِنَّا: أَيْ أَنَّ يَوْمَ الْمَسِيحِ قَدْ حَضَرَ."(٢تس٢:!-٢) أما إذا بدا موعد المجيء الثاني ابعد مما يتوقعون، فما من شك بأنهم سيجربون بالتهاون والكسل وعدم الحمية والنشاط في الرسالة الموضوعة أمامهم، ومن ثم أغلق الله على الفكر البشري دون معرفة هذا الموعد أو تحديد وقته وساعته!!..

ثالثا – إن تحديد الوقت إذا لم يتيسر ضبطه ينشئ رد فعل سيئا، كما حدث عندما توهم كثيرون إن مجيء المسيح سيحدث سنة ١٠٠٠م على زعم إن الإلف سنة المذكورة في سفر الرؤية تقع بين المجيئين الأول والثاني، فصلوا وصاموا وكفوا عن الكثير من الشرور والخطايا، ولما مر الموعد المحدد ولم يأت المسيح انتقلوا إلى النقيض، وعادوا إلى اشر مجون وفساد. كما إن الأمر عينه يحدث بالنسبة لعقيدة الناس في الكتاب والنبوات، إذ يقودهم تحديد المفسرين الخاطئ للوقت إلى الشك والارتياب في صدقهما وصحتهما.

رابعا- إن تحديد الوقت إذ لم تثبت صحته يدفع غير المؤمنين إلى السخرية والتقسي وعدم الإيمان، إذ لا يفرق هؤلاء بين خطا المفسرين والعقيدة نفسها، بل يجعلون الأمر كله مثار هزئهم وسخريتهم، وأكثر من هذا يكون من الصعب بعد ذلك إقناعهم بقبول الإيمان والمجيء إلى المسيح المخلص.

فإذا ما تبينا كل هذا أدركنا حكمة الله العظيمة في أن يبقى هذا الأمر سرا مغلقا يعجز البشر أو الملائكة عن توقيته وتحديد موعده..

ثالثا – المجيء الثاني والعلامات السابقة عليه

على انه إذا كان من الخطى تحديد وقت المجيء، فلا يعني ذلك إن الكتاب لم يوضح العلامات التي تسبقه وتشير إلى دنوه واقترابه، وقد ذكر المسيح والرسل كثير من العلامات وقد تأتي هذه العلامات متتابعة أو معاصرة أو مكررة، ولكنها لابد من حدوثها جميعا قبل المجيء، ولعله من المناسب أن نشير ههنا إلى إن المسيح وهو يذكر هذه العلامات في نبوءته العظيمة على جبل الزيتون قبيل الصليب شطر النبوة شطرين، احدهما خاص بالحوادث التي ستقع ما بين الصعود وخراب أورشليم، والأخر خاص بالعلامات السابقة على مجيئه الثاني، ويبدوا إن ما حدث في خراب أورشليم لم يكن إلا صورة مصغرة للحوادث الأضخم والأعظم التي تلحق بالعالم قبل مجيئه العتيد.. وها نحن أولا نتابع بعد ذلك هذه العلامات فيما يلي :

١- الاضطهاد الدينية

وقد ذكر المسيح هذه الاضطهاد الدينية كأولى العلامات التي تظهر في حياة المؤمنين والتلاميذ إذ قال: "١٢وَقَبْلَ هَذَا كُلِّهِ يُلْقُونَ أَيْدِيَهُمْ عَلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ وَيُسَلِّمُونَكُمْ إِلَى مَجَامِعَ وَسُجُونٍ وَتُسَاقُونَ أَمَامَ مُلُوكٍ وَوُلاَةٍ لأَجْلِ اسْمِي."(لو٢١: ١٢). وهذا أو١٦).حدث لتلاميذ المسيح إذ تعرضوا للاضطهاد المتوالية التي دونها الوحي في سفر الأعمال كما دونها التاريخ، ويكفي أن نعلم إن كل الإخبار الواردة في العصور المسيحية الأولى تفيد شدة هذا الاضطهاد وعنفه، فقد ذكر كتبة الوحي والكتاب

المسيحيون الأوائل كما ذكر تاستيوس وبليني وسيتنيوس وهم الكتاب الرومان كيف كان المسيحيون مكروهين ومضطهدين من الوثنيين واليهود على حد سواء، وقد صاحب هذا الاضطهاد البغضاء والنزاع والكراهية التي قامت في العائلات، وقد رأى المسيحيون من الإباء والإخوة والأقرباء والأصدقاء صنوفا وألوانا قاسية من الشدة وأضيق والخيانة: "١٦وَسَوْفَ تُسَلَّمُونَ مِنَ الْوَالِدِينَ وَالإِخْوَةِ وَالأَقْرِبَاءِ وَالأَصْدِقَاءِ وَيَقْتُلُونَ مِنْكُمْ.(لو ٢١: ١٦).. ومع إن الثلاث قرون الأولى كانت ولا شك أفظع وارهب العصور التي اضطهد فيها المسيحيون، إلا إن الاضطهاد تتابع ومازال إلى اليوم في كثير من الدول والممالك بهذا اللون أو ذاك من صنوفه المتعددة التي تلحق بالحياة أو الحرية أو الرزق أو المساواة أو ما أشبه. غير إن هذا الاضطهاد يصاحبه على الدوام الوعد المبارك بان السيد لن يترك أتباعه، أو يهملهم بل سيكون معهم مسندا إياهم في كل المواقف والظروف، وشعرة واحدة من رؤوسهم لن تهلك بدون إرادته، كما انه سيهبهم الحكمة والقوة والاحتمال لمواجهة كافة المتاعب والآلام.

٢- الأنبياء والمسحاء الكذبة

وهذه علامة ثانية من العلامات السابقة على مجيء المسيح، إذ يقول: "(مر١٣: ٢٣) وقد ظهر حقا مسحاء وأنبياء كذبة كثيرون في مطلع المسيحية وفي عصور متفاوتة في التاريخ، وقد جاء ١كر البعض منهم في سفر الأعمال كسيمون الساحر وبارا يشوع وغيرهما، كما جاء ذكر الكثيرين أيضا في كتاب "الآثار " ليوسيفوس، وعرف التاريخ بعد ذلك صورا مروعة منكرة لأعداد كثيرة أخرى تركت أفظع وارهب الآثار في حياة الناس، وكانت السمة الواضحة في جميع هؤلاء الأنبياء والمسحاء الكذبة دعوتهم إلى الطغيان والمجد العالمي مما يخالف روح المسيح، ومما يسهل معه فصلهم عن بر المسيح وقداسته ومجده.

٣- تزايد الحروب والقلاقل

وقد كشف المسيح لتلاميذه انه لن يأتي قبل أن تمر بالبشرية طائفة رهيبة من الحروب والقلاقل والثورات والمخاوف التي تجتاح الأرض كلها، ومن الغريب أن طائفة منها ظهرت بكيفيات متزايدة ما بين صعود المسيح وخراب أورشليم. ومن يقرا ما كتبه يوسيفوس وتاسيتوس يدرك مدى ما أصاب العالم منها من زعر وقلق وخوف، وقد كان حصار أورشليم وتدميرها وتخريبها صورة من الصور الرهيبة لنبوة يسوع الصادقة، وقد هلك في الحصار مليون مائة إلف من سكانها، وتشتت اليهود بعد ذلك في بقاع العالم. وكان عددهم في ذلك الوقت حوالي ثمانية ملايين نفس، وجاء في وصف الضيق الذي عناه اليهود حينذاك قول يوسيفوس: "لو أن ماسي وتعاسات كل الناس جمعت من بدء العالم، لما كانت مريعة كالتي أصابت أورشليم يوم خرابها". وقول رينان: "أنهم كانوا جميعا على موعد مع التعاسة والشقاء الذي لا يوصف".وقد تلاحقت بعد ذلك الحروب حتى انتهت على النحو العالمي الرهيب الذي عرف في القرن العشرين والذي تشعل فيه الأرض كلها بنار الحرب، ويعتقد البعض إن المسيح إذ يقول: "«وَتَكُونُ عَلاَمَاتٌ فِي الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ وَعَلَى الأَرْضِ كَرْبُ أُمَمٍ بِحَيْرَةٍ. اَلْبَحْرُ وَالأَمْوَاجُ تَضِجُّ ٢٦وَالنَّاسُ يُغْشَى عَلَيْهِمْ مِنْ خَوْفٍ وَانْتِظَارِ مَا يَأْتِي عَلَى الْمَسْكُونَةِ"(لو ٢١: ٢٥،٢٦). ويقصد حرفيا ما يقول، إذ سيحدث تغير وتطور في الكواكب السيارة، بينما يعتقد آخرون إن المعنى رمزي، وان النجوم المنهارة والكواكب السيارة تشير إلى العظماء والإبطال الذين ارتفعوا وبلغوا عنان السماء، وكان سقوطهم عظيما، أما الحيرة والكرب فلعل التاريخ لم ير مثلهما كما في هذه الأيام في الصراع المرير القائم بين النظم المختلفة : "والناس يغشى عليها من خوف وانتظار ما سيأتي

على المسكونة" وهل هناك ما هو اقطع وارهب من هذه المخترعات الجهنمية المدمرة التي وصل إليها الإنسان، وكيف لا يعيش العالم بعد ذلك في رعب قاتل وظلمة مخيفة!؟.

٤ـ ثورات الطبيعة المتنوعة في كل مكان

والمسيح يبين إن الطبيعة ستشارك الإنسان في ثورته إذ : "تكون زلازل عظيمة في أماكن ومجاعات وأوبئة" (لو ٢١: ١١)وهو لن يأتي قبل أن تمر البشرية بهذه الدورات من الثورات، وقد ذكر سينكا كثيرا من الزلازل العظيمة التي حدثت كزلزال كريت عام ٤٦م وزلزال روما عام ٥١م وزلزال فريجية عام ٥٥م وزلزال لاوديكية عام ٦٠م وزلزال أورشليم عام ٦٧م، وعرف العالم بعد ذلك الزلازل المروعة في كل أركان الأرض المختلفة.. ولا يمكن أن ننسى المجاعات المتعددة التي حدثت في العصور المختلفة من التاريخ، والأوبئة الرهيبة التي فتكت بملايين الناس وما يزال اثر هذه الثروات وامتدادها من الظواهر المألوفة في الحياة، والتي هي مبتدأ الأوجاع، وسبق فأنبا المسيح بضرورة حدوثها قبل مجيئه الأخير.

٥ـ الارتداد الديني

وقد سبق المسيح وتحدث عن هذا الارتداد عندما قال: "وحينئذ يعثر كثيرون" (مت١٤: ١٠).. والارتداد في معناه ومدلولها شارة إلى إن الإنسان كان قد سبق واعترف بالمسيحية، ولكنه تحول عنها أما بضغط الاضطهاد، أو بإغراء الباطل، أو بلوثة الإثم، أو ما أشبه، مما يجعل الإنسان يرتد عن دينه ودين إبائه وأجداده، إن كان هؤلاء الآباء أو الأجداد قد سبقوا فقبلوا المسيحية وامنوا بها.. وصفحات التاريخ مليئة للأسف بصور هذا الارتداد حيث تحولت جماعات وقبائل وأمم عن المسيحية، وأخرها الارتداد الجماعي المنكر للملايين الرازحة تحت نير الشيوعية وعقيدتها اللادينية الملحدة، على إن الارتداد قد لا يأخذ ظاهر التحول الصريح عن المسيحية إلى دين أو عقيدة أخرى، بل لا يكون المسيحيين لا يعرفون من المسيحية سوى اسمها، إذ هم أولئك الذين وصفهم السيد بالقول: "ولكثرة الإثم تبرد محبة الكثيرين" (مت٢٤: ١٥).

٦ـ وصول رسالة الإنجيل إلى كل العالم

وثمة علامة أكيدة تسبق مجيء المسيح، وهي وصول رسالة الإنجيل إلى كل العالم، إذ يقول السيد: "ويكرز ببشارة الملكوت هذه في كل المسكونة شهادة لجميع الأمم" (مت٢٤: ١٤)ولا ينازع احد قط في ضرورة وصول هذه الرسالة إلى جميع إطراف الأرض قبل مجيء المسيح، إنما وجه الخلاف عند المسيحيين في مدى فاعليته هذه الرسالة، فبينما يعتقد فريق منهم إن الرسالة ستصل الجميع وتتلمذ جميع الأمم وتحقق العصر الذهبي، ليس في سيادة المسيحية بين الأمم والدول فحسب، بل في انتصار مبادئ الإنجيل في كل مكان، ويعتقد الفريق الأخر إن هذا كله مرهون لا بفعل الرسالة في حد ذاتها، بل بمجيء المسيح الشخصي وتدخله الفعال في الأرض، والخلاف على إي حال كما سنرى فيما بعد نظري، مادامت النتيجة من الوجهة العملية واحدة، إذ ستصبح الأرض كلها للرب ومسيحه، وتحكم مبادئ الإنجيل في كلتا الحالتين حياة الناس، وجميع تصرفاتهم وأعمالهم.. وعليه فيمكننا إن نؤكد مبدئيا إن الكرازة بالإنجيل في كل الأرض هي القدر المتيقن المتفق عليه عند الجميع. وإنها لابد إن تتم قبل مجيء المسيح الثاني!

رابعا – المجيء الثاني ونظرياته

ولعله من اللازم وقد اشرنا إلى اختلاف وجهات النظر حول موعد مجيء المسيح الثاني، قبل أو بعد غزو الإنجيل للخليقة كلها، إن نبين أساس هذا الخلاف وفحواه ونتائجه، وهل يمكن إن يكون إن يكون مجال للتلاقي أو الاتفاق رغم نشأته ووجوده!!؟؟..

ويتعين بادي ذي بدء الإشارة إلى إن هذا الخلاف نشا من تعدد الآراء والتفاسير حول ما جاء في سفر الرؤيا في الإصحاح العشرين عم ملك المسيح في الإلف سنة المذكورة هناك.. ومن الملاحظ مع تعدد الآراء والنظريات، فإنها تكاد تتجمع حول فكرين رئيسيين أساسيين أطلق عليها "المجيء قبل الإلف" و"المجيء بعد الإلف".. وها هو موجز الفكريين أو النظريتين فيما يلي:

نظرية المجيء قبل الإلف سنة

وقد يبدو من الضروري إن نشير إلى إن أول الآخذين بهذه النظرية في التاريخ كان معهم من المسيحيين الذين من أصل يهودي، وحملوا معهم مفهوم الفكر اليهودي إلى التيار المسيحي عن ملكوت المسيح، وان هذه النظرية شاعت على وجه اعم بين عام ١٥٠- ٢٥٠ م وكان من أبطالها بابياس تلميذ يوحنا ورفيق بوليكاربوس، وبرنابا - وهو من الآباء الرسوليين وغير برنابا وهو رفيق بولس، وهرماس ويوستنيان، وكبريانوي،.. وقد قوي مركزها بعد دفاع ايرانيوس وترتليانوس،.. غير إن اوريجانوس واواغسطينوس عارضاها، اخذين بالنظرية الثانية،.. على إن المفهوم اليهودي لم يكن وحده هو الدافع إلى اعتناق هذه النظرية في مطلع التاريخ المسيحي، بل لعل الاضطهاد الشديد في مطلع الثلاث قرون الأولى للمسيحية جعل لهذه النظرية لمعانها الكبير في الذهن المسيحي، والدليل على ذلك - بالمفهوم العكسي – إن البابوية فسرت الأمر كله طوال مجدها الزمني، بان روما قصبة المسيحية، ومركز ملكها ومجدها ومجدها، دون إي مكان أخر،.. ومن ثم فان الكنيسة المسيحية، ومركز ملكها ومجدها دون إي مكان أخر.. ومن ثم فان الكنيسة المسيحية لم تأخذ بالنظرية في فترات استقرارها وراحتها طوال خمسة عشر قرنا من الزمان..على إن بعض الكنائس والمذاهب المسيحية عادت إلى دراسة النظرية والأخذ بها، واغلب الظن إن هناك دافعين حديثين دفعا هذه الكنائس أو المذاهب إلى ذلك، أولهما بطء تقدم الإنجيل في اكتساب العالم إلى المسيح، وضعف الكرازة المسيحية وأثرها في العالم المعاصر، مما لا يشجع على الاعتقاد عندهم بان الإنجيل سيغزو العالم روحيا، كما انه من الوجهة الأخرى، يزداد الارتداد والفساد وحساب الخسائر يتفوق على نحو رهيب على حساب الأرباح والمكاسب!!..

كل هذا قد دفع أصحاب هذه النظرية إلى اليقين بان العالم لم يؤمن بالمسيح ويخضع له على أساس رسالة الإنجيل وانتشارها بين الناس وغزوها الجماعات والأمم والممالك، بل على العكس إن الناس سيصدون عن هذه الرسالة، ويتقدمون مع الزمن من سيء إلى أسوا، ولن تفلح معهم أي مواعظ أو رسائل أو إرشادات، مما يقتضي تدخل المسيح وظهوره بالمعنى الحرفي ليملك في الأرض ألف عام، هو العصر الذهبي للإنسان في كل تاريخه الطويل على هذه الأرض،.. وقبل أن نتعرض إلى طبيعة وصورة هذا الملك، كما يتصوره الآخذون به، ن الإشارة إلى انه سيبدأ كما يعتقدون: أولا بالقيامة الأولى، وهي في عرف البعض لجميع القديسين والإبرار، وفي عرف آخرين للشهداء فقط.. وإذ يقون هؤلاء جميعا من الأموات،.. يأتي ثانيا "الاختطاف" إذ يختطف الرب جميع هؤلاء مع المؤمنين الأحياء، الموجودين في الأرض عند مجيء المسيح!!... وإذ تخلو

الأرض من جميع المؤمنين، ولا يبقى فيها إلا الأشرار من الأمم واليهود على حد سواء يتعرض هؤلاء وأولئك لما يطلق عليه ثالثا: "الضيقة العظيمة".. وهي ارهب ضيقة تقع على البشر في كل التاريخ، ويكون من أثرها إيمان اليهود وبعض القبائل والأمم بالسيد المسيح، وتستمر هذه الضيقة سبع سنوات، وفي ختام السبع سنوات تحدث المعركة الحاسمة التي يطلق عليها " هرمجدون" وفيها ينشطر العالم إلى شطرين، وتتذبذب الحرب بينهما حتى يحسمها المسيح بظهوره الشخصي، فيقضي على "الوحش" و "النبي الكذاب" ويقيد الشيطان لمدة إلف عام يملك فيها المسيح ملكا حرفيا على الأرض!!..

ويقول الآخذون بهذه النظرية، إن الإلف عام هي الإلف سنة من الزمان يرونها على الأبواب، وذلك على حساب: انه من ادم إلى المسيح عاش البشر حوالي أربعة ألاف عام، يضاف إليها ألفان من الأعوام من مجيء المسيح إلى اليوم على وجه التقريب، فنحن على ختام ستة ألاف سنة من ادم إلى اليوم، وما خلق الله الخليقة في ستة أيام وارتاح في اليوم السابع، فإننا على مقربة من يوم الراحة الذي هو الملك الألفي للمسيح باعتبار إن يوما واحد عند الرب إلف سنة كما يقول الكتاب، فتكون البشرية قريبة الدخول في اليوم السابع من "الإلف السنة السابعة" التي يملك فيها المسيح ملكا كاملا على الأرض.. وتستريح أنفاس البشر، مما عانت من إلام وماسي ومتاعب من يوم ادم إلى يوم ملك المسيح على الأرض!!.. على إن الشيطان في ختام هذه الإلف سنة سيحل زمانا يسيرا وإذ يحاول لاسترداد ملكه وسلطانه يقضي عليه السيد القضاء الأخير، وتحدث بعد ذلك القيامة العامة للأشرار، والدينونة الأخيرة!!..

أما ما طبيعة ملك المسيح وحياة الناس في هذا الملك الألفي السعيد، فانه من الصعب إعطاءه صورة واضحة شاملة له، وان كان من المتفق عليه، إن المسيح والأتقياء والقديسين الحاكمين سيكونون في أجسادهم الممجدة، بينما المحكمون سيكونون في أجسادهم الأرضية، وان المسيح والحاكمين معه في الملكوت، سيكونون أشبه بالمسيح وموسى وايليا عندما ظهرا معه على جبل التجلي، بينما الذين على الأرض سيكونون كبطرس ويعقوب ويوحنا الذين رأوا هذا التجلي وبهروا به، ويعتقد إن المسيح في مجده السماوي، سيحكم الأرض، وستكون العلاقة بينه وبين الساكنين على الأرض أشبه بعلاقته بالتلاميذ بعد القيامة طوال الأربعين يوما!!..

والذين يأخذون بهذه النظرية، لا يرون الخطية تختفي نهائيا من الأرض، في الإلف سنة، لكن سلطانها سيكون ضعيفا جدا على الناس، لان الشيطان لم يعد رئيس هذا العالم، ولم تعد له قدرة الإغراء والتجربة، بعد إن قيد، وسيكون الناس أكثر إطاعة للحق، والسيطرة على الجسد الذي لا يأتيه هجوم من الخارج بقدر استعداده الداخلي أو ضعفه الروحي، والموت لن ينتهي، لكنه سيكون كأيام الإباء: "٢٠لاَ يَكُونُ بَعْدُ هُنَاكَ طِفْلُ أَيَّامٍ وَلاَ شَيْخٌ لَمْ يُكْمِلْ أَيَّامَهُ. لأَنَّ الصَّبِيَّ يَمُوتُ ابْنَ مِئَةِ سَنَةٍ وَالْخَاطِئَ يُلْعَنُ ابْنَ مِئَةِ سَنَةٍ.(اش٦٥: ٢٠).. وعلى العكس من ذلك تماما تكون العبادة لله اعلي مظهر في الأرض، كما إن الاستجابة إلى إنجيل المسيح، لن تكون قاصرة على أفراد يولدون الولادة الثانية كما في الوقت الحاضر، بل ستولد أمم وشعوب وقبائل دفعة واحدة!!..

وامتداد لهذا كله، لن تكون الأرض، على ما نرى اليوم، حافلة بالأمراض، والمحاكم، وقوات الحراسة، والجيوش، والأطباء، والمحامين، وما أشبه، إذ لم يعد لهؤلاء مكان بين الناس، وستتغير قصة الإنسان من الأساس، فلا جوع أو ضيق أو حاجة أو متاعب، وسيجلس كل واحد تحت تينته أو كرمته، وتنتهي جميع أدوات الحرب، ويعم السلام : "٤فَيَقْضِي بَيْنَ الأُمَمِ وَيُنْصِفُ لِشُعُوبٍ كَثِيرِينَ فَيَطْبَعُونَ سُيُوفَهُمْ سِكَكاً وَرِمَاحَهُمْ مَنَاجِلَ. لاَ تَرْفَعُ أُمَّةٌ عَلَى أُمَّةٍ سَيْفاً وَلاَ يَتَعَلَّمُونَ الْحَرْبَ فِي مَا بَعْدُ. (اش٢:

٤).. ولن يقف الأمر عند هذا الحد بل إن الوحوش نفسها ستستأنس: "٦فَيَسْكُنُ الذِّئْبُ مَعَ الْخَرُوفِ وَيَرْبُضُ النَّمِرُ مَعَ الْجَدْيِ وَالْعِجْلُ وَالشِّبْلُ وَالْمُسَمَّنُ مَعاً وَصَبِيٌّ صَغِيرٌ يَسُوقُهَا. ٧وَالْبَقَرَةُ وَالدُّبَّةُ تَرْعَيَانِ. تَرْبُضُ أَوْلاَدُهُمَا مَعاً وَالأَسَدُ كَالْبَقَرِ يَأْكُلُ تِبْناً. (اش١١: ٦-٨).. أو في لغة أخرى تصبح الإلف سنة عالم الكمال الذي يحن إليه الإنسان طوال حياته على هذه الأرض!!..

وفي ختام هذا الملك يحدث الارتداد، ولن يغسل الله الأرض هذه المرة بالطوفان كما حدث أيام نوح، بل يحرقها بالنار: "٧وَأَمَّا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ الْكَائِنَةُ الآنَ فَهِيَ مَخْزُونَةٌ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ عَيْنِهَا، مَحْفُوظَةً لِلنَّارِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ وَهَلاَكِ النَّاسِ الْفُجَّارِ."(٢بط٣: ٧). "١٠وَلكِنْ سَيَأْتِي كَلِصٍّ فِي اللَّيْلِ، يَوْمُ الرَّبِّ، الَّذِي فِيهِ تَزُولُ السَّمَاوَاتُ بِضَجِيجٍ، وَتَنْحَلُّ الْعَنَاصِرُ مُحْتَرِقَةً، وَتَحْتَرِقُ الأَرْضُ وَالْمَصْنُوعَاتُ."(٢بط ٣: ١٠).. وتنزل المدينة السماوية المقدسة من عند الله حيث يسكن الله مع الناس ويضيء بمجده فيها : " لها مجد الله "١١لَهَا مَجْدُ اللهِ، وَلَمَعَانُهَا شِبْهُ أَكْرَمِ حَجَرٍ كَحَجَرِ يَشْبٍ بَلُّورِيٍّ..٢٣وَالْمَدِينَةُ لاَ تَحْتَاجُ إِلَى الشَّمْسِ وَلاَ إِلَى الْقَمَرِ لِيُضِيئَا فِيهَا، لأَنَّ مَجْدَ اللهِ قَدْ أَنَارَهَا، وَالْحَمَلُ سِرَاجُهَا." (رؤ٢١: ١١، ٢٣)..وان يطرح الشيطان إلى الأبد في بحيرة النار، لن تعود الخليقة تئن، أو يكون هناك بحر حريا أو مجازيا، بل لن يكون هناك الم أو صراخ أو وجع.. لان الأمور الأولى قد مضت، هوذا الكل قد صار جديدا!!..

هذا هو موجز نظرية المجيء قبل الإلف – في خطوطها الرئيسية العامة مع بعض الخلاف في التفاصيل بين مفسر وأخر من أصحابها ومعتنقيها!!..

نظرية المجيء بعد الإلف

أما النظرية الأخرى المقابلة، فهي نظرية المجيء الثاني للمسيح بعد الإلف، وهذه النظرية لا تؤمن على الإطلاق بالملك الحرفي للمسيح على الأرض، إذ تعتقد على الدوام بان ملك المسيح روحي، وان مملكته كما قال هو أمام بيلاطس البنطي، ليست من هذا العالم: " أجاب يسوع مملكتي ليست من هذا العالم لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خدامي يجاهدون لكي لا اسلم لليهود ولكن الآن ليست مملكتي ههنا" (يو ١٨ : ٣٦).. وفي جميع الأمثال التي ذكرها المسيح عن الملكوت في الإصحاح الثالث عشر من إنجيل متى، نجد إن هذا الملكوت يقبله الناس عن طريق كلمة الله الحية الفعالة التي تدخل إلى قلوبهم، مما يبين الطابع الروحي له... كما إن هذا الملكوت كما يقول القديس بولس: " ليس ملكوت الله اكلا وشربا بل هو بر وسلام وفرح في الروح القدس" (رو ١١" ١٧).. وانه مفتوح أمام جميع بني البشر، وليس قاصرا على اليهود : "وَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كَثِيرِينَ سَيَأْتُونَ مِنَ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ وَيَتَّكِئُونَ مَعَ إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ ١٢وَأَمَّا بَنُو الْمَلَكُوتِ فَيُطْرَحُونَ إِلَى الظُّلْمَةِ الْخَارِجِيَّةِ. هُنَاكَ يَكُونُ الْبُكَاءُ وَصَرِيرُ الأَسْنَانِ».(مت٨: ١١، ١٢)..كما إن الطريق الوحيد المفتوح للدخول فيه لن يكون إلا بتغيير الحياة، والولادة الجديدة: "أجاب يَسُوعُ وقال الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنْ فَوْقُ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَى مَلَكُوتَ اللَّهِ.. ٥أَجَابَ يَسُوعُ: «اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللَّهِ."(يو٣: ٣، ٥).. وان الولادة الجديدة لا تتم إلا بالتوبة وغفران الخطايا: "١٣الَّذِي انْقَذَنَا مِنْ سُلْطَانِ الظُّلْمَةِ وَنَقَلَنَا إِلَى مَلَكُوتِ ابْنِ مَحَبَّتِهِ، ١٤الَّذِي لَنَا فِيهِ الْفِدَاءُ، بِدَمِهِ غُفْرَانُ الْخَطَايَا."(اكو١: ١٣، ١٤)..

ومن ثم فان المؤمنين بهذه النظرية يفسرون الملك الألفي بأنه ذلك الملك الذي يسيطر فيه المسيح ويسود بالإنجيل على الأمم والشعوب والممالك ويقولون مع الواعظ الاسكتلندي الشهير جيمس اور : "إني أؤمن بأننا لا يمكن إن نقرا الإنجيل بعدالة،

دون إن نؤمن بان المسيح سيأتي شخصيا في المستقبل، وان هذا هو رجاء الكنيسة العظيم.. ولكن يبدو لي بوضوح من قراءة العهد القديم والجديد، إن مجيء المسيح له معنى واسع شامل لأكثر من صورة ومظهر.. والمسيح عندما كان يتكلم في الإنجيل، ويتحدث عن مجيئه، كان يقصد أكثر من معنى، إذ كان يقصد مجيئه في الروح القدس عندما قال: "لا أترككم يتامى، إني أتي إليكم" (يو١٤: ١٨).. كما كان يقصد مجيئه في الدينونة لتدمير أورشليم والقضاء على الهيكل كما ذكر في إنجيل متى الإصحاح الرابع والعشرين.. وخلف هذا سيأتي في مجيئه الأخير عندما يأتي شخصيا.. وبهذا التفكير استطيع إن افهم فقط معنى القول: "اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ مِنَ الْقِيَامِ هَهُنَا قَوْماً لاَ يَذُوقُونَ الْمَوْتَ حَتَّى يَرَوُا ابْنَ الإِنْسَانِ آتِياً فِي مَلَكُوتِهِ». (مت١٦: ٢٨) وهذا القول أورده مرقس: " إِنَّ مِنَ الْقِيَامِ هَهُنَا قَوْماً لاَ يَذُوقُونَ الْمَوْتَ حَتَّى يَرَوْا مَلَكُوتَ اللَّهِ قَدْ أَتَى بِقُوَّةٍ».(مر ٩:!).. وذكره لوقا: "حتى يروا ملكوت الله" (لو٩: ٣٧).. وأيضا عندما قال: "فَإِنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ لاَ تُكَمِّلُونَ مُدُنَ إِسْرَائِيلَ حَتَّى يَأْتِيَ ابْنُ الإِنْسَانِ." (مت١٠: ٢٣).. إذ ليس من المعقول انه كان يشير إلى حوادث تمتد إلى ألفي عام مثلا، إذ من السهل إن يؤمن الإنسان في مثل هذه الحالة، إن السيد يقصد مجيئه بالقوة والنجاح والانتشار لملكوته"..

اجل وبهذا المعنى يمكن إن نرى المسيح، وقد جاء في الجسد، في مجيئه الأول، كما نراه يأتي إلى المؤمن بروحه القدوس ليسكن ويستقر فيه،، كما يأتي عند موته ليأخذه إليه، تحقيقا للقول: "٣وَإِنْ مَضَيْتُ وَأَعْدَدْتُ لَكُمْ مَكَاناً آتِي أيضا وَآخُذُكُمْ إِلَيَّ حَتَّى حَيْثُ أَكُونُ أَنَا تَكُونُونَ أَنْتُمْ أيضا ٤وَتَعْلَمُونَ حَيْثُ أَنَا أَذْهَبُ وَتَعْلَمُونَ الطَّرِيقَ». (يو١٤: ٣).. كما يأتي في النهضات وانتشار ملكوته، وقد بدا ذلك في التاريخ بالقضاء على أورشليم، وتدمير الهيكل، لتأخذ المسيحية سبيلها إلى العام اجمع...

ومن ثم فالأخذ بهذا الرأي يؤكدون إن الإلف سنة هي المرحلة التي يملك فيها المسيح ملكا روحيا لا حرفيا بانتشار الإنجيل وسيادته على قلوب الناس، وغزو الشعوب والأمم لمجد الفادي، أو في لغة أخرى إن الإلف سنة هي العصر الذهبي المجيد الذي يأتي فيه المسيح بقوة الروح القدس، ليكتسح أمامه جميع المعاثر والخطايا والعقبات، فيسود السلام وتمتلئ الأرض بالخير والرفاهية والسعادة والرخاء!!.. على هذا الأساس يفسرون تفسيرا روحيا ما جاء في الإصحاح العشرين في سفر الرؤية عن القيامة الأولى، فيذكرون انه كما جاءت في النص الكتابي قيامة "نفوس" وليس قيامة أجساد، وإنها نفوس الذين قتلوا، أو قيامة الشهداء، وان النص الكتابي لا يفصح بحال ما عن عودة هؤلاء الشهداء، أو الإبرار في الأرض ليملكوها أو يحكموا فيها، وان النفوس تعيش وتملك عندما تنتصر القضية التي كافحت وماتت من اجلها، في الوقت الذي يسقط فيه ولا يعيش أولئك الذين كانوا بالأمس ملء الدنيا وسمعها، وكانوا يحاربون أو يقاومون أو يفتكون بمن ظنوا إنهم إذا ماتوا فسينتهون، ولن تقوم لهم قائمة أو في تعبير أدق "قيامة" إلى الأبد.. وعلى هذا الأساس فالقيامة الأولى هي قيامة روحية، وليست قيامة أجساد، وكثيرا ما جاء في الكتاب ما يفيد ذلك كالقول: "استيقظ أيها النائم وقم من الأموات فيضيء لك المسيح " (اف٥: ١٤) "فان كنتم قد قمتم مع المسيح فاطلبوا ما فوق" (كو٣:!) وهي قيامة روحية للفرد، أو الكنيسة على حد سواء، وتحدث كثيرا في تغيير الحياة والولادة الجديدة سواء تم ذلك على صورة فردية، أو على صورة النهضات الجماعية كما حدث يوم الخمسين!!..

ولا يقبل الآخذون بالفكر الروحي بضرورة، لهذا السبب، وما تنادي به النظرية الأخرى، عن وجود قيامتين، الأولى كما اشرنا للإبرار، والثانية للأشرار والآثمة، وان بين الاثنين ألف سنة كاملة، بل يؤمنون بقيامة واحدة عامة أبدية، كما ذكر صراحة في العهد القديم أو الجيد على حد سواء : "٢وَكَثِيرُونَ مِنَ الرَّاقِدِينَ فِي تُرَابِ الأَرْضِ يَسْتَيْقِظُونَ هَؤُلاَءِ إِلَى الْحَيَاةِ

الأَبَدِيَّةِ وَهَؤُلاَءِ إلى العَارِ لِلازْدِرَاءِ الأَبَدِيِّ.(دا١٢: ٢).. "فَإِنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ فِيهَا يَسْمَعُ جَمِيعُ الَّذِينَ فِي الْقُبُورِ صَوْتَهُ ٢٩فَيَخْرُجُ الَّذِينَ فَعَلُوا الصَّالِحَاتِ إلى قِيَامَةِ الْحَيَاةِ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إلى قِيَامَةِ الدَّيْنُونَةِ.(يو٥: ٢٨، ٢٩).. "١٥وَلِي رَجَاءٌ بِاللَّهِ فِي مَا هُمْ أيضا يَنْتَظِرُونَهُ: أَنَّهُ سَوْفَ تَكُونُ قِيَامَةٌ لِلأَمْوَاتِ الأَبْرَارِ وَالأَثَمَةِ.(اع٢٤: ١٥)...

ولا يؤمن الآخذون بالفكر الروحي بضرورة عودة اليهود إلى ارض فلسطين، كما يزعم أصحاب الفكر الأخر،ويفسرون كل النبوات المرتبطة بالأمر، تفسيرا روحيا، ويقولون مع تشارلس هودج وهو بطل من أبطال التفسير الروحي، انه من الغريب حقا إن العهد الجديد لم يتعرض قط لهذه العودة الحرفية، لو إن الرجوع كان من الأمور الحتمية المخبأة في طيات المستقبل، كما إن التفسير الحرفي يقود إلى نتائج غريبة وشاذة، إذ يعود الملك داود ليحكم هو على الشعب وليس السيد المسيح كما جاء في نبوات حزقيال : "٢٤وَدَاوُدُ عَبْدِي يَكُونُ مَلِكاً عَلَيْهِمْ, وَيَكُونُ لِجَمِيعِهِمْ رَاعٍ وَاحِدٌ, فَيَسْلُكُونَ فِي أَحْكَـامِي وَيَحْفَظُونَ فَرَائِضِي وَيَعْمَلُونَ بِهَا."(حز٣٧: ٢٤).. كما إن هذه النبوات تتحدث كثيرا عن النظام اللاوي في تقديم الذبائح (حزقيال إصحاح ٤٠- ٤٦).. مع إن هذا النظام قد انتهى بذبيحة المسيح والصليب إلى الأبد، أو كما يقول كاتب الرسالة إلى العبرانيين : "١١فَلَوْ كَانَ بِالْكَهَنُوتِ اللاَّوِيِّ كَمَالٌ - إذ الشَّعْبُ أَخَذَ النَّامُوسَ عَلَيْهِ - مَاذَا كَانَتِ الْحَاجَةُ بَعْدُ إلى أَنْ يَقُومَ كَاهِنٌ آخَرُ عَلَى رُتْبَةِ مَلْكِي صَادِقَ... ١٨فَإِنَّهُ يَصِيرُ إِبْطَالُ الْوَصِيَّةِ السَّابِقَةِ مِنْ أَجْلِ ضُعْفِهَا وَعَدَمِ نَفْعِهَا" (عب٧: ١١، ١٨).. ويستندون في هذا التفسير الروحي إلى إن المسيحيين المؤمنين دعوا في العهد الجديد نسل إبراهيم: "٢٨لَيْسَ يَهُودِيٌّ وَلاَ يُونَانِيٌّ. لَيْسَ عَبْدٌ وَلاَ حُرٌّ. لَيْسَ ذَكَرٌ وَأُنْثَى، لأَنَّكُمْ جَمِيعاً وَاحِدٌ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ. ٢٩فَإِنْ كُنْتُمْ لِلْمَسِيحِ فَأَنْتُمْ إذا نَسْلُ إِبْرَاهِيمَ، وَحَسَبَ الْمَوْعِدِ وَرَثَةٌ. (غل٣: ٢٨، ٢٩).. كما إنهم هم إسرائيل بالمعنى الحرفي أو "إسرائيل الله" : "١٥لأَنَّهُ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ لَيْسَ الْخِتَانُ يَنْفَعُ شَيْئاً وَلاَ الْغُرْلَةُ، بَلِ الْخَلِيقَةُ الْجَدِيدَةُ. ١٦فَكُلُّ الَّذِينَ يَسْلُكُونَ بِحَسَبِ هَذَا الْقَانُونِ عَلَيْهِمْ سَلاَمٌ وَرَحْمَةٌ، وَعَلَى إِسْرَائِيلِ اللهِ." (غل٦: ١٥، ١٦)..كما إن الكهنوت المسيحي والذبائح الهما البتةلاقة لهما البتة بالنظام الحرفي والمادي اليهودي : "١فَأَطْلُبُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ بِرَأْفَةِ اللهِ أَنْ تُقَدِّمُوا أَجْسَادَكُمْ ذَبِيحَةً حَيَّةً مُقَدَّسَةً مَرْضِيَّةً عِنْدَ اللهِ عِبَادَتَكُمُ الْعَقْلِيَّةَ.".(رو١٢:١). "١٥فَلْنُقَدِّمْ بِهِ فِي كُلِّ حِينٍ لِلَّهِ ذَبِيحَةَ التَّسْبِيحِ، أَيْ ثَمَرَ شِفَاهٍ مُعْتَرِفَةٍ بِاسْمِهِ. ١٦وَلَكِنْ لاَ تَنْسُوا فِعْلَ الْخَيْرِ وَالتَّوْزِيعَ، لأَنَّهُ بِذَبَائِحَ مِثْلِ هَذِهِ يُسَرُّ اللهُ."(عب١٣: ١٥، ١٦).. أما اليهود كجنس، فلا شبهة في إن التفسير الصحيح للإنجيل يقطع بأنهم سيبقون عميانا، وضع البرقع على قلوي، حتى يرفع، وتنفتح عيونهم ليرجعوا إلى المسيح الذي رفضوه وصلبوه.. وهذا ما يذكره الرسول بولس على نحو مطول حاسم في الإصحاحات التاسع والعاشر والحادي عشر من الرسالة إلى أهل رومية!!..

فإذا انتهينا من هذا كله تعين إن ندرك إن الإلف سنة هي العصر الذهبي المجيد في تاريخ المسيحية، وان هذا العصر لا يمكن إن يقل بهاء أو مجد في معناه الروحي، عن مجيء المسيح الحرفي المنظور حسب النظرية الأخرى، إذ ستسود مبادئ المسيح، وتمتلئ الأرض كلها من مجده، ويعيش الناس تحت لواء السيد الواحد والملك الفريد، وتنعم الأرض بالسلام والازدهار والخير والبركة، يوم تنتهي كل المجاعات، والضيق، والتعاسة، والمعاناة، والحروب، على نحو لم تعرفه البشرية على وجه الإطلاق في تاريخها المتعب الطويل!!..

ويأتي في اثر ذلك السؤال الذي لابد منه وهو: هل هذه الإلف سنة حرفية، أم هي تاريخ طويل غير محدد!!؟ ومتى تبدأ وهل تكون غلبة الإنجيل فيها كاملة أم تأخذ صورة قريبة من الكمال والتمام فقط!!؟

والإجابة هنا مختلفة بين أصحاب النظرية ومؤيديها، فهناك أولا الرأي القديم الذي ينادي بان الإلف سنة هي فترة طويلة غير محددة بين المجيء الأول والثاني للسيد المسيح، وان المسيح قد قيد الشيطان بالصليب إذ أشهره جهارا ظافرا به، وان الشيطان ليس له القوة الكاملة بعد الصليب ليفعل ما يشاء، ويسيطر كما يريد، على النطاق الواسع الذي ساد فيه العالم بالسقوط.. ولكن هذا الرأي لا يمكن إن يثبت من ذات كلام المسيح، إذ لا يعقل إن يكون العصر الذهبي للمسيحية هو العصر الذي ظهرت في جانب كبير منه علامات الاضطهاد والارتداد والثورات والحروب والقلاقل والمجاعات وما أشبه!!.. ومن ثم فقد عدل كثيرون عن هذا الرأي إلى الأخذ بان الإلف سنة فترة غير محددة تقع قبل القيامة والدينونة، وهي الفترة التي لا ينازع فيها سلطان الإنجيل ومجد ابن الله في الأرض!!.

أما الذين يعتقدون بان الإلف سنة لابد إن تكون فترة محددة، فقد اختلف تحديدهم لبدايتها ونهايتها.. فحددها بعضهم مبتداه من الإمبراطور قسطنطين أول إمبراطور مسيحي في التاريخ، وحددها آخرون من الإمبراطور شارلمان علم ٨٠٠م، وقال واحد من أصحاب هذا الرأي الأخير وهو هنجستنبرج، إن السنوات أخيرة بعد تمام الإلف السنة، هي فترة الارتداد التي بدأت من القرن التاسع عشر.. ولكن من المسلم به، إن هذا الرأي غير صحيح وغير سديد على الإطلاق، لسبب صغير يسير، إن الشطر الأكبر لهذا التاريخ- وليس مجرد الفترة المذكورة _ كان من أتعس واشر المراحل الروحية في تاريخ الكنيسة، وأدناها إلى الظلمة والفساد، مما لا يمكن إن يوصف في قرب أو بعد بالعصر الذهبي المجيد في ملك المسيح!!..

ويوجد من يعتقد إن الإلف سنة مرتبطة بفكرة "اليوم السابع" في عمر البشرية بالمعنى المشار إليه في نظرية: "المجيء قبل الإلف".. مع هذا الفارق انه مجيء روحي، وليس منظورا كالذي ينادي به في النظرية الأخرى!!..

وأيا كان الخلاف حول ميعاد الإلف سنة أو تحديد وقتها، فان أصحاب النظرية متفقون، على المعنى الروحي فيها، وإنها ستكون المع وامجد العصور في التاريخ البشري كله، كما يتفقون أيضا على إن الشيطان سيحل في نهايتها لزمن يسير، ليقضي عليه المسيح في أخر المعارك الروحية الحاسمة!!..

الرأي التوفيقي بين النظريتين

وان وقد عرضنا للنظريتين في قصد وإيجاز، يطوف ولا شك بنا هذا السؤال أي النظريتين ولى بالقبول واصح!!؟.. ومع إن الإجابة ليست من السهولة بمكان، إذ إن للنظريتين أنصارهما الأقوياء في التاريخ، كما إن الحق الإلهي فيهما أوسع من أذهان الناس، ولا يجوز لواحد مهما كان شانهن إن يعتقد إن تفسيره، هو التفسير الواحد الصحيح النهائي في أمور، جعلها الله في سلطانه وحكمته العالية، إلا انه لا يمنع إن يرجح ما يستريح إليه من تفسير.. وهو التفسير ألواح الصحيح النهائي في أمور، جعله الله في سلطانه وحكمته العالية، إلا انه لا يمنع إن يرجح ما يستريح إليه من تفسير.. واني شخصيا منذ سنوات كثيرة، أحاول بعيدا عن كل المؤثرات، التي يتعرض لها الباحث فكريا أو عاطفيا في هذا الموضوع، إن احدد موقفي من التفسيرات والآراء المعددة لهذا الموضوع، وأظن إني أصبحت أميل بعد عمق التأمل، إلى ما يمكن إن أطلق عليه الرأي التوفيق بين النظريتين، وهو القدر المتيقن من الحقائق الأساسية التي لا شبهة فيها على الإطلاق!!.. والحقائق الواضحة هي :

أولا: الحقيقة تجاه الجنس اليهودي الموجود على الأرض: وهي حقيقة مؤلمة وقاسية وشديدة، إذ انه سيتعرض قبل الملك الألفي "للضيقة العظيمة" وهي ارهب الضيقات التي عرفها في تاريخها لطويل على الأرض، وانه مهما يظن إن قواعده

مستقرة، وفد قدرته أن يلعب الشعوب سياسيا واقتصاديا، فانه لا يمكن أن يعرف هدوءه وأمنه وراحته واستقراره، قبل عودته إلى المسيح وقبوله مخلصا وفاديا وربا، إن الآلام والمتاعب والعذابات التي عاناها هذا العشب جاءت نتيجة صلبه المسيح ورفضه إياه، وقوله-أي الشعب اليهودي- المفجع يوم الصليب: " دمه علينا وعلى أولادنا".. وان ألفي عام تشهد بصدق نبوة المسيح عنهم عندما قال لهم: "أَمَا قَرَأْتُمْ قَطُّ فِي الْكُتُبِ: الْحَجَرُ الَّذِي رَفَضَهُ الْبَنَّاؤُونَ هُوَ قَدْ صَارَ رَأْسَ الزَّاوِيَةِ. مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ كَانَ هَذَا وَهُوَ عَجِيبٌ فِي أَعْيُنِنَا؟ ٤٣لِذَلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَلَكُوتَ اللَّهِ يُنْزَعُ مِنْكُمْ وَيُعْطَى لأُمَّةٍ تَعْمَلُ أَثْمَارَهُ. ٤٤وَمَنْ سَقَطَ عَلَى هَذَا الْحَجَرِ يَتَرَضَّضُ وَمَنْ سَقَطَ هُوَ عَلَيْهِ يَسْحَقُهُ». (مت٢١: ٤٢-٤٤).. كما إن الرسول بولس فسر هذه الحقيقة بالقول: "٣٢لِمَاذَا؟ لأَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ لَيْسَ بِالإِيمَانِ بَلْ كَأَنَّهُ بِأَعْمَالِ النَّامُوسِ. فَإِنَّهُمُ اصْطَدَمُوا بِحَجَرِ الصَّدْمَةِ ٣٣كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: «هَا أَنَا أَضَعُ فِي صِهْيَوْنَ حَجَرَ صَدْمَةٍ وَصَخْرَةَ عَثْرَةٍ وَكُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ لاَ يُخْزَى». (رو ٩: ٣٢، ٣٣).. وستبقى حياتهم على الدوام في خط مستمر من الرض والصدمة والعثرة والسحق حتى يعودوا إلى الفادي إلي جهلوه وأنكروه!!.. والقول بغير ذلك ليس كتابيا على الإطلاق!!..

ثانيا: والحقيقة الثانية إننا نحن ألان على أبواب الملك الألفي للمسيح في مجده العظيم.. وان المسيح آت سريعا مهما يختلف في فهم هذا المجيء أو أسلوبه، إذ إن جميع العلامات السابقة قد تمت أو كادت، وان البشرية قد نضجت لهذا المجيء وتقف على حافته.. وان النظرة الصادقة له تبين إن الفارق بين النظريتين – من الوجهة العملية – معدوم.. فإذا جاء المسيح بالمعنى الحرفي المنظور، فان صورة الأرض كلها ستتغير، وسيصبح كل شيء محكوما بالدين والحق والخير والنعمة والمحبة والسلام وما أشبه من مثل وفضائل، وتتعانق الحياة الروحية والمدنية بين الناس في كل مكان.. ونفس الأمر يحدث تماما إذا جاء بالمعنى الروحي الكاسح العظيم، ويصبح يوم الخمسين مثلا ورمزا لما يمكن إن يفعله الروح القدس في كل امة تحت السماء.. فإذا عن القارئ بعد ذلك إن يسال – إلى جانب الرأي التوفيقي- ولكن إلى أي النظريتين اقترب أنا شخصيا!!؟ أقول له دون أدنى شبهة إني اقرب وأميل إلى النظرية الروحية، وذلك إن جميع الأفكار والتفسيرات التي ينادي بها أصحاب الملك الحرفي ما تزال عاجزة عن إقناع ذهني بالكثير من الصعاب التي سبقت الإشارة إليها في عرض هذه النظرية.. كما إني لا استطيع إن أتصور إن أي ملك حرفي للسيد المسيح في الأرض، مهما حقق من سعادة أو مجد للناس، يمكن إن يداني مجده السماوي الذي يسيطر به على قلبي وعلى قلوب كل الناس كملك الملوك ورب الأرباب.. فإذا جاء السؤال الأخر، ولكن ما قولك في إن العالم في وصفه البشع الحاضر لا يمكن إن يشجع على الإطلاق، حتى النظرية الروحية التي تؤمن بها!!؟ وكيف يمكن تذليل الصعاب الفكرية الواضحة بين الأمل البراق والواقع المفجع المشاهد ألان في كل مكان!!؟.. أقول بغير تردد إن هذا الواقع بالذات قد يكون واحدا من الأسباب التي تدعو لمجيء المسيح سريعا إلى القارص، فهو خلاصة العلامات السابقة على مجيئه..!! وإذا كان قد حدث على سبيل المثال حوار بين اثنين عن الحرب العالمية الثانية، فقال الأول: إذا كان هناك اله موجود فكيف يمكن إن يمسح بمثل هذا الدمار الرهيب الذي جاءت به الحرب!!؟.. وكان جواب الثاني: إن هذه الحرب هي التي جعلتني أؤمن بوجود الله!!؟ ويقصد انه لا يستطيع إن يتصور البتة عالما يتحول الناس فيه إلى وحوش دون إن يكون هناك اله ديان عادل!.. والمسيح هو الواحد الذي يستطيع إن يغير كل شيء في عالمنا هذا، بعد إن جرب البشر دون جدوى كل الوسائل والأساليب التي تخطر ببالهم في تغيير وإصلاح الحياة البشرية!!.. كما إني أؤمن بان قدرة السيد وقوته بلا حدود، وانه يستطيع إن يفعل في يوم واحد ما يحتاج في تصور الناس إلى ألف سنة!!.. كما إني أؤمن بان اشد الظلمة ما كانت خلف الباب، أو التي تسبق الفجر على الدوام.. وانه يأتي عادة في الهزيع الرابع من الليل!!.. كما إني اعتقد إن الألف سنة المشار

إليها في سفر الرؤية، لا يمكن إن تكون طوال الفترة بين المجيء الأول والمجيء الثاني، إذ لا استطيع إن أتصور إن قرون العذاب والظلام التي عاشتها الكنيسة جزء من ملكوت الفادي المزدهر على هذه الأرض!!.. ومن ذا الذي يجرؤ على القول إن الملكوت،د نخر فيها الفساد مئات السنين حتى جاء عصر الإصلاح والنهضة، كذلك تعيش في الملك الألفي السعيد.

إن هناك فرقا واضحا بين بدء هذا الملكوت، وبين ازدهاره وعظمته ومجده.. ومن السهل أن يقال إن الملكوت بدا بمجيء المسيح إلى العالم.. فقد بدا المعمدان كرازته قائلا: "توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات" (مت٣: ٢).. كما إن السيد قال للفريسيين: " ولكن إن كنت أنا بروح الله اخرج الشياطين فقد اقبل عليكم ملكوت الله" (مت١٢: ٢٨).. وبين أن هذا الملكوت يبدأ في الخفاء في داخل القلب: "لان ها ملكوت الله داخلكم" (لو١٧: ٢١).. أو حبة خردل تصبح فيما بعد شجرة كبيرة تتأوى في أغصانها طيور السماء.. اجل!!.. وهناك فارق بين منظر الحجر الصغير الذي قطع بغير يدين.. وهذا الحجر عندما تحول جبلا كبيرا يملا الأرض كلها!!..

والملك الألفي على هذا الأساس، ليس هو الحجر عندما نراه في بدء مظهره.. بل هو الملكوت عندما يبدو في منظر الجبل الذي يملا الأرض كلها!!.. عندما: "وَفِي أَيَّامِ هَؤُلاَءِ الْمُلُوكِ يُقِيمُ إِلَهُ السَّمَاوَاتِ مَمْلَكَةً لَنْ تَنْقَرِضَ أَبَداً وَمَلِكُهَا لاَ يُتْرَكُ لِشَعْبٍ آخَرَ وَتَسْحَقُ وَتُفْنِي كُلَّ هَذِهِ الْمَمَالِكِ وَهِيَ تَثْبُتُ إِلَى الأَبَدِ. (دا ٢: ٤٤)...

وإذا كان السيد المسيح قد علمنا، مع هذا كله، أو لهذا كله، إن نصلي من اجل مجيء الملكوت ونموه وامتداده في الصلاة الربانية : "ليأت ملكوتك".. فلا يمكن إن يكون هذا الملكوت حقيقة منتهية واقعة في نظر السيد بل أملا جديدا مجيدا حقيقيا لابد إن تأتي به الأيام، ويتمخض عنه في المستقبل!!..

وإذا كانت المسيحية قد عرفت في النهضات غلى وجه باهر تجديد الأفراد والجماعات، على مثل ما حدث يوم الخمسين، فان المسيح لابد إن يأتي في شيء أكثر من ذلك، فتغيير أمم بأكملها تحقيقا لنبوة اشعياء: "مَنْ سَمِعَ مِثْلَ هَذَا؟ مَنْ رَأَى مِثْلَ هَذِهِ؟ هَلْ تَمْخَضُ بِلاَدٌ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ أَوْ تُولَدُ أُمَّةٌ دَفْعَةً وَاحِدَةً؟ فَقَدْ مَخَضَتْ صِهْيَوْنُ بَلْ وَلَدَتْ بَنِيهَا!"(اش٦٦: ٨).. وهذا لا يمكن إن يتم إلا في مجد المسيحية في الملك الألفي العظيم!!..

إن ملايين الناس على الأرض تغني : إن يتعالى اسم فادينا وان تمتلئ الأرض كلها من مجده!!.. ولا يمكن إن تكون هذه إلا أغنية الإيمان للعالم في الملك الألفي السعيد...

وغاية ما ننتهي به لهذا كله إن الملك الألفي على الأبواب، وان بهاؤه الروحي عندما يتم على الأرض كلها يتفوق على كل ما هو حرفي أو مادي أو منظور!!

ثالثا: ومن المسلم به أخيرا عند أصحاب النظريتين إن الشيطان سيحل بعد ذلك زمانا يسيرا ليأخذ محاولته الأخيرة في تدمير هذا الملكوت، ليقضي عليه المسيح في معركة نهائية فاصلة، وتأتي بعد ذلك القيامة العامة، والدينونة الأخيرة، لتطوي أخر صفحات القصة البشرية على هذه الأرض!!..

خامسا: المجيء الثاني واستعداده

والآن بقيت الكلمة الأخيرة في هذا الموضوع كله وهي كيف نفكر في هذا المجيء ونترقبه ونستعد له. وواضح إن هذا الاستعداد لا ينبغي إن يكون بمجرد "الحساب" لمعرفة الوقت أو تحديده، كما درج الكثيرون في مختلف العصور على ذلك، ممن كان شاغلهم الشاغل معرفة الموز والأرقام ومن يكون "الوحش" أو " النبي الكذاب" أو "٦٦٦" أو غير ذلك من الإشارات أو الرموز، إذ لا يمكن إن يكون القصد الإلهي من ذكر الموضوع في الكتاب إن نجعله مسلاة أو ملهاة لإمتاع الذهن أو إرواء العاطفة أو إشباع الفضول، إذ إن قصد الله ولا شك بإعلان هذا الموضوع الحيوي الخطير قصد سام عظيم مهيب مجيد يستهدف تحذير البشر وتنبيههم الدائم للمصير الأبدي الذي لابد إن يكون، كما إن هذا الاستعداد لا ينبغي إن يكون "بالتعصب" لفكرة واحدة معينة بالذات قد تورث اليأس أو تدعو إلى التكاسل، إذ لا يجوز مثلا إن يهمل الآخذون بفكرة المجيء قبل الألف التبشير والمناداة بالإنجيل لمجرد عقيدتهم في إن الإنجيل لن يكسب العالم كله للمسيح،كما لا يجوز لطرف الأخر إن يكف عن تصور إن المسيح قد يأتي منظورا في الحال بين لحظة وأخرى..

إن الاستعداد الصحيح السليم للمجيء متركز في قول السيد المسيح لتلاميذه بعد إن حدثهم عنه: " انظروا، اسهروا وصلوا لأنكم لا تعلمون متى يكون الوقت" (مر١٣: ٣٣). أو في لغة أخرى إن على المؤمنين تجاه المجيء الثاني أمرين أساسيين لا أكثر ولا اقل وهما السهر والصلاة، إما السهر فيكون على الدوام بالانتظار والتشدد والخدمة، إذ إن الساهر هو ذلك الإنسان المنتظر الذي يتوقع مجيء سيده بين الحين والأخر، وقد كان القديسون القدماء أفضل منا كثيرا في هذا الأمر، إذ كانت هتافاتهم الدائمة. "ماران اثا" أي "الرب قريب" "آت سريعا" "أمين تعال أيها الرب يسوع".. إن الواجب المسيحي الدائم هو انتظار المجيء بكل شوق ورغبة وتلهف..

كما ينبغي إن تكون في سهرنا متشددين، إذ لا يجوز إن تروعنا أية متاعب أو تفزعنا أية صعاب مادام مجيء السيد على الأبواب. وعلينا إلا نكون في سهرنا خاملين أو كسولين، بل إن نخدم بكل ما نملك أو نعطى من وزنة أو طاقة عالمين بأنه: " لابد إننا جميعا نظهر أمام كرسي المسيح لينال كل واحد ما كان بالجسد بحسب ما صنع خيرا كان أم شرا" (٢كو ٥: ١٠). وليكن جوابنا للحياة أو العالم ما قاله كلفن عندما طلب إليه البعض أن يهدا أو يستريح قليلا في الخدمة، فأجاب: "وماذا افعل إذا جاء المسيح ووجدني مستريح!!؟".

أما الصلاة فهي دعوة المشوق والمحتاج، والمصلح، وهل هناك شوق يمكن أن يعدل شوق المؤمن بمجيء سيده ومخلصه وحبيبه وفاديه.. لقد كانت أخر كلمات المسيح في سفر الرؤيا: "نعم. إني أتي سريعا" (رؤ٢٢: ٢٠) وعندئذ هتف يوحنا مصليا على الفور بصلاة كل مسيحي مشوق إلى سيده في كل عصر وجيل: "أمين تعال أيها الرب يسوع" ولعله من الواجب أن تحتل هذه الصلاة المشوقة مكان الصدارة من صلواتنا اليومية في كل مقام ومجال.. على إن الصلاة إلى جانب ذلك صلاة المحتاج إلى مجيء السيد، للخلاص من كل ما في العالم من تجارب، ومآس ودموع وخطايا وإحزان، ولا سبيل إلى القضاء عليها نهائيا والى الأبد إلا بمجيئه الثاني المبارك العتيد.. وهل من شك إن صلوات الممنين ولجاجتهم في الأمر لها أعمق الأثر في قلب الله حتى يدنى أو يقرب هذا اليوم السعيد.

وأخيرا فان الصلاة هي دعوة المصلح الذي يرغب في القضاء الأبدي على كافة الأوضاع التعسة والشريرة والمقلوبة في الأرض، ولا يمكن أن يحدث هذا أو يتم في جلاله وكماله قبل أن يقود المسيح المعركة الأخيرة، ويقضي على إبليس وجنوده،

ويقف الجميع أمام العرش العظيم الأبيض في الحساب الأخير.. ما أحوجنا إذا – بعد هذا كله – إلى أن نصيح بكل ما فينا من شوق وقوة وبهجة وحماس ويقين ومحبة: "آمين تعال أيها الرب يسوع".

الفصل الثاني والعشرون: إيماني بالأبدية

لعل من أهم وأدق الأسئلة التي تطرح على الذهن على الذهن البشري في كل جيل وعصر، ماذا يحدث للإنسان بعد الموت؟ وهل يتلاشى جسدا وروحا!!؟ أم تنفصل الروح عن الجسد لتبدأ حياة جديدة وقصة جيدة!!؟ وإذا حدث هذا الانفصال فهل إلى حين أو للأبد!!؟ وإذا كان هذا الانفصال موقوتا فكيف تعود الروح إلى الجسد!!؟وكيف يقام الأموات وبأي جسم يأتون!!؟ ثم ما هو الحساب أو الدينونة الأخيرة إن كان ثمة حساب أو دينونة أخيرة!!؟ وهل هناك سماء وجهنم وما هما أو أين هما!!؟ وهل يفترق الناس ليوزع مصيرهم الأبدي بين الاثنين!!؟ وعلى أي أساس يتم هذا الافتراق!!؟ وهل ينسجم مع محبة الله وعدالته، أن يظل السعيد سعيدا إلى الأبد والتعس تعيسا إلى الأبد!!؟

وواضح إن هذه الأسئلة الخطيرة كانت وما تزال من أعمق واهم الأسئلة التي تلون الفكر البشري وتحدد مصائر الناس في كل التاريخ، بل واضح أنها تقف في المقدمة بين أعظم الأسئلة التي تدع الحياة البشرية بطابع لا ينتهي أو يموت.. ومن ثم كان لزاما علينا أن نتعرض لها جميعا لنرى، لا جواب العقل أو الفكر الإنساني المحدد فحسب، بل جواب المسيحية الراسخ المنير أيضا، ولعلنا نصل إلى كل هذا اثر متابعة الحقائق التالية:

أولا – ماذا يحدث للإنسان اثر الوفاة؟

عندما يجود الإنسان بأنفاسه الأخيرة ويضحي جثمانا هامدا، ماذا يحدث له اثر الوفاة حالا!؟ أما الجسد فواضح انه يأخذ سبيله إلى التحلل، حتى يضحى رمسا وترابا، ولا صعوبة في تصور هذه الحقيقة إذ هي ملموسة للجميع، لكن الصعوبة تبدى عندما نتساءل. هل انتهى الإنسان بالوفاة أم بدا حياة جديدة!!؟

ولعل الإجابة الدقيقة على هذا السؤال تقتضي إن نسال سؤلا أخر: هل الجسد هو كل ما في الإنسان، أم إن له روحا تصاحب جسده وتستقر فيه، وهي سر حياته وحركته، وإنها تبارحه بالوفاة!!؟ وقد دفعنا في أكثر من موطن في هذا الكتاب الشبهة القائلة بان الإنسان جسد أو مادة فحسب، دفعناها عندما أنكرنا إلوهية الكون عند القائلين بان الإنسان جزء من الكون كما إن الغصن جزء من الشجرة،أو كما إن قطعة الأثاث جزء من البيت، ودفعناها عندما أنكرنا الفكر المادي المجرد عن الإنسان عند الحديث عن الخليقة والعلم والخليقة والمعنى والإنسان ووجوده فلا حاجة بعد ذلك إلى مزيد من التكرار، ويكفي أن نشير إلى ههنا إلى أعظم أساتذة علم النفس في القرن العشرين كوليم جيمس في جامعة هارفارد، وهايسلوب في جامعة كولومبيا، وهدجسون في جامعة كامبردج، وغيرهم يشهدون بما لا يدع مجالا للشك بان ما وقع تحت أيديهم من ملاحظات ودراسات،

يلزمهم بالإقرار ببقاء الروح بعد مفارقة الجسد، وهل يمكن أن ننسى في هذا المضمار أقوال الدكتور فردريك مايرز في بحثه الهام " الشخصية وبقائها بعد الموت الجسدي" عندما قال عام ١٩٠٦م في لندن "يمكنني إن أقول بجراءة بالغة إن نتيجة للأدلة الحديثة سيؤمن كل إنسان عاقل لهذا السبب بعد قرن من الزمان بقيامة المسيح من الأموات، الأمر الذي لم يكن ميسورا منذ قرن سلف، لغياب هذه الأدلة، وأساس هذا التنبؤ واضح بيّن، فأدركنا المتزايد يمكننا أن نرد كل حادثة إلى علتها المحتومة، وما يزال يتضح أكثر وأكثر أمام عصرنا العلمي بان أي علاقة قائمة بين عالم مادي وعالم روحي لا يمكن أن تكون مجرد علاقة أدبية أو عاطفية، إذ يلزم أن تنشأ عن قوة بناءة عظيمة في الكون، تتضمن في نطاقها نواميس ثابتة ومنظمة، وهي تنتقل من عصر إلى عصر كتلك النواميس التي نعرفها في الحركة والطاقة، وهذا يبدو على وجه اخص في المعتقد الأساسي، والخاص بحياة النفس بعد مفارقة الجسد، إذ يمكن إقرار هذه الحقيقة، لا بمجرد الأفكار التقليدية وحدها، بل بما يتزايد يوما بعد يوم من الاختبارات والأبحاث الحديثة"

على إن شهادة العلم بالخلود مهما تكن قيمتها لا يمكن أن تكون الشهادة الوحيدة في الأمر، إذ هناك أيضا شهادة الوجدان، مما هو ثابت من عقيدة البشر العامة في الخلود، العقيدة التي تصاحب على الدوام وجود الأديان، بل مما هو ثابت أيضا من الإحساس الدائم في الإنسان بغض النظر عن الأديان، من إن المرحلة بين المهد واللحد لا يمكن أن تكون المرحلة الوحيدة في الحياة البشرية، كما عبرت ذات مرة ليدي فيوليت بوناهم كارت في إذاعة لندن عندما قالت: "إني أؤمن أولا وبادئ ذي بدء بالحياة، ولا يعني هذا إني أحس الفرح الغريزي بالبقاء فحسب، بل إني أؤمن بالحياة، وان كنت لا اعرف كافة المعلومات القاطعة التي تكشف لي من أين أتيت، أو إلى أين أذهب، إلا إني اعلم إن حياتي كالمجرى الذي يندفع دون أن اعلم من أي منبع من أي منبع يأتي، أو في أي بحر يصب، ومع ذلك أثق بتيار وجودي، وأؤمن انه لا يمكن أن يضيع فيّ الطريق، وان كان من المتعذر عليّ أن ارسم نهج سبيلي أو احدد غرضه، ولكن ثقتي لا تتزعزع في أنهما كليهما مرسومان". بل مما هو ثابت، كذلك من الخواص الخلقية والأدبية، والتي يتميز بها البشر عن سائر المخلوقات الأرضية، والتي تنزع بها على الدوام التي تصور وجود الله، والحياة الأبدية وفكرة الجزاء والدينونة وما إلى ذلك، مما لا يمكن أن ينشا في الإنسان على الإطلاق مستقلة أو مفترقة عن نزعة الخلود فيه!!..

غير إن العلم والوجدان في شهادتهما عن الخلود لا يمكن أن يعطينا صورة محددة واضحة كاملة عن الموضوع، وانه لا غنى للإنسان بتاتا عن الوحي والإعلان في ذلك، ومن ثم جاء الكتاب المقدس ليكشف بأكثر من صورة ومظهر عن الحقيقة العظمى، إذ حدثنا عن أولئك الذين ماتوا وتأكد موتهم ثم عادوا إلى الحياة مرة أخرى، كابن أرملة صرفة صيدا، وابن الشنومية، والذي مس عظام اليشع وابنة يايرس، وابن أرملة نايين، ولعاز، والذين قاموا مع قيامة المسيح، وطابيثا، وافتيخوس، مما يقطع بعدم نهاية الحياة بعد الموت، كما تحدث عن عودة موسى وايليا على جبل التجلي بعد قرابة إلف وخمسمائة عام من موت موسى، وتسعمائة عام من صعود إيليا. على إن الحجة الكبرى عن الخلود تكمن في شخص المسيح الذي أنار الحياة والخلود بواسطة الإنجيل(٢تي١: ١٠)الذي لم يحدثنا فقط عن الله اله أحياء وليس اله أموات كما ذكر للصدوقيين، بل كشف لنا كيف تبدى الحياة بعد الموت كما في مثل العازر والغني، والي أرانا البرهان الأكبر، لا فيمن أقامهم من الأموات فحسب، بل في قيامته هو التي هي سيدة الأدلة وبرهان البراهين.. فإذا ما سلمنا بحقيقة الروح التي أفردنا لها أبحاثا واسعة سابقة في دراستنا في هذا الكتاب، وإذا سلمنا بصدق الوحي كما جاء في الكتاب المقدس مما أشبعناه درسا وبحثا

في الصفحات الخاصة به وإذا سلمنا قبل وفوق الكل بشخص المسيح وصدق حجته الكاملة التي لا تنازع، كان إيماننا بدوام الروح بعد مفارقة الجسد أمرا لا محيص عنه أو شبهة فيه!!..

فإذا سلمنا ببقاء الروح بعد مفارقة الجسد، وإنها لا تتلاشى أو تبيد، تعين أن نسال بعد ذلك: أين تذهب الروح بعد الموت!!؟

ولعلنا لسنا في حاجة إلى أن ندفع فكرة التقمص أو تناسخ الأرواح، إذ فضلا على أنها فكرة وثنية غير كتابية يقف ضدها الكتاب على خط مستقيم، فإنها تقوم أساسا على اندماج الأرواح وتلاشيها بعد تطهيرها في الروح الأعلى. ومع أنها دعوة بغير دليل، فان فسادها اظهر من أن يناقش، إذ كيف يمكن التسليم بذلك دون إهدار الفكر العام من كمال الله، كما انه لا معنى لتصور تناسخ الروح من جسد إلى أخر لتطهيرها ما دام لا ينتهي بنا هذا إلى أجيال أرقى من سابقتها روحا وجسدا، الأمر الذي يمكن اكتشافه بسهولة من دراسة الطبيعة البشرية الفاسدة في أي جيل وعصر، فإذا أضيف إلى ذلك إن فكرة الجزاء فيها مبهمة وغير عادلة، إذ تجعل عدة أجساد متباينة الشكل والتكوين والطبيعة في خدمة روح واحدة، مع تفاوت حظ هذه الأجساد من الراحة أو الشقاء، وهي في خدمة ذات الروح الواحدة.. الحق إن الفكرة من الضعف والإسفاف ما لا تحتاج معه إلى مزيد من تفكير أو نقاش!!؟

وإذ نستبعد تلاشي الروح أو تناسخها بقي أن نعرف ما حالها بعد الموت!!؟ هل تنام حتى يوم القيامة!!؟ أم تذهب إلى ما يطلق عليه المطهر!!؟ أما تعطى لها فرصة أخرى للتوبة والمناجاة!!؟ أم تذهب في الحال إلى السماء أو الجحيم!!؟

هل تنام الروح حتى يوم القيامة؟

يذهب البعض ومنهم السبتيون إلى إن الإنسان يبقى بعد الموت في حالة نوم لا يستفيق منها بارا كان أم شريرا إلا في يوم القيامة، ويبنون رأيهم هذا على إن الموت كثيرا ما يدعى رقادا أو نوما، وان الدينونة الأخيرة والحساب يوم القيامة، ولكن هذا الرأي باطل بطلانا مطلقا، إذ تنفيه النصوص الكتابية الصريحة، إذ كيف ينسجم هذا مع القول: "٥بِالإِيمَانِ نُقِلَ أَخْنُوخُ لِكَيْ لاَ يَرَى الْمَوْتَ، وَلَمْ يُوجَدْ لأَنَّ اللهَ نَقَلَهُ - إِذْ قَبْلَ نَقْلِهِ شُهِدَ لَهُ بِأَنَّهُ قَدْ أَرْضَى اللهَ." (عب١١: ٥). ومن الملاحظ إن الكلمة "نقل" ذكرت ثلاث مرات، وليس فيها ما يشير من قرب أو من بعد إلى النوم المزعوم فإذا تركنا اخنوخ إلى إيليا، عرفنا إن هذا الأخير صعد إلى السماء في مركبة نارية : "١١وَفِيمَا هُمَا يَسِيرَانِ وَيَتَكَلَّمَانِ إِذَا مَرْكَبَةٌ مِنْ نَارٍ وَخَيْلٌ مِنْ نَارٍ فَصَلَتْ بَيْنَهُمَا، فَصَعِدَ إِيلِيَّا فِي الْعَاصِفَةِ إِلَى السَّمَاءِ." (٢مل٢: ١١) ونحن نسال هل يمكن أن ينام الإنسان في مركبة من نار، أو هل ذهب إيليا لينام في السماء!!؟ فإذا أضيف إلى ذلك إن موسى وايليا ظهرا مع المسيح على جبل التجلي، فهل اخذ هذان النبيان يقظة موقوتة من النوم، ليعودا بعدها إلى نومهما حتى يوم القيامة، ثم ماذا يمكن أن يقال عن قصة الغني ولعازر، بعد أن ماتا كلاهما، وذهب لعازر محمولا من الملائكة إلى حضن إبراهيم، وذهب الغني إلى الهاوية، وكيف يمكن تصور افتراق الاثنين حالا وان احدهما يتعزى، والأخر يتعذب، وان المعذب يطلب من أبينا إبراهيم تحذير أخوته الذين لم يأتوا إلى الهاوية بعد، حتى يوم القيامة!! وحتى افتراض السبتين إن القصة رمزية، لا يخرجهم من المأزق إذ أن الفرض ذاته لا يستطيع إيجاد تفرقة لم توجد بعد، ثم كيف يتصور مع هذه الرمزية المفترضة، التفرقة بين عزاء وعذاب لم يختبرا بعد، أو يتذوق منهما شيء على الإطلاق!!؟ ثم إذا كان المؤمنون لا يذهبون إلى السماء بعد الموت، فإذا ما معنى قول الرسول بولس: "٢٣فَإِنِّي مَحْصُورٌ مِنَ الاثْنَيْنِ: لِيَ اشْتِهَاءٌ أَنْ أَنْطَلِقَ وَأَكُونَ مَعَ الْمَسِيحِ. ذَاكَ أَفْضَلُ جِدّاً."(في١: ٢٣) وأي معنى لهذه الكلمات إذا لم يكن قائلها المشوق إلى سيده والذي هو باق في الأرض، ملزما لغرض الخدمة، يعتقد انه سيذهب حالا إلى ربه بعد الموت!!؟ فإذا تركنا

هذه الكلمات إلى كلمات أخرى جاءت في قوله: "٦فَإِذاً نَحْنُ وَاثِقُونَ كُلَّ حِينٍ وَعَالِمُونَ أَنَّنَا وَنَحْنُ مُسْتَوْطِنُونَ فِي الْجَسَدِ فَنَحْنُ مُتَغَرِّبُونَ عَنِ الرَّبِّ.. ٨فَنَثِقُ وَنُسَرُّ بِالأَوْلَى أَنْ نَتَغَرَّبَ عَنِ الْجَسَدِ وَنَسْتَوْطِنَ عِنْدَ الرَّبِّ."(٢كو٥: ٦، ٨) فهل يعقل بعد هذا أن يقال انه يوجد فاصل بين التغرب والاستيطان اسمه نوم الموت، وان هذا قد يستمر في حياة الكثيرين من القديسين إلى ألاف السنين حتى تأتي القيامة ولما لم يشر الرسول في قليل أو كثير إلى هذا الفاصل، وهو بصدد الحديث عن قصة الحياة والموت حتى الوقوف أمام كرسي المسيح ليعطي كل إنسان حسابا عما فعل خيرا كان أم شرا!!؟.ثم ما معنى قول المسيح للص التائب: " الحق الحق أقول لك انك اليوم تكون معي في الفردوس" (لو٢٣: ٤٢) ثم ماذا يمكن أن يقال عن استقبال المسيح القائم عن يمين العرش لاستفانوس وهو يجود بأنفاسه الأخيرة "أيها الرب يسوع اقبل روحي" (اع٧: ٥٩).

وهل يقصد أن هذا القبول هو النوم حتى يوم القيامة!؟ ثم ما هي هذه النفوس التي استشهدت، ورآها يوحنا الرائي في المجد، وهي تصرخ إلى الله بان يقضي وينتقم لها من الساكنين على الأرض، وأعطوا ثيابهم البيض، وقيل لهم أن يستريحوا حتى يكمل العبيد رفقاؤهم وإخوتهم أيضا العتيدون أن يقتلوا مثلهم؟ إذا كانت كل نفس تنام مع الجسد إلى يوم القيامة؟.. في الواقع إن هذه النصوص الصريحة جميعا تبدد وتقضي على كل فكر ينادي بنوم النفس وغفوتها حتى يوم القيامة!!..

هل يوجد مطهر قبل دخول السماء؟

وعلى نقيض فكرة النوم حتى القيامة يوجد ما يسمى المطهر عند الكاثوليك وقد قسم الكاثوليك عالم الأرواح إلى أقسام متعددة، وأهمها لمبوس الآباء الأقدمين الذين ماتوا قبل المسيح ونزل إليهم السيد بعد الصلب وخلصهم من سجنهم ورفعهم إلى المجد السماوي، ولمبوس الأطفال غير المعتمدين في الكنيسة حيث يبقون هناك بعد الموت للأبد، والمطهر وهو مكان العذاب للذين يموتون في الكنيسة الكاثوليكية، دون أن يكون قد أوفوا قصاص خطاياهم الزمني حسب قانون سر التوبة، ويقال أن العذاب في المطهر بنار رمادية، وغايته التكفير والتطهير، ومدته غير محددة حسب الخطايا التي يقترفها الخاطئ، ويمكن تقصير وتخفيف العذاب بواسطة صلوات القديسين، ولرؤساء الكنيسة البابوية ولاسيما البابا القدرة على رفع العقاب عن النفوس من المطهر، ويمكن الانتفاع في هذا الشأن بنوافل القديسين أو زيادة برهم التي يمكن أن تحسب للآخرين، ثم الجحيم وهو مكان العذاب الأبدي لإبليس وملائكته، ومن لا يدخلون فيه نطاق الكنيسة الكاثوليكية أو يرتكبوا لخطايا، المميتة، بحسب تعريف الكنيسة لهذه الخطايا، أو لا يعتمدون وهم بالغون، وأخيرا السماء وهي مكان المجد الأبدي، ولا يدخلها قبل القيامة إلا المطهرون تماما عند الموت، والذين يطهرون في المطهر بعد الموت.. هذه هي خلاصة معتقدات الكنيسة لهذه الخطايا، أو لا يعتمدون وهم بالغون. وأخيرا السماء وهي الذي لا يذكره الكتاب أو يسنده الوحي، بل في الواقع تقف ضد مجموعة من الحقائق الكتابية:

أولا- هذا اللمبوس سواء للأطفال أو الآباء القديسين قبل المسيح لا يعرفه الكتاب المقدس، بل تقف ضده محبة الله، وعدالته، فقد اشرنا فيما يتصل بالأطفال غير المعمدين إن خلاصهم مؤكد بدم المسيح الذي رفع عنهم خطية أبوينا الأولين الوراثية، ولا يمكن أن يحاسبهم الله بعد ذلك عن ذنب لم يقترفوه، وخطية لم يفعلوها، وليس في الكتاب المقدس كله أية واحدة تحجز عنهم باب رحمة الله العظيمة.. وذات القول يمكن أن يقال عن لمبوس الآباء القديسين قبل المسيح، فاخنوخ وإبراهيم واسحق ويعقوب وموسى وايليا وجميع القديسين وأنبياء العهد القديم انتقلوا إلى المجد السماوي، لا إلى اللمبوس الذي تصفه الكنيسة الكاثوليكية بأنه المكان الذي كانت تذهب إليه أنفس القديسين، حيث كانوا يتمتعون بسكينة هادئة، مطمئنين من غير إحساس

وجع، حتى جاءهم المسيح بعد الصلب إذ هبط إلى الجحيم حيث هم، واعتق نفوسهم المسجونة لتصعد معه إلى المجد. وإلا فكيف نفسر صعود إيليا إلى السماء دون أن تمر نفسه بهذا اللمبوس المزعوم!!؟ وكيف يمكن أن يوصف نزول المسيح إلى الجحيم بأنه نزول إلى لمبوس هادئ مريح، والجحيم في الفهم العام مكان للعذاب لا راحة فيه أو هدوء؟!!.. الحق أن اللمبوس سواء للإباء أو الأطفال ابتدع من غير حق أو أساس كتابي!!..

ثانيا – فإذا انتقلنا إلى المطهر تبين انه مثل صاحبيه، وانه ابتداع لا ظل له أو أساس من الحق أو كتاب الله، وان الأخذ ه ليس منافيا أو مضادا لكتاب الله فحسب، ولكنه إهدار بشع محزن لكفارة المسيح وعملها الكامل، واليكم الأسباب:

١- إن عقيدة المطهر لم تكن معروفة في الكنيسة الأولى على الإطلاق، إذ كانت غريبة على الرسل والأنبياء الأولين، وإنها لم تأخذ في الانتشار والذيوع إلا في القرن السابع حيث دعمها وأيدها غريغوري الكبير، واقرها مجمع فلورنس عام ١٤٣٩م ومجمع التريدينتيني عام ١٤٤٥م وقد جاء هذا الإقرار، لا عن البحث أو الدرس الكتابي بل عما يقال، من حق الكنيسة أو سلطانها في إقرار العقائد والتقاليد.

٢- إن الكتاب لا يعرف بتاتا هذه الحالة الوسطى بين السماء والجحيم، فإما سماء يصعد إليها الإنسان حالا، أو هاوية يتردى فيها كما تردى الغني الذي أشار إليه المسيح، وان الهوة قائمة بين المكانين مما يستحيل ملؤها أو إيجاد معبر أو نقطة ارتكاز فيها: "٢٦وَفَوْقَ هَذَا كُلِّهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ هُوَّةٌ عَظِيمَةٌ قَدْ أُثْبِتَتْ حَتَّى إِنَّ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْعُبُورَ مِنْ هَهُنَا إِلَيْكُمْ لاَ يَقْدِرُونَ وَلاَ الَّذِينَ مِنْ هُنَاكَ يَجْتَازُونَ إِلَيْنَا."(لو١٦: ٢٦).

٣- الاعتقاد بالمطهر فيه مناقضة صريحة لقول المسيح للص التائب: "الحق أقول لك انك اليوم تكون معي في الفردوس" (لو٢٣: ٤٢) فإذا كان المسيح قد نقل في لحظة واحدة هذا الإنسان الذي وقفت قدماه على أبواب الجحيم إلى الفردوس دون تعريج على المطهر، فكيف يصح القول بلزوم المطهر لتطهير النفوس وتحريرها، مادام قد ثبت انه من الممكن للتوبة الصحيحة أن تنقل اشر الخطاة في الحال بعد الموت إلى فردوس الله؟

٤- أن خلاص المسيح لا يمكن أن يجزا إذ هو خلاص شامل كامل من كل الخطايا، كما في القول: "فمن ثم يقدر أن يخلص أيضا إلى التمام" (عب٧: ٢٥) "ودم يسوع المسيح ابنه يطهرنا من كل خطية" (١يو١: ٧) وقد حدث أن كاهنا كاثوليكيا اسمه جوزيف زيكلو كان يستمع عام ١٩٤٤م إلى عظة في الإذاعة لأحد الرعاة المعمدانيين، وقد هزت هذه ا لعظة عقيدته في المطهر من الأساس، إذ قال: "أن أية ذكرها الراعي هزت تفكيري من أساسه عندما قال: "امن بالرب يسوع فتخلص" وقد استولت عليّ هذه الآية بكيفية رهيبة عنيفة فجعلتني ارتعد إذ ذكرت كيف آخذ كثيرا من الفقراء ما بين خمس دولارات وثلاثين دولارا يوميا نظير مجموعة من الطقوس التي أقوم بها لتحرير أرواح موتاهم من نار المطهر، وخيل إلى أن الصليب الكبير الذي على المذبح يستذنبني على ما افعل، كما أنصتت نفسي إلى الصوت السماوي القائل في سفر الرؤية : "طُوبَى لِلأَمْوَاتِ الَّذِينَ يَمُوتُونَ فِي الرَّبِّ مُنْذُ الآنَ - نَعَمْ يَقُولُ الرُّوحُ، لِكَيْ يَسْتَرِيحُوا مِنْ أَتْعَابِهِمْ، وَأَعْمَالُهُمْ تَتْبَعُهُمْ».(رؤ١٤: ١٣) وليس في هذا ادني تعريج على المطهر أو تصوير له، وعندئذ أدركت كأنما المسيح يقول لي: أنا لست في حاجة بان تكرر ذبيحتي على الصليب، فان ذبيحتي كاملة وعملي تام: "لأنه بقربان واحد قد أكمل إلى الأبد المقدسين".. وإذا كنتم انتم الكهنة ترون انه توجد حاجة لازمة للمطهر فلماذا تنتظرون أن يدفع لكم في سبيل عمل هذه الطقوس؟ إذا رأيتم كلبا

يحترق فهل تنتظرون خمس دولارات لتنقذوه من الحريق. كانت نفسي تعذبني وأنا أقف في ولائي بين التقليد والكتاب، وأخيرا أنصت لصوت الله في المسيح والكتاب"..

٥- أن تعليق تخفيف نار المطهر أو الخروج منها على صلوات القديسين أو كهنة الكنيسة ينتهي إلى نتائج غريبة وشاذة، إذ يفقد الفكرة الأساسية للمطهر ومعناه، إذ أن أساس التطهير في المطهر، هو الألم ومتى أدى الألم رسالته المصفية للخطية لم تعد ثمة حاجة إلى بقاؤه في المطهر،فإذا لم يكن قد تصفى بعد، فهل تصفيه هذه الصلوات أو الطقوس المرفوعة؟ أم تخرجه قبل التصفية؟ وإذا صح إن الطقوس تفعل كل هذا فهل يجوز أن يعلق خلاص إنسان على نشاط وإهمال ذويه أو من له، إن لم نقل على ثروتهم أو عدمها، أو في لغة أخرى، هل يجوز أن يعلق هذا الخلاص على نشاط خارجي، بل وبعيد تماما عن إدراك أو وعي صاحبه، ثم ما الحكم فيمن ليس له ثروة أو أهل يمكن أن يتابعوا هذا الخلاص؟ وهل يعد هذا في حد ذاته ذنبا يضاف إلى كافة ذنوبه فلا يتمتع بما يتمتع به المحظوظون من أصحاب الثروات أو الأهل؟!! ثم ما علاقة هذه الطقوس، قبل وبعد كل شيء بإيمان المطهر وتوبته؟ وهل تعمل مستقلة عنهما؟ كما هو البادئ من عقيدة المطهر، فيكون من الجائز انتقال الإنسان إلى السماء بصرف النظر عن كمال إيمانه أو توبته، فيصبح عملها مشروطا بهما، فيناقض بذلك ما يقال من قدرة رؤساء الكهنة أو البابا على إعتاق النفوس بلا توقف أو معقب؟!!..

٦- لا يمكن التسليم بفكرة المطهر دون التسليم بفكرة أخرى خطيرة تناقض تمام المناقضة الإيمان المسيحي، إلا وهي إمكانية وجود فرصة ثانية للخلاص بعد الموت... وهذه الفكرة فضلا على أن المسيح قد قضى عليها عندما تحدث عن الهوة التي لا تعبر بين السماء والجحيم في قصة الغني ولعازر، فان النصوص الكتابية المتعددة ضدها على خط مستقيم، ومنها تكرار قول السيد المسيح لليهود: "بَلْ إِنْ لَمْ تَتُوبُوا فَجَمِيعُكُمْ كَذلِكَ تَهْلِكُونَ... ٥كَلاَّ أَقُولُ لَكُمْ! بَلْ إِنْ لَمْ تَتُوبُوا فَجَمِيعُكُمْ كَذلِكَ تَهْلِكُونَ».(لو١٣: ٣، ٥) دون أن يشر في قرب أو بعد إلى الفرصة الثانية، وقول المعمدان: " ١٠وَالآنَ قَدْ وُضِعَتِ الْفَأْسُ عَلَى أَصْلِ الشَّجَرِ فَكُلُّ شَجَرَةٍ لاَ تَصْنَعُ ثَمَراً جَيِّداً تُقْطَعُ وَتُلْقَى فِي النَّارِ. ١١أَنَا أُعَمِّدُكُمْ بِمَاءٍ لِلتَّوْبَةِ وَلَكِنِ الَّذِي يَأْتِي بَعْدِي هُوَ أَقْوَى مِنِّي الَّذِي لَسْتُ أَهْلاً أَنْ أَحْمِلَ حِذَاءَهُ. هُوَ سَيُعَمِّدُكُمْ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ وَنَارٍ. ١٢الَّذِي رَفْشُهُ فِي يَدِهِ وَسَيُنَقِّي بَيْدَرَهُ وَيَجْمَعُ قَمْحَهُ إِلَى الْمَخْزَنِ وَأَمَّا التِّبْنُ فَيُحْرِقُهُ بِنَارٍ لاَ تُطْفَأُ». (مت٣: ١٠، ١٢) وقول كاتب الرسالة إلى العبرانيين: "وكما وضع للناس أن يموتوا مرة وبعد ذلك الدينونة" (عب٩: ٢٧). " فَإِنَّهُ إِنْ أَخْطَأْنَا بِاخْتِيَارِنَا بَعْدَمَا أَخَذْنَا مَعْرِفَةَ الْحَقِّ، لاَ تَبْقَى بَعْدُ ذَبِيحَةٌ عَنِ الْخَطَايَا، ٢٧بَلْ قُبُولُ دَيْنُونَةٍ مُخِيفٌ، وَغَيْرَةُ نَارٍ عَتِيدَةٍ أَنْ تَأْكُلَ الْمُضَادِّينَ." (عب١٠: ٢٦، ٢٧). وأين في هذا جميعا يمكن أن نجد الإشارة إلى فرصة ثانية للخلاص أو المطهر؟!..

فإذا ما بدا لأحدهم أن يتساءل وما معنى إذا قول المسيح: "٣٢وَمَنْ قَالَ كَلِمَةً عَلَى ابْنِ الإِنْسَانِ يُغْفَرُ لَهُ وَأَمَّا مَنْ قَالَ عَلَى الرُّوحِ الْقُدُسِ فَلَنْ يُغْفَرَ لَهُ لاَ فِي هَذَا الْعَالَمِ وَلاَ فِي الآتِي." (مت١٢: ٣٢). اجبنا أن هذه لا تفيد بحال ما الفرصة الثانية، لأنه لو كانت الإشارة إلى ذلك لما كان ثمة مبرر للتفرقة بين الخطية ضد الابن والخطية ضد الروح القدس، ولكن التفرقة منشؤها انه لا يرتكب الإنسان الخطية ضد الروح القدس إلا وهو فاقد تماما للتوبة التي هي من عمل الروح القدس، ومتى فقد الإنسان التوبة فقد مبرر الغفران، وقد يخطئ الإنسان ضد الابن، ومع

ذلك لا يكون قد فقد التوبة، وعندئذ يكون مجال الغفران مفتوحا أمامه، أما إذا أخطا ضد الروح القدس فقد اقفل أمامه مجال الغفران في أي وقت من الزمان الحاضر والعتيد أيضا.. فإذا قيل وما معنى وما معنى قول الرسول: "١٣فعَمَلُ كُلِّ وَاحِدٍ سَيَصِيرُ ظَاهِراً لأَنَّ الْيَوْمَ سَيُبَيِّنُهُ. لأَنَّهُ بِنَارٍ يُسْتَعْلَنُ وَسَتَمْتَحِنُ النَّارُ عَمَلَ كُلِّ وَاحِدٍ مَا هُوَ. ١٤إِنْ بَقِيَ عَمَلُ أَحَدٍ قَدْ بَنَاهُ عَلَيْهِ فَسَيَأْخُذُ أُجْرَةً. ١٥إِن احْتَرَقَ عَمَلُ أَحَدٍ فَسَيَخْسَرُ وَأَمَّا هُوَ فَسَيَخْلُصُ وَلَكِنْ كَمَا بِنَارٍ.(١كو٣: ١٣-١٥). اجبنا أن الكلام هنا منصب على الأجرة والجزاء والفرق بين مجد ومجد، والامتحان قائم في ذلك "اليوم" يوم الحساب، والاحتراق أو عدمه منصب على العمل، لا على ذات الشخص الذي يخلص في الحالتين، مع هذا الفارق مع شخص يؤسس في للحياة الأبدية فضة ذهبا حجارة كريمة، وأخر يؤسس خشبا عشا قشا كما يقول، وليس في هذا ادني إشارة إلى فرصة ثانية أو إلى مطهر، إذ الحساب كله قائم في اليوم الأخير لا عن فترة سابقة لهذا اليوم كما هو المتصور في المطهر. فإذا ما قيل أخر الأمر، ولكن ما معنى قول الرسول: "١٨ فَإِنَّ الْمَسِيحَ أيضا تَأَلَّمَ مَرَّةً وَاحِدَةً مِنْ أَجْلِ الْخَطَايَا، الْبَارُّ مِنْ أَجْلِ الأَثَمَةِ، لِكَيْ يُقَرِّبَنَا إِلَى اللهِ، مُمَاتاً فِي الْجَسَدِ وَلَكِنْ مُحْيىً فِي الرُّوحِ، ١٩ الَّذِي فِيهِ أيضا ذَهَبَ فَكَرَزَ لِلأَرْوَاحِ الَّتِي فِي السِّجْنِ." (١بط٣: ١٨- ٢٠). اجبنا أيضا أن الإشارة هنا لا تفيد الفرصة الثانية أو المطهر، لأنه إذا صح هذا فلماذا تكون الكرازة فقط للأرواح التي عاصرت نوحا ليس إلا؟ ولماذا اختصهم المسيح دون غيرهم بهذه الكرازة؟ إن المعنى واضح وصريح في القول: "ولكن محيى في الروح الذي فيه أيضا ذهب!" وهذه إشارة على إن روح المسيح في نوح هو الذي كرز للنفوس وأرواح العاصية في تلك الأيام السابقة للفلك، ولما لم تفلح الكرازة خلص ثماني "أنفس" هي نفوس نوح وعائلته!!..

٧- وأخيرا فان من المؤكد أن هناك جماعة من المؤمنين لا يمكن أن تمر بالمطهر لسبب صغير بسيط، هو إنها ستكون في الحياة عند البوق الأخير كقول الرسول: "لاَ نَرْقُدُ كُلُّنَا وَلَكِنَّنَا كُلَّنَا نَتَغَيَّرُ ٥٢فِي لَحْظَةٍ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ عِنْدَ الْبُوقِ الأَخِيرِ. فَإِنَّهُ سَيُبَوَّقُ فَيُقَامُ الأَمْوَاتُ عَدِيمِي فَسَادٍ وَنَحْنُ نَتَغَيَّرُ. ٥٣لأَنَّ هَذَا الْفَاسِدَ لاَ بُدَّ أَنْ يَلْبَسَ عَدَمَ فَسَادٍ وَهَذَا الْمَائِتَ يَلْبَسُ عَدَمَ مَوْتٍ. ٥٤وَمَتَى لبسَ هَذَا الْفَاسِدُ عَدَمَ فَسَادٍ وَلَبِسَ هَذَا الْمَائِتُ عَدَمَ مَوْتٍ فَحِينَئِذٍ تَصِيرُ الْكَلِمَةُ الْمَكْتُوبَةُ: «ابْتُلِعَ الْمَوْتُ إِلَى غَلَبَةٍ».(١كو١٥: ٥١-٥٤). والسؤال هنا، هل هؤلاء هم الاستثناء الجماعي "للمطهر"، وهل لا يوجد بينهم من هو في حاجة إليه؟ أم أنهم يجوز أن يلبسوا الجسد الروحاني غير الفاسد كالذين سبقوهم من الموتى سواء بسواء، دون المرور بعملية أو مرحلة المطهر!!.. الحقيقة أن ملايين علامات الاستفهام يمكن أن توضع هنا أمام المطهر!!..

من كل ما ذكر يتبن أن الكتاب لا يعرف على الإطلاق هذا الذي يطلق عليه الكاثوليك "المطهر" أو "المبوس الأطفال"أو "المبوس الإباء" أو ما إلى ذلك من عقائد وتقاليد غير كتابية تناهض روح المسيح وخلاصه المجاني العجيب، وانه لا يوجد سوى مكانين للأرواح، السماء للمؤمنين، والجحيم للأشرار، وان الاثنين يبقيان هناك حتى يوم القيامة!!..

ثانيا – القيامة العامة وكيف تكون؟

والسؤال القائم بعد كل ما ذكرناه عن الروح.. وماذا عن الجسد؟ وهل ينتهي ويتلاشى؟ أم يعود فيقوم؟ وإذا قام فكيف تعود الصلة بينه وبين الروح؟

ومن الواضح أن المسيح إذ فدى الإنسان إنما يفديه جسدا وروحا، إذ لا يمكن أن يشطره شطرين ليفدي جزءا منه دون الأخر، أو يمكن أن يستغني في الأبدية عن عنصر منه دون العنصر الأخر، ومن ثم كان فداء الجسد محتوما كالروح سواء بسواء. ولهذا قال الرسول: "٢١لأَنَّ الْخَلِيقَةَ نَفْسَهَا أيضا سَتُعْتَقُ مِنْ عُبُودِيَّةِ الْفَسَادِ إِلَى حُرِّيَّةِ مَجْدِ أَولاَدِ اللهِ. ٢٢فَإِنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ الْخَلِيقَةِ تَئِنُّ وَتَتَمَخَّضُ مَعاً إِلَى الآنَ. ٢٣وَلَيْسَ هَكَذَا فَقَطْ بَلْ نَحْنُ الَّذِينَ لَنَا بَاكُورَةُ الرُّوحِ نَحْنُ أَنْفُسُنَا أيضا نَئِنُّ فِي أَنْفُسِنَا مُتَوَقِّعِينَ التَّبَنِّيَ فِدَاءَ أَجْسَادِنَا." (رو٨: ٢١- ٢٣) وهكذا كان مرهون بالقيامة في اليوم الأخير عندما تعود الأرواح لتلبس أجسادها، ويصبح الإنسان بعنصريه كاملا أمام الحساب أو الدينونة الأخيرة!!..

وليس من شبهة في هذه القيامة على الإطلاق، إذ يقول السيد المسيح: "فَإِنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ فِيهَا يَسْمَعُ جَمِيعُ الَّذِينَ فِي الْقُبُورِ صَوْتَهُ ٢٩فَيَخْرُجُ الَّذِينَ فَعَلُوا الصَّالِحَاتِ إِلَى قِيَامَةِ الْحَيَاةِ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَى قِيَامَةِ والدينونة."(يو٥: ٢٨، ٢٩).. ويقول الرسول بولس : "ولي رجاء بالله فيما هم ينتظرونه انه سوف تكون القيامة للأموات الإبرار والآثمة" (اع٢٤: ١٥) ط الذي يغير كل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده" (في٣: ٢١) "لان هذا الفاسد لابد أن يلبس عدم فساد، وهذا المائت يلبس عدم موت" (١كو١٥: ٥٤). ولعل العالم لم يعرف في كل تاريخه الطويل دفاعا عن عقيدة القيامة كذلك الدفاع الرائع الذي سجله هذا الرسول في الإصحاح الخامس عشر من رسالة كورنثوس الأول حيث ناقشها في كافة النواحي الدينية والتاريخية والمنطقية والعلمية والفلسفية والأبدية معا، ولعلنا لا نجد برهانا أو حجة أوفى أو أدق من براهينه أو حججه التي ساقها هناك وهاكم هي كما جاءت بذات ترتيبها وتلاحقها معا:

١ـ القيامة وبرهانها الديني

لم تكن القيامة عند الرسول مجرد حادث يمكن أن يلم بالبشرية نتيجة صدفة أو عارض أو تطور مادي أو اجتماعي، بل هي الحادث المحتوم في ترتيب الله الازلى للقضاء على الخطية وتحرير المؤمنين منها إلى الأبد، ووضع الحد النهائي من أعمال الشر والخطية في الأرض، ومن ثم لم يكن غريبا أن يرى فيها الرسول قلب الإنجيل ولبابه ولذا استهل حديثه عن القيامة بالقول: "١وَأُعَرِّفُكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ بِالإِنْجِيلِ الَّذِي بَشَّرْتُكُمْ بِهِ وَقَبِلْتُمُوهُ وَتَقُومُونَ فِيهِ ٢وَبِهِ أيضا تَخْلُصُونَ إِنْ كُنْتُمْ تَذْكُرُونَ أَيُّ كَلاَمٍ بَشَّرْتُكُمْ بِهِ. إِلاَّ إذا كُنْتُمْ قَدْ آمَنْتُمْ عَبَثاً! ٣فَإِنَّنِي سَلَّمْتُ إِلَيْكُمْ فِي الأول مَا قَبِلْتُهُ أَنَا أيضا: أَنَّ الْمَسِيحَ مَاتَ مِنْ أَجْلِ خَطَايَانَا حَسَبَ الْكُتُبِ ٤وَأَنَّهُ دُفِنَ وَأَنَّهُ قَامَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ حَسَبَ الْكُتُبِ ٥وَأَنَّهُ ظَهَرَ لِصَفَا ثُمَّ لاثني عَشَرَ."(١كو١٥:١-٤) وهنا نلاحظ كيف لم يقف الرسول عند موت المسيح كما لو هذا الحادث من الحوادث التي تنتهي بها حياة الكثيرين من الأبطال والقادة والعظماء الذين يموتون دفاعا عن المبادئ التي عاشوا لها، ولكن المسيح مات لان هذا هو الترتيب الأزلي والمشورة المحتومة والعلم الإلهي السابق، ولقد مات المسيح لأجل غاية واضحة ظاهرة: "من اجل خطايانا" وقد تحدث الله عن هذا الموت في الكتب المقدسة بالنبوات التي لم يشر إليه جملة فحسب بل بالتفصيل الدقيق أيضا، فإذا كان الرسول يذكر هذا الموت لأجل الخطية فانه يذكره لأنه بدون سفك دم لا تحصل مغفرة، هذه هي سياسة الله الثابتة المنبثقة من طبيعته وجوهره وكمالاته تجاه الخطية، وإذا كان المسيح يقوم بعد الموت، فإنما يقوم لتحسب قيامته أيضا لمن يؤمنون به ويندمجون فيه، ومن ثم نجد

الرسول يسارع إلى القول : "٢٠وَلَكِنِ الآنَ قَدْ قَامَ الْمَسِيحُ مِنَ الأَمْوَاتِ وَصَارَ بَاكُورَةَ الرَّاقِدِينَ. ٢١فَإِنَّهُ إذ الْمَوْتُ بِإِنْسَانٍ بِإِنْسَانٍ أيضا قِيَامَةُ الأَمْوَاتِ."(١كو١٥: ٢٠-٢٢).

٢- القيامة وبرهانها التاريخي

على أن الرسول وهو يتحدث عن القيامة لم يتحدث عنها كعقيدة ذهنية أو تصورية أو شعورية، تنازع،قة تاريخية يمكن أن تحس أو تلمس، وبما أن القيامة العامة لم تحدث بعد، فقد اتخذ الرسول حجتها العظمى من قيامة المسيح الذي قام من بين الأموات : "وصار باكورة الراقدين". وقد ذكر الرسول كيف ظهر المسيح بعد القيامة لتلاميذه ورسله بكيفية لا يمكن أن تجادل أو تنازع، إذ ظهر مثلا:

أولا: الظهور غير المتوقع لبطرس الذي أنكره، وكان يستبعد ولا شك أن يظهر له المسيح، ولكن السيد ظهر له خصيصا على انفراد ليعيد إليه مركزه الضائع، ويقينه المبعثر، وثقته المفقودة!!..

ثانيا: الظهور الذي لا يمكن الشك في حقيقته أو صدقه، إذ ظهر للاثنا عشر ثم لخمسمائة أخ، ولا يمكن أن يجتمع عدد مثل هذا على وهم أو خيال!!..

ثالثا: الظهور المتردد وهو الظهور الخاص ليعقوب أخيه، وقد كان يعقوب حتى القيامة مترددا غير مؤمن بحقيقة يسوع كالمسيا المنتظر، ولكنه بعد القيامة امن به إيمانا ثابتا غير مزعزع!!..

رابعا: الظهور للعدو المحارب للمسيحية إذ ظهر بعد سنوات لبولس الذي كان بطبيعته عدوا ومحاربا للمسيحية، الذي تحول من تلك الساعة إلى خادم المسيح ورسوله العظيم!..!

فإذا كانت قيامة المسيح قد ثبتت هكذا على النحو التاريخي، ولذلك لا عجب أن يرى الرسول فيها صورة القيامة العامة ومثالها فيقو: "١٢وَلَكِنْ إِنْ كَانَ الْمَسِيحُ يُكْرَزُ بِهِ أَنَّهُ قَامَ مِنَ الأَمْوَاتِ فَكَيْفَ يَقُولُ قَوْمٌ بَيْنَكُمْ إِنْ لَيْسَ قِيَامَةُ أَمْوَاتٍ؟(١كو١٥: ١٢).

٣- القيامة وبرهانها المنطقي

بعد أن تحدث الرسول عن القيامة من الوجهة التاريخية عالجها منطقيا، فتساءل كيف يمكن لإنسان بعد هذا البرهان أن قول أن قيامة الأموات لا يمكن حدوثها، وتابع الرسول في سلسلة من المنطقيات حقيقة قيامة المسيح، فبين انه إذ لم يكن قد قام، فلا معنى للكرازة ولا معنى للإيمان ذاته.. وإذا لم يكن قد قام فان أولئك الذين يشهدون لقيامتهم شهود زور، ويشهدون بهذه الشهادة من اجل الله، والله منطقيا لا يدعوهم لهذه الشهادة.. وانتقل الرسول إلى منطقة الوراثة فبين أن ما انحدر إلى البشرية انحدر إليها عن أبيها ادم، فإذا كان قد مسها الموت من هذا القبيل، وإذا كان لابد للخلاص من هذا الموت، فلابد أن يتم الأمر عن طريق الوراثة أيضا: "لأَنَّهُ كَمَا فِي آدَمَ يَمُوتُ الْجَمِيعُ هَكَذَا فِي الْمَسِيحِ سَيُحْيَا الْجَمِيعُ."(١كو١٥: ٢٢).. ثم تحول الرسول من منطق الوراثة إلى منطق التطور، فبين أن البشرية تسير مع التاريخ في طريق التطور، وإذا كان هذا التطور يتبع خطة إلهية دقيقة: "! (١كو١٥: ٢٤-٢٦)وقد أفصح الرسول كيف يقبض المسيح بيد قوية على هذا التطور ويدفعه دفعا إلى الأمام حتى يقضي على الموت نفسه وتتم سيادة الله الكاملة على الخليقة!!..

٤ـ القيامة وبرهانها العملي

انتقل الرسول في حديثه عن القيامة من المنطق المجرد إلى الحقيقة العملية، فقال أن بعض الكورنثيين درجوا على أن يعتمدوا بالنيابة عن الأموات الذين امنوا بالمسيح، ولم تكن لهم فرصة المعمودية فماتوا فجأة أو استشهدوا في سبيل المسيحية، واعتمد أهلهم بالنيابة عنهم اعتقادا منهم بضرورة المعمودية، وتلك كانت عدة قديمة، والرسول لا يناقش هذه العادة في حد ذاتها، بل يقول أن الآخذين بها يؤمنون بالقيامة، وإلا لما فكروا أن يقوموا بهذه الفريضة نيابة عمن ماتوا، كما انه هو لو لم يكن له يقين بالقيامة لما خاطر وحارب في افسس أناسا كانوا كالوحوش في قسوتهم وعدائهم له.. بل لتحولت حياة المؤمنين كلها إلى حياة من يأكل ويشرب، ولا شيء عنده أكثر من ذلك لأنه غدا يموت، ولكن المتاعب والكفاح والجهاد والآلام التي يعانيها المؤمنون في كل جيل وعصر ترجع أولا وأخيرا إلى يقينهم الثابت بالقيامة من الأموات!!..

٥ـ القيامة والبرهان الفلسفي

فإذا وجد بعد كل هذا من يعثر في القيامة ويتساءل: كيف يقام الأموات وبأي جسم يأتون؟ يأتي جواب الرسول مؤكدا بان السائل لابد أن يكون غبيا، إذ أن الطبيعة ذاتها يمكن أن تعطيه الجواب من خلال مصنوعاتها ومخلوقاتها من أحسن التأمل والتفكير، إلا ومن ذا الذي يغفل كل يوم عن أن يرى ظاهرة الموت والقيامة في المزروعات المختلفة التي يزرعها الإنسان؟ فالبذرة إذ تدفن في الأرض تتحلل لتتحول إلى شجرة، والبذرة بهذا المعنى تموت، ولكنها تقوم بحلة أبهى وأعظم وغنى وأكمل، ويمكنك أن تقول أن هناك ارتباطا لا ينتهي بين البذرة والشجرة، فالبذرة أصل الشجرة وجوهرها ومبعثها ومعدنها، ولكن الشجرة مع ذلك تختلف بوضوح عن البذرة في حجمها ومظهرها وأثرها وعظمتها.. والبذرة إلى جانب ذلك تختلف عن غيرها من البذور، وكل نوع منها يحمل في اطوائه الكيان الخاص بنوعه، والذي يختلف عن غيره من الأنواع، وعلى هذا القياس يمكن رؤية الإنسان في موته وقيامته، فهو إذ يموت ويتحلل لا ينتهي أو يبيد، بل ينبعث بصورة أخرى، وتكون العلاقة القائمة بين حياته قبل الموت وبعد القيامة كالعلاقة بن البذرة والشجرة سواء بسواء. ولعل هذا يساعدنا على أن نفهم كيف يختلف جسد القيامة عن جسدنا الحالي، فهذا الجسد الحالي، الفاسد، جسم اللحم والدم هو البذرة الذي ينبعث منها الجسد الروحاني الممجد المنزه عن اللحم والدم والهوان والضعف، وعلى قدر الفرق بين البذرة وهوانها وضالتها، وقوة الشجرة وجلالها ومجدها، يكون الفرق بين الجسد الحيواني والجسد الروحاني في ذات الإنسان. وقد صور احدهما الفرق بين الجسدين في تلك القصة الخيالية الطريفة التي تصور فيها توأمين في بطن أمهما يقول احدهما للأخر: "هل تعلم إننا عما قريب ننتهي إلى عالم عجيب واسع منير نجري فيه على أقدامنا ونسعى ونلعب ونستنشق الهواء ملء صدورنا، ونأكل بأفواهنا أطعمة وأطايب كثيرة؟ "فيجيبه الأخر: "لا استطيع أن اصدق، وكلانا معلق ومحبوس في ظلمة ونطاق ضيق صغير". ونزلا كلاهما ليجد هذا العالم العجيب الذي يختلف كل الاختلاف عن بطن أمهما الضيق.. وعلق الرجل على القصة بالقول انه إذا كان كل واحد فينا يختبر هذا الاختبار عينه، م وحياته كجنين عربون لحياته التي سيعيشها بعد أن يولد، فان حياتنا في الجسد الأرضي الحيواني هي بذات المعنى والشبه عربون للحياة السماوية المجيدة التي ستكون عليها في الجسد الروحاني الممجد!!..

ومنن الثابت بعد هذا كله أن الجسد الروحاني وان كان يحمل في ذاته أصل الجسد الحيواني في شخصيته وذاتيته إلا انه يختلف عنه تماما، إذ لن يكون فيما بعد من لحم ودم يخضع لما يخضع له هذان من ضعف أو احتياج بل سيكون كامل

المعرفة والحيوية والقوة مثل الملائكة في كونه لا يقبل الزواج وان كان أعلى من الملائكة وأكثرها بهاء ومجد بقدر ما سيكون للإنسان من عظمة وارتفاع أعظم منه!!..

٦- القيامة والبرهان الأبدي

وثمة برهان أخير ختم به الرسول الحديث عن القيامة إذ انتقل إلى العالم الأبدي حيث تتم النصرة على الموت وحيث تغلب الهاوية، وحيث يقضى على الخطية بربنا يسوع المسيح، وفي ضوء هذا كله ينبغي للإنسان أن يعيش وهو ينظر إلى القيامة وينتظرها : "٥٨إِذاً يَا إِخْوَتِي الأَحِبَّاءَ كُونُوا رَاسِخِينَ غَيْرَ مُتَزَعْزِعِينَ مُكْثِرِينَ فِي عَمَلِ الرَّبِّ كُلَّ حِينٍ عَالِمِينَ أَنَّ تَعَبَكُمْ لَيْسَ بَاطِلاً فِي الرَّبِّ."(١كو١٥: ٥٨).

ومن البديهي وقد انتهينا من كافة البراهين الخاصة بالقيامة أن نشير إلى أن الرسول عندما كان يتحدث عن الجانب المنير فيها كان يقصد ولا شك قيامة الإبرار، أما قيامة الأشرار، فان كانت تتم في اليوم الأخير، أو تلبس كل روح جسدها الذي لا يموت أيضا، إلا إنها مع ذلك تبقى عاطلة خاوية خربة في حياتها التعسة وشقائها المقيم!!..

ثالثا- الحساب والدينونة والأخيران

والحساب والدينونة الأخيران يأتيان في الحال اثر القيامة العامة كقول المسيح " وَمَتَى جَاءَ ابْنُ الإِنْسَانِ فِي مَجْدِهِ وَجَمِيعُ الْمَلاَئِكَةِ الْقِدِّيسِينَ مَعَهُ فَحِينَئِذٍ يَجْلِسُ عَلَى كُرْسِيِّ مَجْدِهِ."(مت٢٥: ٣١) والمحاسب والديات شخص المسيح الملك المستقر على كرسي مجه، والذي لم يعد ينازعه احد في سلطانه كرب وسيد وفاد، ومن الواضح انه لا مهرب لإنسان ما من هذا الحساب أو تلك الدينونة : "لأَنَّهُ لاَ بُدَّ أَنَّنَا جَمِيعاً نُظْهَرُ أَمَامَ كُرْسِيِّ الْمَسِيحِ، لِيَنَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مَا كَانَ بِالْجَسَدِ بِحَسَبِ مَا صَنَعَ، خَيْراً كَانَ أَمْ شَرّاً." (٢كو٥: ١٠). والحساب يقصد منه بالنسبة للإبرار المكافأة، أما الدينونة فتتحدث عن العقوبة العادلة التي تقع على الفريق الأخر من الأشرار!!..

١- مكافأة الإبرار

ومكافأة الإبرار واضحة أكيدة وهي ذات أساس، ودقة، ومجد.. أما أساسها فقائم في مثلث: "الإيمان والرجاء والمحبة" أو كما قال الرسول للتسالونكيين: "متذكرين بلا انقطاع عمل إيمانكم وتعب محبتكم وصبر رجاءكم" (اتس١: ٣) فإذا كان الرسول وهو إنسان لا يكف عن تقدير هذه الثلاثة وتذكرها بلا انقطاع، فهل يكون الله اقل اهتماما أو تقديرا أو مكافأة عليها في اليوم الأخير؟ حاشا وكلا، إذ ليس عمل واحد يصدر عن الإيمان إلا وله المكافأة والجزاء العظيمان، وفي ذلك اليوم الأبدي، وقد حق للأسقف العظيم باشفورد والذي كان مرسلا في الصين إذ يجيب على من سأله ذات يوم قائلا: "لماذا وفي إمكانه أن يكون أسقفا عظيما في أمريكا، اختار أن يدفن نفسه في الصين؟" فجاء الجواب السريع: "لأني أؤمن بقيامة الأموات".وهل يمكن أن ينسى الله خدمة المحبة المجهدة الباذلة من اجله، الم يرها المسيح موجهة إليه شخصيا : "٣٥لأَنِّي جُعْتُ فَأَطْعَمْتُمُونِي. عَطِشْتُ فَسَقَيْتُمُونِي. كُنْتُ غَرِيباً فَآوَيْتُمُونِي. ٣٦عُرْيَاناً فَكَسَوْتُمُونِي. مَرِيضاً فَزُرْتُمُونِي. مَحْبُوساً فَأَتَيْتُمْ إِلَيَّ.. ٤٠فَيُجِيبُ الْمَلِكُ: الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: بِمَا أَنَّكُمْ فَعَلْتُمُوهُ بِأَحَدِ إِخْوَتِي هَؤُلاَءِ الأَصَاغِرِ فَبِي فَعَلْتُمْ." (مت٢٥: ٣٥، ٣٦، ٤٠)؟. وهل يتصور أن الله يغفل عن صبر المتألمين من اجله، الراجين إنصافه، الم يقل الرسول لذات التسالونيكيين : "٤حَتَّى إِنَّنَا نَحْنُ أَنْفُسَنَا نَفْتَخِرُ بِكُمْ فِي كَنَائِسِ اللهِ، مِنْ أَجْلِ صَبْرِكُمْ وَإِيمَانِكُمْ فِي جَمِيعِ اضْطِهَادَاتِكُمْ وَالضِّيقَاتِ الَّتِي تَحْتَمِلُونَهَا، ٥بَيِّنَةً عَلَى قَضَاءِ اللهِ الْعَادِلِ، أَنَّكُمْ

تُؤَهَّلُونَ لِمَلَكُوتِ اللهِ الَّذِي لأَجْلِهِ تَتَأَلَّمُونَ أيضا، ٦إذ هُوَ عَادِلٌ عِنْدَ اللهِ أَنَّ الَّذِينَ يُضَايِقُونَكُمْ يُجَازِيهِمْ ضِيقاً، ٧وَإِيَّاكُمُ الَّذِينَ تَتَضَايَقُونَ رَاحَةً مَعَنَا عِنْدَ اسْتِعْلاَنِ الرَّبِّ يَسُوعَ مِنَ السَّمَاءِ مَعَ مَلاَئِكَةِ قُوَّتِهِ."(٢تس١: ٤-٧).

أما دقة المكافأة فظاهرة من إنها ليست العظائم الأمور وأكبرها فحسب بل لأبسطها وأصغرها أيضا، إذ تشمل إطعام الجائع وإرواء العطشان وإيواء الغريب وكساء العريان وزيارة المريض وزيارة المحبوس وما أشبه أما مجدر العادية التي نسيها أصحابها مع الزمن، ولكن المسيح لم ينسها البتة، بل ادخرها لهم يوم الحساب، وإذ صح أن مكافأة الأرض قد تكون مقلوبة، فتعطي جزاء سنمار، إذ تعطي أو تحرم على غير أساس، أو قد تكون ناسية أو مقصرة لهذا السبب أو ذاك، فان مكافأة السماء هيهات أن تغفل أو تنسى أو تقصر على وجه الإطلاق!

أما مجد المكافأة فيجل على كل وصف أو خيال، إذ يكفي أن نعلم انه "الملكوت" الذي سينتهي إليه أولئك الذين عاشوا على الأرض مجهولين أو شبه مجهولين، بل أولئك الذين: "عُذِّبُوا وَلَمْ يَقْبَلُوا النَّجَاةَ لِكَيْ يَنَالُوا قِيَامَةً أَفْضَلَ. ٣٦وَآخَرُونَ تَجَرَّبُوا فِي هُزُءٍ وَجَلْدٍ، ثُمَّ فِي قُيُودٍ أيضا وَحَبْسٍ. ٣٧رُجِمُوا، نُشِرُوا، جُرِّبُوا، مَاتُوا قَتْلاً بِالسَّيْفِ، طَافُوا فِي جُلُودِ غَنَمٍ وَجُلُودِ مِعْزَى، مُعْتَازِينَ مَكْرُوبِينَ مُذَلِّينَ، ٣٨وَهُمْ لَمْ يَكُنِ الْعَالَمُ مُسْتَحِقّاً لَهُمْ. تَائِهِينَ فِي بَرَارِيَّ وَجِبَالٍ وَمَغَايِرَ وَشُقُوقِ الأَرْضِ.(عب١١: ٣٥-٣٨). وهو "الملكوت المعد" المرسوم والثابت في قصد الله الأزلي منذ تأسيس العالم أو في لغة أخرى هو الملكوت غير المحدث أو الطارئ، بل هو الملكوت الذي تسبق فيه "المكافأة" ذات "العمل" الذي ستكافأ عليه، ولا يمكن أن يحدث له هذا إلا من أبوة الله ومحبته العظيمة التي تفكر في مكافأة الأبناء قبل أن يقوموا بذات الأعمال التي سيكافئون عنها ويثابون!!..

٣- دينونة الأشرار

ومن الجانب الأخر هناك دينونة الأشرار والآثمة، ومن سمات هذه الدينونة إنها:

أولا: تتناول جميع من عجزت الأرض أن يدينهم أو تقضي عليهم، فافلتوا من هذا أو ذاك من أي عقوبة أرضية، وفي مقدمتهم إبليس وملائكته، الذي كان من المحال أن تعاقبه الأرض، والملوك والطغاة وغيرهم ممن عجزت يد الناس من الوصول إليهم وبقوا أخر الحياة فوق متناول السلطان البشري!!..

وثانيا: تحضر كل عمل قام به كل مولود امرأة، خفيا كان أم منظورا، أمام عدالة الله العظيمة الكاملة كما يقول الجامعة: "١٤لأَنَّ اللَّهَ يُحْضِرُ كُلَّ عَمَلٍ إِلَى الدَّيْنُونَةِ عَلَى كُلِّ خَفِيٍّ إِنْ كَانَ خَيْراً أَوْ شَرّاً."(جا ١٢ : ١٤) أو كما يقول الرسول:" ١٠لأَنَّهُ لاَ بُدَّ أَنَّنَا جَمِيعاً نُظْهَرُ أَمَامَ كُرْسِيِّ الْمَسِيحِ، لِيَنَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مَا كَانَ بِالْجَسَدِ بِحَسَبِ مَا صَنَعَ، خَيْراً كَانَ أَمْ شَرّاً. (٢كو٥: ١٠). وإذا جاز للجرائم البشرية أن يمتنع عن تقديمها للمحاكمة أو تسقط عقوبتها بمضي المدة، فان أية معصية بشرية تأتي للدينونة مهما طال عليها الزمن أو طوتها العصور والأجيال!!..

وثالثا: تتناول هذه الدينونة أكثر من ذلك، الأفكار والسرائر، إذ يقول الرسول بولس أيضا : "١٦فِي الْيَوْمِ الَّذِي فِيهِ يَدِينُ اللهُ سَرَائِرَ النَّاسِ حَسَبَ إِنْجِيلِي بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ."(رو٢: ١٦). وإذا كان من المسلم به في القوانين الأرضية إن أية أفكار تفلت من العقوبة مادامت لا تظهر في المجتمع بمظهر عملي على أسلوب ما، إلا إن القوانين الإلهية تحاسب على الفكر الملوث النظر الشرير، والنية السيئة، حتى ولو لم يحس بها احد إطلاقا من الناس.

ورابعا: وبالإضافة إلى هذا كله تحاكم هذه الدينونة على السلبية إزاء الواجب، إذ لا يكفي أن يعاقب المسيح المسيحي على كل عمل شرير ارتكبه، بل أكثر من ذلك يعاقب على كل واجب مهمل أو متروك، ومن ثم نجده يكشف الأشرار يوم الدين، الواجبات التي امتنعوا عنها ولم يفعلوها: " لأني جعت فلم تطعموني، عطشت فلم تسقوني، كنت غريبا فلم تأوني، عريانا فلم تكسوني، مريضا ومحبوسا فلم تزوروني" (مت٢٥: ٤٢-٤٣) ولا يجديهم القول: ": يَارَبُّ مَتَى رَأَيْنَاكَ جَائِعاً أَو عَطْشَاناً أَو غَرِيباً أَو عُرْيَاناً أَو مَرِيضاً أَو مَحْبُوساً وَلَمْ نَخْدِمْكَ؟."(مت٢٥: ٤٤)كما لم يجد صاحب الوزنة الواحدة التي أخفاها دون أن يعمل بها أو يتجر أو يربح!

وأخيرا فان هذه الدينونة تسير سيرا طرديا مع مدى ما للإنسان من معرفة ونور وامتياز، أو كما قال السيد المسيح: "٤٨وَلكِنَّ الَّذِي لاَ يَعْلَمُ وَيَفْعَلُ مَا يَسْتَحِقُّ ضَرَبَاتٍ يُضْرَبُ قَلِيلاً. فَكُلُّ مَنْ أُعْطِيَ كَثِيراً يُطْلَبُ مِنْهُ كَثِيرٌ وَمَنْ يُودِعُونَهُ كَثِيراً يُطَالِبُونَهُ بِأَكْثَرَ." (لو١٢: ٤٨) أو كما ذكر الرسول بولس: "١٢لأَنَّ كُلَّ مَنْ أَخْطَأَ بِدُونِ النَّامُوسِ فَبِدُونِ النَّامُوسِ يَهْلِكُ وَكُلُّ مَنْ أَخْطَأَ فِي النَّامُوسِ فَبِالنَّامُوسِ يُدَانُ."(رو٢: ١٢). وهذا حق إذ ليس يعقل أن يطالب الله الإنسان البدائي الساذج المحدود المعرفة أو النور، بما يطال به الأخر المتحضر الواسع الإدراك والفهم.. ومن هنا يتفاوت العذاب ويختلف، كما يحدث بين أي شخصين مختلفي الحياة والإدراك والطباع والتربية ويرتكبان جريمة واحدة أو أثما واحدا!!..

هذه هي السمات العامة للدينونة وهي عل أي حال مخيفة ورهيبة، ومن ثم فلا عجب أن يواجهها الخطاة صارخين: "١٦وَهُمْ يَقُولُونَ لِلْجِبَالِ وَالصُّخُورِ: «اسْقُطِي عَلَيْنَا وَأَخْفِينَا عَنْ وَجْهِ الْجَالِسِ عَلَى الْعَرْشِ وَعَنْ غَضَبِ الْحَمَلِ، ١٧لأَنَّهُ قَدْ جَاءَ يَوْمُ غَضَبِهِ الْعَظِيمُ. وَمَنْ يَسْتَطِيعُ الْوُقُوفَ؟» (رؤ ٦: ١٦، ١٧).. حقا "مخيف هو الوقوع بين يدي الله الحي" (عب١٠: ٣١).

رابعا -أبدية السماء والجحيم

هذا أخر ما ينتهي به الحديث عن الأبدية، وهذا واضح من النص الصريح للمسيح: "٤٦فَيَمْضِي هؤُلاَءِ إِلَى عَذَابٍ أَبَدِيٍّ وَالأَبْرَارُ إِلَى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ». (مت٢٥: ٤٦)ولعله من اللازم الإشارة إلى الحياة الأبدية والعذاب الأبدي كل على حدة!!..

١- الحياة الأبدية في السماء

وقبل أن نسأل عن الحياة الأبدية وكيف تكون بالنسبة للمؤمنين، جدير بنا أن نتوقف قليلا لنسأل: ما هي السماء؟ هل هي حالة أم مكان؟ والواضح إن السماء لابد أن تكون الاثنين معا، إذ هي أولا وقبل كل شيء "حالة" وهذا مستفاد من ذات اللفظ "السماء" مما يشير إلى الارتفاع، وبالمقابلة مع الانخفاض الذي يحمله لفظ الدنيا في الأرض، ولا يمكن أن يؤهل الإنسان للسماء ما لم يتغير إلى تلك "الحالة" عينها، ومن ثم يستحيل على الجسد المادي والحيواني الصعود أغليها والوصول إلى مراقبها ما لم يصبح جسدا وروحا ممجدا، إذ لا يرث الفساد عدم فساد.. على إنها إلى جانب ذلك هي " مكان" ولا يمكن إلا أن تكون مكانا، وإلا فإلى أين ذهب اخنوخ أو موسى أو إيليا أو المسيح عندما صعد بجسده العظيم الممجد، ثم إلى أين ذهب بولس عندما اختطف إلى السماء الثالثة إلى الفردوس، ليسمع "كلمات لا ينطق بها ولا يسوغ لإنسان أن يتكلم بها" (٢كو:١٢!-٣)!!؟. ولئن كان من العسير مع ذلك أن نفهم معنى السماء الأولى، والأرض الأولى في قول الرائي: "١ثُمَّ رَأَيْتُ سَمَاءً جَدِيدَةً وَأَرْضاً جَدِيدَةً، لأَنَّ السَّمَاءَ الأُولَى وَالأَرْضَ الأُولَى مَضَتَا، وَالْبَحْرُ لاَ يُوجَدُ فِي مَا بَعْدُ."(رؤ٢١:!). إلا انه يبدو إن كل شيء

سيتغير بتمام الفداء وتحرر المؤمنين إلى الأبد من الخطية، وما خلفت أو تركت من اثأر، وان الإنسان المفدي سيحيى ما يطلق عليه " الحياة الأبدية ".. وسمات هذه الحياة:

أولا: إنها "حياة" وهذا ما يفرق بينها وبين معيشة إنسان على الأرض، إذ نحن لا نعيش في الحاضر "الحياة" بل نعيش على هامش الحياة على "هامش الحياة" أو في "ظل الحياة".. أما "حقيقة الحياة" فلا يبدؤها الإنسان إلا بتمام الفداء في المجد، ولهذا السبب تأتي الإشارة إليها مرات كثيرة مجردة كالقول: وخير لك أن تدخل الحياة" (مت١٨ :٨) "إن أردت أن تدخل الحياة فأحفظ الوصايا" (مت١٩: ١٧) "الذي لا يؤمن بالابن لن يرى الحياة" (يو٩: ٢٥).. وهكذا.. في الواقع أننا لن نتذوقها إلا هناك.. وهذه الحياة أيضا كما هو ظاهر "حياة أبدية" لا تنتهي إذ لفظها مرادف للخلود، ولا يمكن أن تتعرض للوقتية أو القصر أو الضعف أو الذبول.. وهي حياة الكمال في كل ما للكمال من بهاء وجلال، إذ هي حياة كمال المعرفة أو كما يقول الرسول: "الآن اعرف بعض المعرفة لكن حينئذ سأعرف كما عرفت" (١كو١٣: ١٢) وكمال القوة إذ يضحى الإنسان يومئذاك اقوي من الملائكة بما لا يقاس وتنطلق فيه طاقة مذهلة عجيبة يعجز كل خيال عن إدراكها أو تصورها، كالقول انه يستطيع الانتقال من أقصى السماوات إلى أقصاها في لمح البصر، كما تستطيع عيناه أن ترى إلى أبعاد وآماد لا تخطر بالبال!!.. كما يستطيع أن ينجز من الأعمال ما لا تستطيع الملائكة أن تقوم به على فرط قوتها وعظمتها!!..

وهي حياة السعادة التي لا توصف. كيف لا والمؤمنون لا يمكن أن يتفرقوا فيها فيما بعد عن الله : "٣وَسَمِعْتُ صَوْتاً عَظِيماً مِنَ السَّمَاءِ قَائِلاً: «هُوَذَا مَسْكَنُ اللهِ مَعَ النَّاسِ، وَهُوَ سَيَسْكُنُ مَعَهُمْ، وَهُمْ يَكُونُونَ لَهُ شَعْباً. وَاللهُ نَفْسُهُ يَكُونُ مَعَهُمْ إِلَهاً لَهُمْ. ٤وَسَيَمْسَحُ اللهُ كُلَّ دَمْعَةٍ مِنْ عُيُونِهِمْ، وَالْمَوْتُ لاَ يَكُونُ فِي مَا بَعْدُ، وَلاَ يَكُونُ حُزْنٌ وَلاَ صُرَاخٌ وَلاَ وَجَعٌ فِي مَا بَعْدُ، لأَنَّ الأُمُورَ الأُولَى قَدْ مَضَتْ». (رؤ٢١: ٣، ٤). "٤وَهُمْ سَيَنْظُرُونَ وَجْهَهُ، وَاسْمُهُ عَلَى جِبَاهِهِمْ. ٥وَلاَ يَكُونُ لَيْلٌ هُنَاكَ، وَلاَ يَحْتَاجُونَ إِلَى سِرَاجٍ أَوْ نُورِ شَمْسٍ، لأَنَّ الرَّبَّ الإِلَهَ يُنِيرُ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ سَيَمْلِكُونَ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ."(رؤ٢٢: ٤، ٥).

وهي حياة الخدمة المجيدة السرمدية: "وعبيده يخدمونه" (رؤ٣:٢٢) ومع إننا لا نعرف كنة هذه الخدمة أو مداها أو أمجدها، إلا انه يمكن أن يقال إنها الحياة التي يؤتمن فيها المؤمن على الكثير بالنسبة للقليل الذي كان بين يديه على الأرض، كما قال السيد: "كنت أمينا على القليل فأقيمك على الكثير، ادخل إلى فرح سيدك" (مت٢٥: ٤١).. وهذا يبدد ما يمكن أن يرسب في الأذهان من إن السماء مكان جمود وخمود وكسل، في الواقع إن الإنسان لا يمكن أن يعرف حقيقة النشاط والحمية والاجتهاد والخدمة قبل أن يصل إلى السماء والمجد، ولعله من المناسب أن نشير ههنا إلى جماعة من الرهبان كانت تقرا ذات يوم سفر الرؤية وأخذت تناقش فيما بينها عن أفضل عد في هذا السفر، فقال حدهما انه الوعد القائل وسيمسح الله كل دمعة من عيونهم" (رؤ٢١: ٤). وقال أخر كلا بل انه الوعد القائل : "من يغلب فسأعطيه أن يجلس معي في عرشي" (رؤ٣: ٢١) وقال الثالث وكان توما القمبيزي: "وعبيده يخدمونه" (رؤ٢٢: ٣).

وأخر الكل حياة المجد، ومع إن كل من في الأبدية سيمتلؤن ولا شك بالسعادة التي لا توصف، إلا إنهم مع ذلك يختلفون في مجدهم بعضهم عن البعض " لان نجما يمتاز عن نجم في المجد" (١كو١٥: ٤١) وقد بين السيد المسيح أن في السماء "منازل كثيرة" وان الجلوس عن يمينه وعن يساره سيتم وفقا للترتيب الإلهي العظيم، وان كان هذا الترتيب يخضع أولا وأخيرا لمشيئة الله الحكيمة المحتومة، إلا انه يبدو متجاوبا مع ما بذل الإنسان من جهاد على الأرض، وما له من قابلية واتساع في تقبل هذا المجد، وكما انه يمكنك أن تملا أواني أو أماكن مختلفة فارغة حتى أخرها، إلا إن قابلية الامتلاء تتحدد بمقدار ما لها من حيز

أو سعة، فالدورق والجدول والترعة والنهر والبحر والمحيط يمكن أن تمتلئ جميعا حتى النهاية، ولكن القابلية في كل منهم تختلف ولا شك عن الأخرى، والله يجهز قابلية كل إنسان للمجد السماوي بنوع ومقدار الجهد الذي يبذله المرء هنا في حياته على الأرض. ومن ثم فان كان جميع المؤمنين يمتلؤن بفرح لا ينطق به ومجيد، إلا إن قابلية الفرح في كل منهم تختلف عن الأخر، وطوبى لمن يذكر هذا فيجهز نفسه لقابلية أوفى واجل وأعظم بالخدمة الباذلة المخلصة والمستمرة على هذه الأرض!!..

٢- العذاب الأبدي في الجحيم

وإذا كانت السماء كما اشرنا حالة ومكانا، فلابد أن يكون بالمقابلة الجحيم أيضا. أما إن الجحيم مكان فهذا واضح من قول السيد المسيح عن الغني: " فرفع عينيه إلى الهاوية".. "لأني لي خمسة إخوة حتى يشهد لهم لكيلا يأتوا هم أيضا إلى موضع العذاب في الهاوية" (لو١٦: ٢٣، ٢٨) أما انه حالة فلأنه مرادف على الدوام لأقسى تعاسة وشقاء وشدة يمكن أن يصل إليها لإنسان، فهو "الهاوية" و "الموت الثاني" و "الظلمة الخارجية" و "الدينونة الأبدية" و "جهنم" وما أشبه من كتابات ورموز. وقد دعي الجحيم "جهنم" مثلا لان هذا اللفظ الأخير كان يطلق على وادي ابن هنوم الواقع إلى الجنوب من أورشليم، وكان واديا ملعونا تقذف إليه جميع قاذورات المدينة وأوساخها، وكان مباءة للديدان والجراثيم، تشعل فيه نيران على الدوام رغم الظلمة الضاربة عليه، لامتداده وعمقه. ومن ثم كان أصلح مثل وارهبه لموضع العذاب الذي لا ينتهي للأشرار في مصيرهم التعس الأبدي!!..

ومع انه ليس من السهل على اللغة البشرية أن تصف قسوة هذا العذاب ورهبته وشدته، إلا انه من الممكن أن يقال بكل يقين انه فوق كل تصور وخيال، كيف لا وقد فقد الإنسان فيه كل عماد ارضي وكل شركة إلهية وكل رجاء منتظر، وأضحت تلاحقه إلى الأبد عذابات الضمير من غير نوم أو هدوء أو موت!!..

على انه من الواجب أن نشير هنا إلى العذابات التي يعانيها الهالكون تختلف شدة ودرجة كما سبقت الإشارة تباعا لاختلاف المعرفة والإدراك والمسئولية عند الخطاة في الأرض، الم يقل السيد المسيح لمدن كورزين وبيت صيدا وكفر ناحوم: "«وَيْلٌ لكِ يَا كُورَزِينُ! وَيْلٌ لكِ يَا بَيْتَ صَيْدَا! لأَنَّهُ لوْ صُنِعَتْ فِي صُورَ وَصَيْدَاءَ الْقُوَّاتُ الْمَصْنُوعَةُ فِيكُمَا لَتَابَتَا قَدِيماً فِي الْمُسُوحِ وَالرَّمَادِ. ٢٢وَلَكِنْ أَقُولُ لكُمْ: إِنَّ صُورَ وَصَيْدَاءَ تَكُونُ لهُمَا حَالَةٌ أَكْثَرُ احْتِمَالاً يَوْمَ الدِّينِ مِمَّا لكُمَا. ٢٣وَأَنْتِ يَا كَفْرَنَاحُومَ الْمُرْتَفِعَةَ إِلَى السَّمَاءِ سَتُهْبَطِينَ إِلَى الهاوية. لأَنَّهُ لوْ صُنِعَتْ فِي سَدُومَ الْقُوَّاتُ الْمَصْنُوعَةُ فِيكِ لَبَقِيَتْ إِلَى الْيَوْمِ. ٢٤وَلَكِنْ أَقُولُ لكُمْ: إِنَّ أَرْضَ سَدُومَ تَكُونُ لهَا حَالَةٌ أَكْثَرُ احْتِمَالاً يَوْمَ الدِّينِ مِمَّا لكِ». (مت١١: ٢١-٢٤) وألم يقل أيضا لبيلاطس : "لذلك الذي أسلمني إليك له خطية أعظم " (يو١٩: ١١).

على انه في الوقت نفسه من الواجب أن نؤكد أيضا انه مهما يختلف العذاب فانه بالنسبة للجميع دائم وابدي. وكلام المسيح في هذا واضح صريح: "(مت٢٥: ٤٦) – فإذا كان اللفظ الذي يشير إلى الأبدية واحدا في الأصل اليوناني، وإذا كان من السلم به إن الحياة الأبدية لا يمكن أن تحد بزمن أو وقت، تعين التسليم بالمقارنة والمقابلة بلا نهاية العذاب الأبدي.. فإذا ما قال البعض: ولكن كيف يتفق هذا مع وجود الله ورحمته وحبه؟ اجبنا أولا إن النص الصريح يمنع كل اجتهاد أو تأويل، كما إننا لم نصل ثانية إلى المقدرة والاستعداد اللذين يؤهلاننا للحكم على الأعمال العليا التي يجريها الله، وإلا فمن يستطيع أن يفسر لنا كيف يتفق هذا الجود والرحمة والمحبة مع العذابات والآلام والتعاسات التي يعانيها البشر من مطلع تاريخهم إلى يوم القيامة؟!!.. ثم

هل ننسى أخر الأمر إن المسالة ليست محصورة في قسوة العقاب من عدمه، بل هي قائمة أولا وأخيرا في التنافر الأبدي بين الله والخطية، وان الإنسان الخاطئ الذي رفض الخلاص من الخطية لا يمكن أن يلتقي إلى الأبد بالله.. اجل ولقد حق لدانتي الليجيري أن يتصور باب الجحيم، وقد كتب عليه في قصة الكوميديا الإلهية: " أيها الداخل إلى هذا المكان، ينبغي عليك أن تهجر هنا كل رجاء ".

وأخر الأمر نعود مرة أخرى أن نشير إلى السؤال عن الأبدية هو من أهم وأدق واخطر الأسئلة التي ينبغي أن يتأملها الإنسان، وإذا كانوا قد قالوا إن فيليب المقدوني قد أمر احد عبيده أن يدخل إليه كل صباح وان يصرخ أمامه في أية حالة يكون وأمام أي ظرف قد يوجد فيه قائلا: أذكر يا فيليب انك لابد أن تموت" فان الصرخة ما تال موجهة إليك أيها القارئ، والسؤال مازال منتصبا أمام عينيك متحديا إياك قائلا: "أين تقضي الأبدية؟ "..

ليت جوابي وجوابك على الدوام : "مع المسيح ذاك أفضل جدا" آمين!!..